

المؤلفات شبه الكاملة

-1-



12-07-2017

محاضرات تمهيدية

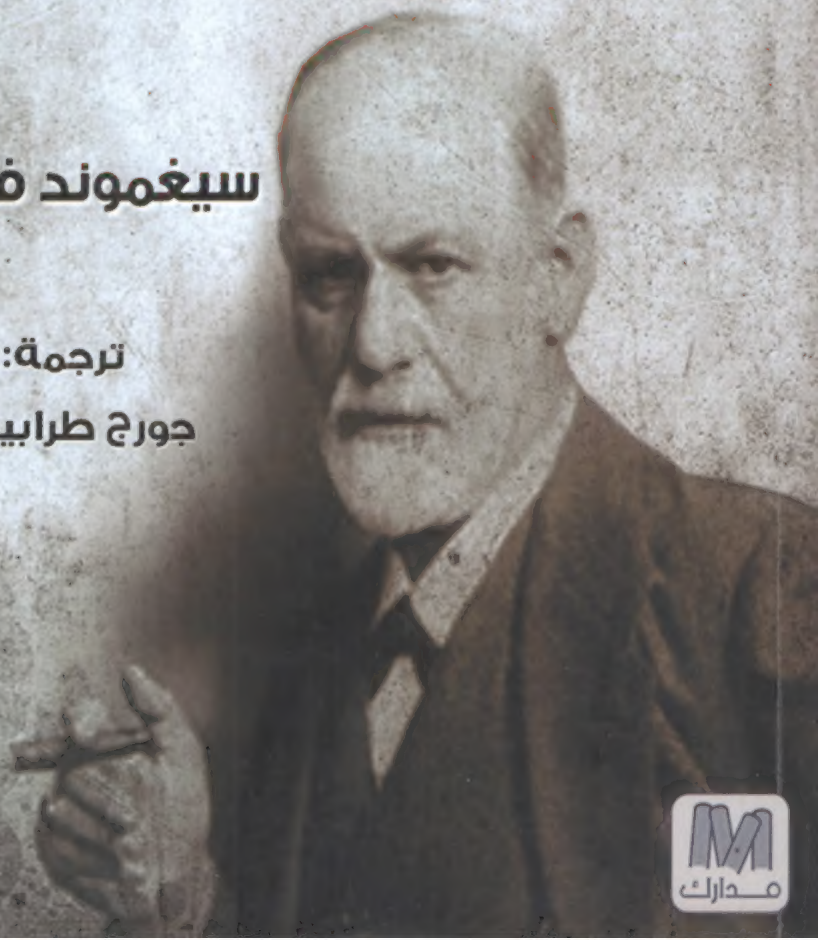
في

التحليل النفسي

سيغموند فرويد

ترجمة:

جورج طرابيشي



محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي

الكتاب: محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي

المؤلف: سيغموند فرويد

ترجمة: جورج طرابيشي

التصنيف: علم نفس

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: سبتمبر (أيلول) 2014

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: 5 - 324 - 22 - 9948 - 978 ISBN

طُبعت في مطابع المتحدة للطباعة والنشر United Printing & Publishing

الكتاب متوفر لدى معرض مدارك للنشر والتوزيع

الرياض، حي الحمدية، طريق الامام سعود بن عبد العزيز



عنوان المعرض

Madarek مدارك

Madarek Publishing House

دار مدارك للنشر

www.mdrek.com or read@mdrek.com

مجمع الذهب والألماس، شارع الشيخ زايد، بناية رقم 3، مكتب رقم 3226، دبي - الإمارات العربية المتحدة
Gold and Diamond park, Sheikh Zayed Road, Bldg 3 Office 3226, Dubai - United Arab Emirates
P.O.Box: 333577, Dubai - UAE. Tel: +971 4 380 4774 Fax: +971 4 380 5977

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ مدارك. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من مدارك.



Madarekpublishing



@mdrekpublishing



www.mdrek.com



Madarek PH



madarekpublishing



سيغموند فرويد

المؤلفات شبه الكاملة
المجلد الأول

محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي

ترجمة جورج طرابيشي

فهرس المجلد الأول

| | |
|----|--|
| ١٣ | تقديم |
| ١٥ | المحاضرة الأولى - تمهيد |
| ٢٧ | المحاضرة الثانية - الهفوات |
| ٤٣ | المحاضرة الثالثة - الهفوات (تابع) |
| ٦٥ | المحاضرة الرابعة - الهفوات (خاتمة) |

الحلم

| | |
|-----|---|
| ٨٩ | المحاضرة الخامسة - صعوبات ومقاربات أولى |
| ١٠٩ | المحاضرة السادسة - منطلقات التأويل وتقنيته |
| ١٢٥ | المحاضرة السابعة - مضمون الحلم الظاهر وأفكاره الكامنة |
| ١٣٩ | المحاضرة الثامنة - الأحلام الطفلية |
| ١٥٣ | المحاضرة التاسعة - رقابة الحلم |
| ١٦٧ | المحاضرة العاشرة - الرمزية في الحلم |
| ١٩١ | المحاضرة الحادية عشرة - عمل الحلم |
| ٢٠٧ | المحاضرة الثانية عشرة - تحليل أمثلة من الأحلام |
| ٢٢٣ | المحاضرة الثالثة عشرة - السمات الأثرية والطفالية في الحلم |
| ٢٣٩ | المحاضرة الرابعة عشرة - تحقيق الرغبات |
| ٢٥٥ | المحاضرة الخامسة عشرة - شكوك وانتقادات |

النظرية العامة للأمراض العصبية

- المحاضرة السادسة عشرة - التحليل النفسي والطب النفسي ٢٧١
- المحاضرة السابعة عشرة - معنى الأعراض ٢٨٧
- المحاضرة الثامنة عشرة - التثبيت فعل رضى. اللا شعور ٣٠٥
- المحاضرة التاسعة عشرة - المقاومة والكبت ٣١٩
- المحاضرة العشرون - حياة الإنسان الجنسية ٣٣٧
- المحاضرة الحادية والعشرون - تطور الليبيدو والتنظيمات الجنسية ٣٥٧
- المحاضرة الثانية والعشرون - مظهران: التطور والنكوص. في أسباب نشوء الأعصاب ٣٧٩
- المحاضرة الثالثة والعشرون - طرق تكوّن الأعراض ٣٩٩
- المحاضرة الرابعة والعشرون - العصبية الشائعة ٤١٩
- المحاضرة الخامسة والعشرون - الحَصَر ٤٣٥
- المحاضرة السادسة والعشرون - نظرية الليبيدو و"الترجسية" ٤٥٥
- المحاضرة السابعة والعشرون - التحويل ٤٧٧
- المحاضرة الثامنة والعشرون - العلاج التحليلي ٤٩٧

الترجمة بين الخيانة والاجتهاد

إذا كان لا مفر لنا من التسليم، بالإحالة إلى القول السائر الإيطالي (Traduttore, traditore)، بأن الترجمة خيانة، فإن الترجمة عن الترجمة خيانة مضاعفة. ذلك أن المسافة التي تفصل لا محالة النص المترجم عن النص الأصلي تتضاعف في حال المرور بلغة وسيطة بين اللغة الأصلية للنص وبين اللغة المترجم إليها.

ولكن على حين أن الخيانة لا تقبل أي تبرير من وجهة نظر الوطنية، فإن الترجمة، أو حتى الترجمة عن الترجمة، قد تجد من وجهة نظر ثقافية، حاجة ليس من سبيل إلى سدّها عن طريق آخر بحكم المعطى الحيو - ثقافي.

فلئن تكن الثقافة العربية، التي هي نموذج منقطع النظير لثقافة تراثية، لم يُقَيِّض لها أن تتصل بالحدث إلا من خلال الوساطة اللغوية لأكثر قوتين إمبرياليتين في العصر الحديث، أي الإنكليزية والفرنسية، فإن المرحلة الاستقلالية، التي بات لها من العمر اليوم ثلاثة أرباع القرن، لم تستطع، إلا في حالات استثنائية، أن تكسر طوق ذلك الاحتكار اللغوي الذي فرضه المستعمر الأنغلو - فرنسي، إن لم يكن عن سبق قصد، فعلى كل حال نزولاً عند مقتضيات الأمر الواقع.

على هذا النحو، وباستثناء حالات فردية نادرة، فإن علاقة الثقافة العربية الحديثة بالثقافة العالمية بقيت ملزمة بالمرور بالإنبيق اللغوي الأنغلو/ فرنسي حتى في حال التعاطي مع الثقافات الأوروبية التي لا تنتمي إلى لغة المستعمر السابق مثل الألمانية أو السويدية أو اليونانية.

وفي حالة فرويد خاصة والتحليل النفسي إجمالاً كان الخيار ذا حدين لا ثالث لهما: إما أن تبقى الثقافة العربية في حال من القطيعة مع ذلك الفتح العلمي

الكبير الذي مثلته الفرويدية، وإما أن تنهل بدورها من معين هذا الفتح ولو عن طريق لغة وسيطة، مع كل ما يترتب على الترجمة عن ترجمة من مخاطر الابتعاد عن حرف النص الأصلي، إن لم يكن عن روحه.

زد على ذلك أن اللغة الألمانية التي بها كتب فرويد ومعظم رواد التحليل النفسي من غير الألمان تختلف بنيةً وروحاً وحرفاً اختلافاً غير هيئ عن الوساطة اللغوية شبه الإجبارية كما تتمثل بالإنكليزية أو الفرنسية.

ومع ذلك، كان الخيار يفرض نفسه فرضاً: فليس لأي ثقافة معاصرة أن تفتح لنفسها قفل الحداثة وهي تفتقد مفتاحاً أساسياً من مفاتيحه كما يتمثل بالتحليل النفسي، الفرويدي منه وغير الفرويدي على حدّ سواء. ومن هنا كانت مغامرة القرار الذي اتخذته قبل نحو من أربعة عقود بتقديم مؤلفات فرويد العربية ولو بالترجمة عن الترجمة الفرنسية لمؤلفاته والذي تمخض خلال عقد السبعينات ومطلع الثمانينات من القرن الماضي عن ترجمة أو تعريب ثلاثين وثييف عنواناً من مؤلفات فرويد التي تناهز الأربعين.

ولئن انقطع منذ منتصف الثمانينات نهائياً عن الترجمة لأنصرف إلى التأليف، فقد جاء اقتراح دار مدارك ومؤسستها الزميل تركي الدخيل بإعادة نشر مؤلفاتي وما لم يفقد راهنته من ترجماتي ليتيح لي فرصة ثمينة لإعادة النظر في ترجماتي للنصوص الفرويدية. ذلك أنه صدرت باللغة الفرنسية خلال العشرين سنة الأخيرة ترجمات جديدة ومتعددة لمؤلفات فرويد، بلغ عددها بالنسبة إلى الكتاب الواحد في بعض الحالات ثلاث أو أربع ترجمات، فضلاً عن صدور ترجمة جديدة وكاملة لأعماله من قبل فريق عمل واحد في عشرين مجلداً.

والحال أنه بالاستناد إلى جدلية تشبه ما عرفته الثقافة العربية الحديثة من جدلية الترجمة والتعريب تميّزت الترجمات الفرنسية الجديدة عن القديمة بحرصها على حرف النص الألماني الأصلي بقدر ما تميّزت القديمة بالحرص على أداء المعنى بلغة مفهومة للقارئ المعاصر. ومن هذا المنطلق، وبالاستناد إلى هذه الترجمات الحديثة المتعددة للنص الواحد، قمت بمراجعة شاملة، وجذرية أحياناً، لترجمتي السابقة لمؤلفات فرويد محاولاً التوفيق، بالقدر المستطاع، وبالقدر الذي تتيحه اللغة

العربية، بين روح النص الفرويدي وحرفه الذي هو على درجة عالية من الرهافة والدقة المفهومية - شبه المستغلقة أحياناً - في آن واحد.

وقد انتهزت فرصة هذه المراجعة الشاملة لترجماتي السابقة لأقدم في الهوامش شروحاً بيانية لا بأسماء الأعلام وحدها - وما أكثرها في النصوص الفرويدية - بل كذلك بجميع الوقائع التاريخية والإحالات الثقافية التي قد لا يكون للقارئ العربي المعاصر من منفذ مباشر إليها.

وبدون أن نماري في صحة القول المأثور الإيطالي عن الترجمة = الخيانة، فلنقل إن الترجمة هي أيضاً اجتهد، أو باستعارة تعريف أبي حيان التوحيدي المشهور للنقد، هي كلام ثانٍ على كلام أول ولكن بلغة أخرى.

باريس في ٢٥ أيار/ مايو ٢٠١٤

جورج طراييشي

محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي

تقديم

في الفصلين الدراسيين من شتاء ١٩١٥ - ١٩١٦ وشتاء ١٩١٦ - ١٩١٧، وتحت عنوان محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، ألقى فرويد في أحد مدرجات عيادة الطب النفسي في المستشفى العام بجامعة فيينا ثمانين وعشرين محاضرة في ثلاث مجموعات، حضرها أطباء وطلاب طب من الجنسين ومستمعون من سائر الكليات الأخرى تراوح تعدادهم بين ستين ومئة مستمع.

وقد ارتجل محاضرات الفصل الأول ارتجالاً، أما محاضرات الفصل الثاني فقد كتبها في أثناء اصطيفاه في سالزبورغ، ثم ألقاها بنصها في الشتاء التالي.

وبديهي أن هذه المحاضرات، التي تحتوي على أوفى خلاصة للتحليل النفسي بقلم مبدعه، تبقى متعينة بالزمن الذي كُتبت فيه. فلئن كانت تعكس بأمانة مدى التطور الذي أصابته إلى حينه نظرية التحليل النفسي وممارسته فليس ينبغي أن يغيب عنا أن علم نفس اللاشعور أصاب منذ زمن كتابتها، وعلى امتداد ربع القرن التالي، تطوراً مرموقاً، وهذا ما سيحمل فرويد نفسه على استكمال المحاضرات الثماني والعشرين بسبع محاضرات جديدة كتبها ولم يلقها في عام ١٩٣٢ تحت عنوان محاضرات تمهيدية جديدة في التحليل النفسي ليستكمل ما طرأ من جديد على العلم الجديد. وهي محاضرات سننشر ترجمتها في جزء تالي من مؤلفات فرويد شبه الكاملة هذه.

أما المحاضرات الثماني والعشرون الأولى التي بين يدي القارئ هنا فهي تنقسم من حيث خطتها وبنائها - وإن كانت تؤلف كلاً متكاملاً - إلى أقسام ثلاثة متميزة:

١ - مدخل إلى التحليل النفسي، ويتألف من محاضرة مدخلية، ومن ثلاث محاضرات حول علم نفس الهفوات.

٢ - الحلم، ويتألف من إحدى عشرة محاضرة تعرض لنظرية الحلم وآليته ورمزيته وتفسيره ووظيفته.

٣ - النظرية العامة للأمراض العصابية، ويتألف من ثلاث عشرة محاضرة تتناول الفارق بين الطب النفسي والتحليل النفسي، وتعرض لنظرية العصاب وآلية تكوين أعراض الأمراض النفسية وطريقة معالجتها.

يبقى أن نقول إننا كنا اعتمدنا في ترجمتنا الأولى لهذه المحاضرات على النص الفرنسي كما ترجمه مختص كبير في حينه في ترجمة النصوص الفرويدية هو سيرج يانكيليفتش الذي كان فرويد نفسه يراجع بعض ترجماته ويعطي موافقته عليها. ولكن كما تقدم البيان فقد صدرت في الآونة الأخيرة ترجمات جديدة رجعنا إليها لتعديل ترجمتنا السابقة ولندخل عليها كل التعديلات - الجذرية أحياناً - التي ارتأينا أنها ضرورية لتقريب النص العربي من النص الألماني. ونخصّ هنا بالذكر الترجمة الجماعية الجديدة التي قام بها فريق عمل مؤلف من أندريه بورغينيون وجان جلبير ديلازير ودانييل هارتمان وفرانسوا روبرت تحت إشراف جان لابلاش المسؤول العلمي عن الترجمة الجديدة لـ أعمال فرويد الكاملة الصادرة عن المنشورات الجامعية الفرنسية في عشرين مجلداً بين ١٩٩٥ و ٢٠١٠، والتي تتميز بالحرص على حرف النص الأصلي بقدر ما كانت الترجمة الأولى تحرص على أداء المعنى؛ وهذا إلى حدّ يبيح لنا القول إن الثقافة الفرنسية عرفت بدورها في مواجهة مهمة ترجمة مؤلفات فرويد إشكالية ماثلة لتلك التي كانت واجهتها الثقافة العربية من خلال ما أسميناه بجدلية التعريب والترجمة. فالسابقون من مترجمي فرويد كانوا أحرص على الفرنسيّة بينما يدلّل اللاحقون منهم على حرص أكبر على الترجمة، وبالتالي على الأمانة لحرف النصّ الأصلي، ولو على حساب الأناقة والسلاسة في التعبير.

ج. ط

المحاضرة الأولى

تمهيد

سيداتى وسادتى، لست أدري مبلغ ما تناهى إلى علمكم من أمر التحليل النفسي عن طريق مطالعاتكم أو بالسماع. لكن عنوان هذه المحاضرات بالذات: **مدخل إلى التحليل النفسي**، يلزمني بأن أتناول الموضوع كما لو أنكم لا تعرفون عنه شيئاً وكما لو أنكم بحاجة إلى الإلمام بعناصره الأولية.

على أنه لا مناص لي من الافتراض بأنكم تعرفون أن التحليل النفسي طريقة في المعالجة الطبية للأشخاص المصابين بأمراض عصبية. فإذا ما سلّمنا بذلك، أمكنتني للحال أن أبين لكم من خلال مثال محدد أن الأمور لا تسير هنا مسارها في سائر فروع الطب، هذا إن لم نقل إنها تسلك اتجاهاً معاكساً. فلقد جرت بنا العادة، حين نعالج مريضاً من المرضى بتقنية طبية جديدة هو بها جاهل، أن نهوّن من محاذيرها وأخطارها في نظره وأن نؤكد له، ما وسعنا، حتمية نجاح المعالجة. وأعتقد أنه من الحق سلوك هذا المسلك، فبه تزداد في أرجح الظن فرص النجاح. لكننا نسلك غير هذا السبيل حين نستخدم التحليل النفسي في معالجة المريض العصابي. فنحن نطلعه في هذه الحال على صعوبات هذه الطريقة وما تقتضيه من وقت وجهود وتضحيات؛ أما عن النتيجة فنقول إنه لا يسعنا أن نقطع له وعداً، وإنها مرهونة بمسلك المريض نفسه وبذكائه وصبره وإذعانه لما يطلب منه. وغني عن البيان أن ثمة أسباباً وجيئة - قد تدركون أهميتها لاحقاً - تملي علينا سلوك هذا المسلك غير المألوف.

وإني لأستحيحكم عذراً إن بدأت بمعاملتكم معاملتى لأولئك المرضى العصابين. ونصيحتي إليكم ألا تأتوا للاستماع إليّ مرة أخرى. ولهذا بالتحديد سأبين لكم كل ما يشوب تعليم التحليل النفسي بالضرورة من نواقص وعيوب،

وكل الصعاب التي تعترض سبيل من ينبغي تكوين حكم شخصي في هذا الموضوع. سأبين لكم أن ثقافتكم السابقة كلها وأن طرائقكم في التفكير قد جعلت منكم ولا بد خصوماً للتحليل النفسي، وسأوضح لكم ما ينبغي أن تقهروه في أنفسكم كيما تتغلبوا على هذا العداء المسبق. ولا يسعني بالطبع أن أتنبأ لكم بما ستفيدونه من محاضراتي هذه من منظور فهم التحليل النفسي واستيعابه، غير أنني أستطيع بكل تأكيد أن أعدكم بأن حضوركم هذه المحاضرات لن يكون كافياً لتكتسبوا القدرة على القيام ببحث أو بعلاج تحليلي نفسي. وإن يكن بينكم من لا يقنع بمعرفة سطحية بالتحليل النفسي، ومن قد تسوّل له نفسه أن يعقد وإياه صلة دائمة، فلن أمتنع عن تشجيعه على ذلك فحسب، بل سأحذّره بصورة مباشرة من محاولة كهذه. ذلك أن من يعنّ له أن يختار، في الظروف الحاضرة، هذه المهمة يكون قد قضى على كل فرصة له في النجاح الجامعي، وسيجد نفسه، بصفته طبيباً ممارساً، وسط معشر لا يفهمون مقاصده، فيسيئون به الظن، وينظرون إليه بعين الرية والعداء، وقد لا يترددون في أن يطلقوا ضده كل الأرواح الشريرة التي يختزنونها في قمقم أنفسهم. ولعله يسعكم أن تكونوا صورة تقريبية عن عدد هذه الأرواح الشريرة بمجرد تفكيركم بما يواكب هذه الحرب التي تعصف اليوم بأوروبا من وقائع^(١).

ومع ذلك، إن من الناس من ينجذب إلى كل معرفة جديدة، رغم كل المحاذير التي أُلعت إليها. فإن كان بينكم من ينتمي إلى هذه الفئة من الناس ويرغب في القدوم إلى هذا المكان ثانية، من دون أن تثبّط تحذيراتي هذه عزمته، فأهلاً به ومرحباً. لكن من حقكم جميعاً أن تحاطوا علماً بالصعاب التي تكتنف التحليل النفسي والتي سأعرضها فيما يلي.

تتصل الصعوبة الأولى بطريقة تعليم التحليل النفسي بالذات. فقد اعتدتم، في دراستكم الطب، أن تروا وتعاينوا. فأنتم تتأملون الرسوم والنماذج التشريرية، وترسبات التفاعلات الكيمائية، وتقلص العضلة بفعل تنبيه أعصابها. وفي وقت

١ - فرويد ألقى محاضراته هذه في شتاء ١٩١٥. «م».

لاحق تتصلون مباشرة بالمريض، وتتقرون أعراض دائه، وتتلّمسون عقايل مرضه، بل كثيراً ما توضع تحت أنظاركم مباشرة، في حالة منعزلة، الجرثومة التي تسببت بالمرض. ومن اختص منكم بالجراحة، حضر العمليات التي تُجرى للمريض، وقد يتوجب عليه أيضاً أن يحاول القيام بها بنفسه. وحتى في طب الأمراض النفسية، يمدّكم مرأى المريض، بما يطرأ على سحنته من تقلبات وبما يصدر عنه في كلامه وسلوكه، بجملته من الملاحظات التي تترك في نفوسكم انطباعات عميقة ودائماً. على هذا النحو يؤدي مدرّس الطب دور مرشد وترجمان ويرافقكم كما لو عبر متحف من المتاحف، فيما أنتم تتصلون اتصالاً مباشراً بالأشياء وتتصورون أنكم اكتسبتم، بخبرتكم الشخصية، اليقين بوجود الوقائع الجديدة.

من سوء الحظ أن الأمور تجري غير هذا المجرى في التحليل النفسي. فالمعالجة التحليلية النفسية لا تشتمل إلا على تبادل كلام بين المحلل والطبيب. إذ يتكلم المريض، ويروي أحداث حياته الماضية وانطباعاته الحاضرة، ويتشكى، ويعترف برغائبه وانفعالاته. ويسعى الطبيب إلى توجيه مسار أفكار المريض، ويوقظ ذكرياته، ويوجّه انتباهه في وجهة معينة، ويقدم له تفسيرات، ويرصد ما يثيره على هذا النحو لدى المريض من ردود فعل تنم عن فهم أو عدم فهم. ثم إن أهل مرضانا وأقاربهم، وهم من غير أهل الاختصاص، لا يصدّقون إلا ما هو منظور وملموس، بل لا يقنعون إلا بمثل المشاهد التي تتوالى على شاشة آلة العرض السينمائي، ولا يمسون عن إبداء تشكّكهم في نفع طريقة للعلاج لا تعدو أن تكون محض «كلام بكلام». والحق أن نقداً كهذا غير منطقي ولا ينم عن نباهة. أفليس هؤلاء الناس هم أنفسهم من يعلمون علم اليقين أن المرضى «يتخيّلون»، ليس إلا، ما يتتابه من أعراض؟ لقد كانت الكلمات في ماضي الأزمنة تُدرج في عداد السحر، ولا تزال الكلمة تحتفظ إلى يومنا هذا بقدر كبير من قوتها السحرية السالفة. فبالكلمات يستطيع المرء أن يسعد نظيره أو أن يدفع به إلى هوة اليأس، وبالكلمات ينقل المعلّم علمه إلى تلاميذه، وبها يستحوذ الخطيب على ألباب سامعيه ويوجّه أحكامهم وقراراتهم. وتثير الكلمات انفعالات، وهي للناس الوسيلة العامة للتأثير في بعضهم بعضاً. فلنحاذر إذاً أن نتقص من القيمة التي

يمكن أن تكون لاستخدام الكلام في التطبيب النفسي، ولنعرف كيف نغير آذاناً صاغية لما يدور من كلام بين المحلل والمريض.

لكن ذلك ليس متاحاً لنا على كل حال. فالتحادث الذي على أساسه يقوم التحليل النفسي لا يتحمل وجود سامعين، ولا يصلح ما يجري في العيادة للتمثيل أمام شهود. صحيح أننا نستطيع أن نعرض على تلاميذنا، في أثناء درس في الطب النفسي، مريضاً بالنوراستينيا أو مصاباً بالهستيريا^(٢)، فيفصح أمامهم عما يشكو منه ويسرد تفاصيل أعراضه. لكن ذلك سيكون كل شيء. أما المعلومات التي يحتاجها المحلل فلن يفضي بها المريض إلا إذا ساوره إزاء الطبيب شعور بعاطفة خاصة؛ لكنه سيلزم الصمت إذا ما أنس وجود شاهد واحد لا يأبه له. وآية ذلك أن هذه المعلومات تتصل بأخص الخصوصيات في حياة المريض النفسية، بكل ما يتوجب عليه، بصفته شخصاً اجتماعياً مستقلاً بذاته، أن يخفيه عن الآخرين، وأخيراً بكل ما لا يريد الإقرار به، حتى بينه وبين نفسه، بوصفه شخصاً يعي فرادته.

يتعذر عليكم إذاً أن تحضروا كمستمعين جلسة للمعالجة التحليلية النفسية. وكل ما يسعكم هو الاستماع إلى ما يقال عنها، ولن يكون في استطاعتكم أن تعرفوا التحليل النفسي إلا سماعاً ليس إلا. وتعدُّر حصولكم على معلومات إلا بطريق غير مباشر يضعكم في شروط غير مألوفة لتكوين حكم. إذ سيكون كل شيء رهناً إلى حدٍّ بعيد بمدى الثقة التي يوحى بها إليكم من يزودكم بالمعلومات.

تخيّلوا لهنيئة من الزمن أنكم تستمعون، لا إلى محاضرة في الطب النفسي، بل إلى محاضرة في التاريخ، وأن المحاضر يحدّثكم عن حياة الإسكندر الأكبر وفتوحاته. فما الأسباب التي ستحملكم، والحالة هذه، على تصديق صحة ما يرويه؟ للوهنة الأولى، يبدو أن الوضع أقلّ مؤاتاة مما في التحليل النفسي، على اعتبار أن أستاذ التاريخ لم يشارك، مثله مثلكم، في حملات الإسكندر، بينما يحدّثكم المحلل النفسي على كل حال عن وقائع لعب فيها هو نفسه دوراً. لكن

٢ - النهك العصبي والهرع على التوالي بحسب المصطلحات التي يعتمدها القاموس الطبي العربي. «م».



هنا يطرأ عامل يوجب عليكم أن تمحضوا المؤرخ ثقتكم. إذ يسعه أن يحيلكم إلى روايات قدامى الكتاب، ممن عاصروا الأحداث المشار إليها، أو كانوا قراباً إليها في الزمن، أي إلى كتب فلوطرخوس^(٣) وديودورس^(٤) وأريانس^(٥)، إلخ؛ كما يسعه أن يعرض عليكم نسخاً من النقود أو من تماثيل الملك، وصورة فوتوغرافية لفسيفساء مدينة بومباي التي تمثل موقعة إيسوس^(٦). والحق أن هذه الوثائق جميعها تثبت فقط أن أجيالاً سابقة قد آمنت بوجود الإسكندر وبحقيقة فتوحاته، وهذه مسألة قد تكون لكم بمثابة منطلق جديد إلى ممارسة نقدكم. إذ قد تجدون في أنفسكم ميلاً إلى الاستنتاج بأن كل ما روي عن الإسكندر ليس أهلاً للتصديق أو أنه لا يمكن القطع بيقين بصدد تفاصيله كافة؛ ومع ذلك لا تصوّركم مغادرين قاعة المحاضرات وأنتم ترتابون في أن يكون الإسكندر الأكبر قد وجد فعلاً وواقعاً. وقراركم سيعيّن اعتباران رئيسيان: أولهما أن المحاضر ليس لديه من سبب معقول يحمله على إقناعكم بواقعية شيء لا يؤمن هو نفسه بواقعيته، وثانيهما أن جميع كتب التاريخ التي بين أيدينا تعرض الأحداث عرضاً شبه متطابق. فإذا تنطعتم بعد ذلك لتمحيص أقدم المراجع، أخذتم باعتباركم العاملين نفسيهما، أعني الدوافع التي أملت على الكتاب ما كتبه، والتوافق بين شهاداتهم. وفي حالة الإسكندر ستكون نتيجة الامتحان إيجابية بكل تأكيد، لكنها قد لا تكون كذلك في حالات غيره من الشخصيات من أمثال موسى أو نمرود^(٧). أما الشكوك التي قد تساوركم حيال مدى مصداقية ما قد يرويه محلل

٣ - فلوطرخوس: كاتب إغريقي (نحو ٥٠ - ١٢٥)، عاش في روما وجال في الشرق، كتب كتباً كثيرة، من أشهرها سير العظماء. «م».

٤ - ديودورس الصقلي: مؤرخ إغريقي من القرن الأول ق.م، مؤلف المكتبة التاريخية، وفيها يسرد وقائع التاريخ منذ العصور السحيقة وانتهاء بالعالم ٦٠ ق.م. «م».

٥ - فلافيوس أريانس: مؤرخ إغريقي من القرن الثاني ب.م، له كتاب تاريخي عن الإسكندر المقدوني. «م».

٦ - إيسوس: مدينة قديمة في آسيا الصغرى في كيليكية، قهر الإسكندر فيها إمبراطور الفرس داريوس الثالث سنة ٣٣٣ ق.م. «م».

٧ - نمرود: ملك خرافي تأتي بذكره كثرة من الأساطير العربية والفارسية التي تجعل منه مؤسس مملكة بابل، ويعرفه سفر التكوين بأنه ابن كوش بن حام. «م».

من المحللين النفسيين عن حالة بعينها، فلن يتأتى لكم أن تحسموا أمرها إلى الحد الذي يحظى باقتناعكم إلا في فرص لاحقة.

من حقكم الآن أن تسألوني: إذا لم يكن ثمة من معيار موضوعي للفصل في صحة ما يقوله التحليل النفسي، وإذا لم يكن ثمة من إمكانية لاتخاذ موضوعاً للتجريب، فكيف السبيل إلى تعلم التحليل النفسي والتحقق من صحة مدعاه؟ بالفعل، ما هذا التعلم بسهل، وقليلون هم من تعلموا التحليل النفسي بصورة منتظمة. لكن هذا لا يعني أنه ليس ثمة من سبيل ومداخل إلى هذا التعلم. فالمرء يتعلم التحليل النفسي أولاً بتطبيقه على نفسه، وبدراسته شخصيته الخاصة. وليس هذا على وجه الدقة ما يسمى بملاحظة الذات لذاتها، ولكننا نستطيع عند الاقتضاء أن نردّ إلى هذه الملاحظة الدراسة التي نحن بصدد الكلام عنها. إن ثمة طائفة من ظاهرات نفسية متواترة ومعروفة للكثرة من الناس يمكن أن تتخذ موضوعاً للتحليل الذاتي متى ما تدرب الإنسان قليلاً على تقنيته. وعن هذا السبيل يتأتى له أن يظفر بالاقتناع المنشود بصحة السيرورات التي يصفها التحليل النفسي وبصوابية تصوراتهِ. غير أنه يجدر بنا التنويه بأنه ليس للإنسان أن يتوقع، إذا ما سلك هذا السبيل، إحراز تقدم كبير. بل هو سيحرز تقدماً أكبر بكثير فيما لو وضع نفسه تحت تصرف محلّ كفؤ ليقوم بتحليله، وفيما لو رصد في أنه بالذات أثر التحليل النفسي واهتبل هذه الفرصة ليستوعب تقنية هذه الطريقة بجميع دقائقها. وغني عن البيان أن هذا النهج الممتاز لا يمكن لغير شخص مفرد أن ينهجه، وبالتالي ليس ثمة من سبيل إلى تطبيقه على كامل المجموعة التي يتألف منها تلاميذ صف من الصفوف.

أما الصعوبة الثانية التي تعترض سبيلكم إلى التحليل النفسي فلا تتصل به بقدر ما تتصل بكم، أنتم أنفسكم، وذلك بقدر ما يكون تمّ لكم تحصيله من دراساتكم الطبية السالفة. فالتعليم الذي تلقيتموه حتى الآن وجّه فكيركم في اتجاه معيّن يبعد الشكّة كثيراً بينكم وبين التحليل النفسي. فقد عودوكم على أن تعزوا إلى وظائف الجسم واضطراباتِها عللاً تشريحية، وعلى تفسيرها على ضوء الكيمياء والفيزياء، وعلى تصورها من المنظور البيولوجي، ولم يوجهوا اهتمامكم قط إلى

الحياة النفسية التي فيها يبلغ أداء جسمنا - الرائع التعقيد - لوظائفه أوجه وذروته. ولهذا انقطعت الأسباب بينكم وبين الطريقة السيكولوجية في التفكير، ولهذا أيضاً درجتم على النظر إلى هذه الطريقة بعين الريبة، فأنكرتم عليها كل صفة علمية وتركتهم أمرها لغير أهل العلم وللشعراء وفلاسفة الطبيعة والمتصوفة. وهذا الانحداد ضارٌّ بكل تأكيد بمهنتكم الطبية، لأن المريض يعرض عليكم، أول ما يعرض، كما هي الحال في جميع العلائق الإنسانية، واجهته النفسية، وإنني لأخشى أن تكون عاقبة ذلك اضطراركم لأن تذروا لغير أهل العلم وللمبترئين والمتصوفة، الذين لا تنظرون إليهم إلا بعين الازدراء، جانباً غير هيّ من التأثير العلاجي الذي تسعون إلى ممارسته.

لست أجهل الأسباب التي قد تساق لتبرير هذه الثغرة في تدريسكم. ولئن ما زال يعوزنا شيء فهو ذلك العلم الفلسفي المساعد الذي يمكن أن يعينكم على تحقيق الغايات التي ترسمها مهنة الطب. فلا الفلسفة التأملية، ولا علم النفس الوصفي، ولا علم النفس المستقى بالتجريبي وذو الصلة بفيزيولوجيا الحواس، لا شيء من هذه جميعها، كما تُدرّس في المدارس، حقيق بأن يمدّكم بمعطيات مفيدة حول العلاقات بين الجسم والنفس وقمين بأن يهديكم إلى الطريق لفهم اضطراب من الاضطرابات النفسية. صحيح أن طب الأمراض النفسية يهتم، في إطار الطب بالذات، بوصف الاضطرابات النفسية التي يرصدها، وبجمعها في جداول سريرية، لكن أطباء الأمراض النفسية أنفسهم يتساءلون في لحظات صفوهم عما إذا كانت تصانيفهم الوصفية البحتة جذيرة باسم العلم. إننا لا نعرف أصل الأعراض التي تتألف منها تلك الجداول التصنيفية، ولا آليتها، ولا روابطها المتبادلة؛ وليس ثمة تطابق يمكن أن يقام عليه البرهان بين تلك الجداول وبين أي تبدل يطرأ على جهاز النفس التشريحي^(٨)؛ وأما التعديلات التي يقال لنا إنه يمكن إدخالها على تلك الجداول فهي لا تقدم أي تفسير للأعراض. والواقع أن هذه الاضطرابات النفسية لا تستجيب لأي مجهود علاجي إلا بقدر ما تؤلف محض عقبي ثانوية لإصابة عضوية ما.



إن هذه لثغرة يسعى التحليل النفسي إلى ردمها. فهو يريد أن يوفر لطب الأمراض النفسية الأساس السيكولوجي الذي يفقر إليه، ويأمل أن يكشف المضمار المشترك الكفيل بتعليل الترابط بين الاضطراب البدني والاضطراب النفسي. وتوصلاً إلى هذا الهدف، عليه أن يتعد عن كل مسلمة ذات صفة تشريحية أو كيميائية أو فيزيولوجية، وألا يعوّل في عمله إلا على مفاهيم سيكولوجية بحتة. ولهذا تحديداً أخشى أن يبدو لكم لأول وهلة غريباً.

أخيراً ثمة صعوبة ثالثة لن ألقى تبعثها عليكم ولا على طبيعة التدريس الذي تلقيتموه. ذلك أن من جملة مقدمات التحليل النفسي مقدمتين تثيران سخط الناس أجمعين وتجلب عليه الاستنكار العام: مقدمة تصطدم بحكم مسبق فكري، وأخرى بحكم مسبق جمالي/ أخلاقي. ولنحاذر الاستهانة بهذه الأحكام المسبقة: فهي على جانب من القوة، وقد تخلّفت عن أطوار مفيدة، بله ضرورة، من تطور البشرية. وهي تركز إلى قوى وجدانية، والنضال ضدها صعب وشاق.

إن السيرورات النفسية، بموجب أولى مقدمتي التحليل النفسي المثيرتين للاستهجان، هي في ذاتها ولذاتها^(٩) لا شعورية؛ وأما الشعورية منها فلا تعدو أن تكون أفعالاً منعزلة، شذرات من الحياة النفسية الشاملة. وعليكم أن تذكروا هنا أننا درجنا، على العكس، على المماهة بين النفسي والشعوري. ومن ثم، إن الشعور يتبدى لنا وكأنه هو السمة المميزة للنفسي وأنه بمثابة تعريف له، وأن قوام علم النفس بالتالي دراسة مضامين الشعور حصراً. بل إن تلك المماثلة تبدو لنا طبيعية للغاية، حتى لنعدّ كل اعتراض عليها ضرباً من العبث الذي لا طائل فيه. ومع ذلك لا يمكن للتحليل النفسي إلا أن يعترض على هذه المماهة بين النفسي والشعوري. ولئن كان يعرف النفسي بأنه يتألف من سيرورات تدخل ضمن نطاق العاطفة والفكر والإرادة، فلا مناص له من أن يؤكد أيضاً على وجود فكر لا شعوري وإرادة منبثقة عن اللاشعور. لكنه إذ يتقدم بهذا التعريف وهذا التوكيد يخسر سلفاً عطف جميع أصدقاء الوقار العلمي البارد، ويجزّ على نفسه الشبهة

٩ - في ذاتها ولذاتها: تعبير يقبسه فرويد من اللغة الفلسفية الألمانية السائدة في عصره. «م».

بأنه محض علم باطني وخيالي يريد أن يني في الظلام وأن يصطاد في الماء العكر. لكن لا يسعكم بعد بطبيعة الحال، أيها المستمعون الأعزاء، أن تفهموا بأي حق أطلق صفة الحكم المسبق على عبارة مجردة كذلك التي تقول إن «النفسي هو الشعوري»، كما لا يسعكم بعد أن تحزروا ما طبيعة التطور الذي أمكن له أن يفضي إلى نكران اللاشعور (على فرض أنه موجود) وما المكسب من مثل هذا النكران. وقد يبدو لكم الجدل فيما إذا كانت المطابقة بين النفسي والشعوري واجبة، أو الجدل فيما إذا كان من الضروري توسيع مدى النفسي إلى ما وراء حدود الشعوري، ضرباً من السفسطة والمماحكة لا طائل فيه، لكن بوسعي أن أؤكد لكم أن الاعتراف بالسيرورات النفسية اللاشعورية يدشن اتجاهاً جديداً وفاصلاً في العالم وفي العلم.

لا أخالكم تحزرون أيضاً الصلة الوثيقة القائمة بين هذه الخطوة الجريئة الأولى التي خطاها التحليل النفسي وبين الخطوة التالية التي سأعرض لها الآن. فالأطروحة الثانية التي يتقدم بها التحليل النفسي على أنها اكتشاف من اكتشافاته تؤكد ما يلي: إن الحاثات *Motions* الغريزية التي يمكن وصفها بأنها جنسية محض، بالمعنى الضيق أو الواسع للكلمة، تلعب، بصفتها عللاً محدّدة للأمراض العصبية والنفسية، دوراً فائق الأهمية، لم يقدّر حتى يومنا هذا حقّ قدره. بل أكثر من ذلك: فالتحليل النفسي يؤكّد أن هذه الحاثات الجنسية عينها تسهم بقسط لا يستهان به في إبداعات العقل البشري في ميادين الثقافة والفن والحياة الاجتماعية.

وبحسب خبرتي، إن النفور الذي تثيره هذه النتيجة التي ينتهي إليها البحث التحليلي النفسي هو أهم سبب للمقاومات التي يصطدم بها. فهل لكم رغبة في أن تعرفوا كيف نفسر هذه الواقعة؟ إننا نعتقد أن الحضارة قد أبدعت تحت ضغط الضرورات الحيوية وعلى حساب إشباع الدوافع الغريزية، وأنها يعاد خلقها دوماً من جديد على المنوال نفسه إلى حدّ بعيد، إذ يقوم كل فرد جديد يرى النور في المجتمع البشري بتكرار التضحية بإشباعاته الغريزية لصالح المجموع. وتحتل الحاثات الجنسية، بين جملة القوى الغريزية المكبوح جماحها على هذا النحو، مكانة بارزة؛

فهي تتعرض لعملية إسماء Sublimation، أي أنها تتحول عن هدفها الجنسي وتوجه نحو أهداف اجتماعية أعلى لا تتصف بأية صفة جنسية. غير أن مثل هذا التنظيم لا يتمتع بصفة الثبات. فالدوافع الغريزية الجنسية يعسر ترويضها، وكل فرد يسهم في بناء الحضارة يكون عرضة لأن تتمرد دوافعه الغريزية الجنسية على هذا الكبت^(١٠). ولا يرى المجتمع من خطر يهدد حضارته أعظم من خطر اعتناق الدوافع الغريزية الجنسية ورجعتها إلى أهدافها الأولية. لذا لا يطيب للمجتمع أن يذكره أحد بهذا الجانب «الفاسق» من الأسس التي يقوم عليها وجوده؛ ولا مصلحة له على الإطلاق في الاعتراف بقوة الدوافع الغريزية الجنسية وفي إماطة اللثام لكل فرد عن أهمية الحياة الجنسية؛ وقد أخذ المجتمع، على العكس، بنهج في التربية يصرف الانتباه عن هذه الناحية. ولهذا لا يتحمل ولا يطبق تلك النتيجة التي انتهى إليها التحليل النفسي والتي نحن بصدد الكلام عنها؛ ومن ثم نراه يادر إلى وصفها بأنها مثيرة للاشمئزاز من وجهة النظر الجمالية، وبأنها مردولة مذمومة من وجهة النظر الأخلاقية، علاوة على خطورتها من النواحي الأخرى. لكن ليس بمثل هذا التأنيب والتعنيف يمكن إسقاط هذه أو تلك من النتائج الموضوعية التي ينتهي إليها البحث العلمي. وحتى يكون الاعتراض مقبولا، فلا بد أن ينقل إلى صعيد الفكر. والحال أن الطبيعة البشرية مجبولة على اعتبار ما لا تستسيغه ظلماً وجوراً. ومن ثم لا يشقّ عليها أن تجد حججاً تبرّر بها نفورها واشمئزازها. وعلى هذا النحو ينقلب ما هو مستكره في نظر المجتمع إلى باطل، وينبري هذا المجتمع عينه إلى محاربة حقائق التحليل النفسي لا بحجج منطقية وعينية، بل بذرائع وتعلات يستقيها من معين العاطفة والهوى، ويتشبّث بهذه الاعتراضات ويشهرها أحكاماً مسبقة رداً على كل من تسوّل نفسه له تفنيدها.

ويجدر بي أن ألفت انتباهكم، سيداتي وسادتي، إلى أننا حاذرنا الإغراض

١٠ - يؤثر فرويد في نصوصه جميعاً استعمال مصطلح الدوافع الغريزية بدل الغرائز لأن هذه الأخيرة أصدق على الحيوان المحكوم سلوكه بغريزته التي لا رادّ لها، على حين أن إشباع الدافع الغريزي لدى الإنسان - الراشد على الأقل - يبقى محكوماً بقدر أو بآخر بإرادته. «م».

والتحيز في صياغتنا هذه الأطروحة المختلف عليها. وقد كان هدفنا الأوضح أن نعرض حقيقة واقعة تراءى لنا أنه قد أمكننا الإحاطة بها بعد بحث شاق ومضن. ويخيل إلينا أنه من واجبنا، هذه المرة أيضاً، أن نحتج على أية محاولة للزج بالاعتبارات العملية في شؤون البحث العلمي، وهذا حتى قبل أن نتحقق مما إذا كانت تلك المخاوف التي باسمها يراد فرض تلك الاعتبارات علينا مبررة أم لا. تلکم هي بعض الصعاب التي قد تصطدمون بها إذا ما أردتم دراسة التحليل النفسي. ولعلها أكثر مما يطيقه مبتدئ. فإن لم تتهيئوا من احتمال مواجهتها، أمكننا أن نمضي في ما نحن فيه.

المحاضرة الثانية

الهفوات

سيداتي وسادتي، لن نبدأ اليوم بفروض، بل يبحث موضوعه جملة من ظاهرات شائعة، متواترة، لا تعار اهتماماً كافياً، ولا ضلع لها بالحالات المرضية، إذ نستطيع أن نلاحظها لدى كل إنسان معافى. إنها الظاهرات التي سنطلق عليها اسم جنس: **الهفوات** Actes manqués، والتي تحدث عندما ينطق المرء أو يكتب، عن انتباه أو بدون انتباه، كلمة غير تلك التي كان يريد أن ينطق بها أو يكتبها (زلة)؛ أو عندما يقرأ، في نص مطبوع أو مخطوط، كلمة غير تلك التي هي مطبوعة أو مسطورة (قراءة غالطة)؛ أو عندما يسمع شيئاً هو غير ما يقال له، من دون أن يكون مرء هذا السمع المغلوط إلى خلل عضوي في حاسة السمع. وثمة طائفة أخرى من هذه الظاهرات عينها قوامها النسيان، على أن يكون معلوماً أن هذا النسيان مؤقت، لا دائم، كما عندما يتعذر على المرء تذكر اسم يعرفه حق المعرفة ولا يلبث أن يهتدي إليه فعلاً في وقت لاحق، أو كما عندما ينسى الإنسان تنفيذ مشروع كان عقد العزم عليه ثم لا يعتم أن يتذكره لاحقاً، فيكون بذلك قد سها عنه لحين من الزمن ليس إلا. وثمة طائفة ثالثة من الظاهرات لا تنسم بهذا الطابع المؤقت، كما عندما لا يوفق واحدنا، مثلاً، إلى العثور على شيء كان قد حفظه في مكان ما؛ وتدخل في هذا الباب شتى حوادث تضييع الأشياء. وهذه ضروب من النسيان ندهش لها ونغتاظ لحدوثها، ولا نملك لها فهماً. وتتصل بهذه الحالات بعض الأخطاء التي يتجلى فيها من جديد الطابع المؤقت، كما عندما نتكهّن لحين من الزمن بأشياء كنا نعرف من قبل وسنعرف من بعد أنها ليست كما تنصورها. وبوسعنا، إذا شئنا، أن نضيف إلى جميع هذه الحالات جملة من ظاهرات مماثلة، تعرف بأسماء شتى.

وجميع هذه الحوادث تتصل فيما بينها بصلة قريى وثيقة تتجلى في أن جميع الألفاظ التي تفيد في الدلالة عليها بالألمانية تبدأ كلها بالسابقة Ver^(١). وهي جميعها حوادث لا تتصف بالأهمية، ولا تدوم إلا لمدة قصيرة في أغلب الأحيان، وليس لها دور كبير في حياة الناس. ونادراً ما يتسم بعضها بأهمية عملية، كما في حال تضييع الأشياء مثلاً. ولهذا لا توظف الاهتمام، ولا تثير إلا انفعالاً واهناً، إلخ.

هذه الظواهر هي إذاً ما أريد أن أحدثكم عنه. غير أنني أسمعكم تبدون من الآن تأففكم واعتراضكم: «إن العالم الخارجي الفسيح، وكذلك عالم الحياة النفسية الأقل فساحة، حافل بالألغاز العظيمة، ومضمار الاضطرابات النفسية حافل بالظواهر المدهشة التي تتطلب وتستأهل تفسيراً، فما الجدوى من هدر وقتنا في الانكباب على مثل هذه السفاسف؟ لو كان بوسعك أن تفسّر لنا كيف تقول الحال بإنسان سليم البصر والسمع إلى أن يرى في وضع النهار ويسمع أشياء لا وجود لها، ولماذا يترأى لفلان من الناس على حين بغتة أن أولئك الذين يحبهم ويقدمهم في المعزة على سواهم انقلبوا عليه يضطهدونه ويكيدون له، أو لماذا يلاحق أوهاماً لا يعجز حتى الطفل عن إدراك ما فيها من هراء وعبث، لو كان ذلك في مقدورك لقلنا إن التحليل النفسي يستأهل عناء دراسته. أما إذا كان كل ما يقدر عليه التحليل النفسي هو البحث عن السبب الذي جعل خطيباً في مآدبة ينطق يوماً بكلمة بدل أخرى، أو لماذا تعجز ربة البيت عن العثور على مفاتيحها، وغير ذلك من السفاسف، فإننا نصارحك القول، والحال هذه، بأن ثمة معضلات أخرى هي بوقتنا واهتمامنا أجدر».

وجوابي عليكم في هذه الحال: «صبراً سيداتي وسادتي! إن نقدكم لا يقوم، على ما يبدو لي، على أساس سليم. صحيح أن التحليل لا يستطيع أن يتباهى بأنه

١ - على سبيل المثال: Ver-Sprechen (قلّة لسان)، Ver-Lesen (قراءة مغلوطة)، Ver-Horon (خطأ في السمع)، Ver-Legen (تعدّد العثور على شيء بعد وضعه في مكان ما)، إلخ. وهذه تعابير لا مقابل لفظي لها في العربية أو في اللغات اللاتينية، وقد ترجم بعضهم الهفوات بمصطلح «الأفعال المحيطة»، وهي ترجمة حرفية لكلمة هفوات في اللغة الفرنسية: Actes Manqués. «م».

لم يول السفساف اهتمامه قط؛ فمواد ملاحظاته يستمدّها عادة من تلك الوقائع غير اللافتة للنظر التي تصدف عنها العلوم الأخرى وتعدّها مما لا يُعتدّ به، ويستقيها من نفايات عالم الظواهر. لكن ألا تخلطون في تقدّمكم بين أهمية المشكلات وبين ظاهر علاماتها؟ أليس ثمة أمور هامة لا تتظاهر، في بعض الظروف وفي بعض الأحيان، إلا من خلال علامات طفيفة غير ذات شأن؟ وليس أسهل عليّ من أن أضرب لكم طائفة من الأمثلة على مثل هذا الوضع. أفلا تستدلون من علامات تكاد لا تقع تحت حسّ أنكم، وأنتم على ما أنتم عليه من شباب وفتوة، قد حزتم رضى هذه الفتاة أو تلك؟ وهل تنتظرون، كيما تعرفوا ذلك، تصريحاً سافراً من جانبها، أو مبادرتها إلى معانقتكم بحرارة؟ ألا تكتفون، على العكس، بنظرة خاطفة، أو بإمءاءة عابرة، أو بمصافحة أطول بقليل من المعتاد؟ وحين تقومون، بصفتكم قضاة، بتحقيق في جريمة قتل، فهل تنتظرون أن يترك لكم القاتل صورته الشمسية في مكان الجريمة، وعليها عنوانه، أم تراكم تضطرون إلى الاكتفاء بآثار طفيفة، وعديمة الأهمية بحدّ ذاتها، للتوصل إلى معرفة هوية المجرم؟ خليق بنا إذاً ألا نزدري العلامات الصغيرة: فقد تهدينا إلى أشياء أجلّ شأنًا وأعظم أهمية. ثم إنني أرى كما ترون أن مشكلات العالم والعلم الكبرى هي الأولى بأن تستأثر باهتمامنا كله. غير أنه لا جدوى، في كثير من الأحيان، من عقد المرء العزم على تكريس جهده لدراسة هذه المشكلة الكبيرة أو تلك، إذ إنه لن يدري في هذه الحال في أي اتجاه ينبغي أن يوجه خطاه. والأقرب إلى الصواب والعقل في البحث العلمي أن يتصدى المرء لما يلفاه أمامه، لموضوعات تعرض نفسها من تلقاء نفسها لبحثه وتنقيبه. فإن فعل ذلك بجدّ، بدون أفكار مسبقة، وبدون آمال مسرفة، وإن واثاه نصيب من الحظ، فقد يفتح عمله الذي شرع به بلا ادعاء أو تبجح الطريق إلى دراسة العضلات الكبرى، وذلك لما بين الأشياء كلها، صغيرها وكبيرها، من روابط ووشائج.

هذا ما كان عليّ أن أقوله لكم حتى أبقى انتباهكم متيقظاً ساعة أشرع بالكلام عن تلك الهفوات العديمة الأهمية في الظاهر والتي تصدر عن أسوياء الناس. ولكن دعونا الآن نتوجّه بخطابنا إلى امرئ لا علاقة له على الإطلاق

بالتحليل النفسي، لنسأله أن يفسر لنا كيف تحدث هذه الأمور.

من المؤكد أنه سيحيننا بادئ الأمر بقوله: «هذه أشياء لا تستأهل أي تفسير؛ فهي حوادث تافهة». ترى ماذا يعني بقوله هذا؟ أترأه يزعم أن ثمة أحداثاً لا يعتدّ بها، وأنها لا تخضع للترابط المتحكم بصيرورة العالم، وأنه كان من الممكن أن تحدث وألا تحدث على حدّ سواء؟ لكننا لو حطّمنا الحتمية الكونية، ولو في نقطة واحدة من نقاطها، نكون قد قلبنا رأساً على عقب كل التصور العلمي للعالم. وعليّنا في هذه الحال أن نبين لصاحبنا أنه حتى التصور الديني للعالم أكثر تماسكاً منطقيّ حين يؤكد عبارة لا لبس فيها أن العصفور الدوري لا يسقط من عشه في السقف إلا بتدخل مقصود من المشيئة الإلهية. وهنا أتصور صديقنا يسك عن استخلاص النتيجة التي تترتب على جوابه الأول، ويعدّل رأيه، ويصرح قائلاً إنه لو انكبّ على دراسة هذه الأشياء لوجد لها بسرعة تفسيراً. فلا بد أنها اختلالات وظيفية زهيدة، أو اضطرابات بسيطة في النشاط النفسي يمكن بسهولة تحديد شروطها. فالمرء الذي ينطق نطقاً سليماً بوجه عام يمكن أن يخطئ في الكلام: ١ - متى كان متوعلك الصحة أو متعباً؛ ٢ - متى كان مهتاجاً؛ ٣ - متى كان مستغرقاً في أمور أخرى. وإثبات هذه التوكيدات ليس بالعسير. فقلّبات اللسان كثيرة الحدوث متى كان الإنسان متعباً، أو به صداع، أو على وشك أن تأخذه نوبة من نوبات وجع الرأس. وفي ظروف مشابهة يحدث للإنسان أن ينسى أسماء الأعلام. وكثيرون من الأشخاص يشعرون بأزوف نوبة الصداع لمجرد وقوعهم في مثل ذلك النسيان؛ كذلك عندما يكون المرء فريسة الانفعال والاهتياج فكثيراً ما تختلط عليه الأسماء والمسميات، فيغلط ويخطئ؛ وأكثر ما ينصبّ نسيانه على ما نوى القيام به من أفعال أو على قيامه بأفعال ما كان في نيته القيام بها ساعة يأخذه السهو والغفلة، أي ساعة يكون انتباهه مركّزاً على شيء آخر. ومن الأمثلة المعروفة على مثل هذا السهو والغفلة مثال الأستاذ كما تصوّره الأوراق الطائرة^(٢) عندما ينسى مظلمته ويأخذ قبعة غير قبعته لأنه كان

٢ - الأوراق الطائرة Fliegende Blätter: مجلة هزلية ألمانية صدرت في ميونيخ بين ١٨٤٥ - ١٩٤٤.



مستغرق الفكر في المشكلات التي سيعالجها في كتابه التالي. أما المشاريع التي يُعقد عليها العزم والوعود التي يُقطع بها العهد، ثم لا تلبث أن تُنتسى لأن أحداثاً قد استجدّت وحوّلت الانتباه على حين غرة في وجهة أخرى، فليس أسهل من أن يجد واحدنا أمثلة وفيرة لها في تجربته الخاصة.

قد يبدو لكم هذا واضحاً مفهوماً وبمناى عن كل اعتراض. وقد لا يكون على جانب كبير من الطرافة، أو على الأقل ليس بالقدر الذي كنا نتوقعه. فلننعم النظر إذاً في هذه التفاسير للهفوات. فالشروط التي يُفترض توفرها لحدوثها ليست جميعها من طبيعة واحدة. فتوعك الصحة واضطراب الدورة الدموية لهما دورهما كأسباب فيزيولوجية في الاختلال الذي قد يصيب الوظيفة السوية؛ بينما الاهتياج والتعب والسهو عوامل من نوع آخر، ويصّح وصفها بأنها نفسية/ فيزيولوجية. ومن السهل ترجمة هذه العوامل الأخيرة إلى صيغة نظرية. فالتعب، والسهو، وربما أيضاً التهيج العام، من شأنها أن تشتت الانتباه، فلا تعود الوظيفة المعنية تتلقى قدرأ كافياً من الانتباه، فيطراً عليها بسهولة خلل أو يتعذر أداؤها بالدقة المطلوبة. وقد يكون لانحراف الصحة العامة أو لتغيّر الدورة الدموية في الجهاز العصبي المركزي هذا المفعول عينه، إذ يؤثران بالكيفية نفسها على العامل الحاسم والأهم، أي توزّع الانتباه. إذاً، فهي في كل الأحوال ظاهرات متأتية عن اضطرابات في الانتباه، سواء أنشأت هذه الاضطرابات عن أسباب عضوية أم عن أسباب نفسية.

غير أن هذا كله ليس من شأنه أن يحفز اهتمامنا بالتحليل النفسي، وقد نكون لا تزال بنا رغبة في نقض أيدينا من هذا الموضوع. والحال أننا لو دققنا النظر في هذه الملاحظات تدقيقاً أكبر، لتبيّن لنا أن الهفوات لا تتمشى كلها مع نظرية الانتباه هذه، أو أنها على الأقل ليست قابلة جميعها للاستنتاج من هذه النظرية مباشرة. وسنلاحظ بوجه خاص أن هفوات ونسيانات تحدث أيضاً لدى أشخاص ليسوا بمتعبين أو ساهين أو مهتاجين، بل في حالة سوية من جميع الوجوه، اللهم إلا إذا عزونا إلى هؤلاء الأشخاص، وعلى وجه التحديد بسبب الهفوة التي صدرت عنهم، حالة من الاهتياج يأبون هم التسليم بها. ولا يخلو

الأمر من نزعة إلى التبسيط لو زعمنا أن زيادة الانتباه قيمة بتنفيذ أكثر إحكاماً لوظيفة من الوظائف، وأن نقصان الانتباه تترتب عليه بالتالي نتيجة معاكسة. فكثيرة هي الأعمال التي ينفذها المرء بصورة آلية أو بانتباه غير كاف، من دون أن يضّر ذلك بإحكامها. فالمتنزه، الذي لا يكاد يدري أين مقصده، يسلك على كل حال الطريق الصحيح ويصل إلى غايته بلا تردد. وعازف البيانو المدرب يضغط بأصابعه على الملامس الصحيحة من دون تفكير بها. صحيح أنه قد يتفق له أن يخطئ، لكن لو كان من شأن العزف الآلي أن يزيد من احتمال الوقوع في الخطأ لكان البارع بين العازفين هو أكثرهم عرضة للوقوع في الخطأ باعتبار أن عزفه أسمى بعد طول تدريب آلياً صرفاً. وإنه ليتبين لنا، على العكس، أن الكثير من الأفعال تؤدّى بتوفيق كبير حينما لا تكون موضوع انتباه خاص، وأن الغلط قد يقع على وجه التحديد حينما يحرص المرء أشد الحرص على الأداء الأمثل، أي حينما يكون انتباهه كله مشدوداً إليه. وقد يقول قائلنا عندئذ عن الغلط إنه جاء نتيجة «التهيج». ولكن لم لا يكون هذا التهيج قميناً بالأحرى بتركيز الانتباه على العمل الذي يحيطه المرء بكل اهتمامه؟ فحين يزلّ بالإنسان لسانه في أثناء خطاب هام أو عملية تفاوضية وينطق بعكس ما كان يريد قوله، فإنه يرتكب خطأ يعسر علينا تفسيره بالنظرية النفسية/ الفيزيولوجية أو بنظرية الانتباه.

إن من جملة الهفوات هفوات تصاحبها ظواهر ثانوية صغيرة عديدة تعصى على الفهم ولا تريدها التفسير المعتمدة حتى الآن قابلية للفهم. فحين ينسى الإنسان على سبيل المثال كلمة من الكلمات بصورة مؤقتة، نراه يضيق ذرعاً، ويبدل قصاره ليتذكر الكلمة، ولا يقرّ له قرار ما لم يهتد إليها. فلم لا يفلح، رغم تلهفه وتحرقه، إلا فيما ندر، في تركيز انتباهه كله على الكلمة التي يقول هو نفسه إنها «على طرف لسانه»، والتي يستذكرها حالما يلتفت بها أحدهم أمامه؟ كما أن هناك حالات أخرى تتضاعف فيها الهفوات وتكثر، ويتشابك بعضها ببعض، ويقوم بعضها مقام بعض. فقد ينسى المرء، في مرة أولى، موعداً؛ وفي المرة الثانية، وبعد أن يكون قد عزم على ألا ينساه أبداً، يكتشف أنه قد أخطأ في

تسجيل الساعة المضروبة له. وقد يسعى أحدنا بكل ما أوتيته من حيلة إلى أن يتذكر كلمة منسية، فإذا بكلمة ثانية تفلت من ذاكرته مع أنها كان يمكن أن تفيده في استحضار الأولى؛ وإذا يشرع بالبحث عن هذه الكلمة الثانية، ينسى الثالثة، وهكذا دواليك. ومثل هذه المضاعفات قد تحدث أيضاً، كما نعلم، في الأخطاء المطبعية التي يمكن اعتبارها هفوات يقع فيها منضد الحروف في المطبعة. وقد وقعت في مثل هذا الغلط المعاند صحيفة اشتراكية - ديموقراطية. فقد جاء يوماً في تعليق لها على إحدى المظاهرات: «وكان بين الحضور سمو ولي العهد» (بدلاً من ولي العهد). وفي اليوم التالي، أرادت الصحيفة تصحيح خطأها والاعتذار عنه، فكتبت تقول: «كنا نقصد بطبيعة الحال ولي العهد» (هذه المرة أيضاً بدلاً من ولي العهد)^(٣). ويطيب لبعضهم في مثل هذه الأحوال أن يتكلم عن روح شرير يتحكم بالأخطاء المطبعية، عن غفريت صندوق الحروف، وكلها تعابير تتجاوز أقصى المدى الذي يمكن أن تصل إليه نظرية نفسية/فيزيولوجية خالصة عن الخطأ المطبعي.

لعلكم تعلمون أيضاً أن فلتات اللسان يمكن استحداثها بالإيحاء، نوعاً ما. وثمة نكتة حول الموضوع: فقد عُهد يوماً في عذرء أورليان^(٤) إلى ممثل ناشئ بإبلاغ الملك في موقف جدي من مواقف المسرحية بأن القائد العام يرد إليه سيفه^(٥). والحال أن أحد الممثلين الرئيسيين أراد أثناء التمرين أن يعاين الممثل المبتدئ، فلَقَّنه العبارة محرَّفة على النحو التالي: إن القَوَاد يردّ ضيفه. ويبدو أن هذا المزاح الثقيل أصاب هدفه: فقد نطق الممثل التعييس الحظ فعلاً بالعبارة المحرَّفة كما هي أثناء التمثيل الفعلي، وهذا بالرغم من التحذيرات التي تلقاها بهذا الخصوص، أو ربما بسبب هذه التحذيرات بالذات.

والحال أن جميع هذه التلاوين الجزئية المميّزة لكل هفوة للهفوات غير قابلة

٣ - نترجم هنا روح الهفوة، لا لفظها. وهذا ما سنفعله في كل الأمثلة المشابهة. «م».

٤ - مسرحية لشيلر استوحاها من حياة جان دارك. «م».

٥ - في الواقع إن من ينطق بهذه العبارة في مسرحية شيلر هو الملك شارل السابع نفسه. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

للتفسير بنظرية الانتباه المحوّل. غير أن هذا لا يعني أن هذه النظرية خاطئة. ولعلها بحاجة إلى تكملة كيما تكون مُرضية ومقبولة تماماً. على أن الكثير من الهفوات يمكن النظر إليها، مع ذلك، من وجهة نظر مغايرة.

لنتأمل من الهفوات تلك التي تلائم غرضنا أكثر من سواها: فلتات اللسان. ولقد كان يسعنا أن نختار بدلاً منها أغلاط الكتابة أو القراءة. وبهذا الصدد، يجب ألا يغيب عن بالنا أن السؤال الوحيد الذي طرحناه حتى الآن هو متى وفي أية شروط يفلت اللسان، وأنا لم نفرز بجواب إلا عن هذا السؤال وحده. لكن من الممكن أن ننظر في الشكل الذي تتلبسه الفتلة، والمفعول الذي ينجم عنها. وأنتم تدركون ولا بدّ أننا ما لم نجب عن هذا السؤال الأخير، وما لم نفسّر المفعول الذي يتأتى عن الفتلة، فستظل هذه الظاهرة حادثاً عارضاً من وجهة النظر السيكلوجية، حتى لو وجدنا لها تفسيرها الفيزيولوجي. وبديهي أن فتلة اللسان التي تصدر عني يمكن أن تتلبس ألف شكل وشكل؛ فمن الممكن أن ألفظ، بدلاً من الكلمة الصحيحة، آلفاً غيرها مما هو في غير محله، وأن أحرف الكلمة الصحيحة على ألف وجه. وعلى هذا، وعندما تصدر عني في موقف بعينه فتلة بعينها دون سواها من الفتلات المحتملة، فهل تقسرني على ذلك أسباب قاهرة، أم أن الأمر محض مصادفة اعتباطية، ومسألة لا تستتبع أي جواب معقول؟

حاول مؤلفان، هما السيد مرنغر Meringer والسيد ماير Mayer (الأول فقيه في اللغة، والثاني طبيب نفسي)، في عام ١٨٩٥ أن يطرقا من هذه الزاوية مسألة الأغلاط اللغوية^(٦). وقد جمعا أمثلة وعرضاها بادئ الأمر من وجهة نظر وصفية خالصة. وهما لم يقدّما بذلك، بطبيعة الحال، أي تفسير، لكنهما دلّانا إلى الطريق الذي يمكن أن يفضي إليه. فقد صنّفا التحريفات التي تصيب الخطاب القصدي ضمن الأبواب التالية:

٦ - رودلف مرنغر وكارل ماير: الغلط في الكلام والغلط في القراءة، دراسة نفسية/ لغوية، شتوتغارت ١٨٩٥. هامش الترجمة الجديدة الفرنسية.

أ - القلب؛ ب - الاستباق؛ ج - الاستلحاق؛ د - الإدغام؛ هـ - الإبدال.
وسأسوق لكم أمثلة على كل باب من هذه الأبواب. فمن القلب أن يقول قائل:
ميلو فينوس بدلاً من فينوس ميلو^(٧). ومن الاستباق قول القائل: ما أجثم الهَمَّ
الذي يجثم على صدري، بدلاً من: ما أثقل الهَمَّ الذي يجثم على صدري. ومن
الاستلحاق قول من يقول: أدعوكم إلى شرب شخب^(٨) رئيسنا، بدلاً من
نخب. وهذه الأشكال الثلاثة من الفلتات ليست كثيرة الذيوع. وبالمقابل تكثر
الفلتات التي تنجم عن تداخل كلمتين أو إدغامهما كأن يقول الفتى لفتاة
يعاكسها في الطريق: هل تسمحين لي بأن أرافقك في الطريق؟ فهنا حدث إدغام
بين كلمة أرافقك التي كان مفروضاً أن ينطق بها وبين كلمة نافق التي نطق بها،
والتي فيها إهانة الفتاة. وأقول بالمناسبة إن صاحبنا الفتى لم يقع بكل تأكيد موقع
رضا في عين فتاتنا. أما الإبدال أخيراً فسأضرب عليه مثلاً من الأمثلة التي جمعها
مرنغر وماير: «سأضع اللحم في علة البريد» بدلاً من: «سأضع اللحم في علة
الجليد».

أما التفسير الذي يحاول الباحثان المشار إليهما استخلاصه مما جمعهما من أمثلة
فيبدو لي غير كافٍ على الإطلاق. فهما يعتقدان أن أصوات اللفظة ومقاطعها
تتفاوت قيمة وأهمية، وأن تعصيب Innervation العنصر الأرفع في القيمة يمكن
أن يترك أثراً تشويشياً في تعصيب العناصر الأدنى في القيمة^(٩). وهذا في الحق لا
يسري إلا على البابين الثاني والثالث عند الاقتضاء، وهو على كل حال قليل
التواتر؛ أما في ضروب الفلتات الأخرى، فإن تغليب بعض الأصوات على غيرها،
على افتراض وجوده، لا يلعب أي دور على الإطلاق. فأكثر الفلتات تواتراً هي
تلك التي يهفو فيها اللسان بكلمة بدل أخرى مشابهة لها، وهذا التشابه يبدو
للكثيرين كافياً لتفسير الهفوة. من ذلك أن أستاذاً قال في درسه الأول: «لست
منكراً جمود الأستاذ الذي سبقني إلى تدريسكم»، وكان قصده أن يقول:

٧ - ميلو: جزيرة يونانية في بحر إيجه، اكتشف فيها سنة ١٨٢٠ تمثال الآلهة فينوس الشهير، فنسب إليها. «م».

٨ - شخب القتل: سال الدم من أوداجه. «م».

٩ - التعصيب: نمط اشتغال الجهاز العصبي أو جملة الوظائف العصبية. «م».

«لست منكراً جهود الأستاذ.. إلخ». وكذلك قول القائل: «أما فيما يتعلق بجهاز المرأة التناسلي، فرغم كل البحوث التي هاجت مؤخراً.. عفواً، رغم كل البحوث التي راجت مؤخراً...».

لكن الفلته الأكثر تواتراً والألفت للانتباه هي تلك التي يهفو فيها اللسان بالعكس تماماً مما كان يريد النطق به. ومن الواضح أن العلاقات الصوتية أو تأثيرات التشابه لا تلعب هنا سوى دور طفيف للغاية. فإذا استبعدنا هذين العاملين، جاز لنا أن نتوقف عند حقيقة معروفة، وهي أن الأضداد تقوم بينها وشائج متينة على صعيد التصور، وتكون قريبة إلى بعضها بعضاً غاية القرب من حيث التداعي أو الترابط السيكولوجي. وثمة أمثلة مشهورة في هذا الموضوع. فقد افتتح مرة رئيس مجلس النواب عندنا الجلسة بقوله: «سادتي، بالنظر إلى اكتمال النصاب، أعلن ارفضااض الجلسة».

والواقع أن أي شكل آخر من أشكال التداعي السهل قد يكون له ما لتداعي الأضداد من مفعول إذا جاء حدوثه في غير محله. مثلاً، إن العالم الفيزيولوجي المشهور ديويو - ريمون Du Bois - Reymond^(١٠) ألقى خطبة في مأدبة أقيمت بمناسبة زواج أحد أولاد هلمهولتز Helmholtz^(١١) من ابنة الصناعي المعروف إ. سيمنز Siemens، وأنهى كلمته الرائعة، كما هو مفروض، بالدعوة إلى شرب نخب «شركة سيمنز وهالسكه الجديدة». وكان يقصد بقوله هذا، بطبيعة الحال، شركة سيمنز/هالسكه القديمة^(١٢)؛ والربط بين هذين الإسمين لا بد أن يكون مألوفاً لدى جميع أبناء برلين مثلما هو مألوف لدى أهالي فيينا اسم ريدل/ بوتل Riedel/ Beutel^(١٣).

١٠ - إميل دي بوا - ريمون: عالم فيزيولوجي ألماني (١٨١٨ - ١٨٩٦)، من مؤسسي الفيزيولوجيا الكهربية. «م».

١١ - هرمان فون هلمهولتز: فيزيولوجي وفيزيائي ألماني (١٨٢١ - ١٨٩٤). من السباقين إلى القول بانخفاض الطاقة. «م».

١٢ - سيمنز: من كبريات الشركات الألمانية أسسها فرنر سيمنز سنة ١٨٤٧ بالشراكة مع صديقه يوهان هالسكه. «م».

١٣ - مخزن كبير للملابس الجاهزة في فيينا. «م».

وعليه لا بد أن ندخل في حسابنا، علاوة على العلاقات الصوتية بين الألفاظ وتشابهها، تأثير الجمع بينها. ولكن هذا أيضاً لا يكفي. فتمة طائفة بكاملها من الحالات لا يمكن تفسير الفلته فيها إلا إذا أخذت بعين الاعتبار العبارة التي كان المتكلم قد نطق بها أو حتى فكر بها قبل النطق بها. إذاً فهي بدورها من الحالات ذات المفعول الاستلحافي، شبيهة بتلك التي حدثنا عنها مرنغر، وإن تكن أوسع نطاقاً. وهنا لا أجد مناصاً من الاعتراف لكم بأنه يلوح لي، إذا ما أمعنا التفكير في كل ما تقدم، أننا أبعد الآن عن فهم الطبيعة الحقيقية لأغلاط اللسان مما كنا عليه من قبل.

غير أنني أخالني لا أخطئ إن زعمت أن الأمثلة التي سقناها على الهفوات في ما تقدم من بحثنا ترك لدينا انطباعاً جديداً حقيقياً بأن نوليها اهتمامنا. فقد بحثنا أولاً في الشروط التي تحدث فيها الفلته بصفة عامة، ثم درسنا العوامل التي تعين ما يطرأ من تحريف على اللفظة؛ لكننا لم ننظر إلى الآن في مفعول الفلته بحد ذاته، بصرف النظر عن الكيفية التي تحدث بها. فإن قوّ قرارنا على أن نفعل، رأينا أنفسنا مطالبين بأن تكون لنا الجرأة على التصريح بأن التحريف، الذي هو قوام الفلته، له في بعض الأمثلة التي سقناها مغزى. لكن ماذا نعني بقولنا: له مغزى؟ نعني أن مفعول الفلته قد يكون حقيقياً بأن نرى فيه فعلاً نفسياً تاماً، له هدفه الخاص، وتظاهرة لها مضمونها ومدلولها الخاصان. ونحن لم نتكلم حتى الآن إلا عن الهفوات، لكن يلوح الآن أن الهفوة قد تكون فعلاً صحيحاً تماماً^(١٤)، وكل ما هنالك أنه ناب مناب الفعل المنتظر أو المراد.

هذا المعنى اللصيق بالهفوة يتجلى للعيان في بعض الأحوال على نحو باهر لا يخطئه الإدراك. فإن يكن رئيس مجلس النواب قد أعلن، من أول عبارة نطق بها، ارفضاض الجلسة، بينما كان قصده الإعلان عن افتتاحها، فإننا نميل، نحن العارفين بالظروف التي حدثت فيها الفلته، إلى الافتراض بأن لهذه الهفوة معنى. فقد كان الرئيس لا يتأمل خيراً من الجلسة، وما كان ليسوءه لو استطاع رفعها.

١٤ - حتى نفهم دلالة هذا التعريف للهفوة بأنها فعل صحيح وتام ينبغي أن نأخذ في اعتبارنا أن الهفوة يقال لها بالفرنسية Acte manqué، أي حرفياً فعل ناقص أو محبط. (م).

ولا يعسر علينا البتة في هذه الحال أن نهتدي إلى مغزى الفلته المشار إليها وأن نفهم مدلولها. أو عندما تسأل سيدة سيدة أخرى في ظاهر من الاستحسان: هذه القبة الأنيقة لا بد أنك خربشتها (بدلاً من خيَّطتها) بنفسك، فليس لأي سلطة علمية في العالم أن تمنعنا من أن نفهم أن مقصدها هو أن تلك القبة في غاية من القبح في رأيها. وعندما تروي سيدة معروفة بتشبهها برأيها: «استشار زوجي طبيباً في نوع الحمية التي ينبغي عليه اتباعها، فأجابه الطبيب أن لا حاجة به إلى الحمية، وأنه يستطيع أن يأكل ويشرب ما أريده أنا»، فلا شك في أن في هذا القول فلتة، لكن هذه الفلته تمثّل تعبيراً سافراً لا يخطئه الإدراك عن طبيعة مسلك تلك السيدة حيال زوجها.

سيداتي سادتي، إذا ما تأكد لنا أن الفلّات ذات المغزى لا تشكل استثناء، بل هي على العكس كثيرة التواتر، تبدى لنا هذا المغزى، الذي لم نعره حتى الآن اهتماماً في كلامنا عن الهفوات، على أنه بالضرورة العنصر الذي له الصدارة على كل العناصر الأخرى، وجاز لنا أن نقدّمه في البحث عليها. وعندئذ يكون في وسعنا أن نضرب صفحاً عن جميع العوامل الفيزيولوجية والنفسية/ الفيزيولوجية، وأن نقصر اهتمامنا على البحث السيكلولوجي المحض في معنى الهفوات ومغزاها والنيات والمقاصد التي تشفّ عنها. وعليه، سنمضي قدماً إلى الأمام في تمحيص طائفة كبيرة من الأمثلة من هذا المنظور تحديداً.

لكن قبل أن نضع هذا المشروع موضع التنفيذ، أدعوكم إلى أن تسلكوا معي طريقاً آخر. فقد حدث لأكثر من شاعر أن استخدم الفلته أو غيرها من الهفوات وسيلة من وسائل الأداء الشعري. وفي هذا وحده ما ثبت لنا أن الشاعر يرى أن الهفوة، وعلى سبيل المثال فلتة اللسان، ليست خالية من المعنى، ولا سيما أنه يصطنعها عن قصد وعمد. ولن يدور في خلد أحد أن يفترض أن الشاعر أخطأ وعثر به قلمه أثناء الكتابة، وأنه ترك خطأه بلا تصحيح، فصار على هذا النحو فلتة على لسان البطل. وإنما قصد الشاعر من الفلته الإشارة من طرف خفي إلى شيء ما، كتنبيهنا إلى أن الشخص المذكور شارد اللب أو متعب أو على وشك أن يصاب بنوبة صداع. لكن حتى ولو استخدم الشاعر الفلته كما لو أنها كلمة

ذات معنى ومغزى، فإنه يجدر بنا ألا نغلو بطبيعة الحال في أهميتها. وفي الواقع، قد تكون الفلته مجردة من كل معنى، وقد لا تعدو أن تكون عارضا نفسياً، أو قد لا يكون لها من معنى إلا بصفة استثنائية، وهذا من دون أن ننكر على الشاعر حقه في تزويق إخراجها وتحميلها ما يتفق من المعاني مع الغرض الذي يرمي إليه. لا تعجبوا إذا إن صارحتكم بأنكم قد تجنون فائدة أكبر في هذا الموضوع لو قرأتم الشعراء بدل أن تدرسوا مؤلفات فقهاء اللغة وأطباء الأمراض النفسية.

لدينا مثال على فلته من هذا القبيل في فالنشتاين^(١٥) (آل بيكولوميني، الفصل الأول، المشهد الخامس). ففي المشهد السابق كان بيكولوميني^(١٦) قد دافع دفاعاً حاراً عن الدوق، فأشاد بمحاسن السلم ومزاياه التي فطن إليها خلال الرحلة التي قام بها ليواكب ابنة فالنشتاين إلى المعسكر. ثم يغادر خشبة المسرح تاركاً أباه ومبعوث البلاط الملكي في اندهال ووجوم شديدين. وعندئذ يجري المشهد الخامس على النحو الآتي:

كوستنبرغ^(١٧): تعساً لنا! أين وصل بنا الحال، يا صديقي؟ وهل ندعه يذهب بوهمه هذا، من دون أن ننبيه إليه وأن نفتح عينيه حالاً؟
أوكتافيو (يفيق من استغراقه في التفكير): عيناى مفتوحتان، وما أراه ليس مما يسرنى.

كوستنبرغ: ما الأمر، يا صديقي؟

١٥ - ألبريخت فالنشتاين: دوق ألماني من مواليد بوهيميا (١٥٨٣ - ١٦٣٤)، عمل في خدمة الإمبراطور الجرمانى وأبلى بلاءً حسناً في حرب الثلاثين عاماً. لكنه، طمعاً منه في عرش بوهيميا، تفاوض على عقد الصلح مع العدو، فأمر الإمبراطور باغتياله. وقد استوحى شيلر من قصة حياته ثلاثية مسرحية، مُثِّت في فايمر (١٧٩٨ - ١٧٩٩) وتألَّف من ثلاثة أجزاء: معسكر فالنشتاين، وآل بيكولوميني، وموت الدوق. «م».

١٦ - المقصود هنا بيكولوميني الفتى، ابن أوكتافيو بيكولوميني، وهو جنرال نمساوي من مواليد بيزا بإيطاليا (١٦٠٠ - ١٦٥٦)، لُعن اسمه في عدد من المعارك في حرب الثلاثين عاماً. «م».

١٧ - كوستنبرغ هو في مسرحية شيلر مبعوث الإمبراطور الجرمانى فردينان الثاني. «م».

أوكتافيو: لعن الله تلك الرحلة!

كوستنبرغ: لماذا؟ ما الخطب؟

أوكتافيو: تعال! ينبغي أن أتبع دون إبطاء هذا الأثر المشؤوم الذي أراه بعيني... تعال! (يهمّ باقتياده).

كوستنبرغ: ما بك؟ أين تريد الذهاب؟

أوكتافيو (في تعجل): إليها!

كوستنبرغ: إلى....

أوكتافيو (متداركاً): إلى الدوق! هيا!

كان أوكتافيو يريد أن يقول «إليه، إلى الدوق!». لكن لسانه هفا به؛ ويقول: إليها، أماط اللثام (لنا على الأقل) عن كونه أدرك تحت تأثير من صار المقاتل الشاب يحلم بمحاسن السلم.

لقد اكتشف أ. رانك^(١٨) Rank مثلاً أكثر روعة من هذا لدى شكسبير، وذلك في مسرحية تاجر البندقية، وعلى وجه التحديد في المشهد الشهير الذي يتعين فيه على العاشق المحظوظ أن يختار بين صناديق ثلاثة. وخير ما يمكن أن أفعله أن أقرأ عليكم الفقرة المقتضبة التالية مما كتبه رانك بصدد هذا الموضوع:

«يحتوي المشهد الثاني من الفصل الثالث من تاجر البندقية لشكسبير على مثال من فلتات اللسان يتم عن رهافة كبيرة في الحس الشعري وعن براعة كبيرة في الصنعة الفنية؛ وهو يثبت، نظير ذلك المثال الذي وجده فرويد في فالتشتاين (علم نفس أمراض الحياة اليومية)^(١٩)، الطبعة الثانية، ص ٤٨)، أن الشعراء

١٨ - أوتو رانك: طبيب نفسي (١٨٨٤ - ١٩٣٩)، كان لفترة طويلة من الزمن من تلاميذ فرويد الأوفياء. له دراسات تحليلية نفسية في الميتولوجيا، كما أدخل تطويراً على تفسير عقدة أوديب. من أشهر مؤلفاته أسطورة ميلاد البطل ورضة الميلاد. «م».

١٩ - كتاب لفرويد أصدره سنة ١٩٠١ ودرس فيه شتى أشكال الهفوات التي ترتكب في الحياة اليومية.

يعرفون حق المعرفة آلية هذه الهفوة ومغزاها، وأنهم يفترضون بالمشاهدين أيضاً المعرفة بهذا المغزى. فبورشيا، التي أرغمها أبوها على أن تختار زوجاً لها عن طريق القرعة، أفلحت، بما واثاها من حظ، في الإفلات من كل الذين تقدموا إلى خطبتها وما حازوا على رضاها. ثم لما وجدت أخيراً في باسانيو الخاطب الذي ترتضيه، بات تخشى أنت يسيء هو الآخر اختيار الصندوق. وكانت تتمنى لو تخبره بأنه حتى إن وقع له هذا فبوسعه الاطمئنان إلى حبها، لكن العهد الذي قطعت له لوالدها كان يمنعها من ذلك. وفيما هي فريسة هذا الصراع الداخلي، جعلها الشاعر تقول لخاطبها الغالي عندها:

«أرجوك أن تتمهل؛ اصبر يوماً أو يومين قبل أن تسلم أمرك للعبة الحظ؛ فلو أسأت الاختيار لفقدت عشرتك. تمهل إذاً. ثمة شيء ينبغي - لكنه ليس الحب - بأنني سأتحسر وأتأسف لو فقدتك... صحيح أنني أستطيع أن آخذ بيدك كيما تحسن الاختيار، لكنني في هذه الحال سأحدث بيمينني، وهذا ما لا أطيقه. وعلى هذا النحو قد لا أكون من حظك؛ وعندئذ ستجعلني أتحسر على أنني لم أحتس بيمينني. أه لهاتين العينين اللتين زرعتا البلبلة في نفسي وشطرتاني شطرين: شطر لك، وشطر لك... أريد أن أقول لي. لكنه إن كان لي فهو لك أيضاً، وهكذا أكون كلي لك».

«هذا الشيء الذي ما كانت تريد إلا أن تلمع إليه إلماعة طفيفة، والذي كان يفترض بها أن تكتمه وتخفيه، وهو أنها كلها له حتى قبل إجراء القرعة وأنها تحبه، هذا الشيء جعلها الشاعر، برهافة سيكولوجية بديعة، تبوح به عبر فلتة لسانها، فخفف بهذه الحيلة الفنية عن العاشق ما كان يعانيه من شك لا يطاق، وعن المشاهدين ما كانوا فيه من ترقب وقلق بصدد نتيجة الاقتراع».

ولنلاحظ أيضاً مدى ما دلت عليه بورشيا من إرهاف عندما وقفت في آخر كلامها بين الاعترافين المتضمين في فلتة لسانها وأزالت ما بينهما من تناقض، مع مجاهرتهما في الوقت نفسه بحبها له: «لكنه إن كان لي فهو لك أيضاً، وهكذا أكون كلي لك».

لقد اتفق لأحد المفكرين ممن لا صلة لهم بالطب أن كشف، بملاحظة واحدة

يتيمة، مغزى الهفوة، فوَقَر علينا بذلك عناء البحث عن تفسير لها. أنتم جميعكم تعرفون ولا بد الهجاء العبقري ليختنبرغ Lichtenberg (١٧٤٢ - ١٧٩٩) ^(٢٠) الذي قال عنه غوته إن كل نكتة من نكاته تخفي معضلة ^(٢١). فقد كتب ليختنبرغ يقول إنه من كثرة ما قرأ هوميرس انتهى به الأمر إلى أن قرأ اسم أغاممنون Agamemnon ^(٢٢) حيثما طالعته كلمة أنغيمنون Angeneommen ^(٢٣). هنا تكمن فعلاً كل نظرية الهفوة.

في المحاضرة التالية سنرى إن كنا نستطيع أن نتفق والشعراء في تصورهم لمعنى الهفوات.

٢٠ - جورج كريستوف ليختنبرغ: فلكي وفيزيائي وفيلسوف ألماني (١٧٤٢ - ١٧٩٩). أصيب في مراهقته بحادث فصار أحذب وسوداوي الطبع. له اختراعات علمية. من مؤلفاته: مرآة النفس. وله كتابات هجائية نشرت بعد وفاته. «م».

٢١ - الإحالة هنا إلى قوله لغوته في كتابه **جُكَم وتأملات**: «أما كتابات ليختنبرغ فنستطيع أن نستخدمها كما لو أنها أروع عصا سحرية: فحيثما يمزح مزحة فثمة معنى خفي». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٢٢ - أغاممنون: من ملوك اليونان الأسطوريين وقائدهم في حرب طروادة، ضحى بابنته أيجينيا قرباناً للآلهة حتى تهب الرياح مؤاتية لسفن الإغريق. «م».

٢٣ - كلمة ألمانية متعددة المعاني: مفترض، مقبول، متخيل، متبني، مسلم به. «م».

المحاضرة الثالثة

الهفوات (تابع)

سيداتى وسادتى، اتفقنا في محاضرتنا الأخيرة على النظر إلى الهفوة في ذاتها ولذاتها، لا في صلتها بالفعل القصدي الذي تحدث ما تحدث فيه من تشويش. وقد تبدى لنا أن الهفوة تتم في بعض الأحوال عن معنى خاص، وقلنا بيننا وبين أنفسنا إنه لو أمكن إثبات صحة هذا الانطباع الأول على نطاق أوسع، لكان خليقاً بهذا المعنى اللصيق بالهفوات أن يستأثر باهتمامنا أكثر مما تستأثر به الظروف التي تحدث فيها الهفوة.

ولنتفق مرة أخرى على ما نعينه حين نتكلم عن «معنى» سيرورة من السيرورات النفسية. فما هذا «المعنى» في نظرنا سوى القصد الذي يخدمه والمكان الذي يشغله في سلسلة نفسية محددة. بل قد يسعنا، في معظم استقصاءاتنا، أن نستبدل كلمة «المعنى» بكلمة «القصد» أو «الغرض». ولكن عندما نتصور أن وراء الهفوة قصداً، ألا ترانا نجري وراء مظهر خداع أو ضرب من المبالغة الشعرية؟

لنلزم أمثلة فلتات اللسان، ولنستعرض عدداً أكبر من الوقائع التي تتعلق بها. فهنا تواجهنا مجموعات يكاملها من الحالات يتجلى فيها معنى الفلطة بوضوح وسطوح. وبادئ ذي بدء الحالات التي ينطق فيها المرء بعكس ما كان ينبغي قوله. لقد قال الرئيس في خطابه الافتتاحي: «أعلن ارفضاض الجلسة». لا مجال هنا للبس أو الإبهام، فالمعنى والقصد للذان يشي بهما كلامه أنه يريد فضّ الجلسة. «إنه يقول ذلك بنفسه»: ذاك هو الشاهد الذي قد يطيب لنا أن نسوقه هنا^(١)؛

١ - «إنه يقول ذلك بنفسه»: قول يتردد على لسان فيغارو مرتين على التوالي في أوبرا موتزارت عرس فيغارو المقتبسة فكرتها عن مسرحية بومارشيه الهزلية: زواج فيغارو. «م».

وما علينا في هذه الحال إلا أن نأخذ بقلوبه. أرجو ألا يقاطعني الآن أحد باعتراضاته، كأن يرد عليّ بأن ذلك أمر محال، على اعتبار أننا نعرف أنه كان يريد افتتاح الجلسة، لا فضّها، وأنه يؤكد بنفسه - ونحن نقرب بأنه هو المرجع الأول والأخير - أنه كان يريد افتتاحها. ولا تنسوا أننا كنا اتفقنا على النظر إلى الهفوة في ذاتها ولذاتها، أما صلاتها بالقصد الذي تشوّشه فستكون موضوع بحثنا لاحقاً. ولو نهجنا غير هذا النهج، لوقعنا في خطأ منطقي، يسميه الإنكليز (Begging The Question)^(٢)، من شأنه أن يبعدنا عن معالجة المسألة المطلوب معالجتها.

وحتى في الحالات الأخرى، التي لا ينطق فيها المرء تحديداً بعكس ما كان ينبغي قوله، تظل الهفوة تعبّر عن معنى مضاد. فعندما قال الأستاذ: «لست منكرّاً جمود الأستاذ الذي سبقني إلى تدريسكم»، فإن كلمة **جمود** ليست نقيض **جهود**، لكن قوله يتضمن اعترافاً علنياً بتنافي صارخاً وموقف المتكلم.

وفي حالات أخرى، يكون كل شأن الفلته أن تضيف معنى آخر إلى المعنى المقصود. وهنا تبدو العبارة وكأنها إدغام أو اختصار أو تكثيف لعدة عبارات. وهذا ينطبق على تلك السيدة الطاغية الشخصية التي تكلمنا عنها في المحاضرة السابقة والتي قالت عن زوجها: «إنه يستطيع أن يأكل ويشرب ما أريده أنا». فكأنها قالت: «يستطيع أن يأكل ويشرب ما يريد. لكن ما حاجته إلى أن يريد؟ فأنا من يريد مكانه». وكثيراً ما ترك الفلنات انطباعاً بأنها اختصار من هذا القليل. ومثال ذلك أن أستاذاً في التشرّيح سأل تلاميذه، في نهاية درس له عن التجويف الأنفي، عما إذا كانوا قد فهموه. فلما أجابوه بالإيجاب، أردف يقول: «لا أعتقد ذلك، لأن من يفهمون البنية التشريحية للتجويف الأنفي، حتى في مدينة تعدّ مليوناً من السكان، يمكن أن يُعدّوا على إصبع واحدة.. عفواً، على أصابع يد واحدة». وهكذا، إن اختصار الجملة كان له معناه: فقد أراد الأستاذ أن يقول إنه لا يوجد سوى رجل واحد يفهم ذلك.

٢ - المصادرة على المطلوب. «م».

إلى جانب هذه الطائفة من الحالات، التي ينجلي فيها معنى الفلته من تلقاء نفسه، تواجهنا حالات أخرى تتعارض مع كل ما كان لنا أن نتوقعه لأن الفلته لا تشي فيها بمغزى ذي دلالة. فحين يلحن أحدهم في النطق باسم علم أو يتلفظ بأصوات غريبة مبهمة، وهذا كثير التواتر أيضاً، فقد يترأى لنا وكأنه ليس لمسألة معنى الهفوات سوى جواب سلبي. لكن لو أمعنا التفكير في هذه الأمثلة لبان لنا أن تحريف الألفاظ أو الجمل أمر قابل بسهولة للتفسير، بل لتأكد لنا أن الفارق بين هذه الحالات التي يكتنفها قدر أكبر من الغموض وبين الحالات الواضحة البينة التي ذكرناها أعلاه ليس كبيراً كما حسبنا لأول وهلة.

سئل رجل عن وضع حصانه المريض، فأجاب: «آه، ربما يصيش... ربما يعيش شهراً آخر». فلما سئل عن المعنى الذي رمى إليه من وراء كلمة **يصيش** (التي نطق بها في بادئ الأمر بدلاً من **يعيش**) أجاب أنه بالنظر إلى أن مرض حصانه هو في نظره مصيبة أُلّت به شخصياً، فقد دمج رغماً عن إرادته بين كلمتي **مصيبة** و**يعيش**، فكانت منهما زلة لسانه **يصيش** (عن مرنغر وماير).

وفي معرض حديث أحدهم عن مسالك وأساليب تثير استنكاره واشمئزازه، قال: «عندئذ انكشرت أمور كثيرة». وكان يقصد أن يقول: انكشفت أمور كثيرة. لكن بما أنه كان ينعت في سريرة نفسه تلك المسالك والأساليب بأنها شريرة، فقد ربط بغير طوعه بين كلمتي انكشفت وشريرة، فكانت الفلته انكشرت (عن مرنغر وماير).

تذكروا مثال ذلك الشاب الذي عرض أن يرافق سيدة لا يعرفها بكلمة **أرائنك**. وقد أجزنا لأنفسنا أن نفك هذه الكلمة إلى رافق وناقق، وكنا على ثقة تامة بهذا التأويل، فلم نر داعياً إلى تأكيد صحته. ويتضح لكم من هذه الأمثلة أننا نستطيع أن نفسر حتى تلك الحالات من الفلتات التي يكتنفها قدر أكبر من الإبهام بالتقاء لفظين يعبران عن قصدين مختلفين أو بتداخلهما. والفارق الوحيد بين شتى أنواع هذه الحالات أن القصد في بعضها، كما في الفلتات التي ينطق فيها المرء بعكس ما يبغي قوله، يحل محله قصد مغاير تماماً (إبدال)، بينما لا يصيب القصد في حالات أخرى سوى تحريف أو تعديل بفعل قصد آخر، مما

يؤدي إلى تشكيل ألفاظ مختلطة تنطوي على قدر أو آخر من المعنى.

هكذا يتهيأ لنا أننا كشفنا سر عدد كبير من الفلتات. فإذا تمسكنا بهذه النظرة، أمكننا أن نفهم مجموعات أخرى من الفلتات ما برحت حتى الآن ملغزة. من ذلك، على سبيل المثال، أننا لا نستطيع على الدوام، وفيما يتعلق بتحريف الأسماء، أن نفترض أن المسألة مسألة تراحم بين اسمين، متشابهين ومختلفين في آن واحد. فحتى إن لم يكن لهذا التراحم من وجود، لا يشق علينا أن نغيط اللثام عن القصد الثاني. فتحريف الاسم أمر شائع خارج نطاق الفلتات. ومن ذلك أن يحاول أحدهم تحريف الاسم لكي يجعل له وقعاً ناشراً، أو لكي يستحضر وقعه في الأذان صورة شيء مبتذل. وهذا لون شائع جداً من ألوان الإهانة والتجريح، ليس للإنسان المثقف إلا أن يأنف من الدجوة إليه، ولو على مضض. وكثيراً ما يعطيه شكل «نكتة» مُسَقَّة كل الإسفاف. وحتى نضرب مثلاً صارخاً وقيحاً على هذا التحريف للأسماء سأذكر لكم أنه قد جرى مؤخراً تحوير اسم رئيس الجمهورية الفرنسية بوانكاريه إلى «خنزير مربع»^(٣). من المباح لنا إذاً أن نفترض أن الفلتة تتأتى في كثير من الأحيان عن قصد تجريحي يتنكر في إهاب تحريف اللفظ. ولو توسعنا بتصورنا هذا لوجدنا أن مثل هذه التفاسير تسري على بعض الفلتات ذات الوقع الهازل أو اللامعقول: «أدعوكم إلى شرب شخب رئيسنا بدلاً من: شرب نخب». فهذه الكلمة الفالطة، بما لها من وقع غير مستساغ، قد عكرت، على غير ما انتظار، جو ذلك الحفل الرسمي. فإذا تذكرنا بعض الألفاظ والعبارات التي يُطلق بها قصد الإهانة، جاز لنا أن نفترض، في

٣ - ريمون بوانكاريه: رجل دولة فرنسي (١٨٦٠ - ١٩٣٤)، شغل بضع مرات منصب رئاسة الوزراء قبل أن يُنتخب رئيساً للجمهورية بين ١٩١٣ و ١٩٢٠. وفي عهد رئاسته دارت الحرب العالمية الأولى. وحتى نفهم «النكتة» ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أن فرنسا كانت طرفاً في التفاهم الثلاثي إلى جانب بريطانيا وروسيا في مواجهة التحالف الثلاثي المؤلف من ألمانيا والنمسا وإيطاليا. والحال أن اسم بوانكاريه مؤلف من مقطعين: بوان أي نقطة، وكاريه أي مربع. ومن ثم أمكن للألمان والنمساويين أن يحرفوه إلى «خنزير مربع». والجدير بالذكر أن دار بايو التي نشرت الترجمة الفرنسية الأولى عام ١٩٢٢ - ترجمة سيرج يانكيليفتش - حذفت هذا المقطع، فبقي محدوفاً بالتالي في جميع الطبعات المتعددة اللاحقة. «م».

الحالة التي نحن بصدددها، وجود ميل يحاول الإفصاح عن نفسه، ولو بالتناقض الصارخ مع موقف الخطيب المفعم احتراماً وتوقيراً في الظاهر. ولكأن هذا الخطيب أراد أن يقول في حقيقة الأمر: لا تصدقوا ما أقوله، فأنا لا أتكلم جاداً، بل أسخر من صاحبنا، إلخ. وكذلك الحال في أرجح الظن في الفلتات التي تتحول فيها الألفاظ البريئة إلى كلمات جارحة وبذيئة.

هذا الميل إلى التحوير، أو بالأولى إلى التحريف، نلاحظه لدى الكثيرين من الناس ممن يسلكون هذا المسلك حباً بالتندر و«التنكيت». وبالفعل، كلما طرق سمعنا تحريف كهذا، وجدنا أنفسنا نتساءل هل قصد المتكلم إلى التنكيت فحسب، أم أن لسانه عثر به بقلته حقيقة.

هكذا نكون قد وجدنا، بسهولة نسبية، حلاً للغز الهفوات! فما هذه الهفوات وليدة المصادفة، وإنما هي أفعال نفسية جدية لها معنى، وناجمة عن تضافر قصدين مختلفين، أو بالأحرى عن تعارضهما. غير أنني أتوقع سلفاً كل الأسئلة وكل الشكوك التي قد تثيرونها بهذا الصدد، أسئلة وشكوك لا بد أن نلتمس لها أجوبة وحلولاً قبل أن يحق لنا الاعتبار بإحراز تلك النتيجة الأولى. ولست أنوي بحال من الأحوال أن أدفع بكم إلى التعجل في استخلاص النتائج. بل لنناقش جميع النقاط في نظام وتأن، الواحدة تلو الأخرى.

ماذا عساكم تسألونني؟ أتسألونني هل أعتقد أن التفسير الذي أقدم به يصلح للتطبيق على جميع الفلتات، أم على طائفة محدودة منها فحسب؟ وهل يشمل هذا التصور جميع ضروب الهفوات الأخرى: أغلاط القراءة والكتابة، والنسيان، والخطأ في الحركة، وتعذر اهتداء المرء إلى شيء كان قد وضعه في مكان ما، إلخ؟ وما الدور الذي يمكن أن يلعبه بعدُ التعب والتهيج والسهو وتشتت الانتباه من منظور الطبيعة النفسية للهفوات؟ وقد تلاحظون، علاوة على ذلك، أن أحد القاصدين المتزاحمين في الهفوة باطن على الدوام، بينما الآخر ظاهر. فكيف السبيل إلى إظهار هذا القصد الخفي؟ وإذا تصورنا أننا أفلحنا في ذلك، فكيف نثبت أن هذا القصد ليس محتملاً فحسب، بل هو القصد الحقيقي الوحيد؟ أليدكم أسئلة أخرى تطرحونها علي؟ إن كان هذا كل ما لديكم، فسأزيد عليه

من عندي. وسأذكركم بأن الهفوات بحد ذاتها ليست هي، والحق يقال، ما يستأثر باهتمامنا، وإنما ما نريده هو أن نستخلص من دراستها نتائج قابلة للتطبيق على التحليل النفسي. ولهذا أطرح السؤال التالي: ما هذه المقاصد والميول التي تتعدى إن جاز القول على مقاصد وميول أخرى، وما العلاقات التي تقوم بين المقاصد المتعدية والمقاصد المتعدى عليها؟ وعلى هذا النحو سنجد أنفسنا ملزمين باستئناف مجهودنا من جديد بعد أن تراءى لنا أننا وقفنا إلى حل المشكلة.

إذاً هل ينطبق تفسيرنا على جميع حالات الفلتات؟ أميل كل الميل إلى اعتقاد ذلك، لأن هذا التفسير هو الذي يفرض نفسه كلما محّصنا فلتة من الفلتات. على أنه ليس ثمة من دليل على أنه لا وجود لفلتات تنشأ عن آليات أخرى. على رسلكم. لكن هذا الاحتمال لا يعيننا كثيراً من الوجهة النظرية، لأن النتائج التي نتطلع إلى استخلاصها كمدخل إلى التحليل النفسي تبقى قائمة حتى على فرض أن الفلتات التي تتفق وتصورنا لا تمثل إلا نسبة ضئيلة بين سائر الفلتات، وهو على كل حال فرض غير صحيح. أما سؤالكم الثاني عما إذا كان من المباح لنا أن نعّم على سائر أنواع الهفوات النتائج التي تتحصّل لنا من دراسة فلتات اللسان، فإنني سأجيب عنه استباقاً بالإيجاب. وسترون أنني محقّ في ذلك متى ما انتقلنا إلى فحص الأمثلة المتعلقة بزلة القلم، والخطأ في الحركة... إلخ. غير أنني اقترح عليكم، لأسباب تقنية، إرجاء هذا العمل إلى أن ننتهي من دراسة مشكلة فلتات اللسان بمزيد من التعمق.

والآن، وحيال الآلية النفسية التي أتينا بوصفها، ما الدور الذي تضطلع به بعدُ العوامل التي يعلّق عليها الباحثون أهمية كبرى: اضطرابات الدورة الدموية، التعب، التهيج، الشرود وتشتت الانتباه؟ هذا سؤال جدير بتمحيص مستأن. وتأكّدوا أننا لا نماري البتة في تأثير هذه العوامل. والحق أنه لا يتفق كثيراً للتحليل النفسي أن يماري في ما يثبته الآخرون، وهو بصفة عامة لا يصنع أكثر من أن يضيف إليه جديداً، والمصادفة هي التي شاءت أن يكون ما أغفله الآخرون وأضافه التحليل النفسي هو أساس الموضوع وجوهره. وإن تأثير الاستعدادات الفيزيولوجية، الناشئة عن توعك الصحة واضطراب الدورة الدموية وحالات

الإعياء، على آلية حدوث الفلتات ليس مما ينكر بحال من الأحوال. وتجربتك الشخصية واليومية كفيلة بإثبات وجود هذا التأثير. لكن هذا التفسير لا يفسر شيئاً كثيراً! والحالات التي عدّناها ليست، باديء ذي بدء، شروطاً لازمة للهفوة. فالفتلة تحدث أيضاً في تمام الصحة وفي تمام السواء. وليس لهذه العوامل البدنية من قيمة إلا بقدر ما تسهّل وتيسر الآلية النفسية المتحكممة بالفتلة. وقد لجأت يوماً، تمثيلاً على هذه العلاقة، إلى تشبيه أجدني اليوم مضطراً إلى التمثيل به من جديد لأنني لن أجد، مهما بحثت، خيراً منه. لنفرض أنني بينما كنت أسير ليلاً في مكان مقفر هاجمني لص وسلبني ساعتني وصرة نقودي، وعلى إثر هذه السرقة التي ما استطعت أثناءها تمييز وجه اللص، قصدت أقرب مخفر للشرطة وقدمت شكوى قائلاً: «لقد سلبني الظلام والانفراد قبل قليل متاعي». عندئذ قد يجيبني رئيس المخفر بقوله: «يخيل إليّ أنك تخطئ بتفسيرك الأمر هذا التفسير الميكانيكي المفرط. ولو سمحت، فإننا نتصور الموقف على النحو التالي بالأحرى: لقد سلبك لص مجهول، بحماية الظلام والانفراد، نقودك. وأهم ما في حالتك، في رأيي، هو الاهتمام إلى السارق، فعندئذ فحسب قد نتاح لنا الفرصة لاستعادة الأشياء التي سرقها منك».

وعلى هذا، إن العوامل النفسية/ الفيزيولوجية، من تهيج وشرد وتشتت انتباه، لا تسعفنا كثيراً في تفسير الهفوات. فإنّ هي إلا تعابير قولية لا تغني ولا تسمن، وستائر لا يجوز لها أن تحجب عنا رؤية ما وراءها. والأولى بنا أن نتساءل: ما علة التهيج، أو ما علة تشتت الانتباه في الحالة الخاصة التي نحن بصدددها؟ وأنا لا أنكر، بطبيعة الحال، ما للمؤثرات الصوتية والتشابهات اللفظية والتداعيات المعهودة التي تقوم بين الكلمات من أهمية معلومة. فجميع هذه العوامل تسهّل الفتلة إذ تدلّها إلى الطريق الذي يمكن لها أن تسلكه. لكن أيكفي أن يكون أمامي طريق ليتعيّن عليّ أن أسلكه؟ الحق أنه لا بدّ لي أيضاً من دافع يحفزني على إبرام قراري بسلوكه، ولا بدّ لي من قوة تحملني على المضّي فيه. إذاً فتلك العلاقات الصوتية والتشابهات اللفظية ليس من شأنها - مثلها في ذلك مثل الاستعدادات الجسمية - إلا أن تيسّر السبيل أمام الفتلة، لا أن تفسرها بملء معنى الكلمة.

وحسبكم أن تستذكروا أن خطابي هذا، على كثرة ما فيه من ألفاظ تشابه بجرسها ألفاظاً أخرى أو ترتبط بأضدادها ارتباطاً وثيقاً أو تستحضر تداعيات مألوفة، بقي خالياً - اللهم إلا فيما ندر - من الزلات. ولعلنا كنا سنجيز لأنفسنا، عند الاقتضاء، أن نقول، مع الفيلسوف فونت^(٤)، إن فلتة اللسان تحدث عندما ترجح كفة الميل إلى التداعي على كفة مقاصد الكلام الأخرى طراً من جراء الإغواء الجسماني. لكن التجربة تنقض هذا التفسير، وترينا أن الفلتة قد تحدث في بعض الأحوال حتى وإن غابت العوامل الجسمانية، كما قد تحدث في أحوال أخرى حتى وإن انعدمت التداعيات القمينة بتسييرها.

لكن سؤالكم بصدد الكيفية التي نتحقق بها من تداخل القصدين سؤال مفيد حقاً. ولعلكم لا تشبهون في النتائج الخطيرة التي قد تترتب عليه تبعاً للجواب الذي سنعطيه له. ففيما يتعلق بأول القصدين، القصد المتعدى عليه، لا يمكن أن يخالجنّا شك بصده: فالشخص الذي يرتكب الهفوة يعرف هذا القصد ويجاهر به. أما الشك والتردد فلا يكتنفان إلا القصد الآخر، القصد المتعدي. والحال أنني أسلفت لكم القول، وهو بالتأكيد لم يغب عن بالكم، أن ثمة مجموعة من الحالات يكون فيها هذا القصد الأخير جلياً بيّناً هو الآخر. ومفعول الفلتة هو الذي يميّط لنا اللثام عنه، وذلك متى واتتنا الجرأة على النظر إلى هذا المفعول بحدّ ذاته. لقد قال الرئيس عكس ما كان يفترض به أن يقوله: فمن الواضح أنه كان يريد افتتاح الجلسة، لكن من الواضح أيضاً أنه ما كان ليسوءه أن يفضّنها. وهذا بيّن إلى حدّ يغني عن كل تأويل. لكن كيف لنا، في الحالات التي لا يصنع فيها القصد المتعدي شيئاً غير أن يحزّف القصد الأصيل من دون أن يفصح عن نفسه، أن نستبينه من خلال هذا التحريف؟

نستطيع، في طائفة أولى من الحالات، أن نفعل ذلك ببساطة، وعلى نحو ثابت محقق، باتباعنا الطريقة عينها التي نتبعها في الكشف عن القصد المتعدي عليه. فنحن نعلمه من فم الشخص المعني بالذات الذي يتدارك خطأه فور

٤ - فلهلم فونت: فيلسوف وعالم نفس ألماني (١٨٣٢ - ١٩٢٠). مؤسس أول مخبر لعلم النفس التجريبي، وأول من استخدم منهج الاستبطان التجريبي. «م».

صدور الفتنة عنه ويعاود النطق بالكلمة الصحيحة، كما في المثال الآنف الذكر: «ربما يصيش.. ربما يعيش شهراً آخر». فلما سئل: لماذا نطقت بادئ الأمر بكلمة يصيش؟ أجاب صاحبنا أنه يريد أن يقول إنها مصيبة أصابتنني، لكنه خلط، بغير طوعه، بين يعيش وبين المصيبة، فكانت فتنة لسانه: يصيش. هكذا يكون الشخص المعني نفسه قد كشف لنا عن القصد المتعدي. وكذلك الحال في المثال الذي سقناه في المحاضرة السابقة عن فتنة اللسان: انكشرت، فقد أجاب الرجل، لما سئل عن سرها، بأنه كان يقصد أن يقول إنها أمور شريرة، لكنه أمسك عن ذلك وتورط في وجهة خاطئة. وهنا أيضاً يمكننا تعيين القصد المتعدي بمثل الثقة التي نعين بها القصد المتعدي عليه. وأنا لم أكن خالي الوفاض من كل نية مسبقة عندما سقت هذين المثالين اللذين لم أكن أنا ولا أحد من أنصاري مصدر روايتهما أو تحليلهما. على أنه في كلتا الحالتين لم يكن مناص من التدخل الطفيف من الخارج لتسهيل الحل. فقد وجب توجيه السؤال إلى الشخصين المعنيين عن السبب الذي حملهما على التورط في تلك الفتنة، وعن رأيهما في الموضوع. ولولا ذلك، فلربما نطقا بالفتنة من دون أن يحشما نفسيهما عناء تفسيرها. لكن لما سئلا عن سرها، فسرها بأول فكرة خطرت على بالهما. وكما ترون، إن هذا التدخل الطفيف بالنتيجة التي تأدى إليها هو بحد ذاته ضرب من التحليل النفسي، نموذج مصغر للبحث التحليلي النفسي الذي سنحدد أصوله فيما بعد.

تري أأكون مسرفاً في الريبة إذا ما اشتبهت بأن مقاومتك للتحليل النفسي تبرز حالماً أزج باسمه هنا؟ ألا تساوركم الرغبة في الاعتراض عليّ بأن المعلومات التي يدلي بها الأشخاص الذين ارتكبوا فلتات ليست مما يمكن أن يعتد به كل الاعتداد؟ ألا تقولون بينكم وبين أنفسكم إن الأشخاص المعنيين يجنحون بطبيعة الحال إلى الامتثال لدعوة من يطلب إليهم تفسير الفتنة فيتلفظون بأول شيء يخطر على بالهم إن لاح لهم قميناً بتقديم التفسير المنشود؟ وهذا كله ليس من شأنه، في رأيكم، أن يثبت أن فتنة اللسان تنطوي فعلاً على المعنى الذي نعزوه إليها. فقد كان من الممكن أن تخطر في بال الشخص الذي نوجه إليه السؤال

فكرة مغايرة تماماً للفكرة الأولى، ولكنها تضاهيها، إن لم نقل إنها تفوقها، في صلاحيتها للتفسير.

إنني لأعجب حقاً للاستخفاف الذي تعاملون به في صميمكم الوقائع النفسية! تخيلوا أن أحدهم قام بتحليل كيمياوي لمادة معينة، فوجد أن لأحد عناصرها المقيومة وزناً معيناً، مقداره كذا ميلليغراماً، مثلاً. وافترضوا أن نتائج محددة يمكن استخلاصها من هذا الوزن. فهل لكم أن تتصوروا أن يبادر كيمياوي آخر إلى نقض هذه النتائج بحجة أن المادة المذكورة كان يمكن أن يكون لها وزن آخر؟ إن الإنسان لا يملك إلا أن يسلم بأن الوزن المكتشف هو الوزن الحقيقي، ثم يتخذ من هذه الحقيقة الواقعة، بلا تردد، أساساً للاستنتاجات اللاحقة. فهل يجوز لنا، عندما تواجهنا واقعة نفسية، قوامها فكرة معينة خطرت ببال شخص رداً على سؤال وجهناه إليه، ألا نطبق القاعدة نفسها، وأن نزعج أن هذا الشخص كان يمكن أن تخطر له فكرة أخرى؟ الحق أنكم مأخوذون بوهمكم عن وجود حرية نفسية، وأنتم عن التخلي عن هذا الوهم عازفون! وإني لأسف إذا كنت لا أستطيع مشاطرتكم رأيكم في هذا الموضوع.

قد تسلمون في نهاية الأمر بهذه النقطة، لكن لتجددوا معارضتكم لنقطة أخرى. وهكذا ستردون قولكم: «إننا نفهم أن يكون قوام التقنية الخاصة للتحليل النفسي استخلاص حلّ المشكلات التي يتصدى لها من فم الشخص المحلل بالذات. لكن لنعد في هذه الحال إلى ذلك المثال الآخر الذي يدعو فيه خطيب المأدبة معشر الحفل إلى شرب «شخب» الرئيس. فأنت تقول إن القصد المتعدي في هذا المثال قصد تجريح يعارض القصد التكريمي. لكن هذا تأويل شخصي من جانبك ليس إلا، بنيتّه على ملاحظات من خارج فلة اللسان. أما لو وجّهت سؤالك إلى مرتكبها فلن يقرّ أبداً بقصد تجريح، بل سيبادر بالأحرى إلى نفيه، وبكل ما أوتي من قوة. فلماذا لا تتنازل إذاً عن تأويلك المتعذر البرهان عليه حيال هذا الإنكار القاطع؟».

لقد اهتمت هذه المرة إلى حجة ذات وزن. وهأنذا أتخيل الخطيب المجهول: فهو في أرجح الظن مساعد الرئيس المكرم، ولعله حائز من الآن على لقب

محاضر خاص Privat Docent^(٥)، وإني لأتمثله شاباً ينتظره مستقبل حافل بالوعود. وسأسأله يالحاح إن لم يكن قد شعر في سريره بقدر من المقاومة تجاه فكرة التعبير عن عواطف تكريمية إزاء رئيسه. لكن ها هو ذا يستقبل سؤالي باحتداد، ويرد عليّ بسخط: «أرجوك أن تكفّ عن استجواباتك، وإلا غضبت فعلاً. وشبهاتك هذه قد تفسد عليّ مستقبلي كله. لقد نطقت بكل بساطة بـ «شخب» بدلاً من «نخب»، لأنني نطقت قبلها مباشرة بكلمة «شرب». وهذا ما يسميه مرنغر بالاستلحاق الصوتي، فلا داعي للبحث عن تأويل آخر. أفهمتي؟ حسبك ذلك!» إحم! إن رد فعل فتانا لعنيف حقاً، وإنكاره لأعنف بعد. وإني لأقرّ بأنه لا مجال لانتزاع شيء منه، لكنني أعتقد أيضاً أنه حريص شخصياً أشدّ الحرص على ألا نجد لهفوته معنى. قد ترون معي أنه أخطأ باحتداده مع أن المسألة كلها مسألة نقص نظري محض، ولكن قد تضيفون قولكم: إنه يعرف ولا بدّ، على كل حال، ما كان يريد أو لا يريد قوله.

أحقاً؟ هذا تحديداً ما يتوجب علينا أن نتحقق منه بعد.

ها أنتم تضبطونني هذه المرة في الجرم المشهود! وها أنا أسمعكم تهتفون: أهذه إذا تقنيتك؟ أكلما صدرت عن شخص فلتة لسان، وقال في تحليلها ما يتمشى مع رأيك، أعلنت أنه الحجة الأخيرة والفاصلة في الموضوع، وصرّحت: «إنه يقول ذلك بنفسه»؟ لكن إذا قال الشخص المستجوب شيئاً لا يتمشى مع رأيك، زعمت للحال أن تفسيره عديم القيمة، وأن ليس من داعٍ للأخذ به.

ذلك هو الوضع حقاً. غير أنه يسعني أن أضرب لكم مثلاً على حالة مشابهة تجري فيها الأمور فعلاً هذا الجري العجيب. فحين يقرّ الظنّين بجرمه، يصدّق القاضي إقراره، لكنه حين ينكره، لا يصدّقه القاضي. ولو جرت الأمور غير هذا الجري لما استقام للعدالة كيان، ولا محيد لنا عن الأخذ بهذا النهج، رغم الأخطاء المحتملة.

٥ - أستاذ جامعي في ألمانيا يتلقى مكافأته من الطلاب مباشرة، وهذا ما كان عليه وضع فرويد نفسه في أول حياته العلمية. «م».

«ولكن هل أنت قاضٍ، وهل من يزلّ لسانه بفلته متهم في نظرك؟ وهل فلتة اللسان جرم؟».

لعل هذا التشبيه، على بعده، خليق بآلا نردّه. لكن أرايتم إلى تلك الفوارق البليغة التي تنكشف للعيان ما إن نتمعق قليلاً في دراسة المشكلات - البريئة في الظاهر - التي تثيرها الهفوات؟ وإنها لفوارق لا نملك بعد أن نسوّيها وأن نوفق بينها. لذا أقترح عليكم حلاً وسطاً مؤقتاً ينهض تحديداً على أساس هذه المماثلة بين التحليل النفسي والتحقيق القضائي. فعليكم من جهتكم أن تسلّموا لي بأن معنى الهفوة يكون بمنأى عن أي شبهة متى ما أقرّ به المحلّل نفسه. وبالمقابل أسلّم لكم بتعذر الحصول على دليل مباشر على المعنى المشتبه به إذا ما رفض المحلّل الإدلاء بأية معلومات، أو إذا ما كان غيابه يحول دون حصولنا على هذه المعلومات. وعندئذ نضطر، كما في التحقيق القضائي، للاكتفاء بقرائن تجعل قرارنا مشاكلاً بقدر كثير أو قليل للواقع، تبعاً للظروف. وقد تضطر المحكمة، لأسباب عملية، إلى أن تعلن أن المتهم مذنب، حتى وإن لم تتوفر لها سوى أدلة تخمينية. ومع أننا لسنا بحاجة إلى ركوب هذا المركب، إلا أنه يخلق بنا ألاً نتمنع عن الاستفادة من مثل تلك القرائن. فمن الخطأ أن نتوهم أن العلم لا يتألف إلا من أطروحات قام صارم البرهان على صحتها، ومن الخطأ أن نطلب منه أن يكون كذلك. والحق أن مثل هذا المطلب لا يصدر إلا عن أولئك الذين لا ينساقون إلا بسائق السلطة، والذين تمسّ حاجتهم إلى استبدال تعليمهم الديني بآخر، ولو كان علمياً. والواقع أن التعليم العلمي لا ينطوي إلا على قدر طفيف من الأحكام اليقينية الثابتة، وأكثر إثباتاته أطروحات تنطوي على درجات شتى من الرجحان لا أكثر. وخاصية الروح العلمي معرفته وقدرته على مواصلة البناء، وإن أعوزته أدلة نهائية.

لكن إن لم نظفر من فم المحلّل بالذات بالمعلومات القمينة بتفسير معنى هفوته، فأني لنا أن نقع على مرتكزات لتأويلاتنا، وعلى قرائن لبرهاننا؟ هذه المرتكزات وهذه القرائن تتأتى لنا من مصادر شتى. أولها المقارنة التماثلية مع ظاهرات لا صلة لها بالهفوات، كما عندما نلاحظ مثلاً أن لتحريف الاسم في الهفوة معنى

تجريحياً مماثلاً للمعنى الذي يكون لمثل هذا التحريف لو كان قصدياً. كما يزودنا بالمرتكبات والقرائن الوضع النفسي الذي حدثت فيه الهفوة، ومعرفتنا بطبع الشخص الذي ارتكب هذه الهفوة، والمشاعر التي قد تكون ساورتها قبل ارتكاب الهفوة والتي قد لا تكون هذه الهفوة إلا استجابة مضادة لها. والكيفية التي تجري بها الأمور في العادة تفرض علينا أن نقوم بتأويل الهفوة، أول الأمر، انطلاقاً من مبادئ عامة. وما نصل إليه على هذا النحو لا يعدو أن يكون تخميناً، مشروعاً للتأويل نسعى إلى تأكيد صحته لاحقاً بدراسة الموقف النفسي. وقد نضطر أحياناً، للفوز بما يثبت صحة افتراضنا، إلى أن ننتظر أحداثاً معينة تكون الهفوة نفسها بمثابة نذير بها.

لن يكون من السهل عليّ أن أسوق لكم الأدلة على ما أقول ما دمت أحصر بحثي بمضمار فلتات اللسان، ولو أن هذا المضمار قمين بتزويدنا هو الآخر ببعض الأمثلة الجيدة. فالشاب الذي رغب في مرافقة السيدة، فعرض عليها أن يرانقها (جمع بين كلمتي رافق وناق) هو بكل تأكيد شاب خجول، والسيدة التي يتوجب على زوجها أن يأكل ويشرب ما تريده هي لا شك في أنها واحدة من أولئك النسوة الطاغيات الشخصية (وأنا أعرف أنها كذلك فعلاً) ممن تكون لهن اليد الطولى في بيوتهن. وهاكم أيضاً المثال التالي: ففي أثناء اجتماع عام لجمعية كونكورديا^(٦)، ألقى شاب، من موقع المعارضة، خطاباً عنيفاً هاجم فيه إدارة الجمعية، لكنه وجّه كلامه إلى أعضاء «لجنة الإعارة»، بدلاً من أن يخاطب أعضاء «مجلس الإدارة». إذًا، بوسعنا أن نتكهن ونفترض أن معارضته اصطدمت بقصد متعمّد ذي صلة محتملة بعملية اقتراض (إعارة). وقد علمنا بالفعل أن خطيبنا كان بحاجة موصولة إلى المال، وكان قد تقدم بطلب اقتراض جديد. وعليه، إننا نستطيع أن نلخص علة القصد المتعمّد بالفكرة التالية: خير لك أن تلتزم جانب الاعتدال في معارضتك، فأنت تخاطب أشخاصاً يمكنهم أن يمنحوك أو يرفضوا منحك الإعارة التي تطلبها.

٦ - رابطة فييناوية للكتاب والصحفيين تأسست عام ١٨٥٩، وكانت أول جمعية في أوروبا تقدم لأعضائها شلفاً وإعانات مالية في حال المرض فضلاً عن معاشات تقاعدية. «م».

وسيكون بوسعي أن أسوق إليكم مجموعة مختارة من هذه القرائن/ الأدلة لو أبحث لنفسي أن أطرق الميدان الواسع للهِفوات الأخرى.

فحين ينسى أحدهم اسم شخص يعرفه معرفة جيدة، أو حين لا يستطيع أن يحفظه إلا بصعوبة ومشقة، فمن حقنا أن نفترض أنه يضمن لحامل هذا الاسم بعض الضغينة، فلا يطيب له أن يفكر به. تأملوا معي في ما تكشفه لنا الأمثلة التالية عن الوضع النفسي الذي تحدث فيه هفوات من هذا النوع:

«كان السيد س يحب سيدة لا تبادل له الحب، ما لبثت أن تزوجت من السيد ع. ومع أن السيد س يعرف السيد ع من زمن بعيد، بل تصله وإياه علاقات تجارية، فإنه دائم النسيان لاسمه، حتى إنه يضطر إلى طلبه من أشخاص آخرين كلما دعاه الداعي إلى الكتابة إليه»^(٧).

من الواضح أن السيد س لا رغبة له في أن يسمع شيئاً عن غريمه المحظوظ: Nicht gedacht soll seiner werden^(٨).

مثال آخر: سألت سيدة طبيها عن حال سيدة أخرى يعرفانها كلاهما، لكنها سمّتها بشهرتها قبل الزواج. أما شهرتها بعد الزواج فقد غابت عن ذاكرتها نهائياً. ولما سئلت في هذا الخصوص، صرحت بأنها مستاءة جداً من زواج صديقتها وأنها لا تطيق زوج هذه الأخيرة البتة^(٩).

وسنعود إلى الكلام لاحقاً بمزيد من التفصيل عن نسيان الأسماء. أما ما يستأثر باهتمامنا الآن فهو الموقف النفسي الذي يحدث فيه هذا النسيان.

إن نسيان المقاصد والمشاريع يمكن أن يعزى، بصورة عامة، إلى تأثير تيار مضاد

٧ - نقلاً عن ك. غ. يونغ. (والإحالة هنا إلى كتابه الصادر عام ١٩٠٨: حول علم نفس الخبل المبكر. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة).

٨ - بيت شعر لهنريخ هايني: لنمجه من ذاكرتنا. «م».

٩ - نقلاً عن أ. آ. بريل^(١٠).

(٥) أبراهام آردن بريل: طبيب نفسي تمساوي (١٨٧٤ - ١٩٤٨). ترجم فرويد إلى الإنكليزية وكان أول من مارس التحليل النفسي في الولايات المتحدة. (والإحالة هنا إلى كتابه الصادر عام ١٩١٢: التحليل النفسي: نظرياته وتطبيقه العملي. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة). «م».



يعاكس وضعها موضع التنفيذ. وليس هذا رأي المحللين النفسيين وحدهم، بل رأي الناس أجمعين؛ الرأي الذي يجهر به كل إنسان في الحياة اليومية، لكنه ينكره على الصعيد النظري. فالوصي، الذي يعتذر لربيته عن نسيانه طلبه، لا يغنيه اعتذاره هذا شيئاً في نظر الريب الذي يقول بينه وبين نفسه: ليس في اعتذار وليّ أمري ذرة من الحقيقة، وإنما كل قصده ألا ينجز الوعد الذي قطعه لي. لذا كان النسيان في بعض العلاقات محظوراً في ظروف بعينها من الحياة، وبذلك يتلاشى الفارق بين التصور الشعبي والتصور التحليلي النفسي لهذه الهفوات. تخيلوا ربة منزل تستقبل ضيفاً كانت قد دعت بهذه العبارة: «كيف! أهذا يوم زيارتك؟ لقد نسيت تماماً أنني دعوتك لهذا اليوم». أو تصوروا حالة شاب مرغم على الاعتراف للفتاة التي يحبها بأنه نسي أن يوافيها إلى مواعدهما الأخير: فهو بدلاً من الإقرار لها بنسيانه هذا، يبادر إلى اختلاق ما لا يصدق من الموانع التي حالت دون موافاتها بحسب الموعد ودون اتصاله بها فيما يعد. كما أن الاعتذار بالنسيان لا يؤخذ بعين الاعتبار في الحياة العسكرية ولا يعفي الناسي من العقاب: هذا أمر نعرفه جميعنا، ونجد أن له ما يبرره، لأننا نعترف بأن بعض الهفوات في شروط الحياة العسكرية لها معنى، ونعرف في غالب الأحوال ما هو هذا المعنى. فلماذا لا نكون منطقيين ونشمل بهذه النظرة سائر الهفوات، ونجهر بذلك بصراحة وبلا قيد؟ إن لهذا أيضاً جواباً بطبيعة الحال.

لئن يكن مغزى نسيان المقاصد والمشاريع ليس موضع رية أحد، حتى في نظر العامة، فلن يدهشكم طبعاً أن تلاحظوا أن الشعراء يصطنعون هذه الهفوة للقصد ذاته. فمن حضر منكم أو قرأ مسرحية ب. شو: قيصر وكليوباترا^(١)، يذكر في الأرجح المشهد الأخير الذي تستحوذ فيه على قيصر، المتهيء للرحيل، فكرة مقصد كان عقد العزم على تنفيذه، ولكنه بات عاجزاً عن تذكره. ثم نعلم في

١٠ - جورج برنارد شو: من كبار الكتاب والمسرحيين الإيرلنديين (١٨٥٦ - ١٩٥٠). والمقصود بقيصر في مسرحية قيصر وكليوباترة يوليوس قيصر الذي قدم مصر على رأس القوات الرومانية فاتحاً عام ٤٨ ق.م والتقى كليوباترة التي كانت في السادسة عشرة من العمر في قصرها الذي نفاها إليه أخوها بطليموس. «م».

آخر الأمر أن هذا المقصد كان الذهاب إلى كليوباترا لتوديعها. وقد أراد الشاعر، بهذه الحيلة الصغيرة، أن يعزو إلى قيصر الكبير عجرفة ما كانت من خلقه ولا بما يحلو له أن يتظاهر به. وأنتم تعلمون من المصادر التاريخية أن قيصر استقدم كليوباترا إلى روما، فأقامت فيها مع قيصر ونها الصغير^(١١)، إلى أن اغتيل قيصر، فهربت من المدينة.

إن حالات نسيان المقاصد والمشاريع هي بوجه العموم على درجة كبيرة من الوضوح بحيث يكاد يتعذر علينا استخدامها في ما نرمي إليه، وهو استخلاص القرائن المتعلقة بمعنى الهفوة من الموقف النفسي. لذا سننمّ شطر نوع من الهفوات يعوزه الوضوح ويكتنفه اللبس: ضياع الأشياء واستحالة الاهتمام إلى موضعها. وقد يبدو لكم أنه لما لا يصدق أن يكون لنياتنا ومقاصدنا دور ما في ضياع الأشياء، بالنظر إلى ما لهذا الضياع من وقع مؤلم في أنفسنا في كثير من الأحيان. لكن كثرة هي الأمثلة على الحالة التي سأوردها لكم: فقد أضاع شاب قلماً كان شديد الحرص عليه، والحال أنه كان تلقى في اليوم السابق من صهره رسالة ختمت بهذه العبارة: «ليس عندي على كل حال الوقت ولا الرغبة لأشجعك على استهتارك وكسلك»^(١٢). وكان القلم هدية من صهره هذا على وجه التحديد. ولولا هذه المصادفة، لما أمكننا بطبيعة الحال أن نجزم بأن نية التخلص من القلم قد لعبت دوراً ما في ضياعه. وهذا النوع من الحالات كثير التواتر. فالإنسان يضيّع الأشياء إذا ما اختلف مع من قدّمها إليه وتلاشت رغبته في التفكير به منذئذ. وقد يضيّعها إذا سئمها ورغب في استبدالها بما هو أحسن منها. ويدخل في عداد هذا الموقف من الأشياء

١١ - قيصرون: ابن كليوباترة من يوليوس قيصر، وسيتولى الحكم لاحقاً باسم بطليموس السادس عشر. «م».

١٢ - نقلاً عن ب. داتنر^(١٣).

• برنار داتنر: طبيب نفسي نمساوي (١٨٨٧ - ١٩٥٢).

استشهد فرويد به في عدة نصوص له. له كتاب عن الأنانية (الاستنماء). والإحالة هنا إلى مقال له بعنوان: مساهمات جديدة في علم نفس أمراض الحياة اليومية (١٩٠٧). «م».



إسقاطها وكسرها وإتلافها. أفضح مصادفة أن يضيّع التلميذ أو يتلف أو يكسر شيئاً مما يستعمله يومياً، كحقيته أو ساعته على سبيل المثال، عشية عيد ميلاده تحديداً؟

لا شك في أن من عانى كثيراً من عدم قدرته على الاهتمام إلى موضع الأشياء الذي وضعها بنفسه فيه يشقّ عليه أن يصدّق أن هذه الحوادث محكومة بقصد ما. ومع ذلك، لا يندر على الإطلاق أن تنمّ الظروف المصاحبة للنسيان عن وجود ميل إلى التخلص بصورة مؤقتة أو نهائية من الشيء المنسي. وسأسوق واحدة من هذه الحالات، ولعلها أدلّ من كل ما عُرف أو نشر حتى اليوم:

روى لي شاب أن سوء تفاهم وقع بينه وبين زوجته قبل بضع سنوات، وقال: «كنت أجد زوجتي باردة أكثر مما ينبغي، وكنا نعيش جنباً إلى جنب، بلا حب أو حنان، وإن كنت لا أنكر عليها خصالها وصفاتها الحميدة. ذات يوم جاءتني، وكانت عائدة من نزهة، بكتاب اشترته، توخياً منها بأنه سيشقوني. فشكرتها على «اهتمامها» ووعدتها بقراءة الكتاب ووضعت في مكان ما. ولكنني لم ألبث أن نسيت المكان الذي وضعته فيه. وتصرمت شهور تذكّرت فيها الكتاب مراراً عدة وجهدت للعثور عليه، ولكن بلا طائل. وبعد ذلك بحوالي ستة شهور مرضت أمي، وكنت أحبها حباً جماً، فسارعت زوجتي إلى السفر لتقوم على العناية بها. وتفاقت حالة المريضة، مما أتاح لزوجتي أن تظهر طيب شمائلها. وذات مساء عدت إلى بيتي عامر القلب بالشعور بالرضى عن زوجتي ومفعماً بعرفان الجميل لكل ما فعلته.. ودنوت من مكنتي، وفتحت دون قصد محدد، لكن بوثوق السائر في نومه، درجاً بعينه، فكان أول ما وقع نظري عليه الكتاب المفقود الذي طالما عَزَّ عليّ الاهتمام إليه».

هكذا، وبزوال الدافع، لم يعد من المتعذر الاهتمام إلى المفقود.

سيداتي وسادتي، بوسعي، لو شئت، أن أسوق من هذه الأمثلة إلى غير ما حدّ، لكنني لن أفعل. ففي كتابي علم نفس أمراض الحياة اليومية (طبعته الألمانية الأولى صدرت عام ١٩٠١) فيض من مختلف أنواع الأمثلة لمن ينبغي



دراسة الهفوات^(١٣). وجميع هذه الأمثلة تتمخض عن نتيجة واحدة لا تتبدل: إن للهفوات معنى، وهي تهدينا إلى سبل استخلاص هذا المعنى على ضوء الظروف المصاحبة لها. وسألزم جانب الاقتضاب اليوم، لأن كل قصدنا أن نستخلص من دراسة الهفوات عناصر تمهيدية للتمرس بالتحليل النفسي. وعليه، لن أحدثكم بعد إلا عن مجموعتين من الأمثلة: أمثلة تتصل بالهفوات المتراكمة والمتراكبة، وأخرى تتصل بتأكيد الأحداث التالية للهفوة صحة تأويلنا لها.

إن الهفوات المتراكمة والمتراكبة تؤلف بلا أدنى ريب أجمل تشكيلة من نوعها. ولو كان كل المطلوب أن نثبت أن للهفوات معنى ومغزى، لحصرنا اهتمامنا من البداية بهذه الهفوات وحدها، لأن معناها على درجة من الوضوح والجلاء بحيث لا يغيب حتى عن أشد العقول بلادة، ويفرض نفسه على الأذهان الخاملة كما على العقول ذات المنزع النقدي. فتراكم التظاهرات ينم عن مثابة يصعب عزوها إلى المصادفة، وتتفق كل الاتفاق، على العكس، مع فرضية قصد وغرض. وأخيراً، إن نيابة بعض الهفوات مناب غيرها تدلنا على أن الجانب المهم والأساسي في هذه الهفوات يجب التماسه، لا في شكلها ولا في الوسائل التي

١٣ - وكذلك ما جمعه أ. مايدر^(١٤) (بالفرنسية) وأ. آ. بريل (بالإنكليزية)، وإ. جونز^(١٥) (بالإنكليزية)، وج. ستارك^(١٦) (بالهولندية)، إلخ.

ه ألفونس مايدر: طبيب نفسي سويسري فرنسي اللغة (١٨٨٢ - ١٨٧١). انتمى إلى الحركة التحليلية النفسية وربطته علاقة حميمة مع فرويد. لكنه لم يلبث أن افرق عنه منذ عام ١٩١٣ لينتاز إلى مدرسة ك. غ. يونغ. له مؤلفات عديدة بالفرنسية والألمانية، ولا سيما عن الأحلام ورمزيتها قبل أن يصرف اهتمامه في خاتمة حياته إلى الأنثروبولوجيا الدينية. «م».

ه إرنست جونز: محلل نفسي بريطاني (١٨٧٩ - ١٩٥٨). اشتهر أول الأمر بسيرة حياة فرويد التي وضعها بعنوان حياة فرويد وفكره، ومؤسس الجمعية البريطانية للتحليل النفسي، وله دراسات تحليلية في الفن واللغة والأنثروبولوجيا، وقدم مساعدة كبيرة للمحللين النفسيين الذين لجؤوا إلى إنكلترا فراراً من الاضطهاد النازي. «م».

هه أوغست ستارك: طبيب نفسي هولندي (١٨٨٠ - ١٩٥٤). اكتشف التحليل النفسي ومارسه عصامياً من خلال قراءته كتاب فرويد تفسير الحلم. والإحالة هنا إلى مقاله الذي نشره في المجلة الدولية للتحليل النفسي عام ١٩١٦ تحت عنوان: انطلاقاً من الحياة اليومية. ويبدو أن فرويد أو الناشر الألماني أخطأ في اختصار اسمه إذ سقاه ج. ستارك بدلاً من أ. ستارك. «م».

تستخدمها، وإنما في القصد الذي تقوم هي نفسها على خدمته والذي يمكن أن يتحقق بطرق شتى.

سأسوق لكم الآن مثلاً على نسيان متكرر: يروي إ. جونز أنه ترك مرة على مكتبه لمدة بضعة أيام، ولأسباب يجهلها، رسالة كان قد كتبها. ولما عزم على إرسالها فعلاً ونفذ عزمه، أعادها إليه الـ Office Dead Letter (دائرة الرسائل المهملة)، لأنه نسي أن يضع عليها العنوان. فلما استصلح هذا السهو، وألقى بالرسالة من جديد في صندوق البريد، غفل هذه المرة عن لصق الطابع. وعندئذ لم يجد مناصاً من الإقرار بينه وبين نفسه بأنه لم تكن له رغبة حقيقية في إرسال الرسالة المذكورة.

وهاكم حالة أخرى يتراكم فيها استملاك الأشياء بطريق الخطأ مع استحالة الاهتمام بعد ذلك إلى موضعها. فقد قامت سيدة برحلة إلى روما مع صهرها، وهو رسام مشهور. وقد رحب الألمان المقيمون في روما بالزائر ترحيباً حاراً، واحتفلوا به، وقدموا إليه، في جملة الهدايا التي قدموها إليه، ميدالية ذهبية قديمة العهد. وقد ساء السيدة أن تلاحظ أن صهرها لا يقدّر هذه القطعة النفيسة حق قدرها. فلما حضرت أختها إلى روما، قفلت راجعة إلى بلدها، ولاحظت، وهي تفك حقيبتها، أنها حملت معها الميدالية من دون أن تدري كيف. وعلى الفور بادرت إلى إعلام صهرها وأبلغته أنها ستعيد الميدالية إلى روما في الغد. فلما كان الغد تعذر عليها أن تهدي إلى المكان الذي وضعتها فيه، واستحال عليها بالتالي إرسالها. وعندئذ حدثت السيدة بما يعنيه «سهوها»: فهي تؤدّ الاحتفاظ بالقطعة النفيسة لنفسها^(١٤).

لقد سقت إليكم من قبل مثلاً يتراكم فيه نسيان مع خطأ: إنه مثال ذاك الذي سها عن موعد المرة أولى، فعزم على ألا ينسأه مرة ثانية، لكنه لما وافى إلى الموعد الثاني رأى أنه قدم في غير الساعة المحددة. وقد روى صديق لي، ممن

١٤ - نقلاً عن ر. رايتلر^(١٤).

ه رودولف رايتلر: طبيب ومحل نفسي غماوي (١٨٦٣ - ١٩١٧). كان أول من مارس التحليل النفسي بعد فرويد. «م».

يهتمون بالعلوم والآداب معاً، قصة حادثة مشابهة من معين حياته الشخصية بالذات. قال: «وافقت، قبل بضعة سنوات، على أن أكون عضواً في مجلس إدارة إحدى الجمعيات الأدبية، اعتقاداً مني بأن الجمعية قد تساعدني ذات يوم على تقديم إحدى مسرحياتي على المسرح. وصرت كل يوم جمعة أحضر جلسات مجلس الإدارة، على غير اهتمام كبير من جانبي. ومنذ بضعة أشهر تأكد لي أن إحدى مسرحياتي ستقدم على مسرح ف...، وابتداء من ذلك اليوم صرت أنسى دوماً حضور الجلسات المذكورة. لكن لما قرأت ما كتبه عن هذه الأمور^(١٥) خجلت من مسلكي، وقلت بيني وبين نفسي ألومها إنني ما أحسنت فعلاً بانقطاعي عن الجلسات منذ أن انتفت حاجتي إلى المساعدة التي كنت أتأملها. وهكذا عقدت العزم على ألا أتخلف عن الحضور يوم الجمعة القادم. وظللت أفكر بذلك طوال الوقت، إلى أن كان اليوم الذي وجدت فيه نفسي أقف أمام باب غرفة الاجتماع. ولشد ما كانت دهشتي لما وجدته مقفلاً، إذ كانت الجلسة قد عقدت بالأمس! والحق أنني أخطأت في اليوم وذهبت السبت بدل الجمعة!».

ومع أنه بودي لو أمضي في سرد أمثال هذه الحالات على مسامعكم، إلا أنني أكتفي بهذا القدر، لأستعرض وإياكم بعض حالات من نوع آخر، وعلى وجه التحديد النوع الذي لا تتأكد فيه صحة تأويلنا إلا بما يقع من أحداث تالية له.

غني عن البيان أن الشرط الرئيسي في هذه الحالات أن نكون جاهلين بالموقف النفسي الراهن أو عاجزين عن إخضاعه لتحريتنا وتقضيئنا. وعندئذ لا يعدو تأويلنا أن يكون ضرباً من التخمين الذي لا نعلق عليه من أهمية. لكن لا يلبث أن يطرأ في وقت لاحق حادث ما، فتبين لنا منه صحة تأويلنا الأول. فقد دعيت يوماً إلى بيت زوجين شابين، فروت لي الزوجة أثناء زيارتي، وهي تضحك، أنها ذهبت في اليوم التالي لعودتها من شهر العسل لزيارة أختها - وما كانت بمتزوجة - لتصطحبها، كما كانتا تفعلان من قبل، إلى السوق لشراء بعض الحاجات، فيما الزوج الشاب قد مضى لشؤونه. وعلى حين غرة أبصرت في الجانب الآخر من

١٥ - أي على الأرجح ما كتبه فرويد في الطبعة الأولى من علم نفس أمراض الحياة اليومية. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



الشارع برجل يسير، وقالت لأختها وقد أشكل عليها قليلاً: «انظري، هوذا السيد ل...»، وقد سهت عن أن هذا السيد ليس أحداً آخر سوى زوجها الذي تزوجته قبل بضعة أسابيع. وقد تركت هذه القصة في نفسي انطباعاً مزعجاً، لكنني لم أشأ ساعثذ أن أسلم بالنتيجة التي لاح لي أنها تنطوي عليها. ولم أستذكر هذه القصة إلا بعد أن تصرمت عدة سنوات: فقد علمت يومئذ بالفعل أن زواج الزوجين الشابين قد آل إلى نهاية محزنة.

يورد أ. مايدر Maeder حالة سيدة نسيت، في اليوم السابق لزواجها، أن تذهب إلى الخياطة لتقيس ثوب عرسها، ولم تستذكر ذلك إلا في ساعة متأخرة من الليل. وهو يربط بين هذا النسيان وبين الطلاق الذي أعقب الزواج بقليل. وأعرف بدوري سيدة، هي اليوم مطلقة، اتفق لها تكراراً، قبل الطلاق بمدة طويلة، أن وقّعت بشهرتها قبل الزواج على وثائق تتعلق بإدارة أملاكها. وأعرف حالات نساء أخر أضعن، أثناء شهر العسل، خاتم زواجهن، وهو شيء أسبغت عليه الأحداث اللاحقة دلالة لا لبس فيها. ومما يروى أن كيماوياً ألمانيا شهيراً ما قَبِضَ له أن يعقد قرانه لأنه نسي موعد الاحتفال، ولأنه بدلاً من أن يقصد الكنيسة ذهب إلى مختبره. وكان على درجة كافية من الحصافة ليكتفي بهذه التجربة اليتيمة، وقد مات طاعناً في السن وعازباً.

لعل الفكر ينحو بكم إلى الافتراض بأن الهفوات تنوب، في جميع الحالات، مناب الـ «أومينا» Omina^(١٦)، أو النذر لدى القدماء. وبالفعل، إن بعض حالات الأومينا ما كانت تخرج عن أن تكون هفوات، كما عندما يتعرّض أحدهم أو يقع. لكن بعض الحالات الأخرى كان لها طابع الحدث الموضوعي، لا طابع الفعل الذاتي. لكن ليس لكم أن تتصوروا كم يصعب أحياناً أن نقطع في ما إذا كان حدث بعينه يندرج في عداد الفئة الأولى أو في عداد الفئة الثانية. فالفعل يعرف في كثير من الأحيان كيف يلبس قناع تجربة مُعاشة سالبة.

ولعل كل من خَلَفَ منكم وراءه ماضياً مديداً حافلاً بالتجارب سيقول بينه

١٦ - أومينا: باللاتينية في النص، جمع Omen، وهي الطيرة عند العرب. «م».



وبين نفسه إنه ربما كان وقّر على نفسه الكثير من الخيبات والمفاجآت المؤلمة لو تأتت له الشجاعة والعزيمة لتأويل الغفوات التي تقع على صعيد علاقات الناس ببعضهم بعضاً على أنها عوارض منذرة، ولاعتبارها قرائن على مقاصد ونيات لا تزال دفينية في الصدور. والحق أننا في أكثر الأحيان لا نجرؤ على فعل ذلك، لأننا نخشى أن نظهر بمظهر من يرتدّ إلى الخرافات والمعتقدات الباطلة، ناكصاً عن طريق العلم. وعلى كل حال، إن النذر لا تتحقق جميعها، ومتى ما ازددت معرفة بنظرياتنا فهتمم أنه ليس من الضروري أن تتحقق جميعها.

المحاضرة الرابعة

الهفوات (خاتمة)

سيداتي وسادتي، للهفوات معنى ومغزى: تلکم هي النتيجة التي لا مناص لنا من التسليم بها باعتبارها خلاصة ما تقدم منا من تنقيب، والتي ينبغي أن نتخذها أساساً لأبحاثنا التالية. ولنقلها مرة أخرى: إننا لا نؤكد (ومثل هذا التوكيد ليس بضروري من منظور الهدف الذي ننشد) أن كل هفوة لها دلالتها، ولو كنت أعتقد أن ذلك هو المرجح. حسبنا أن نتحقق من أن هذا الهدف متواتر الوجود نسبياً في مختلف ضروب الهفوات. وهناك على كل حال، ومن هذا المنظور، اختلافات بين ضرب وآخر. ففلتات اللسان وزلات القلم، إلخ، يمكن أن يكون لها أساس فيزيولوجي محض، ولو أنه يلوح لي أن هذا ضعيف الاحتمال في مختلف صنوف حالات النسيان (نسيان الأسماء والمقاصد، تعذر الاهتمام إلى موضع الأشياء، إلخ). كما أن هناك حالات من تضییع الأشياء لا يتدخل فيها على الأرجح أي قصد. وأعتقد أنه من واجبي أن أضيف أن الأخطاء التي ترتكب في مجرى الحياة لا يمكن الحكم عليها بدالة وجهات نظرنا إلا إلى حد معين. وأرجو أن تبقى هذه الحدود التي نضعها لفهمنا للهفوات ماثلة في أذهانكم حينما نعتد منطلقاً لأبحاثنا التالية الأطروحة القائلة إن الهفوات أفعال نفسية ناجمة عن تداخل قصدين.

تلکم هي النتيجة الأولى للتحليل النفسي. فقبل اليوم لم يكن علم النفس يشبه على الإطلاق في وجود هذه التداخلات أو يعرف شيئاً عن الظواهر التي تنشأ عنها. وقد شئنا على هذا النحو مساحة العالم النفسي توسيعاً مرموقاً، وأدرجنا في مضمار علم النفس ظواهر ما كانت من قبل تدخل في عدادها. لنقف لحظة أخرى بعد عند الأطروحة القائلة إن الهفوات «أفعال نفسية». فهل

نصادر بهذه الأطروحة على أن للهفوات معنى فحسب، أم أننا نقصد بها إلى ما هو أبعد من ذلك؟ لا أظن أن ثمة من داع للتوسع في مدلولها. فكل ما يمكن لنا أن نلاحظه في حياة النفس نصفه في الأرجح بأنه ظاهرة نفسية. والمطلوب فقط أن نعرف هل هذه الظاهرة النفسية أو تلك نتيجة مباشرة لعوامل بدنية، عضوية فيزيقية، مادية، وفي هذه الحال تخرج عن نطاق البحث السيكلولوجي، أم أنها ناشئة بصورة مباشرة عن سيرورات نفسية أخرى تكمن فيما وراءها فحسب، وفي مكان ما، سلسلة العوامل العضوية. هذا الاحتمال الثاني هو الذي يتجه إليه فكرنا حين نصف ظاهرة ما بأنها سيرورة نفسية، ولهذا قد يكون أقرب إلى الصواب أن نعطي أطروحتنا الشكل التالي: إن الظاهرة ذات دلالة، ولها معنى، أي أنها تتم عن قصد، عن ميل ومنزع، وتشغل بصورة أو بأخرى محلها في سلسلة من العلاقات النفسية.

ثمة ظاهرات أخرى كثيرة تشبه الهفوات، لكن هذا الاسم لا يصلح لها. ونحن نسميها بالأفعال العارضة Accidents أو العرضية Symptomatiques. وهي جميعها تتصف بصفات الفعل العديم الدلالة والحافز، والمجرد من الأهمية، وفي المقام الأول، الفائض عن الحاجة. لكن ما يميزها عن الهفوات بحصر المعنى هو انعدام وجود قصد عدائي ومتعدّد يعاكس القصد الأول ويعارضه. ثم إنها تتداخل وتلتبس، من جهة أخرى، مع الحركات والبادرات التي تفيد في التعبير عن الانفعالات. وتندرج في فئة الأفعال العارضة هذه جميع الملامسات التي لا هدف لها في الظاهر والتي تصدر عنا عندما نعبث بملابسنا، أو بأجزاء من جسمنا، أو بأشياء في متناول يدينا. وتدخل في عداد هذه الأفعال أيضاً الألحان التي نترنم بها، وبوجه العموم سائر الأفعال التي قد نمسك عنها، تماماً كما بدأنها، بلا دوافع ظاهرة. والحال أنني لا أتردد في الجزم بأن جميع هذه الظاهرات دالة، وقابلة للتأويل بمثل النحو الذي نؤوّل به الهفوات، وأنها بمثابة نذر وعلامات طفيفة تكشف عن سيرورات نفسية أخرى أجلّ شأناً منها، ومن ثم فهي أفعال نفسية بملء معنى الكلمة. لكن ليس في نيتي أن أطيل الوقوف عند هذا التوسيع لمضممار الظاهرات النفسية، بل أؤثر استئناف تحليل الهفوات التي تضع

نصب أعيننا بكل الجلاء المرغوب أخطر مسائل التحليل النفسي.

إن أهم الأسئلة التي طرحناها بصدد الهفوات والتي لم نجب عنها حتى الآن هي التالية: قلنا إن الهفوات تنجم عن تداخل قصدين مختلفين، يمكن وصف أولهما بأنه متعدي عليه وثانيهما بأنه متعدّد. فأما المقاصد المتعدّية عليها فلا تثير من مشكلة، وأما فيما يتعلق بالمقاصد المتعدّية فيهما فنحن نعرف في المقام الأول ما طبيعة هذه المقاصد القادرة على التعدي على غيرها، وفي المقام الثاني ما العلاقات التي تقوم بين المقاصد المتعدّية والمقاصد المتعدّية عليها.

اسمحوا لي أن أتخذ من جديد فلتة اللسان مثلاً لجنس الهفوات جميعاً، وبأن أجيب أولاً عن ثاني السؤالين.

إن العلاقة بين القصدين قد تكون علاقة مضمون، وفي هذه الحال يناقض القصد المتعدي القصد المتعدّية عليه أو يصحّحه أو يكمله. أو قد لا تكون هناك أية علاقة بين مضامين القصدين، وعندئذ تكون الحالة أشدّ غموضاً وأكثر إثارة للاهتمام.

إن الحالات التي باتت لنا بها معرفة وحالات أخرى مشابهة لها تتيح لنا أن نفهم بلا مشقة أولى تينك العلاقتين. ففي الغالبية العظمى من الحالات التي ينطق فيها المرء بعكس ما كان يريد قوله، يعتبر القصد المتعدي عن معارضة للقصد المتعدّية عليه، وتمثل الهفوة النزاع الناشب بين هذين الميلين اللذين لا توفيق بينهما. «أعلن افتتاح الجلسة، لكن كان بودي لو أفصّها»: ذلكم هو معنى فلتة لسان رئيس المجلس. وقد كتبت مرة صحيفة سياسية مهمة بالارتشاء تردّ التهمة عن نفسها في مقال كان يفترض أن يتلخص بالعبرة التالية: «يشهد قراؤنا على أننا كنا على الدوام الذائدين عن الصالح العام لغير غرض في أنفسنا». لكن المحرر المكلف بكتابة الرد أسقط كلمة غير وكتب يقول: «يشهد قراؤنا على أننا كنا على الدوام الذائدين عن الصالح العام لغرض في أنفسنا». وعندي أن المحرر قد كشف لنا بذلك عن دخيلة نفسه: «مفروض في أن أكتب شيئاً، لكنني أعرف أن العكس هو الصحيح». وقد أراد مرة أحد النواب أن يعلن أن الحقيقة لا بد أن تقال للإمبراطور بلا تخاذل، لكنه سمع للحال صوتاً داخلياً يحذّره من اجترائه

هذا، فإذا بلسانه يهفو ويستبدل عبارة «بلا تخاذل» Ruckhaltlos بعبارة «بلا تطاول» Ruckgratlos^(١).

أما في الحالات التي يكون فيها قوام فلتة اللسان الإدغام أو الاختصار - وهي حالات تعرفونها - فالمسألة هي مسألة تصحيحات وإضافات ومتابعات يفصح فيها قصد ثانٍ عن وجوده إلى جانب القصد الأول. «انكشفت أمور كثيرة، كلا، كان قصدي أن أقول: شريفة، فكانت النتيجة: انكشرت». «من يفهم ذلك من الناس يمكن أن يُعدّوا على أصابع يد واحدة، كلا، الحق أنه لا يوجد سوى شخص واحد يفهم هذه الأشياء؛ إذا فالأشخاص الذين يفهمونها يمكن أن يعدّوا على إصبع واحدة». أو كذلك: «يستطيع زوجي أن يأكل ويشرب ما يشاء، لكني لا أطيق، كما تعلمون، أن يشاء شيئاً ما، إذا فلا بد أن يأكل ويشرب ما أشاء». والفلتة، في هذه الحالات جميعاً، إنما تنجم، كما تعانون، عن مضمون القصد المتعدى عليه بالذات أو ترتبط به ارتباطاً مباشراً.

أما النوع الثاني من العلاقات بين القصدين المتداخلين فيبدو غريباً بالأحرى. فإن لم يكن بين مضمونهما رابط ما، فما مصدر القصد المتعدي، وكيف له أن يظهر أثره التعكيري في نقطة محددة بعينها؟ تتيح لنا الملاحظة، وهي وحدها القمينة بالإجابة عن هذا السؤال، أن نتحقق من أن التعكير ينشأ عن تيار أفكار كان يشغل ذهن الشخص المعني قبيل الفلتة، وأنه اقتحم عليه خطابه بتلك الطريقة الخاصة، وبالتالي كان من الممكن أيضاً (ولا أقول من الضروري) أن يتلبس تعبيراً آخر. ونحن هنا أمام صدى بملء معنى الكلمة، لكنه ليس بالضرورة وعلى الدوام صدى لكلمات منطوقة. وعليه، توجد هنا أيضاً رابطة تداع بين العنصر المتعدي والعنصر المتعدى عليه، لكن هذه الرابطة، بدل أن يكون المضمون مصدرها، اصطناعية خالصة، وينبع تكوينها من تداعيات قسرية.

هاكم مثلاً بسيطاً لاحظته بنفسي. التقيت ذات يوم في جبال الدولوميت^(٢)

١ - جسة الرايخستاغ الألماني، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٠٨. «م».

٢ - الدولوميت: سلسلة جبلية في الألب الإيطالي سُميت كذلك باسم الرحالة دولومو (١٧٥٠ - ١٨٠١) الذي له دراسات عن الزلازل والبراكين، وقد شارك في بعثة مصر. «م».



الجميلة سيدتين فيناويتين ترتديان ملابس السياح. فصاحبتهما بعض الطريق، وتبادلنا أطراف الحديث عن متع الحياة السياحية ومتاعبها. وأقترت إحدى السيدتين بأن يوم السائح لا يخلو من مضايقات، وقالت: «صحيح أنه ليس من الممتع أن يسير المرء طوال النهار تحت وهج الشمس حتى يبتل من العرق سترته وقميصه...». ولما وصلت إلى هذه الكلمات الأخيرة ترددت قليلاً، ثم أردفت تقول: «لكنه عندما يعود بعد ذلك إلى سرواله Nach Hose (بدلاً من أن تقول: إلى بيته Nach Hause) ويبدل ملابسه...». نحن لم نحلل بعد فلتة اللسان هذه، لكنني لا أرى من ضرورة لذلك. فقد كانت المرأة تقصد، في جملتها الأولى، أن تمضي في التعداد: السترة، القميص، السروال (Hose). غير أن داعي الحياء دعاها إلى الإمساك عن ذكر اللباس الداخلي الأخير هذا، فلما نظقت بجملتها التالية، وهي مستقلة تماماً في مضمونها عن الأولى، ظهرت فيها كلمة (Hose)، التي أمسكت عن النطق بها في اللحظة المرامية، وكان ظهورها على شكل تحريف لكلمة Hause.

في مستطاعتنا أن نعود الآن إلى السؤال الرئيسي الذي طالما أرجأنا النظر فيه، وأعني به: ما تلك المقاصد التي تفصح عن نفسها على هذا النحو الغريب بتعديها على مقاصد غيرها؟ من البديهي أنها مقاصد متباينة أشدّ التباين، لكننا نريد مع ذلك أن نستخلص سماتها المشتركة. فلو درسنا على ضوء ذلك طائفة من الأمثلة، لانتضح لنا بسرعة أنها قابلة للتصنيف في ثلاث مجموعات. المجموعة الأولى تدخل في نطاقها الحالات التي يكون فيها القصد المتعدي معروفاً للمتكلم، علاوة على إرهابه به قبل أن يهفو لسانه. وتضم المجموعة الثانية الحالات التي لا يعرف فيها المتكلم، مع إقراره بأن القصد المتعدي صادر عنه، أن هذا القصد كان نشطاً يفعل فعله في دخيلته قبل أن يزلّ لسانه بالهفوة. إنه يقبل إذاً بتأويلنا لهذه الأخيرة، لكنه لا يملك إلا أن يعرب عن دهشته منه. ولعله أيسر علينا أن نجد أمثلة لهذا الموقف في هفوات أخرى غير فلتات اللسان. أما المجموعة الثالثة فتضمّ حالات يحتج فيها الشخص المعني بقوة على التأويل الذي نعرضه عليه. فهو لا يكتفي بنفي وجود القصد المتعدي قبل وقوع الفلتة، بل يؤكد أيضاً

أن هذا القصد غريب عنه كل الغربة. تذكروا اقتراح ذلك المساعد الشاب بشرب «شخب» الرئيس، وردّه الجافي عليّ حين أوضحت لشارب هذا النخب طبيعة القصد المتعدي. وتعرفون أننا لم نفلح بعد في الاتفاق على كيفية فهم هذه الحالات. وفيما يتعلق بي، فإن احتجاج المساعد الشاب، شارب النخب، لا يشوش عليّ فكري ولا ينهاني عن التمسك بتأويلي، وربما بخلاف حالكم أنتم: فلعلمكم تتساءلون، وقد هالكم إنكاره، عما إذا لم يكن من الأفضل أن نطلع عن طلب تأويل لحالات من هذا النوع وأن نرى فيها محض أفعال فيزيولوجية، بالمعنى الذي كان لهذه الكلمة قبل عهد التحليل النفسي. ولا يشقّ عليّ أن أتكنهن بعلّة موقفكم هذا. فالتأويل الذي أتقدم به يترتب عليه أن الشخص المتكلم قد يفصح عن مقاصد ونيات يجهلها هو نفسه، بينما أقدر أنا على استنتاجها من قرائن معينة. وأنتم ترددون في قبول هذه الدعوى الغريبة والمثقلة بالعواقب. ومع ذلك، لو شئتم أن تبقوا ملازمين جانب المنطق في تصوركم للففوات المستند إلى كثرة من الأمثلة، يتعين عليكم ألا ترددوا في قبول هذه الدعوى، مهما بدت لكم مغربة. فإن تعذر عليكم ذلك، فما عليكم إلا أن تنفضوا أيديكم من فهم الففوات رغم ما استأداكم من مشقة وعناء.

لنقف هنيهة عند ما يربط بين المجموعات الثلاث التي تقدم بيانها، أي عند ما هو مشترك بين الآليات الثلاث لفلته اللسان. من حسن الحظ ثمة، من هذا المنظور، واقعة تقف فوق كل شبهة. ففي المجموعتين الأوليين، يعترف الشخص المتكلم نفسه بالميل المتعدي، ناهيك عن أن هذا القصد المتعدي يفصح عن نفسه في المجموعة الأولى قبل وقوع الفلته مباشرة. لكن في المجموعة الأولى كما في الثانية يبقى القصد المذكور مقموماً. وبما أن الشخص المتكلم عقد العزم على عدم السماح له بالإفصاح عن نفسه في كلامه، نراه يتورط في فلة اللسان، أي أن القصد المقموع يشفّ عن وجوده رغم أنف الشخص المعني، إما بتعديله القصد المجهور به، وإما بالاختلاط والالتباس به، وإما أخيراً بالحلول محله. تلکم هي إذاً آلية فلة اللسان.

إن وجهة نظري هذه تتيح لي أن أفشّر بالآلية نفسها حالات المجموعة الثالثة.

فما عليّ إلا أن أفترض أن الفارق الوحيد القائم بين مجموعاتي الثلاث فارق في درجة قمع القصد المتعدي. ففي المجموعة الأولى يكون القصد موجوداً ومدرَكاً من قبل الشخص المتكلم قبل تظاهره، وعندما يحدث القمع يقتصر منه القصد لنفسه بقلّة اللسان. وفي المجموعة الثانية يكون القمع أشدّ وأفعّل، فلا يتنبه الشخص المتكلم لوجوده قبل بدء التكلم. والمدهش في الأمر أن هذا القمع، على عمقه، لا يمنع القصد من المشاركة في استحداث القلّة. وهذا ما يسهّل علينا كثيراً تفسير ما يجري في المجموعة الثالثة. ولن أحجم حتى عن الادعاء بأن الهفوة قد تكون تعبيراً عن قصد جرى قمعه منذ زمن بعيد، بل منذ زمن بعيد جداً، بحيث لا يعود الشخص المتكلم يفتن إلى وجوده أصلاً، ويكون صادقاً إلى حدّ كبير عندما ينكر هذا الوجود. لكن لو صرفنا النظر عن المشكلة المتعلقة بالمجموعة الثالثة، فلن يكون أمامنا مناص من التسليم بالنتيجة التي تفرضها ملاحظة حالات أخرى، وهي أن قمع الميل إلى قول شيء بعينه هو الشرط اللازم لحدوث القلّة.

بوسعنا أن نقول الآن إننا أحرزنا تقدماً جديداً في فهم الهفوات. فنحن لا نعرف فحسب أن هذه الهفوات أفعال نفسية ذات معنى وتنطوي على قصد، وأنها تنجم عن تداخل قصدين متباينين، بل نعرف أيضاً أن أحد هذين القصدين لا بدّ أن يكون قد تعرّض لقدر من القمع قبل النطق بالكلام كيما يتأتى له أن يتظاهر بتعديّه على القصد الآخر. ولا بدّ أن يكون قد عانى هو نفسه من التعدي حتى يتمكن بدوره من التعدي على غيره. وغني عن البيان أن هذا لا يوفر لنا فهماً كاملاً بعد للظواهر التي نسميها بالهفوات. بل سرعان ما تعرض لنا مسائل أخرى، ونستشعر بصفة عامة أننا كلما تقدمنا في دراستنا انفسح المجال أمامنا لطرح المزيد من الأسئلة الجديدة. فبوسعنا أن نتساءل، على سبيل المثال، إن لم تكن الأمور تجري على منوال أبسط بكثير. فعندما يعزم المرء على قمع قصد معين، بدلاً من أن يتركه يفصح عن نفسه، فالمفروض أن تواجهنا حالة من اثنتين: إما أن ينجح القمع، وعندئذ لن يظهر شيء من القصد المتعدي، وإما أن يفشل القمع، وعندئذ لا مفرّ من أن يفصح هذا القصد عن نفسه على نحو سافر

وكامل. لكن الهفوات تنجم عن تسوية وحل وسط؛ فهي تدلّ على أن القمع حقق نجاحاً جزئياً ومُني بفشل جزئي، وأن القصد المهدّد إن لم يكن قد انتفى بتمامه فقد جرى قمعه بالقدر الذي يكفي ليحول بينه وبين التظاهر كما هو، بلا تحريف، فيما عدا حالات استثنائية. ومن حقنا أن نفترض أن حدوث ذلك التداخل أو تلك التسوية على أساس الحل الوسط مرهون ببعض شروط خاصة، لكننا لا نملك أية فكرة عن طبيعة هذه الشروط. ولا اعتقد أن المزيد من التبحر في دراسة الهفوات من شأنه أن يساعدنا على اكتشاف هذه الشروط المجهولة. فللوصول إلى هذه النتيجة، لا بدّ لنا أن نرود ونستكشف بالأول مناطق مظلمة أخرى من الحياة النفسية، ووحدها التماثلات التي سنقع عليها فيها ستمدنا بالشجاعة اللازمة لصياغة الفرضيات القمينة بإيصالنا إلى تفسير أكمل للهفوات. لكنّ هناك شيئاً آخر بعد! فعندما ينهض عملنا على قرائن طفيفة - شأننا هنا - نبقي بالضرورة عرضة لبعض الأخطار. وأذكر بهذا الصدد أن ثمة مرضاً نفسياً يسمى بالبارانويا المتراكبة، والمصاب به يسرف إسرافاً شديداً لا حدّ له في استخدام القرائن الطفيفة، ولا يسعني طبيعة الحال أن أجزم بأن كل النتائج التي تُستنتج على هذا الأساس صحيحة. ولن يتسنى لنا أن نتفادى هذه المخاطر إلا إذا بنينا ملاحظتنا على أوسع أساس ممكن، وذلك بفضل تكرار انطباعات مشابهة صادرة عن مضامير الحياة النفسية الأكثر تبايناً.

سنتوقف إذاً هنا عن تحليل الهفوات. غير أنني سأوصيكم بما يلي: أن احفظوا في ذاكرتكم الطريقة التي عاجلنا بها هذه الظاهرات على أنها نموذج. وعلى ضوء هذه الطريقة يتسنى لكم من الآن أن تبتينوا ما المقاصد التي يرمي إليها علمنا النفسي. فنحن لا نريد فقط أن نصف الظاهرات ونصنّفها، بل نبغي أيضاً أن ننظر إليها على أنها قرائن على اصطراع قوى بعينها في داخل النفس، وعلى أنها تعبير عن ميول تسعى إلى بلوغ هدف محدد، إما متضافرة أو متنافرة. وما نسعى إليه نحن هو تكوين تصور دينامي عن الظاهرات النفسية. وعندنا أن الظاهرات الواقعة تحت الإدراك لا بدّ أن تكون ضئيلة الأهمية بالمقارنة مع الميول التي نفترضها افتراضاً لا غير.

لن نمضي إذأ في دراسة الهفوات، غير أنه لا يزال بوسعنا أن نقوم في هذا الميدان بجولة خاطفة نلتقي فيها بأشياء معروفة لدينا من قبل، ونكتشف بعض أشياء أخرى جديدة. وتمهيداً لذلك نعلن من جديد تمسكنا بالتقسيم الثلاثي الذي اعتمدناه في مستهل بحثنا: أ - فلتة اللسان وتفرعاتها إلى زلات قلم وأغلاط قراءة وسوء سمع؛ ب - النسيان وتفرعاته بحسب الموضوع المنسي (أسماء الأعلام، الألفاظ الأجنبية، المشاريع، الانطباعات)؛ ج - الغلط في الحركة مثل تضييع الأشياء واستحالة الاهتداء إلى موضعها. أما الأخطاء فلا تعنينا إلا من حيث ارتباطها جزئياً بالنسيان، أو بالغلط في الحركة، إلخ.

لقد أسهنا في الكلام عن فلتة اللسان، ومع ذلك لا يزال لدينا ما نود أن نضيفه بصدها. ففلتة اللسان ترتبط بها ظاهرات وجدانية طفيفة ليست غفلاً من الأهمية. فالمرء لا يعترف عن طيب خاطر بأنه تورط في فلتة لسان، وكثيراً ما يتفق له أن يفوته سماع الفلتة التي هفا بها لسانه، بينما لا يفوته البتة سماع الفلتة التي يهفو بها لسان غيره. كذلك إن الفلتة معدية إلى حد ما، فليس يسيراً على المرء أن يتكلم عن الفلتات من دون أن يتورط هو نفسه في واحدة منها. وحتى الفلتات العادمة الدلالة، والتي لا تعلمنا شيئاً ذا بال عن السيرورات النفسية الخفية، لها مع ذلك أسبابها التي لا يعسر كشفها. فحين يأخذ المرء اضطراب ما وهو ينطق بكلمة بعينها، كأن يقصر حرف مدّ، نراه لا يتخلف عن مدّ حرف القصر التالي مباشرة، مرتكباً بذلك فلتة جديدة ترمي إلى التعويض عن الأولى. وكذلك الأمر عندما يدغم المرء عن خطأ أو إهمال حرفين متماثلين متتاليين: إذ نراه يعمل على تصحيح خطئه بفكه إدغام الحرف المضعّف التالي مباشرة، فكأنّي بالشخص المتكلم يحرص على أن يظهر لسامعه أنه يعرف لغة قومه وأنه ليس ممن يستهينون بالنطق الصحيح. فالتحريف الثاني، الذي يسعنا وصفه بأنه تعويضي، يهدف على وجه التحديد إلى لفت انتباه السامع إلى التحريف الأول وإلى إفهامه أنه تنبه له هو نفسه. إن أبسط أنواع الهفوات وأكثرها تواتراً وانعدام دلالة تكمن في إدغامات واستباقات تطرأ على أجزاء غير ذات أهمية من الكلام. فالفلتة التي يهفو بها لسان المرء، أثناء نطقه بجملة طويلة بعض الشيء على سبيل المثال، هي

أن يلفظ استباقاً بآخر كلمة مما يريد قوله. وهذا يوحي وكأن الشخص المتكلم ضاق ذرعاً بالجملة، فأراد إنهاؤها كيفما اتفق، وينمّ إجمالاً عن نفور الشخص المعني من توصيل هذه الجملة أو عن رغبة في الإمساك عن الكلام نهائياً. وهذا يقودنا إلى الحالات التي هي بين بين والتي يتلاشى فيها الفارق بين التصور التحليلي النفسي لفلتة اللسان وبين تصورها الفيزيولوجي المعتاد. ونحن نزعم أن هذه الحالات تنطوي على ميل يشوّس القصد المفترض بالكلام أن يفصح عنه ويتعدى عليه، لكن هذا الميل يعلن عن وجوده فقط، وليس عن الهدف الذي ينشده. أما التشويش الذي يحدثه فيجري في قناة بعض المؤثرات الصوتية أو بعض التداعيات اللفظية، ومن الممكن اعتباره وسيلة لصرف الانتباه عما يراد قوله. لكن لا تشتت الانتباه هذا، ولا تداعيات الألفاظ هذه، بكافيين لتحديد طبيعة السيرورة. ولئن كان كلاهما ينمّان عن وجود قصد متعدّد، إلا أننا لا نستطيع أن نعرف شيئاً عن طبيعة هذا القصد من مفاعيله وآثاره على نحو ما نستطيع ذلك في الحالات الواضحة من فلتات اللسان.

أطرق الآن باب كبوات القلم التي تشبه فلتات اللسان إلى حدّ يتعذر معه أن تمدّنا بوجهة نظر جديدة. لكن لنحاول مع ذلك أن نبش ما يمكن نبشه في هذا المضمار. فالأغلاط، والإدغامات، وتسبيق رسم الكلمات، وعلى الأخص الكلمات التي يفترض أن يأتي ترتيبها في الأخير، كل هذه الظواهر تشهد بجلاء على سأم من الكتابة وعلى جزع إلى الفراغ منها؛ فإن كانت مفاعيل كبوة القلم ونتائجها أكثر بروزاً، أمكن لنا أن نعرف طبيعة الميل المتعدي وقصده. ونحن نعرف بصفة عامة، حين نقع على زلة قلم في رسالة، أن الشخص الذي كتب هذه الرسالة لم يكن في حالته الطبيعية مئة بالمئة، ولكننا لا نستطيع دائماً أن نعرف ما كان خطبه. ومن يزلّ به قلمه، مثله مثل من يهفو به لسانه، نادراً ما ينتبه إلى خطئه. وهنا ننوه بالملاحظة التالية المثيرة للاهتمام: فهناك من الناس من درج على معاودة قراءة ما يخطّه من الرسائل قبل إرسالها، ومنهم من لا يفعل ذلك. ولكن حتى لو اتفق له أن يكون عاود القراءة، فسيستنى له دوماً أن يعثر على غلطة فاضحة وأن يصححها. فكيف نفسر هذا الأمر؟ فلنأخذ هؤلاء

الأشخاص يعرفون أن قلمهم كبا بهم وهم يحررون الرسالة. لكن هل لنا أن نصدّق ذلك حقاً؟

أما الأهمية العملية لزللات القلم فتتضح من المشكلة الطريفة التالية. فلعلكم تذكرون قصة السفاح هـ الذي أوهم الناس بأنه اختصاصي في دراسة الجراثيم، فكان يحصل من المعاهد العلمية على جراثيم مزروعة ذات أثر إمراضي شديد الخطورة، ويستخر هذه المزروعات للقضاء بمثل هذه الطريقة العصرية جداً على من تجمعهم وإياه صلة جوار من الناس. وقد وجّه هذا الرجل يوماً إلى إدارة معهد من تلك المعاهد رسالة يتشكى فيها من عدم فعالية المزروعات التي أرسلت إليه، لكن قلمه كبا به، فكتب: «في تجاربي على الجيهران»، بدلاً من «تجاربي على الفيهران». وقد استرعت هذه الزلة انتباه أطباء المعهد المذكور، ولكن من دون أن يستخلصوا منها، على حدّ ما أعلم، أي استنتاج. أفلا تعتقدون أنه كان من المرجّح لو رأى الأطباء في هذه الزلة اعترافاً وإقراراً، وطالبوا بتحقيق كان من شأنه أن يضع في وقت مبكر جداً لجرائم ذلك السفاح؟ ألا ترون أن الجهل بتصورنا للهفوات كان في تلك الحالة سبباً في تأخير يؤسف له أشد الأسف؟ أما فيما يتعلق بي، فما كانت تلك الزلة لتفوتني من دون أن تبتعث في نفسي رية كبيرة، لكن اتخاذها إقراراً واعترافاً تنهض دونه عقبات كأداء. فالأمر ليس من البساطة ما يبدو. فزلة القلم قرينة لا مرأى فيها، لكنها لا تكفي وحدها لتبرير فتح تحقيق جنائي. صحيح أنها تشهد على أن الرجل مشغول البال بفكرة نقل العدوى إلى أقرانه، لكنها لا تبيح لنا أن نفصل في ما إذا كانت هذه الفكرة صادرة عن خطة مبيّنة لاقتراف الشرّ، أم هي مجرد تخيّل لا تترتب عليه أية نتيجة عملية. بل من المحتمل أن يجد الرجل الذي تورّط في زلة القلم تلك خير الحجج الذاتية لإنكار هذا التخيّل وللتنصل منه كما لو أنه غريب عنه كل الغربة. ولسوف تردّدون فهماً لهذه الحالات متى ما عرضنا لاحقاً للفارق بين الواقع النفسي والواقع المادي^(٣). على أن هذا لا يغيّر شيئاً في واقع أن الحالة التي فضّلناها هي من الحالات التي تكتسب فيها الهفوة في زمن تالي أهمية غير متوقعة.

٣ - انظر لاحقاً المحاضرة الثالثة والعشرين. «م».

وإن انتقلنا الآن إلى عثرات القراءة، واجهنا موقف نفسي يختلف اختلافاً يَبِيناً عنه في فلتات اللسان وكبوات القلم. فأحد القاصدين المتصارعين ينوب منابه هنا تنبيه حسّي، وهذا ما قد يجعله أضعف مقاومة. فما نقرؤه لا ينبثق من حياتنا النفسية، نظير الأشياء التي قد نشاء كتابتها. لذا يكون قوام عثرات القراءة في أغلب الأحوال إبدالاً شاملاً. فالكلمة المطلوب قراءتها تستبدل بأخرى، من دون أن تكون هناك بالضرورة صلة مضمون بين النص وبين محصلة الخطأ، على اعتبار أن الإبدال يتم بوجه عام بدالة تشابه بسيط بين الكلمتين. ومثال ليختنبرغ، الذي كان يقرأ Agamemnon بدلاً من Angenommen، خير ما يمكن سوفه من أمثلة على هذه الفئة من الهفوات. وإن شئنا أن نكتشف القصد المتعدي، التسبب في العثرة، فلا بد أن نضرب صفحاً عن النص المغلوطة قراءته وأن نبداً الفحص التحليلي بطرحنا هذين السؤالين: ما أول فكرة تخطر بالبال، وتكون أقرب الأفكار إلى العثرة؟ وما الوضع الذي تحدث فيه هذه العثرة؟ وقد تكون معرفة الوضع كافية أحياناً بحدّ ذاتها لتفسير العثرة. ومن ذلك أن رجلاً كان يتجول في مدينة غريبة، فألحت عليه حاجة طبيعية، فأبصر في أعلى الطابق الأول من أحد المنازل لافتة كتب عليها: «مرحاض» Closet Haus. وما كادت تأخذه الدهشة لوجود اللافتة على مثل ذلك الارتفاع، حتى أدرك أنه كان ينبغي أن يقرأ «محل مشدّات خصور» Corset Haus. وفي حالات أخرى، تتطلب العثرة، على وجه التحديد لأنها مستقلة عن مضمون النص، تحليلاً معمقاً لا يصل إلى مبتغاه ما لم يكن القائم به متمرساً بتقنية التحليل النفسي وله بها ثقة. لكن تفسير عثرة القراءة أبسر من ذلك شأنًا بكثير في غالب الأحوال. فكما في مثال ليختنبرغ تنمّ الكلمة البديلة بغير عناء (أغاممنون بدلاً من أنغينومن) عن تيار الأفكار الذي كان مصدر التشويش. وكثيراً ما يتفق للمرء، في زمن الحرب مثلاً، أن يقرأ أسماء مدن وقادة عسكريين وتعايير عسكرية من قبيل تلك التي تفرع سمعه في كل آن وحين، كلما وقع نظره على كلمات بها بعض الشبه بتلك الأسماء والتعايير. فما يشغل بالنا ويستأثر باهتمامنا يحلّ محلّ ما هو غريب عنا وما لا نأبه له بعد. فانعكسات أفكارنا تشوش علينا إدراكاتنا الجديدة.

وكثيراً ما تقدّم لنا عثرات القراءة أيضاً حالات يتسبب فيها النص المقروء نفسه في إيقاظ الميل المتعدي لقلبه في كثير من الأحيان إلى نقيضه. ومثل هذه العثرات تنم عن عدم رغبة في متابعة القراءة، والتحليل كفيل بأن يظهر لنا أن الرغبة المضطربة في تحاشي المقروء هي المسؤولة عن تحريفه.

إن العاملين اللذين عزونا إليهما دوراً هاماً في الهفوات لا يلعبان في أكثر عثرات القراءة ذيوياً، من أشباه تلك التي ذكرناها في مستهل هذه الفقرة، سوى دور ثانوي للغاية: ونعني بهذين العاملين النزاع بين القصدين وقمع أحدهما قمعاً يجبره على الردّ والإعلان عن نفسه من خلال الهفوة. ولا نقصد بذلك أن عثرات القراءة تتسم بصفات معاكسة لهذين العاملين، وإنما يكون إلحاح تيار الأفكار الذي يتسبب في عثرة القراءة أقوى بكثير من القمع الذي يكون هذا التيار قد تعرض له من قبل. وأجلى ما يكون تأثير العاملين المشار إليهما في شتى تظاهرات الهفوة الناشئة عن النسيان.

إن نسيان القرارات ظاهرة لا يصطدم تفسيرها بأية صعوبة، ولا يماري فيه حتى عامة الناس، كما أسلفنا البيان. فالميل الذي يشوّش تنفيذ القرار هو على الدوام قصد مضاد، رغبة معاكسة، وكل المطلوب منا أن نعرف لماذا لا تفصح عن نفسها على نحو مغاير وبصورة أقل تنكراً وخفاء. وقد نفلح أحياناً في معرفة شيء عن الأسباب التي تقتضي إخفاء تلك الرغبة المضادة: ذلك أنها عندما تنتكر تدرك على الدوام هدفها وتحققه في الهفوة، في حين أنها تعرف عن ثقة بأنها ستُحجى جانباً وتُبدد فيما لو أعلنت عن نفسها بصفتها رغبة منوثة سافرة. وإذا ما طرأ، في الفترة الفاصلة بين التصميم على قرار من القرارات وبين تنفيذه، تغير هام في الموقف النفسي، من شأنه أن يلغي الحاجة إلى تنفيذ هذا القرار، فإن نسيان هذا الأخير لا يعود ضرباً من الهفوة، كما لا يعود يشير الاستغراب، إذ يكون قد محي من الذاكرة بصورة دائمة أو مؤقتة. والحق أن نسيان القرار لا يمكن أن يعتبر ضرباً من الهفوات إلا في الحالات التي لا يمكننا فيها أن نعتقد بوجود مثل ذلك التعليق للقرار.

إن حالات نسيان القرارات هي بوجه عام على درجة من الجلاء ووحدانية

النمط بحيث لا تنطوي على فائدة بالنسبة إلى مبحثنا هذا. بيد أن دراسة هذا الصنف من الغفوات يمكن أن تفيدنا بشيء جديد في ناحيتين. فقد قلنا إن النسيان، أي عدم تنفيذ قرار من القرارات، يتم عن رغبة مضادة مناوئة له. وهذه حقيقة ثابتة، لكن الرغبة المضادة يمكن أن تكون، بحسب ما نستدلّه من بحوثنا، مباشرة أو غير مباشرة. وخير ما نفعله لإيضاح ما نعنيه بالرغبة غير المباشرة أن نسوق مثلاً أو مثالين. فعندما ينسى الوصي أن يزكّي ربيبه لدى شخص ثالث، فقد يكون مردّ نسيانه إلى أنه لا يهتمّ لربيبه اهتماماً فعلياً، فلا تساوره رغبة حقيقية في تركيته. أو هكذا على الأقل سيفسّر الريبب نسيان الوصي. لكن الوضع قد يكون أكثر تعقيداً. فقد يكون عزوف الوصي عن تنفيذ ما عزم عليه نابعاً من مصدر آخر وقابلاً للتفسير على نحو آخر. وعلى الأخص، قد لا يكون للريبب من ضلع بالنسيان الذي قد يكون متعيّناً بدوره، في هذه الحال، بأسباب تتعلق بالشخص الثالث. وأنتم ترون من هذا مدى ما قد يكون من صعوبة في الاستخدام العملي لتأويلاتنا. فالريبب، رغم صحة تأويله، قد يعرض نفسه لخطر الإسراف في الريبة، وبالتالي وقوف موقف غير منصف من وصيه. أو أخذوا أيضاً مثل شخص ضرب موعداً لآخر، وعقد العزم على موافاته إليه، ثم أخلف وعده من جراء النسيان. إن تفسير هذا النسيان ينبغي البحث عنه في معظم الحالات، وبحسب ظاهر الحق، في وهن الودّ الذي يكنّه الناسي للشخص الذي كان يفترض به أن يلاقيه. لكن قد يدلّ التحليل، في هذه الحال، أن القصد المتعدي لا صلة له بالشخص المضروب له الموعد، بل فقط بالمكان الذي ضرب فيه هذا الموعد، وأن المحلف وعده كان يعاف التواجد فيه لارتباطه بذكرى مؤلمة. وهاكم مثلاً آخر: فحين ينسى المرء أن يرسل رسالة كتبها، فقد يكون مردّ القصد المتعدي إلى مضمون الرسالة ذاته، لكن من الممكن أيضاً أن يكون هذا المضمون عادياً تماماً بحدّ ذاته، لكنه ينطوي على شيء يذكّر بمضمون رسالة أخرى، كتبت في زمن سابق، فيتحوّل مباشرة إلى مصدر للقصد المتعدي، وعندئذ يجوز لنا القول إن الرغبة المضادة امتدت من الرسالة السالفة - حيث كان لها ما يبررها - إلى الرسالة اللاحقة التي لا تبررها على الإطلاق. وهكذا ترون أنه لا مناص لنا

من مراعاة الحذر والحيلة، حتى في تأويلاتنا التي تبدو في الظاهر على درجة كبرى من الصحة والدقة؛ ذلك أن ما يكون ذا مدلول واحد من وجهة النظر السيكولوجية يمكن أن يكون قابلاً لتأويلات عدة من وجهة النظر العملية.

قد يلوح لكم أن أمثال هذه الظاهرات التي حدّثكم عنها خارقة للمألوف. وقد تتساءلون عما إذا لم تكن الرغبة المضادة «اللامباشرة» هي التي تضفي طابعاً مرضياً على سيرورة تمخض الظاهرة. لكن بوسعي أن أجزم لكم أن هذه السيرورة لا تتنافى أيضاً مع حالة الصحة والسواء. غير أنني أرجو أن تحسنوا فهمي. فلست أميل بحال إلى التسليم بأن تأويلاتنا التحليلية تكتنفها الريية ولا يمكن الركون إليها. ذلك أن إمكانية تعدد تأويلات نسيان القرارات تبقى قائمة فقط ما دمتما نشرع بعد بتحليل الحالة، وما دامت تأويلاتنا لا تستند إلى أساس غير فرضياتنا ذات الصفة العامة. أما عندما ننكبّ على تحليل الشخص المعني، فإننا نتحقق بتيقن كافٍ مما إذا كان الأمر يتعلق بالفعل برغبة مضادة مباشرة ومما إذا كان من المحتمل أن يكون لها مصدر آخر.

هذا من ناحية أولى، أما من الناحية الثانية فإننا متى ما تثبتنا من أن نسيان القرارات يرتدّ في عدد كبير من الحالات إلى رغبة مضادة، كان لنا في هذا ما يشجّعنا على تعميم النتيجة نفسها على سلسلة أخرى من الحالات التي لا يكفي فيها الشخص المحلّل بالامتناع عن تأكيد وجود الرغبة المضادة التي استتجناها، بل ينكرها أيضاً إنكاراً باتاً. خذوا مثلاً على ذلك كثرة الحالات التي ينسى فيها المرء أن يعيد الكتب التي استعارها، أو أن يدفع الفواتير، أو أن يسدد الديون. من الواجب إذاً أن تكون لنا الجرأة على مجاهرة الشخص المعني بأنه عاقد النية في دخيلة نفسه على الاحتفاظ بالكتب وعلى عدم تسديد ديونه، حتى وإن أنكر هذا الشخص ما ننسبه إليه من نية، ولكن من دون أن يقدر في الوقت نفسه على تعليل مسلكه لنا بأسباب أخرى. إننا سنقول له إن هذه نيته، وإن كان لا يفطن إليها، وإنه حسبنا نحن أن تنم عن نفسها من خلال النسيان. وسيجيبنا الشخص المعني أنه لهذا على وجه التحديد لا يتذكرها. وهكذا تروننا ننتهي إلى وضع كنا قد مررنا به من قبل. فحرصنا على المضي بتأويلاتنا للهفوات إلى نهاياتها المنطقية،

على ما تتسم به هذه التأويلات من تنوع وما تركز إليه من مسوغات، قادنا إلى الافتراض بأنه توجد لدى الإنسان ميول ونزعات قادرة على أن تفعل فعلها من دون علمه ودرايته. لكننا بصياغتنا هذه الأطروحة نكون قد وقفنا موقف المعارضة من جميع التصورات المعتمدة في الحياة وفي علم النفس.

إن نسيان أسماء الأعلام والأسماء الأجنبية، وكذلك الألفاظ الأجنبية، قابل بدوره للتفسير بقصد معاكس يرتبط بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالاسم أو باللفظ المنسي. وقد ضربت لكم أنفاً عدة أمثلة على النفور المباشر من بعض الأسماء والألفاظ. لكن في هذا النوع من حالات النسيان يكون التعليل اللامباشر هو الغالب ولا سبيل في أكثر الأحوال للكشف عنه إلا بتحليل دقيق. وهكذا نجد أن الحرب الأخيرة^(٤)، بحكم ما اضطررنا إليه من العزوف عن كثير من روابطنا العاطفية السالفة، قد خلقت في نفوسنا متداعيات غريبة عجيبة كان من نتيجتها إصابتنا بالوهن في تذكر أسماء الأعلام. فقد اتفق لي مؤخراً أن عجزت عن استذكار اسم مدينة بيزنس Bisenz المورافية الوديعة، وقد دلّ التحليل أن مرد ذلك ليس إلى صمود في نفسي عن هذه المدينة، وأن النسيان ناجم بالأحرى عن التشابه الذي بين اسمها واسم قصر بيزنسي Bisenzi في أورفيتو Orvieto،^(٥) وكنت قد أزجيت فيه أوقاتاً هنيئة فيما غبر من الأيام. وهنا يواجهنا، لأول مرة، مبدأ سيتكشف لنا لاحقاً مدى أهمية الدور الذي يلعبه، من منظور التعليل القصدي لنسيان الأسماء، في تعيين الأعراض العصائية: ونعني به رفض الذاكرة استحضار ذكريات مقترنة بمشاعر مؤلمة، ذكريات من شأنها لو استحضرت أن تجدد مشاعر الألم هذه. ولزام علينا أن نتعرف في هذا الميل إلى تحاشي الكدر الذي قد تسببه الذكريات أو غيرها من الأفعال النفسية، في هذا الفرار النفسي من كل ما هو مؤلم موجه، العلة الفعالة النهائية لا لنسيان الأسماء فحسب، بل أيضاً لكثير من الهفوات، كالسهو والغلط، إلخ.

٤ - يقصد الحرب العالمية الأولى. «م».

٥ - مدينة صغيرة في وسط إيطاليا ذات ماضٍ عريق. «م».

لكن يبدو أن ثمة عوامل نفسية/ فيزيولوجية تسهّل نسيان الأسماء بوجه خاص، لذا قد نلاحظ حدوثه حتى في الحالات التي لا يتدخل فيها أي عنصر ذو صلة بإحساس مكرر. وحين تواجهون شخصاً به ميل إلى نسيان بعض الأسماء، فسيتيح لكم البحث التحليلي على الدوام أن تتحققوا من أنه إذا كانت بعض الأسماء تغيب عن ذاكرته فليس ذلك لنفور به منها أو لأنها تذكره بما يكره، بل لأنها تنتمي إلى دائرة أخرى من دوائر التداعي وتتصل بها اتصالاً أوثق. فلكن أن هذه الأسماء قد شدّت وثاقها إلى هذه الدائرة وسُمرت عليها، ومُنعت عنها التداعيات الأخرى التي قد تتكون تبعاً للظروف. فلو تذكّرتم ما يلجأ إليه بعض الناس من حيل لتقوية ذاكرتهم، لأدركتم بشيء من الدهشة أن الأسماء تنتسى بفعل نفس الترابطات التي يصطنعها المرء عن قصد وعمد ليتحاشى نسيانها. ومن الأمثلة النموذجية على ذلك أسماء الأشخاص التي لا بدّ أن يكون لها - هذا بدهي - دلالة نفسية مختلفة عند الناس تبعاً لاختلافهم بدورهم. خذوا اسم «تيودور» مثلاً. فهو لا يعني شيئاً بالنسبة إلى بعضكم، لكنه عند بعضكم الآخر اسم أب أو أخ أو صديق أو اسمه الشخصي بالذات. وستدركم التجربة التحليلية أن الفريق الأول بمنجى من أن ينسى أن ثمة شخصاً أجنبياً يحمل هذا الاسم، بينما سينزع الفريق الثاني على الدوام إلى أن يضرّ على الغريب باسم يلوح له أنه وقف على معارفه الشخصيين. فإذا ما أضفتم الآن إلى هذا العائق الترابطي تأثير مبدأ الكدر وكذلك وجود آلية غير مباشرة، أمكنكم أن تكونوا فكرة مطابقة عن درجة تعقيد أسباب النسيان المؤقت لاسم من الأسماء. غير أن التحليل المعمّق كفيل بأن يحلّ جميع خيوط هذه العقدة المتشابكة.

إن أثر الميل إلى عدم تذكّر كل ما هو مستكره أشدّ بروزاً وأكثر اطراداً في نسيان الانطباعات والأحداث المعاشة منه في نسيان الأسماء. وهذا الضرب من النسيان لا يجوز لنا اعتباره من قبيل الهفوات إلا بقدر ما يبدو لنا، على ضوء خبرتنا اليومية، باعثاً على الدهشة ولا مبرر له، أي حين يطال النسيان، مثلاً، انطباعات قرية العهد أو جليلة الشان، أو انطباعات تنشأ عن غيابها ثغرة في مجموعة متكاملة من الذكريات الراسخة التي لا تنتسى أبداً. فلماذا وكيف يمكن

لنا أن ننسى بصورة عامة، أو على الأخص، أحداثاً تركت في نفوسنا أعماق الانطباعات كأحداث السنوات الأولى من طفولتنا؟ إن هذه لمشكلة تختلف عما نحن بصددته كل الاختلاف؛ وقد نستطيع، في مسعانا إلى حلّها، أن نعزو دوراً ما إلى الاحتماء من الأحاسيس المؤلمة، ولكن شرط التنبيه مقدماً إلى أن هذا العامل يبعد عن أن يفسّرها بتمامها. إن سهولة نسيان الانطباعات المستكرهة واقعة لا جدال فيها. وقد تنبه العديد من علماء النفس لهذه الواقعة التي كان لها وقع عميق في نفس داروين العظيم حداً به إلى أن يسنّ لنفسه «قاعدة ذهبية» بأن يدوّن بعناية خاصة الملاحظات التي تبدو له معارضةً لنظريته^(٦) والتي لا تريد، كما تسنى له أن يتحقق، أن تثبت وترسخ في ذاكرته.

إن من يسمع لأول مرة أن النسيان وسيلة دفاعية للاحتماء من الذكريات المؤلمة لا يتخلف، إلا فيما ندر، عن إبداء الاعتراض التالي بالاستناد إلى خبرته الذاتية: إن الذكريات المؤلمة هي التي تستعصي بالأحرى على النسيان، وهي التي تعاود المرء مراراً وتكراراً، مهما يفعل ليكتمها ويقمعها، وتقضّ مضجعه بلا انقطاع، ومنها على سبيل المثال ذكريات المهانة والمذلة. وهذا حق لا ريب فيه، لكن الاعتراض باطل. وخليق بكم ألا يغرب عن بالكم أن الحياة النفسية ميدان حرب وحلبة صراع تتواجه فيها ميول ونزعات متعارضة، أو أنها، بلغة أقل دينامية، تتألف من متناقضات وأزواج من الأضداد. فإذا ما أثبتنا وجود ميل معيّن، لا نكون قد أثبتنا بذلك عدم وجود أي ميل آخر يفعل فعله في اتجاه معاكس. فثمة مجال لكل منهما. وبيت القصيد أن نعرف العلاقات التي تقوم بين هذين الميّلين المتناقضين، والأفعال التي تصدر عن كل منهما.

ويحظى منا ضياع الأشياء وتعدّد الاهتمام إلى موضوعها باهتمام خاص، بسبب تعدد التأويلات التي تصلح لها تين الهفوتين، وتنوع الميول التي تصدعان بأمرها. والشئ المشترك بين الحالات جميعاً هو إرادة التضييع، أما ما يميز حالة عن أخرى فهو سبب التضييع وهدفه. فالمرء يضئع الشئ إن رثّ وبلي، أو إن عقد النية

٦ - الإحالة هنا إلى نظرية تشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) في أصل الأنواع الحية التي أرجعها جميعاً إلى أصل واحد أو أصول واحدة مشتركة بموجب ما أسماه قانون الانتخاب الطبيعي. «م».

على استبداله بآخر أحسن منه، أو عافته نفسه، أو إن جاءه من شخص لم يعد يجمعه وإياه ودّ موصول، أو إن حازه في ظروف لا يطيب له أن يعود إلى التفكير بها وتذكرها. وإسقاط الأشياء أو إتلافها أو كسرها قد يخدم الغايات نفسها. وقد دلت التجربة في الحياة الاجتماعية أن الأطفال الذين يولدون خارج نطاق الزواج ويكون وجودهم مفروضاً فرضاً هم أكثر هشاشة وخرعاً بكثير من الأطفال المعترف بشرعيتهم. ولا حاجة هنا، لتفسير هذه الظاهرة، إلى الإحالة إلى تلك الطريقة الفظة التي تعتمدها أولئك اللواتي يطلق عليهن اسم صانعات الملائكة^(٧)؛ فقدّر من الإهمال في توفير العناية التي تتطلبها حال الطفل كافٍ تماماً لتفسير الأمر. ولعل الأمر فيما يتصل بالمحافظة على الأشياء مماثل تماماً لما يتصل بالمحافظة على الأطفال.

على أن الناس يضيّعون في حالات أخرى أشياء لم تفقد شيئاً من قيمتها، ويكون دافعهم الأوحّد إلى ذلك التضحية بشيء ما اتقاء لشر الحسود وتلافياً لفقدان شيء آخر أعزّ قيمة بكثير. ويدلّنا التحليل أن هذه الطريقة لتحاشي النحس واتقاء شر الأقدار لا تزال شائعة لدينا؛ ولهذا السبب يكون ضياع أشياءنا هو في كثير من الأحيان بمثابة تضحية متعمدة. وقد يكون ضياع الأشياء أيضاً تعبيراً عن تحدّ أو عقاب ذاتي. وخلاصة القول: عديدة لا تحصى هي الدوافع والخوافز البعيدة والعميقة للنزوع إلى التخلص من الأشياء بفقدانها.

أما الخطأ في الحركة فكثيراً ما يكون، مثله مثل سائر الهفوات، وسيلة لتحقيق أمنيات يُفترض بالمرء أن يتبرأ منها. وفي هذه الحال تلبس النية لبوس المصادقة السعيدة. ومثال ذلك أن واحداً من أصدقائنا استقل القطار إلى ضواحي المدينة ليقوم بزيارة عن غير رغبة منه، لكنه أخطأ في محطة التبديل فأخذ القطار الذي يعيده إلى المدينة. وقد يرغب الإنسان أيضاً، أثناء رحلة له، في التوقف في محطة وسيطة، مع أن مثل هذا التوقف يتعارض والتزاماته الأخرى، فإذا به يفوته، كما لو مصادفة واتفاقاً، قطار التبديل، الأمر الذي يتيح له في محصلة الحساب أن

٧ - صانعة الملائكة: لقب كان يطلق بالألمانية قديماً على المرأة التي تدع عن عمد الم طفل الموكول إليها أمرّ العناية به يموت صانعةً منه بالتالي «ملاكاً». «م».

يقطع سفره. وأستطيع أيضاً أن أضرب لكم مثال مريض من مرضاي كنت قد نهيته عن الاتصال بعشيقته هاتفياً، فإذا به كلما شاء مكالمتي «يغلط» ويطلب «عن غير عمد» رقماً آخر هو بالتحديد رقم عشيقته. وهاكم أخيراً قصة فصيحة الدلالة رواها لنا أحد المهندسين، وتنطوي على أهمية عملية كبيرة من حيث أنها تجعلنا نلمس لمس اليد مقدمات إتلاف الأشياء بنتيجة لخطأ في الحركة:

«كنت أقوم، قبل فترة من الزمن، مع عدد من زملائي في المدرسة العليا بسلسلة من التجارب الشديدة التعقيد حول الانمغاط Elasticité، وهو عمل كنا قد تطوعنا بالقيام به مجاناً، لكنه بدأ يستنفد منا وقتاً أطول مما كنا نتوقع. وفيما أنا قاصد ذات يوم المختبر مع زميلي ف، صارحني بيرمه بما سيضيعه من وقت في ذلك اليوم، مع أن الأعمال التي تنتظره في بيته كثيرة. وما وسعني إلا أن أوافقه، وقلت له مازحاً وملمحاً إلى حادثة وقعت في الأسبوع المنصرم: «لنأمل أن تتعطل الآلة اليوم كما في المرة السابقة، فيتاح لنا أن نوقف العمل وننصرف في وقت مبكر!». ولدى توزيع العمل، كان من نصيب زميلي ف أن كلّف بضبط صمام المكبس، بحيث ينساب سائل الضغط من المرمك إلى أسطوانة الضغط المائي ببطء وتؤدة. وكان المشرف على التجربة يقف قرب المانومتر^(٨)، وكان عليه إذا ما وصل الضغط إلى الحد المطلوب أن يأمر بعالي صوته بالتوقف الفوري. فلما سمع ف بهذا الأمر، أمسك بالصمام وأداره بكل قوته... إلى اليسار (إن جميع الصمامات بلا استثناء تقفل بإدارتها إلى اليمين!). فكان من نتيجة ذلك أن كل ضغط المرمك انتقل فجأة إلى المكبس، مما تعدى مقاومة الأنابيب، فانفجر الحام أحدها. لم تكن الحادثة ذات خطورة، لكنها أرغمتنا على وقف العمل وعلى الانصراف إلى بيوتنا. والغريب في الأمر أنه عندما تسنى لي بعد زمن غير طويل أن أتكلم مع صديقي ف عن الحادثة، زعم أنه لا يذكر شيئاً عن العبارة التي قلتها له يومئذ مازحاً، مع أنها انطبعت في ذاكرتي بعد وقوع الحادثة انطباعاً راسخاً».

إن حالات من أشباه هذه الحالة قميئة بأن تدخل الريب إلى نفوسكم بأنه

٨ - المانومتر: مقياس الضغط السائل. «م».

عندما تتحول أيدي خدامكم في كثير من الأحيان إلى أعداء لما لديكم من آنية وأدوات في منزلكم، فإن ذلك ليس مردّه إلى الصدفة البريئة. بل في مقدوركم أيضاً أن تتساءلوا عما إذا كانت الصدفة هي المسؤولة الوحيدة على الدوام عن الأذى الذي ينزله الإنسان بنفسه أو عن الخطر الذي يعرض له سلامته. ولعلكم واصلون إلى قطع ذلك الشك بيقين وإلى الإجابة عن هذا التساؤل متى ما قمتم بتحليل ما قد يتجمع لديكم من ملاحظات ومشاهدات.

مستمعي الأعزاء، إنني لم أستنفد كل ما يمكن أن يقال عن الهفوات. ولا تزال هناك نقاط كثيرة تستدعي الفحص والنقاش. ولكني لن أكون إلا مغتبطاً فيما لو تأكد لي أنني أفلحت، بالنزr اليسير الذي حدثتكم به، في زعزعة أفكاركم القديمة حول الموضوع الذي كنا بصددّه، وفي تهيئةكم لتقبّل أفكار جديدة. أما بخصوص ما تبقى، فلست أشعر بتبكيّت من ضمير إذا تركت الأشياء عند الحدّ الذي وصلنا بها إليه، من دون أن أمضي قدماً إلى الأمام في البحث. فأطروحاتنا لا تستمد أدلتها وبراهينها كلها من الهفوات وحدها، ولا شيء يرغبنا على حصر أبحاثنا بحيث لا نتناول سوى المواد التي توفرها لنا هذه الهفوات. والقيمة الكبرى للHFوات عندنا إنما تكمن في أنها متواترة ذائعة، وفي أن كل إنسان يستطيع أن يلاحظها بسهولة في نفسه، وفي أن وقوعها ليس مشروطاً بالضرورة بحالة مرضية. وأودّ أن أذكركم، في الختام، بسؤال من أسألتكم تركته بلا جواب حتى الآن: «إذا كان الناس قرييين غاية القرب من فهم الهفوات، ويتصرفون في كثير من الأحيان كما لو أنهم يدركون معناها، كما يتضح ذلك من كثير من الأمثلة، فكيف تبدو لهم هذه الظواهرات نفسها، بصفة عامة، عرضية وعادمة الدلالة والأهمية، ولماذا يبدو ما يبدو منه مقاومة إزاء تفسيرها على ضوء التحليل النفسي؟».

أنتم على حق: فهذه واقعة تبعث على العجب وتتطلب تفسيراً. لكن بدلاً من أن أقدم لكم هذا التفسير جاهزاً، أؤثر أن أقدم وإياكم في خطوات وئيدة متتالية كيما تنهياً لكم المقدرة على الوصول إليه بأنفسكم، من دون حاجة إلى معونتي.

القسم الثاني

الحلم

المحاضرة الخامسة

صعوبات ومقاربات أولى

سيداتي وسادتي، اكتشف أحدهم ذات يوم أن الأعراض المرضية لبعض العصبيين لها معنى^(١). وكان ذلك هو منطلق المعالجة التحليلية النفسية. وقد لوحظ أثناء هذه المعالجة أن المرضى يعدّون أحلامهم من جملة تلك الأعراض. ومن هنا اتجه الظن إلى أن هذه الأحلام تنطوي هي الأخرى، ولا بدّ، على معنى.

على أننا، بدل أن نتبع التسلسل التاريخي، سنبدأ عرضنا بطريق معكوس. فسوف نوضح، تمهيداً لدراسة الأعصاب Névroses، معنى الأحلام. وهذا القلب لتسلسل العرض لا يبرره واقع أن دراسة الأحلام تشكل خير تمهيد لدراسة الأعصاب فحسب، بل كذلك واقع أن الحلم هو نفسه عرض عصائي، فضلاً عن أنه عرض يتميز بميزة نفسية، إذ تمكن ملاحظته لدى الناس كافة، بمن فيهم الأصحاء منهم. والحق أنه حتى لو كان كل الناس أصحاء، وحتى لو كانت الأحلام هي أعراضهم الوحيدة، لأمكننا عن طريق دراسة هذه الأحلام أن نصل إلى عين النتائج التي نظفر بها عن طريق تحليل الأعصاب.

هكذا يغدو الحلم موضوعاً للبحث التحليلي النفسي. ولكن يكن الحلم، من حيث هو ظاهرة عادية لا يعلّق عليها الناس أهمية تذكر وغفل في الظاهر من كل قيمة عملية، يشابه الهفوات من حيث أنه يحدث لدى الأصحاء من الناس، فإنه يفرق عنها من حيث أن شروط البحث فيه لا تبدو مؤاتية. فالهفوات ما أصابها

١ - جوزف بروير، في السنوات ١٨٨٠ - ١٨٨٢. انظر بهذا الصدد المحاضرات التي ألقيتها في أميركا سنة ١٩٠٩ (انظر الترجمة العربية في: خمسة دروس في التحليل النفسي، وكذلك: حول تاريخ الحركة التحليلية النفسية. «م»).

من العلم إلا الإهمال، فما أولاهما الناس اهتماماً يذكر، غير أن الاشتغال بها ما كان، على كل حال، مما يعيب المرء؛ ولئن قيل إن هناك ما هو أهم منها وأجدي، فإنه من الممكن على كل حال أن تمدنا الهفوات بمعطيات مفيدة. أما الإكباب على البحث في الأحلام فلم يكن يعتبر عملاً غير ذي قيمة ولا لزوم له فحسب، بل كان يعدّ أيضاً لهوة وتسلية معيبة: فهو شاغل مناهض للعلم ينمّ عند من يتعاطاه عن ميل إلى التصوف والروحانيات. فكيف للطبيب أن يقف نفسه على دراسة الحلم مع أن علم الأمراض العصبية وطب الأمراض النفسية يضعان في متناوله ظاهرات كثيرة أعظم خطورة بما لا يقاس: كتلك الأورام التي تضغط على عضو الحياة النفسية^(٢) والتي تكون بحجم التفاحة أحياناً، أو حالات النزيف، أو التهابات المزمنة التي تتسبب في تشويهاات في الأنسجة يمكن التحقق منها تحت المجهر! كلا! إن الحلم شيء غير ذي بال على الإطلاق، ولا يستأهل شرف البحث العلمي!

ثم إنه شيء يتعارض صفةً مع جميع مقتضيات العلم الدقيق، شيء لا يتوفر لدى الباحث بصده أي يقين. فالفكرة الهذائية، مثلاً، تكون واضحة المعالم والحدود، إذ يقول المريض بعالي صوته: «أنا إمبراطور الصين». أما الحلم؟ الحق أنه يتعذر في أكثر الأحيان حتى أن يروى. ثم إنه حين يسرد أحدهم تفاصيل حلمه، فما الذي يضمن لنا صحة روايته، وما الذي يثبت لنا أنه لا يحرف حلمه أثناء روايته له، وأنه لا يضيف إليه تفاصيل مختلفة، بالنظر إلى الشك الذي يكتنف تذكره؟ وهذا من دون أن يغيب عنا أن أكثر الأحلام تعصى على التذكر، ولا يبقى منها في الذاكرة إلا نتف لا يعتدّ بها. أفعلّي تأويل مثل هذه المواد نريد أن نؤسس علماً نفسياً علمياً أو طريقة في علاج المرضى؟

إن بعض الشطط في الحكم من شأنه دوماً أن يبعث فينا الريبة. ومن الواضح أن الاعتراضات على الحلم، كموضوع للبحث، تغلو غلوّاً شديداً. أفيقول أصحابها إن الأحلام عديمة الأهمية والدلالة؟ لقد سبق أن ردّدنا على اعتراض مماثل بصدد الهفوات. وقد قلنا عندئذ إن عظام الأمور قد تكشف عنها أمارات زهيدة. أما

إبهام الأحلام فهو يشكل بالتحديد خاصية من جملة خصائصها، وليس لنا أن نملي على الأشياء الخاصة التي ينبغي أن تتبدى بها. ثم إن هناك أحلاماً واضحة محددة المعالم؛ وفضلاً عن ذلك، إن أبحاث الطب النفسي كثيراً ما تتناول أشياء تشكو من الإبهام نفسه، كما هي الحال في الكثير من الأفكار الهذائية التي لا يحجم مع ذلك أطباء الأمراض النفسية النابهون والجديرون بالاحترام عن الاهتمام بها. وأذكر بهذا الصدد آخر حالة عرضت لي في مزاويتي الطب. فقد صارحتني المريضة من البداية بما يلي: «أشعر كأني أذيت أو أردت إيذاء كائن حي.. أكان طفلاً؟ كلا، بل كلب بالأحرى. يخالجنني شعور بأنني رميت به من أعلى جسر أو أذيته بطريقة أخرى». والحق أننا نستطيع أن نتلافى الضرر الذي قد ينشأ عن الريبة التي تكتنف الأحلام بمصادرتنا على أنه لا يجوز لنا أن نعدّ حلماً إلا ما يرويه الحالم، وعلى أنه يتعين علينا أن نضرب صفحاً عن كل ما يمكن أن يكون قد نسيه أو حترفه في تذكره. وأخيراً، ليس مباحاً القول بصفة عامة إن الحلم ظاهرة عديمة الأهمية. فكل واحد يعرف بتجربته الخاصة أن الوضع النفسي الذي نصحو عليه من حلم حلمنا به يمكن أن يلازمنا طوال يوم بكامله. ويعرف الأطباء حالات بدأ فيها المرض النفسي بحلم واحتفظ فيها المريض بفكرة هذائية يكمن مصدرها في هذا الحلم. ومما يروى أن شخصيات تاريخية استمدت من الأحلام القوة التي اجتاحت بها بعض المآثر والأعمال الباهرة. بوسعنا إذاً أن نتساءل عن المصدر الذي ينبع منه ذلك الازدراء الذي تحيط به الدوائر العلمية الحلم.

إن هذا الازدراء في رأيي ردّ فعل على الأهمية المغالى فيها التي خلعت عليه في غابر الأيام. صحيح أن تصور ما كان عليه الماضي ليس بالأمر السهل، لكن بوسعنا الافتراض بلا تردد أن أسلافنا وأجدادنا قبل ثلاثة آلاف عام أو أكثر كانوا يحلمون بمثل الطريقة التي نحلم بها اليوم. وقد عزت جميع الشعوب القديمة، في ما نعلم، قيمة كبرى إلى الأحلام وعدّتها قابلة للاستعمال العملي. فقد وجدت فيها دلائل لاستطلاع المستقبل، والتمست فيها فألاً وطيرة. وما كان الإغريق والشعوب الشرقية ليتصوروا حملة عسكرية بلا مفسري أحلام، مثلما لا نتصور نحن اليوم حملة بدون وسائل الاستكشاف التي يوفرها الطيران. ويوم شرع

الإسكندر الأكبر بحملته الفاتحة، سيّر في ركابه أشهر مفسري الأحلام في زمانه. فلما واجهته مدينة صور - وكانت لا تزال قائمة عصرئذ على جزيرة - بمقاومة ضارية، عزم على رفع الحصار عنها. إلا أنه رأى في منامه ساتيروساً^(٣) يرقص رقصة من رقصات النصر، فلما استفسر عنه منجمه أكد له أن تلك بشرى بنصر على المدينة. فأمر للحال بالهجوم، وتم الاستيلاء على المدينة. وكان الإتروريون^(٤) والرومان يلجؤون إلى وسائل أخرى لاستطلاع المستقبل، لكن تفسير الأحلام ظل معمولاً به، بل راجح الكفة على امتداد العهد الإغريقي/ الروماني. أما ما كتب بصدده فلم يصلنا منه إلا المرجع الرئيسي لأرتيميدورس الأفسسي^(٥)، ويقال إنه كتبه في عهد الإمبراطور هدريانوس^(٦). فكيف آل فن تأويل الأحلام إلى انحطاط، وزالت حظوة الحلم بالذات؟ هذا ما أعجز عن إجابتك عنه. على أنه لا يمكن لنا أن نعتبر هذا الانحطاط وفقدان الخطوة نتيجة لتقدم المعرفة، إذ إن العصور الوسطى المظلمة احتفظت بأشياء أشد سخفاً بكثير من فن تأويل الأحلام القديم. والواقع أن الاهتمام بالأحلام انحطّ رويداً رويداً إلى درك الخرافة والأباطيل، ووجد ملاذه الأخير لدى الجهلة من الناس. ولعل آخر مظاهر سوء استعمال هذا الفن يتمثل في يومنا الحاضر في الرجوع إلى الأحلام لمعرفة الأرقام التي ستفوز في اليانصيب. وبالمقابل، أبدى العلم العصري الدقيق اهتماماً بالأحلام في أكثر من مرة، لكن هاجسه الدائم كان أن يطبّق عليها نظرياته الفيزيولوجية. وكان الأطباء بطبيعة الحال يرون في الحلم لا فعلاً نفسياً، بل مظهراً

٣ - الساتيروس: من أشباه الآلهة لدى الإغريق، رفيق باخوس. كان يُمثّل يشعر مشغّت وأذنين مديّتين وقرنين صغيرين وساقَي نيس. «م».

٤ - الإتروريون: سكان إتروريا القديمة التي تناظرها اليوم توسكانيا في وسط شبه الجزيرة الإيطالية. وكان الإغريق يطلقون عليهم اسم الصوريين. ولعلمهم كانوا من أصول فينيقية. وكانوا على معرفة طيبة متقدمة بالنسبة إلى عصرهم. وقد انضموا إلى الدولة الرومانية في القرن الأول ق. م. «م».

٥ - مؤلف كتاب تفسير الأحلام في خمسة مجلدات، وهو أحد الذين رووا حلم الإسكندر السالف الذكر. وكان يعتقد أن الأحلام وحي من الآلهة واستباق للغيب. وقد نقل إسحق بن حنين كتابه إلى العربية بعنوان كتاب تعبير الرؤيا. «م».

٦ - هدريانوس: إمبراطور روماني (١١٧ - ١٣٨). خلف تراجانوس وشجّع الآداب والفنون وأصلح الإدارة وحمى الإمبراطورية من هجمات البرابرة. «م».



نفسياً لتنبهات بدنية. وقد صرّح بنز^(٧) Binz في عام ١٨٧٩ أن الحلم «سيرة جسمية، عديمة الجدوى على الدوام، بل مَرَضِيَّة في كثير من الأحيان، وهي بالقياس إلى النفس الكلية وإلى الخلود كمثل البقعة الرملية التي غطتها الأعشاب الضارة في منخفض من الأرض بالقياس إلى السماء الزرقاء التي تطلّ عليها من على». وشبّه موري^(٨) Maury الحلم بالاختلاجات العادمة الانساق في مرض الرقص^(٩) بالتعارض مع الحركات المتسقة للإنسان السوي. وثمة تشبيه قديم يماثل الأحلام بالأصوات التي «يحدثها شخص جاهل بالموسيقى عندما يمرّ أصابعه العشر على ملابس الآلة الموسيقية»^(١٠).

إن التأويل يعني الاهتداء إلى معنى خفي، وهذا أمر لا مجال له بطبيعة الحال عندما يحيط الإنسان من شأن الحلم إلى هذا الحدّ. اقرؤوا وصف الحلم لدى فونت Wundt^(١١) ويودل Jodl^(١٢)، وغيرهما من الفلاسفة المحدثين: إنهم

٧ - كارل بنز: طبيب ألماني (١٨٣٢ - ١٩١٣). اشتهر بأبحاثه الصيدلانية، وبخاصة في مجال الكينين. وله دراسات في تاريخ الطب. «م».

٨ - ألفريد موري: علامة فرنسي (١٨١٧ - ١٨٩٢). درس علم الآثار واللغات القديمة والعربية، وشغل مناصب ثقافية رفيعة. من مؤلفاته: *الحجّيات في العصر الوسيط*، و*تاريخ ديانات اليونان القديمة*، و*السحر والتنجيم في العصور القديمة والوسطى*. كما اشتهر بدراساته عن النوم والحلم مستبقاً فيها بعض نظريات التحليل النفسي، وتحديداً في كتابه *النوم والأحلام*. «م».

٩ - الرقص: مرض عصبي يتميز بحركات لاإرادية وغير متسقة، ويعرف باسم خوريا (رقص باليونانية). ويقال له أيضاً رقص القديس غي. «م».

١٠ - الإحالة هنا إلى كتاب الفيلسوف والمربي الألماني لودفيغ فون ستومبل (١٨١٢ - ١٨٩٩): *طبيعة الأحلام وتكوينها*. وقد كان فرويد استشهد به أيضاً في كتابه *تفسير الحلم*. «م».

١١ - فلهلم فونت: فيلسوف وعالم نفس ألماني (١٨٣٢ - ١٩٢٠). مؤسس أول مخبر لعلم النفس التجريبي، وأول من اعتمد منهج الاستبطان. وكان أول من أدخل إلى علم النفس الجداول الإحصائية. من مؤلفاته: *مساهمات في نظرية الإدراك الحسي*، *مباحث حول آليات الأعصاب*، *علم النفس الاجتماعي*، *المنطق*: استقصاء حول مبادئ المعرفة ومناهج البحث العلمي، *الأمم وفلسفتها*، وأخيراً *الأسطورة والدين*. «م».

١٢ - فريدريش يودل: فيلسوف وعالم نفس ألماني (١٨٤٨ - ١٩١٤). اشتهر بالحلمة التي شتها في سبيل حرية العلم وضد سطوة الكنيسة الكاثوليكية على القطاع العام في المساء. وكان في الفلسفة متابعاً للمذهب الوضعي كما قال به هيوم وجون ستورانت مل وأوغست كوت. من مؤلفاته: *تاريخ الأخلاق كعلم فلسفي*، و*الأخلاق والدين والمدرسة*، و*العلم والدين*. «م».

يكتفون جميعهم بتعداد النقاط التي يختلف بها الحلم عن الفكر في حالة اليقظة، وبالتنويه بتفكك التداعيات وانتفاء الحس النقدي ومجانبة الحقيقة والواقع وسائر السمات الأخرى التي من شأنها أن تظهر للعيان مدى طفافة القيمة التي ينبغي عزوها إلى الأحلام. والمساهمة الوحيدة الثمينة التي أسهم بها العلم الدقيق في معرفة العلم تتصل بتأثير التنبيهات البدنية التي تحصل أثناء النوم على مضمون الأحلام. وقد ترك لنا مؤلف نرويجي توفي حديثاً، وهو ج. مورلي - فولد (J.Mourly - Vold)^(١٣)، مجلدين ضخمين من أبحاث تجريبية (ترجماً إلى الألمانية في ١٩١٠ و ١٩١٢) تكاد تدور كلها حول النتائج التي تترتب على تغيير وضع الأعضاء في أثناء النوم. وقد كيل الثناء لهذه الأبحاث باعتبارها نموذجاً للبحث الدقيق في موضوع النوم. ولكن ماذا سيقول العلم الدقيق لو تناهى إليه أننا نحاول كشف معنى الأحلام؟ لعله أبدى رأيه في هذا الموضوع سلفاً، لكننا لن نرتدع ونراجع أمام حكمه هذا. فما دام للهفوات معنى، فليس ثمة ما يمنع أن يكون للأحلام أيضاً معنى. وبالفعل، إن لهذه الأخيرة في الكثير من الحالات معنى غاب عن البحث الدقيق. فلنأخذ إذاً بالحكم المسبق للقدماء ولعامّة الناس، ولنقتف أثر مفسري المنامات القدامى.

علينا قبل كل شيء أن نحدد موقع أقدامنا في ما نحن مقدمون عليه، وأن نستعرض ميدان الأحلام. فما الحلم؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال بتعريف واحد. وما حاجتنا أصلاً إلى أن نأتي بتعريف ما دامت المادة موضوع البحث معروفة للجميع؟ على أنه يتعين علينا أن نبرز للعيان الصفات الرئيسية للحلم. فأين نجدوها؟ الحق أنها كثيرة هي هذه الفوارق، ومن كل شكل ولون، في داخل الإطار الذي يرسم حدود ميداننا! وعلى هذا، إن الصفات الرئيسية ستكون هي الصفات التي سيسعنا القول عنها إنها مشتركة بين الأحلام كافة.

والحال أن أولى الصفات المشتركة بين الأحلام كافة هي أننا نحلم ونحن نيام.

١٣ - جون مورلي - فولد: فيلسوف نرويجي (١٨٥٠ - ١٩٠٧). له أطروحة عن فلسفة سبينوزا

ومجموعة دراسات عن الحلم. «م».

من الواضح إذاً أن الأحلام تمثل تظاهرة للحياة النفسية أثناء النوم. ولكن كانت هذه الحياة تشبه من بعض الوجوه الحياة في حالة اليقظة، فإنها تتصف أيضاً بفوارق لا يستهان بها. ذلك هو أصلاً ما كانه تعريف أرسطو للحلم^(١٤). ثم إنه من الممكن أن تكون بين الحلم والنوم علاقات أكثر وثاقة بعد. فعالباً ما يوقظنا من النوم حلم ما، وكثيراً ما نكون في حلم عندما نستيقظ بصورة عفوية أو عندما نُكره على الاستيقاظ إكراهاً. وعلى هذا النحو يتبدى الحلم وكأنه حالة وسطى بين النوم واليقظة. وهكذا نجدنا وقد ارتدّ بنا المطاف إلى النوم. فما النوم؟

تلك معضلة فيزيولوجية أو بيولوجية لا تزال موضوع أخذ وردّ شديدين وقابلة للمناقشة. وليس يسعنا أن نقطع برأي بصدها، لكنني أرى أن من واجبنا أن نحاول تحديد سمات النوم من وجهة النظر السيكلوجية. فالنوم حالة لا يريد النائم أن يعرف أثناءها شيئاً عن العالم الخارجي، حالة ينسلخ فيها اهتمامه انسلاخاً تاماً عن هذا العالم. فأنا أغرق في النوم عندما أنسحب من العالم الخارجي وأتوقى من التنبيهات التي تأتيني منه. وأنا أنام أيضاً عندما أعب من هذا العالم وتنبيهاته. وعندما أنام، أقول للعالم الخارجي: إليك عني، فأنا أريد أن أنام. أما الطفل فيقول على العكس: أنا لا أريد أن أنام بعد، أنا لست متعباً، وأريد أن أسهر أكثر. هكذا يبدو أن القصد البيولوجي من النوم هو الاستجمام والاستراحة، كما يكمن طابعه السيكلوجي في خمود الاهتمام بالعالم الخارجي. فالوضع الذي نكون عليه في هذا العالم الذي جئناه بغير مشيئتنا يجعلنا لا نطبق احتمالاً بصورة متصلة. ولهذا نعاود الغطس من جديد بين الحين والآخر في الحالة التي كنا عليها قبل أن نأتي إلى العالم، أي يوم كنا في باطن الرحم، أو نخلق لأنفسنا على الأقل شروطاً مماثلة تماماً لشروط تلك الحالة: دفء، ظلام، انعدام التنبيهات. وقد يتكوّر بعضنا، فضلاً عن ذلك، على نفسه، ويجعل لجسمه أثناء النوم وضعاً مشابهاً لذلك الذي كان عليه وهو جنين في أحشاء الأم. فلكأننا لا ننتمي، حتى ونحن في سنّ الرشد، إلى العالم إلا بثلاثي فرديتنا، ولكأننا في ثلثنا الثالث لم نولد بعد. وكلما استيقظنا صباحاً نكون، في هذه الشروط،

كمن يولد مرة ثانية. أفلا نقول عن الحالة التي نكون عليها ونحن ننفض عنا غبار النوم: ألا ما أشبهنا بملود جديد؟ وأغلب الظن أننا إذ نقول ذلك لا نخطئ خطأً بليغاً بصدد الإحساس العام الذي يساور الوليد، ويخلق بنا بالأحرى أن نفترض أن هذا الوليد يساوره شعور شديد بالضيق. أفلسنا نقول عن الوليد عندما يولد إنه قد رأى نور العالم؟

إن يكن النوم هو كما قلنا، فإن الحلم أبعد ما يكون عن أن يؤلف جزءاً أصيلاً منه، بل يبدو بالأحرى أنه أشبه ما يكون بضيء ثقيل عليه. ونحن نرى أن نوماً بلا أحلام هو النوم الأفضل، بل هو وحده النوم الحقيقي. ومن ثم لا يفترض أن يحدث أي نشاط نفسي أثناء النوم. ولئن حدث مع ذلك نشاط نفسي، فهذا معناه أننا لم ننجح في تحقيق حالة السكون الجنينية، وفي التخلص من آخر البقايا المتبقية من النشاط النفسي. وعليه، إن هذه البقايا هي هي الحلم. ومن ثم قد يحقّ لنا القول على هذا الأساس إن الحلم ليس بحاجة إلى أن يكون له معنى. وبخلاف ذلك هو أمر الهفوات التي هي عبارة عن أنشطة في حالة اليقظة. لكن عندما أدخل إلى النوم بعد أن أكون أفلحت في وقف نشاطي النفسي، خلا بعض بقايا، فلا موجب البتة لأن يكون لهذه البقايا من معنى. بل لن يكون في مستطاعي حتى أن أستخدم هذا المعنى، نظراً إلى أن الشطر الأكبر من حياتي النفسية يكون قيد النوم. والحق أن الأمر لا يمكن أن يكون هنا إلا محض ردود فعل في شكل اختلاجات أو تقلصات، أي محض ظاهرات نفسية ناجمة مباشرة عن تنبيه بدني. وبناء على هذا الفرض، لن تكون الأحلام سوى بقايا من النشاط النفسي في أثناء حالة اليقظة، بقايا ليس من شأنها سوى أن تعكر صفو النوم. ولن يكون علينا بعد الآن، وبدون مزيد من التأخير، غير أن نتخذ قراراً بهجر هذا الموضوع باعتباره لا يدخل ضمن اختصاص التحليل النفسي.

لكن حتى على فرض أن الحلم غير ذي جدوى فإنه يبقى موجوداً، ومباح لنا بالتالي أن نلتمس لأنفسنا تفسيراً لوجوده هذا. لماذا لا تنام الحياة النفسية؟ أكبر الظن لأن ثمة شيئاً ما يحول بينها وبين سكونها. فثمة تنبيهات تتابها وتقل فيها، ولا مناص لها من أن تستجيب لها. إذاً فالحلم، على هذا

الأساس، هو الكيفية التي بها تستجيب النفس، في أثناء حالة النوم، للتنبيهات التي تتعرض لها. هنا نلمح مدخلاً إلى فهم الحلم. فبوسعنا أن نبحث، في شتى الأحلام، عن ماهية التنبيهات التي تنزع إلى تكدير صفو النوم والتي يستجيب لها النائم بالأحلام. وبذلك نكون قد استخلصنا أول صفة تشترك فيها الأحلام جميعاً.

هل هناك صفة مشتركة أخرى؟ بكل تأكيد، لكنها أصعب إدراكاً وأعزّ وصفاً بكثير. فالسيرورات السيكولوجية التي تحدث في أثناء النوم تختلف اختلافاً يَبِيناً عن تلك التي تحدث في حالة اليقظة. ففي النوم تقع لنا أحداث كثيرة نعتقد بصحتها، مع أنها قد لا تعدو أن تكون تنبيهاً يزعجنا. كما نشاهد بوجه خاص صوراً بصرية، قد تصاحبها أحياناً عواطف وأفكار وانطباعات متأتية من حواس أخرى غير البصر، لكن الغلبة تبقى على الدوام للصور. وعليه، إن الصعوبة التي نلاقيها في سرد حلم من أحلامنا ترجع، إلى حدّ ما، إلى كوننا ملزمين بترجمة الصور إلى كلمات. كثيراً ما يقول لنا صاحب المنام: بوسعي أن أرسّم حلمي، لكنني أعجز عن روايته. وليس الحلم عبارة عن نشاط نفسي متقلص، كنشاط ضعيف العقل إذا قيس إلى نشاط الشخص العبقري: بل هو نشاط مختلف كيفاً، وإن عزّ علينا بيان وجه الاختلاف. وقد صاغ غ. ت فخنر Fechner^(١٥) في بعض كتاباته فرضية مؤداها أن المسرح الذي تحدث فيه الأحلام (في النفس) ليس مسرح التمثيلات والأفكار في حياتنا اليقظة. وهذا قول لا نفهمه، ولا ندري كيف نفقّمه، غير أنه يعبّر أحسن تعبير عن ذلك الانطباع بالغرابة الذي تتركه فينا أغلب الأحلام. أما تشبيه النشاط الذي يتظاهر في الأحلام بالأصوات التي تحدثها يد غير خبيرة بفن الموسيقى فلا يعود مفيداً لنا هنا على الإطلاق، لأن الآلة الموسيقية تُصنّف على الدوام أصواتاً متمائلة، وإن لم تكن بالضرورة متناغمة، كلما شئت المصادفة لتلك اليد أن تمر أصابعها على ملامسها. فلنبقِ إذاً هذه

١٥ - غوستاف تيودور فخنر: فيلسوف ألماني (١٨٠١ - ١٨٨٧). من مؤسسي الفيزياء النفسية. صاغ القانون المسمّى بقانون فيبر - فخنر الذي ينصّ على أن «الإحساس يتنوع بحسب لوغاريتم التنبيه». والإحالة هنا إلى كتابه مبادئ الفيزياء النفسية. «م».

السمة الثانية التي تشترك فيها الأحلام ماثلة أمام أذهاننا، وإن لم نفهمها حق الفهم.

هل هناك سمات مشتركة أخرى؟ لست أتبيّن ذلك وما عدت أرى بوجه عام سوى فروق بصدد النقاط الأخرى طراً: فروق في ديمومة الحلم الظاهرية وفي درجة وضوحه، وأخرى في الدور الذي تلعبه فيه الانفعالات، والمثابرة، إلخ. وفي رأينا أن كل شيء يجري خلافاً لما هو متوقع فيما لو كان كل الأمر دفاعاً قسرياً، مؤقتاً، اختلاجياً ضد تنبيه من التنبيهات. أما فيما يتصل بطول الأحلام، فثمة أحلام قصيرة للغاية تتألف من صورة واحدة أو من بضع صور قليلة، ولا تشمل إلا على فكرة واحدة أو كلمة واحدة؛ وثمة أحلام أخرى غنية كل الغنى بالمضمون، تدور أحداثها كما لو أنها روايات حقيقية، وتدوم طويلاً فيما يبدو. وهناك أحلام واضحة وضوح أحداث الحياة الواقعية، بل واضحة إلى حدّ نحتاج معه، حتى بعد يقظتنا، إلى بعض الوقت لكي ندرك أن الأمر لم يكن إلا حلمًا؛ وهناك غيرها واهنة أشدّ الوهن، مطموسة، مشوشة. بل من الأحلام ما يكون بعض أجزائه في منتهى الوضوح أحياناً، بينما يكون بعضها الآخر مبهماً إلى حدّ الاستغلاق. وثمة أحلام مشبعة بالمعنى، أو على كل حال متماسكة متلاحمة، بل منها ما يتشعّب بمسحة من الفكاهة أو من الجمال الخارق الأخاذ، بينما بعضها الآخر ملتبس، سخيّف، عادم المعنى، بل مغرب شاذ. وثمة أحلام لا تحرك فينا ساكناً، وأخرى تستثير انفعالاتنا جميعاً، فيستبدّ بنا الألم إلى حدّ البكاء، ويهصرنا القلق فنفيق ونصحو، وتستولي علينا الدهشة، ويغشانا الانذهال، إلخ. وأغلب الأحلام لا تلبث أن تُنسى بسرعة بعد الاستيقاظ؛ لكنها إذا أقامت في الذاكرة ولم تبرحها طوال اليوم كله، فإنها تخبو مع مرّ الساعات وتحدث فيها مع حلول المساء فجوات كبيرة؛ وبالمقابل، تظل أحلام أخرى، ومنها أحلام الأطفال على سبيل المثال، ثابتة في الذاكرة حتى ليسترجعها المرء بكل نصاعتها، بين جملة ذكرياته، بعد انقضاء ثلاثين عاماً، وكأنها انطباع حديث العهد. وبعض الأحلام، شأنها شأن الفرد من البشر، لا تحدث إلا لمرة واحدة، بينما بعضها الآخر يتواتر حدوثه لدى الشخص

عينه، إما كما هي طبق الأصل، أو مع تغييرات طفيفة فيها. مجمل القول: إن هذا النشاط النفسي الليلي الضئيل الأهمية يجد في متناوله ذخيرة هائلة وتتوفر له المقدرة على أن يعيد خلق كل ما تخلقه النفس في مجرى نشاطها النهاري، لكن من دون أن يطابقه أبداً.

قد نجد في أنفسنا ميلاً إلى تفسير جميع هذه الضروب من الحلم بأن نفترض أنها تناظر شتى الحالات الوسطى بين النوم واليقظة، وشتى درجات النوم غير الكامل. لكن لو كان الأمر كذلك فعلاً، لتعيّن أن يدرك النائم بفطنة متزايدة، طرداً مع تعاظم أهمية الحلم واكتسابه مضموناً أغنى ووضوحاً أكبر، أنه بصدد حلم ليس إلا، لأن الحياة النفسية في هذا النوع من الأحلام تقترب غاية القرب مما هي عليه في حالة اليقظة. ولكان استحال بوجه خاص أن يرى النائم، إلى جانب الأجزاء الواضحة المعقولة من الحلم، أجزاء أخرى يعوزها الوضوح وتفقر إلى المعنى، متبوعة بأجزاء واضحة جديدة أخرى. ولو أخذنا بالتفسير المتقدم بيانه نكون قد عزونا إلى الحياة النفسية القدرة على تغيير عمق نومها بسرعة وسهولة لا تتفقان مع الواقع. بوسعنا القول إذاً إن هذا التفسير لا يستقيم. وليست الأمور، بوجه عام، بمثل هذه البساطة.

سنمسك مؤقتاً عن نشدان «معنى» الحلم لنحاول، انطلاقاً من الصفات المشتركة للأحلام كافة، أن نفهم هذه الأخيرة فهماً أفضل. لقد كنا استنتجنا من العلاقات القائمة بين الأحلام وبين حالة النوم أن الحلم استجابة لتنبيه معكّر لصفو النوم. وهذه، في ما نعلم، النقطة الوحيدة التي يمكن لعلم النفس التجريبي أن يعيننا على فهمها، بما يقدمه لنا من برهان على أن التنبيهات التي تعرّض لها النائم تظهر في حلمه. ولنا اطلاع على الكثير من الأبحاث التي أجريت حول هذه المسألة، بما فيها أبحاث مورلي - فولد التي أشرنا إليها آنفاً، وقد سنحت الفرصة لكل واحد منا للتحقق من صحة هذا الاستنتاج بملاحظات الشخصية. وسأسوق إليكم أمثلة من بعض هذه التجارب، اختارها من بين أقدمها. وقد أجرى مورلي بعضاً منها على شخصه بالذات. فقد طلب إلى معاونيه أن ينشقوه في نومه ماء الكولونيا، فرأى في منامه أنه موجود في القاهرة، في محل جان - ماريا

فارينا^(١٦)، وتبع ذلك جملة من مغامرات عجيبة غريبة. كما طلب إليهم أن يقرصوه قرصاً خفيفاً في رقبتهم، فحلم للحال بلزقة وبطبيب كان قد عالجهم في طفولته. وأخيراً كلّفهم بأن يسكبوا قطرة ماء على جبينه، فرأى في منامه أنه موجود في إيطاليا، وأنه يعرق عرقاً كثيراً ويحتسي نبيذ أورفيتو الأبيض^(١٧).

إن ما يسترعي الانتباه في هذه الأحلام المصطنعة تجريبياً قد يتبدى لنا بمزيد من الوضوح والجلء بعد في طائفة أخرى من الأحلام الناشئة عن تنبيهات. وهي أحلام ثلاثة رواها مراقب حصيف، هو السيد هيلدبرانت Hildebrandt^(١٨)، وتؤلف ثلاثتها استجابات لصوت صادر عن ساعة منبهة:

«إنني أُنزّه في صباح يوم ربيعي، وأطوف بالحقول، إلى أن أصل إلى القرية المجاورة، فأرى سكانها في ثياب العيد يتجهون زرافات صوب الكنيسة، وفي أيديهم كتاب الصلوات. اليوم، بالفعل، يوم أحد، وعما قليل سيقام أول قداس. عزمت على حضوره، لكن نظراً إلى حرارة الجو الخانقة دلفت إلى المقبرة المحيطة بالكنيسة التماساً للراحة. وفيما أنا مستغرق في قراءة ما كتب على شواهد القبور، سمعت صوت قارع الناقوس وهو يصعد إلى برج الجرس، ولحّت في قمة البرج جرس القرية الصغير الذي سيعلن عما قليل عن بدء الصلاة. وبقي الجرس ساكناً لهنيهة أخرى، ثم شرع يهتز، وعلى حين بغتة صارت دقاته واضحة، حادة الصوت، فوضعت حداً لنومي. كانت الساعة المنبهة هي التي أطلقت جرسها.

«مشهد آخر. يوم صااح من أيام الشتاء. الطرقات تغطيها طبقة سميكة من الثلج. مفروض بي أن أشارك في نزهة في الزلاجة، لكنني مضطر إلى الانتظار ملياً قبل إبلاغي بأن الزلاجة أمام الباب. قبل أن أصعد إليها، أعدّ أغراضي: ألبس عباءتي المبطنة بالفرو، وأضع مدفاة القدمين. وأخيراً أتخذ مكاني في الزلاجة.

١٦ - جان ماريا فارينا: كيميائي إيطالي (١٦٨٥ - ١٧٦٦). اخترع طريقة في تحضير ماء الكولونيا أصابت شهرة عالمية، وما زالت دراجة إلى اليوم. «م».

١٧ - نبيذ إيطالي مشهور من إنتاج مدينة أورفيتو. «م».

١٨ - ف. و. هيلدبرانت: كاتب ألماني. مؤلف الحلم واستخدمه برسم الحياة الصادر عام ١٨٨١.



تأخير جديد، فعلى الخيل أن تنتظر إشارة الإيذان بالسير من الأعنة. وأخيراً تشرع الأحصنة بالتحرك، وتهتز الجلاجل اهتزازاً شديداً، فتدوي موسيقاها الانكشارية المعروفة بعنف يمزق للحال خيوط شبكة الحلم. ولم يكن ذلك، هذه المرة أيضاً، إلا رنين جرس الساعة المنبهة.

«مثال ثالث. أرى خادمة مطبخ تتجه عبر الممشى نحو قاعة الطعام، وقد حملت كدسة من الأطباق المتناضدة. وبدا لي العمود الخرفي الذي تحمله في خطر من أن يختل توازنه. فصحت بها: حذارك، فكل حملك على وشك أن يسقط أرضاً. فجاءني جوابها بأنها قد اعتادت على عملها، إلخ؛ غير أن ذلك لم يمنني من تتبع الخادمة بعين قلقة. وها هي، بالفعل، تتعثر بعتبة الباب، فتهدوي الآنية العطوب، وتنتشر على الأرض شظاياها بقرقعة تصم الآذان. لكنني سرعان ما أتيت أن الضوضاء مستديمة، وليست قرقعة بملء المعنى، بل رنين جرس حقيقي. وعندما استيقظت تأكد لي أنه جرس الساعة المنبهة».

هذه الأحلام بدعة، مليئة بالمعنى، وبخلاف أغلب الأحلام متماسكة متلاحمة. فلا مأخذ لنا عليها البتة. والسمة المشتركة بينها تتمثل في أن الموقف ينتهي فيها جميعاً بضوضاء يثبت فيما بعد صدورهما عن جرس الساعة المنبهة. هكذا نعرف كيف يحدث الحلم. لكننا نعرف أيضاً شيئاً آخر. فالحالم لا يتعرف جرس الساعة المنبهة (وهذه لا تظهر أصلاً في الحلم)، لكنه يستبدل رنينه بضوضاء أخرى، ويؤول في كل مرة التنبيه المقلق للنوم تأويلاً مغايراً. لماذا؟ ليس عن هذا من جواب: فكأن الأمر محض اتفاق ومصادفة. لكن فهمنا الحلم يعني بالتحديد قدرتنا على أن نفسر لماذا يختار الحالم ضوضاء بعينها، دون غيرها من أنواع الضوضاء، ليؤول بها التنبيه الموقظ من النوم. وبوسعنا أيضاً الاعتراض على أحلام موري بما يلي: فلئن كنا نفهم لماذا يتظاهر التنبيه في الحلم، فإننا لا نفهم لماذا يتظاهر تحديداً في شكل معطى بعينه لا ينبع البتة من طبيعة التنبيه. أضف إلى ذلك أن المفعول المباشر للتنبيه في أحلام موري ترتبط به طائفة من مفاعيل ثانوية، كتلك المغامرات العجيبة الغريبة في الحلم الذي استثاره ماء الكولونيا، وهي مغامرات يتعذر تفسيرها.

أرجو أن تلاحظوا أن الأحلام التي تؤدي إلى الاستيقاظ هي التي تتيح لنا أكثر الفرص لإيضاح تأثير التنبيهات القاطعة للنوم. أما في أغلب الحالات الأخرى، فالأمر أصعب بكثير. فنحن لا نستيقظ دوماً في إثر كل حلم. وحتى لو تذكرنا في الصباح حلم الليل، فكيف لنا أن نهتدي إلى التنبيه الذي ربما فعل فعله أثناء النوم؟ لقد أفلحت مرة، لكن بفعل ظروف خاصة بطبيعة الحال، في تعرف تنبيه صوتي من هذا القبيل بعد الحلم. فقد استيقظت ذات صباح في منتجع مرتفع في جبال التيرول^(١٩) موقناً بأنني رأيت في منامي أن البابا قد مات. وكنت منهمكاً بيني وبين نفسي في محاولة تفسير هذا الحلم حين سألتني زوجتي: «هل سمعت عند الفجر ذلك الرنين الباهر عندما راحت جميع الكنائس والمزارات تقرع أجراسها؟». كلا، لم أسمع شيئاً من هذا، لأنني كنت مستغرقاً في نوم عميق. لكن سؤالها ذاك هو الذي أتاح لي أن أفهم منامي. كم من مرة يمكن لتلك التنبيهات أن تحمل النائم على أن يحلم من دون أن يتأتى له فيما بعد أن يعلم أي شيء من أمرها؟ ربما مرات كثيرة وربما لا. فعندما تتعذر إمكانية البرهان على التنبيه، تتعذر أيضاً إمكانية معرفة أي شيء بصده. وما علينا أصلاً أن نطيل الوقوف لمناقشة قيمة التنبيهات الخارجية من منظور ما تحدثه من اضطراب في النوم، وذلك ما دمنا نعلم أنها غير قادرة إلا على تفسير جانب طفيف فقط من الحلم، لا على تفسير كل الاستجابة التي تكوّن الحلم.

لكن هذا ليس سبباً لإهمال كل هذه النظرية، القابلة أصلاً للتطوير. وفي الواقع، ليس من أهمية كبرى للعلة التي ترتق النوم وتحفز على الأحلام. فعندما لا تأتي هذه العلة من تنبيه حسي خارجي المصدر، فقد تكون نابعة من تنبيه حشوي صادر عن أعضاء داخلية. وهذا الافتراض الأخير يبدو مرجحاً جداً، ويتمشى مع التصور الشعبي بصدد حدوث الأحلام. فكثيراً ما تسمعون الناس يقولون إن الأحلام تأتي من المعدة. لكن من الممكن هنا أيضاً، لسوء الحظ، أن يفعل تنبيه حشوي فعله في أثناء الليل ثم لا يترك أثراً في الصباح، وبذا يستحيل بيان طبيعته. غير أننا لا نريد أن نضرب صفحاً عن التجارب الثابتة والعديدة

١٩ - التيرول: منطقة جبلية للتزلج والاصطياف في جنوب النمسا، من أهم مدنها إنسبروك. «م».

التي تؤيد فرضية ارتباط الأحلام بالتنبيهات الباطنة.

فمما لا جدال فيه، بوجه عام، أن حالة الأعضاء الباطنة من شأنها التأثير على الأحلام. وليس لنا أن نتجاهل الصلات القائمة بين مضمون بعض الأحلام، من جهة أولى، وبين تراكم البول في المثانة أو تهيج الأعضاء التناسلية، من الجهة الأخرى. غير أن هناك، إلى جانب هذه الحالات الواضحة البيئية، حالات أخرى يكون فيها تأثير التنبيه الباطن على مضمون الحلم موضع احتمال وتخمين فحسب، على اعتبار أن هذا المضمون ينطوي على عناصر يمكن اعتبارها صياغة أو تمثيلاً أو تأويلاً لتنبيه من هذا النوع.

لقد ألح شرنر Scherner^(٢٠)، وكان قد اهتم كثيراً بالأحلام (١٨٦١)، إلحاحاً خاصاً على هذه العلاقة السببية بين التنبيهات الصادرة عن الأعضاء الباطنة وبين الأحلام، وساق أمثلة كثيرة في تأييد أطروحته. فحين يرى، على سبيل المثال، «صَفَيْنِ من أولاد ملحاء، شقر الشعور، رهاف اللون، يتواجهون في موقف صراعي، وينقَضُونَ على بعضهم بعضاً، ويمسك واحداهم بتلابيب الآخر، ثم يفترقون ليعودوا إلى مواقعهم الأولى، ثم ليعودوا ثانية إلى القتال»، فإن أول تأويل يخطر بباله هو أن صَفَيِ الأولاد تمثيل رمزي لصَفَيِ الأسنان. وقد تأكد هذا التأويل لما وجد الخالم نفسه، بعد هذا المشهد، في حاجة إلى «اقتلاع سنّ كبيرة من فكه». ومعقول هو الآخر التفسير الذي يعزو إلى تهيج معويّ الحلم الذي رأى فيه المؤلف «دهاليز طويلة، ضيقة، ملتفة». وبوسعنا التسليم مع شرنر بأن الحلم يسعى قبل كل شيء إلى تمثيل العضو الذي يرسل التنبيه بأشياء تشابهه.

لا يجوز لنا إذاً أن نأبى الإقرار بأن التنبيهات الباطنة من شأنها أن تلعب دوراً مماثلاً لذلك الذي تلعبه التنبيهات الآتية من الخارج. ومن دواعي الأسف أن تأويلها لا يسلم من الاعتراضات عينها. ففي عدد كبير من الحالات يكون التأويل بتنبيه باطن موضع شك أو متعذراً البرهان عليه؛ ثم إن بعض الأحلام، وليس كلها،

٢٠ - كارل ألبرت شرنر: عالم نفس ألماني (١٨٢٥ - ١٨٨٩). أكد على الدلالة الرمزية للأحلام في

كتابه: حياة الحلم. «م».

هي التي تسمح بتخمين الدور الذي تلعبه فيها التنبيهات المنطلقة من عضو باطن؛ وأخيراً، إن تنبيه العضو الباطن، شأنه في ذلك شأن التنبيه الحسي الخارجي، لا يفسّر من الحلم إلا ما يناظر الاستجابة المباشرة للتنبيه، ويدعنا في شك وريب بصدد مصدر الأجزاء الأخرى من الحلم.

على أن دراسة التنبيهات الباطنة تلفت نظرنا إلى خاصية أخرى من خصائص الحلم. فالحلم لا يمثل التنبيه كما هو، بل يحوِّله ويكني عنه ويدرجه في سياق خاص ويستبدله بشيء آخر. هذا الجانب من الصياغة التي تتم أثناء الحلم يجب أن يحظى منا بالاهتمام، لأن أخذنا إياه بعين الاعتبار يتيح لنا المزيد من الفرص للاقتراب مما يؤلف ماهية الحلم. فنحن عندما نفعل شيئاً من الأشياء تحت تأثير ظرف محدد، فإن هذا الأخير لا يستوعب كل محتوى الفعل. فـ«مكبث» شكسبير مسرحية ظرفية، كتبت بمناسبة اعتلاء ملك كان أول من جمع فوق رأسه تيجان ثلاثة بلدان. ولكن هل يستوعب هذا الظرف التاريخي مضمون المسرحية، وهل يفسر عظمتها وألغازها؟ من المحتمل إذاً ألا يكون للتنبيهات الخارجية والداخلية التي تؤثر في النائم من دور سوى أن تعطي الحلم إشارة البدء، ولكن من دون أن تكشف لنا عن شيء من ماهيته.

أما السمة الأخرى المشتركة بين الأحلام جميعاً، أعني خصوصيتها النفسية، فيصعب، من جهة أولى، فهمها إلى حد كبير، ولا تقدّم، من الجهة الثانية، أي مركز لأبحاث لاحقة. وفي أكثر الأحيان يكون للأحداث التي يتألف منها الحلم شكل بصري. فهل تقدم التنبيهات تفسيراً لهذه الواقعة؟ وهل ما نشاهده في الحلم هو حقاً التنبيه الذي وقعنا تحت تأثيره؟ ولماذا يكون الحلم بصرياً، مع أن التنبيهات البصرية لا تستثيره إلا في حالات نادرة أشد الندرة؟ وحتى عندما يدور حلمنا حول محادثة أو خطاب، فهل في مقدورنا أن نثبت أن محادثة ما، أو أي ضوضاء أخرى، قد طرقت آذاننا أثناء نومنا؟ إنني أبيع لنفسي أن أردّ هذا الفرض رداً قاطعاً بلا تردد.

ما دامت السمات المشتركة بين الأحلام كافة لا تعيننا على فهم هذه الأحلام، فلعلنا نكون أكثر توفيقاً لو يَمُنّا شطر الاختلافات التي تفرّق بينها.

فالأحلام في كثير من الأحيان غفل من المعنى، مشوشة، مختلطة، لامعقولة، لكنّ هناك أيضاً أحلاماً مشبعة بالمعنى، واضحة، معقولة. فلننظر إن كان بوسع هذه أن تفسّر تلك. سأطالعكم لهذا الغرض على آخر حلم معقول روي لي، وهو حلم حلم به أحد الشبان: «فيما كنت أتنزه في شارع كارنتر^(٢١)، التقيت بالسيد س، فسأيرته بضع خطوات ثم قصدت بعد ذلك المطعم. فقدم سيد وسيدتان للجلوس إلى طاولتي. فضايقي ذلك في بادئ الأمر، ولم أشأ أن أنظر إليهم. وفي النهاية سددت نظري نحوهم فرأيت أنهم في غاية من الأناقة». وقد لاحظت الحالم بهذا الصدد أنه كان يسير فعلاً ليلتذ في شارع كارنتر الذي اعتاد المرور به، وقد التقى فيه فعلاً السيد س. أما الجزء الآخر من الحلم فلم يصدر عن ذكرى مباشرة، بل كان يشبه إلى حدّ ما حادثة وقعت في زمن سابق. هاكم أيضاً حلمًا آخر من هذا النوع، وقد حلمت به سيدة. فقد سألتها زوجها: «ألا ينبغي أن نرسل البيانو إلى المصلّح ليشدّ أوتاره؟»، فأجابته بقولها: «لا فائدة من ذلك، فلا بدّ على كل حال من تغيير غطاءه الجلدي». إن هذا الحلم يصوّر محادثة مشابهة جرت بينها وبين زوجها في النهار السابق للحلم. بَمَ يفيدنا هذان الحلمان البسيطان؟ يفيداننا بأن بعض الأحلام تمثّل استعادة لأحداث من حياة اليقظة أو لمشاهد تتصل بهذه الأحداث. وهذه نتيجة ذات وزن فيما لو كان في مقدورنا أن نقول الشيء عينه عن الأحلام كلها. لكن ليس كذلك واقع الحال، والاستنتاج الذي استنتجناه لا ينطبق إلا على عدد ضئيل جداً من الأحلام. ففي أكثر الأحلام لا تقع على شيء يتصل بحالة اليقظة، وبذلك نبقي على جهلنا فيما يتعلق بالعوامل التي تنشأ عنها الأحلام المتناقضة واللامعقولة. وكل ما نعلمه أنه تواجهنا هنا معضلة جديدة. فما نريد أن نعرفه الآن ليس ما يعنيه الحلم فحسب، بل كذلك، وعندما يكون معناه واضحاً كما في الحلمين اللذين استشهدنا بهما، لماذا ولأي غرض يعيد الحلم تمثيل أحداث معروفة لنا ولم يمضِ زمن يذكر على وقوعها؟ أرجح الظن أنكم سئتم، مثلما سئمت أنا، من المضيّ في هذا النوع من المباحث. فمهما نبذل من اهتمام بمشكلة من المشكلات، يبقَ غير كافٍ ما دمنا



نجهل ما الاتجاه الذي ينبغي أن نسلكه طلباً لحلّها. وعلم النفس التجريبي لا يزودنا إلا ببعض المعطيات الطفيفة، وإن تكن في الحق ثمينة، حول دور التنبيهات في استثارة الأحلام. أما الفلسفة فليس لنا أن نتوقع من طرفها إلا أن تقابل موضوعنا بالازدراء باعتباره عديم الأهمية فكرياً. وأخيراً، نحن لا نريد أن نقبس شيئاً من معين علوم الغيب. أما التاريخ وحكمة الشعوب فيعلماننا أن للحلم معنى، وأنه ذو أهمية، وأنه يستبق المستقبل، وهذا مما يصعب علينا قبوله كما يتعذر البرهان عليه. وهكذا يكون مجهودنا الأول قد آل إلى فشل ذريع.

لكن خلافاً لكل ما هو متوقع، يأتينا العون من جهة لم نفكر بها بعد. فاللغة، التي لا تدين بشيء للمصادفة، والتي تؤلف على العكس مستودعاً تبلور فيه المعارف المتراكمة (وإن يكن من غير الجائز الغرف منه بلا تحفظ ولا احتياط)، نقول إن هذه اللغة تعترف بوجود «أحلام يقظة»، وهي نوع من الأخايل، ظاهرات عامة وشائعة تلحظ لدى الأسوياء كما لدى المرضى من الناس، وفي مقدور كل واحد منا أن يدرسها بسهولة على نفسه. وما يميّز بوجه الخصوص منتجات الخيئة هذه أنها سُمّيت باسم «أحلام يقظة»، وهي بالفعل لا تتسم بأي من السمتين المشتركين بين الأحلام بحصر المعنى. فأحلام اليقظة، كما يشير اسمها، لا صلة لها على الإطلاق بحالة النوم، وهي ليست، من منظور السمة المشتركة الثانية، أحداثاً ووقائع، ولا هلوسات، وإنما هي بالأحرى تصورات وتمثيلات: فالمرء يعرف أنه يتخيّل، وأنه لا يرى، بل يفكر. وتظهر هذه الأحلام قبل سن البلوغ، بل كثيراً ما تبدأ مع الطفولة الثانية، وتزول في سن الرشد والنضج، ولكنها قد تدوم أحياناً حتى أرذل العمر. ويهيمن على مضمون منتجات الخيال هذه تخفيف بالغ الشفافية. فهي مشاهد وحوادث تجد فيها أنانية الحالم وطموحه وحاجته إلى القوة والسلطان ورغبته الإيروسية تلبية وإشباعاً. ولدى الشبان تكون الغلبة لأحلام الطموح، أما لدى النساء اللائي يركّزن كل طموحهن على التوفيق في الحب فتحتل مكانة الصدارة الأحلام الإيروسية. لكن كثيراً ما تقبع الحاجة الإيروسية أيضاً خلف أحلام الذكور: فكل النجاحات والمآثر البطولية التي يجترحها هؤلاء الحالمون لا هدف لها ولا غاية غير أن تعود عليهم

بإعجاب النساء ورضاهن. وفيما عدا ذلك، تكون أحلام اليقظة باللغة التنوع، ومصائرهما متباينة. فمنها ما يُذر بعد وقت قصير ليستبدل بغيره، ومنها ما يحافظ عليه ويُطوّر بحيث يؤلف قصصاً طويلة ويتكيّف مع تبدلات ظروف الحياة. فهي تساير، إن صحّ التعبير، الزمن، فيسمها بميسمه الذي يشهد على أثر الوضع المستجدّ. وهي المادة الخام للإنتاج الشعري؛ فمؤلف الأعمال التخيلية يخلق، بما يدخله على أحلام يقظته من تحوير وتنكير واختصار، المواقف التي يضمّنها رواياته أو قصصه أو مسرحياته. بيد أن البطل في أحلام اليقظة هو على الدوام الحالم نفسه، إما بصورة مباشرة وإما عن طريق الطريق التماهي الشفاف مع شخص آخر.

لعل أحلام اليقظة سُمّيت بهذا الاسم لأنه لا يجوز اعتبارها، فيما يتصل بعلاقاتها بالواقع، أكثر واقعية من الأحلام بحصر المعنى. ولعل هذا الاشتراك في التسمية يركز أيضاً إلى خاصية نفسية لا نعرفها بعد، وإن كنا نبحث عنها. ومن الممكن أيضاً أن نكون على خطأ من أمرنا إذ نعزو أهمية ما إلى هذا الاشتراك في الاسم. وهذه جميعها مشكلات لا سبيل إلى الفصل فيها إلا في محاضراتنا التالية.

المحاضرة السادسة

منطلقات التأويل وتقنيته

سيداتني وسادتي، نحن بحاجة إذاً، كيما نتقدم بأبحاثنا حول الحلم، إلى طريق جديد، إلى منهج جديد. وسأقترح عليكم بهذا الصدد اقتراحاً بسيطاً للغاية. لنسلم، في كل ما سيلي، بأن الحلم ظاهرة نفسية، لا بدنية. وأنتم تعرفون ما معنى هذا، لكن ما الذي يأذن بهذا الفرض؟ لا شيء، لكن لا شيء أيضاً يحول دون قبولنا به. وخلاصة الأمر كما يلي: إن يكن الحلم ظاهرة بدنية، فهو لا يثير اهتمامنا. وليس له أن يثير اهتمامنا إلا في حال تسليمنا بأنه ظاهرة نفسية. لذا سنعمل على أساس الافتراض بأنه كذلك فعلاً، لنرى ما يمكن أن يتمخض عنه عملنا في هذه الشروط. وبحسب النتيجة التي سنحصل عليها، سنحكم إن كان يتعين علينا أن نتمسك بفرضنا وأن نتبناه بدوره كنتيجة مستخلصة من مقدمات سليمة. وبالفعل، إلآم نظمح ولأي هدف نعمل؟ هدفنا هو هدف العلم بوجه عام: فنحن نريد أن نفهم الظاهرات، أن نربطها بعضها ببعض، وفي المقام الأخير أن نزيد بقدر المستطاع من سلطاننا عليها.

سنمضي إذاً في عملنا مفترضين أن الحلم ظاهرة نفسية. لكن الحلم على أساس هذا الفرض نشاط للحالم، نشاط لا يفيدنا شيئاً ولا نفهمه. والحال ماذا أنتم فاعلون لو صدر عني شيء لا تفهمونه؟ ستوجهون إليّ بالسؤال، أليس كذلك؟ فلم لا نفعل هذا مع الحالم؟ لم لا نسأله عن معنى حلمه؟

تذكروا أننا واجهنا من قبل وضعاً كهذا. كان ذلك في معرض تحليلنا بعض الهفوات، وعلى وجه التحديد فلتة لسان. فقد قال أحدهم: «عندئذ انكشرت أمور كثيرة»^(١).

١ - انظر المحاضرة الثالثة، ص ٥٥.

عندما سألناه... كلا، لحسن الحظ، لسنا نحن من سأل، وإنما أشخاص آخرون، غرباء عن التحليل النفسي، هم الذين سألوه ماذا يقصد بتلك العبارة اللامفهومة، فأجاب أنه كان يقصد أن يقول: «عندئذ انكشفت أمور شريفة». لكن هذا القصد كبحة قصد آخر، أكثر اعتدالاً: «عندئذ انكشفت أمور كثيرة». غير أن القصد الأول، المكبوح، جعله يستبدل في عبارته كلمة انكشفت بكلمة انكشرت التي لا معنى لها، والتي تنم مع ذلك عن تقييمه التحقيري «للأمور الكثيرة». وقد شرحت لكم أن هذا التحليل هو بمثابة نموذج لكل بحث تحليلي نفسي، ولعلكم تدركون الآن لماذا يأخذ التحليل النفسي بالتقنية التي تقتضي أن يقوم الشخص المحلل نفسه، بقدر الإمكان، بفك ألغازه. وعلى هذا، إنه يتعين على الحالم بدوره أن ينبئنا بما يعنيه حلمه.

يبد أننا نعلم أن الأمور في الحلم ليست بمثل هذه البساطة. ففي الهفوات واجهنا أول الأمر عدد من الحالات البسيطة، ثم واجهتنا حالات أخرى كان فيها الشخص المستجوب يأبى أن يتفوه بشيء، بل ينكر حانقاً الجواب الذي نقترحه عليه. والحالات الأولى لا وجود لها بتاتاً في الأحلام: فالحالم يقول دوماً إنه لا يعرف شيئاً. كما أنه لا يستطيع أن يردّ تأويلنا، فليس لدينا أصلاً تأويل نعرضه عليه. ألزام علينا إذاً أن نقلع من جديد عن محاولتنا؟ فإن كان الحالم لا يعرف شيئاً، وإن كنا لا نملك نحن أنفسنا أي معلومات، وإن كان أي شخص ثالث لا يملك من العلم أكثر مما نملك، فهل لنا إذاً من أمل في أن نعرف شيئاً؟ على رسلكم، أفلعوا أنتم، إن شئتم، عن المحاولة. لكن إن كنتم تحرصون على الاستمرار فيها، فما عليكم إلا أن تتبعوني. فأنا أقول لكم إنه من المحتمل جداً، بل من المرجح، أن الحالم يعرف، بالرغم من كل شيء، ما يعنيه حلمه، ولكن بما أنه لا يعرف أنه يعرف، فإنه يتصور أنه به جاهل.

ستلفتون نظري بهذا الصدد إلى أنني أصوغ هنا فرضاً جديداً، هو الثاني منذ بدء بحوثنا حول الأحلام، وإلى أنني بهذا أنتقص انتقاصاً كبيراً من قيمة منهجي. فقد كان الفرض الأول أن الحلم ظاهرة نفسية. أما الفرض الثاني فإنه تحدث في الإنسان أحداث نفسية لا يعرف أنه يعرفها، إلخ. وستقولون لي: حسب المرء أن

يأخذ بعين الاعتبار بُعد احتمال هذين الفرضين حتى يفقد كل اهتمام بالنتائج التي يمكن أن تُستخلص منهما.

أجل، سيداتي سادتي، لم أذُعنكم إلى الحضور هنا لأميط لكم اللثام أو لأخفي عنكم شيئاً أياً كان. بل أعلنت فقط عن سلسلة محاضرات بعنوان: محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي، الأمر الذي لا يترتب عليه البتة أنه في نيتي أن أقدم لكم عرضاً *Ad Usum Delphini*⁽²⁾، أي عرضاً رتيباً، متساوياً، يخفي الصعوبات، ويسد الثغرات، ويحجب الشكوك والريب، وكل ذلك لأدخل في أذهانكم أنكم تعلمتم شيئاً جديداً. كلا، فعلى وجه التحديد لأنكم مبتدئون أردت أن أقدم لكم علمنا على ما هو عليه، بما فيه من وعورة وفجاجة وادعاء وتردد. وأنا أعلم أن الأمر بالمثل في كل علم. وأعلم أيضاً أن تعليم العلوم الأخرى يسعى في أغلب الأحوال إلى إخفاء الصعوبات وإلى حجب النواقص عن الطلاب في بادئ الأمر. على أن هذا شيء لا يصح في تعليم التحليل النفسي. لذا صغت فرضين، واحدهما يتضمن الآخر. فلئن بدا الأمر لكم شاقاً أكثر مما ينبغي أو تحوطه الشكوك والريب أكثر مما يجب، وإن كنتم قد اعتدتم على درجات أعلى من اليقين وعلى استنتاجات أكثر صقلاً، فليست بكم حاجة إلى المضى معي إلى أبعد من ذلك. بل أعتقد أنكم خيراً تفعلون، في هذه الحال، لو تركتم المشكلات السيكلوجية وشأنها، خشية ألا تجدوا هنا تلك السبل المستقيمة والمأمونة التي ألفتم سلوكها. ثم إنه لا ينبغي لأي علم لديه ما يعطيه أن يبحث عن أنصار له ومستمعين، فنتائجه هي التي يجب أن تنطق عنه، وبوسعه أن ينتظر إلى حين تشدّ هذه النتائج انتباه الناس إليها قسراً.

لكنني أحرص على أن أحذر من ودّ منكم الاستمرار معي في محاولتي من أن الفرضين اللذين تقدمت بهما ليسا متعادلين قيمة. فأما أولهما، وهو أن الحلم ظاهرة نفسية، فنأمل أن نبرهن عليه بنتيجة عملنا؛ أما الثاني، فقد تمّت البرهنة

٢ - باللاتينية في النص، ويعني حرفياً: برسم ولي العهد، وهو الاسم الذي أطلق على مؤلفات الكلاسيكيين اللاتين بعد أن حذفت منها بعض العبارات الفجة بحيث تصلح ليطلع عليها ولي العهد ابن لويس الرابع عشر. وقد بات يطلق من قبيل السخرية على كل طبعة مهذبة. «م».

عليه في ميدان آخر، ولست إلا مطلقاً الحرية لنفسه لاستعماله في حلّ المشكلات التي تستأثر باهتمامنا هنا.

أين وفي أي مضمار قام البرهان على وجود معرفة لا نعرف عنها مع ذلك شيئاً، وهو ما نفترضه هنا بالحلّم؟ لو صحّت هذه الواقعة لكانت أمراً عَجَباً، مدهشاً، كفيلاً بقلب تصورنا عن الحياة النفسية رأساً على عقب، ولما كانت بها حاجة إلى أن تبقى خفية مستترة. ولكان من شأنها، علاوة على ذلك، أن تعبّر عن شيء ما واقعي رغم تناقضها من حيث الصفة (Contradictio In Adjecto)^(٣). والحال أن تلك الواقعة ليست بخفيّة ولا مستترة. وليس عليها يقع اللوم إن تكن غير معروفة، أو لا تحظى بالاهتمام الكافي. كذلك ليس علينا يقع اللوم إن تكن الأحكام بصدد جميع هذه المشكلات السيكلوجية تصدر عن أشخاص غرباء عن المشاهدات والتجارب التي لها القول الفصل في هذا الموضوع.

في مضمار ظاهرات التنويم المغنطيسي تَمَّت البرهنة التي نتحدث عنها. فقد كنت أحضر في عام ١٨٨٩، في مدينة نانسي، العروض الإثباتية الأخاذة التي كان يقيمها ليبو Liebault وبرنهيم Bernheim^(٤)، فكان في جملة ما شهدته التجربة التالية. نُؤم رجل وُضع في حالة السرغمة Somnambulisme^(٥)، وأوحي إليه بجملة من الأهلاس Hallucinations، فلما استيقظ بدا عليه وكأنه لا يعلم شيئاً مما حدث أثناء نومه. فردّاً على طلب مباشر من برنهيم بأن يروي تفاصيل تلك الأحداث، صرّح الشخص بادئ الأمر أنه لا يتذكر شيئاً. لكن برنهيم ألحّ عليه، وأكد له أنه يعرف، وأنه يتعيّن عليه أن يتذكر. وعندئذ بدأت علائم التردد تظهر على الشخص، فشرع يجمع أفكاره، واستذكر، أول ما استذكر، وكأنه في حلّم، أول إحساس أوحى له به، ثم إحساساً آخر، ثم مال تذكره إلى الوضوح

٣ - تعبير لاتيني يشار به إلى التناقض بين اسم الموصوف والصفة كقولنا: مربع مستدير. «م».

٤ - أمبرواز ليبو (١٨٢٣ - ١٩٠٤) وهيبوليت برنهيم (١٨٤٠ - ١٩١٩): طبيبان من مؤسسي مدرسة نانسي الفرنسية للمعالجة بواسطة الإحياء التنويمي. وقد حضر فرويد مع مريضة له بعض عروضهما في صيف ١٨٨٩. «م».

٥ - السرغمة: السير أثناء النوم. «م».



والاكتمال، فانبجست ذكرياته بلا فجوات. ونظراً إلى أن ما من أحد قد أبلغ الشخص أثناء ذلك بما حدث، فمن المباح لنا أن نستنتج أنه كان يعرف الأحداث التي حدثت أثناء نومه حتى قبل أن يُحْتَّ على التذكر ويُدفع إليه دفْعاً. وكل ما هنالك أنها كانت ممتعة عليه، ولا يعرف أنه يعرفها، ويخال أنه يجهلها. إذاً فنحن أمام حالة شبيهة كل الشبه بتلك التي نشته بوجودها لدى الحالم.

أرجح الظن أن الواقعة التي سقتها لكم ستثير دهشتكم، وأنكم ستوجهون إليّ بالسؤال: لماذا لم تلجأ إلى برهان مائل بصدد الهفوات، مع أننا عزونا، أثناء بحثنا فيها، إلى الشخص المتورط في فلتة لسان مقاصد لفظية لا يعرف عنها شيئاً، بل ينكرها؟ فإن كان من الممكن أن يعتقد أحد الناس أنه لا يعرف شيئاً عن الأحداث التي يحمل مع ذلك ذكرها في نفسه، فلا يبعد أن يكون جاهلاً أيضاً بسيرورات نفسية أخرى تجري داخل نفسه. وستضيفون قولكم: إن دليلاً كهذا كان من شأنه بكل تأكيد أن يؤثر فينا وأن يساعدنا على فهم الهفوات. ومن المؤكد أنه كان بوسعي اللجوء إليه وقتئذ، غير أنني شئت أن أحتفظ به لمناسبة أخرى تبدو فيها الحاجة إليه أمس. فالهفوات فسّرت لكم، إلى حدّ ما، نفسها بنفسها، وقادتكم من جهة أخرى إلى التسليم - باسم وحدة الظاهرات - بوجود سيرورات نفسية مجهولة. أما في الحلم فنحن مضطرون إلى البحث عن تفاسير في مكان آخر، فضلاً عن أنني تأملت، فيما يخصّه، أن تسلموا بسهولة أكبر بقابلته للتشبيه بالتنويم المغنطيسي. فالحالة التي نرتكب فيها هفوة من الهفوات ستبدو لكم، ولا بدّ، سوية، عادية، لا شبه بينها وبين حالة التنويم المغنطيسي. وبالمقابل، هناك شبه واضح جليّ بين حالة التنويم المغنطيسي وبين حالة النوم التي هي شرط حدوث الحلم. وبالفعل، يسمى التنويم المغنطيسي بالنوم الاصطناعي^(٦). ونقول للشخص الذي نؤنّمه مغنطيسياً: نم! والإيحاءات

٦ - لا علاقة لفظية في اللغات الأجنبية بين التنويم (المغنطيسي) أو النوم كما نؤثر أن نقول وبين النوم، بعكس الحال في العربية حيث هذه العلاقة واضحة. ومرّد الأمر في اللغات الأجنبية إلى أن المصطلح Hypnotisme (التنويم المغنطيسي) مشتقّ، لا من الفعل نام، بل من اسم إله النوم في اليونانية القديمة Hypnos. «م».

التي نوحى بها إليه يمكن أن تقارن بأحلام النوم الطبيعي. والموقف النفسي في الحالتين كليهما متماثل حقاً. ففي النوم الطبيعي نصرف اهتمامنا عن العالم الخارجي بأسره، وكذلك نفعل في النوم المغنطيسي، خلا أننا نبقي مهتمين بالشخص الذي نؤمن، وبه وحده، ونظل على اتصال وإياه. ثم إن ما يسمى بنوم الموضع، أي النوم الذي تبقى فيه الموضع على اتصال بالطفل الرضيع، فلا يستطيع غيره أن يوقظها، ما هو إلا نظير سويّ للنوم المغنطيسي. إذاً فليس من الاجترار والاستهتار أن نسحب على النوم الطبيعي سمة من سمات النوم المغنطيسي. وعلى هذا، فالفرض الذي يقول إن الحالم له بحلمه معرفة، وإن تكن هذه المعرفة ممتعة عليه مؤقتاً، ليس بالفرض الذي لا يقوم على أساس. ولننوه على كل حال بما يفتح أمامنا هنا من منفذ ثالث إلى دراسة الحلم: فبعد التنبيهات القاطعة للنوم، وبعد أحلام اليقظة، نجد بين أيدينا الآن الأحلام الموحى بها أثناء الحالة التنويمية.

والآن بوسعنا أن نستأنف بحثنا بثقة أكبر. فإن يكن مرجحاً أن للحالم معرفة بحلمه، لا يبقَ أمامنا إلا أن نهتئ له القدرة على الاهتداء إلى هذه المعرفة ومكاشفتنا بها. إننا لا ننتظر منه أن يفصح لنا للحال عن معنى حلمه، بل نريد فقط أن نعينه على الاهتداء إلى أصله، وعلى الرجوع إلى جملة الأفكار والاهتمامات التي انبثقت عنها. ولعلكم تذكرون، فيما يتصل بالهفوات، وعلي الأخص بقلته اللسان انكشرت، أننا كنا سألنا صاحب هذه القلته كيف زلّ لسانه فنطق بهذه الكلمة، فكان أول خاطر خطر على ذهنه مفتاحنا إلى فهم القلته. وسوف نتبع، في الأحلام، خطة بسيطة للغاية، نرسم فيها خطى هذا المثال. فسوف نسأل الحالم كيف تأتى له أن يرى هذا الحلم أو ذاك، وسوف نعتبر جوابه الأول تفسيراً. وعليه، لن نقيم وزناً للاختلافات التي يمكن أن تقوم في حال ما إذا كان الحالم يعتقد أنه يعرف أو في حال ما إذا كان يعتقد أنه لا يعرف، وسنعالج كلتا الحالتين على أنهما من باب واحد.

إن هذه الخطة بسيطة جداً بكل تأكيد، لكنني أخشى أن تقابل منكم بمعارضة قوية. فلعلكم قائلون: «هوذا فرض جديد! إنه ثالث الفروض وأبعدها احتمالاً!

كيف؟ أتسأل الحالم ما يتذكره بصدد حلمه وتعتبر أول ذكرى تمر بخاطره تفسيراً؟ لكن ليس من المحتم أن يتذكر أي شيء على الإطلاق، أو قد يتذكر أشياء، الله هو أدرى بها! إننا لا نرى ما الأساس الذي تعقد عليه رجاءك وأنت تدلل على ثقة مسرفة حيثما التمسك بأهداب الروح النقدي أوجب. ثم إن الحلم لا يمكن أن يقارن بقلته لسان يتيمة، فهو يتألف من عناصر عدة. فبأي ذكرى ينبغي ربطه دون سواها من الذكريات؟».

أنتم على حق في جميع اعتراضاتكم الثانوية. فالحلم يتميز بالفعل عن فلتة اللسان بتعدد عناصره، وتقنية التأويل لا بد أن تأخذ في حسابها هذا الاختلاف. وعليه، سأقترح عليكم تفكيك الحلم إلى عناصره وفحص كل عنصر على حدة، وبذلك نكون قد ثبتنا من جديد التشابه مع فلتة اللسان. كما أنكم على حق عندما تقولون إنه حتى لو سئل الحالم عن كل عنصر من عناصر حلمه، فقد يجيب أنه لا يتذكر شيئاً. والحق أن ثمة حالات، وستعرفونها أجلاً، يجوز لنا فيها قبول هذا الجواب واستخدامه، وهذه الحالات هي بالتحديد، على ما في ذلك من غرابة، تلك التي قد تكون لنا بصدها أفكار محددة. لكن حين يقول لنا الحالم إنه ليست لديه أية فكرة، فإننا بوجه عام نردّ عليه قوله، ونلجّ عليه ونلحف، ونؤكد له أنه لا بد أن تكون لديه فكرة، وفي آخر الأمر يثبت أننا على حق إذ نراه يكشفنا بفكرة من الفكر، ولا يهمننا أيها تكون. وأول ما يطلعنا عليه في هذه الحال بعض المعلومات التي نستطيع وصفها بأنها تاريخية. سيقول مثلاً: «حدث هذا بالأمس» (كما في الحلمين «البيطين» اللذين أوردناهما أعلاه)، أو قد يقول: «هذا يذكرني بشيء حدث منذ عهد قريب». وسوف نلاحظ، إذا ما سرنا على هذا المنوال، أن ارتباط الحلم بانطباعات تلقاها الحالم في النهار السابق للحلم أكثر تواتراً مما كنا نحسب في بادئ الأمر. وأخيراً، وانطلاقاً من الحلم أيضاً، قد يتذكر الشخص أحداثاً أبعد عهداً، بل أحياناً بعيدة العهد جداً.

أما اعتراضاتكم على ما هو أساسي فلستم على حقّ فيها. فأنتم تخطئون إن حسبتم أنني أتعسف حين أسلم بأن أول خاطر يكشفني به الحالم لا بد أن يأتيني

بما أبحث عنه أو أن يضعني على الطريق المفضي إليه. وتخطفون إذ تقولون إن الخاطر المشار إليه قد يكون أي خاطر بلا تعيين، وبالتالي لا صلة على الإطلاق بينه وبين ما أبحث عنه، وإنني إذ أتوقع منه شيئاً آخر فإنما إسرافاً مني بالثقة. ولقد كنت أبحث لنفسي مرة أن أؤاخذكم على إيمانكم الراسخ الجذور بالحرية والعفوية السيكولوجيتين، وقد ذكرت لكم في تلك المناسبة أن مثل هذا الاعتقاد يتنافى والروح العلمي، ولا بدّ أن يخلي الساح ويضمحل إزاء مطلب الحتمية النفسية. فحين يفصح الشخص الذي نستجوبه عن خاطر بعينه دون سواه، فهذه واقعة لا مناص لنا من أن نصدع بأمرها. وأنا إذ أقول ذلك لا أقصد أن أعارض اعتقاداً بآخر. فمن الممكن أن تثبت أن الخاطر الذي كاشفنا به الشخص المعني ليس اعتباطياً ولم يعرض له اتفاقاً، وأنه غير منقطع الصلة بما نبحت عنه. لقد تناهى إلى علمي مؤخراً، وهذا من دون أن أعلّق على الأمر أهمية مفرطة، أن علم النفس التجريبي قد جاء هو الآخر بأدلة من هذا القبيل^(٧).

نظراً إلى أهمية الموضوع، أرجو أن تعيروني انتباهكم كاملاً. فحين أطلب إلى أحدهم أن يكشفني بما يرد على خاطره بصدد عنصر محدد من عناصر حلمه، أدعوه إلى إسلاس قياده للتداعي الحرّ انطلاقاً من فكرة أولية. وهذا يتطلب توجهاً خاصاً للانتباه، توجهاً يغيّر التوجه الذي يستلزمه التفكير، بل ينفيه أصلاً. ويقتدر بعضهم بسهولة على مثل هذا المسلك، بينما يظهر بعضهم الآخر في هذا الصدد خرقاً بالغاً. والحال أن هناك ضرباً آخر من التداعي على درجة أقل من الحرية. وذلك عندما أتخلى حتى عن تلك الفكرة الأولية وأكتفي بأن أذكر له نوعها وجنسها، كأن أدعوه مثلاً إلى التفكير بملء حريته باسم من أسماء الأعلام أو بعدد من الأعداد. فمثل هذه الفكرة يفترض فيها أنها أكثر اتساماً بالاعتباطية وأبعد عن التوقع من تلك التي نستخدمها في تقنيتنا. غير أنه يسعنا أن نبين أنها متعيّنة تعيّنًا صارماً في كل حالة بجملتها من الاستعدادات النفسية الداخلية الهامة التي لا نعرف عنها، لحظة تفعل فعلها، أكثر مما نعرف

٧ - الإشارة هنا، وكما سيأتي البيان توأ، إلى التجارب التي قامت بها مدرسة زريخ بإشراف يونغ وبلولر.

عن الميول المشوَّشة في الهفوات وعن الميول التي تتسبب بحدوث الأفعال العرضية^(٨).

وقد أجريت تجارب عديدة من هذا القبيل على الأسماء والأعداد التي تتوارد إلى الذهن مصادفةً واتفاقاً. كما أجرى كثيرون بعدي تجارب مماثلة، ونشروا بعضها. وهذه الطريقة كالآتي: انطلاقاً من اسم يرد إلى الذهن تستثار تداعيات متتالية، أي تداعيات غير حرة كل الحرية، بل مترابطة بعضها ببعض ترابط الأفكار التي تُستحضر بصدد عناصر الحلم. ويتواصل الأمر حتى يُستنفد كل التحريض على تكوين هذه التداعيات. فإذا ما انتهت التجربة وجدنا أمامنا التفسير الذي يعرفنا بالأسباب والدوافع التي تحكمت بالاستحضار الحر لاسم بعينه، والذي يعيننا على فهم ما قد يكون لهذا الاسم من أهمية بالنسبة إلى الشخص الذي تُجرى عليه التجربة. وتعطي التجارب على الدوام نتائج متماثلة، وتتمخض عن معلومات وفيرة للغاية تقتضي نخلها والتعمق في دراستها. ولعل التداعيات المتولدة عن الأعداد التي ترد عفواً وبحرية إلى الذهن هي أكثر إقناعاً: فهي تتوالى سراعاً وتنزع إلى هدف خفي بوثوق عصيٍّ على الفهم، حتى ليقف المرء مذهولاً وفي حيرة من أمره إزاء تتابعها على هذا النحو. ولن أضرب لكم إلا مثلاً واحداً على تحليل كان مداره على اسم من الأسماء، وهو مثال يفني بالغرض على أحسن وجه، لأن بيانه لا يتطلب تبسيطاً وإطالة في العرض.

كنت أتحدث ذات يوم مع واحد من مرضاي الشبان حول هذه المسألة فتقدمتُ برأي مؤداه أن كل اسم يتداعى إلى الذهن عفواً يكون متعیناً تعيناً صارماً، رغم كل مظاهر الجانوية، يظروف الشخص موضوع التجربة وبطباعه وبوضعه الآتي. فلما أبدى عن تشككه، اقترحت عليه القيام للحال بتجربة من هذا القبيل. ولما كنت أعرف أنه مغرم بالنساء تراءى لي أنني لو دعوته إلى أن

٨ - الأفعال العرضية عند فرويد ظاهرات نفسية تشبه الهفوات، لكنها دونها في الأهمية، وتتميز عنها بعدم وجود قصد ثانٍ متعمد وراءها. ومن عدادها كل ما نفعله من أفعال لا هدف لها في الظاهر: كما عندما نعبث بزّ في لباسنا أو بجزء من جسمنا، أو عندما نترنم بلحن ما، إلخ. انظر المحاضرة الرابعة.



يذكر اسم امرأة عفو الخاطر، لكان يسيراً عليه أن يختار ما يشاء. ولشدّ ما كانت دهشتي، ولشدّ ما كانت دهشته هو بوجه خاص، أنه بدل أن يرميني بسيل من الأسماء المؤنثة ارتج عليه هتية وكاشفني بعد ذلك باسم واحد خطر بباله دون سواه من الأسماء وهو أليينا. فقلت له: «عجباً! ماذا يرتبط في ذهنك بهذا الاسم؟ وكم تعرف من نساء بهذا الاسم؟». والعجيب في الأمر أنه ما كان يعرف امرأة واحدة تدعى أليينا، ولم يجد في ذهنه شيئاً يرتبط بهذا الاسم. وقد يتبادر إلى الذهن أن التحليل فشل. أما في الواقع فقد انتهى فحسب، وتفسير نتيجته لا يتطلب أية فكرة جديدة. فقد كان فتاي أشقر شديد الشقرة، وقد مازحته أثناء المعالجة مراراً بتسميته أليينوس^(٩). أضف إلي ذلك أننا كنا، يوم أجرينا التجربة، نعمل على ترسم أثر الأنوثة في تكوينه وجيلته. إذاً، فقد كان هو نفسه تلك الأليينا، تلك «المرأة» التي كانت تستأثر باهتمامه دون سواها في تلك اللحظة.

كذلك، إن الألحان التي ترد إلى ذهننا بلا سبب ظاهر يكشف التحليل عن تعيُّنها بسلسلة من الأفكار وعن اندراجها هي نفسها في عداد هذه السلسلة التي تستوجب أن نوليها اهتمامنا من دون أن نعرف شيئاً على الإطلاق عن نشاطها. وعندئذ لا يشقّ علينا أن نبين أن الاستحضار اللاإرادي في الظاهر لذلك اللحن يرتبط إما بنصه وألفاظ هذا النص، وإما بأصله. غير أنني لا أشمل بكلامي هذا الموسيقيين الحقيقيين، فأنا لا خبرة لي بهم، ثم إن المضمون الموسيقي للحن يمكن أن يكون لديهم سبباً كافياً لاستحضاره. ومن المؤكد أن حالات الفئة الأولى هي الأكثر تواتراً. وأنا أعرف فتى تسلط عليه لأمد مديد من الزمن، وبكل ما في كلمة تسلط من معنى، اللحن - البديع أصلاً - الذي يؤديه باريس في الحسناء هيلانة^(١٠). ولم يتحرر منه إلا يوم كشف له التحليل عن الصراع الذي تدور

٩ - أليينوس: الأمهق، أي الشديد البياض. والمهق مرض وراثي يتميز بانعدام المادة المؤنثة للجلد ولوبره، فيكونان أبيضين، وتكون العينان حمراوين نظراً إلى بياض الأهداب. «م».

١٠ - الحسناء هيلانة: أوبريت وضع ألحانها جاك أوفنباخ، الألماني المتجنس بالفرنسية، اقتباساً من قصة هيلانة، زوجة مينيلاس، ملك إسبارطة، التي خطفها باريس، ابن ملك طروادة، فكانت حرب طروادة. «م».

رحاه في داخل نفسه بين واحدة تدعى عابدة^(١١) وأخرى تدعى هيلانة.

لئن تكن الخواطر التي تتبادر إلى الذهن بحرية، بلا إكراه ولا مجهود، متعيّنة على هذا النحو، وتنتمي إلى سلسلة محددة، فمن حقنا أن نستنتج أن الخواطر التي ليس لها إلا رابط واحد، هو ذاك الذي يربطها بفكرة أولية، يمكن أن تكون على درجة مماثلة من التعيّن. ويدل التحليل، بالفعل، أن هذه الخواطر، علاوة على ارتباطها كما يتّينا بالفكرة الأولية، منوطة أيضاً بجملة من الأفكار والاهتمامات المشحونة شحناً عالياً بانفعالات، أي بعقد يكون تأثيرها مجهولاً، أي لاشعورياً، لحظة حدوثه.

إن الخواطر العارضة المحكومة بهذا الطراز من التبعية كانت موضوعاً لأبحاث تجريبية زوّدتنا بمعلومات وفيرة ولعبت في تاريخ التحليل النفسي دوراً مرموقاً. فقد بدأت مدرسة فونت بما أسمته تجربة التداعي، وفيها يُطلب إلى الشخص المفحوص أن يردّ بأسرع ما يمكنه باستجابة ما على الكلمة التي تلقى على مسامعه والتي تُسمّى بالكلمة الحافزة. ومن الممكن على هذا الأساس دراسة الفاصل الزمني بين الكلمة الحافزة والاستجابة، وطبيعة الردّ الذي يستجيب به الشخص المفحوص، والأخطاء التي قد تقع عند تكرار التجربة نفسها لاحقاً، إلخ. وقد توصلت مدرسة زوريخ، بإشراف بلولر^(١٢) ويونغ^(١٣)، إلى تفسير الاستجابات المتجمعة أثناء تجربة التداعي، بطلبها إلى الشخص الذي تُجرى عليه التجربة توضيح استجاباته - إن لم تكن على درجة كافية من الوضوح - بتداعيات إضافية. وقد تبيّن عندئذ أن هذه الاستجابات الغريبة، المكتنفة بالإبهام، متعيّنة صارم التعيّن بعقد الشخص المفحوص. وبفضل هذه الملاحظة أقام بلولر ويونغ أول جسر للعبور من علم النفس التجريبي إلى التحليل النفسي.

١١ - معلوم أن عابدة هو أيضاً اسم لأوبرا مشهورة من تلحين فردي. «م».

١٢ - يوجين بلولر: طبيب نفسي سويسري (١٨٥٧ - ١٩٣٩). اشتهر بدراساته عن الخبل المبكر والفصام (السكيزوفرنيا). وهو أول من أدخل هذا المصطلح إلى التحليل النفسي. «م».

١٣ - كارل غوستاف يونغ: طبيب سويسري من المختصين في الأمراض النفسية (١٨٧٥ - ١٩٦١). عمل مع جانيه وبلولر، ثم مع فرويد، ثم قاد واحداً من أهم انشقاقين عرفتهما حركة التحليل النفسي. تخصص في دراسة تظاهرات «اللاشعور الجمعي»، وهو مفهوم اعترض عليه فرويد. «م».

قد تقولون بعد أن سمعتم هذا: «إننا نعترف الآن بأن الخواطر التي تتوارد بحرية إلى الذهن متعيّنة، وليست اعتباطية كما كنا نظنّ. ونعترف أيضاً بتعيّن الخواطر التي تتداعى بالاتصال مع عناصر الحلم. لكن ليس هذا ما يهّمنا. فأنت تزعم أن الخاطر الذي يخطر على الذهن بالاتصال مع كل عنصر من عناصر الحلم يتعيّن بالخلفية النفسية - المجهولة منا - لهذا العنصر. والحال أن هذا بالتحديد ما يبدو لنا أن البرهان لم يقم عليه. ولنفرض أننا نتوقع أن يثبت لاحقاً أن الخاطر الذي يتداعى بالاتصال مع عنصر الحلم متعيّن بإحدى عقد الحالم، فما نفع هذه الملاحظة؟ فبدل أن تعيننا على فهم الحلم، تزوّدنا فقط، شأنها في ذلك شأن تجربة التداعي، ببعض المعلومات عن تلك العقد المزعومة. لكن ما صلة هذه الأخيرة بالأحلام؟».

الحق معكم، لكن إن فاتكم شيء فهو على وجه التحديد السبب الذي منعني من اتخاذ تجربة التداعي نقطة انطلاق لمبحثنا هذا. فنحن الذين نختار في هذه التجربة عسفاً واعتباطاً أحد العوامل المعيّنة للاستجابة: الكلمة التي تقوم مقام التنبيه. وعلى هذا تكون الاستجابة أشبه بحلقة وسيطة بين الكلمة الحافظة وبين العقد التي توقظها هذه الكلمة لدى الشخص الذي تُجرى عليه التجربة. أما في الحلم فتستبدل الكلمة الحافظة بشيء يأتي من معين الحياة النفسية للحالم، من مصدر يجهله، وقد يكون هذا «الشيء» نفسه من «نتاج» عقدة من العقد. وعليه، ليس من الشطط أن نفترض أن الخواطر العارضة الجديدة والمرتبطة بعناصر الحلم لا تعين بأي عقدة أخرى غير عقدة هذا العنصر، ويمكن بالتالي أن تعيننا على اكتشاف هذه العقدة.

اسمحوا لي أن أوضح لكم من خلال مثال آخر أن الأمور تحدث فعلاً كما نتكهن في الحالة التي نحن بصددّها. فنسيان أسماء الأعلام هو بالفعل مثال ممتاز لما يحدث في تحليل الحلم؛ سوى أنه يكون في حالة النسيان مقتصر على شخص واحد، بينما يكون في تأويل الحلم موزّعاً بين شخصين اثنين. فحين أنسى اسماً من أسماء الأعلام نسياناً مؤقتاً، يظل يداخني اليقين بأنني أعرف هذا الاسم، على حين لا يسعنا الوصول إلى هذا اليقين بالنسبة إلى الحالم إلا بوسيلة غير

مباشرة تقدمها لنا تجربة برنهايم. غير أن الاسم المنسي، والمعروف رغم نسيانه، ممتنع عليّ. ومهما أبذل من جهود لاستحضاره، فلن تعتم التجربة أن تدلني على لاجدوى هذه الجهود. على أنه يسعني أن أستحضر في كل مرة، عوضاً عن الاسم المنسي، اسماً أو جملة من الأسماء البديلة. ومتى وثب أحد هذه الأسماء البديلة إلى خاطري عفواً، أصبح التشابه بين وضعي وبين الوضع الذي يقوم عند تحليل الحلم جلياً بيّناً. وما عنصر الحلم هو الآخر بشيء أصيل: إنما يأتي فقط ليحل محلّ ذلك الشيء الذي لا أعرفه والذي يفترض بتحليل الحلم أن يكشفه لي. والفارق الوحيد الذي يقوم بين الوضعين يتمثل في أنني حين أنسى اسماً أعترف للحال وبلا تردد بأن الاسم الذي حضرني ما هو إلا اسم بديل، على حين أننا لا نظفر بهذا اليقين فيما يتصل بعنصر الحلم إلا غبّ أبحاث شاقة طويلة. والحال أنه تتوفر لنا، حتى في حالات نسيان الأسماء، وسيلة للاهتمام إلى الاسم الحقيقي، المنسي والغارق في اللاشعور. فحين نركّز انتباهنا كله على الأسماء البديلة، وندع لها أن تستدعي خواطر أخرى، نتوصل دوماً، بعد لفّ ودوران قد يطول أو يقصر، إلى الاسم المنسي؛ وبذلك يتحقق لنا أن الأسماء البديلة التي انبثقت في ذهننا عفواً، ومثلها الأسماء التي استحضرتها، ترتبط جميعها ارتباطاً وثيقاً بالاسم المنسي وتعيّن به.

هاكم عني كل حال تحليلاً من هذا القبيل: وجدت نفسي ذات مرة وقد أنسيت اسم ذلك البلد الصغير الواقع على ساحل الريفير^(١٤) والذي أشهر مدنه مونتي كارلو. الأمر مزعج، لكن ليس باليد من حيلة. ورحت أستعرض كل ما أعرفه عن هذا البلد، وذهب فكري إلى الأمير ألبيرو، من آل ماتينيون - غريمالدي^(١٥)، وإلى زيجاته، وشغفه بتجواب أعماق البحار، وأشياء أخرى كثيرة تتصل بذلك البلد، لكن بلا جدوى. وعلى هذا فقد أوقفت مسعاي، وتركت

١٤ - الريفير: الاسم الذي يطلق على الساحل المتوسطي الممتد بين فرنسا وإيطاليا. «م»

١٥ - غريمالدي: أسرة جنوية عريقة كانت تضع يدها على موناكو حتى عام ١٧٧٣، وهو العام الذي تصاهرت فيه مع أسرة غويون - ماتينيون الفرنسية، فبات أمراء موناكو من أحفاد ماتينيون - غريمالدي.



للأسماء البديلة أن تتوارد إلى ذهني عوضاً عن الاسم المنسي. وتوالت هذه الأسماء بسرعة: موتني كارلو أولاً، ثم بيمونتي^(١٦) وألبانيا ومونتيديو^(١٧) وكوليكو^(١٨). وفي السلسلة الأخيرة كان اسم ألبانيا أول ما استرعى انتباهي، لكن سرعان ما حلّ محله اسم مونتينغرو، لما بين الأبيض والأسود من تباين^(١٩). وعندئذ فطنت إلى أن أربعة من الأسماء البديلة تشترك في مقطع واحد هو «مون»، فاهتديت للحال إلى الكلمة المنسية وهتفت: موناكو! وهكذا كانت الأسماء البديلة مشتقة فعلاً من الاسم المنسي؛ فالأربعة الأولى منها اشتملت على مقطعه الأول، والاسم الأخير^(٢٠) منها مثل تسلسل مقاطعه ومقطعه الأخير كاملاً. وقد استطعت في الوقت نفسه أن أكتشف السبب الذي جعلني أنسى مؤقتاً اسم موناكو: فاسم ميونيخ، وهو المقابل الألماني لموناكو، هو الذي مارس على ذاكرتي تأثيره الكابح.

إن المثال الذي سقته بديع بلا ريب، ولكنه مفرط البساطة. فنحن نضطرّ في حالات أخرى، كيما نوضح وجه الشبه مع ما يجري عند تأويل الأحلام، إلى أن نجتمع ونحشد حول الأسماء البديلة الأولى سلسلة أطول من أسماء أخرى. وقد قمت بتجارب من هذا القبيل. فقد دعاني ذات مرة شخص أجنبي إلى أن أحتسي وإياه نبيذاً إيطالياً له في نفسه ذكرى طيبة. فلما دخلنا المقهى عجز عن تذكر اسم النبيذ الذي أراد أن يقدمه لي. وبعد أن سرد طائفة من الأسماء البديلة عوضاً عن الاسم المنسي، خيّل إليّ أنه في مقدوري أن أستنتج أن النسيان حدث تحت تأثير كَفِّ ناجم عن الارتباط بذكرى امرأة تدعى هديج. وأطلعت رفيقي على اكتشافي، فإذا به لا يجزم لي بأنه شرب هذا النبيذ لأول مرة مع امرأة تدعى

١٦ - بيمونتي: منطقة إيطالية تقع عند سفوح جبال الألب. «م».

١٧ - مونتيديو: عاصمة الأوروغواي. «م».

١٨ - كوليكو: قرية اصطيفائية إيطالية تقع على ضفاف بحيرة كومو. «م».

١٩ - اسم ألبانيا مشتق في الأصل من اللاتينية Albus، أي أبيض (البلاد البيضاء)، كما أن مونتينغرو تعني بالترجمة الجبل الأسود. «م».

٢٠ - أي كوليكو. «م».



هـديج فحسب، بل يفلح أيضاً، بفضل هذا الاكتشاف، في الاهتداء إلى الاسم الحقيقي للنبذ المذكور. لقد كان الرجل يوم تقابلنا متزوجاً، وسعيداً في زواجه، والحال أن علاقته بهديج ترجع إلى عهد سابق لا يطيب له أن يتذكره.

إن ما هو ممكن في حال نسيان اسم من الأسماء لا بدّ أن يكون ممكناً أيضاً عندما نسعى إلى تأويل حلم من الأحلام: والمطلوب تحديداً أن نتمكن من إمارة اللثام عن العناصر المستترة والمجهولة، بواسطة التدايعات المرتبطة بالبديل الذي نتخذه في هذه الحال منطلقاً لنا. وقياساً على المثال الذي يمدّنا به نسيان الأسماء، يتوجّب علينا أن نعترف بأن التدايعات المرتبطة بعنصر من عناصر الحلم تتعيّن بهذا العنصر كما بركيزته اللاشعورية. فإن صحَّ افتراضنا هذا، كان فيه لتقنيتنا بعض التبرير.

المحاضرة السابعة

مضمون الحلم الظاهر وأفكاره الكامنة

سيداتي وسادتي، رأيتُ أن دراستنا الهفوات لم تذهب هباءً. فبفضل الجهود التي بذلناها في هذه الدراسة، توصلنا، على أساس الفروض التي تعرفون، إلى نتيجتين: تصور لعنصر الحلم وتقنية لتأويل الحلم. ففيما يتصل بعنصر الحلم بتنا نعلم أنه غير أصيل، وأنه لا يعدو أن يكون بديلاً لشيء يجهله الحالم، مثلما نجهل مقاصد هفواتنا؛ بديلاً لشيء للحالم به معرفة، ولكنها معرفة ممتعة عليه. ونأمل أن نقدر أن نسحب هذا التصور على الحلم في جملة، أي بوصفه مجموعة من العناصر. وتقوم خطتنا على أن نطلق الحرية للتداعي، ونستولد تشكيلات بديلة أخرى عن هذه العناصر تكون وسيلتنا إلى التخمين بما هو خفي.

أقترح عليكم الآن إجراء تعديل في مصطلحاتنا، يوفر لحركتنا هامشاً أكبر من الحرية. فبدلاً من أن نقول: خفي، ممتنع، بالغ الخصوصية^(١)، سنقول من الآن فصاعداً: ممتنع على شعور الحالم أو لاشعوري. وكما في حالة نسيان كلمة من الكلمات أو حالة القصد المتعدي الذي يتسبب في حدوث الهفوة، فإن اللاشعور الذي نتحدث عنه هنا لا شعور مؤقت فحسب. وعلى هذا، إننا سنصف عناصر الحلم والتمثيلات البديلة التي تتأتى عن التداعي بأنها شعورية، بالتعارض مع ذلك اللاشعور المؤقت. وهذه الاصطلاحات لا تنطوي بعد على أي بناء نظري. وعلى هذا، إن استعمال كلمة اللاشعور، على سبيل الوصف المطابق والسهل الفهم، لا غبار عليه.

١ - يبدو أن هناك خطأ مطبعياً في الأصل الألماني إذ جاء النعت الأخير بصيغة النفي: غير بالغ الخصوصية بدلاً من بالغ الخصوصية. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

لو سحبتنا رؤيتنا هذه للعنصر المنفرد على مجمل الحلم، لوجدنا أن الحلم في جملته يؤلف بديلاً محزّفاً لحدث لاشعوري، وأن مهمة تأويل الحلم هي اكتشاف هذا اللاشعور. وتترتب على هذه الملاحظة للحال ثلاثة مبادئ يتعيّن علينا أن نتقيّد بها في عملنا التأويلي:

١ - إن معرفة ما يعنيه حلم بعينه في ظاهره أمر لا يثير اهتمامنا البتة. فسواء أكان مفهومه أم لا معقولاً، واضحاً أم مشوشاً، فذلك لا يهّمنا بكثير أو قليل، على اعتبار أنه لا يمثّل بصورة من الصور اللاشعور الذي نجد في أثره (سنرى لاحقاً أن هذه القاعدة غير مطلقة).

٢ - ينبغي أن يقتصر عملنا على إيقاظ تمثلات بديلة بصدد كل عنصر، من غير أن نمحصها، ومن غير أن نسعى إلى معرفة ما إذا كانت تنطوي على شيء ما مطابق، ومن غير أن نشغل أنفسنا بمعرفة هل تبعدنا هذه التمثلات البديلة، وإلى أي حدّ، عن عنصر الحلم.

٣ - يجب أن ننتظر إلى أن يزيع اللاشعور المستتر، المبحوث عنه، القناع عن نفسه من تلقاء نفسه، كما حدث في حالة كلمة مونكو في التجربة التي تقدم بيانها.

إننا ندرك الآن أنه ليس لنا أن نأبه لمعرفة مدى الدقة والأمانة، أكبراً كان أم صغيراً، في تذكر الحالم لحلمه. فالحلم الذي يتذكره حاله لا يطابق ما نبحث عنه حصراً، ولا يؤلف سوى بديل محزّف عنه، وهذا البديل هو الذي سيتيح لنا، بالاعتماد على تشكيلات بديلة أخرى نطلق لها حرية التداعي، أن نقترّب من ماهية الحلم، وأن نجعل اللاشعوري شعورياً. فإن ثبت أن ذاكرتنا حادت عن سبيل الأمانة والدقة، فهذا معناه أنها أخضعت هذا البديل لتحريف جديد قد لا يكون له أصلاً من تعليل.

إن عملنا التأويلي يمكن أن يطال أحلامنا وأحلام غيرنا من الناس على حدّ سواء. بل إن أحلامنا أغنى لنا بالقائدة، لأن عملية التأويل هنا تبدو أوضح بياناً وأكثر إقناعاً. غير أننا ما إن نشرع بهذا العمل حتى نلاحظ أنه يرتطم بعقبات. صحيح أن ثمة خواطر تتوارد إلى ذهننا، لكننا لا ندعها تفرض علينا نفسها

جميعاً. فنحن نجري عليها تدقيقاً ونحلاً. نقول بصدد خاطر منها مثلاً: كلا، إنه لا يتفق مع حلمي، لا يناسبه. كما قد نقول بصدد خاطر غيره: إنه لامعقول. ونقول بصدد ثالث: إنه ثانوي. ويسير علينا أن نلاحظ أن هذه الاعتراضات تخنق الخواطر العارضة وتنحّيها حتى قبل أن يتاح لها الوقت لتتضح وتبين. وعلى هذا، إننا نتشبت تشبثاً شديداً، من جهة أولى، بالفكرة الأولية، بعنصر الحلم، ونشوّش من جهة ثانية نتيجة التداعي بانحيازنا في الاختيار والانتقاء. فإن لم نتولّ نحن تأويل حلمنا، بل تركنا لغيرنا أن يؤوّل، تدخّل دافع جديد ييسّر ركوب مركب هذا الاختيار غير المشروع. إذ قد نقول بيننا وبين أنفسنا أحياناً: كلا، هذه فكرة كريهة أكثر مما ينبغي، فلا أريد ولا أستطيع مكاشفته بها.

من الواضح أن هذه الاعتراضات خطيرة على نجاح عملنا التأويلي. لذا علينا أن نتوقى منها: فإن كنا نجري التأويل على أحلامنا الخاصة، فبوسعنا أن نتدارك شرّها بأن نعزم عزماً أكيداً على عدم الانسياق وراءها؛ وإن كنا نؤوّل حلم شخص آخر، فرضنا عليه قاعدة لا يجوز له أن يحيد عنها، وهي ألا يمسك عن تبليغنا أي خاطر من الخواطر، حتى ولو تراءى له أن هذا الخاطر أو ذاك غفل من الأهمية أو من المعنى، أو لا صلة له بالحلم، أو مما تكره النفس مكاشفة الآخرين به. والمفروض بالشخص الذي نبغي تأويل حلمه أن يعد ويتعهد بالامتنال لهذه القاعدة، لكن ليس لنا أن نغضب ونضيق ذرعاً إن رأيناه يعجز عن الوفاء بوعده هذا. وقد يحسب بعضكم أن مردّ هذا العجز إلى أننا لم نتمكن من إقناع الشخص المعني، بالرغم من كل توكيداتنا الجازمة له، بمشروعية التداعي الحر، وقد يترأى لكم أنه أجدر بنا أن نقنع بادئ ذي بدء الشخص المعني نظرياً بأن نحمله على مطالعة مؤلفات أو الاستماع إلى محاضرات من شأنها أن تجعل منه نصيراً لمذاهبنا بصدد التداعي الحر. والحق أننا لو فعلنا ذلك نكون من المخطئين؛ وحتى نتحاشى مثل هذا الخطأ، ما علينا إلا أن نأخذ في اعتبارنا أننا لسنا نحن أنفسنا بمنجاة، بالرغم من وثوقنا بما نذهب إليه، من أن نقابل بعض الخواطر باعتراضات نقدية تنجس في أذهاننا رغماً عنا، ولا نتمكن من تنحيتها إلا بعد فوات الأوان.

والحق أنه بدلاً من أن نضيق ذرعاً بعصيان الحالم، نستطيع أن نستغل هذه

الظاهرة نفسها نستخلص منها معلومات جديدة، لا يزيدها بعدها عما نتوقع إلا أهمية. فمفهوم أن العمل التأويلي يتم رغم ما يعترضه من مقاومة تجد تعبيرها في الاعتراضات النقدية التي نتكلم عنها. وهذه المقاومة مستقلة عن الاقتناع النظري للحالم. بل إننا قد نعرف منها ما هو أهم. فمن الملاحظ أن هذه الاعتراضات النقدية ليست على الدوام مبررة. بل على العكس: فالخاطر التي قد يريد الحالم أن يقمعها بهذه الصورة تتكشف على الدوام وبلا استثناء عن أنها هي أهم الخاطر وأبلغها دلالة من منظور الكشف على اللاشعور. فاعتراض من هذا القبيل إنما يتم عن أهمية الخاطر المعترض عليه.

إن هذه المقاومة شيء جديد، ظاهرة اكتشفناها بفضل فرضياتنا، لكنها لم تكن متضمنة على الإطلاق في هذه الفرضيات. هذا العامل الجديد يدخل على حساباتنا مفاجأة لا سبيل إلى وصفها بأنها سارة. فها نحننا نشبه من الآن بأنه ليس من شأنه أن يسهل عملنا ويسره. بل لعله قمين بأن يشل كل جهودنا الرامية إلى حل مشكلة الحلم. والعجيب أن نتصدى لدراسة مشكلة ضئيلة الأهمية كالحلم، فإذا بنا نرتطم بصعوبات تقنية كبرى! لكن من يدري، فاعل هذه الصعوبات من شأنها أن تحفزنا على العمل وأن تظهر لنا أن هذا العمل يستأهل ما يستأديه منا من جهود. ونحن نرتطم بصعوبات أيضاً عندما نريد أن نفد من البديل الذي يتظاهر به عنصر الحلم إلى ركيزته اللاشعورية الخبيثة. لذا يحق لنا أن نفترض أن ثمة شيئاً هاماً يختبئ وراء البديل، وإلا فما جدوى هذه الصعوبات التي لا دور لها غير أن تسهم في إبقاء الشيء الخبيث في مخبئه؟ فحين يأبى الطفل أن يفتح قبضة يده ليظهر ما يخبئه فيها، فمعنى ذلك أنه يخفي فيها شيئاً لا يُفترض فيه أن يخفيه.

ونحن، إذ ندخل على مبحثنا تصوراً دينامياً عن وجود مقاومة، يجدر بنا أن ننبه إلى أن هذا العامل متغير كميّاً. فقد تكون المقاومة كبيرة أو قليلة، وعلينا أن نوطن النفس على أن اختلافات من هذا القبيل لا بد أن تواجهنا في أثناء عملنا. ولعلنا نستطيع أن نربط بهذه الواقعة تجربة أخرى تعرض لنا أيضاً في مجرى عملنا لتأويل الأحلام. ففي أحوال معينة قد يكفي خاطر واحد أو عدد قليل جداً من

الخواطر ليقودنا من عنصر الحلم إلى ركيزته اللاشعورية، بينما نحتاج في أحوال أخرى، كيما نصل إلى هذه النتيجة، إلى أن نعقد سلاسل طويلة من التدايعات ونغلب على العديد من الاعتراضات النقدية. ولعلنا سنقول بيننا وبين أنفسنا، وعن صواب وحق في أرجح الظن، إن مردّ هذه الاختلافات إلى تباين شدة المقاومة. فحين تكون المقاومة طفيفة، تكون طفيفة أيضاً المسافة التي تفصل البديل عن الركيزة اللاشعورية؛ وبالمقابل، تقترن المقاومة الشديدة بتحريفات بالغة في اللاشعور، وهذا من شأنه لا محالة أن يياعد الشقة الفاصلة بين البديل وبين ركيزته اللاشعورية.

ربما أن الأوان لنختبر تقنيتنا بتطبيقها على حلم ما، لنرى أيتحقق ما نرتقبه منها. أجل، ولكن أي حلم نختار لهذا الغرض؟ ليس لكم أن تصدقوا كم يشقّ هذا الاختيار عليّ، ثم إنه لا يزال يتعذر عليّ أن أوضح لكم أين تكمن هذه المشقة. ولا بدّ أن هناك أحلاماً لم يطرأ عليها، في جملتها، تحريف كبير، وقد ترون أن من الخير أن نبدأ بها. لكن أي الأحلام أقلّها تحريفاً؟ أهـي الأحلام المنطقية، غير الملتبسة، التي سقت لكم منها مثالين؟ لا تذهبوا مثل هذا المذهب. فالتحليل يدلّ على أن هذه الأحلام أصابها تحريف كبير إلى حدّ خارق للمألوف. غير أنني لو ضربت صفحاً عن كل شرط خاص واخترت أول حلم يخطر ببالـي، لخاب على الأرجح ظنكم. فقد يتعيّن علينا أن نلاحظ أو أن نسجل، بصدد كل عنصر من عناصر الحلم، قدراً من الخواطر والأفكار ضخماً إلى حدّ يتوسع معه عملنا توسعاً لا يمكن حصره. ولو سجّلنا الحلم كتابة وسجّلنا معه كل الخواطر والأفكار التي قد تتوارد إلى ذهننا بصدده، فلربما تجاوز حجم هذه الأخيرة حجم نصّ الحلم بأضعاف مضاعفة. إذاً من الأنسب أن نختار لغرض التحليل أحلاماً مقتضبة، يستطيع كل واحد منها أن يزودنا على الأقل ببعض المعلومات أو أن يؤيّد فرضاً بعينه. وهذا ما سنعقد العزم على فعله، إلا إذا هدّتنا التجربة إلى السبيل الذي يمكن أن يقودنا إلى أحلام لم يطرأ عليها تحريف كبير.

ثمة وسيلة أخرى متاحة لنا وقمينة بتسهيل عملنا. فبدلاً من أن نتطلع إلى

تأويل أحلام بكاملها، سنكتفي بالنظر في عناصر منعزلة منها لنرى، من خلال طائفة من الأمثلة المختارة على هذا الأساس، كيف يمكن تفسيرها بتطبيق تقنيتنا عليها.

أ - روت سيدة أنها كثيراً ما كانت تحلم وهي طفلة بأن الله تعالى يضع على رأسه طاقيّة مدبّية من الورق. كيف السبيل إلى فهم هذا الحلم بدون معونة حاملته؟ أليس يبدو سخيفاً كل السخف؟ لكن هذا السخف لا يلبث أن يتلاشى عندما نسمع السيدة تروي لنا أنها حين كانت طفلة كان أهلها كثيراً ما يلبسونها طاقيّة من ذلك النوع لأنها اعتادت، إذا ما جلست إلى المائدة، أن تلقي بنظرات خاطفة إلى صحون إخوتها وأخواتها لتطمئن إلى أنهم ما أصابوا من الطعام حصة أكبر من تلك التي أصابتها. وعلى هذا، فقد كان الغرض من الطاقيّة أن تقوم لعينها مقام الكمامة. وهذه معلومة تاريخية صرف، وتمّ الحصول عليها منها بلا أي مشقة. وقد أمكن تأويل هذا العنصر، وبالتالي الحلم بأسره، بلا عناء، بفضل اكتشاف جديد توصلت إليه الحالمة: «بما أنني كنت سمعت أن الله تعالى عليم بكل شيء وبصير بكل شيء، فحلّمني لا يمكن أن يعني إلا شيئاً واحداً، وهو أنني أعلم كل شيء وأرى كل شيء، مثله تعالى، حتى وإن حاولوا منعي من ذلك». غير أن هذا المثال ربما كان أبسط مما ينبغي.

ب - حلمت مريضة متشككة حلماً أطول قليلاً، رأت فيه بعض الناس يحدّثونها عن كتابي عن النكتة^(٢) ويكيلون له الثناء الكبير ثم ورد ذكر «قناة»، وربما كتاب آخر ذكرت فيه كلمة قناة، أو شيء آخر متصل بقناة ما... إنها لا تدري.. فالأمر في منتهى الغموض.

قد تميلون إلى الاعتقاد بأن عنصر «القناة» عصيّ على كل تأويل ما دام على هذه الدرجة من اللاتعّين. ومن المحقق أن التأويل يصطدم بعقبات، لكن هذه العقبات غير متأتية من قلة وضوح العنصر، بل على العكس: فقلة وضوح العنصر وصعوبة تأويله تبعان كِلتاها من علة واحدة. ولم يتوارد أي خاطر إلى

٢ - يقصد النكتة وصلاتها باللاشعور الذي أصدره سنة ١٩٥٥. (م).

ذهن صاحبة الحلم بصدد القناة؛ أما فيما يتعلق بي أنا فقد عجزتُ بطبيعة الحال عن إبداء أي رأي بصدددها. وبعيد ذلك، وبالتحديد في الغداة، خطر لها خاطر ربما تكون له صلة بهذا العنصر من حلمها، ويتلخص بنكته رويت لها. فقد كان كاتب معروف^(٣) يتجاذب أطراف الحديث مع رجل إنكليزي على ظهر مركب يبحر بين دوفر وكاليه، وفي أثناء الحديث استشهد الإنكليزي بهذه القولة: «ليس بين الرائع والسخيف إلا خطوة واحدة»، فأجابه الكاتب «أجل، خطوة كاليه»^(٤)، قاصداً بذلك أن فرنسا هي الرائعة في رأيه، وإنكلترا هي السخيفة. لكن «خطوة كاليه» هي في حقيقتها قناة، قناة المانش. ستسألونني إن كنت أرى من صلة بين ذلك الخاطر وبين الحلم. بلى، بكل تأكيد. فالخاطر المشار إليه قدّم لنا فعلاً مفتاح ذلك العنصر الممغز من عناصر الحلم. أما إذا ماريتم في أن تكون هذه النكته سابقة في الوجود على الحلم وفي أن تكون قد قامت لعنصر «القناة» مقام الركيزة اللاشعورية، فهل لكم أن تصوروا أنها لُفّقت بعد الحلم وأختلقت عن قصد؟ إن ذلك الخاطر يشهد على ما لدى السيدة من ريبية تستر وراء اندهاش لاإرادي، ومن هنا كانت المقاومة التي تفسر في آن واحد بطء توارد الخاطر والطابع المبهم لعنصر الحلم المناظر له. لاحظوا هنا العلاقات بين عنصر الحلم وبين ركيزته اللاشعورية: فلكنّ هذا العنصر كسرة صغيرة من هذه الركيزة أو إشارة إليها. وعنصر الحلم هذا لم يغدّ عصياً على الفهم إلا لما انفصل عن الركيزة اللاشعورية.

ج - حلم مريض بحلم على قدر من الطول، رأى فيه عدة أفراد من أسرته جالسين إلى مائدة ذات شكل خاص، إلخ. وقد قال بصدد هذه المائدة إنه كان قد رأى قطعة أثاث تشبهها لدى زيارته أسرة معينة. ثم توالى خواطره: فالعلاقات بين الأب والابن في هذه الأسرة لم تكن موصولة الودة، ثم أضاف

٣ - هو المؤرخ الفرنسي المشهور جول ميشليه (١٧٨٨ - ١٨٧٤). «م».

٤ - بافرنسية في النص. والقولة التي على مدارها النكته تُنسب إلى نابوليون بوناپرت. وكاليه بلدة فرنسية وميناء يقع على بحر المانش، ويمتد أمامه مضيق يعرف باسم «خطوة كاليه، أو «با دي كاليه Pas de Calais» ويصل بين فرنسا وإنكلترا، وتحديدًا بين بلدي كاليه ودوفر بعرض ٣١ كم وطول ١٨٥ كم. «م».

للحال قوله إن بينه وبين أبيه صلات ماثلة. وهكذا استعيد مشهد المائدة في الحلم للتنويه بذلك التوازي.

لقد كان صاحب هذا الحلم مطلعاً منذ زمن بعيد على مقتضيات تأويل الحلم. وأي شخص آخر محله كان سيستغرب أن نجعل مثل هذا التفصيل التافه الشأن - شكل المائدة - موضوعاً لتحرٍ وتقصٍ. وبالفعل، لا ينطوي الحلم في نظرنا على أي شيء عارض لا يؤبه له، بل من توضيح أشباه هذه التفاصيل التافهة الشأن والتي ليس وراءها من حافز سافر نتوقع أن تأتينا المعلومات التي ننشدها. ولعل ما يدهشكم في إخراج ذلك الحلم بعداً هو أن يكون قد اختار المائدة ليعبر عن فكرة أن الأمور تجري عندنا مجراها في تلك الأسرة. لكن تفسير ذلك سهل متى ما عرفتم أن الأسرة المشار إليها تكنى باسم تشلر Tischler^(٥). فحين أجلس الحالم أفراد أسرته إلى تلك المائدة، تصرف كما لو أنهم هم أيضاً يُكنون باسم تشلر. وبالمناسبة، ألقت انتباهكم إلى أننا قد نضطر أحياناً إلى إفشاء الأسرار عندما نطلعكم على تأويل بعض الأحلام: وهذه واحدة من الصعوبات التي يصطدم بها، كما أسلفت القول، اختيار الأمثلة. ولقد كان سهلاً عليّ أن أسوق لكم بدل هذا المثال مثلاً آخر، لكن من المرجح أنني ما كنت لأتجاسى إفشاء ما أفشيته من سرّ بصدد هذا الحلم إلا لقاء إفشاء سرّ آخر بصدد حلم آخر.

هنا يبدو لي الظرف مؤاتياً لإدخال مصطلحين كنا نستطيع، لو شئنا، أن نستخدمهما من قبل. فنسطلق اسم **المضمون الظاهر للحلم** على ما يرويه لنا الحالم، واسم **أفكار الحلم الكامنة** على الخبيء المستتر الذي نبغي كشف الحجب عنه عن طريق تحليل الخواطر التي تتوارد إلى ذهنه بصدد حلمه. فلنفحص إذاً العلاقات، كما تبدو في الأمثلة السابقة، بين المضمون الظاهر والأفكار الكامنة للحلم. والحال أن هذه العلاقات قد تكون أصلاً على درجة كبيرة من التنوع. ففي المثالين أ و ب يؤلف العنصر الظاهر جزءاً، وإن طفيفاً، من الأفكار الكامنة. فقد دلف جزء من المنظومة النفسية الكبيرة المتكونة من أفكار الحلم اللاشعورية

٥ - Tisch بالألمانية تعني مائدة. (١٢٢)

إلى الحلم الظاهر، إما بصفته كسرة منها، وإما بصفته، في حالات أخرى، كناية أو تعبيراً رمزياً أو اختزالاً تلغرافياً. ومهمة العمل التأويلي أن يكمل هذه الكسرة أو أن يستجلي تلك الكناية، على نحو ما وُفقنا إلى ذلك أتم التوفيق في الحالة ب. إذاً، فمن أشكال تحريف الأحلام الاستعاضة عن الشيء بجزئه أو بكنايته. أما المثال ج فينطوي، فضلاً عن ذلك، على خاصية أخرى، قد تبرز للعيان بمزيد من الجلاء والنقاء في الأمثلة التالية:

د - رأى الحالم أنه يسحب من خلف السرير سيدة (سيدة بعينها يعرفها). فإذا بأول خاطر يعرض له يكشف له عن معنى هذا العنصر من حلمه: فهو يعزّ هذه ويخصّصها بإشارته^(٦).

هـ - رأى آخر في منامه أخاه حبيباً في خزانة مال. وقد استبدل في أول خاطر عرض له كلمة خزانة مال بكلمة خزانة ثياب. وفي الخاطر الثاني انجلى تأويل الحلم: فأخوه يضيق على نفسه ويضغط نفقاته^(٧).

و - رأى الحالم أنه يتسلق جبلاً تستجلي العين ما حواليه من منبسط فسيح أخاذ. هذا تفصيل طبيعي للغاية ولا يحتاج، على ما هو ظاهر، إلى أي تأويل. كما يبدو وكأن كل المطلوب أن نعرف ما الذكري التي يرتبط بها هذا الحلم وما السبب الذي أدى إلى استحضارها. ألا كم نخطئ! فهذا الحلم بحاجة إلى تأويل، شأنه في ذلك شأن أي حلم آخر مشوّش وملتبس. فليس تسلق الجبال هو ما ورد إلى ذهن صاحب الحلم، بل ذهب به الفكر فقط إلى صديق من أصدقائه، يصدر «مجلة» متخصصة في العلاقات مع أنأى أقطار المعمورة. وعليه، إن فكرة الحلم الكامنة تتمثل في هذه الحالة في تقمص الحالم شخصية «من يستجلي ما حواليه»^(٨).

٦ - بين كلمتي سحب وآثر بالألمانية جناس ناقص. «م».

٧ - بين خزانة وخزانة جناس بالألمانية كما بالعربية، وبينهما وبين ضيق على نفسه وضغط نفقاته ضرب من الجناس أيضاً بالألمانية. «م».

٨ - العلاقة هنا أيضاً علاقة جناس لفظي في الألمانية كما بالعربية بين مجلة Rundschau وبين استجلي Rundchauer. «م».

هنا نلقي طرازاً جديداً من العلاقات بين عنصر الحلم الظاهر وعنصره الكامن. فالعنصر الأول ليس تحريفاً للثاني بقدر ما هو تمثيل مشحّن له، أي تشخيص بصور تشكيلية وعينية انطلاقاً من المنطوق اللفظي. والحق أن الأمر في هذه الحالة أيضاً ضرب من التحريف، لأننا حين ننطق بكلمة ما نكون قد نسينا منذ زمن بعيد ذكرى الصورة العينية التي نشأت منها اللفظة أصلاً، فلا نعود نعرفها حين تحل محلها هذه الصورة من جديد. ولو أخذتم بعين الاعتبار أن الحلم الظاهر يتألف في المقام الأول من صور بصرية، وفيما ندر من أفكار وألفاظ، لأدر كنتم مدى الأهمية التي ينبغي أن نخصّ بها هذا الطراز من العلاقات من وجهة نظر تأويل الحلم. ولرأيتم أيضاً أنه متاح لنا بذلك إمكانية خلق صور بديلة عن طائفة بكاملها من الأفكار المجردة في الحلم الظاهر، وهذا من دون أن تتناقض هذه الصور البتة مع نية الإخفاء. تلكم هي التقنية المعتمدة في «حزورة الصور»^٩. لكن ما مصدر ذلك المظهر التنكيّتي الذي يتلبسه هذا النمط من التمثيلات؟ هذه مسألة أخرى ليس الآن مجال بحثها.

وسأضرب صفحاً عن طراز رابع من العلاقات بين العنصر الكامن والعنصر الظاهر. وسأعود لأحدثكم عنه حين ينكشف من تلقاء نفسه في تقنيّتنا التأويلية. وبديهي أن تعدادنا، بسبب هذا الإغفال، لن يكون كاملاً، غير أنه يكفيننا، بما هو كذلك، حاجتنا.

ألديكم الشجاعة الآن للتنطع لتأويل حلم بكامله؟ لنجرب ذلك لنرى إن كنا قد استعدنا استعداداً كافياً لهذه المهمة. وغني عن القول أن الحلم الذي سأختاره ستكون له، بكل البروز الممكن، جميع خصائص الأحلام، من دون أن يكون من أكثر هذه الأحلام غموضاً واستغلاًفاً.

حلمت سيدة شابة أيضاً، متزوجة منذ عدة سنوات، بالحلم التالي: ألفت نفسها مع زوجها في المسرح، وكان عدد من المقاعد الأمامية خالياً خلواً تاماً. وروى لها زوجها أن إلزال.. وخطيبها كانا يريدان الحضور إلى المسرح

٩ - حزورة الصور: ضرب من لعبة شائعة في بعض بلدان أوروبا، وقوامها حزر بعض الكلمات أو الجمل من خلال رسوم يرمز الواحد منها إلى مقطع من كلمة. «م».



أيضاً، لكنهما لم يجدا إلا مقاعد غير مناسبة (ثلاثة مقاعد بفلوران^(١٠)) واحد و ٥٠ كروزيراً، فما أمكنهما أن يقبلا بها. وكان رأياهما أنهما لم يخسرا من جراء ذلك شيئاً ذا بال.

إن أول ما كاشفتنا به الحاملة بصدد حلمها يدل على أن ذريعة هذا الحلم تكمن سلفاً في مضمونه الظاهر. فقد كان زوجها أنبأها بالفعل أن أليزا ل..، وهي صديقة لها في مثل عمرها، قد خطبت. إذاً فقد جاء الحلم استجابة لهذا النبأ. ونحن نعرف من قبل أنه من السهل في الكثير من الأحوال العثور على ذريعة الحلم في أحداث النهار السابق، وأن الحالمين يشيرون بغير ما عناء إلى هذه الصلة. وقد زدتنا صاحبة الحلم بمعلومات مماثلة بالنسبة إلى عناصر أخرى من حلمها الظاهر. فمن أين جاء التفصيل المتعلق بخلو مقاعد الشطر الأمامي من الصالة من النظارة؟ إن هذا التفصيل لهو بدوره إلماع إلى حدث فعلي حدث في الأسبوع السابق. فقد كانت نوت حضور أحد العروض المسرحية، وابتاعت التذاكر مقدماً، واضطرت مقابل ذلك أن تدفع للحجز. ولما وصلت مع زوجها إلى المسرح، أدركت أنها أخطأت بتعجلها، لأن شطراً من المقاعد الأمامية كان خالياً خلواً شبه تام. إذاً ما كانت لتخسر شيئاً لو ابتاعت التذاكر يوم العرض بالذات. ثم إن زوجها لم يمسك عن السخرية منها على تعجلها هذا. - ومن أين يأتي التفصيل المتعلق بمبلغ الفلوران الواحد والخمسين كروزيراً؟ إنه يرجع في أصله إلى جملة من ملابس مغايرة، لا صلة لها بالسابقة، وإن كانت تتصل هي الأخرى بنبأ سمعت به في النهار السابق للحلم. فقد تلقت أخت زوجها من زوجها هدية بمبلغ ١٥٠ فلوراناً، فما كان منها (ما أعياها!) إلا أن أسرع إلى الجواهري لتقايض مالها بقطعة من المجوهرات. - وما أصل التفصيل المتعلق بالرقم ٣ (ثلاثة مقاعد)؟ هنا أعجز حالتنا أن تقول لنا شيئاً، هذا إلا إذا أرجعناه إلى ما كاشفتنا به من أن الخطيبة، إليزا ل..، تصغرها بثلاثة شهور، بينما هي متزوجة منذ عشر سنين.

١٠ - الفلوران: العملة الرئيسية التي كانت معتمدة في النمسا والعديد من بلدان أوروبا الوسطى، وكان يساوي مئة كروزيراً. «م».

وكيف نفسر الإحالة المنطقية المتمثلة في شراء ثلاث تذاكر لشخصين اثنين؟ هذا ما لم تفصح عنه الحاملة، وأبت أصلاً أن تبذل أي مجهود آخر للتذكر أو للإفضاء بمزيد من المعلومات.

غير أن القليل الذي كاشفتنا به يكفي كل الكفاية للكشف عن أفكار حلمها الكامنة. فمما يلفت الانتباه أنها، في ما أفضت لنا به عن حلمها، زوّدتنا غير مرة بتفاصيل من شأنها أن تعقد قاسماً مشتركاً بين أجزاء عدة منه. هذه التفاصيل هي جميعها من طبيعة زمنية. فقد فكرت في حجز المقاعد قبل الأوان، واشترت التذاكر مقدماً بوقت طويل، فكلّفتها أغلى مما يجب، كما أسرعت أخت زوجها لتقايض بمالها قطعة من المجوهرات، وكأنا خشيت أن تفوتها فرصة ذلك. وإذا أضفنا إلى هذه العبارات الصريحة: «قبل الأوان»، «مقدماً بوقت طويل»، الظرف الذي كان بمثابة ذريعة للحلم، وهو إبلاغها أن صديقتها التي تصغرها بثلاثة أشهر فقط خطبت إلى رجل كريم، وكذلك النقد التأنبي الذي وجهته إلى أخت زوجها على تعجلها البعيد عن المنطق إلى شراء قطعة المجوهرات، توصلنا إلى البناء التالي لأفكار الحلم الكامنة التي ما كان الحلم الظاهر إلا بديلاً محزناً وريئاً عنها:

«لقد كان بعداً عن المنطق من جانبي إذ تعجلت إلى هذا الحد في زواجي. وهأنذا أرى من مثال ليزا أنني ما كنت لأخسر شيئاً لو انتظرت» (التعجل متمثل هنا في تبكيرها في شراء التذاكر وفي إسراع أخت زوجها إلى شراء قطعة المجوهرات، كما يتمثل الزواج وبديله في ذهابها وزوجها إلى المسرح). تلکم هي في تقديرنا الفكرة الرئيسية، وبوسعنا لو شئنا أن نمضي إلى أبعد من ذلك في التأويل، ولكن بقدر أقل من اليقين في هذه الحال، على اعتبار أن التحليل لن يعود يستند في هذه الحال إلى أقوال الحاملة. من ذلك أن نفترض أنها تقلّب بينها وبين نفسها الفكرة الآتية: «وبنفس المبلغ من المال كنت أستطيع أن أحصل على زوج أفضل بمئة مرة» (١٥٠ فلوراً تساوي مئة ضعف فلوران واحد و ٥٠ كروزيراً). ولو استبدلنا كلمة المال بكلمة بائعة، لصار معنى الجملة الأخيرة أن الزوج إنما يُشترى بالبائعة: وعندئذ تكون قطعة المجوهرات وتذاكر المسرح تمثيلات

بديلة للزوج. وفي هذه الحال قد يكون أولى بنا أن نعرف إن كان عنصر «التذاكر الثلاث» ذا صلة برجل أيضاً. لكن ليس ثمة ما يبيح لنا المضى إلى هذا الحد. فكل ما وجدناه أن الحلم المذكور يعبر عن ازدياد المرأة لزوجها وعن ندمها على التبكير في الزواج.

وعندي أن نتيجة هذا التأويل لأحد الأحلام من شأنها أن تباغتنا وتزيدنا حيرة وبلبله، بدلاً من أن تقنعنا وترضيها. فكثير من الأشياء تفرض نفسها علينا في آن واحد، وهذا ما يجعل اختيارنا لوجهتنا صعباً للغاية. ولا مناص لنا من التسليم من الآن فصاعداً بأننا لن نستطيع أن نستوعب جميع المعلومات التي يسفر عنها هذا التأويل. فلنبادر إذًا إلى استخلاص ما نعتبره معطيات جديدة وأكيدة.

أولاً: من المدهش أن يكون عنصر التعجل بارزاً بروزاً شديداً في الأفكار الكامنة بينما لا نلقى له من أثر في الحلم الظاهر. ولولا التحليل لما اشتبهنا قط بأن هذا العنصر يلعب دوراً ما. من المحتمل إذًا، على ما هو باء، أن يكون الشيء الرئيسي، مركز الأفكار اللاشعورية بالذات، غائباً عن الأحلام الظاهرة، وهذا من شأنه أن يحدث تغييراً عميقاً في الانطباع الذي يتركه الحلم في جملته. ثانياً: ينطوي الحلم على مقارنة لامعقولة: ٣ مقاعد مقابل فلوران ونصف فلوران، ثم نكتشف في أفكار الحلم الفكرة التالية: لقد كان بعداً عن المنطق (إذ بكرت في الزواج). فهل نستطيع أن ننفي نفيًا باتاً أن تكون فكرة: «البعد عن المنطق» قد تمثلت في الحلم الظاهر بالعنصر اللامعقول المقحم عليه؟ ثالثاً: لو ألقينا نظرة مقارنة على العلاقات بين العناصر الظاهرة والعناصر الكامنة لاتضح لنا أنها ليست بحال من الحوال علاقات بسيطة؛ وعلى كل، ليس من المحتم دوماً أن ينوب عنصر ظاهر مناب عنصر كامن. بل هناك بالأحرى بين الطرفين علاقة إجمالية مركبة، إذ قد ينوب عنصر ظاهر مناب عناصر كامنة، كما أن العنصر الكامن قد تقوم مقامه عدة عناصر ظاهرة.

أما عن معنى الحلم وعن موقف الحاملة منه فلا يزال في جعبتنا أشياء كثيرة مدهشة نقولها بصده. فقد وافقت صاحبة الحلم على تأويلنا له، ولكنها أبدت

دهشة وارتياحاً. فقد كانت تجهل أنها لا تكن في نفسها تقديراً كبيراً لزوجها، كما تجهل الأسباب التي تحملها على ازدرائه إلى ذلك الحد. والحق أن ثمة نقاطاً أخرى كثيرة غير مفهومة بعد. ويخيّل إليّ بلا جدال أننا لم نستعدّ بعد الاستعداد الكافي للشروع بتأويل حلم من الأحلام، وأننا لا نزال بحاجة إلى المزيد من الإرشاد والتحضير.

المحاضرة الثامنة

الأحلام الطفلية

سيداتي سادتي، يلوح لي أننا تقدمنا بخطى أسرع مما ينبغي. فلنتراجع إذاً إلى الوراء قليلاً. لقد قلنا بيننا وبين أنفسنا، قبل أن نقدم على محاولتنا الأخيرة للتغلب بواسطة تقنيتنا على الصعوبة المتمثلة بتحريف الأحلام، قلنا: لعلّ خير ما يمكن أن نفعله أن نلتف حول هذه الصعوبة، فنقصر اهتمامنا على الأحلام التي لم يحدث فيها تحريف أو لم يصبها منه إلا قدر طفيف (على فرض أن مثل هذه الأحلام موجودة). والحق أن هذا النهج معاكس لتاريخ تطور معرفتنا، إذ إننا في الواقع لم نفطن إلى وجود أحلام غير محرفة إلا بعد أن طبّقنا تقنيتنا في التأويل تطبيقاً صارماً على أحلام محرّفة، وإلا بعد أن حلّلنا هذه الأحلام تحليلاً كاملاً.

إن الأحلام التي ننشدها نُلاحظ لدى الأطفال حصراً. فهي مقتضبة، واضحة، متماسكة المنطق، قابلة للفهم بسهولة، لا يكتنفها التباس، ومع ذلك فهي بلا مرأء أحلام. ولكن تحريف الأحلام يُلاحظ لدى الأطفال أيضاً، وحتى في زمن ميكر جداً. وبين أيدينا أحلام لأطفال تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثامنة، ومتسمة بجميع سمات الأحلام في الأعمار المتأخرة. غير أننا لو قصرنا ملاحظتنا على العمر المحصور بين بدايات النشاط النفسي القابلة للتمييز وبين السنة الرابعة أو الخامسة، لوجدنا أماناً طائفة من أحلام ذات طابع يمكن أن نسميه بالطابع الطفلي، وهي أحلام قد نجد عينات لها لدى الأطفال الأكبر سناً. وقد نلاحظ، في بعض الظروف، حتى لدى الراشدين من الناس، أحلاماً تتسم بهذا الطابع الطفلي عينه.

وعن طريق تحليل هذه الأحلام الطفلية نستطيع أن نظفر بسهولة كبيرة، وبقدر عظيم من اليقين، بمعلومات عن طبيعة الحلم تأمل - إذا كان الأمل في هذا المجال

جائزاً - أن تكون حاسمة في أهميتها وشاملة في قيمتها.

١ - لكي نفهم هذه الأحلام، ليس بنا حاجة إلى تحليلها ولا إلى تطبيق تقنية ما عليها. ولا يتعين علينا أن نستجوب الطفل الذي يروي حلمه. غير أنه ينبغي أن نكمل هذا الحلم بتجميع معلومات عن حياة الطفل. وسنجد أن هناك على الدوام حدثاً وقع للطفل في النهار السابق للحلم، وهذا الحدث هو الذي يفسر لنا هذا الحلم. فما الحلم إلا استجابة أثناء النوم للحدث الذي وقع في حالة اليقظة. لنضرب بعض أمثلة لتكون لنا متركزاً لاستنتاجاتنا اللاحقة:

أ - كُلف غلام له من العمر ٢٢ شهراً بأن يقدم سلة من الكرز هدية لطفل آخر في مناسبة تهنئة. ففعل ذلك كارهاً، رغم أنه وُعد بأن يحصل هو نفسه على بعض الكرزات. وفي صباح اليوم التالي روى أن «هرمان أكل كل الكرز».

ب - قامت فتاة لها من العمر ثلاث سنوات وثلاثة أشهر بأول نزهة لها في عرض البحر. فلما رسا المركب أبت أن تغادره وطفقت تبكي بكاءً مرّاً. فقد بدا لها أن مدة النزهة أقصر مما ينبغي. وفي صباح اليوم التالي روت: «سافرت هذه الليلة في البحر». وينبغي أن نكمل هذه القصة بأن نذكر أن تلك النزهة دامت مدة أطول مما ادعته الطفلة.

ج - أخذ غلام له من العمر خمسة أعوام وستة أشهر في رحلة إلى وادي أشرنتال، بالقرب من هالشتات^(١). وكان قد سمع أن هالشتات تقع عند سفح جبل داخشتاين، وهو جبل يثير شديداً اهتمامه. فمن مقامه في آوسي^(٢) كان جبل الداخشتاين يُرى بوضوح، وكان يمكن أن يرى بالمنظار ملاذ سيموني^(٣). وقد حاول الطفل عدة مرات أن يعاين بالمنظار هذا الملاذ، ولكن لا أحد يدري ماذا كانت النتيجة. وقد بدأت هذه الرحلة في جو من المرح، وثار فضول الغلام ثورة شديدة. فكلما أبصر بجبل سأل: «أهو الداخشتاين؟». ولكنه من كثرة ما

١ - هالشتات: بلدة نمسوية، اكتشفت فيها آثار من عصر الحديد ما قبل التاريخي، مما يطلق عليه المؤرخون اسم حضارة هالشتات. «م».

٢ - باد آوسي: مدينة نمساوية تقع في جبال الألب وفيها منتجع للمياه المعدنية. «م».

٣ - ملاذ سيموني: ملاذ من الثلوج والثلج يقع في جبال داخشتاين على ارتفاع ٢٢٠٠ م. «م».

تلقى من أجوبة بالنفي مال إلى التزام الصمت، وفي آخر المطاف أمسك عن الكلام نهائياً ورفض أن يشارك في تسلق تل صغير يطل على مسقط من مساقط المياه. فحسبه رفاقه متعباً، لكنه قصّ عليهم في صباح اليوم التالي وهو يطفح بشراً: «لقد رأيت في نومي أننا تسلقنا إلى ملاذ سيموني». إذاً، فالطفل لم يشترك في الرحلة إلا بأمل القيام بهذه الزيارة. أما التفاصيل فلم يدل منها إلا بتفصيل واحد كان قد سمعه من قبل وهو أن الوصول إلى الملاذ يقتضي الصعود على أدراج لمدة ست ساعات.

إن هذه الأحلام الثلاثة لقمينة بأن تزودنا بكل ما قد نطلبه من معلومات.

٢ - يتضح من هذا أن أحلام الأطفال هذه لا تفتقر إلى المعنى: بل هي أفعال نفسية مفهومة، كاملة. تذكروا ما قلته لكم بصدد الحكم الذي يطلقه الأطباء على الأحلام، وعلى الأخص المقارنة مع الأصوات التي تصدر عن الآلة الموسيقية متى ما مرت عليها أصابع يد غير ماهرة. ومن المؤكد أن التباين الصارخ بين أحلام الأطفال وبين هذا التصور لن يفوتكم. لكن أليس من العجب أن يقتدر الطفل على إنجاز أفعال نفسية كاملة في أثناء النوم، على حين أن كل ما يصدر عن الراشد في ظروف مماثلة لا يعدو أن يكون استجابات اختلاجية؟ أضف إلى هذا أن لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن الطفل ينعم بنوم أحسن وأعمق.

٣ - إن هذه الأحلام الطفولية التي لم يطرأ عليها أي تحريف لا تقتضي أي عمل تأويلي. فالحلم الظاهر والحلم الكامن يتداخلان ويتطابقان هنا. وعليه، إن التحريف ليس صفة طبيعية للحلم. وآمل أن يخفف هذا القول من بعض ما يجثم على صدوركم من حرج بصدد تأويل بعض الأحلام. غير أنه لا بد لي من تنبيهكم إلى أن التأمل عن كذب في هذه الأحلام سيضطرنا إلى التسليم بأنه حتى هذه الأحلام لا تخلو من بعض التحريف، من بعض التباين بين المضمون الظاهر والأفكار الكامنة.

٤ - إن الحلم الطفلي استجابة لحدث من أحداث النهار، حدث خلف وراءه أسفاً أو كرباً أو رغبة غير مشبعة. والحلم يأتي بتحقيق مباشر، غير مقتنع، لهذه

الرغبة. تذكروا الآن ما قلناه بصدد دور التنبهات الجسمية الخارجية والداخلية التي اعتبرناها مقلقة للنوم ومحدثة للأحلام. وقد خرجنا من ذلك بوضع وقائع مؤكدة، غير أن هذا التفسير لم ينطبق إلا على عدد ضئيل من الأحلام. وفي أحلام الأطفال هذه لا شيء يدل على تأثير مثل هذه التنبهات البدنية، ولا مجال للخطأ بصدد هذه النقطة، على اعتبار أن هذه الأحلام تكون كلها مفهومة تمام الفهم وسهلاً استيعابها بنظرة واحدة. لكن ليس في هذا سبب لبند التفسير القائل بأن الأحلام تنشأ عن التنبه. على أنه بوسعنا أن نتساءل كيف أمكن لنا أن ننسى من البداية أن النوم قد تقلقه لا تنبهات بدنية فحسب، بل نفسية كذلك؟ وهذا مع أننا نعلم أن التنبهات النفسية هي التي تقلق في أغلب الأحيان نوم الراشد، لأنها تحول بينه وبين تحقيق الشرط النفسي للنوم، أي التجرد من كل اهتمام بالعالم الخارجي. فالراشد لا ينام لأنه يتردد في وقف حياته النشطة، ولا ينبغي أن يتوقف نشاطه في ما يهمه ويشغله. أما لدى الطفل فإن التنبه النفسي، المقلق للنوم، يصدر عن الرغبة اللامشبعة التي لا يعدو الحلم أن يكون استجابة لها.

٥ - انطلاقاً من هذه النقطة سننتهي، بأقصر الطرق، إلى استنتاجات بصدد وظيفة الحلم. فما دام الحلم استجابة للتنبه النفسي، فلا بد أن تكون وظيفته إبعاد هذا التنبه كيما يتاح للنوم أن يستمر موصولاً. فما الوسيلة الدينامية التي تتيح للحلم أن يقوم بعبء هذه الوظيفة؟ هذا ما نجهله بعد، لكن بوسعنا أن نقول من الآن إن الحلم ليس معكراً للنوم، كما يؤخذ عليه عادة، بل هو حارس للنوم يذود عنه ويحميه من كل ما يمكن أن يقلقه.

وإننا لنخطئ لو تصورنا أننا بدون الأحلام ننام نوماً أهنأ؛ والواقع أننا لولا مساعدة الحلم لما نمنا على الإطلاق. فله ندين بالنزول اليسير من النوم الذي نعمنا به. على أنه لا سبيل إلى الإنكار بأن الحلم قد يسبب لنا بعض الإزعاج، تماماً كما يضطر الحارس الليلي إلى أن يحدث هو نفسه بعض الضوضاء عندما يلاحق من يحدث ضجة ليلية قمينة بأن تعكر نومنا تعكيراً أكبر بما لا يقاس.

٦ - إن الرغبة هي منبه الحلم، وتحقيق هذه الرغبة هو مضمون الحلم: تلکم هي إحدى الصفتين الرئيسيتين للحلم. أما الصفة الثانية فلا تقلّ اطراداً عن

الأولى، وهي أن الحلم لا يقنع بالتعبير عن فكرة، بل يصور الرغبة وكأنها أشبعت، في شكل حدث نفسي هلسي Hallucinatoire. أودّ لو أسافر في البحر: هذه هي الرغبة المنبّهة للحلم. إنني أسافر في البحر: هذا هو مضمون الحلم. إذاً يبقى هناك، حتى في أحلام الأطفال، على بساطتها اللامتناهية، فارق بين الحلم الكامن والحلم الظاهر، فارق يتمثل بتحريف لفكرة الحلم الكامنة بحيث تتحول الفكرة إلى حدث معاش. وينبغي، عند تأويل الحلم، أن تضرب صفحاً عن هذا التغيير الطفيف. فلو صبح أن هذه واحدة من أعم صفات الحلم، لكان يتعين علينا أن نترجم تلك النبذة من الحلم التي أوردناها أعلاه: رأيت أخي حبساً في خزنة، لا بالقول: إن أخي يضيق على نفسه ويضغط نفقاته، بل بالقول: أودّ لو يضيق أخي على نفسه، ويجب على أخي أن يضغط نفقاته. ونشر هنا إلى أن الصفة الثانية من الصفتين العامتين للحلم - كما تقدم بيانها - أوفر حظاً من الأولى في أن تلقى قبولاً بلا اعتراض. فنحن لا نستطيع أن نثبت أن منبه الحلم يتحتم أن يكون على الدوام رغبة من الرغبات، وليس شاغلاً من الشواغل أو مقصداً من المقاصد أو ضرباً من التأنيب والتبكي، إلا بعد أبحاث مستفيضة تطال كمية وفيرة من المواد؛ لكن هذا لا صلة له بالخاصية الأخرى للحلم والمتمثلة في أن الحلم لا يكتفي بتصوير التنبيه واستنساخه كما هو، بل يلغيه ويبعده ويستنفده عن طريق ضرب من تجربة حياتية.

٧ - إذا ما أخذنا صفتي الحلم هاتين بعين الاعتبار، استطعنا أن نعود إلى المقارنة بين الحلم والهفوة. ففي هذه الأخيرة نميّز ميلاً متعدياً وميلاً متعدياً عليه، ونرى في الهفوة بحد ذاتها تسوية بين هذين الميلين. هذا المخطط نفسه ينطبق على الحلم. فالميل المتعدي عليه في الحلم لا يمكن أن يكون سوى الميل إلى النوم. أما الميل المتعدي فنستعير عنه بالتنبيه النفسي، أي بالرغبة التي تنشأ تلبية وإشباعاً؛ وبالفعل إننا لا نعرف لحد الآن أي منبه نفسي آخر يحقق بتعكير النوم. وعلى هذا، يجوز الافتراض بأن الحلم ينجم، هو الآخر، عن تسوية. فنحن إذ ننام، نشعر بإشباع لرغبة؛ وإذ نشبع رغبة، نواصل النوم. إذاً فهناك إشباع جزئي وإلغاء جزئي للميلين كليهما.

٨ - تذكروا الأمل الذي راودنا آنفاً بأن نتمكن من أن نتخذ بعض منتجات الخيال الشاقفة بالنسبة إلينا، والتي أطلق عليها اسم أحلام اليقظة، منفذاً إلى فهم معضلات الحلم. وبالفعل، ما أحلام اليقظة هذه إلا إنجاز لرغبات طموحة أو إيروسية معلومة لدينا حقاً العلم. لكن تحقيق هذه الرغبات، مهما جرى تصويرها بحيوية، لا يخرج من حيز الفكر والتصور، ولا يأخذ أبداً شكل أحداث نفسية هلسية. وعلى هذا، إن الصفة الأقل يقيناً وثباتاً من الصفتين الرئيسيتين للأحلام هي التي ترجح كفتها هنا، بينما تتلاشى الصفة الأخرى لأنها رهن بحالة النوم وغير قابلة للتحقق في حياة اليقظة. ويبدو أن اللغة الدارجة نفسها تشبه في أن الصفة الرئيسية للأحلام تكمن في تحقيق رغبات. ولنقل، عابرين، إن الأحداث المعاشة في الحلم إن صَحَّ أنها محض تمثلات وتصورات تتيحها شروط حالة النوم، أي «أحلام يقظة ليلية» إن جاز التعبير، استطعنا أن نفهم على التو أن تكون نتيجة تكوين الحلم إلغاء التنبيه الليلي وإشباع الرغبة، لأن نشاط أحلام اليقظة ينطوي هو الآخر على إشباع للرغبة، والإنسان لا يلجأ إليه إلا بغرض هذا الإشباع.

وثمة تعابير لغوية أخرى تنم عن المعنى نفسه. فهل منا من يجهل القول السائر: «الخنزير يحلم بالخرنوب، والأوزة تحلم بالذرة»؟ أو السؤال القائل: «بم تحلم الدجاجة؟» والجواب: «يحبوب الذرة البيضاء»؟ هكذا يهبط القول السائر إلى أدنى مما فعلنا، أي من مستوى الطفل إلى مستوى الحيوان، ويقرّر هو الآخر أن مضمون الحلم إشباع حاجة من الحاجات. وكثيرة هي التعابير التي تشير إلى المعنى نفسه: «جميل كأنه حلم»، «ما كنت لأحلم قط بشيء كهذا»، «هذا شيء ما كان ليخطر لي ببال، ولا حتى في أجراً أحلامي». وتتم اللغة الدارجة هنا عن انحياز واضح. ذلك أن هناك أحلاماً يصاحبها حصر، وأحلاماً ذات مضمون مؤلم أو حيادي، لكن هذه الأحلام لم تحط من اللغة الدارجة بضيافة. صحيح أن هذه اللغة تتحدث عن أحلام «مزعجة»، لكن الحلم على إطلاقه عندها هو الحلم الذي ينطوي على تلبية مستطابة لرغبة من الرغبات. وليس ثمة من قول سائر يتحدث عن خنزير أو إوزة يحلمان بأنهما يُذبحان!

لا شك في أننا سنستغرب لو أن الباحثين في الأحلام فاتهم أن يلحظوا أن وظيفتها الرئيسية تكمن في تحقيق رغبات. فهم كثيراً ما أشاروا على العكس إلى هذه الخاصية، لكن ما خطر قط لأحد منهم أن يعترف بعمومية هذه الخاصية وأن يتخذها منطلقاً لتفسير الحلم. ولا يشق علينا أن ندرك ما الذي حال بينهم وبين ذلك (ولنا إلى هذه المسألة عودة).

لنتأمل الآن في جميع المعلومات الثمينة التي ظفرنا بها، بلا مشقة تقريباً، من فحص أحلام الأطفال. فقد عرفنا في المقام الأول أن وظيفة الحلم أن يكون حارساً للنوم، وأنه ينشأ عن التقاء ميلين متعاكسين، يظل أحدهما، وهو الحاجة إلى النوم، مستمراً ثابتاً، بينما يسعى الآخر على العكس إلى إشباع تنبيه نفسي. وبتنا نملك الدليل، ثانياً، على أن الحلم فعل نفسي، ذو دلالة، ونعلم أن صفتيه الرئيسيتين هما إشباع الرغبات وعيش تجربة نفسية هلسية. على أننا كدنا ننسى، ونحن نجمع كل هذه المعلومات، أن شاغلنا الأول هو التحليل النفسي. والحال أن عملنا، باستثناء الصلة التي أقمناها بين الأحلام والهفوات، لم يكن ينطوي على طابع نوعي خاص. وقد كان في مقدور أي اختصاصي في علم النفس أن يقدم مثل هذا التفسير لأحلام الأطفال، حتى ولو كان جاهلاً جهلاً مطبقاً بمبادئ التحليل النفسي. فلم لم يفعل ذلك أحد من الاختصاصيين في علم النفس؟

لو كانت الأحلام كلها أحلاماً طفلية، لحلت المعضلة ولانتهت مهمتنا، من دون أن تكون بنا حاجة إلى استجواب الحالم والرجوع إلى اللاشعور واللجوء إلى التداعي الحر. وقد لاحظنا غير مرة أن بعض الخصائص، التي عزونا إليها في بادئ الأمر أهمية عامة، لم تلبث أن تكتشفت في الواقع عن أنها محصورة بفتة محدودة وبعدد محدود من الأحلام. المطلوب إذاً أن نعرف هل الخصائص العامة التي تنسم بها أحلام الأطفال أكثر ثباتاً وأكثر تكراراً، وهل تصدق أيضاً على الأحلام الأقل شفافية والأحلام التي لا يشف مضمونها الظاهر عن أي ارتباط ببقايا رغبة نهارية؟ وبحسب تصورنا، طرأ على هذه الأحلام تحريف كبير، مما لا يبيح لنا أن نصدر عليها حكماً فورياً. ونستشف كذلك أننا بحاجة، كيما نفسر

هذا التحريف، إلى التقنية التحليلية النفسية التي أمكننا، مع ذلك، الاستغناء عنها ونحن نجمع معلوماتنا عن أحلام الأطفال.

ثمة طائفة أخرى من الأحلام غير المحرّفة تشبه أحلام الأطفال من حيث أنها تبدو وكأنها تحقيق لرغبات. إنها الأحلام التي تنشأ، على مدى الحياة، عن الحاجات العضوية الآسرة: الجوع، العطش، الحاجات الجنسية. هي إذاً تحقيق لرغبات عن طريق الاستجابة لتنبهات باطنة. من ذلك أن طفلة لها من العمر تسعة عشر شهراً رأت حلماً قوامه لائحة طعام أضافت إليها اسمها (أنا ف.. فريز، توت بري، بيض مقلي، حساء). وكان هذا الحلم استجابة للجحمة التي فرضت عليها ليوم كامل بسبب عسر هضم أصابها وعزاه أهلها إلى تخمة بالفريز والتوت البري. كذلك إن جدة هذه الطفلة - ولو أضيف عمرها إلى عمر حفيدتها لكان المجموع ٧٠ سنة - اضطرت إلى الامتناع عن الطعام ليوم كامل أيضاً بسبب اضطرابات أصابتها من كلوتها السائبة، فرأت ليلاً في منامها أنها دعيت إلى العشاء لدى أصدقاء قدّموا لها أشهى الأطباق. وتدل المشاهدات المتعلقة بالمساجين المحرومين من الغذاء أو بأشخاص يتعرضون، أثناء الأسفار والاستكشافات، لظروف يكابدون فيها الحرمان الشديد، أن جميع الأحلام في هذه الشروط يدور موضوعها على تلبية الرغبات التي لا سبيل إلى إشباعها في الواقع. يتحدث أوتو نوردنسكولد Otto Nordenskjöld^(٤) في كتابه عن القطب الجنوبي (المجلد ١، ص ٣٣٦، عام ١٩٠٤) على النحو التالي عن الفريق الذي أمضى معه فترة الشتاء: «كانت أحلامنا، التي لم يسبق لها قط أن كانت بمثل هذا الوضوح وهذه الكثرة، بليغة الدلالة من حيث إشارتها إلى الاتجاه الذي تتحرك فيه أفكارنا. وحتى أولئك من رفاقنا الذين ما كانوا يحلمون في الحياة العادية إلا فيما ندر، صاروا يقصّون علينا قصصاً طويلة كل صباح حين نجتمع لتبادل آخر ما قبسناه من خبرات من عالم الخيال. وكان مدار جميع تلك الأحلام حول العالم الخارجي الذي نأينا عنه غاية النأي، ولكن كثيراً أيضاً حول

٤ - أوتو نوردنسكولد: جيولوجي ومستكشف سويدي (١٨٦٩ - ١٩٢٨). اشتهر باستكشافاته في

القطبين الشمالي والجنوبي. «م».

وضعنا في ذلك الحين... الطعام والشراب: ذلكم هو المركز الذي كانت تدور حوله أعلامنا في أغلب الأوقات. وكان أحدنا قد اختصَّ برؤية ولائم عظيمة في منامه، وكان يلذ له أن يروي لنا صباحاً أنه تناول وجبة من ثلاثة أطباق. وكان آخر يحلم بالتبغ، ببجبال من التبغ. وكان ثالث يرى في أحلامه المركب يتقدم باسطاً أشرعتة فوق المياه الطليقة. وثمة حلم آخر جدير بالذكر: فقد جاء ساعي البريد بالرسائل وشرح لماذا طال تأخره، إذ إنه أخطأ في التوزيع ولم يفلح إلا بعد عناء شديد في استرداد الرسائل. وكانت تشغل أذهاننا أثناء النوم بطبيعة الحال أشياء أكثر بعداً عن المنطق، لكن الخيال في جميع الأحلام التي حلمت بها أنا نفسي أو سمعت قصتها من الآخرين كان فقيراً إلى حدٍّ مذهش. ولو كان أتيح لنا أن نسجل هذه الأحلام كلها، لكانت بمثابة وثائق ذات فائدة سيكولوجية جلي. لكن ليس من العسير أن يفهم القارئ كم كنا جميعنا نرحب بالنوم وتلهف إليه، لما يتيح لنا مما نتوق إليه أحرّ التوق.

وسأقتبس أيضاً بعضاً مما كتبه دي برل Du Prel^(٥): «لما سقط منغو بارك^(٦) في شبه غيبوبة من شدة الجوع، وهو في رحلة عبر أفريقيا، راح يحلم باستمرار بالوديان والسهول المخضوضرة في مسقط رأيه. كذلك لما عضَّ الجوع ترنك^(٧) بنابه رأى في منامه أنه جالس في حانة في ماغدبورغ^(٨) إلى مائدة عامرة بأشهى المأكّل. أما جورج باك^(٩)، الذي شارك في بعثة فرانكلين^(١٠) الاستشكافية

٥ - كارل دي برل: فيلسوف ومنجم ألماني (١٨٣٩ - ١٨٩٩). أشهر مؤلفاته: فلسفة التصوف، ومنه يقبس فرويد شاهده. «م».

٦ - منغو بارك: طبيب ومستكشف إسكتلندي (١٧٧١ - ١٨٠٦). مات غرقاً في نهر النيجر أثناء القتال مع السكان الأصليين. «م».

٧ - البارون فريدريش فون دير ترنك: كاتب ومغامر ألماني (١٧٢٦ - ١٧٩٤). سُجن، بسبب مغامراته، في ألدنيا والنمسا مراراً. وفي الختام قطع رأسه بالمقصلة في باريس في عهد الإرهاب بتهمة التجسس لصالح ملك بروسيا. له مذكرات عن حياته في ثلاثة مجلدات. «م».

٨ - ماغدبورغ: مدينة تمساوية تقع على ضفاف نهر لوبا. «م».

٩ - جورج باك: ملاح وأميرال إنكليزي (١٧٩٦ - ١٨٧٨). استكشف القطب الشمالي الكندي. «م».

١٠ - جون فرانكلين: مستكشف إنكليزي (١٧٨٦ - ١٨٤٧). وضع خرائط لثلاثي السواحل الأميركية الشمالية. وتولى حكم ولاية تسمانيا في أستراليا من ١٨٣٦ إلى عام ١٨٤٣. «م».



الأولى، فكان يحلم على الدوام بانتظام بموقور الطعام، بينما هو يحتضر بكل ما في الكلمة من معنى من شدة تضرّره من الجوع بعد أن نضب القوت نضوباً رهيباً».

إن من يشعر بالعطش في أثناء نومه، من طعام كثير التوابل أصابه عشية، يحلم بسهولة أنه يشرب. ويدهي أنه يستحيل إلغاء الشعور المبرّح بالجوع أو العطش بمجرد الحلم، لذا يفيق الإنسان من هذه الأحلام على ظمأ ولا يكون أمامه بدّ من أن يشرب ماء حقيقياً. والخدمة التي تؤديها الأحلام، من وجهة النظر العملية، لا غناء فيها في هذه الحالات، لكن يبقى هدفها مع ذلك حماية النوم من التنبيه الذي يحفز النائم على الاستيقاظ والمبادرة إلى الفعل. أما إذا كانت الحاجات على درجة أقل من الشدة، فكثيراً ما تكون أحلام الترضية ذات أثر ناجع.

كذلك يوفر الحلم، تحت تأثير التنبيهات الجنسية، تلبية لهذه التنبيهات، وإن تكن تلبية من نوع خاص جدير بالتنويه به. فالحاجة الجنسية لا ترتبط بموضوعها بمثل الصلة الوثيقة التي تربط الجوع والعطش بموضوعهما، لذا من الممكن أن نظفر بتلبية فعلية لدى القذف اللاإرادي للسائل المنوي. ونظراً إلى بعض الصعاب التي تتصل بالعلاقة الموضوعانية، كثيراً ما يتصف الحلم المقترن بتلبية فعلية بمضمون مبهم أو محرّف. وكما يلاحظ أ. رانك O.Rank^(١١)، إن هذه الخاصية التي تتصف بها أحلام القذف اللاإرادي تجعلها صالحة كل الصلاح لدراستها من منظور تحريف الأحلام. ثم إن جميع أحلام الراشدين التي يدور موضوعها حول حاجات تنطوي أصلاً عن شيء آخر غير التلبية والإشباع، شيء يصدر عن تنبيهات نفسية خالصة ويقتضي تأويلاً كيما يفهم.

ونحن لا نزعم على كل حال أن أحلام الراشدين المتكونة بحسب طراز الأحلام الطفلية، والمنطوية على إشباع لرغبات، هي محض استجابات للحاجات الأسرة التي تقدّم بيانها. فنحن نعرف أيضاً أحلام راشدين، مقتضبة وواضحة، تنشأ تحت تأثير بعض المواقف النفسية الغالبة، وتصدر عن تنبيهات نفسية أكيدة.

١١ - يقبس فرويد شاهده هنا من مقال أوتو رانك: «الحالات الجنسية الراهنة كعوامل مسببة للحلم» الذي نشره عام ١٩١٢ في مجلة التحليل النفسي. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



ومن ذلك، على سبيل المثال، أحلام التلهف: فبعد أن نأخذ كامل استعداداتنا لرحلة ما، أو لمشاهدة مسرحية تخطى منا بفائق الاهتمام، أو لحضور محاضرة، أو للقيام بزيارة، نحلم ليلاً أن الهدف الذي نتوق إليه قد تحقق، كأن نجد أنفسنا في المسرح أو قيد التحدث مع الشخص الذي نتلهف لرؤيته. ومن ذلك أيضاً الأحلام التي تسمى بحق «أحلام الكسل»: فالأشخاص الذين يطيب لهم إطالة نومهم يحلمون بأنهم نهضوا فعلاً، وأنهم بسبيلهم إلى الاغتسال والتزين أو أنهم وصلوا إلى مراكز عملهم، مع أنهم في الواقع ما زالوا غارقين في النوم، مدللين بذلك أنهم يؤثرون النهوض الوهمي على النهوض الفعلي. وفي هذا النوع من الأحلام تتجلى بمنتهى الوضوح الرغبة في النوم التي لها دورها الدائم، كما رأينا، في تكوين الأحلام، وتكون هي العامل الرئيسي فيه. والحق أن الحاجة إلى النوم تحتل مكانها، بلا جدال، إلى جانب الحاجات العضوية الكبرى الأخرى.

سأريكُم الآن نسخة من لوحة بريشة شفيند Schwind^(١٢)، موجودة في معرض شاك Schack^(١٣) للوحات بميونخ، لأبيّن لكم كيف استطاع الفنان بقوة حدسه أن يرّد أصل حلم من الأحلام إلى موقف نفسي غالب. إنها حلم السجين الذي لا يمكن أن يكون له من مضمون بطبيعة الحال سوى الهرب والفرار. واللقطة في اللوحة تتمثل في أن هذا الفرار لا بدّ أن يتمّ عن طريق النافذة، على اعتبار أن التنبيه الضوئي الذي أيقظ السجين من نومه إنما دلف من النافذة تحديداً. أما العقاريت الأقزام المتراكبون بعضهم فوق بعض فيمثلون الوضعيات المتتالية التي لا بدّ أن يتخذها السجين حتى يبلغ النافذة. ويخيّل إليّ، اللهم إلا إذا أخطأت وعزوت إلى الرسام نيات لم تراوده، أن القزم الذي يقف في أعلى الهرم والذي ينشر قضبان الشباك - مؤدياً بذلك العمل الذي يتمنى السجين لو كان في مقدوره هو أن يفعله - يشبه شبيهاً عجيباً هذا الأخير.

١٢ - موريتز فون شفيند: رسام نمساوي (١٨٠٤ - ١٨٧١). تولى زخرفة عدة قصور ولُقب بالرسام الشاعر. «م».

١٣ - معرض خاص للوحات في ميونخ أنشأه هاوي جمع الرسوم والناقد الفني الكونت أدولف فون شاك (١٨١٥ - ١٨٩٩). «م».

قلنا إن التحريف في جميع الأحلام، باستثناء أحلام الأطفال والأحلام من الطراز الطفلي، ينتصب عقبة في طريقنا. ولا يسعنا أن نقطع من بادئ الأمر أن هذه الأحلام غير الطفلية تمثل، هي الأخرى، تحقيقاً لرغبات، كما نميل إلى افتراض ذلك؛ فمضمونها الظاهر لا يميّط لنا اللثام عن التنبيه النفسي الذي تدين له بأصلها، مثلما يتعذر علينا أن نثبت أنها ترمي هي الأخرى إلى إبعاد هذا التنبيه أو إلغائه. فهذه الأحلام لا بد أن تؤوّل، أي أن تترجم، ولا بد أن يُصحّح تحريفها ويُقوّم، وأن يُستبدل مضمونها الظاهر بمضمونها الكامن، وعندئذ فقط سيكون في مقدورنا أن نحكم ما إذا كانت المعطيات التي تصدق على الأحلام الطفلية تصدق أيضاً على الأحلام كافة بلا استثناء.

المحاضرة التاسعة

رقابة الحلم

سيداتي سادتي، كشفت لنا دراسة أحلام الأطفال عن كيفية نشوء الحلم وماهيته ووظيفته. فالحلم وسيلة لإلغاء التنبهات (النفسية) المقلقة للنوم، علماً بأن هذا الإلغاء يتم عن طريق إشباع هلسي. أما فيما يتصل بأحلام الراشدين، فما أمكننا أن نفسر سوى طائفة منها، وهي بالتحديد تلك التي وصفناها بأنها أحلام من الطراز الطفلي. وأما غير هذه، فلا نعرف شيئاً بعد بصددتها، بل لن أحجم عن القول إننا لا نفهمها. وقد ظفرنا على كل حال بنتيجة مؤقتة لا يجوز لنا أن نبخسها قيمتها: ففي كل مرة يتأتى لنا أن نفهم حلماً من الأحلام أتمّ الفهم، يتكشف لنا عن أنه تلبية هلسية لرغبة من الرغبات. وهذا اتفاق لا يمكن أن يكون عارضاً أو مما لا يعتدّ به.

وعندما نلتقي بحلم من نوع آخر نسلّم، بعد تأملات شتى وبحكم التشابه مع تصورنا للهفوات، بأنه بديل محزّف لمضمون نجهله وإليه ينبغي أن نردّه. ومهمتنا المباشرة هي تحليل تحريف الحلم هذا وفهمه.

إن تحريف الحلم هو ما يجعله يبدو لنا غريباً لافهموماً. وكثيرة هي الأشياء التي نريد أن نعرفها بصدد: أولاً أصله وديناميته، ثانياً دوره، وأخيراً كيفية أدائه لهذا الدور. وبوسعنا أيضاً أن نقول إن تحريف الحلم هو نتيجة عمل الحلم. وسوف نصف عمل الحلم هذا ونردّه إلى القوى الفاعلة فيه.

استمعوا الآن إلى هذا الحلم. فقد دوّنته سيدة من حلقتنا^(١). والمرأة التي

١ - السيدة الدكتورة ف. هوغ - هموت^(٢).

« هو الاسم المستعار الذي اشتهرت به محللة الأطفال النفسية هرمين فنهلمون هوغ فون === === »

حلمت به، على حدّ ما أنبأنا، سيدة متقدمة في السن، رفيعة الثقافة، وموضع تقدير عظيم. وقد بقي هذا الحلم بلا تحليل، إذ تزعم راويته أنه ليس بحاجة إلى أي تأويل عند الأشخاص المهتمين بالتحليل النفسي. وصاحبة الحلم نفسها لم تؤوِّله، بل حاكمته وأدانتها وكأنها عرفت كيف تؤوِّله. هاكم كيف كان حكمها عليه: «إن هذا الشيء السخيف والفظيع يراود في الحلم امرأة لا همّ لها ليل نهار إلا طفلها!».

إليكُم الآن هذا الحلم الذي يدور حول خدمات الحب. «قصّدت المستشفى العسكري رقم ١، وقالت للحارس إنها تودّ أن تراجع كبير الأطباء (ذكرت له اسماً لا تعرفه) لتعرض عليه خدماتها في المستشفى. وقد شددت، وهي تنطق بهذا القول، على كلمة خدمات، بحيث تأكد للعريف من فوره أنها تقصد خدمات الحب. ولما رأى أنها امرأة متقدمة في السن، تركها تدخل بعد شيء من التردد. لكنها بدل أن تصل إلى كبير الأطباء، وجدت نفسها في حجرة واسعة مظلمة، فيها عدد من الضباط والأطباء العسكريين الملتفين جلوساً أو وقوفاً حول مائدة طويلة. وتوجهت بكلامها إلى نقيب طبيب، عارضة عليه اقتراحها، ففهم قصدها من الكلمات الأولى. وهاكم نص الخطاب كما ألقتته في حلمها: «إني وكثيرات من نساء فيينا وفتياتها على استعداد.. للجنود والرجال والضباط بلا تمييز...». وما نطقّت بهذه الكلمات حتى سمعت (في الحلم طبعاً) لغطاً. غير أن تعبير الارتباك والخبث الذي ارتسم على وجوه الضباط بالتناوب أثبت لها أن الحضور كلهم قد فهموا قصدها. ومضت السيدة تقول: «أعرف أن قرارنا قد يبدو لكم غريباً، لكننا نحمله على محمل الجدّ العظيم. فالجندي في ساحة القتال لا يسأل إن كان يريد أن يموت أو لا». وتلا ذلك لحظة صمت شاقة. ثم لقها الطبيب النقيب من خصرها وقال لها: «سيدتي العزيزة، افترضني أننا وصلنا إلى هذا فعلاً..» (لغط). فانتزعت نفسها من ذراعه، قائلة في نفسها إنه رجل كغيره

هوغوشتاين (١٨٧١ - ١٩٢٤). كانت أول من حاول تطبيق المنهج التحليلي النفسي مباشرة على الأطفال. نشرت تحت اسم مستعار عام ١٩١٩ كتاباً أصاب شهرة تحت عنوان *اليوميات التحليلية النفسية لبنت صغيرة*. «م».

من الرجال، ثم أجابت: «رباه، إنني امرأة عجوز، وقد لا أجد نفسي أبداً في هذه الحال. على أنه لا بدّ من مراعاة شرط: فالعمر ينبغي أن يحسب حسابه، وليس يجوز لمراة مسنة وفتى يافع أن .. (لغظ)، فسيكون ذلك فظيعة». عندئذ قال الطبيب النقيب: «إنني أفهمك تماماً». فانفجر بعض الضباط، ومنهم ضابط كان قد غازلها في شبابه، ضاحكين. وهنا أعربت السيدة عن رغبتها في أن يرشدوها إلى كبير الأطباء الذي تعرفه، ليضع الأمور في نصابها. لكنها لاحظت، على دهشة عظيمة منها، أنها تجهل اسم هذا الطبيب. ومع ذلك دلّها الطبيب النقيب بكل تهذيب واحترام إلى سلّم حديدي، ضيق وحلزوني، يفضي إلى الطوابق العليا، وأوصاها بأن تصعد إلى الطابق الثاني. وفيما هي تهتمّ بالصعود سمعت ضابطاً يقول: «إنه لقرار عظيم، سواء أكانت المرأة صبية أم عجوزاً. كل احترامي لها!». ومضت ترتقي سلماً لا نهاية له، وكلها شعور بأنها تؤدي واجباً.

«وتكرر الحلم نفسه مرتين في غضون بضعة أسابيع، مصحوباً بتعديلات عديدة الأهمية ولا معنى لها على الإطلاق (في تقدير صاحبة الحلم)».

إن هذا الحلم يتوالى مجراه كأنه أنحولة من الأنحولات النهارية، وهو في جملته متصل، لا انقطاع فيه إلا فيما ندر، كما أن الكثير من تفاصيل مضمونه كان يمكن توضيحها في حال الاستعلام عنها، ولكن ذلك، كما تعلمون، لم يحدث. على أن أهمّ ما في هذا الحلم بالنسبة إلينا احتواؤه على بعض الفجوات، لا في تذكره، بل في مضمونه. ففي ثلاثة مواضع يبدو المضمون وكأنه استنفد، إذ يقطع لغظ في كل مرة خطاب السيدة. وبالنظر إلى أن هذا الحلم لن يخضع لأي تحليل، فليس يحقّ لنا أن نبدي رأياً في دلالاته. غير أن هناك إلماعات وإشارات، كتلك المتضمنة في عبارة خدمات الحب، تبيح لنا الخلوص إلى بعض الاستنتاجات. ثم إن أجزاء الخطاب التي تسبق اللغظ مباشرة تحتاج إلى أن تُكمل، وهذا ما لا يستقيم فعله إلا في اتجاه محدد واحد. فإذا قمنا باستكمال النواقص على نحو ما هو واجب، لاحظنا أن الحاملة تبدي استعدادها، بغية أداء واجبها الوطني، لوضع شخصها في تصرف العساكر والضباط لتلبية حاجاتهم الجنسية. وهذه بلا شك فكرة داعرة، نموذج لخيال شيق جريء، ولكن الحلم لا

يفصح عن هذه الفكرة ولا عن هذا الخيال. وكل ما هنالك أنه حيثما يقتضي السياق الإدلاء بهذا الاعتراف، ينوب منابه في الحلم الظاهر فقط لغط مبهم، فكأنه مُحي أو حُذف.

أنتم تشبهون في أرجح الظن بأن فحش هذه المقاطع هو ما استدعى حذفها، فأين تجدون شيئاً لهذا النهج؟ ليس عليكم، في أيامنا هذه^(٢)، أن تعملوا فكركم كثيراً. حسبكم أن تفتحوا أي جريدة سياسية فتجدوا النص هنا أو هناك مقطوعاً، وقد بدا مكانه بياض الورق. وأنتم تعلمون أن ذلك تمّ تنفيذاً لأمر الرقابة. فهذه المساحات البيض كانت ستملوها ولا بدّ مقاطع لم تحظَ برضى سلطات الرقابة العليا، فأمرت بحذفها. وستقولون بينكم وبين أنفسكم إن الأمر يدعو إلى الأسف، إذ لا بدّ أن تكون المقاطع المحذوفة أهمها وأفضلها إطلاقاً.

وفي أحوال أخرى لا يظهر أثر الرقابة في حذف مقاطع كاملة: إذ قد يقدر الكاتب أن بعض المقاطع ستقابل في الرقابة بـ «فيتو»، فيبادر إلى تخفيفها سلفاً، ويجري فيها تعديلاً طفيفاً، أو يكفي بالتلميح والإشارة من بعيد إلى ما كان يهيم بكتابته فعلاً. ولا تصدر الصحيفة هذه المرة وفيها فراغات بيض، غير أن بعض التوريات والجميل التي فيها شيء من الوعورة من شأنها أن تميط لكم المثال بسهولة عن الجهود التي تبذلها الكاتب ليتفادى الرقابة الرسمية، مستعيضاً عنها برقابة ذاتية مسبقة.

فلنتمسك إذاً بهذا التشبيه. قلنا إن المقاطع المغفلة أو المموهة باللغظ من خطاب السيدة صاحبة الحلم كانت هي أيضاً ضحية نوع من الرقابة. ونحن نتحدث مباشرة عن رقابة الحلم ونعزو إليها دوراً في تحريف الأحلام. وكلما تبدّت في الحلم الظاهر فجوات، تعيّن إلقاء التبعة في ذلك على تدخل رقابة الحلم. بل يسعنا أن نذهب إلى أبعد من هذا فنقول إنه كلما التقينا في الحلم بعنصر واهن الضعيف، ملتبس، يكتنفه الشك، بينما الذكريات التي يتركها غيره من العناصر واضحة جلية متميزة، تعيّن علينا أن نسلّم بأن هذا العنصر قد

٢ - نذكرُ القراء بأن هذه المحاضرات قد أُلقيت أثناء الحرب العالمية الأولى. «م».



تعرّض لمفعول الرقابة. لكن يندر أن تتظاهر الرقابة على ذلك النحو السافر، بل الساذج - إن جاز القول - الذي تظاهرت به في حلم تلك السيدة. فالأغلب أن تمارس دورها بالكيفية الثانية، بأن تفرض على الفكرة الحقيقية تخفيفاً وتحويراً وتلميحاً.

وتمارس رقابة الأحلام دورها بكيفية ثالثة لا أجد شبيهاً لها في مضمار رقابة الصحافة، غير أنه بوسعي التمثيل لكم على هذه الكيفية بمثال مقتبس من الحلم الوحيد الذي قمنا بتحليله حتى الآن. فأنتم تذكرون ولا ريب الحلم الذي ظهرت فيه «ثلاث تذاكر مسرح غير مناسبة بفلوران ونصف». ففي الأفكار الكامنة لهذا الحلم، احتل مكانة الصدارة عنصر «التبكير والتعجل»: فقد كان يُبدأ عن المنطق الزواج مبكراً، وكان من الخلف أيضاً ابتياع تذاكر المسرحية مقدماً وقبل العرض بوقت طويل، وكان من السخف أن **تتعجل** أخت الزوج بإنفاق المال لشراء حلية. على أن هذا العنصر المركزي في أفكار الحلم لم يتسرب منه شيء إلى الحلم الظاهر الذي يتمحور فيه كل شيء حول الذهاب إلى المسرح وقطع التذاكر. وبنتيجة هذه الإزاحة لمركز الثقل، وإعادة التجميع هذه لعناصر المحتوى، بُعد الشبه بين الحلم الظاهر والحلم الكامن بعداً تعدّر معه استشفاف الأفكار الكامنة من خلال المضمون الظاهر. وهذه الإزاحة لمركز الثقل هي واحدة من الوسائل الرئيسية التي تُعتمد في تحريف الأحلام، فهي التي تضيف على الحلم ذلك الطابع الغريب العجيب الذي يجعله يبدو في نظر حامله بالذات وكأنه ليس من نتاجه.

الإغفال، التحوير، إعادة تجميع المواد، تدكم هي إذاً مفاعيل الرقابة ووسائل تحريف الأحلام. والرقابة نفسها هي العلة الرئيسية أو إحدى العلل الرئيسية لتحريف الأحلام الذي هو موضع اهتمامنا هنا. أما التحوير وإعادة التجميع فقد درجت بنا العادة على اعتبارهما أيضاً وسيلتين من وسائل «الإزاحة».

بعد هذه الملاحظات عن مفاعيل رقابة الأحلام ونتائجها، لننظر الآن في دينامييتها. وأرجو ألا تأخذوا اصطلاح الرقابة على معنى تجسيمي^(٣) أكثر مما

٣ - التجسيم هنا Anthropomorphisme: خلع صفات جسم الإنسان على شيء من الأشياء، وهو عند الفلاسفة التشبيه، أي خلع الصفات البشرية على الله. «م».

ينبغي، فتتصوروا رقيب الحلم في صورة قزم صارم أو غفريت يسكن في إحدى مقصورات الدماغ، ومنها يمارس وظيفته. كما أرجو ألا تعطوا هذه الكلمة معنى «موضوعياً» أكثر مما يجب، فيذهب بكم الفكر إلى مركز مخّي تصدر عنه الأوامر الرقابية، فإذا ما تلف هذا المركز أو أُسْتُؤصل انتفت الرقابة. بل أولى بنا أن نعتبر هذه الكلمة مصطلحاً مناسباً يشير إلى علاقة دينامية. وهذا لا يمنعنا البتة من أن نتساءل عن طبيعة الميول التي تمارس بها الرقابة ووظيفتها، وكذلك عن طبيعة الميول التي تمارس عليها نفوذها، ولن يدهشنا أن نعلم أننا التقينا برقابة الأحلام من قبل، وإن لم نغظن إليها من الجائز.

بالفعل، هذا ما حدث. تذكروا تلك المشاهد المدهشة التي عايتها حين بدأنا بتطبيق تقنية التداعي الحر. فقد شعرنا آنئذ بمقاومة تعترض جهودنا في محاولتنا الاهتمام إلى العنصر اللاشعوري الذي يقوم عنصر الحلم بديلاً له. وقلنا إن هذه المقاومة قد تتفاوت شدة؛ فقد تكون تارة على درجة جامحة من القوة، وطوراً على درجة واهنة كل الوهن. وفي هذه الحالة الأخيرة لا يتعين على عملنا التأويلي إلا أن يقطع بعض الأشواط القليلة. أما إذا كانت شدة المقاومة كبيرة، فلا مفر من أن نرسم، بدءاً من عنصر الحلم، سلسلة طويلة من التداعيات تبعدنا عنه كثيراً، ولا مناص لنا، ونحن نسلك هذا السبيل، من أن ندلل جميع الصعاب والعقبات التي قد تأخذ شكل اعتراضات نقدية على الأفكار التي تتوارد بصدد الحلم. وما تلبس خلال عملنا التأويلي شكل مقاومة يؤلف في الحقيقة جزءاً من عمل صياغة الحلم، على اعتبار أن المقاومة المشار إليها ما هي إلا مفعول الرقابة الفاعلة فعلها في الحلم. وهكذا نرى أن الرقابة لا تحصر وظيفتها بإحداث تحريف في الحلم، بل توالي عملها بصورة دائمة ومتواصلة للحفاظ على التحريف الحادث وصونه. وبالأصل، وكما أن المقاومة التي ارتطمنا بها أثناء التأويل كانت تتفاوت شدة من عنصر إلى آخر، كذلك إن التحريف الذي تحدثه الرقابة يختلف هو أيضاً في الحلم الواحد من عنصر إلى آخر. ولو أجرينا مقارنة بين الحلم الظاهر والحلم الكامن، للاحظنا أن بعض العناصر الكامنة قد نُحِيت بصورة كاملة، بينما طُرأت على غيرها تحويرات

متفاوتة الأهمية، على حين أن بعضها الثالث انتقل إلى مضمون الحلم الظاهر من دون أن يطرأ عليه أي تحوير، هذا إن لم يُعزَّر.

لكن كان قصدنا الأول أن نعرف ما الميول التي تفعل الرقابة بواسطتها فعلها، وما الميول التي تمارس عليها مفعولها. وهذا السؤال، الذي هو جوهرى بالنسبة إلى فهم الحلم، وربما أيضاً إلى الحياة الإنسانية بوجه عام، يمكن الإجابة عنه بسهولة إذا ما استعرضنا جملة الأحلام التي أتيح لنا تأويلها. فالميول التي تمارس الرقابة هي تلك التي يعترف الحالم، في معرض تقييمه لها وهو في حالة اليقظة، بأنها ميوله ويشعر بينه وبين نفسه بالرضى عنها. وكونوا على ثقة أنكم حين تأبون المصادقة على تأويل صحيح لحلم من أحلامكم، فإن الدوافع التي تملي عليكم رفضكم هذا هي عينها التي تتحكم بالرقابة وبالتحريف وتجعل التأويل ضرورياً. حسبكم أن تأملوا حلم تلك السيدة التي ناهزت سنّها على الخمسين. فهي تجد حلمها بغيضاً حتى من دون أن تؤوله، ولو كانت السيدة المذكورة ف. هوغ أطلعتها على نزر يسير من المعطيات التي تترتب على تأويل حلمها، لما زادها ذلك إلا امتعاضاً واستنكاراً. أفلا يتعين علينا أن نرى في استبدال المقاطع المنافية للحشمة من الحلم بلغط ضرباً من الإدانة لهذه العناصر؟

أما الميول التي تطالها رقابة الأحلام فمن الواجب أن توصف قبل كل شيء من منظور السلطة النقدية المتمثلة بالرقابة. وعندئذ يسعنا القول إنها ميول مستهجنة، غير محتشمة، من وجهة النظر الأخلاقية والجمالية والاجتماعية، وإنها أشياء لا يجزئ المرء على التفكير بها أو لا يفكر بها إلا مستفظعاً. فهذه الرغبات التي طالتها سلطة الرقابة والتي تتلقى في الحلم تعبيراً محرفاً، هي في المقام الأول تظاهرات لأنانية لا حد لها ولا رادع. وعلى كل، ليس ثمة من حلم لا يقوم فيه أنا الحالم بالدور الرئيسي، وإن عرف كيف يتنكر جيّد التنكر في المضمون الظاهر. وهذه الأنوية المقدسة *Sacro Egoismo*^(٤)، المتظاهرة في الأحلام،

٤ - الأنوية المقدسة: مصطلح سوسولوجي اعتمدته المجتمعات الغربية إثر الثورات الليبرالية للإشارة إلى أن الفرد، أو بتعبير أدق أنا الفرد، هو وحده المسؤول، وليس الكنيسة، عن التفسير اللاهوتي للدين، وذلك بعكس ما يذهب إليه الكهنوت المقدس. «م».

ليست، بكل تأكيد، منقطعة الصلة بميلنا إلى النوم، وهو الميل الذي يتجلى في فك الارتباط بالعالم الخارجي وبكل اهتمام به.

ومتى ما تحلل الأنا من كل قيد أخلاقي أسلس قياده لجميع المطالب الغريزية الجنسية، تلك التي أدانتها تربيتنا الجمالية منذ أمد بعيد، وتلك التي تتعارض مع جميع قواعد التقيد الأخلاقي. ويختار الليبيدو^(٥) - وهو الاسم الذي نطلقه على طلب اللذة والتماسها - مواضيعه من دون أن يلاقي أية مقاومة، ويختار في المقام الأول المواضيع المحرمة المحظورة؛ فهو لا يختار امرأة الغير فحسب، بل كذلك المواضيع التي أجمعت الإنسانية على إسباغ طابع حرمي عليها: فالرجل يشتهي أمه وأخته، والمرأة تشتهي أباه وأخاه (إن حلم السيدة الخمسينية ينطوي، هو الآخر، على استباحة للمحارم، إذ إن الليبيدو عندها منصب بلا جدال على ابنها). وحتى الرغبات التي نعدها مجافية للطبيعة البشرية تدلل على قوة كافية لاستثارة الأحلام. ففي الحلم تنطلق الكراهية من عقالها. كما أن شهوة الانتقام وتمني الموت لأشخاص هم أعزّ الناس علينا وأحبّهم إلينا في الحياة، من آباء وأمهات وإخوة وأخوات وأزواج وأبناء، لا يندر تظاهرها في الأحلام. وهذه الرغبات الخاضعة للرقابة تبدو وكأنها تنبعث من جحيم حقيقي، والتأويل الذي نجريه في حالة اليقظة يثبت أن كل رقابة، مهما اشتدت، لا تكفي لقمع تلك الرغبات.

لكن حذارٍ من أن تتخذوا من هذا المضمون الخبيث ذريعة للتشنيع على الحلم بحدّ ذاته. إذ هل لكم الآن أن تنسوا أن الحلم يؤدي وظيفة بريئة، بل نافعة، وهي حماية النوم من كل أسباب الإقلاق والتعكير؟ وهذا الخبث ليس لصيقاً بطبيعة الحلم بالذات، فأنتم لا تجهلون أن هناك أحلاماً تدور على إشباع رغبات مشروعة وحاجات عضوية ملحة. والأحلام الأخيرة لا تتعرض لأي تحريف، فهي ليست

٥ - الليبيدو Libido: كلمة لاتينية الأصل، وتعني الرغبة والشهوة والشهية والمتعة والنزوة والهوى والحاجة الطبيعية، إلخ. ويقول فرويد إنه اقتبس هذا المصطلح من آ. مول، وقد استخدمه لأول مرة سنة ١٨٩٤. وقد وسّع يونغ، المنشق عنه، معنى الليبيدو، فصار عنده الطاقة الحيوية أو النفسية بوجه عام.



بحاجة إليه، إذ يسعها أداء وظيفتها دونما مساس على الإطلاق بالنزعات الأخلاقية والميول الجمالية للأنا. واعلموا أيضاً أن تحريف الحلم يتم بدالة عاملين. فهو يشتد كلما كانت الرغبة المطلوب إخضاعها للرقابة أدعى إلى الاستهجان والاستنكار، وكلما كانت متطلبات الرقابة في ظرف معين أشد صرامة. لذا، إن الفتاة الصغيرة الحسنة التربية، الشديدة الحفر، لن تحجم عن تحريف الإغراءات التي تساورها في الحلم، فتفرض عليها رقابة غير مشفقة، مع أن هذه الإغراءات تبدو لنا نحن الأطباء رغبات لبيدوية غير ضارة، وستبدى على هذه الصورة للحاملة نفسها بعد أن تكون تقدمت في السن عشر سنوات.

ومهما يكن من أمر، فليس لدينا أي سبب كافٍ لنسخط على هذه النتيجة التي أوصلنا إليها عملنا التأويلي. وأعتقد أننا لم نفهمها بعد حقّ الفهم، ولكن يتعين علينا مع ذلك أن نذود عنها ونردّ عنها بعض الانتقادات والاعتراضات. وليس من العسير أن نجد فيها نقاط ضعف. فقد أجرينا تأويلنا للأحلام على أساس عدد من الفروض، ومنها أن للحلم بوجه عام معنى، وأن النوم الطبيعي تجري فيه سيرويات نفسية لاشعورية ماثلة لتلك التي تتظاهر في النوم المغنطيسي، وأن جميع الخواطر التي تتوارد إلى الذهن بصدد الأحلام هي مسبقة التعيين. ولو كنا انتهينا، انطلاقاً من هذه الفروض، إلى نتائج مقبولة معقولة في تأويلنا للأحلام، لكان حقّ لنا أن نستنتج أن الفروض إياها صحيحة وتستجيب لواقع الأشياء. أما وقد انتهينا إلى النتائج التي انتهينا إليها، فقد ينزع أكثر من واحد منا إلى أن يقول: ما دامت هذه النتائج عجيبة، لامعقولة، وعلى كل حال بعيدة الاحتمال، فإن الفروض التي بُنيت على أساسها لا يمكن إلا أن تكون خاطئة. فإما أن الحلم ليس بظاهرة نفسية، وإما أن الحالة الطبيعية لا تنطوي على أية سيروية لاشعورية، وإما أن تقنيّتك أخيراً تشكو من عيب ما. أفليست هذه الاستنتاجات أبسط وأبعث على الرضى من كل تلك البشاعات التي تزعم أنك اكتشفتها انطلاقاً من فرضياتك؟

إنها بالفعل أبسط وأبعث على الرضى، لكن لا يترتب على ذلك أنها أكثر صحة.

صبراً: فالمسألة لما تنضج بعد للحكم عليها. وقبل أن تنصدي لمثل هذه المحاكمة لا يسعنا إلا أن نعزز النقد الموجّه إلى تأويلنا للأحلام ونعضده. أما أن نتائج هذه التأويل لا تقع في النفس موضع رضا واستساعة، فهذا ما لا نأبه له كثيراً. لكن ثمة حجة أرجح وزناً وأوجه، وهي أن الحالمين الذين نكاشفهم بال رغبات والنزعات التي نستخلصها من تأويل أحلامهم ينكرون هذه الرغبات والنزعات بكل ما أوتوا من قوة وبالأستناد إلى أسباب معقولة. فهوذا أحدهم يقول: «كيف؟ أتريد أن تثبت لي من حلمي أنني أسف على ما أنفقته من مال في بائنة أختي وتربية أخي؟ لكن هذا محال، فأنا لا أعمل وأكّد إلا من أجل أسرتي، ولا همّ لي في الحياة غير القيام بواجبي نحوها، مثلما كنت وعدت أُمي المسكينة بصفتي بكر أولادها». وهاكم أيضاً حاملة تعترض علينا بالقول: «أُتجرؤ على الزعم بأنني أتمنى موت زوجي؟ لكن هذا سخف يبعث على الاشمئزاز! لن أقول لك فقط إن حياتنا المشتركة من أسعد ما يمكن أن تكون الحياة بين زوجين، بل سأضيف القول، حتى وإن لم تصدّقني، أنه لو مات لفقدت كل ما أملك في هذا العالم». وقد يعترض علينا ثالث بقوله: «أُتجرؤ أن تعزو إليّ شهوة جنسية نحو أختي؟ لكن ما أسخف ما تدّعيه، فهي لا تعني لي شيئاً، وليس بيننا من ودّ موصول، ومنذ سنوات وسنوات لم تتبادل كلمة واحدة». وليت أن هؤلاء الحالمين يقنعون بعدم الاعتراف بالميل التي نعزوها إليهم أو بنفيها وإنكارها، إذ كنا سنقول في هذه الحال إنها بالضبط النزعات التي هم بها جاهلون. لكن الأمر يسقط في أيدينا عندما يزعمون، بالإضافة إلى ذلك، أنه تساورهم رغبات معاكسة تماماً لتلك التي نعزوها إليهم بدالة أحلامهم، وأنهم قادرون على أن يبرهنوا لنا على غلبة هذه الرغبات المعاكسة في كل مجرى حياتهم. ترى ألم يحزن الحين للزوف مرة واحدة ونهائية عن كل مجهودنا التأويلي بعد أن أسلمتنا نتائجه إلى برهان الخلف هذا Ad Absurdum^(٦)؟

٦ - في المنطق ضرب من الاستدلال يقوم على البرهان على صحة قضية ما عن طريق إثبات خُلف القضية النقيضة لها. «م»

كلا، لم يحزن بعد. فهذه الحجة، رغم قوتها الراجحة ظاهرياً، لن تصمد، شأنها في ذلك شأن الحجج الأخرى، أمام نقدنا. فالقول بوجود ميول لاشعورية في الحياة النفسية لا ينقضه وجود ميول معاكسة في الحياة الشعورية. فلربما اتسع مجال الحياة النفسية لميول متضادة، لمتناقضات تقوم جنباً إلى جنب، ومن الممكن أن يكون رجحان ميل من الميول هو الشرط لكبت الميل المضاد له في اللاشعور. لكن يبقى بعدُ الاعتراضُ القائل بأن نتائج تأويل الأحلام ليست بالبسيطة ولا بالمشجعة. وأما فيما يتصل بالبساطة، فسألقت انتباهكم إلى أنها ليست مما يمكن أن يعوّل عليه في حلّ المشكلات المتعلقة بالأحلام، إذ إن كل مشكلة من هذه المشكلات تضعنا من البدء في مواجهة علاقات معقدة. وأما عن الطابع غير المشجع لتتائجنا، فلا بدّ لي من مصارحتكم بأنكم تخطئون فيما لو اتخذتم من مشاعر التواء أو النفور هادياً لكم في أحكامكم العلمية. أتبدو لكم نتائج تأويل الأحلام غير مستساغة، بله مخجلة ومنكرة؟ لكن ما أهمية ذلك؟ لقد سمعت مرة أستاذي شاركو^(٧)، وأنا لا أزال طبيعاً ناشئاً أحضر عروضه السريرية، يقول في حالة مشابهة: «هذا لا يحول دون وجود الأشياء»^(٨). فلا بدّ أن نلزم جانب التواضع، ونكبح مشاعر التعاطف أو النفور، إن كنا نبغي معرفة واقع أشياء هذا العالم. فلو أثبت لكم أحد علماء الفيزياء أن الحياة العضوية ستنتطفئ جذوتها فوق الأرض في أجل غير بعيد، فهل يفكر أحدكم بالردّ عليه: «كلا، هذا غير ممكن، فهذا المنظور ليس مشجعاً كثيراً؟» أعتقد بالأحرى أنكم ستلزمون الصمت، إلى أن يفلح عالم فيزيائي آخر في إقامة البرهان على أن استنتاج العالم الأول يستند إلى فروض خاطئة أو حسابات مغلوطة. ولو أعرضتم عما لا تستسيغونه، تكونون قد كررت آلية تكوين الأحلام، بدل أن تسعوا إلى فهمها والسيطرة عليها.

قد تعقدون العزم على التغاضي عن الطابع المستكره للربغبات التي تطالها يد

٧ - جان مارتين شاركو: طبيب أعصاب فرنسي (١٨٢٥ - ١٨٩٣). كان من أوائل من لجأ إلى التنويم المغناطيسي والإيحاء في معالجة الأمراض النفسية. درس عليه فرويد سنة ١٨٩٥، وترجم محاضراته. «م»

٨ - بالفرنسية في النص. والعبارة بنصها الكامل كما هو منسوب إلى شاركو: «النظرية شيء جيد، ولكنها لا تحول دون وجود الأشياء». «م».

الرقابة في الأحلام لتأخذوا بالمقابل بالحجة القائلة إنه لأمر بعيد الاحتمال أن يشغل الشر مثل هذا الحيز الواسع في جبلة الإنسان. لكن هل تبيح لكم تجاربكم وخبراتكم الخاصة اللجوء إلى هذه الحجة؟ أنا لا أتكلم عما يمكن أن يكون لكم من رأي في أنفسكم، ولكن هل أظهر رؤساؤكم ومنافسوكم نحوكم قدراً كبيراً من الرفق وحسن الالتفات، وهل دلت أعداؤكم حيالكم على قدر كافٍ من المروءة والشهامة، وهل لاحظتم لدى من يحيط بكم من الناس محض قدر ضئيل من الغيرة والحسد، حتى يترأى لكم أنه من واجبك أن تحتجوا على ما نعرّوه إلى الطبيعة البشرية من الشر الأناني؟ أيعيب عنكم كم يعجز سواد البشرية عن كبح جماح أهوائه في كل ما يتصل بالحياة الجنسية؟ أم لعلمكم تجهلون أن كل ضروب الشطط وكل أنواع الفجور والفسق التي نراها ليلاً في منامنا ترتكب يومياً (وكثيراً ما تنحطّ إلى جرائم) من قبل الناس وهم في حالة البقطة؟ وهل يفعل التحليل النفسي من شيء سوى أنه يؤكد تلك الحكمة القديمة التي نطق بها أفلاطون والتي مؤداها أن خيار الناس هم من يقنعون بأن يروا في أحلامهم ما يفعله أشرارهم في الواقع؟^(٩).

والآن لندع ما هو فردي ولننظر إلى هذه الحرب الضروس التي اجتاحت أوروبا، ولنستذكر ما جلبته على العالم المتحضر من وحشية وهمجية وفظائع. أعتقدون أن حفنة من أصحاب المطامح ومن المحرضين والقادة الذين لا يردعهم وازع من ضمير كانت تكفي لإطلاق كل هذه الشرور من قمقمها لولا مشاركة الملايين من المقودين وتواطئهم؟ وهل تجرؤون، حتى في هذه الظروف، أن تحطّموا ولو حربة واحدة في سبيل طرد الشر من جبلة الإنسان النفسية؟

قد تردّون عليّ بأنني أصدر على الحرب حكماً من طرف واحد، وأن الحرب قد جلت أيضاً عن كل ما في الإنسان من جمال ونبل: البطولة، روح التضحية، الحس الاجتماعي. لا شك في ذلك؛ لكن أرجو ألا تقعوا في خطأ من أجحف بحق التحليل النفسي حين غاب عليه أنه ينكر شيئاً مجرد أنه يؤكد شيئاً آخر.

٩ - عبارة مستقاة في أرجع التقدير من الكتاب التاسع من جمهورية أفلاطون. هامش الترجمة الفرنسية.

فهيئات أن يكون في تبتنا أن نكر التزعات والميول النبيلة للطبيعة البشرية، ونحن لم نأت قط شيئاً من شأنه أن يحط من قيمتها. بل على العكس: فأنا لا أحدثكم فقط عن الرغبات الخبيثة التي تطالها يد الرقابة في الحلم، بل كذلك عن الرقابة نفسها، وهي التي تلجم هذه الرغبات وتنكرها حتى لا يعود في المستطاع معرفها. ولئن ألحنا على ما هو شر في الإنسان، فذلك فقط لأن غيرنا ينكرونه، وهم بذلك لا يجعلون الطبيعة البشرية أحسن مما هي عليه، بل يحكمون عليها فقط بأن تبقى لامفهومة. وإنما بإعراضنا عن التقييم الأخلاقي الأحادي الجانب تسنح لنا الفرصة لنظفر بالصيغة التي تعبّر بصحة ودقة عن العلاقات القائمة بين ما هو صالح وما هو طالح في الطبيعة البشرية.

لنكتف بهذا القدر هنا. فحتى إن بدت لنا نتائج عملنا في تأويل الأحلام غريبة، فليس يجوز لنا أن نهملها ونغسل أيدينا منها. ولعله سيتاح لنا فيما بعد أن نقرب من فهمها عن طريق آخر. أما الآن فحسبنا أن نتمسك بما يلي: إن تحريف الحلم هو نتيجة للرقابة التي تمارسها ميول الأنا المقبول بها على الميول والرغبات المعيبة التي تستيقظ فينا ليلاً، أثناء نومنا. لم تولد هذه الرغبات والميول ليلاً، وما مصدرها؟ هذا السؤال يبقى مفتوحاً وينتظر أبحاثاً جديدة.

لكننا لن نكون من المنصفين إذا لم ننوّه بلا تأخير بنتيجة أخرى من نتائج بحثنا. فالرغبات التي تنبعث في أحلامنا وترتق نومنا مجهولة منا، ولا نعلم بوجودها إلا غبّ تأويل الحلم. من الممكن إذاً أن نصفها وقتياً بأنها لاواعية بالمعنى المألوف للكلمة. غير أنه يتعيّن علينا أن نقول إنها أكثر من لاواعية وقتياً. فالحالم ينكرها، كما رأينا في الكثير من الحالات، حتى ولو أطاق التأويل اللثام عنها وأظهرها. وهنا يواجهنا موقف مماثل لذلك الذي قام عند تأويلنا فلتة لسان الخطيب: «أدعوكم إلى شرب شخب رئيسنا»^(١)، إذ راح هذا الأخير يؤكد ويجزم لنا حانقاً مستنكراً أنه لا يساوره ولم يساوره قط شعور بالامتهان والكره نحو رئيسه. وقد شككنا وقتئذ في صحة توكيده هذا، واكتفين بأن نفترض بأن

الخطيب قد لا يكون واعياً لوجود هذا الشعور في باطن نفسه. ويتكرر هذا الموقف عينه كلما أؤلنا حلماً على جانب كبير من التحريف، مما لا يزيده إلا أهمية بالنسبة إلى نظريتنا. وعليه، نحن على أتم الاستعداد للتسليم بوجود سيرورات وميول ونزعات في الحياة النفسية نُجهل كل شيء عنها عادة، ولا نعرف عنها شيئاً منذ زمن بعيد، بل لعلنا لم نعرف شيئاً ما عنها يوماً على الإطلاق. وترتيباً على ذلك، يكتسي اللاشعور في نظرنا بمعنى جديد: فصفة «الراهنية» أو «الوقتيّة» لا تعود من صفاته الجوهرية؛ فاللاشعور قد يكون لاشعورياً بصفة دائمة، وليس فقط على سبيل «الكمون الوقتي». وغني عن البيان أن لنا إلى هذه النقطة عودة، وبمزيد من التفصيل.

المحاضرة العاشرة

الرمزية في الحلم

سيداتي سادتي، رأينا أن التحريف الذي يحول بيننا وبين فهم الحلم هو نتيجة للرقابة التي تمارس نشاطها ضد الرغبات اللامقبولة، اللاشعورية. لكننا لم نؤكد بطبيعة الحال أن الرقابة هي العامل الوحيد المسبب للتحريف؛ والتعمق في دراسة الحلم يتيح لنا بالفعل أن نعاين أن ثمة عوامل أخرى تساهم، إلى جانب الرقابة، في إنتاج هذه الظاهرة. ولهذا قلنا إنه حتى على فرض أن الرقابة ألغيت تماماً، فإن ذلك لا يسهّل البتة فهمنا للحلم، ولا تترتب عليه زيادة في تطابق الحلم الظاهر مع أفكار الحلم الكامنة.

ولن يتسنى لنا أن نكتشف هذه العوامل الأخرى التي تسهم في تحريف الأحلام وفي زيادة غموضها غموضاً ما لم ننتبه إلى وجود ثغرة في تقنيتنا التأويلية. فقد كنت وافقكم على أن عناصر بعينها من الحلم قد لا توظف أحياناً لدى الأشخاص الذين هم قيد التحليل أي خاطر أو فكرة. صحيح أن هذه الواقعة أقل تواتراً مما يدعيه هؤلاء المحللون؛ ففي أحوال كثيرة نستطيع بالحافنا ومنابرتنا أن نجعل الخواطر والأفكار تتداعي. ولكن هذا لا يمنع أن التداعي ينضب معينه في بعض الأحوال نضوباً تاماً، وإن قسرناه على الاشتغال قسراً لم يعط من النتائج ما كنا نتوقعه. فإذا حدث شيء من هذا القبيل أثناء المعالجة التحليلية النفسية، كانت له دلالة خاصة ليس هنا مجال بحثها. لكن ذلك قد يحدث أيضاً عند تأويلنا أحلام الأشخاص الأسوياء أو أحلامنا نحن. وفي مثل هذه الأحوال، وعندما يثبت لنا أن أي إلحاح لا يجدي فتيلاً، ننتهي إلى أن نكتشف أن هذا الحادث غير المرغوب فيه يطرد وقوعه وتواتر متى ما كنا بصدد عناصر معينة من الحلم. وعندئذ ندرك أن مرّة

ذلك ليس إلى نقص عارض أو استثنائي في تقنيتنا، وإنما هي ظاهرة محكومة بقوانين معيَّنة.

وحيال هذه الظاهرة قد يشتدّ بنا الميل إلى أن نقوم بأنفسنا بتأويل هذه العناصر «الخرساء» من الحلم، وأن نحاول ترجمتها بوسائلنا الخاصة. وهنا يساورنا انطباع، كلما لجأنا إلى مثل هذا التأويل، بأننا نظفر بمعنى مقنع وباعث على الرضى، على حين يبقى الحلم غفلاً من المعنى ومهلهلاً ما لم يقر قرارنا على سلوك هذا النهج. وكلما شمل عملنا عدداً أكبر فأكبر من الحالات، بشرط أن تكون متشابهة، تحررت محاولتنا من التردد والوجل، وازدادت وثوقاً وإقداماً.

إن ما أعرضه عليكم لا يخلو من تبسيط، لكن النهج التعليمي يبيح هذا الأسلوب في العرض ما دام ييسّط الموضوع من دون أن يحزّفه.

فإن سلكنا هذا المسلك توفرت لنا، بصدد طائفة من عناصر الأحلام، ترجمات دائمة ثابتة، شبيهة بتلك تعطيها كتب «مفاتيح المنامات» الشعبية لجميع الأشياء التي تُرى في الأحلام. وأمل، بالمناسبة، ألا تكونوا قد نسيتم أننا لا نتوصل أبداً، بالاعتماد على تقنية التداعي، إلى ترجمات دائمة ثابتة لعناصر الأحلام.

ستقولون لي هنا إن طريقة التأويل هذه تبدو لكم أبعد عن اليقين وأكثر عرضة للنقد من طريقة التداعي الحرّ للخواطر والأفكار. لكن هنا يتدخل عنصر آخر. فحين نفلح، بعد تجارب مكررة، في جمع عدد كافٍ من تلك الترجمات الدائمة الثابتة، يتضح لنا أن مثل هذه التأويلات كان يمكن لنا أن نظفر بها بالاستناد فقط إلى ما لدينا من وسائل خاصة، وأننا ما كنا بحاجة، كيما نفهمها، إلى اللجوء إلى ذكريات الحالم وخواطره العارضة. وسرى في النصف الثاني من محاضرتنا هذه من أين نستقي معرفتنا بدلالاتها.

هذه العلاقة الدائمة الثابتة بين عنصر بعينه من الحلم وبين ترجمته نصفها بأنها رمزية، كما نتعت هذا العنصر نفسه بأنه رمز لفكرة الحلم اللاشعورية. وأنتم تذكرون ولا ريب أننا حين قمنا آنفاً بفحص العلاقات بين عناصر الحلم وبين ركائزها، قررنا أن علاقة عنصر الحلم بركيزته يمكن أن تكون كعلاقة الجزء

بالكل، كما قد تكون علاقة تلميح والماع، أو أخيراً علاقة تمثيل بالصور. وعلاوة على هذه الأنواع الثلاثة من العلاقات، أشرت إذاك إلى علاقة رابعة من دون أن أسمّيها. تلك كانت بالتحديد العلاقة الرمزية التي نحن بصدد البحث فيها الآن. إلا أننا قبل أن نمضي في عرض ملاحظتنا بصدد الرمزية في الأحلام، لا بدّ أن نتوقف عند بعض نواحي العلاقة الرمزية بحدّ ذاتها، وهي نواح جديرة بالنقاش ومثيرة للاهتمام جداً. والحق أن الرمزية قد تكون أبرز الفصول وألفتها للانتباه في نظرية الحلم.

لنذكر قبل كل شيء أن الرموز، بصفقتها ترجمة دائمة ثابتة، تحقق إلى حدّ ما المثل الأعلى للتفسير الشعبي والقديم للأحلام، وهو المثل الأعلى الذي نأت عنه تقنيّتنا نأياً كبيراً.

تتيح لنا الرموز في بعض الظروف أن نؤوّل حلماً من الأحلام من دون أن نستجوب صاحب الحلم الذي لا يملك على كل حال أن يضيف شيئاً إلى الرمز. فحين نكون على معرفة بالرموز المألوفة في الأحلام، وبشخصية صاحب الحلم، وبالظروف التي يعيش في ظلها، وبالانطباعات التي كان الحلم عاقبتها، فكثيراً ما نقدر على تأويل الحلم بدون أية صعوبة، وعلى ترجمته وكأننا نقرأ في كتاب مفتوح. وبراعة كهذه من شأنها أن تدغدغ غرور المؤوّل وأن تبهر الحالم، كما أنها تشكل بديلاً مريحاً عن تلك العملية الشاقة التي تتمثل باستجواب الحالم. لكن حذارٍ أن تغرّكم هذه السهولة. فمهمتنا ليست بهر الناس ببراعتنا. والتقنية التي تركز إلى معرفة الرموز لا تنوب مناب التقنية القائمة على التداعي ولا تغني غناءها. بل كل شأنها أن تكمل هذه الأخيرة وأن تزودها بمعطيات قابلة للاستعمال. أما فيما يتعلق بمعرفة الوضع النفسي للحالم، فاعلموا أن الأحلام التي قد تُدعَوْنَ إلى تأويلها ليست هي على الدوام أحلام أشخاص تعرفونهم معرفة جيدة، واذكروا أنه لا اطلاع لكم بصورة عامة على مجرى الأحداث النهارية التي استثارت الحلم، وأن خواطر الشخص المحلّل وذكرياته هي التي تزودكم بمعرفة ما نسّميه بوضعه النفسي.

إنه لما يلفت النظر فضلاً عن ذلك - وهذا حتى من زاوية بعض الارتباطات

التي سنعرض لها لاحقاً - أن يكون التصور الرمزي للعلاقات بين الحلم واللاشعور قد ارتطم بمقاومة ضارية. بل إن بعض الأشخاص من ذوي التبصر والمسؤولية، ممن لم يقابلوا التحليل النفسي بأي اعتراض مبدئي، أبوا أن يسايروه في هذا السبيل. ومما يزيد في غرابة هذا الموقف أن الرمزية ليست صفة موقوفة على الحلم وحده، وأن اكتشافها ليس من صنع التحليل النفسي الذي لا يمكن أن يُنكر عليه أصلاً فضله في كشف كثيرة مدهشة أخرى. وإذا كنا نصرّ مع ذلك على عزو اكتشاف الرمزية في الأحلام إلى العصور الحديثة، فحريّ بنا أن ننسبه إلى الفيلسوف ك. أ. شرنر (١٨٦١)^(١). وكل ما فعله التحليل النفسي أنه أتى بما يؤيد رؤية شرنر للأمر، وإن يكن قد أدخل عليها تعديلات جوهرية.

لا ريب في أنكم ترغبون الآن في الاطلاع على شيء من طبيعة الرمزية في الأحلام وعلى بعض أمثلة عليها. وسأطلعكم بطيب خاطر على ما أعرفه في هذا الموضوع، لكنني سأحذركم في الوقت نفسه من أن فهمنا لهذه الظاهرة لا يزال دون ما نتمنى.

إن العلاقة الرمزية هي في جوهرها علاقة تشابه. لكن لا يكفي أن يقوم أي تشابه حتى تقوم العلاقة الرمزية بدورها. ونحن لا نجهل أن التشابه يتطلب بعض الشروط، ولكننا لا نستطيع أن نحدد نوع هذه الشروط. فكل ما يمكن أن يفيد في التشابه مع موضوع ما أو حدث ما لا يظهر في الحلم إلا كرمز لهذا الموضوع أو لهذا الحدث. ثم إن الحلم، من جهة أخرى، بدل أن يرمز بلا اختيار، لا يختار لهذا الغرض إلا بعض عناصر من أفكار الحلم الكامنة. وبذلك تكون الرمزية محدودة من كلتا الجهتين. ويتوجب علينا أن نسلم أيضاً بأن تصورنا عن الرمز لم تتعين بعد حدوده بدقة وجلاء، وأنه كثيراً ما يلتبس بمفهوم الإبدال أو التمثيل الكنائي، إلخ، وأنه قد يقترب حتى من مفهوم التلميح. وفي بعض الرموز يكون التشابه الذي تقوم هذه الرموز على أساسه واضحاً جلياً. لكن ثمة رموز أخرى ترغمنا على التساؤل أين ينبغي أن نبحث عن العامل المشترك، عن وجه الشبه في

١ - انظر الهامش رقم (٢) في المحاضرة السادسة. «م».

التشابه المفترض. وقد يتأتى لنا أحياناً في حال إعمال فكرنا أن نكتشف هذا العامل المشترك الذي قد يبقى في أحوال أخرى خبيراً مستتراً. أضف إلى ذلك أن الرمز إن كان تشابهاً، فمن العجب ألا يكشف لنا التداعي عن هذا التشابه، وأن يكون الحالم نفسه جاهلاً به، وأن يستخدمه من دون أن يعرف عنه شيئاً، بل الأعجب ألا يبدي الحالم أي استعداد للاعتراف به إذا ما كشف له. هكذا ترون أن العلاقة الرمزية هي تشابه من نوع خاص لا نزال نجعل أسبابه. وعسى أن نجد فيما بعد بعض دلائل وقرائن فيما يتصل بهذا المجهول.

إن المواضيع والأشياء التي تلقى في الحلم تمثيلاً رمزياً لها ليست كثيرة العدد. ومنها: الجسم البشري في جملته، الوالدان، الأولاد، الإخوة، الأخوات، الولادة، الموت، العري ... وشيء غير ذلك بعدد البيت هو ما يؤلف التمثيل النمطي الوحيد، أي المطرد، لشخص الإنسان في جملته. وهذا ما سبق أن أقرّ به شررن، وأراد أن يعلق عليه أهمية كبرى، عن خطأ في نظرنا. وكثيراً ما يرى الإنسان نفسه في الحلم وهو ينزل فوق واجهات البيوت، فيساوره أثناء هذا الانزلاق شعور يتراوح بين اللذة تارة والحصر طوراً. والبيوت ذات الجدران الملساء ترمز إلى الرجال، بينما البيوت ذات النتوءات والشرفات، مما يمكن التعلق به، ترمز إلى النساء. أما الوالدان فرمزهما الإمبراطور والإمبراطورة، الملك والملكة، أو غيرهما من الشخصيات المبجلة، ولهذا يخيم على الأحلام التي يظهر فيها الوالدان جو من الورع والوقار. وأقل رقة من ذلك الأحلام التي يظهر فيها الأولاد، أو الإخوة والأخوات، إذ تكون رموزهم في هذه الحال صغار الحيوانات والحشرات. وتمثّل الولادة على الدوام تقريباً بحدث عنصره الرئيسي هو الماء: فيرى النائم أنه يلقي بنفسه إلى الماء أو يجهد للخروج منه، أو يرى أنه ينتشل شخصاً من الماء أو أن أحداً غيره ينتشله منه، وبعبارة أخرى تكون العلاقة بين هذا الشخص وبين الحالم علاقة أموية. أما الموت الوشيك فيستبدل في الحلم بالرحيل، أو بسفرة في القطار، كما تمثّل الوفاة الوشيكة بنذر غامضة من الطيرة والشؤم. أما العري فرمزه الملابس أو البنات. من هذا ترون أن الحدود الفاصلة بين كلا نوعي التمثيل، الرمز والتلميح، تكاد تكون معدومة.

فإذا ما انتهينا من هذا التعداد، الأعجف بالأحرى، طرقنا ميداناً آخر تُمثِّل مواضعه ومضامينه برمزية فائقة الغنى والتنوع. إنه مضمار الحياة الجنسية والأعضاء التناسلية والأفعال الجنسية والعلاقات الجنسية. فأغلب الرموز في الحلم رموز جنسية. وهذا ما ينشأ عنه اختلال لافِت للنظر في التناسب. فعلى حين أن المضامين المطلوب التمثيل عليها قليلة العدد، فإن الرموز التي تمثلها كثيرة العدد للغاية، بحيث أن الموضوع الواحد يمكن التعبير عنه برموز كثيرة، متكافئة جميعها تقريباً في القيمة. وهذا ما يهيء لنا، في أثناء عملية التأويل، مفاجأة غير مستحبة. فخلافاً للأفكار الحلمية التي هي على جانب كبير من التنوع، نجد تأويل الرموز رتيبة إلى أقصى حدود الرتابة. وهذه واقعة لا تبهج كل من سنحت له الفرصة لاختبارها. ولكن ما حيلتنا في ذلك؟

بما أنها المرة الأولى التي نتطرق فيها، في هذه المحاضرة، إلى مضامين الحياة الجنسية، أرى لزماً عليّ أن أشرح لكم كيف أزمع أن أعالج هذا الموضوع. فالتحليل النفسي لا يرى من دواعي للكلام عبارات مستورة، أو للاكتفاء بالإشارة والتلميح، ولا يتحرج من معالجة هذا الموضوع الهام، بل يرى من الصواب والسداد تسمية الأشياء بأسمائها، ويقدر أن هذه خير وسيلة لتفادي المقاصد الخفية والأفكار المبيّنة التي ليس من شأنها إلا البلبلة والتشويش. ولن يغير شيئاً في المسألة كوني أتحدث أمام جمهور من المستمعين مؤلف من ممثلين لكلا الجنسين. فكما أنه لا وجود لعلم برسم استعمال ولي العهد، كذلك لا يجوز أن يكون هناك علم برسم استعمال الساذجات من البنات؛ والنساء اللائي ألحهن هنا شئن بحضورهن بلا ريب أن يظهرن رغبتهن في أن يعاملن، من منظور العلم، معاملة الرجال.

يملك الحلم إذاً أن يمثل عضو الرجل الجنسي في تمثيلات شتى يمكن نعتها بأنها رمزية، ويكون عامل التشابه المشترك فيها واضحاً جلياً في الكثرة الغالبة من الأحوال. وللعدد ٣ المقدس قيمة رمزية جُلِّي بالنسبة إلى جهاز الرجل التناسلي في جملمته. والجزء الرئيسي من جهاز الرجل التناسلي وأهم ما فيه بالنسبة إلى كلا الجنسين، أعني القضيب، يجد أولاً بدائله الرمزية في أشياء تشبهه شكلاً، ومنها:

العصي، المظلات، الجذوع، الأشجار، إلخ. ويجد هذه البدائل ثانياً في الأشياء التي تجمعها والقضيب صفة مشتركة، وهي قدرتها على ولوج الجسم وإحداث جروح فيه نظير الأسلحة المدببة بمختلف أنواعها، من سكاكين وخناجر ونصال وسيوف، وكذلك الأسلحة النارية، من بنادق وغدارات، وبوجه خاص المسدس الذي هو السلاح الأكثر مواءمة من حيث الشكل لهذه المشابهة. وفي كوابيس الفتيات، يلعب مشهد مطاردهن من قبل رجل مسلح بمدمية أو بسلاح ناري دوراً كبيراً. ولعل هذه أكثر حالات رمزية الأحلام تواتراً، وتأويلها لا يرتطم بأية صعوبة. ومفهوم أيضاً أن يُمثّل العضو المذكور بأشياء ينفر منها سائل كالصنابير والأباريق ذات العروة والنوافير، أو بأشياء قابلة للتمدد والاستطالة كالمصاييح المطاطة والأقلام الكباسة، إلخ. وإذا كانت الأقلام ومسكات الريش ومبارد الأظافر والمطارق وغيرها من الأدوات تقوم للعضو الجنسي المذكور مقام التمثيلات الرمزية التي لا جدال فيها، فمرّد ذلك بدوره إلى تصور عن هذا العضو لا يعسر فهمه.

وبالنظر إلى الخاصية الفريدة التي يتسم بها هذا العضو، وأعني قدرته على الانتشار إلى أعلى وكأنه يتحدى قانون الثقالة - وهذه الخاصية جزء من ظاهرة الانتصاب - فلا يندر أن يُمثّل رمزياً بالمناطيد والطائرات، وحتى بمسيرات زبلن^(٢). غير أن الحلم تتوفر له وسيلة أخرى - أبلغ تعبيراً بكثير - في الرمز إلى الانتصاب. فهو يجعل من العضو الجنسي ماهية الشخص بالذات، فيرى نفسه يطير كله. ولا تعجبوا إن ذكرت لكم أن الأحلام التي نعرفها جميعاً والتي غالباً ما تكون جميلة جداً بالنظر إلى ما يلعبه فيها الطيران من دور هام، ينبغي تأويلها على أنها أحلام أساسها تهيج جنسي عام، أي ظاهرة الانتصاب. ومن جملة أنصار التحليل النفسي، فإن ب. فيدرن^(٣) هو الذي أيد صحة هذا التأويل ببراهين

٢ - مسيرات زبلن: هي المناطيد الموجهة المنسوبة إلى مخترعها الألماني فرديناند فون زبلن (١٨٣٨ - ١٩١٧). «م».

٣ - بول فيدرن: من أوائل المحللين النفسيين المقرين إلى فرويد (١٨٧١ - ١٩٥٠). ترأس جمعية فينا للتحليل النفسي، وهاجر لاحقاً إلى الولايات المتحدة الأمريكية. من مؤلفاته: علم نفس الأنثى والأمراض الذهانية. «م».

وأدلة لا تقبل دحضاً. لكن حتى باحث معروف بتجرده، وبعده عن التحليل النفسي، بل بجهله به، نظير مورلي - فولد، توصل إلى النتائج نفسها، بعد سلسلة من التجارب تعطى فيها للأذرع والسيقان في أثناء النوم وضعيات مصطنعة. ولا تعترضوا عليّ بأن النساء أيضاً يرين في منامهن أنهن يظرن. بل تذكروا بالأحرى أن أحلامنا غرضها أن تكون تحقيقاً لرغبات، وأن رغبة المرأة، الشعورية أو اللاشعورية، في أن تكون رجلاً متواترة جداً لدى النساء. ومن له منكم اطلاع على التشريح لن يدهشه أن تقتدر المرأة على تحقيق هذه الرغبة عن طريق عين الإحساسات التي تساور الرجل. فجهاز المرأة التناسلي يشتمل بالفعل على عضو صغير شبيه بقضيب الرجل، وهذا العضو الصغير، البظر، يلعب في الطفولة وفي السنوات السابقة للعلاقات الجنسية دوراً مماثلاً لدور عضو الذكورة.

ومن الرموز الجنسية المذكورة الأخرى الأعصى على الفهم، سنخص بالذكر الزواحف والأسماك، وفي المقام الأول الرمز الشهير: الثعبان. ويشق علينا أن نتكهن بالسبب الذي حال دون الاستخدام الواسع في هذا المجال للقبعة والمعطف، بيد أن دلالتهما الرمزية لا مرأى فيها. وبوسعنا أيضاً أن نتساءل عما إذا كان استبدال العضو الجنسي المذكور بأي عضو آخر من أعضاء الجسم كالقدم أو اليد يمكن اعتباره بدوره رمزياً. واعتقادي أننا لو نظرنا إلى الحلم في جملته وأخذنا بعين الاعتبار أعضاء المرأة المناظرة، فلن يكون أمامنا مفرّ من التسليم بتلك الدلالة.

أما جهاز المرأة التناسلي فيمثل رمزياً بجميع الأشياء التي فيها تجويف والتي يمكن بالتالي أن تكون أوعية ومستودعات: المناجم، الحفر، الكهوف، الآنية والقناني، والعلب من مختلف الأنواع والأشكال، والخزانات، والصناديق، والجيوب، إلخ. ومن هذا القبيل أيضاً المركب. وبعض الرموز، كالحزائن والأفران، وبخاصة الغرف، تشير إلى الرحم أكثر مما تشير إلى الجهاز التناسلي بحصر المعنى. ويتصل رمز الغرفة هنا برمز البيت، فيصبح الباب والبوابة بدورهما رمزين يشيران إلى مدخل الفتحات التناسلية. ومن المواد أيضاً ما له دلالة رمزية، كالخشب والورق، وكذلك الأشياء التي تصنع منهما كالطاولة

والكتاب. أما من الحيوانات، فيمثل الخلزون والصدف رموزاً مؤنثة لا مرء فيها. ولنذكر أيضاً، في عداد أعضاء الجسم، الفم كرمز للفتحة التناسلية، وفي عداد المباني، الكنائس والمعابد. وكما ترون، لا تستوي هذه الرموز كلها من حيث سهولة فهمها.

وينبغي أن ندرج في عداد الجهاز التناسلي الثديين اللذين يُمثَّلان رمزياً، مثلهما مثل نصفي الكرة الكبيرين الآخرين في جسم المرأة^(٤)، بالتفاح، والدراقة، والفاكهة بوجه عام. ويصوِّر الحلم شعر العانة لدى الجنسين في صورة غابة أو دغل. وعلى حين أن الطبوغرافيا المعقدة لجهاز المرأة التناسلي تجعله يظهر في الحلم في كثير من الأحيان في مظهر منظر طبيعي، بصخوره ومائه وأشجاره، فإن الطريقة المهيبة لعمل جهاز الرجل التناسلي تجعله يُرمز إليه بشتى أنواع الآلات المعقدة التي يعسر وصفها.

من الرموز الأخرى اللافتة للنظر لجهاز المرأة التناسلي علبة الحلي؛ فكلمتا الجوهرة أو الكنز هما من المداعبات التي توجه، حتى في الحلم، إلى الشخص المحبوب؛ وكثيراً ما ترمز السكاكر أيضاً إلى المتعة الجنسية. أما الإشباع الجنسي الذي يتم الوصول إليه بدون مساعدة شخص من الجنس الآخر، فيرمز إليه بجميع ضروب اللعب، بما فيها عزف البيانو. ومن رموز الاستمئاء الانزلاق، والتزحلق، واقتلاع أغصان الأشجار. ومن التمثيلات التي تسترعي الانتباه أيضاً سقوط سن أو قلع ضرس: فهذا الرمز يعني بكل تأكيد الخضاء باعتباره عقاباً على جلد عميرة. أما الرموز التي يراد بها تمثيل العلاقات الجنسية على وجه التعيين فأقل تعداداً في الأحلام مما قد يتوقع المرء، وذلك على الأقل بموجب ما لدينا من روايات عن الأحلام. وبوسعنا أن نذكر في هذا الباب النشاطات الإيقاعية من رقص وركوب خيل وتسلق، وكذلك بعض الحوادث العنيفة كالاندهاس بالسيارة مثلاً. ولنضف إلى ذلك أيضاً بعض الأعمال اليدوية، وكذلك بطبيعة الحال التهديد بسلاح.

٤ - يقصد الردفين. (م).

إن استخدام هذه الرموز وترجمتها ليسا بالبساطة التي قد تظنون. ففي كلتا الحالتين تفاجئنا تفاصيل غير متوقعة. من ذلك مثلاً - وهذا أمر يكاد لا يصدق - أن الفروق الجنسية تكاد تكون مطموسة في الكثير من التمثيلات الرمزية. وتشير كثرة من الرموز إلى العضو التناسلي بوجه عام، سواء أكان مذكراً أم مؤنثاً؛ ومن هذه الرموز تلك التي يظهر فيها طفل صغير أو ابن صغير أو ابنة صغيرة. وفي أحيان أخرى، يُستخدم الرمز المذكر في الإشارة إلى جزء من الجهاز التناسلي المؤنث، أو يحدث العكس. وكل ذلك سيبقى عصياً على الفهم ما لم تتوفر لنا بعض المعرفة بصدد تطور التمثيلات الجنسية للكائنات البشرية. على أن التباس الرموز هذا يكون ظاهرياً محضاً في العديد من الأحوال؛ كما أن أكثر الرموز بروزاً، كالحقائب والأسلحة والعلب، لا يُستبعد أن تستعمل استعمالاً جنسياً مشوياً.

الآن، وانطلاقاً من الرمز ذاته لا مما يمثله، سأسعى إلى أن ألقى نظرة إجمالية على المصادر التي تُستعار منها في غالب الأحوال الرموز الجنسية، وسأتبع هذا الاستقصاء ببعض تأملات أتناول فيها بصورة رئيسية الرموز التي يتعذر علينا فهم عنصرها المشترك. ولدينا رمز ملتبس من هذا النوع هو رمز القبة، وربما كل غطاء للرأس: فهو ذو دلالة مذكورة إجمالاً، لكنه قد يكون دالاً دلالة مؤنثة أحياناً. كذلك يفيد المعطف في الإشارة إلى الرجل، وإن من غير مرجعية تناسلية دوماً. ولكم أن تسألوا عن السبب في ذلك^(٥). وبديهي أن تكون ربطة العنق التي تتدلى على الصدر ولا تحملها المرأة رمزاً مذكراً. أما الألبسة الداخلية والبياضات فرموز مؤنثة بالإجمال؛ وقد رأينا أن الملابس والبزات رموز تفيد في التعبير عن العري وأشكال الجسم؛ وتشير الأحذية والبوابيع رمزياً إلى الأعضاء التناسلية. وقد أسلفنا القول عن تلك الرموز المألوفة، لكن المؤنثة بكل تأكيد، المتمثلة بالطاولات والخشب. ومن المحقق أن السلم والدرج والدرايزون، وكذلك ارتقاء سلم أو درج، إلخ، رموز تعبّر عن العلاقات الجنسية. ولو أمعنا

٥ - طبقاً لما أورده فرويد في كتابه تأويل الحلم، العلاقة بين الرجل والمعطف تعود إلى القاسم اللفظي المشترك بينهما. فبالألمانية يقال للرجل Man وللمعطف Mantel. «م».



التفكير في الأمر، لوجدنا أن العامل المشترك هنا هو الطابع الإيقاعي للارتقاء، وربما أيضاً تصاعد التهيج وضيق التنفس طرداً مع الصعود.

لقد ذكرنا من قبل **المظهر الطبيعي** بوصفه تمثيلاً لجهاز المرأة التناسلي. والجبل والصخر رمزان لعضو الذكورة، بينما البستان رمز متواتر لأعضاء المرأة التناسلية. وترمز **الفاكهة** إلى الثدي، لا إلى الطفل. وتفيد الحيوانات المتوحشة في تمثيل المحتاجين من الرجال أولاً، ثم في تمثيل الغرائز الشريرة والأهواء. أما **البراعم** والأزهار فتشير إلى جهاز المرأة التناسلي، وعلى الأخص إلى البكارة. تذكروا بهذا الصدد أن البراعم هي بالفعل أعضاء التناسل في النباتات. وقد عرفنا من قبل رمز **الغرفة**. فإذا ما تطور هذا التمثيل، اكتسبت النوافذ والمداخل والمخارج، أي أبواب الغرفة، دلالتها كفتحات للجسم. وتندرج في عداد هذه الرمزية **الغرفة المفتوحة والغرفة المقفلة**، ولا جدال في أن المفتاح الذي يفتح رمز مذكر.

تلكم هي المواد التي تدخل في تركيب الرمزية في الأحلام. وبديهي أنها ليست بحال من الأحوال كاملة، ولو أردنا حصرها لطلال عرضنا اتساعاً وعمقاً. غير أنني أعتقد أن تعدادي قد بدا لكم أكثر من كافٍ. بل قد تقولون لي بسخط واستنكار: «من يسمعك يخيل إليه أننا لا نعيش إلا في عالم من الرموز الجنسية. أكل ما يحيط بنا من أشياء، وكل ما نرتديه من ملابس، وكل ما نحمله باليد، أهو كله عندك رموز جنسية، ولا شيء غير ذلك؟». وأنا أقّر بأن من الأشياء ما يدهش، وأول سؤال ينطرح بطبيعة الحال هو الآتي: كيف نستطيع أن نتعرف دلالة رموز الأحلام، ما دام الحالم لا يزودنا هو نفسه بصدها بأية معلومات، إلا أن تكون معلومات زهيدة غير كافية بالمرّة؟

وجوابي أن هذه المعرفة تأتينا من مصادر شتى: من الأساطير والحكايا، من النكات والفكاهات، من الفولكلور، أي من دراسة العادات والأعراف والأمثال والأغاني لدى الشعوب المختلفة، ومن اللغة الشعرية واللغة الدارجة. ففي جميع هذه المجالات نلتقي الرمزية ذاتها ونفهمها في أكثر الأحيان بلا صعوبة. ولو محصنا هذه المصادر واحداً تلو الآخر، لاكتشفنا فيها توازياً مدهشاً مع رمزية الأحلام، فلا نخرج من هذا التمهّص إلا وقد تعاظمت ثقتنا بصحة تأويلنا.

قدّمنا أن جسم الإنسان كثيراً ما يمثّل، على ما يرى شرنر، برمز البيت. والحال أنه تندرج في عداد هذا الرمز النوافذ والأبواب والبوابات التي ترمز إلى منافذ التجاوب في الجسم البشري، بينما تقوم لها الواجهات، سواء أكانت ملساء أو ذات نتوءات وشرفات، مقام المرتكزات. هذه الرمزية نلتقيها في لغتنا الدارجة: فنحن نحیی مثلاً صديقاً قديماً بوصفنا إياه بـ «البيت العتيق»^(٦)، ونقول عن فلان من الناس إن «طابقه العلوي»^(٧) ليس على ما يرام. وفي علم التفسير أيضاً تسمى فتحات بالجسم بالأبواب^(٨).

قد يدهشكم للوهلة الأولى أن يمثّل الوالدان في الأحلام في صورة ملك وملكة أو إمبراطور وإمبراطورة. ألا يبدو لكم أنه في الكثير من الحكايا التي تبدأ بجملة: «يحكى أن ملكاً وملكة» لا تعني سوى «يحكى أن أباً وأماً»؟ وكثيراً ما يُداعب الأولاد، ضمن إطار الأسرة، بتسميتهم بالأمراء، كما يلقّب كبيرهم بولي العهد. ثم إن الملك نفسه يسمى بالأب. كذلك يسمى الأطفال على سبيل المزاح بأسماء صغار الحيوانات، ونقول عنهم بإشفاق: الديدان الصغيرة المسكينة^(٩).

لكن لنعد إلى رمز البيت ومشتقاته. فحين نتخذ في الحلم من نتوءات البيوت مرتكزاً لنا، أفلا يذكرنا هذا بالفكرة المعروفة التي تجول في ذهن العامة حين يصادفون امرأة كبيرة الثديين: لديها ما يُرتكز عليه؟ كذلك يلجأ العامة من الناس إلى عبارة أخرى يرددونها في مثل تلك المناسبات: «هذه امرأة أمام بيتها خشب كثير»، وكأنهم يؤكدون بذلك تأويلنا الذي يرى في الخشب رمزاً مؤنثاً، أمويّاً.

وما دمتا بصدد الخشب، فلنذكر أنه يشقّ علينا أن نفهم السبب الذي جعل منه رمزاً للأنثى، للآم، إن لم نستعن بالألسنية المقارنة. فالكلمة الألمانية خشب Holz

٦ - ترجمة حرفية عن الألمانية. لا مقابل لها في العربية: Altes Haus. «م».

٧ - ترجمة حرفية عن الألمانية، وهو تعبير دارج في العربية العامة يقصد به العقل. «م».

٨ - في العربية يقال عن الشرج مثلاً باب البدن. «م».

٩ - بالألمانية: Das Arme Wurm. «م».



تتشرك في الجذر، على ما يقال لنا، مع الكلمة اليونانية «هولي» التي معناها مادة أو مادة خام. وهذه حالة غير نادرة على الإطلاق من الحالات التي يطلق فيها إسم النوع العام للدلالة على مادة خاصة. والحال أنه توجد في المحيط الأطلسي جزيرة تسمى ماديرا، وهو اسم أطلقه البرتغاليون عليها يوم اكتشافها لأنها كانت مغطاة آنفد بغابات كثيفة. وماديرا معناها الخشب بالبرتغالية. وأكبر الظن أنكم تتعرفون في كلمة ماديرا هذه اللفظة اللاتينية ماتيريا Materia المخوّرة بعض التحوير والتي تعني بدورها مادة بوجه عام. والحال أن ماتيريا Materia مشتقة من ماتير Mater، أي الأم. والمادة التي يصنع منها الشيء يمكن اعتبارها والدته. إذاً فهذا التصور القديم هو الذي استتبع الاستعمال الرمزي لكلمة الخشب في الدلالة على المرأة والأم.

وغالباً ما يعبرّ الحلم عن الولادة بالعلاقة بالماء: فيرى النائم أنه يغوص في الماء أو يخرج منه، وهذا معناه على التوالي أنه يلد أو يولد. ولا تنسوا أن هذا الرمز يمكن اعتباره ذا صلة مزدوجة بالحقيقة التي تؤكد لها نظرية النشوء والتطور: فمن جهة أولى (وهذه واقعة تعود إلى زمن سحق القدم) تحدّرت جميع الثدييات البرية، بما فيها أسلاف الإنسان، من الحيوانات المائية، ومن جهة ثانية يمضي كل حيوان تديي، وكل إنسان، الطور الأول من وجوده في الماء، يوم يكون جنيناً يحيا في السائل المشيمي لرحم أمه، والولادة تعني له خروجه من الماء. أنا لا أوكد أن الحالم يعرف ذلك كله، لكنني أقدر أيضاً أنه لا حاجة به إلى معرفته. وأكبر الظن أن الحالم يعرف أشياء مما حُكي له في طفولته، لكنني لا أجزم، حتى فيما يتصل بهذه المعرفة، أنها ساهمت بأي قسط في تكوين الرمز. لقد قُصّ عليه في غابر الأيام أن طائر اللقلق هو الذي يأتي بالأطفال. لكن أين يعثر عليهم؟ في النهر، في البئر، إذاً في الماء أيضاً. لما سمع أحد مرضاي، يوم كان طفلاً، بهذه القصة، توارى عن الأنظار عصر يوم بكامله. فلما عثروا عليه أخيراً وجدوه عند حافة مستنقع القصر الذي كان يقيم فيه وقد مدّ وجهه فوق صفحة الماء محاولاً أن يلمح في قاعه الأطفال الصغار.

لقد قام أ. رانك بتحليل مقارن للأساطير المتعلقة بولادة الأبطال (وأقدمها

أسطورة ولادة سرجون^(١٠)، ملك أكاد، في سنة ٢٨٠٠ ق.م)، فوجد أن الغطس في الماء والانتشال من الماء يلعبان فيها دوراً راجحاً. وفطن رانك إلى ما في ذلك من تمثيل رمزي للولادة مشابه لما يحدث في الحلم. فحين يحلم واحدنا بأنه ينقذ شخصاً من الماء، يجعل من هذا الشخص أمه أو أي أم على الإطلاق، وكذلك في الأسطورة: فالمرأة التي تنتشل طفلاً من الماء تعترف في خاتمة المطاف بأنها أمه الحقيقية. وثمة فكاهة معروفة يُسأل فيها غلام يهودي ذكي عمن كانت أم موسى فيجيب بلا تردد: الأميرة. فإذا قيل له: كلا، فالأميرة انتشلت من الماء ليس إلا، أجاب: هي التي تزعم ذلك، مظهراً بذلك أنه مدرك الدلالة الصحيحة للأسطورة^(١١).

يرمز الرحيل في الحلم إلى الموت. وعلى كل، عندما يسأل طفل عن أخبار شخص مَرَّ من طويل من دون أن يراه - لأن هذا الشخص قد توفي في الواقع - جرت العادة على إجابته بالقول: لقد رحل في سفر. وهنا أيضاً أزعَم أن الرمز لا صلة له بهذا التفسير الذي يقدّم للأطفال. فالشاعر يلجأ إلى استخدام الرمز عنه حين يتكلم عن الدار الآخرة وكأنها بلد ذو مجاهل لا يعود منه المسافر أبداً. وحتى في أحاديثنا اليومية، لا يندر أن نتكلم عن «الرحلة الأخيرة»^(١٢). ويعلم كل من له إلمام بالطقوس القديمة أن تمثيل الرحيل إلى موطن الموتى كان من شعائر ديانة مصر القديمة. وقد بقيت لنا نسخ عدة من كتاب الموتى الذي كان يعطى للموميا، كما يعطى المسافرون اليوم الدليل السياحي، ليرافقها في تلك الرحلة. ومنذ أن فُصلت أماكن الدفن عن أماكن السكن، باتت هذه الرحلة الأخيرة للموتى بمثابة حقيقة واقعة.

والأمر بالمثل في الرمزية التناسلية: فهي ليست وفقاً على الحلم. فلعل ما من واحد منا إلا أساء التهذيب، ولو لمرة واحدة في حياته، مع امرأة، فوصفها بأنها

١٠ - سرجون الأقدم: مؤسس مملكة أكاد السامية في حوالي العام ٢٣٠٠ ق.م. والإشارة هنا إلى كتاب أوتو رانك: أسطورة ميلاد البطل. «م».

١١ - سيطور فرويد تحليل هذه الأسطورة مطولاً في كتابه: موسى والتوحيد. «م».

١٢ - وفي العربية نقول عن التوفى «الراحل». «م».

«علبة قديمة»، من دون أن يعرف أنه بذلك إنما يستخدم رمزاً تناسلياً. وقد جاء في كتاب العهد القديم أن المرأة وعاء سريع العطب. وكتب اليهود المقدسة، بأسلوبها القريب غاية القرب من الشعر، تزخر بالتعابير المقتبسة من معين الرمزية الجنسية، وهي تعابير لم تفهم دوماً على الوجه الصحيح؛ وقد نجم عن تأويلها، في نشيد الأنشاد مثلاً، سوء فهم متعدد الضروب. وفي الأدب العبري المتأخر كثيراً ما نلتقي بالرمز الذي يمثل المرأة في صورة بيت، يكتنّ يبابه عن الفتحة التناسلية. فالزوج يشتكي، مثلاً، إن وجد زوجته ثيباً، من أنه وجد الباب مفتوحاً. ومن الرموز التي نلتقيها في هذا الأدب أيضاً تمثيل المرأة بالطاولة. فنقول المرأة عن زوجها: رُبّت له الطاولة، لكنه قلبها. ولأن الزوج يقلب الطاولة يولد الأولاد كسحاء^(١٣). وأنوه هنا بأني اقتبست هذه المعلومات من دراسة للسيد ل. ليفي Levy، من مدينة برون، عن الرمزية الجنسية في التوراة والتلمود^(١٤).

إن علماء الاشتقاق هم الذين رجحوا الفرض الذي قلنا بموجبه إن المركب تمثيل رمزي للمرأة: فكلمة: Schiff (مركب) التي كانت تفيد في البدء في الإشارة إلى الوعاء من الآجر، ليست في الواقع، وعلى ما يقوله لنا أولئك العلماء، إلا تحوير لكلمة Schaff (قصعة). وأما أن القرن رمز للمرأة وللرحم، فهذا ما تؤكد له الأسطورة الإغريقية عن برياندرس^(١٥) الكورنثي وزوجته ميليسا. فقد روى هيرودوتس^(١٦) أن الطاغية، بعد أن قتل زوجته الحبيبة بدافع الغيرة، استحلف طيفها أن يخبره عن أحوالها، فأفصحت القتيلة عندئذ عن حضورها بأن ذكّرت برياندرس بأنه وضع خبزه في فرن بارد، وهذا تعبير مقنّع أرادت أن تشير به إلى فعل ما كان لأحد آخر أن يعرفه. ونقرأ في موسوعة النبات

١٣ - أي لأنه يأتيها من الدبر. «م».

١٤ - الإحالة هنا إلى كتاب لودفيغ ليفي: الرمز الجنسي في التوراة والتلمود (١٩١٤). «م».

١٥ - برياندرس: طاغية مدينة كورنثوس (٦٢٧ - ٥٨٧ ق.م). أحد حكماء اليونان السبعة. «م».

١٦ - هيرودوتس: كبير مؤرخي الإغريق ورحّالهم، لقب بأبي التاريخ. قسم العالم إلى عالم همجي (المصريين، الميديين، الفرس) وإلى عالم متمدّين (الإغريق). «م».

البشري Anthrophophyteia التي يصدرها ف.س كراوس Kraus^(١٧) - وهي منجم تثر بمعلومات لا تضاهى في كل ما يتصل بالحياة الجنسية لمختلف الشعوب - نقرأ أنه يقال في بعض مناطق ألمانيا عن المرأة حين تضع: لقد أنهار قرننها. وإيقاد النار، وكل ما يتصل به، مشبع عميق الإشباع بالرمزية الجنسية. ولسان اللهب يرمز على الدوام إلى عضو التناسل عند الرجل، بينما يرمز الموقد إلى رحم المرأة.

لئن عجبتم أن تفيد المناظر الطبيعية على مثل هذا النطاق الواسع في التمثيل الرمزي لجهاز المرأة التناسلي في الأحلام، فما عليكم إلا أن تستفهموا عن ذلك من علماء الميتولوجيا ليخبروكم عن الدور العظيم الذي لعبته في كل آن وزمان الأرض المرضعة في تمثيلات الشعوب القديمة وعباداتها، وإلى أي حد كان تصورهما للزراعة متعبناً بهذه الرمزية. وقد تجدون في أنفسكم ميلاً إلى البحث في اللغة الدارجة عن تمثيل المرأة الرمزي: ألسنا نقول بالألمانية Frauenzimmer (غرفة المرأة) بدل أن نقول Frau (امراة)، فنكون بذلك قد استبدلنا الشخص الإنساني بالموضع الذي يعمل فيه؟ ثم ألا نقول: «الباب العالي»، لنشير بهذا التعبير إلى السلطان وحكومته؟ كذلك إن كلمة «فرعون» التي كانت تطلق على ملوك مصر القديمة كانت تعني «الفناء الكبير» (كانت الأفنية الواقعة بين الأبواب المزودة للمدينة تستخدم في الشرق القديم كأماكن للاجتماع، مثلها مثل ساحات الأسواق في العصر الإغريقي الكلاسيكي). غير أنني أعتقد أن هذا الربط سطحي أكثر مما ينبغي. وأميل بالأحرى إلى الافتراض أن الغرفة صارت رمزاً للمرأة من حيث أنها تشير إلى المكان الذي يحتضن الإنسان بين جنباته. ورمز البيت مألوف عندنا من هذا المنظور، والميتولوجيا واللغة الشعرية تبيحان لنا أن نعتبر الحصون والقلاع والقصور والمدن من جملة التمثيلات الرمزية للمرأة. والشك، فيما يتصل بهذا التأويل، غير مباح إلا في حضرة أشخاص لا يتكلمون الألمانية، ويعجزون بالتالي عن فهمنا. والحال أنه سنحت لي الفرصة، في

١٧ - فريدريش سالومون كراوس: إثنوغرافي وعالم جنسي كرواتي (١٨٥٩ - ١٩٣٨). له كتاب تفسير المنام، فضلاً عن موسوعة النبات البشري المشار إليها. «م».



السنوات الأخيرة، لمعالجة عدد كبير من المرضى الأجانب، وأذكر أن الغرفة كانت تعني في أحلامهم المرأة دوماً، بالرغم من أن لغة قومهم لا تنطوي على أي تشابه بين هاتين الكلمتين. وثمة أسباب أخرى تحمل على الاعتقاد بأن العلاقة الرمزية يمكن أن تتجاوز الحدود اللغوية، وهذه حقيقة سبق أن اعترف بها مفسر الأحلام شوبرت Schubert^(١٨) (١٨٦٢). على أنه ينبغي أن أذكر أن ما من أحد من مرضاي كان يجهل اللغة الألمانية جهلاً مطبقاً، بحيث لا يسعني إلا أن أترك الفصل في هذا الموضوع للمحللين النفسيين ممن تتوفر لهم المقدرة على أن يجمعوا من أقطار أخرى ملاحظات تتعلق بأشخاص لا يتكلمون إلا لغة واحدة لا غير.

أما فيما يتعلق بالتمثيلات الرمزية للعضو التناسلي عند الرجل، فليس ثمة تمثيل واحد لا تعبر عنه اللغة الدارجة في صورة هازلة أو سوقية، أو في صورة شعرية كما لدى شعراء العصور القديمة أحياناً. ولا تقتصر هذه التمثيلات على الرموز التي تبدى في الأحلام، بل تشمل رموزاً أخرى أيضاً، ومنها أدوات شتى على سبيل المثال، وفي المقام الأول المخراش. والحق أن ميدان التمثيل الرمزي للعضو الجنسي المذكور متسع كل الاتساع، وموضع جدل كثير، وسنحرص على تحاشيه اقتصاداً للوقت. لكن بوذي أن أبدي بضع ملاحظات بصدد رمز واحد لا يندرج في هذه السلسلة: رمز الرقم ٣. وإذا تركنا جانباً مسألة معرفة ما إذا كان هذا الرقم لا يدين لهذه العلاقة الرمزية بطابعه المقدس، وجدنا أنه من الثابت الذي لا ريب فيه أن بعض أشياء الطبيعة المؤلفة من أجزاء ثلاثة (نبات النفل المثلث الأوراق مثلاً) قد أعطت شكلها لبعض الأسلحة والشعارات لما لها من دلالة رمزية تحديداً. كذلك إن زهرة الزنبق الفرنسية المثلثة الشَّعْب والتريسيكلا (Triskéla) (زهرة ذات ثلاث سيقان شبه منحنية بدءاً من نقطة مركزية)، اللتين تعتمدانها كشعار جزيرتان متنائيتان أعظم التناهي: جزيرة صقلية وجزيرة

١٨ - غوتليف فون شوبرت: عالم طبيعيات ألماني (١٧٨٠ - ١٨٦٠). له مؤلفات عديدة في علم النبات، فضلاً عن كتاب: في رمزية الأحلام. «م».

مان^(١٩)، ما هما في رأيي إلا صورتان رمزيتان مهذبتان للجهاز الرجل التناسلي. وكانت تصاوير العضو الجنسي المذكور تعتبر في العهود القديمة وسائل دفاع ممتازة (Apotropaea)^(٢٠) لاتقاء أذى الأرواح الشريرة؛ ولعل من مخلفات هذا الاعتقاد ما نلاحظه حتى في أيامنا هذه من أن جميع التماثيل الجالبة للحظ لا تعدو أن تكون رموزاً تناسلية أو جنسية. تفحصوا مجموعة من هذه التماثيل التي توضع في العنق على شكل طوق، تجددوا بينها نفلة ذات أربع أوراق، وخنزيراً، وفطراً، وحدوة فرس، وسُلماً، ومنظف مداخن. فأما النفلة الرباعية الأوراق فبديل عن النفلة الرمزية الثلاثية الأوراق، وأما الخنزير فرمز قديم من رموز الخصوبة، والفطر يرمز بلا جدال إلى القضيب، ومن الفطور نوع يدين باسمه لهذا التشابه الصارخ مع عضو الذكورة Fallus Impudicus^(٢١)، وحدوة الفرس تحاكي نطاق الفتحة التناسلية عند المرأة، ومنظف المداخن الذي يحمل سلّمه ينتمي إلى هذه المجموعة لأنه يزاول مهنة من المهن التي درج السوق على تشبيهها بالعملية الجنسية (انظر موسوعة النبات البشري Anthropophyteia). وقد عرفنا من قبل أن السلم يدخل في عداد رمزية الأحلام الجنسية. وهنا يمكن للغة الألمانية أن تعيننا، إذ تبين لنا أن كلمة «يصعد» تستخدم بمعنى جنسي في الجواهر. فيقال بالألمانية: «يصعد خلف النساء» و«صعداً قديماً». وبالفرنسية تحل كلمة Marche محل كلمة Stufe الألمانية، فيقال عن الفاسق العجوز «مُشَاء مسنّ». ولعل هذه المقاربة ليست منقطعة الصلة بكون السفاد لدى الكثير من الحيوانات يتم بفرشحة الذكر فوق الأنثى.

أما اقتلاع الغصن كتمثيل رمزي لجلد عميرة فلا يتمشى مع وصف السوق لفعل الاستمئاء فحسب، بل له أيضاً في الميثولوجيا أوجه شبه كثيرة. غير أن ما يلفت النظر بوجه خاص هو تمثيل جلد عميرة، أو بالأحرى تمثيل الخصاء باعتباره

١٩ - صقينة: جزيرة إيطالية كبيرة تقع في البحر الأبيض المتوسط، ومان: جزيرة إنكليزية تقع في بحر إيرلندة. «م».

٢٠ - كلمة إغريقية، من معانيها التعويذة. «م».

٢١ - باللاتينية بالنص، ومعناها الحرفي القضيب الداعر. «م».

عقاباً على هذه الخطيئة، في صورة سقوط سن أو قلعها: ذلك أن الأنتروبولوجيا تقدم لنا بالفعل نظيراً موازياً لهذا التمثيل، وإن كان أكثر الحالمين لا يعلمون به. فأنا لا أعتقد أنني أجنب الصواب إذ أرى في الختان، الذي تأخذ به شعوب كثيرة، معادلاً للخصاء أو بديلاً عنه. ونحن نعلم فضلاً عن ذلك أن بعض القبائل البدائية في القارة الأفريقية تتخذ من الختان طقساً من طقوس البلوغ (احتفالاً بإدراك الغلام سن الرجولة)، بينما تستعيز قبائل أخرى، مجاورة للأولى، عن الختان باقتلاع سن.

بهذه الأمثلة أختتم عرضي. وهي محض أمثلة، فما نعرفه في الموضوع أكثر، ولا يشقّ عليكم أن تتصوروا ما يمكن أن تكون عليه مجموعة كهذه من تنوع وطرافة فيما لو قام بجمعها، لا هواة مثلنا، بل اختصاصيون في الأنتروبولوجيا والميتولوجيا والألسنية والإثنولوجيا. على أن القليل الذي ذكرناه يتيح لنا استخلاص بعض استنتاجات لا تدعي أنها تستنفد الموضوع، ولكنها قيمة بأن تحفز على إعمال الفكر.

وأولها أن الحالم يكون في متناوله في أثناء النوم نمط تعبير رمزي، وهو به جاهل وله منكر في حالة اليقظة. وقد يفجؤكم ذلك بقدر ما يفجؤكم أن تعلموا أن مدبرة منزلكم تفهم السنسكريتية، مع أنكم تعلمون عن يقين أنها ولدت في قرية من قرى بوهيميا ولم تدرس تلك اللغة قط. وليس من العسير علينا أن نجد لهذه الواقعة تعليلاً بذخيرتنا من التصورات السيكلوجية. وكل ما نملك أن نقول أن معرفة الرمزية لدى الحالم لا واعية، وأنها وجه من حياته النفسية اللاشعورية. غير أن هذا التفسير لا يغنينا غناء يذكر. فحتى الآن ما كنا بحاجة إلا للتسليم بوجود ميول لاشعورية، أي ميول يكون بها الإنسان جاهلاً بصورة وقتية أو لأجل متفاوت الطول. لكن الأمر هذه المرة أكبر وأجلّ شأنًا: فنحن نتحدث عن معرفة لاشعورية، وعن علاقات لاشعورية بين بعض الأفكار، وعن مقارنات لاشعورية بين أشياء ومواضيع شتى، مقارنات يكون من نتيجتها أن يحلّ أحد هذه الأشياء بصفة دائمة محلّ آخر. وهذه المقارنات لا تعقد في كل مرة من جديد وبحسب الحاجة، بل تجري مرة واحدة ونهائية، وتكون رهن الإشارة دوماً

وأبدأ. وبرهاننا على ذلك أنها متماثلة لدى مختلف الناس، وعلى اختلاف لغاتهم في الغالب.

تُرى من أين يمكن أن نستقي معرفتنا بهذه العلاقات الرمزية؟ إن اللغة الدارجة لا تزودنا إلا بقدر ضئيل من المعلومات. أما المشابهات الكثيرة التي يمكن أن تقدمها الميادين الأخرى، فالحالم جاهل بها في أغلب الأحوال، ونحن أنفسنا لم نتوصل إلا بعد لأي إلى جمع عدد منها.

ثانياً، إن هذه العلاقات الرمزية ليست وفقاً على الحالم، وليست سمة محصورة بعمل الحلم. فقد رأينا أن الأساطير والحكايا، والأمثال والأغاني الشعبية، واللغة الدارجة والمُحَيَّلَة الشعرية تستخدم الرمزية عينها. والحق أن مضمار الرمزية واسع للغاية، وما رمزية الأحلام إلا صقع صغير من أصقاعه، وليس يجوز بحال من الأحوال التنطع لمعالجة المشكلة برمتها انطلاقاً من الأحلام؛ ذلك أن الكثير من الرموز الشائعة في الميادين الأخرى لا يظهر في الأحلام، أو لا يظهر فيها إلا فيما ندر، كما أن الكثير من رموز الأحلام لا نلتقيه في ميدان آخر، وإن التقينا فشتاتاً مبعثراً كما رأيتم. لذا يترأى لنا أننا بصدد أسلوب تعبري قديم، زال واندثر، إلا بقايا قليلة منه تناثرت في ميادين شتى: نثره هنا، وأخرى هناك، وثالثة في مضامير شتى وقد أصابها قدر من التحوير. وأذكر بهذه المناسبة فكرة خيالية خطرت ببال نزيل طريف من نزلاء مصحات الأمراض العقلية، إذ تصوّر أن هناك «لغة أصلية» لا تعدو جميع هذه العلاقات الرمزية أن تكون، في رأيه، مخلفات وبواقي منها^(٢٢).

ثالثاً، لقد أدهشكم ولا بدّ أن تعلموا أن الرمزية في جميع الميادين الأخرى ليست بالضرورة جنسية، وجنسية خالصة، بينما الرموز في الأحلام لا تعبر حصراً - خلا بعض استثناءات - إلا عن موضوعات وعلاقات جنسية. وهذا أمر يعسر أن نجد له، هو الآخر، تعليلاً. فهل لنا أن نفترض أن الرموز كانت في البدء

٢٢ - الإشارة هنا إلى دانييل شيرير، رئيس محكمة الاستئناف في مدينة درسدن، أصابته نوبة هلسية بعد فشله في الانتخابات، فأقيل من وظيفته وأودع مصحة للأمراض العقلية. وعنه كتب فرويد مقالته: ملاحظات تحليلية نفسية حول حالة ذهاني. «م».

جنسية، ثم جرى استعمالها لغير هذا الغرض، فأدى هذا التغيير في الاستعمال إلى أفولها رويداً رويداً، حتى فقدت في نهاية المطاف طابعها الرمزي؟ بديهي أنه يتعذر علينا الجواب عن هذه الأسئلة ما دمنا نحصر اهتمامنا برمزية الأحلام وحدها. وكل ما علينا أن نفعله هنا أن نتمسك بالمبدأ الذي يقول بوجود علاقات وثيقة للغاية بين الرموز الحقيقية والحياة الجنسية.

لقد جاءتنا مؤخراً، بصدد هذه العلاقات، مساهمة ذات شأن. فقد ذهب أحد فقهاء اللغة، هو السيد هـ. سبربر Sperber^(٢٣) (من أبسال)، وهو من لا صلة لهم بالتحليل النفسي، ذهب إلى القول إن الحاجات الجنسية لعبت دوراً بالغ الأهمية في نشوء اللغة وتطورها. فأول أصوات نطق بها الإنسان كان الغرض منها التواصل ومناداة الشريك الجنسي، ثم تطورت الجذور اللغوية لاحقاً لتواكب تنظيم العمل في المجتمع البشري البدائي. وكانت الأعمال تؤدي بمصاحبة ألفاظ وتعبير تكرر إيقاعياً. وهكذا حدث تحول في الاهتمام الجنسي، فانصبّ على العمل. فلكان الإنسان البدائي لم يرضخ لداعي العمل إلا بعد أن جعل منه عديلاً للنشاط الجنسي وبديلاً عنه. وهكذا كان للكلمة التي يُتلفظ بها أثناء العمل المشترك معنيان: واحد يعبر عن الفعل الجنسي، والثاني عن العمل الذي جرت المماثلة بينه وبين هذا الفعل. ورويداً رويداً انفصلت الكلمة عن دلالتها الجنسية لترتبط نهائياً بالعمل. ومثل ذلك حدث لدى الأجيال التالية التي ما كانت تبتكر كلمة جديدة ذات دلالة جنسية حتى تبادر إلى إطلاقها على نوع جديد من العمل. وعلى هذا المنوال تكونت جذور عديدة، أصلها جميعاً جنسي. غير أنها ما عمت أن فقدت دلالتها الجنسية. فإن صحت هذه الفرضية، التي لخصتها لكم في خطوطها الكبرى، فتحت لنا منفذاً إلى فهم رمزية الأحلام، فنفهم لماذا يشتمل الحلم، وهو ذو صلة ما بتلك الظروف البدائية، على ذلك القدر الكبير من الرموز التي تتصل بالحياة الجنسية، ولماذا يتخذ الحلم الأسلحة والأدوات بوجه عام رموزاً مذكّرة، بينما يتخذ الأقمشة وكل ما هو مشغول يدوياً رموزاً مؤنثة. وعلى

٢٣ - هانز سبربر: لغوي سويدي أثار في حينه فضيحة عندما نشر بحثاً في مجلة إيمانغو عن «تأثير العوامل الجنسية في نشوء اللغة وتطورها». (م).

هذا الأساس تكون العلاقة الرمزية أثراً متبقياً من الهوية القديمة للألفاظ؛ فالأشياء التي كانت تتصل بالحياة والدائرة التناسليتين تعاود ظهورها الآن في الأحلام بصفتها رموزاً لهذه الحياة ولهذه الدائرة.

إن جميع هذه التشابهات التي أثارها موضوع رمزية الأحلام ستتيح لكم أن تكونوا فكرة عن التحليل النفسي باعتباره علماً ذا أهمية عامة، خلافاً لما هو عليه الحال في علم النفس وفي طب الأمراض النفسية. فالعمل التحليلي النفسي يضعنا على تماس مع جملة من العلوم المعنوية الأخرى، كعلم الأساطير، وعلم اللغة، وعلم السلالات البشرية، وعلم نفس الشعوب، وعلم الأديان، وكلها علوم قديمة بأن تزودنا بمباحثها بأثمن المعطيات. فلا تعجبوا إذاً إن علمتم أن حركة التحليل النفسي قد أفضت إلى إنشاء مجلة دورية، هدفها الأوحـد دراسة هذه العلاقات: أعني مجلة إيمـاغـو Imago التي أسسها عام ١٩١٢ هانز ساكس Sachs^(٢٤) وأوتو رانك. والتحليل النفسي، في جميع صلاته بالعلوم الأخرى، يعطي أكثر مما يأخذ. صحيح أن النتائج الغريبة التي يتمخض عنها التحليل النفسي في كثير من الأحيان تغدو مقبولة ومستساغة أكثر حين تؤيد صحتها الأبحاث التي تُجرى في ميادين أخرى، لكن التحليل النفسي هو الذي يصمم المناهج التقنية ويقرر وجهات النظر التي يفترض فيها أن تثبت خصوصيتها في العلوم الأخرى. ويكتشف البحث التحليلي النفسي في الحياة النفسية للفرد البشري وقائع تتيح لنا أن نجد حلاً لأكثر من لغز من ألغاز حياة البشر الجماعية أو أن نضعها على الأقل في إطارها الحقيقي.

لكنني لم أحدثكم بعد عن الظروف التي يتأتى لنا فيها أن نظفر بأعمق رؤية لتلك «اللغة الأصلية» المزعومة، ولا عن المضمار الذي احتفظ بالقدر الأكبر من بقاياها. وما دمتم بذلك جاهلين، فلن يكون في مقدوركم أن تقدروا كل أهمية الموضوع. والحال أن ذلك المضمار هو مضمار الأعصاب Névroses، ومواده تتألف من الأعراض المرضية ومن تظاهرات أخرى لدى الأشخاص العصبيين،

٢٤ - هانز ساكس: محام ومحلل نفسي نمساوي (١٨٨١ - ١٩٤٧). كان مقرباً إلى فرويد. هاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٢. من مؤلفاته: فرويد معلمي وصديقي. «م».



وتفسير هذه الأعراض والتظاهرات ومعالجتها هما على وجه التعيين موضوع التحليل النفسي.

إذاً فوجهة نظري الرابعة تردّنا إلى النقطة التي انطلقنا منها، وتوجّهنا في الوجهة المرسومة لنا. فقد قلنا إنه حتى وإن لم يكن ثمة وجود لرقابة الأحلام فإن ذلك لن يسهّل علينا فهم الحلم، لأنه سيتعيّن علينا في هذه الحال أن نحلّ معضلة أخرى، هي معضلة ترجمة لغة الحلم الرمزية إلى لغة فكرنا الصاحي. إذاً فالرمزية عامل آخر من عوامل تحريف الأحلام، مستقل عن الرقابة. على أنه بوسعنا الافتراض أن الرقابة يناسبها استخدام الرمزية التي تخدم الهدف ذاته: غرابة الحلم وعدم قابليته للفهم.

إن المضي قدماً في دراسة الحلم قد يتيح لنا أن نكتشف عاملاً آخر من عوامل التحريف. لكنني لا أريد أن أترك مسألة الرمزية من دون أن أذكركم مرة أخرى بالموقف الملغز المحيّر الذي خيّل للمثقفين من الناس أنه من واجبه أن يقفوه منها: موقف المعارضة الشديدة، مع أن وجود الرمزية قد ثبت ثبوتاً قاطعاً لا ريب فيه في الأسطورة والدين واللغة المشبعة كلها بالرموز. ألا ينبغي أن نتحرى عن علة هذا الموقف في العلاقات التي كشفنا عن وجودها بين رمزية الأحلام وبين الجنسية Sexualité؟

المحاضرة الحادية عشرة

عمل الحلم

سيداتي وسادتي، إن أفلحتن في تكوين فكرة لأنفسكن عن آلية الرقابة والتمثيل الرمزي، فستأتين لكن المقدرة على فهم غالبية الأحلام، ولكن من دون أن تعرفوا جيد المعرفة مع ذلك آلية تحريف الأحلام. فأمامكن بالفعل، كيما تفهموا الأحلام، خطتان تكمل واحدتهما الأخرى: استحضار ذكريات الحالم وخواطره العارضة حتى يتسنى لكن النفاذ من البديل إلى ماهية الحلم بالذات، واستبدال الرموز بدلالاتها بالاعتماد على معلوماتكن الشخصية. وقد تنهض أمامكن، وأنتم تقومون بهذا العمل، نقاط يكتنفها الشك والريبة. ولكن الكلام عنها سيأتي لاحقاً.

بوسعنا الآن أن نستأنف عملاً كنا قد شرعنا به سابقاً بوسائل غير كافية. فقد أردنا جلاء العلاقات القائمة بين عناصر الأحلام وبين ركيزتها الحقيقية، فوجدنا أن هذه العلاقات أربع عدداً: علاقة الجزء بالكل، المقاربة أو التلميح، العلاقة الرمزية، التمثيل اللفظي التشكيلي. وسنحاول الآن القيام بالعمل نفسه على نطاق أوسع، فنقارن المضمون الظاهر للحلم في جملته بالحلم الكامن كما يكشف لنا عنه التأويل.

أمل ألا تعودوا إلى الخلط بين الحلم الظاهر والحلم الكامن. فإن أبقيتن هذا التمييز ماثلاً نصب أعينكن على الدوام، تكونوا قد أصبتن، من منظور تأويل الحلم، نصيباً أوفر مما أصابه معظم قراء كتابي تأويل الحلم. واسمحوا لي أن أذكركن مرة أخرى أن العملية التي تحوّل الحلم الكامن إلى حلم ظاهر تسمى **عمل الحلم**. أما العملية المعاكسة، أي تلك التي تريد أن تنفذ من الحلم الظاهر لتصل إلى الحلم الكامن فهي **عملنا التأويلي**. إذا فالعمل التأويلي يسعى إلى إلغاء

عمل الحلم. وحتى الأحلام الطفلية النمط، التي نتعرف فيها بيسر وبلا مشقة تحقيقاً لرغبات، يطالها عمل الحلم، ولو ضمن حدود ضيقة، ومن ذلك أن تتحول الرغبة فيها إلى واقع، وأن تتحول الأفكار أيضاً في معظم الحالات إلى صور بصرية. وما نحتاج إليه هنا ليس التأويل بالضرورة، بل نظرة نستشف بها ما وراء هذين التحوّلين. أما في الأحلام الأخرى، فإن عمل الحلم يقترب بتحريف الحلم، ولا يكون ثمة من سبيل إلى إلغاء هذا التحريف إلا بالعمل التأويلي.

وبما أنه تسنت لي الفرصة للمقارنة بين عدد كبير من تأويل الأحلام، ففي مقدوري أن أقدم لكم بياناً شاملاً بما يفعله عمل الحلم بمواد الأفكار الحلمية الكامنة. على أنني أرجوكم ألا تتسرعوا في استخلاص النتائج مما سأقوله لكم. فأنا لن أزيد على أن أقدم لكم وصفاً يتطلب أن تتبّعوه بانتباه هادئ.

إن أول مفعول لعمل الحلم هو تكثيف هذا الأخير. نقصد بذلك أن محتوى الحلم الظاهر يكون أصغر حجماً من محتوى الحلم الكامن، وأنه يمثل بالتالي ضرباً من ترجمة مختصرة له. وقد ينعدم التكثيف أحياناً، لكنه في أكثر الأحيان قائم، وكثيراً ما يكون بعيد الأثر. ولا نلاحظ العكس أبداً، أي أنه لا يتفق أبداً أن يكون الحلم الظاهر أوسع مدى من الحلم الكامن وأن يكون ذا محتوى أغنى. ويتم التكثيف بواحد من طرق ثلاث: ١ - إما أن تحذف بعض العناصر الكامنة برمتها، ٢ - وإما ألا تبدو في الحلم الظاهر إلا تنف من بعض المجموعات التي يتألف منها الحلم الكامن. ٣ - وإما أن تنصهر العناصر الكامنة ذات السمات المشتركة مع بعضها بعضاً في الحلم الظاهر.

وإن شئتم، ففي مقدوركم أن تخلصوا بمصطلح «التكثيف» هذه الطريقة الأخيرة وحدها. ومن السهل أصلاً بيان نتائجها. فلو استعرضتم في ذاكرتكم أحلامكم الشخصية لوجدتم فيها بلا عناء حالات لتكثيف عدة أشخاص في شخص واحد. وشخص مركب على هذا النحو يكون له مظهر أ، ولباس ب، وطريقة في السلوك تذكرنا بـ ج، وفضلاً عن ذلك كله نحن نعلم أن هذا الشخص هو ك. ويكون القصد من هذا المزيج، بطبيعة الحال، إبراز خاصية أو صفة مشتركة بين الأشخاص الأربعة. ومن الممكن أيضاً تركيب صورة من عدة

أشياء أو منظر من عدة أماكن، بشرط أن يكون للأشياء أو للأماكن المعنية سمة أو عدة سمات مشتركة يبغي الحلم الكامن التشديد عليها تشديداً خاصاً. وهكذا يبدو وكأن فكرة جديدة ومؤقتة قد تكونت، نواتها العنصر المشترك. ومن تراكم عناصر منصهرة في كل واحد تنجم بوجه عام صورة مبهمة المعالم، شبيهة بالصورة التي نظفر بها إذا ما سحبنا عدة صور فوتوغرافية على لوحة واحدة. وعمل الحلم معني كل العناية على ما يظهر بإنتاج هذه التشكيلات المركبة، إذ يسهل علينا أن نتبين أن السمات المشتركة اللازمة لتكوينها تُنتقل عن عمد حيث لا يكون لها من وجود، كما يجري مثلاً عند اختيار تعبير لفظي عن فكرة ما. وقد عرفنا من قبل تكثيفات وتشكيلات مركبة من هذا القبيل، ورأينا بوجه خاص أنها تلعب دوراً ما في بعض حالات فلتات اللسان. تذكروا الفتى الذي أراد أن يرانق سيدة في الطريق (وهي كلمة مركبة من رانق وناقق). وهناك أيضاً نكات قوامها تكثيف من هذا النوع. لكن بصرف النظر عن هذه الحالات، تبدو هذه الطريقة في التكثيف غريبة، بل مسرفة في الغرابة. صحيح أن تكوين صورة مركبة من عدة أشخاص في الأحلام له ما يناظره في بعض ابتكارات خيالنا الذي كثيراً ما يصهر في كل واحد عناصر لا صلة بينها في الخبرة الواقعية: ومن ذلك السنتورات^(١) والحيوانات الخرافية في الميتولوجيا القديمة أو في لوحات بوكلن (Bocklin)^(٢). ولكن الخيال «الخلاق» عاجز على كل حال عن اختلاق أي شيء من عدم، وإنما هو يكتفي بالجمع بين عناصر لا صلة بينها. أما الطريقة التي يلجأ إليها عمل الحلم فتتميز بصفة خاصة، وهي أن المواد التي يتصرف بها قوامها أفكار، قد يكون بعضها داعراً وغير مستساغ، لكنها جميعاً مصاغة صوغاً صحيحاً ومعبراً عنها تعبيراً صحيحاً. وعمل الحلم يضيفي على هذه الأفكار شكلاً آخر؛ وما يسترعي الانتباه ويعصى على الفهم أن عمل الحلم يستخدم في هذا

١ - السنتورات (أو القنطورسات): في الميتولوجيا الإغريقية مخلوق خرافي، نصفه الأعلى إنسان، ونصفه الأسفل حصان. «م».

٢ - أرنولد بوكلن: رسام سويسري (١٨٢٧ - ١٩٠١). له لوحات عظيمة التركيب ومقتبسة من الموضوعات الميتولوجية. «م».

النسخ أو في شبه الترجمة هذه إلى لغة أخرى طريقة الصهر والدمج أو طريقة التجميع والتركيب. إن الترجمة تحرص عادة على مراعاة خصائص النص وعلى عدم الخلط بين التشابهات. أما عمل الحلم فيسعى على العكس إلى تكثيف فكرتين مختلفتين بأن يبحث - كما في التورية - عن لفظة ذات معانٍ يمكن أن تتلاقى فيها الفكرتان كلتاهما. ولا يجوز لنا أن نتعجل في استخلاص استنتاجات من هذه الخاصية التي قد تغدو، على كل حال، ذات شأن وأهمية في تصورنا لعمل الحلم.

إن التكثيف، وإن أحاط الحلم بالغموض، لا يلوح لنا أنه من فعل الرقابة، بل يسعنا بالأحرى أن نعزوه إلى أسباب ميكانيكية واقتصادية؛ غير أن الرقابة تجد فيه مبتغاها على كل حال.

إن مفاعيل التكثيف قد تكون أحياناً خارقة للمألوف. إذ قد تتيح الفرصة لسلسلتين من الأفكار الكامنة متباينتين كل التباين أن تجتمعا في حلم ظاهر واحد، بحيث نظفر بتأويل مرضٍ في الظاهر للحلم من الأحلام من دون أن تكون بنا حاجة إلى تأويل التأويل.

ومن شأن التكثيف أيضاً أن يشوّش ويعدّد العلاقات بين عناصر الحلم الكامن وعناصر الحلم الظاهر. من ذلك أن عنصراً من الحلم الظاهر قد تناظره عدة عناصر كامنة، كما أن عنصراً من الحلم الكامن قد يسهم في عدة عناصر ظاهرة؛ إذاً فثمة ضرب من التصالب. ونلاحظ أيضاً، في أثناء تأويلنا حلماً من الأحلام، أن الخواطر التي قد تتوارد إلى الذهن بصدد عنصر ظاهر لا يتحتم استخدامها بحسب ترتيبها وتعاقبها، بل لا بدّ لنا في كثير من الأحيان أن ننتظر أن يكتمل تأويل الحلم كله.

إذاً فعمل الحلم يتبع أسلوباً لا يخلو من شذوذ في نسخ أفكار الحلم. فلا هو يترجمها كلمة بكلمة أو علامة بعلامة، ولا هو يجري عليها تخيراً وانتقاءً بمقتضى قاعدة محددة، كما عندما يقرر المرء ألا ينطق إلا بالحروف الساكنة من كلمة من الكلمات، مهماً حروف العلة، ولا هو يخضعها أخيراً لما يمكن أن نسميه بعملية إحلال وإنباء، كما عندما يقدم المرء عنصراً من العناصر ويبرزه على

حساب عدة عناصر أخرى، بل يتبع أسلوباً مغايراً تماماً وأكثر تعقيداً بكثير.

وثاني أساليب عمل الحلم هو النقل والإزاحة. وقد سبق لنا العلم به لحسن الحظ، ونحن نعرف أنه بأسره من فعل رقابة الأحلام. وتتم الإزاحة بصورتين: أولاً أن يجري استبدال عنصر كامن لا بعنصر من عناصره الذاتية المكوّنة، بل بشيء أبعد وأنأى، أي بضرب من التلميح والإلماع، وثانياً أن يحوّل الانتباه من عنصر هام إلى آخر غير ذي أهمية، بحيث يصير للحلم مركز آخر، فيظهر بمظهر غريب.

والاستبدال عن طريق التلميح والإلماع شائع أيضاً في حالة اليقظة، لكن مع فارق محدّد. فالتلميح في الفكر الصافي لا بدّ أن يكون مما لا يشقّ فهمه، كما لا بدّ أن يكون بين التلميح والفكرة الأصلية صلة وعلاقة من حيث المضمون. وكثيراً ما تلجأ النكتة إلى التلميح، من دون أن تنقيد بشرط الارتباط بين المضمونين، وإنما تستعيض عن هذا الارتباط بآخر خارجي غير مألوف ولا دارج، قوامه التشابه الصوتي أو تعدد معاني الكلمة، إلخ. غير أنها تنقيد بدقة بشرط سهولة الفهم؛ فالنكتة لن تؤتي مفعولها على الإطلاق وستفقد نكهتها إن تعذر على سامعها أن يفتن إلى موضوعها من الإلماع إليه. غير أن التلميح عن طريق الإزاحة لا يتقيّد بأي من هذين الشرطين في الحلم. فالتلميح هنا لا تكون له إلا صلات خارجية ونائية جداً بالعنصر الملمح إليه، ومن ثمّ فإنه يعزّ فهمه؛ فإذا أردنا أن نقصّ أثر العنصر، بدا التأويل وكأنه نكتة بائخة أو تفسير قسري مغتصب. ولا تبلغ رقابة الأحلام هدفها إلا إذا أفلحت في تمويه الطريق الذي يقود من التلميح إلى كنه الشيء وركيزته.

أما الإزاحة عن طريق تحويل الانتباه فليست مألوفة في التعبير عن الأفكار ولكن قد نلجأ إليها أحياناً في فكرنا الصافي طلباً للهزل والتندر. وحتى تأخذوا فكرة عما أعني، سأذكركم بالنكتة التالية: ارتكب بيطار في إحدى القرى جريمة خطيرة، فقررت المحكمة أن هذه الجريمة تستوجب العقوبة القصوى، ولكن بما أنه لم يكن في القرية بيطار غيره، وبالتالي لا غنى عنه، بينما يوجد فيها بالمقابل ثلاثة خياطين، فقد شقّ أحدهم بدلاً من البيطار.

أما ثالث الأساليب التي يعتمد عليها عمل الحلم فأهمها جميعاً من وجهة النظر السيكلولوجية. وقوامه تحويل الأفكار إلى صور بصرية. هذا لا يعني أن جميع العناصر المكوّنة لأفكار الحلم تتعرض لهذا التحويل؛ فكثير من الأفكار تحتفظ بشكلها وتتبدى كما هي أو في صورة معلومات في الحلم الظاهر؛ كما أن الصور البصرية ليست، من جهة أخرى، الشكل الوحيد الذي تتلبسه الأفكار. غير أن الصور البصرية تلعب على كل حال دوراً رئيسياً في تكوين الحلم. وهذا الجانب من عمل الحلم هو أكثر جوانبه ثباتاً واطراداً، وهذا شيء نعرفه من قبل، كما نعرف بوجود «التمثيل التشكيلي للألفاظ» بالنسبة إلى عناصر بعينها من الحلم.

من البديهي أن الحصول على هذا المفعول ليس بالسهل. وحتى تكونوا فكرة عن الصعوبات التي تكتنفه، ما عليكم إلا أن تتخللوا أنكم عقدتم العزم على استبدال افتتاحية سياسية لصحيفة ما بطائفة من الرسوم الإيضاحية، أي استبدال الحروف الطباعية بعلامات مصورة. ففيما يتعلق بالأشخاص والأشياء العينية الذين يدور عنهم الكلام في الافتتاحية المذكورة، سيكون سهلاً عليكم، وربما أنسب لكم، استبدالهم بصور، لكنكم ستصطدمون بعقبات كأداء عندما ستصعدون لتمثيل الكلمات المجردة وأجزاء الكلام التي تعبر عن العلاقات بين الأفكار، كالأدوات، وحروف العطف، إلخ، تمثيلاً عينيّاً. وسيكون في مقدوركم اصطناع شتى الحيل فيما يتصل بالألفاظ المجردة. فلكم مثلاً أن تنسخوا نص المقال في صيغة لفظية أخرى، قد لا تكون مألوفة ودارجة كالأولى، ولكنها أغنى بالعناصر العينية وأطوع للتمثيل. ولعلكم ستذكرون عندئذ أن أغلب الألفاظ المجردة كانت ألفاظاً عينية فيما غبر، وستسعون إلى الرجوع إلى معناها العيني البدائي ما وسعكم ذلك. وقد يطيب لكم، مثلاً، أن تتمكنوا من تمثيل «امتلاك» الشيء *Besitzen* بمذلوله العيني، وهو فعل الجلوس على هذا الشيء *Fsitzen*. وهذا عين النهج الذي ينهجه عمل الحلم. وليس لنا أن نتطلب دقة كبيرة من الحلم في هذا الضرب من التمثيل. وعلى هذا، لن نتشددوا في محاسبة عمل الحلم إن استبدل عنصراً

يصعب التعبير عنه بصور عينية مثل كسر العهد الزوجي Ehebruch (أي الخيانة الزوجية) بكسر الذراع Armbruch^(٣). فإذا ما عرفتم هذه التفاصيل، تأتي لكم إلى حدّ ما أن تصححوا خَرَق الكتابة التصويرية وقصورها حين تدعى إلى الحلول محل الكتابة اللفظية.

غير أن هذه الوسائل المساعدة لا تعود متاحة لكم عندما تريدون تمثيل تلك الأجزاء من الكلام التي تعبر عن العلاقات بين الأفكار: لأن، لهذا، غير أن، إلخ. فهذه العناصر من النص لا يمكن تحويلها إلى صور. وعلى المنوال نفسه يرَد عمل الحلم مضمون أفكار الحلم إلى مادتها الخام المتكونة من أشياء وأفعال. وأنتم سيطيب لكم بلا شك لو تسنت لكم الإمكانية لترجمة هذه العلاقات غير القابلة

٣ - بينما كنت أصحح بروفات هذه الصفحات، وقع نظري اتفاقاً على خبر في صحيفة أنقله هنا لما فيه من تعزيز لامتوقع للتأملات التي سبقت:

عقاب الله

«كسر ذراع Armbruch تكفيراً عن زنا Ehebruch».

قدّمت المرأة أنا م.. زوجة جندي احتياطي، شكوى ضد المرأة كليمانتين ك... بتهمة الزنى، وقالت في شكواها إن المرأة ك أقامت مع م علاقات آثمة، فيما زوجها في الجبهة، حيث كان يرسل إليها منها ٧٠ كوروناً شهرياً. كما سبق للمرأة ك أن تلقت من زوج الشاكية مالاً كثيراً، فيما كانت الشاكية نفسها تعاني وابنها الجوع والعوز. وقد روى زملاء م للشاكية أن زوجها تردد برفقة المرأة ك على الحمارات حيث كان يبقى حتى ساعة متأخرة من الليل. بل إن المرأة ك سألت مرة زوج الشاكية، أمام عدد من العساكر، عما إذا لم يقرّ قراره على هجر «امراته العجوز» ليعيش وإياها. وقد رأت صاحبة المنزل الذي تقيم فيه ك. زوج الشاكية ينتقل مراراً في حجرة عشيقته وهو شبه عار.

«وبالألمس، وأمام قاض من ليوبولدشتات ادّعت المرأة ك أنها لا تعرف م، وأنكرت بالتالي أن تكون لها أي صلات حميمة به. لكن الشاهدة الأيرتير م شهدت أنها فاجأت المرأة ك وهي تقبل زوج الشاكية. «وكان م، وقد دعي في جلسة سابقة إلى الشهادة، قد أنكر بدوره كل صلة بالمرأة ك. لكن القاضي استلم بالألمس رسالة يتراجع فيها م عن الشهادة التي أدلى بها سابقاً ويقرّ بأن المرأة ك كانت عشيقته حتى شهر حزيران/ يونيو الماضي. ولئن أنكر كل صلة له بهذه المرأة، في الاستجواب السابق، فلأنها جاءت قبل ذلك وتوسلت إليه راکعة أن يتخذها فلا يعترف بشيء. وأضاف الشاهد قوبه في خطابه: «أما اليوم فأراني مكبراً على أن أقول للمحكمة الحقيقة كلها: فقد كسرت ذراعي اليسرى، وأنا اعتبر هذا الحادث قصاصاً أنزله الله بي على جريرتي».

ولما لاحظ القاضي أن الفعلة استحققة للعقوبة تقادمت إذ ارتكبت قبل أكثر من سنة، سحب الشاكية دعواها، وأخلّى سبيل التهمة.

للممثل العيني إلى صور تتسم بقدر أكبر من الرهافة. وعلى هذا النحو، بالفعل، يفلح عمل الحلم في التعبير عن بعض أجزاء مضمون أفكار الحلم الكامنة بالخواص الشكلية للحلم الظاهر، كأن يضيف عليه قدراً من الوضوح أو الغموض، وكأن يقسمه إلى عدد من الأقسام، إلخ. وعدد الأحلام الجزئية التي ينقسم إليها الحلم الكامن يطابق بوجه عام عدد الموضوعات الرئيسية وسلاسل الأفكار التي يتألف منها هذا الأخير؛ وكثيراً ما يضطلع الحلم التمهيدي المقتضب بالنسبة إلى الحلم الرئيسي التالي له بدور تقديم أو تعليل، كما أن الفكرة الثانوية التي تتضاف إلى الأفكار الرئيسية يستعيز عنها الحلم الظاهر بتغيير في المنظر ضمن السياق الرئيسي الذي تدور فيه أحداث الحلم الكامن. وهكذا دواليك. بل إن شكل هذه الأحلام بالذات لا يكون غفلاً من الدلالة والأهمية، ويتطلب هو الآخر تأويلاً. وإذا ما تعاقبت عدة أحلام في ليلة واحدة فغالباً ما تكون متماثلة الدلالة والأهمية، وتنم عن مجهود متعاضد للسيطرة على تنبيه متزايد الشدة. ثم إن العنصر المتميز بصعوبته يمكن أن يمثل في الحلم الواحد بعدة رموز أو نظائر.

إذا مضينا في هذه المقارنة بين الأفكار الحلمية وبين الأحلام الظاهرة التي تنوب منابها، طالعنا من كل صوب أشياء لم نكن نتوقعها. من ذلك، على سبيل المثال، أن نعلم أن لامعقولية الأحلام بالذات لها دلالتها الخاصة. وبوسعنا أن نقول إن الخلاف بين التصور الطبي والتصور التحليلي النفسي للحلم يصل عند هذه النقطة إلى درجة من الحدة يكاد يغدو معها مطلقاً. فبموجب تصور الأطباء يتحتم أن يكون الحلم لامعقولاً لأن النشاط النفسي الذي هو ثمرته فاقد القدرة على إبداء أي حكم نقدي؛ أما بموجب تصورنا نحن فإن الحلم يغدو لامعقولاً، على العكس، حالما تتضمن أفكار الحلم نقداً وتنطوي على حكم مؤداه: «هذا لامعقول». ولديكم مثال جيد على ذلك في الحلم الذي سبق أن سردته لكم، والمتعلق بالرغبة في حضور عرض مسرحي (ثلاث تذاكر بفلوران ونصف فلوران). فقد كان الحكم الصادر في هذه المناسبة: «كان بُعداً عن المنطق أن أبكر بالزواج».

ونكتشف، أثناء التأويل أيضاً، ما دلالة الشكوك والريب التي كثيراً ما يفصح

عنها الحالم حول ما إذا كان عنصر بعينه هو الذي تظاهر في الحلم فعلاً، وما إذا كان هذا العنصر هو حقاً العنصر الظنين أو المفترض وليس غيره؟ فأفكار الحلم الكامنة لا تنطوي بوجه عام على شيء مناظر لهذه الشكوك والريب؛ فهي محض نتيجة للرعاية، ومن الواجب علينا أن نعتبرها بمثابة محاولة للحذف والقمع لم تصب إلا قدراً مجزوءاً من النجاح.

ومن أعجب المشاهدات ما نلاحظه بصدد الكيفية التي يعامل بها عمل الحلم التعارضات والتناقضات التي تقوم في قلب الحلم الكامن. وقد رأينا من قبل أن العناصر المتشابهة في المواد الكامنة يستعاض عنها في الحلم الظاهر بتكثيفات. والحال أن الأضداد تعامل هنا معاملة الأشباه، ويعبّر عنها بعنصر واحد تفضيلاً وإثارةً. وعلى هذا، إن عنصر الحلم الظاهر الذي يكون له نقيضه يمكن أن يشير إلى نفسه، أو إلى هذا النقيض، أو إلى الاثنين معاً، فلا نستطيع أن نقطع بتأويل إلا بحسب المعنى العام. وهذا ما يفسر أننا لا نجد أبداً في الأحلام تمثيلاً للكلمة «لا»، أو على الأقل تمثيلاً لا يحتمل اللبس.

هذا المسلك الغريب الذي يسلكه إخراج الحلم يجد شبيهاً مؤاتياً في تطور اللغة. فقد لاحظ عدد من فقهاء اللغة أن الأضداد في أقدم اللغات يعبر عنها بجذر واحد: قوي - ضعيف، مشرق - مظلّم، كبير - صغير (وهذا ما يعرف بـ «طباق المعاني في الكلمات البدائية»)^(٤). ففي اللغة المصرية القديمة كانت كلمة كين تعني في الأصل قوياً وضعيفاً. وتقادياً لسوء الفهم الذي قد ينجم عن استخدام مثل هذه الألفاظ المتلبسة، كان قدامى المصريين يلجؤون، في لغتهم المنطوقة، إلى قرن الكلام بنبرات وحركات تتنوع بتنوع المعنى الذي يريدون إعطاءها للكلمة. أما في اللغة المكتوبة فكانوا يشفعون الكلمة بصورة تعيينية، أي بصورة ليس الغرض من رسمها النطق بها. فعندما كانوا يكتبون كين بمعنى القوي، كانوا يتبعون الكلمة بصورة رجل منتصب، وإذا ما أرادوا بكلمة كين معنى الضعيف، أشفعوها بصورة رجل في وضع الاسترخاء. وفي طور لاحق

٤ - لفرويد مقال بهذا العنوان كتبه سنة ١٩٠٢ تعليقاً على كتاب يحمل العنوان نفسه لكارل آيل صدر سنة ١٨٨٤. انظر ترجمتنا لهذا المقال في إبليس في التحليل النفسي. ص ١٠٠.

فحسب، وبعد ما طرأ على الكلمة الأصلية من تحوير طفيف، ظهرت إلى حيز الوجود لفظة خاصة بكل معنى من المعنيين الطباقين اللذين كانت تنطوي عليهما الكلمة الأصلية. وهكذا تفرعت كين (القوي/ الضعيف) إلى كلمتين: كين بمعنى القوي، وكان بمعنى الضعيف. وقد احتفظت بعض اللغات بالأحدث عهداً، وبعض اللغات الحية في أيامنا هذه، بآثار كثيرة من هذا الطباق البدائي في المعنى. وسأسوق إليكم بعض أمثلة أقتبسها من ك. آيبل (١٨٨٤) (٥).

في اللاتينية نلتقي كلمات مزدوجة المعاني من أمثال:

Altus = (مرتفع وعميق) Sacer (مقدس وملعون) (٦).

وهاكم بعض أمثلة على التحوير الذي يصيب جذر الكلمة الواحد:

Clamare (صرخ) و Clam (صامت، وديع، خفي).

Siccus (جاف) و Succus (عصير).

ولنضف بالرجوع إلى الألمانية: Stimm (صوت) و Stumm (أخرس).

والمقارنة بين اللغات المتحدرة من أسرة واحدة تزودنا بأمثلة كثيرة من النوع نفسه:

في الإنكليزية Lock (أغلق بالمفتاح)، وفي الألمانية Loch (ثقب) و Lucke (فجوة).

في الإنكليزية Cleave (شَقَّ)، وفي الألمانية Kleben (لصق).

والكلمة الإنكليزية Without معناها الأصلي مع / بدون، لكنها لا تستخدم اليوم إلا بمعنى بدون؛ وأما أن اللفظ With أريد به لا الإضافة فقط، بل كذلك الطرح، فهذا ما تبرهنه الكلمتان المركبتان Withdraw و Withhold (٧). والأمر

٥ - كارل آيبل: فقه لغوي ألماني (١٨٣٧ - ١٩٠٦). له معجم عن الجذور المصرية والسامية للغات الهند - أوروبية. ومؤلف الذي يستشهد به فرويد هو: عن معاني الأضداد للكلمات الأصلية الواحدة. «م».

٦ - في العربية أيضاً، وكمقابل لـ Sacer، نقول: الحزم، وهو ما يحمي الرجل وما لا يحل انتهاكه، ونقول الحرم والحرام وهو ضدّ الحلال، ونقول الحرمة وهو ما وجب القيام به من حقوق الله. إذاً فالحزم هو ما كان مقدساً وملعوناً في آن واحد. «م».

٧ - ومعناها على التوالي: انسحب واستبقى. «م».



بالمثل في الكلمة الألمانية Wieder^(٨).

وثمة خاصية أخرى من عمل الحلم لها ما يناظرها في تطور اللغة. ففي المصرية القديمة، وفي لغات أخرى أحدث عهداً، كثيراً ما يقلب ترتيب الحروف في الكلمة ذات المعنى الواحد مع الانتقال من لغة إلى أخرى. وهاكم بعض أمثلة مستقاة من المقارنة بين الإنكليزية والألمانية:

Pot = Topt (قدر).

Tub = Boat (قارب - زورق).

Ruhe = Hurry (تعجل - استراحة).

Club - Kloben = Balken (عضادة - حطبة - عصا).

Tauwen - Wait (انتظر).

أما المقارنة بين اللاتينية والألمانية فتعطينا:

packen - Capere (حزم أو أمسك).

Niere - Ren (كلوة).

إن نظير هذا القلب يحدث في الحلم بطرق مختلفة شتى. وقد عرفنا من قبل قلب المعنى أو إبدال المعنى بنقيضه. فضلاً عن ذلك يحدث في الحلم قلب للمواقف وللعلاقات بين شخصين، فكأن كل شيء يجري في «عالم معكوس». فالأرنب هو الذي يطارد الصياد في كثير من الأحيان في الحلم. وقد يتعرض تسلسل الأحداث أيضاً لقلب، فإذا بالمقدمات أو العلل يأتي ترتيبها بعد النتائج أو المعلولات. وما أشبه ذلك بما يحدث في التمثيليات التي تمثل في الأسواق والمعارض الشعبية، حيث يسقط البطل صريعاً حتى قبل أن تدوي من الكواليس طلقة النار المفروض بها أن تقتله. وثمة أيضاً أحلام يُقلب فيها ترتيب العناصر رأساً على عقب، فإذا أردنا الاهتداء إلى معناها كان علينا أن نؤولها بادئين بآخر العناصر، ومنتهين بأولها. وأنتم تذكرون بلا ريب أننا رأينا، في دراستنا رمزية الأحلام، أن الغوص في الماء أو السقوط فيه يعنيان نفس ما يعنيه الخروج منه، أي أن يلد المرء أو يولد، وأن الارتقاء على سلم والصعود على درج يعنيان نفس ما

٨ - Wider = ضد، Wiedery = مع. «م».

يعنيه الهبوط منهما. وبذا يسهل عليكم أن تتبينوا الفوائد التي يمكن أن يجنيها تحريف الأحلام من مثل هذه الحرية في التمثيل.

إن خصائص عمل الحلم هذه يمكن أن توصف بأنها سمات أثرية. فهي قرينة الأساليب القديمة في التعبير واللغات والكتابات القديمة، وترتب عليها إشكالات مماثلة سنعود إلى الخوض في موضوعها لاحقاً متسلحين ببعض الملاحظات النقدية.

ختاماً، هاكم بعض الملاحظات الإضافية. فالغرض من عمل الحلم هو بالبداية تحويل الأفكار الكامنة، المدركة بألفاظها، إلى صور عينية، وفي الأغلب إلى صور ذات طبيعة بصرية. والحال أن أفكارنا جميعاً تنشأ أصلاً من صور عينية؛ فموادها الأولى والمراحل التمهيدية من تطورها تتألف من انطباعات حسية، أو على الأصح من صور ذاكرية لهذه الانطباعات. وإنما في طور لاحق فحسب ترتبط بهذه الصور ألفاظ، ومن اقتران هذه الألفاظ بعضها ببعض تنشأ الأفكار. إذًا، فعمل الحلم يخضع الأفكار لمسار نكوصي، لتطور تراجعي، وأثناء هذا النكوص لا بد أن تزول وتخفي كل المكتسبات الجديدة التي تأتت من تطور الصور الذاكرية وتحولها إلى أفكار.

ذلكم هو، على ما نفترض، عمل الحلم. والعمليات التي كشف لنا عنها قلّصت بالضرورة من اهتمامنا بالحلم الظاهر. لكن بما أن الحلم الظاهر هو الشيء الوحيد الذي نعرفه معرفة مباشرة، فسأخصّه ببعض ملاحظات أخرى.

فإن يفقد الحلم الظاهر بعض أهميته في نظرنا، فهذا أمر طبيعي. فليس يهمننا أن يكون مركباً أو أن يكون مفككاً إلى طائفة من صور منفردة، لا صلة تصل بينها. وحتى لو كان له ظاهر دالّ، فإننا نعلم أن هذا الظاهر يدين بمنشئه لتحريف الحلم، وأنه لا تقوم بينه وبين المضمون الداخلي للحلم علاقة عضوية، إلا كما قد تكون العلاقة بين واجهة كنيسة إيطالية وبين مبناها وتصميمها^(٩). وقد يكون حتى لواجهة الحلم هذه في بعض الأحوال دلالة تستقيها من كونها

٩ - واجهات الكنائس الإيطالية تزخر عادة باللوحات الفنية بينما جدرانها الخارجية فقيرة الزخرفة. «م».

تسخ بلا تحريف أو بتحريف طفيف للغاية عنصراً هاماً من العناصر المكونة لأفكار الحلم الكامنة. غير أن هذه الواقعة لا يطالها إدراكنا ما لم نعلم بتأويل الحلم الذي يتيح لنا أن نقدر مبلغ التحريف. وتقوم مثل هذه الشبهة حين نكون بصدد عنصرين من الحلم يرتبط واحدتهما بالآخر في ظاهر الأمر ارتباطاً وثيقاً. فقد يكون لدينا هنا مؤشر ثمين يتيح لنا أن نجتمع أيضاً ما يناظر هذين العنصرين في الحلم الكامن، لكن من الممكن في أحوال أخرى أن نتحقق من أن العناصر المتلاحمة في الأفكار الكامنة تكون قد فُككت وفُصلت في الحلم الظاهر.

ينبغي أن نحاذر بوجه عام من محاولة تفسير جزء من الحلم الظاهر بجزء آخر منه، كما لو أن الحلم كل واحد متماسك أو تمثيل متلاحم الأجزاء. إنما الحلم بالأحرى، وفي أغلب الأحوال، أشبه بفسيفساء جمعت من قطع من أحجار شتى رُصف بعضها بجانب بعض، فانقطع الشبه بين الصور الناتجة عن ذلك وبين الأشكال الأصلية للحجارة التي اقتطعت منها هذه القطع. والواقع أن الأحلام تشتمل على صياغة ثانوية تتكفل بتحويل معطيات الحلم المباشر إلى كل شبه متلاحم، ولكنها ترتب في الوقت نفسه المواد ترتيباً تستغل مع على الفهم تماماً، وتكملها حيثما اقتضى الأمر تكملتها.

ومن جهة أخرى لا يجوز لنا أن نسرف في أهمية عمل الحلم، أو أن نولي ثقة أكبر مما يستأهل. فنشاطه ينحصر بتلك الطرائق التي عدناها: التكثيف، النقل والإزاحة، التمثيل التشكيلي، ثم إخضاع ذلك كله لصياغة ثانوية، وذلك هو كل ما يستطيعه عمل الحلم، وليس أكثر. أما الأحكام والتقييمات النقدية والاندهاش والاستنتاج وغير ذلك مما يحدث في الأحلام، فليست على الإطلاق من نتيجة عمل الحلم، كما أنها ليست، إلا فيما ندر، نتيجة التأمل في الحلم بعد حدوثه: وإنما هي في أكثر الأحيان تنف من الأفكار الكامنة انتقلت إلى الحلم الظاهر بعد أن طرأ عليها بعض التحوير وحظيت ببعض التكيف المتبادل. كذلك لا يسع عمل الحلم أن يخلق أحاديث ومحاورات. وما خلا بضع حالات استثنائية، فإن الكلام الذي يسمعه الحالم أو ينطق به في الحلم إن هو إلا صدى

أو رصف من كلام سمعه الحالم أو نطق به في النهار السابق للحلم، فاحتل مكانه بين الأفكار الكامنة ليكون من ثم مادة للحلم أو منبهاً له. ولا تدخل الحسابات أيضاً ضمن صلاحيات عمل الحلم؛ والحسابات التي قد يشتمل عليها الحلم الظاهر هي في أغلب الأحوال رصف لأعداد، أو حساب كاذب غير ذي معنى على الإطلاق، أو محض نسخة عن الحساب المضمّر في أفكار الحلم الكامنة. وعلى هذا، لا يجوز لنا أن نستغرب إذا ما تحول الاهتمام الذي كنا ركزناه على عمل الحلم إلى الأفكار الكامنة التي تفصح عن نفسها في الحلم الظاهر بقدر أو بآخر من التحريف. غير أننا نخطئ لو شططنا في تغيير اتجاهنا إلى حدّ لا نعود نتكلم معه، في محاكمتنا النظرية، إلا عن أفكار الحلم الكامنة، فنستعيز بها عن الحلم برمته، ونصوغ بصدد هذا الأخير أحكاماً لا تصدق إلا على هذه الأفكار الكامنة وحدها. ومن العجب أن يسيء بعضهم استخدام معطيات التحليل النفسي ليقع نفسه في مثل هذا الخلط. فلسنا نستطيع أن نطلق اسم «الحلم» إلا على نتيجة عمل الحلم، أي على الشكل الذي يحوّل إليه هذا العمل الأفكار الكامنة.

إن عمل الحلم سيرورة من طراز خاص، لا نعرف لها نظيراً بعد في الحياة النفسية. فما ضروب التكثيف والإزاحة والنقل، والتحويل النكوصي للأفكار إلى صور، إلا مستحدثات طارفة، في معرفتها خير مكافأة للجهود التحليل النفسي. ثم إنه يسعنا، من جهة أخرى، وقياساً إلى عمل الحلم، أن نتحقق من الروابط التي تربط المباحث التحليلية النفسية بمبادئ أخرى مثل تطور اللغة والفكر. ولن يتهيأ لكم أن تقدّروا أهمية هذه الأفكار حق قدرها إلا متى عرفتم أن الآليات التي تتحكم بعمل الحلم نماذج للآليات التي تتحكم بنشوء الأعراض العصائية.

إنني أعرف أيضاً أنه لا يسعنا بعد أن نستوعب بنظرة شاملة واحدة كل المكاسب الجديدة التي يمكن لعلم النفس أن يجنيها من هذه المباحث. إلا أنني حريص على أن ألفت انتباهكم إلى البراهين الجديدة التي تأتي لنا أن نظفر بها لتأييد وجود أفعال نفسية لاشعورية (وما أفكار الحلم الكامنة إلا وجه لذلك)،

وكذلك إلى المنفذ اللامتوقع الذي يفتحه تأويل الأحلام لأولئك الذين تساورهم
الرغبة في معرفة الحياة النفسية اللاشعورية.
والآن حان الوقت، على ما أعتقد، لأحلل أمامكم بعض أمثلة لأحلام
مقتضبة، كيما أفصل لكم ما لم أحدثكم عنه حتى الآن إلا بصورة مجملة
وعامة، وعلى سبيل الإعداد والتهيئة.

المحاضرة الثانية عشرة

تحليل أمثلة من الأحلام

سيداتي سادتي، لا تأخذكم الحيرة إذا لم أقدم لكم هذه المرة أيضاً سوى تأويل نتف من أحلام بدلاً من أن أدعوكم إلى المشاركة في تأويل حلم طويل جميل. وأنتم ترون بلا ريب أن من حقكم بعد طول إعداد وتهيئة أن تُعاملوا بمزيد من الثقة، وتتساءلون: ألم يكن من الممكن، بعد التوفيق في تأويل آلاف من الأحلام، أن تجمع منذ زمن بعيد طائفة ممتازة من أمثلة الأحلام تكون شاهدة بالدلالة القاطعة على صدق ما ادعيته بصدد عمل الأحلام وأفكارها الكامنة؟ ربما كنتم على حق، لكن لا بد لي من أن أحذركم من صعوبات عديدة تعترض سبيل تحقيق رغبتكم.

وفي المقام الأول أحرص على إعلامكم بأنه لا وجود لأشخاص جعلوا من تأويل الأحلام شاغلهم الرئيسي. فمتى تسنح للمرء الفرصة لتأويل الأحلام؟ قد يهتم واحدنا أحياناً، بلا غرض خاص، بأحلام شخص صديق له، أو قد يركز اهتمامه لفترة من الزمن على أحلامه الشخصية كيما يتدرب على التقنية التحليلية النفسية؛ لكننا نتعامل في أغلب الأحيان مع أحلام الأشخاص العصبيين، الخاضعين للمعالجة التحليلية النفسية. هذه الأحلام الأخيرة تؤلف مادة نفيسة، وليست بحال من الأحوال دون أحلام الأسوياء من الناس قيمة، غير أن خطة المعالجة ترغمنا على ربط تأويل الأحلام بمقتضيات العلاج وعلى التوقف عن متابعة تحليل عدد كبير من الأحلام حالما نفلح في أن نستخلص منها معطيات قابلة للاستخدام لأغراض علاجية. وبعض الأحلام، وبخاصة تلك التي يراها الحالم أثناء استشفائه، تستعصي على التأويل الكامل. وبما أنها تصدر عن جملة المواد النفسية التي لا تزال على جهل بها، فلن يتسنى لنا أن نفهمها إلا بعد انتهاء

العلاج. ولو شئت أن أعرض لكم هذه الأحلام لتعَيَّن عليَّ أن أزيح أمامكم النقاب عن جميع أسرار الأمراض العصائية، وهذا لا يتفق مع ما عقدنا عليه النية، إذ إننا لا نرى في دراسة الحلم إلا تمهيداً وتحضيراً لدراسة الأعصبة.

وما دام الأمر كذلك، فقد تعزفون بطيبة خاطر عن مثل هذه الأحلام لتسمعوا تفسير أحلام أشخاص أسوياء أو تفسير الأحلام التي ترونها بأنم أعينكم. لكن هذا أيضاً يكاد أن يكون متعذراً، بالنظر إلى مضمون هذه الأحلام. إذ يكاد يستحيل أن يدلي المرء باعترافاته بنفسه أو أن يحمل من وضع فيه ثقته على الجهر بكل الخفايا التي قد يكشف عنها التأويل الكامل لأحلامه التي تَمَسُّ، كما تعلمون، صميم شخصيته. وعلاوة على صعوبة الظفر هذه بالمواد، فتمة سبب آخر يعترض سبيل الجهر بالأحلام. فالحلم، كما تعلمون، يظهر للحالم نفسه غريباً: فكَم سيطهر غريباً بالأحرى لأولئك الذين لا يعرفون شخص الحالم. غير أن أدبيات التحليل النفسي لا تعدم أمثلة جيدة وكاملة لتحليل الأحلام، وقد نشرت بنفسى بعضاً منها في سياق مشاهداتي عن بعض المرضى. ولعل خير مثال على التأويل هو ذاك الذي نشره أوتو رانك^(١). ويتصل المثال المذكور بحلمين حلمت بهما فتاة، وكل منهما ذو صلة بالآخر. ولا يشغل عرضهما أكثر من صفحتين طباعيتين، بينما يستغرق تحليلهما ستاً وسبعين صفحة. ولعلي سأحتاج إلى نصف سنة دراسية لأنجز وإياكم عملاً من هذا القبيل. وعندما نتصدى لتأويل حلم على قدر من الطول، وعلى جانب كبير من التحريف، فإننا نحتاج إلى كثير من الإيضاحات، ويتعيَّن علينا أن نأخذ في اعتبارنا كثيراً من الخواطر والذكريات التي تتوارد إلى ذهن الحالم، وأن ننورط في كثير من الاستطرادات، بحيث لا يمكن لمحاضرة واحدة مهما طالت أن تعطىكم البتة فكرة واضحة عن هذا العمل في جملته. إذ لا مناص لي من أن أطلب إليكم أن تقنعوا بما يسهل الظفر به، أعني سرد نتف صغيرة من أحلام أشخاص عصاييين ودراسة عناصر منفردة منها. ورموز الحلم وبعض خصائص تقديم الحلم وفق النمط الكوسى هي الأيسر قابلية

١ - الإشارة هنا إلى المقال الذي نشره أوتو رانك عام ١٩١٠ تحت عنوان: حلم يقشّر نفسه بنفسه. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

للعرض. وسأطلعكم، بصدد كل حلم من الأحلام التي ستلي، على الأسباب التي تجعلها تستأهل برأيي أن تُسرد وتروى.

١ - إليكم حلماً يتألف من صورتين موجزتين: رأى الحالم عمه يدخن سيجارة مع أنه في يوم سبت، ورأى امرأة تعانقه وتداعبه وكأنه طفلها.

بصدد الصورة الأولى أبلغنا الحالم، وهو يهودي، أن عمه، وهو رجل ورع، لم يرتكب وما كان له قط أن يرتكب خطيئة كهذه^(٢). أما المرأة التي تظهر في الصورة الثانية، فلا يذكر بصدها إلا أمه. ومن المحقق أنه توجد بين هاتين الصورتين أو الفكرتين علاقة ما. ولكن أيها؟ بما أن فعله عمه لا يمكن أن يكون لها بحال من الأحوال أساس من الواقع، فإننا سنميل إلى الجمع بين الصورتين بعلاقة شرطية زمانية: «إذا كان لعمي، وهو الرجل الورع، أن يقدم على تدخين سيجارة يوم سبت، فلي أن أدع أُمي تداعبني». وهذا معناه أن المداعبات المتبادلة مع الأم ليست مما يباح بأكثر مما هو مباح لليهودي تقي أن يدخن يوم سبت. وقد سبق أن أعلمتكم، ولعلكم تذكرون في الأرجح، أن جميع العلاقات والصلات بين أفكار الحلم تزول وتختفي في أثناء عمل الحلم، وأن هذه الأفكار نفسها ترد إلى حالة المواد الخام، وأن مهمة التأويل هي بالتحديد إرجاع هذه العلاقات والصلات إلى ما كانت عليه قبل زوالها واختفائها.

٢ - بعد أن نشرت ما نشرته عن الحلم صرت، إلى حدّ ما، مستشاراً رسمياً في الشؤون المتصلة بالأحلام، وأنا أتلقى منذ سنوات رسائل من كل حذب وصب، يسرد لي فيها مرسلوها أحلامهم أو يسألونني رأيي في أحلام معينة. واني لممتن بطبيعة الحال لكل من يبعث إليّ بمواد كافية للتأويل، ولكل من يقترح بنفسه تأويلاً. من هذه الأحلام حلم أبلغني به سنة ١٩١٠ طالب طب في ميونيخ. وسأسرده لكم لأبين لكم كم يصعب بوجه عام فهم الحلم إن لم يردفه حالمه بكل المعلومات اللازمة. وسأجيبكم أيضاً الوقوع في خطأ فادح، لأنه يلوح لي أن لكم ميلاً إلى اعتبار تأويل الأحلام بالاستناد إلى الرموز هو التأويل الأمثل،

٢ - التدخين، وإشعال النار بوجه عام، يوم السبت يُعدّ لدى اليهود خطيئة كبيرة. «م».

وإلى النظر بالتالي بعين الازدراء إلى التقنية القائمة على أساس التدايعات والخواطر التي تتوارد إلى الذهن بصدد الأحلام.

«١٣ تموز/ يوليو ١٩١٠: عند الصباح حلمت بالحلم التالي: رأيتني أهبط بدراجتي شارعاً في توبغن^(٣)، فإذا بكلب أسود ينقضّ ورائي ويمسك بي من عقبي. بعد ذلك بقليل ترجلت وجلست على درج وأخذت أدافع الحيوان عني وهو ينبع حنقاً (لا العضة ولا المشهد التالي لهما أشعراني بأي إحساس مستكره). وكانت تجلس قبالي سيدتان متقدمتان في السن ترمقاني بنظرات هازئة. عندئذ استيقظت، ولكن في اللحظة التي نفضت فيها عن جفوني أثر النوم تبدى لي حلمي كله جلياً واضحاً، وهذا شيء حصل لي تكراراً».

إن الرموز لن تسعفنا هنا ولن يكون لنا فيها كبير غناء. لكن الحالم يعلمنا بما يلي: «كنت منذ عهد قريب وقعت في حب فتاة لا صلة لي بها سوى أنني التقيتها مراراً في الطريق من دون أن تسنح لي فرصة للتعرف إليها. ولقد كان يغبطني لو أتاح لي هذه الفرصة كلبها، لأنني أحب الحيوانات حباً جماً. وقد تراءى لي بسرور عظيم أن عاطفة مماثلة تجاه الحيوانات تعتمل في نفس الفتاة». ويضيف بعد ذلك أنه كثيراً ما حدث له أن تدخل ببراعة، وعلى دهش عظيم من الناظرين، ليفصل بين كلاب تنهاش. ويعلمنا كذلك أن الفتاة التي وقعت من نفسه موقعاً حسناً كانت تُرى دوماً برفقة ذلك الكلب الأسود. ولكن هذه الفتاة أُسْتُعِدَّت من الحلم الظاهر، فلم يبقَ فيه سوى كلبها القرين بها. ومن الجائز أن تكون السيدتان الهازئتان منه قد أُسْتُحْضِرَتَا كبديل عنها. والمعلومات اللاحقة التي زوّدنا بها لا تكفي لإيضاح هذه النقطة. أما ركوبه دراجة في حلمه فهو استنساخ مباشر للموقف كما يتذكره، إذ ما كان يلتقي الفتاة وكلبها إلا وهو راكب دراجة.

٣ - حين يفقد المرء قريباً عزيزاً عليه، يحلم لمدة طويلة من الزمن بأحلام ذات

٣ - توبغن: من مدن ألمانيا تقع إلى الجنوب من شتوتغارت. «م»

طابع خاص تتجلى فيها تسويات عجيبة بين التيقن من الموت وبين الحاجة إلى ردّ الميت إلى الحياة. فتارة يُرى الفقيد حياً، مع أنه ميت، لأنه (أي الفقيد) لا يعرف أنه ميت، فكأنه لا يموت فعلاً إلا إذا عرف بذلك، وطوراً يُرى بين الموت والحياة؛ وكل حالة من هاتين الحالتين تتميز بعلامات خاصة. ومن الخطأ أن نصم هذه الأحلام بالخلف وانعدام المنطق، إذ إن الارتداد إلى الحياة لا يجوز أن يكون مرفوضاً في الأحلام مع أنه حدث شائع في الحكايات مثلاً. وبقدر ما تسنى لي أن أحلل هذه الأحلام، وجدتها قابلة لتفسير معقول، وإن تكن الرغبة البارة في ردّ الميت إلى الحياة تشقّ طريقها إلى الإشباع بأعجب الوسائل وأغرب الطرق. وسأسرد عليكم حلماً من هذا النوع، وقد يبدو لكم غريباً وشاذاً عن المألوف والمنطق، غير أن تحليله سيكشف لكم عن بعض تفاصيل لا يعسر عليكم توقعها انطلاقاً مما تقدم من مناقشاتنا النظرية. إنه حلم رجل فقد أباه قبل عدة سنوات.

أبي ميت، لكنه نبش من قبره، والمرض على سحنته بادٍ. وهو لا يزال على قيد الحياة منذ نبشه، وقد بذلت كل ما في وسعي لأحول بينه وبين التبه إلى ذلك (وهنا ينتقل الحلم إلى أشياء أخرى بعيدة الصلة في ظاهرها عن هذا الموضوع).

الأب ميت: هذه واقعة نعرفها. لكن نبشه من القبر لا يطابق الواقع كما لا تطابقه تفاصيل الحلم اللاحقة. غير أن الحالم يروي أنه لدى إيابه من جنازة أبيه أحسن بوجع في أسنانه. وقد شاء أن يعالج السن المريضة عملاً بسنة الدين اليهودي: «إن أوجعتك سنك، فاقتلعها»، وقصد بالفعل طبيب الأسنان. غير أن هذا قال له: «السن لا تقتلع. عليك بالصبر. سأضع لك شيئاً فيها يمتتها. عد بعد ثلاثة أيام، فأستخرجها لك». وعلى حين غرة قال الحالم: هذا «الاستخراج» هو المناظر لنبش الجثة.

أحقّ صاحبنا في ما ادعاه؟ ليس كل الحق، فليست السن هي المطلوب استخراجها، وإنما الجزء الميت منها. ولكن هذا التفصيل، الذي تعوزه الدقة، كثيراً ما يتكرر نظيره في الأحلام بحسب خبرتنا. وفي هذه الحال يكون الحالم قد قام بتكثيف، فدمج معاً الأب الميت والسن المماتة والمحافظ عليها مع ذلك. ولا

عجب أن ينجم عن ذلك في الحلم الظاهر شيء بعيد عن العقل والمنطق، لأن ما يتصل بالسن لا يمكن أن ينسحب كله على الأب.

فأين يمكن أن يوجد، والحال هذه، ذلك الجامع المشترك بين الأب والسن الذي أتاح إمكانية التكثيف الذي التقيناه في الحلم الظاهر؟

من المحتمل مع ذلك أن يكون ثمة علاقة بين الأب والسن، لأن الحالم يخبرنا أنه يعلم أن الإنسان حينما يرى في منامه سناً تقع، فهذا يعني أنه على وشك أن يفقد فرداً من أسرته.

نحن نعلم أن هذا التأويل الشعبي غير صحيح، أو أنه لا يصح إلا بمعنى خاص، أي على سبيل المرحه. وعلى هذا، فستكون دهشتنا أعظم عندما نجد هذه الموضوعه كامنة وراء جميع عناصر مضمون الحلم.

وهنا طفق صاحب الحلم، من دون أن نلح عليه، يحدثنا عن مرض أبيه ووفاته، وكذلك عن موقفه منه. فقد دام مرض الأب طويلاً، وتكلف الابن مالاً كثيراً في معالجته وتوفير العناية له. ومع ذلك لم ينبس الابن ببنت شفة تشكياً، ولم يظهر قط ضيق صبر، ولم يفصح بتاتاً عن رغبة في أن تؤول الأمور إلى نهايتها المحتومة. بل تباهى بأنه ما ساوره إزاء أبيه إلا شعور بالورع صادق في يهوديته، وبأنه راعى على الدوام الشريعة اليهودية أدق مراعاة. أفلم يفجأكم ما في الأفكار المتصلة بالحلم من تناقض؟ لقد أقام صاحبنا ممهاة بين السن والأب. وأراد أن يتصرف حيال السن وفق الشريعة اليهودية التي تنص على وجوب اقتلاعها حالما تتحول إلى علة للوجع والتغصيص. وإزاء الأب أيضاً أراد أن يتصرف وفق الشريعة التي تأمر في هذه الحال بالأب يضيق الابن ذرعاً بالنفقات وبالمنغصات، وبأن يتحمل صابراً الامتحان، وبأن ينتهي عن كل نية عدوانية إزاء الموضوع الذي هو علة الألم. ولكن أما كان التشابه بين الموقفين يكون أقرب إلى التمام فيما لو ساورت الابن إزاء أبيه مشاعر مماثلة لتلك التي ساورته إزاء السن، أي فيما لو تمنى أن يضع الموت حداً للوجود المؤلم واللامجدي والمكيف للأب؟ إنني لموقن أن هذه كانت فعلاً مشاعر حالمنا إزاء أبيه في أثناء مرضه المصنك، وأن احتجاجاته الصاخبة المفعمة بالبر البنوي لم يكن الغرض منها إلا صرف

انتباهه عن هذه الذكريات. وفي أمثال هذه المواقف لا يندر أن تفصح الرغبة في أزوف ساعة الموت عن نفسها، وإن تنكرت في إهاب من الرحمة والشفقة كأن يقول المرء: إن الموت سيضع حداً لعذابات المريض الذي يتوجع. على أنني أرجو أن تلاحظوا أننا نتخطى هنا حدّ الأفكار الكامنة نفسها. فأول تدخل من جانب هذه الأفكار لم يكن بكل تأكيد لاشعورياً إلا الحين وجيز من الزمن، أي في أثناء صياغة الحلم؛ وبالمقابل، إن المشاعر العدائية تجاه الأب موجودة في أكبر الظن في حالة لاشعورية منذ عهد بعيد، وربما منذ أيام الطفولة، ولم تشقّ طريقها إلى الشعور إلا عرضاً، وعلى وجل وبتنكر، في أثناء المرض. وبوسعنا أن نؤكد بمزيد من اليقين الشيء نفسه فيما يتصل بأفكار كامنة أخرى أسهمت بقسطها في تكوين مضمون الحلم. صحيح أننا لا نعثر في الحلم على أثر لمشاعر العداء حيال الأب. لكن لو نقبنا عن أصل هذا العداء للأب في طور الطفولة، لتذكرنا أنه يكمن في الخوف الذي يثبته فينا الأب: فهو يشرع منذ عهد مبكر بكبح النشاط الجنسي للصبي، ولا يفتأ يضرب قيوداً على هذا النشاط، لدواع اجتماعية، حتى في سن ما بعد البلوغ. ويصدق هذا أيضاً على موقف صاحبنا من أبيه: فقد كان حبه مشوباً بقدر عظيم من الاحترام والخوف، مصدرهما الرقابة التي فرضها الأب على النشاط الجنسي للابن في زمن مبكر.

أما تفاصيل الحلم الظاهر الأخرى فتجد تفسيرها في عقدة الاستمنااء. فالبارة التي وردت في سرده للحلم: «المرض على سحنته بادٍ» يمكن أن تكون تلميحاً إلى ما ذكره له طبيب الأسنان من أن فقد سن من ذلك الموضع يمكن أن يكون نذير سوء. لكن هذه العبارة قد تكون أيضاً ذات صلة بالسحنة المعتلة التي تشي أو التي يخشى الفتى الذي أدرك سن البلوغ أن تشي بنشاطه الجنسي المسرف. والأرجح أن الحالم فرّج عن نفسه بعض الشيء بأن حوّل في الحلم الظاهر اعتلال السحنة إلى الأب، وهذا بموجب مبدأ القلب في عمل الحلم كما بثّم تعرفون. أما عبارة «لا يزال على قيد الحياة» فتناظر الرغبة في ردّ الميت إلى الحياة، كما قد تتمشى مع الوعد الذي قطعه له الطبيب بإمكان الحفاظ على السن. وبالمقابل، إن عبارة: «بذلت كل ما في وسعي لأحول بينه وبين التنبه إلى ذلك» تنمّ عن إرهاف

كبير، إذ الغرض منها أن توحى إلينا أنه يتوجب علينا أن نستنتج منها: إنه قد مات. والحال أن الاستنتاج الوحيد الذي يمكن أن يعطي هذه العبارة معنى ومدلولاً ينبع هنا أيضاً من «عقدة الاستمناء»، إذ من المفهوم أن يفعل الفتى كل ما بوسعه ليخفي عن أبيه حياته الجنسية. واعلموا بهذا الصدد أننا نضطر على الدوام، في مسعانا إلى تأويل الأحلام التي يدور موضوعها على وجع الأسنان، إلى الإحالة إلى واقعة الاستمناء وما يترتب عليها من الخوف من العقاب.

أنتم تدركون الآن كيف أمكن أن يتشكل ذلك الحلم اللامفهوم. فقد استخدمت في صياغته طرق شتى: تكثيف غريب جداً وخداع، وحذف لجميع الأفكار المتحركة بالمسار الكامن للفكر، واختلاق تشكيلات بديلة ومتعددة الدلالات لتتوب مناب أعمق هذه الأفكار وأبعدها إيغالاً في الزمن.

٤ - حاولنا أكثر من مرة من قبل أن نتصدى لتلك الأحلام البسيطة المبتذلة التي لا تنطوي على شيء غريب أو لامعقول، والتي ينطرح بصدها مع ذلك السؤال التالي: لم يحلم الإنسان بمثل هذه الأشياء التافهة؟ وعليه سأسوق لكم مثلاً جديداً من هذا النوع، قوامه أحلام ثلاثة مترابطة فيما بينها حلمت بها امرأة شابة في ليلة واحدة.

أ - إنها تجتاز بهو شقتها فيصطدم رأسها بالثريا المتدلية من السقف. فكانت النتيجة شجاً دامياً. ولم تذكر السيدة شيئاً ذا صلة بحادث وقع فعلاً. والمعلومات التي قدمتها تشير إلى اتجاه مغاير تماماً. «أنت تعرف كم يتساقط شعر رأسي. بالأمس قالت لي أُمي: إذا استمر الأمر على هذا المنوال، يا ابنتي، فسرعان ما سيصبح رأسك عارياً كمؤخرتك». إذا فالرأس يظهر هنا كرمز إلى الجزء المعاكس له من الجسم. أما المدلول الرمزي للثريا فجلبّي ظاهر: فكل الأشياء المدلاة رمز للعضو الجنسي المذكور. إذا فهو نزيف في القسم السفلي من جذع الجسم نجم عن جرح من إيلاج قضيب. على أن الأمر يقبل معانٍ أخرى؛ فالمعلومات الأخرى التي أدلت بها الحاملة تشير إلى أن الأمر يتصل بالاعتقاد السائد لدى الكثيرات من الفتيات اللاتي لم يدركن بعد سن النضج من أن الطمث ينجم عن الاتصال الجنسي بالرجل.

ب - رأت في الكرم حفرة عميقة تعلم أنها نشأت عن اقتلاع شجرة. وقد لاحظت بهذا الصدد أن الشجرة نفسها مفقودة. فهي تعتقد أنها لم ترَ الشجرة في حلمها، لكن جملتها كلها تفيد في التعبير عن فكرة أخرى تتم عن المدلول الرمزي للشجرة. فهذا الحلم يتصل بنظرية جنسية أخرى تزعم أن البنات الصغيرات يكون لهن في البداية أعضاء جنسية مماثلة لأعضاء البنين، وأن أعضاء المرأة التناسلية لا تتخذ الشكل المعهود إلا بعد عملية خصاء (اقتلاع الشجرة).

ج - كانت تقف أمام درج مكتبها، وكانت تعلم حق العلم بما فيه، بحيث لا يشقّ عليها أن تفتن إلى أي عبث قد تحدثه فيه يد غريبة. أما درج المكتب فهو، نظير كل درج أو علة أو صندوق، تمثيل رمزي لعضو المرأة الجنسي. وهي تعلم أن اثر العلاقات الجنسية (وكذلك الملامسة على ما تعتقد) يبقى ظاهراً للعيان في العضو التناسلي نفسه، وكانت تتوجس خيفة من أن يُضبط أمرها في هذا الحال.

وأنا أعتقد أن أهمية هذه الأحلام الثلاثة تكمن بصورة رئيسية في المعارف الراسخة في ذهن الحاملة: فهي تذكر عهد تنقيباتها الطفلية حول أسرار الحياة الجنسية، وكذلك النتائج التي توصلت إليها والتي كانت لها يومئذ موضع مفاخرة ومباهاة.

هـ - هاكم مثلاً آخر من أمثلة الرمزية. لكن يتعين عليّ هذه المرة أن أستبقه بعرض موجز للموقف النفسي. فقد أمضى رجل ليلة بصحبة امرأة، ووصف شريكته بأنها ذات خلق أمومي، أي أنها من أولئك النساء اللائي تقوم لديهن عاطفة الحب على الرغبة في إنجاب طفل ليس غير. لكن الظروف التي تمّ فيها اللقاء المشار إليه حتمت اتخاذ احتياطات ضد احتمال الحمل، ومعلوم أن في مقدمة هذه الاحتياطات الحؤول دون وصول السائل المنوي إلى عضو المرأة التناسلي. وفي صبيحة اليوم التالي للقاء روت السيدة أنها حلمت بالحلم التالي:

ضابط يرتدي معطفاً أحمر يطاردها في الشارع. راحت تركض وارتقت درج بيتها، وهو لا يزال يتبعها. وصلت لاهثة الأنفاس إلى غرفتها، ودلفت

إليها، وأطبقت الباب وراءها وأغلقتة بالمفتاح. بقي الضابط في الخارج، فأطلت من النافذة فرأته جالساً على مقعد ييكي.

لا يعسر عليكم أن تتعرفوا في مطاردة الضابط ذي المعطف الأحمر لها وارتقائها الدرج بتعجل تمثيل الفعل الجنسي. أما احتماؤها بغرفتها وإغلاقها بالمفتاح هرباً من المطاردة فمثال على القلب الكثير التواتر في الأحلام: فهو إشارة إلى إمساك الرجل عن إنجاز الفعل الجنسي. كذلك أخضعت حزنها لعملية نقل، فعزته إلى شريكها: فقد رأت أنه هو الذي ييكي في الحلم، وهذه إشارة في الوقت نفسه إلى قذف السائل المنوي.

لعله تناهى إلى أسماعكم أن التحليل النفسي يرى أن للأحلام جميعاً مدلولاً جنسياً. وها أنتم الآن في وضع يؤهلكم للحكم على مدى بطلان هذا الافتراض. فقد رأيتم معي أن هناك أحلاماً تدور على تحقيق رغبات وعلى إشباع الحاجات الأولية، من جوع وعطش وحاجة إلى الحرية، ورأيتم أيضاً أن ثمة أحلاماً دعوتها بأحلام الكسل والتلف، وأحلاماً تدور على الشره والطمع، وأحلاماً أنانية. لكن يتعين عليكم أن تأخذوا في اعتباركم أن إحدى النتائج التي انتهى إليها البحث التحليلي النفسي هي التوكيد على أن الأحلام الشديدة التحريف تفيد بصورة رئيسية (وليس جميعها بطبيعة الحال) في التعبير عن رغبات جنسية.

٦ - لديّ على كل حال سبب خاص يحملني على الإكثار من أمثلة استخدام الرموز في الحلم. فمنذ لقائنا الأول حدّثتكم عن مدى ما نواجهه في تعليم التحليل النفسي من عنت في سوق الأدلة والبراهين على مدّعانا، ومن عناء بالتالي في إقناع السامعين. ولقد سنحت لكم منذئذ أكثر من فرصة للتحققوا من صدق قولِي. والحال أن بين مختلف أطروحات التحليل النفسي رابطة وثيقة للغاية، بحيث أن الاقتناع بنقطة من نقاطه يمكن أن ينسحب بسهولة على شطر كبير من مجمل النظرية. ومن الممكن القول عن التحليل النفسي إنه حسبك أن تمدّ إليه أصبعك الصغيرة حتى يقبض على يدك كلها. فمن فهم تفسير الهفوات وأخذ به فلا مناص له، إذا كان منطقياً مع نفسه، من أن يأخذ بكل الباقي.

والحال أن رمزية الأحلام تقدم لنا نقطة أخرى من النقاط التي يمكن الأخذ بها بسهولة. وسأسرد عليكم فيما يلي حلمًا، سبق نشره^(٤)، حلمت به امرأة من سواد الشعب، زوجها شرطي، ولم تسمع قط - هذا محقق - برمزية الأحلام أو بالتحليل النفسي. فاحكموا بأنفسكم إن يكن تأويل هذه الأحلام بواسطة الرموز الجنسية ينطوي - أو لا - على عسف وقسر.

«... دلف أحدهم إلى المسكن، فاستبد بها الفزع ونادت شرطياً. لكن هذا الأخير دخل، بصحبة «لصين»، إلى كنيسة يُرقى إليها بعدة درجات. وكان وراء الكنيسة جبل تغطيه غابة كثيفة. وكان الشرطي يعتمر خوذة ويرتدي واقية عنق ومعطفًا. وكانت لحيته سوداء كثة. أما الأفاقان اللذان يصحبان الشرطي بكل طمأنينة فكانا يرتديان حول الحقوين مئزرين مفتوحين على شكل كيس. وكان ثمة طريق بين الكنيسة والجبل، تغطيه من كلا الجانبين أعشاب وأشواك، وكانت كثافة هذه الأخيرة تتزايد باطراد لتؤلف في أعلى الجبل غابة حقيقية».

إنكم لتدركون بلا غناء الرموز المستخدمة هنا. فالأعضاء التناسلية المذكورة ممثلة بثالوث من الأشخاص، والأعضاء المؤنثة ممثلة بمنظر طبيعي مؤلف من كنيسة وجبل وغابة. وترون الدرجات هنا ترمز إلى الفعل الجنسي. أما ما يسمى بالجبل في الحلم فيطلق عليه في التفسير الاسم نفسه: جبل فينوس Mons Veneris، أي جبل العانة.

٧ - هاكم حلمًا آخر يتعين تأويله بالرموز، وهو حلم يسترعي الانتباه ويحمل على الاقتناع من حيث أن الحالم هو الذي تولى ترجمة رموزه جميعاً، من دون أن يكون له أدنى معرفة نظرية بتأويل الأحلام. وهذه حالة فريدة، ولا نملك فكرة دقيقة عن ظروفها:

«كان يتنزه مع أبيه في موضع آخر هو في أكبر الظن حديقة براتر^(٥)، إذ

٤ - كان فرويد قد روى هذا الحلم نفسه في كتابه تأويل الحلم، وقد استعاره من الطبيب النمساوي ب. دانتر. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٥ - حديقة واسعة في فيينا. «م».

كان يرى منه الطارمة المقيبة^(٦)، وأمامها طفف صغير ربط به منطاد مقيد يبدو في حال ظاهرة من التنفيس. وسأله أبوه عن معنى ذلك، فأدهشه السؤال، ولكنه أجاب مع ذلك بالتفسير المطلوب. ووصلا بعد ذلك إلى فناء بسطت فيه صفيحة كبيرة من التنك. فأراد الأب أن يقطع منها قطعة كبيرة، لكنه نظر حواله ليطمئن إلى أن أحداً لا يرقبه. فقال له ابنه إنه حسبه أن يُخطر الحارس بالأمر حتى يستطيع أن يأخذ منها ما يشاء. وكان في ذلك الفناء درج يفضي إلى حفرة مبطنة الجوانب وكأنها، مثلاً، أريكة من الجلد. وفي قرارة هذه الحفرة رصيف طويل تليه حفرة أخرى...»^(٧).

وقد أول الحالم حلمه بنفسه: «الطارمة المقيبة هي أعضائي التناسلية، وما المنطاد المقيد أمامها إلا قضيب الذي أصاب قدرته على الانتصاب وهن منذ بعض الزمن». وإذا شئتُم ترجمة أدق قلنا: إن الطارمة المقيبة هي الإليتان اللتان يعدّهما الطفل عادة من جملة الجهاز التناسلي، وأما الطنف أمام هذه الطارمة فهو كيس الخصيتين. وحين يسأله أبوه في الحلم عن معنى ذلك، أي عن الغرض من الأعضاء التناسلية ووظيفتها، يسعنا - من دون أن نجازف بالوقوع في الخطأ - أن نقرب الموقف، فنسلم بأن الابن هو الذي يسأل. وبما أن الأب لم يطرح قط في الحياة الواقعية مثل هذا السؤال، فلا مناص لنا من الافتراض بأن هذه الفكرة من أفكار الحلم هي محض رغبة، أو أن نفهمها بصيغة شرطية: «لو سألت أي أن يزودني بمعلومات عن الأعضاء التناسلية...».

وسنرى عما قليل ماذا يمكن أن يكون جواب هذا الشرط.

أما الفناء الذي بسطت فيه صفيحة التنك فلا داعي إلى اعتباره رمزياً في الجواهر: فهو جزء من المكان الذي يزاول فيه الأب تجارته. وقد استبدلت، كتماً للسر، السلعة التي يتجر بها بالتنك، من دون أن أبدل شيئاً في نص الحلم. والحالم، الذي يعين أباه في عمله، صدمه وجرح إحساسه من اليوم الأول للتواء

٦ - الطارمة: بناء مستدير مقبب. وقد كانت ترتفع في حديقة براتر في فيينا بين ١٨٧٣ و ١٩٣٩ طارمة عملاقة من الحديد والزجاج. «م».

٧ - حلم آخر كان فرويد رواه في تأويل الحلم. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



الأساليب التي يعتمدها الأب في تحقيق الربح. لهذا ينبغي أن نجعل تنمة الفكرة التي أوردناها للتو (لو سألت أبي) بالفكرة التالية: «لغشني كما يغش زبائنه». أما رغبة الأب في أن يقطع قطعة من صحيفة التنك، فبوسعنا أن نرى فيها تمثيلاً لعدم الاستقامة في التجارة، لكن الحالم نفسه يفسرها تفسيراً آخر: فهي تعني في نظره جلد عميرة. وهذا تفسير نعلمه منذ زمن بعيد، علاوة على أنه يتمشى مع واقع التعبير عن سر الاستمئاء بنقيضه (قول الابن لأبيه إن عليه، إذا شاء أخذ قطعة من التنك، أن يفعل ذلك علانية، بطلبه الإذن من الحارس). لذا لا نعجب إن وجدنا الابن يعزو إلى الأب ممارسة الاستمئاء، مثلما عزا إليه الاستفسار في المشهد الأول من الحسم. أما الحفرة فيؤولها الحالم بالجدران المبطنة للمساء للرحم. وأضيف من عندي أن النزول، كالصعود في أحوال أخرى، يرمز إلى فعل الجامعة.

وبحسب ما قاله لنا الحالم، فإن الحفرة الأولى التي يليها رصيف طويل ينتهي بحفرة أخرى هي إشارة إلى تفاصيل من سيرة حياته. فبعد ما كان للحالم من اتصالات جنسية كثيرة بالنساء، صار يشقّ عليه الآن إتمام الفعل الجنسي، وهو يأمل أن تمكّنه المعالجة من استرداد قوته على الباه.

٨ - الحلمان التاليان يعودان إلى رجل أجنبي له ميول سافرة إلى الزواج بأكثر من امرأة واحدة. وأنا أسوقهما لأوضح لكم أن أنا الحالم هو الذي يمثّل في كل حلم، حتى ولو غاب عن الحلم الظاهر. والحقائب المائلة في هذين الحلمين رموز نسوية.

أ - أزمع صاحبنا على السفر، وحملت أمتعته إلى المحطة في عربة. وكانت تتألف من عدد كبير من الحقائب، بينها حقيقتان سوداوان كبيرتان من نوع (حقائب المساطر) التي يحملها الوكلاء التجاريون. وقد قال لأحدهم بلهجة مؤاساة: «هاتان الحقيقتان لن تذهبا إلى أبعد من المحطة».

إن من عادة هذا الرجل، بالفعل، السفر مع أمتعة كثيرة، ولكنه يشير أيضاً في أثناء علاجنا له إلى علاقات كثيرة له بالنساء. والحقيقتان السوداوان الكبيرتان تمثلان امرأتين سمرائين كان لهما في ذلك الحين دور بالغ الأهمية في حياته.

وكانت إحداهما قد شئت أن تتبعه إلى فيينا، لكنه أ برق إليها، بناء على نصيحتي، بأن تمتنع عن ذلك.

ب - مشهد في الجمارك: أحد المسافرين معه يفتح حقيته ويقول وهو يدخل بلا مبالاة سيجارته: ليس في داخلها شيء. فبدأ على الجمركي أنه صدقه، لكنه عاد إلى التفتيش فوجد فيها شيئاً مما هو محظور أشد الحظر. فقال المسافر عندئذ باستسلام: لا حيلة لي في هذا.

إنه هو المسافر، أما أنا فرجل الجمارك. ومع أنه صادق أشد الصدق عادة في اعترافاته، فقد شاء أن يخفي عني الصلة التي عقدها حديثاً مع سيدة، لأنه تراءى له - بحق - أن هذه السيدة ليست عني بغريبة. وقد حوّل إلى شخص آخر الموقف المربك الذي يتورط فيه من يُفتضح أمر كذبه، وهكذا بدا وكأن لا حضور له في الحلم.

٩ - هاكم مثلاً على رمز لم أذكره لكم حتى الآن:

التقى الحالم بأخته برفقة اثنتين من صديقاتها، وكانتا شقيقتين. فمدّ يده إليهما، ولكن ليس إلى أخته.

لا يرتبط هذا الحلم بأي حدث يعرفه الحالم، بل ترجعه ذكرياته بالأحرى إلى الزمن الذي لاحظ فيه لأول مرة أن الأثناء تتأخر في النمو لدى البنات. وتساءل عن علة ذلك. إذا فالشقيقتان تمثلان ثديين كان سيطيب له الإمساك بهما بشرط ألا يكونا ثديي أخته.

١٠ - وإليك مثلاً على رمزية الموت في الحلم:

إنه يسير فوق جسر حديدي شاهق الارتفاع وشديد الانحدار مع شخصين يعرفهما، ولكنه نسي اسميهما عندما استيقظ. وعلى حين غرة اختفى هذان الشخصان، ورأى رجلاً كالشبح يرتدي قبعة وبزة من الكتان. فسأله: أهو موزع البرقيات؟ كلا. أهو الخوذي؟ كلا. فمضى في طريقه، وهو لا يزال يساوره في حلمه قلق عظيم. وحتى بعد أن استيقظ أطال حلمه بأن تخيل أن الجسر الحديدي انهار، وأنه سقط في الهاوية.

إن الأشخاص الذين يقول لنا راوي الحلم في العادة إنه لا يعرفهم أو إنه نسي أسماءهم هم في أغلب الأحيان أشخاص تربطه وإياهم رابطة وثيقة. وقد كانت للحالم أخ وأخت، ولو أنه تمنى موتهما، لكان من العدل أن يتولاه هو نفسه ذعر مميت. أما بصدد موزع البرقيات، فقد لاحظ الحالم أن هؤلاء الموزعين هم الذين يحملون على الدوام الأخبار السيئة. لكن بالنظر إلى زيه الرسمي، فربما كان أيضاً عاملاً ممن يوقدون مصابيح الطرق، لكن وقّادي المصابيح مكلفون أيضاً بإطفائها، مثلما يطفئ ملاك الموت شعلة الحياة. أما صورة الخوذي فقد قرنها بقصيدة أوهلاند^(٨) L Uhland عن رحلة الملك تشارلز البحرية، واستذكر بهذا الصدد رحلة بحرية خطيرة قام بها مع رفيقين له ومثل فيها دور الملك في القصيدة. كما تذكّر بصدد الجسر الحديدي حادثة خطيرة وقعت له مؤخراً، وكذلك القولة البلهاء: الحياة جسر معلق^(٩).

١١ - مثال آخر على التمثيل الرمزي للموت: سيد مجهول يضع برسم الحالم بطاقة زيارة ذات حواشي سود.

١٢ - لعل الحلم التالي، الذي يرجع إلى حدّ ما إلى حالة عصائية، سيثير اهتمامكم من أكثر من زاوية:

إنه يسافر بالسكة الحديدية. القطار يتوقف في وسط الريف. يحسب أن هناك حادثة، ويفكر بضرورة النجاة بنفسه، فيجتاز مقصورات القطار جميعها ويقتل كل من يصادفه: السائق والميكانيكي، إلخ..

استذكر الحالم بصدد هذا الحالم قصة قصّها عليه صديق له. فقد اقتيد أحد المجانين في مقصورة خاصة في قطار إيطالي، لكن أحد المسافرين دخل إلى المقصورة خطأ، فقتله المجنون. لقد ماهى الحالم إذاً بين نفسه وبين المجنون، وبرّر فعلته بالفكرة التي تسلّطت عليه - والتي تقصّ مضجعه بين الحين والآخر -

٨ - لودفيغ أوهلاند: شاعر ألماني (١٧٨٧ - ١٨٦٢)، له أشعار وطنية وشعبية مستوحاة من الأساطير القديمة. «م».

٩ - حرفياً: جسر بسلاسل. وقد كان فرويد استشهد بهذه القولة في كتابه النكته وصلاتها باللاشعور كمثال على نكتة فاشلة. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

بضرورة «التخلص من الشهود جميعاً». لكنه ما لبث أن وجد تعليلاً أفضل كان بمثابة نقطة انطلاق لحلمه. فقد رأى في المسرح في الليلة السابقة فتاة كان أزعج على الزواج منها، ثم انفصل عنها بعد ذلك لما حركته فيه من مشاعر الغيرة. وبالنظر إلى ضراوة الغيرة التي يمكن أن تشتعل في نفسه، فقد كان سيجنّ فعلاً فيما لو أقدم على الزواج من تلك الفتاة. وهذا يعني أنه يعتقد أنها لا يُركن إليها، وأنه لو تزوجها لاضطر إلى قتل كل من يصادفه في طريقه، لأنه كان من المحتم أن يغار من كل الناس بلا استثناء. وقد سبق أن ذكرنا^(١٠) أن اجتياز مجموعة من الغرف (أو المقصورات هنا) رمز للزواج الأحادي.

أما فيما يتصل بتوقف القطار في قلب الريف والتخوّف من وقوع حادث، فقد روى لنا أنه فيما كان يسافر ذات يوم بالسكة الحديدية توقف القطار على حين غرة بين محطتين. فقالت سيدة في مقتبل العمر كانت بجواره إنه ليس من المستبعد أن يقع صدام مع قطار آخر، وإن أحسن احتياط يمكن للمرء أن يتخذه في هذه الحالة أن يرفع ساقيه في الهواء. وهاتان «الساقان المرفوعتان في الهواء» كان لهما أيضاً دور في نزعات وجولات كثيرة قام بها في الريف بصحبة الفتاة في عهد لقاءاتهما الأولى السعيدة. وهذا برهان جديد على أنه لا بدّ أن يكون مجنوناً حتى يتزوجها الآن. ومع ذلك، إن معرفتي بالموقف تبيح لي أن أؤكد أن الرغبة في الإقدام على تلك الفعلة الجنونية كانت تراوده باستمرار.

١٠ - في كتابه تأويل الحلم. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

المحاضرة الثالثة عشرة

السمات الأثرية والطفالة في الحلم

سيداتي سادتي، لنعد إلى ما كنا انتهينا إليه من استنتاج بأن عمل الحلم يضفي على أفكار الحلم صيغة تعبيرية جديدة. ومع أن الأفكار الكامنة هي تلك الأفكار الواعية التي تراودنا في حالة اليقظة، إلا أن أسلوب التعبير الجديد يسبغ عليها سمات عديدة يعصى فهمها علينا. وقد ذكرنا أن مردّ هذا الأسلوب إلى مراحل - اجتزناها منذ زمن بعيد - في تطورنا العقلي، وإلى طور اللغة المصوّرة والعلاقات الرمزية، وربما إلى ظروف وجدت قبل تطور لغتنا المجردة. لهذا نعتنا الأسلوب التعبيري الذي يعتمد عمل الحلم بأنه أثري أو نكوصي.

يمكنكم، إذا شئتم، أن تستتجوا من ذلك أن التعمق في دراسة عمل الحلم سيتيح لنا الوصول إلى معطيات ثمينة عن بدايات تطورنا العقلي التي لا نعلم عنها شيئاً كثيراً في الوقت الراهن. وآمل أن يكون كذلك هو الأمر، لكن هذه المهمة لم تجد بعد من يشرع بها. وما قبل التاريخ الذي يردّنا إليه عمل الحلم مزدوج: فهناك أولاً ما قبل التاريخ الفردي: الطفولة، وهناك ثانياً ما قبل التاريخ السلالي، وذلك بقدر ما يكرر كل فرد بشكل مختصر كل تطور الجنس البشري. ولا يبدو لي أنه من المحال أن نتوصل ذات يوم إلى التمييز بين أثر ما قبل التاريخ الفردي في السيرورات النفسية الكامنة وبين دور العناصر المتحدرة من ما قبل التاريخ السلالي في هذه السيرورات. وعلى هذا الأساس أعتقد أنه من المباح لنا أن نفترض أن الترميز، الذي لا يتعلمه ولا يكتسبه الفرد إطلاقاً من حيث هو فرد، هو إرث سلالي.

لكن ليست هذه هي الخاصية الأثرية الوحيدة للحلم. فأنتم تعرفون جميعاً، من خبرتكم، ظاهرة النسيان Amnésie الطفلية. فالسنوات الخمس أو الست أو الثماني

الأولى من الحياة لا تترك، خلافاً لأحداث الحياة اللاحقة، من أثر في الذاكرة. صحيح أننا قد نلتقي أشخاصاً يتباهون باستمرارية ذاكرية تمتد على مدى حياتهم بدءاً من بداياتها الأولى، لكن الحالة المعاكسة، أي وجود فجوات وثرغات في الذاكرة، هي الأكثر شيوعاً بما لا يقاس. وأعتقد أن هذه الواقعة لم تستر ما تستأمله من دهشة وتعجب. ففي الثانية من العمر يكون الطفل قد اقتدر على الكلام، وسرعان ما يظهر بعد ذلك مقدرته على تدبير أمره في مواقف نفسية معقدة، ويفصح عن أفكاره وعواطفه بأقوال وأفعال لو ذكرناه بها لاحقاً لوجدنا أنه نسيها. وهذا مع أن الذاكرة تكون في السنوات الأولى من العمر أقدر على الأداء لأنها لا تشحن في السنوات الأولى بقدر ما تشحن في السنوات اللاحقة، في السنة الثامنة على سبيل المثال، ويفترض بها بالتالي أن تكون أكثر حساسية ومرونة، ومن ثم أقدر على حفظ الوقائع والانطباعات. ومن جهة أخرى، ليس ثمة ما يأذن لنا أن نعتبر وظيفة الذاكرة وظيفه نفسية سامية ومعقدة، بل قد نجد على العكس ذاكرة جيدة حتى لدى الأشخاص من ذوي المستوى العقلي المتدني.

إلى هذه الخاصية ينبغي أن أضيف أخرى لافتة للنظر، وهي أن الخواء الذاكري الذي ينسحب على السنوات الأولى من الطفولة لا يكون كاملاً: إذ تنبعث بين الحين والآخر ذكريات حظيت بصيانة جيدة، ذكريات ناجمة في أغلب الأحوال عن انطباعات تشكيلية ليس ثمة ما يبرر أصلاً أن تصان على ذلك النحو. أما الانطباعات العائدة إلى أحداث لاحقة فتجري عليها الذاكرة انتخاباً واصطفاءً: فتحتفظ بما هو مهم منها وتذر الباقي. بيد أن هذا الأمر لا يسري على الذكريات المحفوظة من عهد الطفولة الأولى. إذ إن هذه الذكريات لا تقابلها بالضرورة أحداث مهمة من تلك المرحلة من الحياة، وقد لا تقابلها حتى أحداث يمكن أن تبدو مهمة من وجهة نظر الطفل. بل غالباً ما تكون عادية وتافهة حتى لتساءل بدهشة لماذا أفلتت هذه التفاصيل من يد النسيان. ولقد حاولت في زمن سابق أن أفكّ، بالاعتماد على التحليل، لغز النسيان الطفولية وبقايا الذكريات المصانة رغم هذه النسيان، فتوصلت إلى الاستنتاج بأن الذكريات المهمة هي وحدها التي تنجو من النسيان حتى لدى الطفل. وكل ما هنالك أن العناصر المهمة تُستبدل في

الذاكرة، بفعل السيرورات التي بثَّم على علم بها، وعلى الأخص التكثيف والنقل والإزاحة، بعناصر تبدو غير ذات أهمية. ولهذا السبب أطلقت على ذكريات الطفولة اسم **الذكريات الستارية**^(١)، والتحليل العميق كفيل بأن يستخلص منها كل ما طوته يد النسيان.

إن سد الثغرات والفجوات في الذكريات الطفلية ضرورة دائمة في المعالجة التحليلية النفسية. ويقدر ما تتمخض المعالجة عن نتائج مُرضية، أي في عدد كبير من الحالات، نفلح في استحضار مضمون سنوات الطفولة الذي طوته يد النسيان. وفي الواقع، إن الانطباعات التي يعاد تكوينها لا تكون قد انتسيت قط، وإنما بقيت فقط عصية المنال، كامنة، مكبوتة في منطقة اللاشعور. لكن قد يتفق أيضاً أن تنبثق عفواً من اللاشعور، وهذا في الأحلام في أغلب الأحيان. وعندئذ يتضح أن حياة الحلم تعرف كيف تجد منفذاً إلى تلك الأحداث الطفلية الكامنة. ويقدم لنا الأدب أمثلة ممتعة على ذلك. وقد تسنى لي أنا نفسي أن أوَّيد هذه الواقعة بمثال شخصي. فقد حلمت ذات ليلة، في جملة ما حلمت به، بشخص كان قد أسدى لي معروفاً، ورأيتُه ماثلاً أمام عيني بكل وضوح. كان رجلاً قصيراً أعور، بديناً، رأسه غائصة بين كتفيه. وقد استنتجت، من سياق الحلم، أنه طبيب. ومن حسن التوفيق أنني استطعت أن أسأل والدتي، وكانت لا تزال على قيد الحياة، كيف كان المظهر الخارجي لطبيب القرية التي رأيت فيها النور والتي غادرتها وأنا في الثالثة من العمر^(٢). فعلمت منها أنه كان بالفعل أعور، قصيراً بديناً، رأسه غائصة بين كتفيه؛ وأطلعتني والدتي، فضلاً عن ذلك، على المناسبة التي اقتضت استدعاء الطبيب لمعالجتي، وكنت قد سهوت عنها تماماً. إذاً، إن هذه القدرة على النفاذ إلى المواد المنسية من سنوات الطفولة الأولى هي سمة أخرى من سمات الحلم الأثرية.

١ - بالألمانية Deckerinnerung، وقد ترجمت إلى الفرنسية بـ Souvenir - Ecran، وإلى الإنكليزية بـ Screen - Memory. «م».

٢ - معلوم أن فرويد ولد في بلدة فريبورغ في مورافيا في شرق ألمانيا سنة ١٨٥٦، ثم نزلت أسرته إلى فيينا سنة ١٨٦٠. «م».

والحال أن هذا التفسير يصدق على لغز آخر من الألغاز التي ارتطمنا بها حتى الآن. أنتم تذكرون الدهشة التي اعترتكم حين سقت لكم الدليل على أن الأحلام تستثيرها رغبات جنسية فاسقة في جوهرها، منفلته من عقالها في كثير من الأحيان، مما استوجب فرض رقابة على الحلم وتحريفاً للحلم. وحينما نؤوّل للحالم حلماً من هذا النوع، فلن يتخلف في أغلب الأحيان عن رفع صوته بالاحتجاج على تأويلنا. وحتى إذا جرى الأمر بيسر وامتلأ الحالم لتأويلنا، نجده يضرب أحساساً بأسداس ليعرف من أين جاءته مثل تلك الرغبات التي يشعر أنها تتنافى وخلقه، وتخالف مجمل منازعه ومشاعره. ولا يجوز لنا أن نتوانى في الكشف له عن أصل هذه الرغبات. فجذر هذه الرغبات الفاسقة إنما يكمن في الماضي، وفي كثير من الأحيان في ماضٍ ناءٍ كل النأي. ومن الممكن أن تثبت له أنه كان بها عليمًا واعياً في ما غبر من الأيام. فالمرأة التي نَمَّ حلمها عن أنها ترغب في موت ابنتها الوحيدة، التي لها من العمر سبعة عشر عاماً، فظنت يارشادنا إلى أن رغبة كهذه قد ساورتها بالفعل في زمن مضى. فقد أنجبت هذه البنت من زواج غير موفق انتهى بالانفصال. وفيما كانت لا تزال حاملاً بها استبدت بها، على إثر مشادة مع زوجها، سورة حنق مسعور، فأقلت منها زمام نفسها وراحت تضرب بطنها بقبضة يدها بغية قتل الجنين الذي في أحشائها. وكم من أم تحب اليوم أطفالها وتحنو عليهم، بل تسرف في الحنو، كانت قد حملتهم كرهاً ورغبت في موتهم قبل ولادتهم، وكم من أم شرعت فعلاً بتنفيذ رغبتها هذه، ولكن من دون أن يتأتى عنها لحسن الحظ ضرر! بذات ترون أن ما قد يساورنا من رغبة ملغزة محيرة في أن تخطف يد المنون شخصاً نجه يرجع إلى بداية علاقتنا بهذا الشخص عينه.

أما ذلك الأب، الذي يأذن لنا حلمه بأن نستنتج أنه يتمنى موت ابنه البكر الأثير لديه، فإنه يتذكر بدوره في خاتمة المطاف أن هذه الأمنية لم تكن بالغريبة عنه في يوم من الأيام. فقيماً كان الطفل لا يزال رضيعاً، كان الأب، وقد خاب ظنه بزواجه، يقول بينه وبين نفسه إنه لو قَيِّضَ لهذا المخلوق الصغير، الذي لا يعني له شيئاً، أن يموت، فإنه سيستردّ حريته وسيحسن استعمالها هذه المرة أكثر.

وبوسعنا أن نثبت أن العديد من حالات الكراهية لها أصل كهذا: فهذه الحالات ناشئة عن ذكريات لأحداث وقعت في الماضي وكانت في يوم من الأيام شعورية ولعبت دوراً في الحياة النفسية. قد تعتضون عليّ بأنه إذا لم يطرأ تبدل على الموقف من الشخص المعني، وبأنه إذا كان هذا الموقف على الدوام موقف ود وتعاطف، فإن أمثال تلك الرغبات والأحلام لا يفترض بها أن ترى النور. وأنا على استعداد للتسليم لكم بهذا الاستنتاج، على أن أذكركم أنه يتعين عليكم أن تأخذوا في اعتباركم لا الصيغة اللفظية للحلم، بل المعنى الذي يغدو له بعد تأويله. فقد يدور موضوع الحلم الظاهر على موت شخص حبيب، ولكن قد يكون ذلك محض قناع مرعب يتنكر به الحلم الذي يعني في الواقع شيئاً مغايراً تماماً، أو الذي يكون قد استخدم الشخص الحبيب بديلاً خادعاً عن شخص آخر.

غير أن هذا الموقف عينه يثير مسألة أخرى أشد خطورة بكثير. إذ ستقولون لي: على فرض أن أمنية الموت تلك وجدت فعلاً، وأن الذكرى المستعادة تؤيد وجودها، فهل يقوم هذا مقام تفسير؟ فهذه الأمنية، المقموعة من زمن بعيد، لا يمكن أن تستمر على قيد الوجود في اللاشعور إلا بصفتها ذكرى عديمة الأهمية، لا بصفتها حادثة Motion قوية. وبالفعل، لا دليل لدينا على وجود مثل هذا الاحتمال. فلم تستحضر هذه الأمنية إذاً في الحلم؟ إنه لسؤال مسوّغ تماماً. غير أننا لو حاولنا الإجابة عنه لنأت بنا الشقة عن موضوعنا ولاضطربنا إلى تحديد موقف من نقطة هي من أهم نقاط نظرية الحلم. والحال أنني مكره على التزام حدود محاضرتي، وعلى الإمساك عن الخوض في تفاصيل ذلك ولو إلى حين. فلنقنع إذاً بما قدّمنا من دليل على أن تلك الأمنية المخنوقة هي التي تقوم بدور المحرّض على الحلم، ولنتابع بحثنا عسانا نكشف هل ثمة رغبات شريرة أخرى يكمن أصلها في ماضي الفرد.

لنقف ملياً عند الرغبة في موت الآخرين، وهي الرغبة التي لا نجد مناصاً من أن نردها في أغلب الأحيان إلى أنانية الحالم التي لا حدود لها. ومن اليسير علينا أن نثبت أن هذه الرغبة هي الخالق الأكثر تواتراً للأحلام. فكلما سدّ أحدهم الدرب علينا في الحياة (ومن يجهل مدى تواتر هذه الحالة في شروط حياتنا

المعاصرة البالغة التعقيد؟)، أبدى الحلم عن استعداد للقضاء عليه، سواء أكان هذا الشخص أباً أم أمّاً، أخاً أم أختاً، زوجاً أم زوجة، إلخ. وكان هذا الشر الذي تنطوي عليه الطبيعة البشرية قد أدهشنا، فلم نبذل استعداداً للتسليم بلا تحفظ بصحة هذه النتيجة التي انتهت إليها تأويل الأحلام. لكن ما إن تعيّن علينا أن نبحث عن أصل هذه الرغبات في الماضي حتى اكتشفنا تلك المرحلة من ماضي الفرد التي لا تبدو فيها هذه الأنانية وهذه الرغبات بالمستغربة، حتى ولو كانت موجهة ضد أقرب الناس إلى الفرد. فالطفل في سنواته الأولى - أي السنوات التي تطويها فيما بعد يد النسيان - هو الذي يدل في أغلب الأحيان على تلك الدرجة القصوى من الأنانية، وتصدر عنه في كل آن وحين إشارات أو بالأحرى بقايا سافرة منها. والطفل يحب نفسه أول ما يحب، وفي طور لاحق فحسب يتعلم أن يحب الآخرين وأن يضحي في سبيل الغير بشطر من أناه. وحتى الأشخاص الذين يبدو على الطفل وكأنه يحبهم من البداية، فإنه لا يحبهم أول الأمر إلا لأنه يحتاجهم ولا يسعه الاستغناء عنهم. إذا لأسباب أنانية. وفي زمن متأخر فحسب يفرّق الحب عنده عن الأنانية. وفي الواقع، إن الأنانية هي التي تعلّمه الحب.

إنه لمن المفيد جداً أن نقيم من هذا المنظور موازنة بين موقف الطفل من إخوته وأخواته وبين موقفه من والديه. فالطفل الصغير لا يحب إخوته وأخواته بالضرورة، وهو بوجه الإجمال لا يحبهم على الإطلاق. ولا مراء في أنه يرى فيهم منافسين. ومعلوم أن هذا الموقف يدوم بلا انقطاع طوال سنين كثيرة وصولاً إلى سنّ البلوغ، وربما إلى ما بعدها. وكثيراً ما يُستبدل هذا الموقف أو يُحجب بالأحرى بموقف آخر أكثر ودّاً، غير أن الاتجاه العدائي بصورة عامة هو الأقدم عهداً. ومن السهولة بمكان أن نلاحظ هذا الاتجاه لدى الأطفال الذين تتراوح سنهم بين الثانية والنصف والخامسة عندما تستقبل الأسرة أخاً جديداً أو أختاً جديدة. فالوليد لا يحظى عندئذ منهم باستقبال ودّي، بل في الغالب بعبارات احتجاج مثل: «لا أريده، فلتأخذهُ اللقاليق»^(٣). ويغتشم الطفل بعد ذلك كل فرصة

٣ - جرت العادة عند بعض الأمم الأوروبية أن تعلل واقعة الولادة لصغار السن أو أن تخفيها عنهم بالأحرى بالقول إن اللقاليق هي التي تأتي بالمواليد. «م».



تسبح لئلا تنقص من شأن الدخيل، كما لا تندبر في هذه الحال محاولات إنزال الأذى به والاعتداء المباشر عليه. فإن لم يكن فارق السن كبيراً يجد الطفل نفسه، حين يشتد نشاطه النفسي ويقوى، إزاء منافس مقيم له، ويوطن نفسه على هذا الأساس. أما إن كان فارق السن كبيراً فقد يبتعث القادم الجديد من البداية مشاعر تعاطف وود: إذ يبدو عندئذ وكأنه شيء طريف، ضرب من دمية حية. وإن جاوز الفارق ثمانية أعوام أو أكثر فقد يظهر، لدى البنات الصغيرات بوجه خاص، عطف شبه أموي. لكننا حين نخط اللثام، في حلم من الأحلام، عن رغبة في موت أخ أو أخت، فليس لنا، إذا أردنا الصراحة في القول، أن نستغرب هذه الرغبة، لأننا نستطيع أن نجد مصدرها بلا عناء في الطفولة الأولى، أو حتى في طور متأخر من الحياة المشتركة.

والحق أنه يندر أن تقع على غرفة أولاد لا تنشب فيها منازعات حادة بين المقيمين فيها. وأسباب هذه المنازعات هي التالية: رغبة كل طفل في الاستئثار لصالحه بحبّ الوالدين، والاستحواذ على الأشياء، والتزاحم على المكان الشاغر. والمشاعر العدائية تنصبّ على كبار السن كما على صغارهم من الإخوة والأخوات. وبرنارد شو هو القائل فيما أعتقد: إن تكن الفتاة الإنكليزية تكره أحداً أكثر مما تكره أمها، فمن المحقق أنها أختها الأكبر منها^(٤). وفي هذه الملاحظة شيء يبلبلنا. فنحن نستطيع، عند الاقتضاء، أن نتصور وجود كراهية ومزاحمة بين الإخوة والأخوات، لكن كيف يمكن لمشاعر الكراهية أن تجدد منفذاً إلى العلاقات بين البنات والأم، بين الوالدين وأولادهما؟

لا ريب في أن الأطفال أنفسهم يظهرون لوالديهم من المحبة أكثر مما يظهرون لإخوتهم وأخواتهم. وهذا يتفق أصلاً مع ما نتوقع: فنحن نرى في انعدام الحب بين الوالدين وأولادهما ظاهرة تنافي الطبيعة أكثر مما تنافيها ظاهرة العداوة بين الإخوة والأخوات. وبذلك نكون قد أحطنا بهالة من القداسة في الحالة الأولى ما تركناه في حالة من الرجاسة في الحالة الثانية، إن جاز التعبير. غير أن المشاهدات

٤ - شاهد يقبسه فرويد من كتاب برنارد شو: الإنسان والإنسان الأعلى. «م».



اليومية تظهر لنا كم تقصّر العلاقات العاطفية بين الوالدين وأولادهما في كثير من الأحيان عن بلوغ المثل الأعلى الذي يعينه المجتمع، وكم تنطوي على بغضاء مرشحة لأن تنفجر لولا التدخل الرادع لعامل البرّ وبعض النوازع العاطفية الأخرى. وأسباب هذه الواقعة معروفة بوجه العموم: فمردّها الأول إلى قوة تنزع إلى المباعدة بين أفراد الأسرة من الجنس الواحد: البنّت عن أمها، والابن عن أبيه. فالبنّت ترى في أمها سلطة تحدّ من إرادتها، سلطة أوكل إليها أن تلجم حريتها الجنسية بحسب ما يتطلب المجتمع، وقد لا يخلو الأمر في بعض الحالات من وجود ضرب من المنافسة، من المزاحمة الحقيقية بين الأم والبنّت. وهذه العلاقات عيناها نلتقيها بين الأب والابن، وإن بدرجة أعلى من الحدة. فالأب يبدو في نظر الابن تجسيدا لكل القسر الاجتماعي الذي يتحمله على مضض، والأب يعارض تفتح إرادة الابن، ويسدّ عليه السبل إلى المتعة الجنسية، وفي حالة وجود أموال عائلية مشتركة يحرمه من التمتع بهذه الأخيرة. ويرقى انتظار موت الأب لدى الابن الذي سيخلفه على العرش إلى ذروة مأساوية حقيقية. وبالمقابل، تتبدى العلاقات بين الآباء والبنات، بين الأمهات والأبناء، أقرب إلى المودة. وفي صلات الأم بابنها، والابن بأمه بوجه خاص، نلقى أنقى الأمثلة على الحنان الذي لا يحول ولا يتبدل ولا تداخله أية اعتبارات أنانية.

ستسألونني بلا ريب عما يدعوني إلى تحديثكم عن هذه الأشياء مع أنها معروفة بوجه عام إلى حدّ الابتذال. أفعل ذلك لأن لدى الناس ميلا قويا إلى إنكار أهميتها في الحياة وإلى الافتراض بأن المثل الأعلى الاجتماعي ممثّل له على الدوام وفي كل الأحوال. وأن ينطق عالم النفس بالحقيقة خير من أن يترك أمر ذلك للمستهترين. على أنه يحسن بنا التنويه بأن الإنكار المشار إليه لا يطال سوى الحياة الواقعية وحدها، بينما يترك بالمقابل لفن الشعر السردى والتمثيلي ملء الحرية في معالجة المواقف التي تنشأ عن انتهاك ذلك المثل الأعلى.

لذا لا داعي لأن يأخذنا العجب إذا أماط الحلم اللثام، لدى الكثيرين من الناس، عن رغبة في القضاء على الوالدين، ولا سيما على من منهم من جنس واحد. ولا مناص لنا من التسليم بأن هذه الرغبة موجودة أيضاً في حياة اليقظة.

بل قد تغدو أحياناً واعية إن أمكن لها أن تنتكر في إهاب دافع آخر، كما في مثال صاحب الحلم رقم ٣، حيث تقنعت الرغبة في موت الأب بقناع الشفقة المزعومة التي أثارها آلام هذا الأب اللامجدية وأوجاعه التي لا طائل فيها.

ويندر أن تهيمن العداوة وحدها على الموقف، بل تستتر أغلب الأحيان خلف عواطف رحيمة تلجمها وتقمعها، فلا يبقى أمامها إلا أن تنتظر الحلم كيما يعزلها إن جاز التعبير، وبفضل هذا العزل تأخذ في الحلم حجماً مضخماً لا يلبث بدوره أن يتضاءل وينكمش بعد أن يعيده التأويل إلى نصابه ضمن سياق حياة الحالم في جمالته (هـ . ساكس)^(٥). على أن الرغبة في موت الآخرين نلتقيها حتى في الحالات التي لا يكون لها فيها من مرتكز في الحياة الواقعية، وفي الحالات التي لا يقبل فيها الإنسان أن يقرّ بها وهو في حال اليقظة. وتفسير ذلك أن العلة الأعظم والأكثر شيوعاً للعداوة، وعلى الأخص بين أشخاص من جنس واحد، ترسخ في الإنسان من عهد طفولته الأولى.

وما هذه العلة إلا التنافس في الحب الذي يجدر بنا أن ننوه تنويرها خاصاً بطابعه الجنسي. فالابن يبدأ يساوره، وهو لا يزال طفلاً صغيراً، ضرب خاص من الحنو حيال أمه، فيعتبرها ملكه الموقوف عليه، ويرى في أبيه خصماً يزاحمه على ملكية هذا الوقف؛ كذلك ترى البنت الصغيرة في أمها شخصاً يعكر صفو علاقاتها العاطفية بأبيها ويشغل مكاناً تمنى البنت لو يكون حكرّاً لها. والمشاهدات هي التي هدتنا إلى العمر الذي ينبغي أن نرجع إليه هذا الموقف الذي نطلق عليه اسم **عقدة أوديب**، لأن الأسطورة التي بطلها أوديب تحقق، من خلال تحوير طفيف جداً، الرغبتين المشتطتين اللتين تترتبان على موقف الابن: الرغبة في قتل الأب والرغبة في التزوج من الأم. وأنا لا أزعم أن عقدة أوديب تستوعب كل ما يتصل بالعلاقات المتبادلة بين الوالدين وأولادهما، وهي علاقات قابلة لأن تكون على درجة أكبر بكثير من التعقيد. ومن جهة أخرى، إن عقدة أوديب نفسها تكون على درجة متفاوتة من القوة والضعف، بل قد يصيبها أحياناً

٥ - الإشارة هنا إلى مقال هانز ساكس: تفسير الحلم ومعرفة الإنسان (١٩١٢). هامش الترجمة الفرنسية

الجديدة.

ارتكاس، غير أنها تبقى على كل حال عاملاً مطرداً وبالغ الأهمية في حياة الطفل النفسية. وإن يكن ثمة من خطر فهو أن نميل لا إلى التهويل من شأنها وإلى الغلو في تقدير أثر النتائج التي تترتب عليها، بل إلى الاستهانة بها والاستخفاف بأثرها. ولئن جاءت ردود فعل الأولاد مطابقة للموقف في عقدة أوديب، فذلك أيضاً بتحريض واستفزاز من الوالدين نفسيهما، لأنهما يتخذان في أكثر الأحيان فارق الجنس هادياً لهما في إثارهما أولادهما بعضهم على بعض: فالأب يؤثر البنت، والأم تؤثر الابن، كما يحول الأب إلى البنت، والأم إلى الابن، العاطفة التي قد يفتقدها أي منهما في بيت الزوجية.

وليس في مستطاعنا القول إن الناس أقروا بالجميل للبحث التحليلي النفسي على اكتشافه عقدة أوديب. بل أثار هذا الاكتشاف، على العكس، مقاومة ضارية؛ وأما من تخلف عن الانضمام إلى جوقة منكري هذه العاطفة المحرمة والرجيمة فقد كُفّر عن خطيئته بتأويل هذه «العقدة» تأويل تجرّدها من كل قيمة^(٦). أما أنا فتأبّت عند يقيني بأنه ليس في هذه «العقدة» ما ينكر أو يخفّف ويلطف. ولا مناص لنا من أن نتألف وهذه الحقيقة الواقعة التي أقرت الأسطورة الإغريقية نفسها بأنها محتومة كالقدر. ومن الطريف، من جهة أخرى، أن نلاحظ أن عقدة أوديب تلك، التي يريد بعضهم استبعادها من الحياة، قد وجدت في الشعر لها ملاذاً، فتصرف بها كما يحلو له. فقد أثبت أ. رانك، في دراسة دقيقة له^(٧)، أن عقدة أوديب قدمت للأدب التمثيلي أيضاً من الموضوعات الرائعة، فعالجها بأن أسبغ عليها ضروباً شتى من التحوير والتخفيف والتذكير، أي ألواناً من التحريف مشابهة لتلك التي تصدر عن رقابة الأحلام. إذاً فلا مفر لنا من أن نعزو عقدة أوديب حتى إلى الحالمين الذين واتاهم الحظ فتحاشوا لاحقاً الصراع مع والديهم؛ وهذه العقدة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأخرى نسميها عقدة

٦ - يشير فرويد هنا إلى تخريجات تلميذه المنشقين، يونغ وأدler، لعقدة أوديب، وهو إذ يضع كلمة (عقدة) بين مزدوجين فلأنه قبسها أصلاً من مصطلح اقترحه مدرسة زوريج التي كان يتزعمها يونغ.
«٣»

٧ - الإشارة هنا إلى كتاب أوتو رانك: الدافع إلى زنا المحارم في الأدب والأسطورة (١٩١٢). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

الخصاء، وهي رد فعل على القيود التي يفرضها الأب على النشاط الجنسي المبكر للابن.

وبما أن أبحاثنا السابقة قادتنا إلى دراسة الحياة النفسية الطفلية، فإننا نأمل الآن أن نخرج بتفسير مماثل لأصل طائفة أخرى من الرغبات المحرمة التي تتظاهر في الأحلام: نقصد الحائثات الجنسية المشتتة. وإن وجدنا في ذلك ما يشجعنا على دراسة حياة الطفل الجنسية أيضاً، طالعتنا مصادر مختلفة بالحقائق التالية: من الخطأ الفادح أن ننكر وجود حياة جنسية لدى الطفل وأن نتصور أن الجنسية لا تبرز إلا مع البلوغ، حين تدرك الأعضاء التناسلية كامل تطورها. فالأمر بالعكس: للطفل من البداية حياة جنسية غنية للغاية، تختلف من أكثر من ناحية عن الحياة الجنسية اللاحقة التي تعتبر طبيعية سوية. ذلك أن من نطلق عليه صفة المنحرف في الحياة الراشدة هو ذاك الذي يحيد عن الحالة السوية بالخصائص التالية: تجاهل الحاجز النوعي (الهوة التي تفصل الإنسان عن الحيوان)، والحاجز الذي ينصبه حس القرف والتقرز، وحاجز زنا المحارم (Inceste) (أي تحريم السعي إلى إشباع الحاجات الجنسية بواسطة أشخاص من قرابة العصب الواحد)، والجنسية المثلية Homosexualité، وأخيراً تحويل الدور التناسلي إلى أعضاء وأجزاء أخرى من الجسم البشري. والحال أن جميع هذه الحواجز لا توجد من أول الأمر، بل تشاد شيئاً فشيئاً في مجرى تطور البشرية وتربيتها المتدرجة. فالطفل الصغير لا يعرفها. فهو يجهل أن بين الإنسان والحيوان هوة سحيقة والكبرياء التي يميز بها الإنسان نفسه عن الحيوان لا تساوره إلا في طور متأخر. كما أنه لا يظهر من البداية أي تقرز من كل ما يتصل بالبراز: بل يكتسب هذا التقرز رويداً رويداً بفعل التربية. وبما أنه لا يفتن إلى ما بين الجنسين من فوارق، فإنه يعتقد أول الأمر أن الأعضاء التناسلية واحدة عند كليهما، لذا فإن رغباته الجنسية الأولى وفضوله الأول تنصب على أقرب الأشخاص إليه أو على أعزهم إليه وإن لم يكونوا من أقاربه: الوالدين، الإخوة، الأخوات، الأشخاص المكلفين بالاعتناء به. وأخيراً، إننا نلقى لديه ظاهرة لا نلقى لها نظيراً إلا في أوج تفتح العلاقات الحبية، إذ إنه

لا يحصر مصدر ما يتوقعه من لذة بالأعضاء التناسلية وحدها، بل يكتشف أن أجزاء أخرى من جسمه تتمتع بالحساسية نفسها، وقادرة على أن تغدق عليه أحاسيس لاذة مماثلة، ومرشحة بالتالي لأن تقوم بدور الأعضاء التناسلية. من الممكن إذاً أن يتظاهر لدى الطفل انحراف متعدد الأشكال إن جازت التسمية؛ ولئن لم تفصح جميع هذه الحاثات عن نفسها لديه إلا في صورة آثار وبقايا، فمرّد ذلك، من جهة أولى، إلى أنها أضعف شدة مما ستكون عليه في طور متقدم من العمر، ومن الجهة الثانية، إلى أن التربة تقمع بشدة جميع مظاهر النشاط الجنسي لدى الطفل حال تظاهرها. ولا يلبث هذا القمع أن ينتقل من الممارسة إلى النظرية إن جاز التعبير، إذ يتقصد الراشدون أن يتغاضوا عن شطر من التظاهرات الجنسية لدى الطفل، وأن يجرّدوا الشطر الآخر من هذه التظاهرات من طبيعتها الجنسية بالاستناد إلى تأويل معين لها، فلا يكون أيسر عليهم بعد ذلك من أن ينكروها في جملتها. وهؤلاء المنكرون هم في أكثر الأحيان نفس الأشخاص الذين يستهجنون أشد الاستهجان كل ما يصدر عن الأطفال في مهاجمهم من ألوان الفجور الجنسي؛ ثم إذا مضوا إلى أعمالهم وأشغالهم راحوا يتحدثون وزملاءهم عن طهر الأطفال الجنسي. والحق أنه ما إن يُترك الأطفال لسجيّتهم أو يقعون تحت تأثير غواية مغو، حتى يتظاهر لديهم الانحراف الجنسي بقوة تسترعي الانتباه. ولا ريب في أن الكبار على حق إذ لا يحملون هذا «العبث» أو هذه «الصينيات» على محمل الجدّ المتزمت، لأن الطفل لا يمكن أن يسأل عن أفعاله هذه أمام محكمة الأخلاق ولا أمام محكمة القانون؛ على أن هذا لا ينفي أن هذه الأشياء موجودة، وأنها على جانب من الأهمية، سواء أبصفتها أعراضاً لحيطة فطرية أم سوابق وعوامل توجيه وحثّ للتطور اللاحق؛ كما أنه لا شك في أنها تفيدنا أخيراً في معرفة حياة الطفل الجنسية، ومن ثم الحياة الجنسية البشرية بوجه عام. فإن وجدنا بعد هذا جميع تلك الرغبات والحاثات المنحرفة وراء أحلامنا المحرّفة، فالمنعنى الوحيد لذلك أن الحلم أنجز في هذا المضمار أيضاً عملية نكوص وتراجع باتجاه الحالة الطفلية.

ينبغي أن نخص بالذكر، من بين تلك الرغبات المحظورة، اشتهاء المحارم، أي الرغبات الجنسية المتجهة إلى الوالدين، أو إلى الإخوة والأخوات. فأنتم تعلمون كم تستهجن المجتمعات الإنسانية، أو كم تتظاهر على الأقل باستهجان حب المحارم، وكم تتشدد في تحريمه وتحظيره. وقد بذل الباحثون جهوداً جبارة لتفسير رهاب^(٨) حب المحارم هذا^(٩). وقد رأى بعضهم في تحظير المحارم ترجمة نفسية للانتخاب الطبيعي، على اعتبار أن العلاقات الجنسية بين الأقارب الأقربين تتسبب في انحطاط خصائص النسل، بينما زعم بعضهم الآخر أن الحياة المشتركة منذ الطفولة الأولى تصدّ الرغبات الجنسية عن الأشخاص الذين يكون الفرد على اتصال دائم بهم. لكن لو صحّ هذا الرأي أو ذاك، لكان حب المحارم انتفى من تلقاء نفسه، من دون أن تكون هناك حاجة إلى اللجوء إلى تدابير حظر صارمة، وهي تدابير إن كانت تشهد على شيء فإلما على وجود ميل قوي إلى حب المحارم. أما الأبحاث التحليلية النفسية فقد أثبتت على نحو لا يرقى إليه الشك أن حب المحارم هو أول ما يرى النور من ألوان الحب، وأن وجوده عام ومطرود، وأنه لا يصطدم بمقاومة إلا في طور لاحق، وهي مقاومة يقف علم النفس الفردي عاجزاً في أرجح الظن عن تفسيرها.

لنجمل الآن المعطيات التي ظفرنا بها من الدراسة العميقة لسيكولوجيا الطفل، والتي من شأنها أن تسهّل علينا فهم الحلم. فعلاوة على أننا وجدنا أن المواد التي تتألف منها الأحداث المنسية من حياة الطفولة تشقّ طريقها إلى الحلم وتجد لها منفذاً فيه، رأينا أيضاً أن حياة الأطفال النفسية، بما تتسم به من خصائص وأتانية واشتهاء للمحارم، إلخ، تبقى مستمرة في اللاشعور لينجلي عنها الستار في الحلم، وأن هذا الأخير يردّنا كل ليلة إلى الحياة الطفلية. وهذا ما يؤكد لنا أن لاشعور الحياة النفسية ما هو إلا طورها الطفلي. وعلى هذا النحو تخفّ قليلاً حدّة ذلك

٨ - رهاب Phobie: الخوف الشديد المرّضي. «م».

٩ - درجت القواميس على ترجمة Inceste بزنا المحارم. وهي ترجمة صائبة. ولكننا نؤثر هنا أن نتكلم عن حب المحارم بدلاً من زنا المحارم، لأن الزنا هو حالة فعلية للحب، والحال أن التعلق المحرمي لدى الأطفال لا يصل إلى طور التفعيل بل معنى الكلمة. «م».

الانطباع المؤلم الذي يحدثه في نفوسنا ما لاحظناه من وجود سمات شريرة كثيرة في الطبيعة البشرية. فهذه السمات الشريرة المروعة هي بكل بساطة العناصر الأولى، العناصر البدائية، الطفلية، من الحياة النفسية، وهي عناصر يمكننا أن نلقاها ناشطة لدى الطفل، لكنها قد لا تقع تحت إدراكنا لأنها تجري في نطاق ضيق، فضلاً عن أننا لا نحفل بها ولا نحملها على محمل الجد في كثير من الأحيان، على اعتبار أن المستوى الخلقي الذي تتطلبه من الطفل ليس بالرفيع. وإذا يعود بنا الحلم القهقري إلى ذلك الطور الطفلي، يكشف لنا في الظاهر عن شئ ما في طبيعتنا. لكن هذا محض ظاهر خداع لا يفترض فيه أن يخيفنا. فنحن لسنا أشراراً بالقدر الذي قد يوحي به تأويل أحلامنا.

فما دامت الحاثات الأثيمة التي تتظاهر في الأحلام لا تعدو أن تكون بقايا ومخلفات طفلية وردة إلى بدايات تطورها الأخلاقي، على اعتبار أن الحلم يردنا أطفالاً - إن جاز القول - في الفكر والعاطفة، فليس ثمة من سبب معقول لأن نخجل من هذه الأحلام. لكن بما أن العقلاني ليس إلا جانباً من جوانب الحياة النفسية التي تنطوي على عناصر أخرى كثيرة، ما هي على الإطلاق بعقلانية، لذلك نظل نشعر بخجل لعقلاني من أحلامنا. ولذلك أيضاً نخضعها للرقابة، ونستحي بل نحقق ونسخط إذا ما أفلحت واحدة من تلك الرغبات المحظورة التي تربل بها الأحلام في شقّ طريقها إلى الشعور في صورة غير مموهة تمويهاً كافياً للحؤول دون تعرفها. وقد نخجل في بعض الأحوال حتى من أحلامنا المحرّفة، كما لو أننا نفهمها حقاً. حسبكم أن تذكروا الحكم المفعم بالخيبة والمرارة الذي صدر عن تلك السيدة العجوز الكريمة بصدد حلمها غير المؤؤل عن «خدمات الحب». إذاً ليس لنا أن نعتبر المشكلة بحكم المحلولة؛ ومن الممكن، فيما لو مضينا في دراستنا للعناصر الشريرة التي تتجلى في الأحلام، أن نجد أنفسنا منقادين إلى صوغ حكم آخر وتقييم آخر بخصوص الطبيعة البشرية.

في ختام بحثنا هذا نجدنا أمام معطين قد يكونان، مع ذلك، منطلقاً لألغاز جديدة وشكوك جديدة. الأول أن النكوص في عمل الحلم ليس شكلياً فحسب،

بل مادي أيضاً. فهو لا يكتفي بأن يسبغ على أفكارنا شكلاً تعبيرياً بدائياً، بل يوقظ أيضاً خصائص حياتنا النفسية البدائية: كلية قدرة الأنا القديمة والحالات الأولية لحياتنا الجنسية، بل حتى متاعنا العقلي القديم إذا كان من حقنا أن نعتبر الرموز جزءاً من هذا المتاع. والثانية أن كل هذه الطفالة القديمة، التي كانت غالباً سائدة في يوم مضى، ينبغي أن نضعها اليوم في مكانها من اللاشعور، وهذا ما يعدّل ويوسع تصورنا عنه. فاللاشعوري لا يعود صفة تطلق على ما هو كامن بصورة مؤقتة فحسب، بل يؤلف اللاشعور مضماراً نفسياً خاصاً، له ميوله الذاتية وأسلوبه التعبيري الخاص وآليات نفسية لا يتظاهر نشاطها إلا في هذا المضمار. لكن أفكار الحلم الكامنة التي أمارت لنا اللثام عنها تأويل الأحلام لا تدخل في نطاق هذا المضمار: فمثل هذه الأفكار قد تعرض لنا أيضاً في حياة اليقظة، ومع ذلك فهي أفكار لاشعورية. فكيف السبيل إلى حلّ هذا الإشكال؟ هنا يخالطنا شعور بضرورة إجراء تمييز: فثمة شيء يأتي من حياتنا الواعية - لنسمّه «البقايا النهارية» - ويشاطرها خصائصها، وهذا الشيء يقترن بشيء آخر يأتي من مملكة اللاشعور، ومن هذا الاقتران ينشأ الحلم. وإنما بين هاتين المجموعتين من العناصر يجري عمل الحلم. وما يمارسه اللاشعور على البقايا النهارية من تأثير هو ما ينطوي على شرط النكوص. وتلكم هي أنسب فكرة يمكن لنا أن نكونها عن طبيعة الحلم، بانتظار أن نرود ونستشفّ مضامير نفسية أخرى. لكن سيكون لزاماً علينا عما قليل أن نطلق على الطابع اللاشعوري لأفكار الحلم الكامنة اسماً آخر من شأنه أن يفسح في المجال أماناً للتمييز بينه وبين العناصر اللاشعورية الآتية من مضمار مملكة الطفالة.

في مقدورنا بطبيعة الحال أن نطرح بعد السؤال التالي: ما الذي يفرض على النشاط النفسي مثل ذلك النكوص أثناء النوم؟ ولماذا لا يلغي هذا النشاط التنبيهات المقلقة للنوم بواسطة أخرى غير النكوص؟ ولئن يكن النشاط النفسي مضطراً، كيما يمارس الرقابة، إلى تكثير تظاهرات الحلم بأن يضيف عليها شكلاً تعبيرياً قديماً، مستعصياً على الفهم اليوم، فما يفيد أن يعث إلى الحياة الحاثات النفسية والأمانى والسمات الطبعية التي تمّ تجاوزها منذ عهد بعيد؟ وبعبارة

أخرى: ما يفيد أنه يضيف إلى النكوص الشكلي النكوص المادي؟ إن الجواب الوحيد الكفيل بأن يقنعنا هو أن تلك هي الطريقة الوحيدة لتكوين الحلم، وأنه من المتعذر من وجهة النظر الدينامية أن نتصور طريقة أخرى لإلغاء التنبيه المعكّر لصفو النوم. لكن معلوماتنا الراهنة لا تبيح لنا حق الإجابة بهذا الجواب.

المحاضرة الرابعة عشرة

تحقيق الرغبات

سيداتي وسادتي، أئمة موجب لأن أذكركم مرة أخرى بالشروط الذي قطعناه؟ أيتعين علي أن أعيد إلى أذهانكم كيف أن تطبيق تقنيتنا في التأويل وضعنا في مواجهة تحريف الأحلام، فخطر لنا أن نتخلى عن تقنيتنا مؤقتاً لنلتبس من الأحلام الطفلية أن تزودنا بمعطيات حاسمة بصدد طبيعة الحلم؟ وهل أذكركم أخيراً كيف أننا تصدّينا مباشرة، حالما ظفرنا بالنتائج التي قادتنا إليها هذه الأبحاث، لتحريف الأحلام فذلّلنا صعوباته الواحدة تلو الأخرى؟ والآن نرانا مضطرين إلى التسليم بأن ما ظفرنا به باتباع أول هذين الطريقتين لا يتفق كل الاتفاق مع النتائج التي تحصّلت لنا من الأبحاث التي قمنا بها في الاتجاه الثاني. لذا، إن المهمة التي تقع على عاتقنا هي أن نقارن بين هاتين المجموعتين من النتائج وأن نوفّق بينهما.

لقد تبين لنا من كلتا الناحيتين أن جوهر عمل الحلم هو تحويل أفكار إلى خبرة حياتية هلسية. وهذا التحويل واقعة ملغزة يكتنفها الغموض، لكن هذه المشكلة تدخل ضمن نطاق علم النفس العام، وليس لنا أن نشغل أنفسنا بها. وقد أظهرت لنا الأحلام الطفلية أن عمل الحلم يرمي، عن طريق تحقيق رغبة ما، إلى إلغاء التنبيه المعكر لصفو النوم. وما كان يسعنا أن نقول الشيء نفسه عن تحريف الأحلام قبل أن نتعلم كيف نؤوّلها. لكننا كنا نتوقع من البداية أن نتمكن من إرجاع الأحلام المحرّفة إلى وجهة النظر عينها التي أرجعنا إليها الأحلام الطفلية. وقد تحقق توقعنا هذا عندما خرجنا بنتيجة مؤداها أن الأحلام كلها هي، والحق يقال، أحلام طفلية، وتستخدم مواد طفلية، وحياتيات طفلية. وحالما نعتبر أننا قد ذلّلنا على هذا النحو المسألة الصعبة المتمثلة بتحريف الأحلام،

يتوجب علينا أن ننظر فيما إذا كان تصورنا للأحلام على أنها تحقيق لرغبات وأماني يسري أيضاً على الأحلام المحرفة.

لقد قمنا آنفاً بتأويل طائفة من الأحلام، من دون أن نقيم اعتباراً لتحقيق الرغبات. وإني لموقن أنكم تساءلتم غير مرة: «ماذا إذا بشأن تحقيق الرغبات الذي زعمت أنه هو الهدف من عمل الحلم؟». وهذا سؤال له مدلوله ومغزاه: لأنه هو على وجه التحديد السؤال الذي يطرحه علينا نقادنا من غير أهل العلم والاختصاص. والبشرية، كما تعلمون، تصدّ غريزياً عن كل جديد على صعيد الفكر. ويتجلى هذا الصدود، في ما يتجلى، في أن كل جديد سرعان ما يُحجّم وتُقلّص أبعاده ويُجمّل في صيغة تلاك وتعاد (كليشه). وفيما يتعلق بنظرية الحلم الجديدة، فإن تحقيق الرغبات هو الذي أصبح تلك الكليشه. فما إن يسمع الناس بأن الحلم تحقيق لرغبات، حتى يتساءلوا من فورهم: لكن أين هو، هذا التحقيق؟ وهم لا يطرحون هذا السؤال إلا ليجدوا له حلاً بالاتجاه السلبي. إنهم يستذكرون خبرات شخصية كثيرة اقترنت فيها الأحلام التي رأوها بأنفسهم بأحاسيس كدر وتنغيص وصلت أحياناً إلى حدّ الحصر الشديد، ثم لا يلبثون أن يعلنوا أن ما تؤكدُه النظرية التحليلية بصدد الأحلام بعيد الاحتمال وغير مطابق للواقع البتة. ومن السهل علينا أن نجيب أن تحقيق الرغبات في الأحلام المحرفة قد لا يكون واضحاً سافراً، وأنه يتوجب البحث والتفتيش عنه، إذ يتعذر إثبات وجوده قبل تأويل الحلم. ونعلم أيضاً أن رغبات الأحلام المحرفة رغبات محرّمة، ملجومة من قبل الرقابة، وأن وجود هذه الرغبات هو بالتحديد علة تحريف الحلم وسبب تدخل الرقابة. لكن من الصعب بالمقابل أن ندخل في رأس ناقدنا غير المختص حقيقة أن تحقيق الرغبات لا سبيل إلى تقصيه قبل تأويل الحلم. فهو أبداً ناس لهذه الحقيقة. والواقع أن موقفه السلبي من نظرية تحقيق الرغبات لا يعدو أن يكون نتيجة من نتائج رقابة الأحلام: فهذا الرفض يقوم بديلاً لديه عن الرغبات التي تطلها يد الرقابة في الأحلام، وينجم عن إنكار هذه الرغبات.

سيتعين علينا بطبيعة الحال أن نلعل وجود ذلك القدر الكبير من الأحلام ذات المضمون الممض، وعلى الأخص أحلام الحصر والكوابيس. وهنا تواجهنا لأول

مرة مشكلة الانفعالات الوجدانية في الأحلام، وهي مشكلة تستأهل أن تدرس على حدة، وهذا ما لا نستطيع، ويا للأسف، أن نقوم به هنا. فإن يكن الحلم تحقيقاً لرغبات، فيلزم من حيث المبدأ ألا ينطوي الحلم على أحاسيس ممضة: وهنا يبدو أن النقاد من غير أهل الاختصاص محقون في اعتراضهم. لكن هؤلاء النقاد غفلوا عن ثلاث نقاط، فيها ما فيها من التعقيد:

أولاً: قد يحدث ألا يوفق عمل الحلم كامل التوفيق في خلق تحقيق لرغبة، فتنتقل رسابة من الانفعالات المؤلمة من الأفكار الكامنة إلى الحلم الظاهر. وعلى التحليل أن يبين في هذه الحال أن هذه الأفكار الكامنة كانت في الأصل أشد إيلاماً بكثير من تلك التي يصاغ منها الحلم الظاهر. وعندئذ نسلّم بأن عمل الحلم لم يدرك هدفه، تماماً كما أن المرء لا يطفئ عطشه عندما يرى في الحلم أنه يشرب. فمهما يحلم النائم بأنواع الشراب، فلا مناص له من أن يستيقظ ليشرب إن يكن ظمآنًا حقاً. على أن الحلم الذي حلم به يبقى مع ذلك حلمًا حقيقياً، حلمًا لم يفقده عدم تحقيق الرغبة شيئاً من طبيعته الحلمية. وعلمنا في هذه الحال أن نقول: لكن لم نبلغ المرام، فلقد كان القصد على كل حال حميداً^(١). وحالات عدم التوفيق هذه ليست بالنادرة. ومما يزيد في احتمال وقوعها أن تكون الانفعالات على درجة عالية جداً من المقاومة، فيلاقي عمل الحلم عنناً شديداً في تغيير معناها. وهكذا يحدث، حتى وإن نجح عمل الحلم في تحويل المضمون المؤلم للأفكار الكامنة إلى تحقيق لرغبة، أن ينتقل الانفعال المؤلم المرافق لهذه الأفكار كما هو إلى الحلم الظاهر. وعلى هذا، إن هذا النوع من الأحلام الظاهرة ينطوي على اختلاف وعدم وئام بين الانفعال والمضمون، وهذا ما يتيح لنقادنا أن يعترضوا بأن الحلم أبعد ما يكون عن تحقيق رغبة، إذ يقترن حتى مضمونه الظاهر البريء بمشاعر أليمة. وردنا على هذه الملاحظة الخرقاء أن الميل إلى تحقيق الرغبات في عمل الحلم تجلّى بأجلى صورة في أشباه هذه الأحلام تحديداً، لأنه يكون فيها في حالة انعزال وانفراد. والخطأ مرده إلى أن أولئك الذين لا معرفة لهم بالأعصاب

١ - باللاتينية في النص: Est Laudanda Voluntas Ut Desint Viresk Tamen. والشاهد مأخوذ من فن الشعر للشاعر اللاتيني أوفيد أو أوفيدوس. «م».

يتخيلون أنه يوجد بين المحتوى الظاهر والانفعال رباط وثيق غير قابل للانقسام، ولا يفهمون أن هذا المحتوى يمكن أن يتحول ويتبدل من دون أن يطرأ تغيير على التظاهرات الانفعالية المرتبطة به.

ثانياً، ثمة نقطة أخرى أشد خطورة وأبعد غوراً لا يقيم لها الناقد من غير أهل الاختصاص وزناً، وتمثل في ما يلي: فتحقيق الرغبة يفترض فيه بكل تأكيد أن يكون مصدرها للذة. ولكن لمن؟ بطبيعة الحال لصاحب هذه الرغبة. والحال أننا نعلم أن موقف الحالم من رغباته موقف فريد في نوعه؛ فهو يصدّها، ويخضعها للرقابة، وبكلمة واحدة، يريد أن يجهل كل شيء عنها. إذاً فتحقيقها لا يمكن أن يعود عليه بلذة: بل على النقيض من ذلك. وتدل التجربة أن هذا النقيض - الذي لا يزال بحاجة إلى تفسير - يتظاهر في صورة حصر. وهكذا يبدو الحالم، في موقفه من رغبات أحلامه، وكأنه مركّب من شخصين مستقلين، وإن ربطت بينهما صلة وثيقة. على أنني، بدلاً من أن أتوسع في هذا الموضوع، سأسرد على مسامعكم حكاية معروفة يتكرر فيها هذا الموقف عينه^(٢). لقد وعدت جنينة طيبة زوجين فقيرين بتحقيق رغباتهما الثلاث الأول. فطفقا، وقد غمرتهما السعادة، يتخيران هذه الرغبات الثلاث. فقد شمت المرأة رائحة سجع تنبعث من الكوخ المجاور، فاشتتهت أن تصيب منه قطعتين. فما هي إلا لحظة حتى حضر السجع، فتحققت الرغبة الأولى. فحنق الرجل وتمنى لو رأى السجع معلقاً على أنف زوجته. فما كاد يفعل حتى كان له ما أراد، فلصق السجع بأنف زوجته واستعصى انفصاله عنه. فتحققت الرغبة الثانية، رغبة الزوج هذه المرة. ولا داعي لأن أقول لكم أن ما جنته المرأة من ذلك كله لم يكن مما يُستحب على الإطلاق. وأنتم تعرفون التمتة. فيما أن الرجل والمرأة يؤلفان على كل حال زوجاً واحداً، الرجل وزوجته، فإن الرغبة الثالثة لا بد أن تكون انفصال السجع عن أنف الزوجة. وبوسعنا إذا شئنا، أن نستخدم هذه الحكاية في مناسبات أخرى كثيرة. لكنها تفيدنا هنا في بيان أن تحقيق رغبة

٢ - هي قصة الأمنيات الثلاث للكاتب السويسري يوهان بتر هيبيل (١٧٦٠ - ١٨٢٦). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

واحدهما لا يمكن إلا أن يكون مصدر إزعاج كبير للثاني، إذ لم يكن بينهما وفاق وتفاهم.

لن يشق علينا الآن أن نفهم فهماً أفضل الكوايس. ولن نورد بعد الآن سوى ملاحظة واحدة لننتهي بعدها إلى فرضية نملك أن نسوق في تأييدها حججاً شتى. والملاحظة التي أشير إليها تتصل بواقع أن الكوايس كثيراً ما يكون لها مضمون بريء من أي تحريف، وكأنه أفلت من الرقابة إن جاز القول. فالكابوس هو في الغالب تحقيق غير مقنّع ولا متكرر لرغبة من الرغبات، ولكن هذه الرغبة ليست مما يرحّب به الحالم، بل هي على العكس مما ينبذه ويصدّ عنه. والحصص، الذي يرافق تحقيق هذه الرغبة، ينوب مناب الرقابة. وعلى حين أنه يمكننا القول عن الحلم الطفلي إنه تحقيق صريح سافر لرغبة مقبولة مجازة، وعن الحلم المحرّف العادي إنه تحقيق مقنّع لرغبة مكبوتة، فلا تعريف ممكن للكابوس إلا على أنه تحقيق صريح سافر لرغبة مشجوبة. والحصص مؤشّر إلى أن الرغبة المشجوبة أقوى من الرقابة، وإلى أنها تحققت أو كانت قيد التحقيق بالرغم من الرقابة. ويسير علينا أن ندرك، نحن الذين نقول بوجود الرقابة، أن تحقيق تلك الرغبة لا يمكن أن يظهر إلا وكأنه مصدر لمشاعر مؤلمة، ومناسبة لاتخاذ موقف دفاعي. وما الشعور بالحصص الذي يراود المرء أثناء الحلم - إن شئتم - إلا حصص حيال قوة هذه الرغبات التي يكون قد أفلح في قمعها حتى ذلك الحين. غير أن دراسة الأحلام وحدها لا تكفي لتبيّن لنا لماذا يتبدى هذا الدفاع في صورة حصص. وهذا موضوع سنعالجه في مرة قادمة^(٣).

إن ما يصدق على الكوايس غير المحرّفة لا بدّ أن يصدق أيضاً على تلك التي أصابها تحريف جزئي، وكذلك على أحلام مزعجة أخرى تقترب بمشاعر مؤلمة شبيهة في أرجح الظن بالحصص. والكابوس غالباً ما تعقبه بقطة: فنومنا ينقطع في أغلب الأحيان قبل أن تصل رغبة الحلم الملجومة إلى تحقّقها الكامل رغم أنف الرقابة. وفي هذه الحال يكون الحلم قد أخفق في أداء وظيفته، من دون أن تتغير

٣ - سيفرد فرويد محاضرة خاصة لموضوع الحصص، هي الخامسة والعشرون في سلسلة هذه المحاضرات.

طبيعته من جراء ذلك. وكنا قد شبّهنا الحلم بالحارس الليلي، بذاك الذي يوكل إليه أمر حماية نومنا من كل ما من شأنه أن يعكر صفوه. وقد يضطر الحارس إلى إيقاظ النائم إذا ما شعر بأنه أضعف من أن يدرأ وحده الانزعاج أو الخطر. غير أننا قد نفلح أحياناً في مواصلة النوم، حتى ولو شرع الحلم بالتحول إلى حصر وسبب لنا ضيقاً، إذ نقول بيننا وبين أنفسنا ونحن نيام: «ما هذا إلا حلم»، ونستمر في النوم.

كيف يتفق أن تكون الرغبة الحلمية قوية بما فيه الكفاية لتظهر على الرقابة وتقلت منها؟ قد يكون مردّ ذلك إلى الرغبة كما إلى الرقابة على حد سواء. فلأسباب مجهولة يمكن للرغبة، في آن من الآونة، أن تكتسب شدة مفرطة، لكن يلوح لنا أن هذا التغير في ميزان القوى المتواجبة مرجعه في أكثر الأحيان إلى الرقابة. وقد رأينا من قبل أن الشدة التي تفصح بها الرقابة عن نفسها تتفاوت من حالة إلى أخرى، فتعامل العناصر المختلفة بصرامة متفاوتة الدرجة أيضاً. وبوسعنا أن نضيف الآن أن هذا التفاوت لا ينحصر بذلك، إذ إن الرقابة لا تعامل حتى العنصر الواحد المستأهل للمنع والخطر بصرامة متساوية. فإن اتفق لها في حالة بعينها أن وجدت نفسها عاجزة حيال رغبة حلمية تسعى إلى خداعها والإفلات من قبضتها، لجأت إلى آخر وسيلة في جعبتها - بعد امتناع التحريف عليها - واستظهرت عليها بالخروج من حالة النوم تحت ضغط تمخّض الحصر.

وليس لنا إلا أن نلاحظ في هذا الصدد أننا نجهل لماذا لا تتظاهر هذه الرغبات المرذولة والمقموعة إلا في أثناء النوم تحديداً، فتعكر علينا صفوه. وما من سبيل إلى الإجابة عن هذا السؤال إلا إذا أخذنا طبيعة حالة النوم بعين الاعتبار. ففي أثناء النهار تكون هذه الرغبات خاضعة لرقابة صارمة تحظر عليها بوجه عام كل تظاهر خارجي. لكن هذه الرقابة تنتفي ليلاً، شأنها في ذلك شأن الكثير من اهتمامات الحياة النفسية، أو يصيبها على كل حال وهن شديد لصالح رغبة واحدة هي الرغبة في النوم. وتدين الرغبات المحرمة لتعطل الرقابة هذا أثناء النوم بإمكانية تظاهرها من جديد. وقد أقر لنا عصبيون، ممن يعانون الأرق، بأن أرقهم كان في

أول الأمر مقصوداً مراداً. فخوفهم من الأحلام وخشيتهم من عواقب وهن الرقابة كانا يحولان بينهم وبين الاستسلام لداعي النوم. وأما أن تعطل الرقابة أثناء النوم ليس دليلاً على استهتار وعدم تبصر، فسهل عليكم تبين ذلك وإدراكه. فحالة النوم تشل قدرتنا على الحركة، ومن ثم، إن نوازعنا الشريرة لا تستطيع، مهما نشطت، أن تبتعث فينا إلا أحلاماً، والأحلام لا ضرر منها في نهاية المطاف. وهذا الوضع الذي يبعث على الاطمئنان يجد تعبيره في تلك الملاحظة العاقلة التي يلاحظها النائم - ملاحظة هي جزء من الحياة الليلية، ولكنها ليست جزءاً من حياة الحلم - إذ يقول بينه وبين نفسه: « ما هذا إلا حلم ». فبما أن الأمر لا يعدو أن يكون حلماً، فلندعه يفعل ما يشاء، ولنواصل النوم.

ثالثاً، لو تذكرتم التشابه الذي أقمناه بين الحالم المصارع رغباته وبين الشخص الوهمي المركب من شخصيتين متميزتين ومتراپطين مع ذلك برباط وثيق، لأدركتم بسهولة أن هناك سبباً آخر يحتم أن يكون لتحقيق الرغبات مفعول مستكره للغاية، هو مفعول العقاب. فلنعد إلى حكاية الرغبات الثلاث: فالسجق على طبق تحقيق مباشر لرغبة الشخص الأول، أي الزوجة، والسجق على أنف الزوجة تحقيق لرغبة الشخص الثاني، أي الزوج، لكنه أيضاً عقاب للمرأة على رغبتها الخرقاء. وفي درساتنا للأعصبة سنهتدي إلى تعليل ثلاثة الرغبات التي هي الرغبة الوحيدة التي تبقى معلقة في الحكاية. والحال أن حياة الإنسان النفسية تزخر بمثل هذه النوازع العقابية، وهي نوازع على جانب كبير من القوة، ومسؤولة عن شطر واسع من أحلامنا المضطربة. وقد تعترضون عليّ هنا بأن التسليم بهذا كله لا يذر شيئاً يذكر من التحقيق المزعوم للرغبات. لكن لو أنعمتم النظر لأدركتم أنكم على خطأ من أمركم. فصحيح أننا لو وازناً بين التنوع الذي يمكن أن تكون عليه الأحلام (وسناقش هذا التنوع لاحقاً) والذي هي كائنة عليه فعلاً بحسب ما يرى بعض الباحثين، فإن تعريفنا للحلم أنه تحقيق لرغبة أو لنقيضها من خوف أو عقاب سيبدو بالفعل تعريفاً محدوداً ضيقاً. وهذا فضلاً عن أن الخوف والحصر ضدان للرغبة. ولكن يجب ألا يفوتكم أن الأضداد لصيقة ببعضها بعضاً في تداعي الأفكار، بل قد يتداخل أحدهما بالآخر، كما نعرف، في اللاشعور.

وغني عن البيان أيضاً أن العقاب نفسه تحقيق لرغبة، رغبة شخص آخر، الشخص الذي يراقب ويعاقب.

هكذا ترون أنني لم أترجع قيد أملة إزاء تحيزكم ضد نظرية تحقيق الرغبات. بل من واجبي - ولست أريد أن أتصل منه - أن أريكُم أن أي حلم محزوف، أيًا يكن نوعه، لا يعدو أن يكون تحقيقاً لرغبة. تذكروا الحلم الذي سبق لنا تأويله والذي خرجنا منه بكثرة من الأشياء الطريفة: الحلم الذي يدور حول ثلاثة مقاعد غير مناسبة في المسرح لقاء فلوران ونصف فلوران. فقد أخبر الزوج زوجته أن صديقتها ليزا، التي تصغرها بثلاثة أشهر فقط، قد خطبت، فرأت الزوجة في المنام أنها ذهبت برفقة زوجها إلى المسرح. وكان قسم من المقاعد الأمامية شبه خاوي. فقال لها زوجها إن إليزا وخطيبها كانا بؤدهما هما أيضاً حضور المسرحية، ولكنهما ما استطاعا ذلك، إذ لم يجدا سوى ثلاثة مقاعد غير مناسبة بفلوران ونصف فلوران، وكان تعليقها على ذلك أنه لم يضع عليهما شيء كثير. وقد علمنا أن أفكار الحلم ذات صلة بئدهما على زواجهما المبكر وبيرمها بزوجهما وعدم رضاها عنه. والمفروض أن يدفع بنا الفضول هنا إلى أن نستطلع كيف صيغت هذه الأفكار الكثيفة وحوّلت إلى تحقيق لرغبة، وأين تكمن آثارها في الحلم الظاهر. والحال أننا نعلم من قبل أن عنصر «التبكير» و«التعجل» قد حذفته الرقابة من الحلم. والمقاعد الأمامية الخاوية إشارة إلى ذلك وتلميح. أما لغز «الثلاثة مقاعد بفلوران ونصف فلوران» فهو يتجلى الآن لنا بمزيد من الوضوح والفهم بعد أن عرفنا ما عرفناه عن الرمزية في الأحلام^(٤). فالرقم ٣ يشير فعلاً إلى رجل، والعنصر الظاهر قابل بسهولة للترجمة: شراء زواج بالباطنة («كنت أستطيع بيائتي أن أشتري زوجاً أفضل بعشر مرات»). والذهاب إلى المسرح بدليل يئ عن الزواج، و«التذاكر التي بكرت المرأة بشرائها» هي بمثابة تنكير لفكرة «تعجلها بالزواج». لكن هذا الإبدال هو من عمل تحقيق الرغبة. فصاحبة الحلم لم تسخط قط على زواجهما المبكر كما سخطت عليه يوم علمت بنأ خطوبة صديقتها. فقد

٤ - لا أورد هنا تأويلاً آخر ممكناً للرقم ٣ في حلم امرأة عاقر، بالنظر إلى افتقارنا للمواد التي كان يمكن أن يقدمها التحليل.

مرَّ عهد من الزمن كانت تتباهى فيه بزواجها وتتفاخر على إيزا. والساذجات من الفتيات كثيراً ما يطيب لهن، متى ما عقدت خطوبتهن، أن يعبرن عن فرجهن وابتهاجهن بذلك، إذ يغدو كل شيء مباحاً لهن، فيقبلن على مشاهدة التمثيليات وعلى حضور العروض المسرحية طراً. ولا ريب في أن الفضول إلى رؤية كل شيء، كما يتجلى هنا، كان في بادئ الأمر فضولاً جنسياً ومتركزاً على الحياة الجنسية، ولاسيما الحياة الجنسية للوالدين، ثم تحوّل بعد ذلك إلى دافع جارف حفز الفتاة على التبكير بالزواج.

هكذا يغدو حضور المسرحية بديلاً يمكننا أن نحسد بما فيه من تلميح إلى واقعة الزواج. فهذه السيدة، التي باتت نادمة في الوقت الحاضر على زواجها المبكر، نكصت إلى العهد الذي كان فيه هذا الزواج يحقق رغبة لها، لما كانت تفترضه من أنه سيتيح لها إمكانية إشباع حبها للعروض المسرحية. وبإيحاء من تلك الرغبة القديمة استبدلت واقعة الزواج بواقعة الذهاب إلى المسرح.

بوسعنا أن نقول إن المثال الذي اخترناه لثبت وجود تحقيق لرغبة مستترة لم يكن من أكثر الأمثلة توفيقاً. ولكن ليس لنا إلا أن نسلّم هذا المسلك عينه في تأويلنا لأي حلم محرّف آخر. وبما أنني لست بمستطيع أن أفعل ذلك أمامكم، فسأكتفي بأن أطمئنكم إلى أن هذا المسلك يكلّل دوماً بالنجاح. غير أنني أودّ أن أتوقف قليلاً عند هذا الجانب التفصيلي من جوانب النظرية. فقد دلّنتي التجربة على أنه أكثر جوانب نظريتنا عرضةً للتهجم والانتقاد، وعليه تنصب أكثر المناقضات وضروب سوء الفهم. وقد يساوركم، فضلاً عن ذلك، انطباع بأنني تراجع عن بعض توكيداتّي، عندما قلت لكم إن الحلم رغبة محققة أو نقيضها، أي حصر أو عقاب متحقق، وقد ترون أن الفرصة سانحة لانتزاع تنازلات أخرى مني. وقد أخذ الآخزون عليّ كذلك أنني أعرض باقتضاب شديد، وبالتالي بطريقة لا تقنع إقناعاً كافياً، أشياء لا تبدو بديهية إلا في نظري أنا.

إن الكثيرين ممن تابعوني في تأويل الحلم وقبلوا بالنتائج التي تمخض عنها يتوقفون في أكثر الأحوال عند النقطة التي تنتهي إليها برهنتي من أن الحلم تحقيق لرغبة، ويتساءلون: «إذا سلّمنا بأن للحلم على الدوام معنى، وبأن التقنية التحليلية

النفسية قادرة على الكشف عن هذا المعنى، فما الداعي لأن يُصَبَّ الحلم على الدوام، ورغم أنف البداة، في قالب تحقيق لرغبة؟ ولماذا لا يكون لأفكارنا في أثناء النوم معانٍ متعددة ومتنوعة نظير تلك التي تراودنا في حالة اليقظة؟ وبعبارة أخرى، ما الذي يمنع أن يكون الحلم تارة تحقيقاً لرغبة، وطوراً لنقيضها، كما تقرُّ أنت نفسك، أي تحقيقاً لقلق وتخوف؟ ولم لا يكون تعبيراً عن قصد، أو تحذير، أو موازنة لأمر بما له وما عليه، أو كذلك عن ملامة، أو وخز ضمير، أو محاولة للتهوُّ لعمل وشيك، إلخ؟ وما الذي يحتم أن يكون على الدوام محض تعبير عن رغبة، أو عن نقيضها في أحسن تقدير؟^٥

قد تتصورون أن الخلاف بصدد هذه النقطة عديم الأهمية متى ما اتفقنا على النقاط الأخرى، وأنه يكفي أن نكون قد اكتشفنا معنى الحلم والسبيل إلى التعرف إليه، ثم لا يعنيننا بعد ذلك أن نكون قد جعلنا لهذا المعنى حدوداً أضيق مما ينبغي. لكن ليس كذلك واقع الأمر. فسوء التفاهم بصدد هذه النقطة من شأنه أن يتقص من قدر جميع المعارف التي تحصلت لنا حول الحلم، وأن يقلل مما يمكن أن يكون لها من قيمة وأهمية عندما سنتصدى لفهم الأمراض العصبية. قد يكون التسامح واللين جائزين في الأعمال التجارية، لكن موقفاً كهذا غير مقبول في المسائل العلمية، بل قد يكون ضاراً أيضاً.

إذا لم لا يجوز أن يكون الحلم شيئاً آخر غير تحقيق لرغبة؟ جوابي الأول عن هذا السؤال سيكون، كما في كل الحالات المماثلة، هو: لست أدري لماذا لا يكون كذلك، وأنا على كل حال لا أمانع في ذلك. لكنه في الواقع ليس كذلك، وهذه هي النقطة التفصيلية الوحيدة التي تناوئ هذا التصور الأوسع والأنسب للحلم. وسيكون جوابي الثاني أنني أنا نفسي أجنح إلى التسليم بأن الحلم يتطابق مع أشكال متعددة من التفكير والعمليات العقلية. وهذه فكرة ليست بجديدة عندي. فقد سجلت ذات يوم - أثناء دراستي لحالة مرضية^(٥) - حلماً تكرر ثلاث ليالٍ على التوالي ثم انقطع، وفُسِّرَت ذلك بأن هذا الحلم كان

٥ - الإحالة هنا إلى بحث فرويد شذرات من تحليل حالة هستيريا: دورا. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

صدى لنية كان الحالم قد عقد العزم على وضعها موضع تنفيذ، فلما فعل لم يعد ثمة داع لأن يتكرر الحلم. ونشرت بعد ذلك تفاصيل حلم هو بمثابة اعتراف^(٦). فكيف أستطيع إذاً أن أناقض نفسي، فأجزم بأن الحلم لا يكون أبداً إلا رغبة متحققة؟

أفعل ذلك كي أبعد عنكم سوء فهم ساذج من شأنه أن يذهب بثمرة الجهود التي استأدانا إياها الحلم أدراج الرياح، سوء فهم يخلط الحلم بأفكار الحلم الكامنة ويطبق على الأول ما لا يصدق إلا على الثانية. فلا جدال في أن الحلم يستطيع أن يمثل كل ما عدّدناه أعلاه وأن يكون بديلاً عنه: قصد، تحذير، تفكير، تهوؤ، محاولة حل مشكلة، إلخ. لكن لو أمعنتم النظر في الأمر، فلن يفوتكم أن تبينوا أن ذلك لا يصدق إلا على أفكار الحلم الكامنة التي أصابها ما أصابها من تحوّل فصارت حلماً. فمن تأويل الأحلام تعلمون أن فكر الإنسان اللاشعوري يدور على مقاصد ومشاريع واستعدادات وضروب من التفكير تحوّلها عملية الصياغة إلى أحلام. فإن صرفتم النظر في لحظة ما عن عمل الحلم، وركّزتم كل اهتمامكم على تفكير الإنسان اللاشعوري، أسقطتم عمل الحلم من حسابكم وقتتم بحق إن الحلم يطابق نية ما أو تحذيراً ما، إلخ. وهذه حالة متواترة في العمل التحليلي النفسي: فنحن نسعى إلى تفكيك الشكل الظاهر الذي تلبّسه الحلم لنصل منه إلى الأفكار الكامنة التي عنها نشأ الحلم.

وهكذا يتأتى لنا أن نعلم عرضاً، عندما لا نقيم اعتباراً لغير الأفكار الكامنة، أن جميع تلك الأفعال النفسية البالغة التعقيد التي عدّدناها لتوّنا تتم خارج نطاق الشعور: وهذه نتيجة عظيمة رائعة بقدر ما هي مربكة!

لكن لنعد إلى تعدد المعاني التي يمكن أن تكون للأحلام. فليس يحقّ لكم الكلام عن هذا التعدد إلا إذا قرّ في أذهانكم عن علم ودراية أنكم تستخدمون تعبيراً مقتضياً ولم يساوركم الاعتقاد بأنه يتعيّن سحب ذلك التعدد على طبيعة الحلم نفسها. فعندما تتكلمون عن «الحلم»، يجب أن يكون نصب أعينكم إما

٦ - الإحالة هنا إلى مقال فرويد: حلم كأداة للبرهان. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

الحلم الظاهر، أي نتاج عمل الحلم، وأما هذا العمل نفسه على أكثر تقدير، أي العملية النفسية التي تصوغ الحلم الظاهر من أفكار الحلم الكامنة. وأي استعمال آخر لهذه الكلمة ليس من شأنه إلا أن يزرع اللبس وسوء الفهم. فإن قصدتم بكلامكم الأفكار الكامنة فيما وراء الحلم، فقولوا ذلك مباشرة وصراحة، من دون أن تحجبوا مشكلة الحلم خلف ستار الأسلوب المبهم الذي تعمدونه في التعبير. إن الأفكار الكامنة هي المادة التي يحولها عمل الحلم إلى حلم ظاهر. فما الداعي لأن تخلطوا بين المادة وبين العملية التي تعطيها شكلاً؟ وبم تتميزون حينئذ عن أولئك الذين لا يعرفون سوى نتاج هذه العملية، من دون أن تتوفر لهم المقدرة على أن يفكروا من أين جاء هذا النتاج وكيف تكوّن وتشكل؟

إن العنصر الجوهري الوحيد في الحلم هو عمل الحلم الذي يفعل في المادة المكوّنة من أفكار. ولا يحقّ لنا أن نغفل عن ذلك نظرياً، حتى لو اضطررنا إلى التغاضي عنه في بعض المواقف العملية. وتدلنا الملاحظة التحليلية النفسية أيضاً أن عمل الحلم لا يقنع بأن يعطي تلك الأفكار التعبير الأثري أو النكوصي الذي تعلمون، بل يضيف إليها على الدوام شيئاً لا ينتمي إلى الأفكار الكامنة للنهار السابق للحلم، لكنه يشكل إن جاز القول القوة المحركة لصياغة الحلم. وما هذه الإضافة الضرورية إلا الرغبة التي هي بدورها لاشعورية، وما الغرض من التحويل الذي يطرأ على محتوى الحلم إلا تحقيق هذه الرغبة. وبقدر ما ترون إلى الحلم من منظور الأفكار التي يمثّلها، يكون له من المعاني بقدر ما تشاؤون: تحذير، تصميم، تهوؤ، إلخ، لكنه يكون في الوقت نفسه وعلى الدوام تحقيقاً لرغبة لاشعورية، وهو لا يكون إلا كذلك إذا ما رأيتم إليه باعتباره نتاج عمل الحلم. إذاً فالحلم ليس على الإطلاق محض تصميم أو محض تحذير، إلخ، بل هو على الدوام تصميم أو تحذير تلبّس، بفعل رغبة لاشعورية، شكلاً تعبيرياً أثرياً، وأصابه ما أصابه من تحول وتبدل بغية تحقيق هذه الرغبة. وثانية هاتين الصفتين، أي تحقيق الرغبة، صفة دائمة ثابتة، أما أولاهما فمتغيرة: فقد تكون هي أيضاً رغبة، وعندئذ يمثل الحلم رغبة كامنة من رغبات النهار السابق له تحققت بمعونة رغبة لاشعورية.

إن كل ما سردته على مسامعكم يبدو لي مفهوماً تمام الفهم، لكنني لا أدري

هل وُقِّعت إلى أن أجعله مفهوماً لكم أيضاً. ذلك أنه يعسر عليّ إقامة البرهان عليه. فهذه البرهنة تقتضي، من جهة أولى، تحليلاً دقيقاً لعدد غفير من الأحلام، وهذه النقطة الشائكة والأبلغ دلالة من نقاط تصورها للأحلام لا يمكن عرضها، من جهة أخرى، عرضاً مقنعاً من دون ربطها بما لم نتحدث عنه بعد. فهل لكم أن تتصوروا حقاً، وأنتم على علم بما بين الأشياء من روابط وثيقة، أنه في مقدورنا أن نتعمق ونتبحر في دراسة طبيعة ظاهرة من الظاهرات من دون أن نبالي بالظواهرات الأخرى التي من طبيعة مماثلة؟ وبما أننا لا نعلم شيئاً بعد عن الظواهرات التي تقترب من الأحلام أكثر من غيرها، أعني الأعراض العصابية، فلا معدى لنا عن الاكتفاء بما ظفرنا به مؤقتاً من معلومات. ولن أزيد على أن أسرد لكم مثلاً إيضاحياً آخر، وألفت انتباهكم إلى نقطة جديدة.

لنعد مرة أخرى إلى ذلك الحلم الذي استشهدنا به مراراً، أعني الحلم الذي يدور موضوعه على ٣ مقاعد في المسرح بفلوران ونصف فلوران. وبوسعي أنؤكد لكم أنني عندما اخترته كمثال للمرة الأولى، لم يكن ذلك عن قصد معين. وأنتم تعرفون أفكار هذا الحلم الكامنة: ندم السيدة على التبكير في الزواج عقب سماعها نبأ خطوبة صديقتها، شعورها بالازدراء حيال زوجها، تصورها بأنها كانت ستحصل على زوج أفضل لو ارتضت بالانتظار. وأنتم تعرفون أيضاً الرغبة التي جعلت من جميع هذه الأفكار حلماً: حب العروض المسرحية واشتهاء ارتياد المسارح؛ وأكبر الظن أن هذه الرغبة تفرغت عن الفضول القديم إلى معرفة ما يحدث فعلاً بعد أن تتزوج. ومعلوم أن هذا الفضول لدى الأطفال يتجه بصورة عامة نحو حياة الوالدين الجنسية؛ هو إذاً فضول طفلي، وبقدر ما يتأتى له أن يبقى ويدوم لاحقاً، فإنه يشكل حادثة غريزية تتأثل جذورها في الطور الطفلي من الحياة. غير أن النبا الذي بلغ الزوجة في النهار السابق لحلمها لم يقدم من تلة البتة لحب المسرح لديها، بل كان كل شأنه أن حرّك ندمها وابتعث حسرتها. إذاً فهذه الحادثة الرغبة لم تكن تندرج في بادئ الأمر في عداد أفكار الحلم الكامنة؛ وقد كان في مقدورنا بالتالي، من دون أن نقيم لها وزناً، أن ندرج في التحليل نتيجة تأويل الحلم. لكن الاستياء كذلك ما كان له أن يستحدث الحلم. فالفكرة

التي راودتها: «كان بعداً عن المنطق إذ تعجلت إلى هذا الحد في زواجي» ما كان لها أن تولّد حلماً إلا بعد أن أيقظت الرغبة القديمة في معرفة ما يحدث فعلاً بعد الزواج. وعندئذ شكلت هذه الرغبة مضمون الحلم، بأن استبدلت الزواج بالذهاب إلى المسرح، وأعطته شكل تحقيق حلم قديم: «أجل، في مقدوري أنا أن أذهب إلى المسرح وأن أرى كل ما هو محظور، بينما أنت لا تستطيعين ذلك. فأنا متزوجة، أما أنت فعليك أن تنتظري بعد». هنا يكون الموقف الراهن قد قلب إلى ضده، وأجل فوز قديم محل إحباط حديث، فكان مزيج من إشباع لحب المسرح ومن إرضاء أناني متأت من الفوز على مزاحمة ومنافسة. وهذا الإرضاء هو الذي حدد مضمون الحلم الظاهر، فإذا بالسيدة ترى نفسها، بحسب هذا المضمون، في المسرح، بينما تعذر على صديقتها الذهاب إليه. وإلى هذا الموقف الباعث على الرضى انضافت، في صورة تعديلات وتحويرات مستغلقة على الفهم ولا صلة لها بالموقف المشار إليه، أجزاء تدرج في عداد مضمون الحلم وتستتر خلفها الأفكار الكامنة. وعلى تأويل الحلم أن يضرب صفحاً عن كل ما يفيد في التمثيل المجازي لإشباع الرغبة وأن يعيد، طبقاً لهذه المؤشرات، بناء أفكار الحلم الكامنة المؤلمة.

أما النقطة التي أردت أن ألفت انتباهكم إليها فالغرض منها أن تركزوا اهتمامكم على الأفكار الكامنة التي باتت تحتل الآن مكانة الصدارة. وإنني أرجو ألا تنسوا أموراً ثلاثة: أولاً، إن الحالم لا يعي هذه الأفكار البتة، ثانياً، إنها معقولة ومفهومة ومتلاحمة إلى أقصى حد، بحيث يمكن اعتبارها استجابات طبيعية تماماً للحدث الذي استثار الحلم، ثالثاً وأخيراً، إنه قد يكون لها من القيمة ما لأي حادثة نفسية أو لأي عملية فكرية. وسأطلق الآن على هذه الأفكار اسم «البقايا النهارية»، وهو اصطلاح يعطيها معنى أدق من ذي قبل. ولا يهم أصلاً إن اعترف الحالم أو لم يعترف بأن هذه البقايا تعود إليه. وأقيم بعد ذلك تمييزاً بين البقايا النهارية والأفكار الكامنة؛ وطبقاً لما سرنا عليه من استعمال لهذا الاصطلاح الأخير سأشير بالأفكار الكامنة إلى كل ما يعلمنا به تأويل الحلم، على اعتبار أن البقايا النهارية لا تعدو أن تكون جزءاً من الأفكار الكامنة. وعندئذ نقول إن ثمة

شيئاً ينتمي إلى دائرة اللاشعور انضاف إلى البقايا النهارية، وأن هذا الشيء هو رغبة جامحة لكنها ملجومة، وأن هذه الرغبة هي وحدها التي جعلت تكوين الحلم ممكناً. والتأثير الذي كان لهذه الرغبة على البقايا النهارية حثم بزوغ أفكار كامنة أخرى لا يمكن اعتبارها هذه المرة معقولة وقابلة للتفسير بحياة اليقظة.

تمثيلاً على العلاقات القائمة بين البقايا النهارية والرغبة اللاشعورية كنت قد استخدمت، في غير هذا المكان، تشبيهاً لا أجد مناصاً من العودة إليه هنا. فكل مشروع يحتاج إلى رأسمالي يتولى الإنفاق، وإلى مقالول تكون لديه عن ذلك فكرة ويعرف كيف ينقذها. والرغبة اللاشعورية هي التي تقوم على الدوام بدور الرأسمالي في تكوين الحلم، فهي التي تتولى تقديم الطاقة النفسية اللازمة لهذا التكوين. أما المقالول فتمثله هنا البقية النهارية التي تحدّد كيفية استخدام هذا الرأسمال، هذه الطاقة. والحال أن الرأسمالي نفسه هو الذي يكون في بعض الأحوال صاحب الفكرة ومالك المعارف الخاصة التي يتطلبها تنفيذها، كما يكون المقالول نفسه في أحوال أخرى مالك الرساميل اللازمة لإقامة المشروع. وهذا من شأنه أن ييسط الموقف العملي وأن ييسره، ولكنه يجعل فهمه النظري أكثر صعوبة. وقد درجت العادة في الاقتصاد السياسي على تقسيم هذا الشخص الواحد، وعلى التمييز بين وجه الرأسمالي ووجه المقالول فيه، وفي هذا الفصل والتمييز صورة للموقف الأصلي الذي اتخذناه نقطة انطلاق لمماثلتنا. على أن الاحتمالات والتنوعات عنها قد تنشأ في تكوين الأحلام، وسأترك لكم حرية تتبعها وملاحظتها بأنفسكم.

وليس يسعنا، هنا، أن نمضي إلى أبعد من ذلك، إذ إنني أشتبه في أن ثمة سؤالاً يبلبل أذهانكم ويستأهل أن نأخذه أخيراً في اعتبارنا. فأنتم قائلون ولا ريب: هل البقايا النهارية لاشعورية حقاً بنفس المعنى الذي نفهم به الرغبة اللاشعورية التي لا غنى عن تدخلها لكيما تمتلك تلك البقايا المقدرة على استحداث الحلم؟ هذا سؤال مشروع تماماً. وطرحكم إياه دليل على حصافتكم، إذ تلك هي النقطة البارزة في الموضوع كله. وإنني لأوافقكم على أن البقايا النهارية ليست لاشعورية بالمعنى الذي نطلقه على الرغبة اللاشعورية. فالرغبة

تنتهي إلى طراز آخر من اللاشعور، هو ذاك الذي رأينا أنه طفلي الأصل وأن له آلياته الخاصة. ومن المستحسن على كل حال أن نتميز بين هذين النوعين من اللاشعور بإطلاقنا على كل منهما اسماً خاصاً. لكننا لن نفعل ذلك قبل أن نلّم بفينومينولوجيا الأمراض العصبية ونألفها. وقد أخذ الآخزون على نظريتنا إغراقها في الخيال لأننا نصادر على وجود لاشعور واحد، فما عساهم يقولون لو اعترفنا بأننا بحاجة إلى لاشعورين اثنين على الأقل لتلبية مطالب بحثنا؟

لنقف عند هذا الحد. صحيح أنكم لم تستمعوا بعد إلا إلى تصورات ناقصة غير كاملة، لكن أليس مما يبعث على الاطمئنان أن نفترض أن هذه المعلومات قابلة للتطوير إما عن طريق بحوث قد نقوم بها نحن، أو عن طريق بحوث يقوم بها من يأتون بعدنا؟ ثم ألم يكن ما اكتسبناه جديداً ومدهشاً رائعاً بحد ذاته؟

المحاضرة الخامسة عشرة

شكوك وانتقادات

سيداتي وسادتي، لا أريد أن أترك موضوع الأحلام من دون أن أتوقف عند الشكوك والريب الرئيسية التي قد تثيرها التصورات الجديدة التي عرضناها فيما سلف. ومن تتبعتني من سامعيّ بشيء من الانتباه، فلا بدّ أن تكون قد اجتمعت لديه طائفة من التساؤلات حول هذا الموضوع.

١ - قد يكون ساورك انطباع بأن النتائج التي خرجنا بها من مجهودنا التأويلي يكتنفها، رغم التطبيق الصحيح لتقنيتنا، قدر كبير من الشكوك، بحيث يستحيل رد الحلم الظاهر إلى أفكاره الكامنة على نحو محقق جازم. وقد تقولون في تأييد رأيكم هذا، أولاً، إن المرء لا يدري إن كان يتعيّن عليه أن يفهم هذا العنصر أو ذاك على معناه الحرفي أو على معناه الرمزي، لأن الأشياء التي تستخدم كرموز لا تتغير عما هي عليه بحكم ذلك. وبما أننا لا نملك بصدد هذه النقطة أي معيار للحكم الموضوعي، فإن التأويل يكون رهناً، والحالة هذه، بعسف المؤؤل. ثانياً، وبالنظر إلى أن عمل الحلم يوصف الأضداد بعضها بجانب بعض في الحلم، فإن المرء لا يسعه إطلاقاً أن يعرف على وجه اليقين إن كان يتعيّن عليه أن يفهم عنصراً بعينه من الحلم على معناه السلبي أو على معناه الإيجابي، وأن يأخذه على ما هو عليه أو على ضده: وهذه فرصة جديدة أمام المؤؤل كيما يتعسف في التأويل. ثالثاً، بالنظر إلى تواتر عمليات القلب في الحلم، يجد المؤؤل نفسه في جُل من أن يعتبر أية شذرة من شذرات الحلم منظوية على ضرب من القلب. رابعاً وأخيراً، ستتذرعون بما سمعتموه من أننا لا نستطيع إلا فيما ندر أن نقطع جازمين بأن التأويل الذي وصلنا إليه هو التأويل الوحيد الممكن، ومن أننا نجازف بالتالي بأن نغفل عن التأويل الذي قد يكون

أقرب التأويل إلى وجه الحق. ثم تخرجون من ذلك كله بنتيجة مؤداها أن المؤؤل يمكنه، في هذه الشروط، أن يمارس عسفه على نطاق واسع للغاية، مما ينفي إمكانية الوصول إلى يقين موضوعي في النتائج. أو قد تفترضون أيضاً أن الخطأ ليس مردّه إلى الحلم ذاته، وأن نواقص تأويلنا وعيوبه ترجع بالأحرى إلى خطأ في تصوراتنا ومقدماتنا.

هذه الاعتراضات كلها لا غبار عليها، لكنني لا أظنها تسوّغ ما خرجتم به من استنتاج بأن التأويل، كما نمارسه، عسفي خالص، وبأن ما يشوب نتائجنا من عيوب يرسم علامة استفهام حول مشروعية منهجنا. فلو أنكم قلتم، بدلاً من الكلام عن عسف المؤؤل، إن التأويل يتوقف على مهارة هذا الأخير وخبرته وذكائه، لما كان لي إلا أن آخذ برأيكم هذا. فالعامل الشخصي له دوره الذي لا ينكر، وبخاصة عندما تواجهنا وقائع عسيرة التأويل. وأما أن بعضهم قد يكون أحذق من غيره في استخدام تقنية بعينها، فهذا أمر لا حيلة لنا فيه. وهو على كل حال شائع في المجال التطبيقي للتقنيات العملية الأخرى. ثم إن ما قد يبدو ضرباً من العسف في تأويل الأحلام لا يلبث أن ينقشع متى ما تأكد لنا أن الارتباط القائم بين أفكار الحلم، وكذلك الارتباط بين الحلم نفسه وحياة الحالم، وأخيراً مجمل الموقف النفسي الذي يحدث الحلم في نطاقه، يتيح لنا بصفة عامة أن نخصّ باختيارنا، بين جملة التأويل المتاحة، تأويلاً واحداً نركن إليه ونذر سائر التأويل الأخرى باعتبارها لا تتفق والحالة التي نحن بصدددها. أما استنتاجكم بأن شوائب التأويل ونواقصه ترجع إلى خطأ ما في استدالاتنا فيكفيها دحضاً له وتفنيداً أن نلاحظ أن إبهام الحلم والتباسه واحتماله كثرة من المعاني خاصة لازمة من خواصه.

لقد أسلفت القول، ولعلكم تذكرون، أن عمل الحلم يعطي الأفكار الكامنة نمطاً تعبيرياً بدائياً، شبيهاً بالكتابة التي تعتمد الصورة بدل الحروف. والحال أن جميع أساليب التعبير البدائية تتسم بمثل ذلك الإبهام والالتباس وازدواج المعاني، من دون أن يبيح ذلك لنا التشكيك في إمكانية استخدامها العملي. وأنتم تعلمون أن تلاقي الأضداد في إخراج الحلم يشابه ما يسمى بـ «طباق المعاني»

في جذور الكلمات في اللغات الأقدم عهداً. وقد حذّرنا فقيه اللغة ر. آيل^(١) (١٨٨٤) - وله ندين بوجهة نظرنا هذه - من الاعتقاد بأن الكلام الذي يوجهه شخص إلى آخر يستخدم فيه ألفاظاً مزدوجة المعاني لا بدّ أن يوقع سامعه في اللبس وسوء الفهم. فالتبرة والحركة التي تصاحب الكلام من شأنهما أن يوضحا، على نحو لا يقبل لبساً، أي المعنيين المتضادين يريد المتكلم إبلاغه للسامع. وأما في الكتابة، حيث لا مجال للإشارة بالحركة، فإن المعنى المراد إثباته تضاف إليه علامة مصورة خاصة ترسم ولا تنطق، كأن تقرن كلمة كين، ذات المعنى المزدوج في الكتابة الهيروغليفية، بصورة رجل يجلس القرفصاء بكسل وتراخ أو ينتصب في وقفة شامخة للدلالة على معنيي «الضعف» و«القوة» على التوالي. وبذلك كان يُتَحاشى سوء التفاهم، بالرغم من تعدد معاني المقاطع والعلامات.

إن أساليب التعبير القديمة، ومنها مثلاً خطوط اللغات الأقدم عهداً، تشيع فيها ضروب شتى من الغموض واللبس مما لا نطيقه في لغاتنا الراهنة. ففي بعض اللغات السامية لا ترسم، مثلاً، سوى الحروف الساكنة. أما حروف العلة والحركات المحذوفة فالقارئ هو المطالب بتعيينها بحسب خبرته ووفقاً لسياق الجملة. ولأن الكتابة الهيروغليفية تسير على هذا المنوال، أو على شبيهه على الأقل، فإننا نجعل اليوم كيف كانت تنطق اللغة المصرية القديمة. وكتابة قدامى المصريين المقدسة تتسم أيضاً بضروب أخرى من اللبس والإبهام. ومن ذلك أنها تترك لاختيار الكاتب أن يرسم الصور من اليمين إلى اليسار، أو من اليسار إلى اليمين. وحتى يتمكن القارئ من القراءة فلا بدّ له أن يسترشد باتجاه وجوه الأشكال المصوّرة والطيور، إلخ. لكن كان للكاتب أيضاً أن يرصف العلامات المصوّرة عمودياً، كما كان لاعتبارات الجمال والتناظر أن تفرض عليه ترتيباً آخر للعلامات إذا كان عليه أن يدوّن على رقع صغيرة. وعامل التشويش الأول في الخط الهيروغليفية هو عدم الفصل بين الكلمات. فالعلامات تتابع على الطرس على مسافة متعادلة، ويكاد يتعذر على المرء أن يعرف هل تتبع هذه العلامة أو

١ - انظر المحاضرة الحادية عشرة. «م».

تلك الكلمة السابقة أو هي بداية كلمة جديدة. وبالمقابل، يفصل الخط المسماري الفارسي بين الكلمات بعلامة مائلة.

إن ثمة ٤٠٠ مليون إنسان يتكلمون اليوم الصينية ويكتبونها، مع أنها من أقدم اللغات طراً. ولا تحسبوا أنني أفقه فيها شيئاً. غير أنني رجعت إلى بعض مراجعها على أمل أن أجد فيها أوجه شبه مع ليس الأحلام وعدم تعيُّنها، فما خاب ظني. فاللغة الصينية تزخر بضروب شتى من اللبس وعدم التعيين حتى ليرتج على المرء حيالها. فمعلوم أنها تتألف من عدد هائل من المقاطع التي قد تلفظ فرادى أو أزواجاً. وتشتمل إحدى لهجاتها الرئيسية على زهاء ٤٠٠ مقطع. وبما أن قاموس هذه اللهجة يضم زهاء ٤٠٠٠ كلمة، يترتب على ذلك أن لكل مقطع عشرة معانٍ في المتوسط: فلبعضها أقل من هذا العدد ولبعضها أكثر. وبما أن السياق لا يسمح وحده بالتكهن بأي من المعاني العشرة يرمي الناطق بالمقطع إلى إبلاغه سامعه، فقد ابتكرت طائفة من الحيل والوسائل لتدارك هذا القصور. ونخص بالذكر من هذه الوسائل الجمع بين مقطعين في كلمة واحدة، والنطق بالمقطع الواحد بأربع «نبرات» مختلفة. وثمة واقعة أبلغ دلالة بعد فيما يتصل بالمقارنة التي نعقدها: إذ ليس لهذه اللغة من قواعد بحصر المعنى^(٢). فليس فيها كلمة واحدة من الكلمات الوحيدة المقطع يمكننا أن نحدّد هل هي اسم أو نعت أو فعل، كما ليس فيها كلمة متصرفة واحدة نستدل من تصريفها على جنسها وعددها وزمنها وصيغتها. وعلى هذا، هي لغة تتألف من مواد خام، شأنها في ذلك شأن لغتنا المجردة حين يفككها عمل الحلم إلى موادها الخام باستبعاده التعبير عما بينها من علائق وصلات. وحيثما قام في اللغة الصينية لبس وإبهام، ارتتهن الفهم والتمييز بذكاء السامع الذي يسترشد بسياق الكلام. وقد دوّنت مثلاً على ذلك قولاً سائراً صينياً، ترجمته الحرفية كالآتي:

قليل ما يرى، كثير ما عجب.

وليس من العسير فهم هذه الحكمة. فقد تعني: كلما قلّ ما نراه كثر عجبنا.

٢ - كتب فرويد هذا الكلام في منتصف العقد الثاني من القرن العشرين، وبالتالي ما كان له أن يأخذ بعين الاعتبار الإصلاح الجذري الذي أُدخل على الكتابة الصينية عام ١٩٥٨. «م».



أو قد تعني: ما أكثر ما نُعجب إن قلّ ما نراه. ولا مجال بطبيعة الحال للمفاضلة بين هاتين الترجمتين اللتين لا تختلفان إلا من حيث الصرف والنحو. غير أن أهل الاختصاص يؤكّدون لنا مع ذلك أن اللغة الصينية، رغم هذا اللبس والإبهام، أداة ممتازة لتبادل الأفكار. إذاً فعدم التعيّن لا يستتبعه بالضرورة التباس المعاني.

على أنه يتعيّن علينا أن نقرّ بأن الموقف فيما يتصل بأسلوب التعبير في الحلم أقلّ ملائمة بكثير مما في حالة اللغات والكتابات القديمة. فالغرض من هذه الأخيرة أصلاً أن تقوم بدور وسيلة اتصال، أي أن تكون مفهومة بطريقة أو بآخرى. والحال أن هذه الخاصية هي بالتحديد ما يفتقر إليه الحلم. فالحلم لا يرمي إلى إبلاغ شيء إلى أحد، وهو ليس بأداة اتصال، بل إنه ما وجد أصلاً إلا ليكون غير مفهوم. لذا ليس لنا أن ندهش أو أن نضلّ عن سواء السبيل إذا ما وجدنا عدداً كبيراً من ضروب الالتباس واللاتعين وتعدد المعاني يستعصي على فهمنا وتمييزنا. والنتيجة الأكيدة الوحيدة التي نخرج بها من المقارنة التي عقدناها هي أن عدم التعيين، الذي أراد بعضهم الاحتجاج به لإنكار صحة تأويلنا للأحلام ومصادقيته، صفة ملازمة لجميع أساليب التعبير البدائية.

إن درجة مفهومية الحلم الفعلية لا يمكن تحديدها إلا بالممارسة والخبرة. وفي رأبي أنه من الممكن المضّي إلى مدى بعيد في هذا التحديد، والنتائج التي يظفر بها المحللون من ذوي الخبرة لا يمكن إلا أن تعزز رأبي هذا. أما الجمهور من غير أهل الاختصاص فيطبّ له، حتى ولو كان ذا نزعات علمية، أن يقابل بريية ساخرة وبازدراء الصعاب ومواطن الشك التي لا مناص من أن تواكب كل مساهمة علمية. وهذا عن ظلم وبهتان في رأبي. فلربما جهل الكثيرون منكم أن وضعاً مماثلاً نشأ عند فك لغز النقوش البابلية. بل مرّ حين من الدهر لم يتوانَ فيه الرأي العام عن اتهام العلماء الذين انكبوا على حلّ رموز النقوش المسمارية بأنهم من أهل الهزل والتهريج، وعن دمع هذا الفرع من فروع العلم بـ «الشعوذة». لكن الجمعية الآسيوية الملكية Royal Asiatic Society أجرت سنة ١٨٥٧ اختباراً فاصلاً. فقد دعت أربعة من أبرز المختصين، وهم راولنسن Rawlinson وهنكس Hincks

وفوكس تالبوت Fox Talbot وأوبرت Oppert^(٣)، أن يرسلوا إليها في مغلفات مختومة أربع ترجمات مستقلة لنقش مسماري اكتشف حديثاً. وبعد المقارنة بين الترجمات الأربع أمكن لها أن تعلن أن بينها من الاتفاق ما يبرر الثقة بالنتائج المتحصلة من قبل، والاطمئنان إلى مزيد من التقدم مستقبلاً. عندئذ خفت شيئاً فشيئاً سخرية المتعلمين من غير أهل الاختصاص، وتتابع فك رموز الوثائق المسمارية بيقين متعاظم.

٢ - ثمة سلسلة أخرى من الاعتراضات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالانطباع الذي لا بد أن يكون ساوركم أنتم أنفسكم، إذ بدا لكم الكثير من الحلول التي قادتنا تأويلنا للأحلام إلى القبول بها مصطنعاً، متكلفاً، مقسوراً، وبالتالي في غير محله، بل ربما مضحكاً أيضاً. وهذا النوع من الاعتراضات شائع بكثرة حتى إنني سأقف محتاراً بين أيها أختار لأسوقها لكم مثلاً، ولذا أكتفي بآخر ما تناهى إلى سمعي منها. فاستمعوا إذاً: فقد أقبل مؤخراً مدرّس في دار للمعلمين في سويسرا - ذلك القطر الحر - من وظيفته لأنه اهتم بالتحليل النفسي. وقد احتج بطبيعة الحال على هذا الإجراء، ونشرت صحيفة تصدر في بيرن نص الحكم الذي أصدرته بحقه السلطات المدرسية. ولن أقطف لكم من هذا الحكم سوى بضع فقرات تتصل بالتحليل النفسي. فمما جاء فيه: «ناهيك عن ذلك، فإن الكثير من الأمثلة التي تضمنها كتاب الدكتور بفستر^(٤) Pfister المستشهد به تثير الدهشة بطابعها المتكلف والمصطنع.. وإنه لمن العجب حقاً أن يقبل مدرّس في دار للمعلمين بلا نقد جميع تلك المزاعم وجميع أشباه الأدلة تلك». ويراد لنا بعد ذلك أن نقبل

٣ - هم على التوالي هنري راولنسن: العسكري والدبلوماسي والخبير البريطاني باللغة الآشورية (١٨١٠ - ١٨٩٥)؛ وإدوارد هنكس: قس إرلندي وعالم بالقبليات والآشوريات (١٧٩٢ - ١٨٦٦)؛ ووليم فوكس تالبوت: عالم بريطاني مختص بالأثار والتصوير (١٨٠٠ - ١٨٧٧)؛ وجول أوبرت: عالم فرنسي ألماني الأصل مختص بالآشوريات (١٨٢٥ - ١٩٠٥). «م».

٤ - أوسكار بفستر: قس ولاهوتي وفيلسوف سويسري (١٨٧٣ - ١٩٥٦). كان أول من طبق التحليل النفسي على علم التربة، وكان بينه وبين فرويد تعاطف وتراسل، وكان فرويد يلقيه بـ «خادم الله الحقيقي» و«رجل الله الطيب». وعندما نشر كتابه مستقبل وهم الذي حلل فيه الدين بوصفه عصباً جماعياً، ردّ عليه بفستر بكتاب مضاد بعنوان وهم مستقبل. «م».

بهذه العبارات على أنها قرار «قاضي غير متحيّز». والأصحّ عندي أن هذا «اللاتحيّز» هو «المصطنع». ولننعم النظر عن كتب في هذه الأحكام، توسماً منا بأن قدرأ من التفكير والتضلع لا يمكن أن ينجم عنه ضرر، حتى لعقل غير متحيّز.

إنه لما يبعث على الابتسام حقاً أن نرى بأية سرعة وثقة بالنفس يصدر الناس أحكامهم على مسألة شائكة من مسائل علم نفس اللاشعور، وكل عدّتهم محض انطباعات أولى. فالتأويل تبدو لهم متكلفة مبتسرة، فلا تقع منهم موقعاً حسناً، فهي بالتالي خاطئة، وكل الجهد الذي بذل فيها لا يساوي شيئاً. ولا يخطر لهم في بال، ولو لهنيهة، أنه من المحتمل أن تكون هناك أسباب وجيهة تحتمّ ظهور التأويل بذلك المظهر، وأن التماس هذه الأسباب والبحث عنها عناء له ما يبرره.

إن موضوع الحكم هنا هو في المقام الأول نتائج عملية الإزاحة والنقل التي هي، كما تعلمون، أقوى وسيلة في تناول رقابة الأحلام. فبمعمونة هذه الوسيلة تخلق الرقابة تشكيلات بديلة حددناها بأنها بمثابة تلميحات. غير أنها تلميحات يعسر تعرّفها بما هي كذلك؛ تلميحات يصعب الاهتداء إلى ركيزتها الأصلية، إذ لا تربطها بهذه الركيزة سوى تداعيات خارجية على درجة كبيرة من الغرابة وغير مألوّفة بالمرّة في كثير من الأحيان. غير أنها في كل الأحوال أشياء ما وجدت إلا لتبقى مستترة خافية، وهذا هو الهدف الذي تبغي الرقابة الوصول إليه. والحال أنه عندما يخفى شيء من الأشياء، فليس لنا أن نتوقع العثور عليه في الموضع الذي يفترض أن يوجد فيه عادة. والحق أن الهيئات المكلفة بمراقبة الحدود في أيامنا هذه^(٥) تبدو أكثر دهاء ومكرأ من هذا المنظور من السلطات المدرسية السويسرية. فهي لا تكتفي بتفتيش المحافظ والجيوب بحثاً عن وثائق وتصاوير، بل تفترض أن الجواسيس والمهرين قد يخفون هذه الأشياء المحظورة، أملاً منهم بالاحتيال على الرقابة، في مواضع لا يمكن أن تخطر في بال، كأن يضعوها مثلاً بين طبقتين من نعال أحذيتهم. فإن كُشفت الأشياء المخبوءة حقاً

٥ - يقصد: في أيام الحرب. «م».

القول بأن خافيتها قد تجشم عناء كثيراً في إخفائها، وأن جهود المفتشين مع ذلك لم تذهب أدراج الرياح.

لئن سلمنا بأنه يمكن أن تقوم بين عنصر كامن من عناصر الحلم وبين بديله الظاهر روابط غير متوقعة، وعلى درجة كبيرة من الغرابة، هزلية في الظاهر تارة، وليبية أربية طوراً، فامتثالاً منا للخبرات الكثيرة التي تمدنا بها أمثلة لم نكن نحن بوجه عام من وجد لها حلاً. والحق أنه يندر أن نصل بجهدنا الخاص إلى تأويل من هذا النوع؛ فليس يسع أي إنسان عاقل أن يكشف عن الصلة التي تربط عنصراً بعينه من العناصر الكامنة ببديله الظاهر. وإنما الحالم هو الذي يزودنا تارة بترجمة فورية لحلمه، بفضل ما قد يطرأ على ذهنه مباشرة من تداعيات وخواطر بصدد هذا الحلم (وهذا شيء هو مستطيعه لأن التشكيل البديل قد تكون داخل نفسه)، أو يقدم لنا تارة أخرى مواد كافية تغنيها عن مزيد من التعمق بحثاً عن الحل الذي يفرض نفسه في هذه الحال من تلقاء نفسه وكأنه ضرب من الضرورة. فإن لم يساعدنا الحالم بإحدى هاتين الوسيلتين، استغلق علينا أبداً فهم العنصر الظاهر. اسمحو لي بأن أضرب لكم بهذا الصدد مثلاً آخر تسنى لي مؤخراً أن أحظه بنفسي. فقد فقدت واحدة من مرضاي أباه، وهي قيد العلاج. ومنذئذ صارت تتذرع بكل ذريعة لترد أباه إلى الحياة في المنام. وفي واحد من أحلامها ظهر لها والدها وقال لها: «الساعة الحادية عشرة والرابع، الحادية عشرة والنصف، الثانية عشرة إلا الربع». أما تفاصيل الحلم الأخرى فلم يكن فيها من غناء. وقد استطاعت أن تؤوّل هذا الجانب الباعث على الاستغراب من الحلم بأن تذكّرت أن أباه كان يحب أن يرى أولاده وقد جلسوا إلى مائدة الطعام في الميقات المحدد ظهراً. وكان من المحقق أن ثمة صلة بين هذه الذكرى وبين عنصر الحلم المشار إليه، ولكن ما كانت هذه الذكرى بكافية للوصول إلى نتيجة قاطعة بصدد أصل هذا الحلم. غير أن سير العلاج كان يبيح لي أن أشبه في أن الحاملة كانت تضمّر في نفسها تجاه أبيها، الذي تحبه وتجل قدره، موقفاً نقدياً بعض الشيء، ومكبوتاً في آن واحد، وأن هذا الموقف ليس منقطع الصلة باستحداث الحلم. ولما مضت الحاملة في استحضار

ذكرياتها، والشقة لا تني تتباعد في الظاهر بينها وبين الحلم، روت أنها استمعت البارحة إلى مناقشة حول علم النفس، وأن أحد أقاربها قال أثناء هذه المناقشة: «إن الإنسان البدائي Der Urmensch باقي حياً في أعماق كل واحد منا». وهكذا تهياً لنا أننا بتنا نفهمها. فقد وجدت في هذا القول فرصة ممتازة لإحياء أبيها من جديد، إذ حوّلت في منامها إلى معلى الساعة Uhrmensch وجعلته يعلن عن أربع الساعات في وقت الظهيرة^(٦).

بديهي أن في ذلك ما يذكرنا بالجناس، وكثيراً ما اتهم المؤول بالتلاعب بالألفاظ مع أن المسؤول عن هذا التلاعب في الواقع هو الحالم نفسه. وثمة أمثلة أخرى يصعب فيها أن نقطع هل الأمر أمر جناس ولعب بالألفاظ أم حلم من الأحلام. وقد خامرنا مثل هذا الشك إزاء بعض فلتات اللسان. فقد روى رجل أنه رأى في منامه عمّه يقبله وهما جالسان في أوتو (موبيل) هذا الأخير. ثم لم يلبث أن أوّل بنفسه هذا الحلم. فهو يعني إيروسية ذاتية Autoerotisme^(٧) (اصطلاح مأخوذ من نظرية الليبدو يشير إلى الإشباع الإيروسي بدون مشاركة شخص آخر). ترى أكان الرجل يمزح، فسوّر لنا تلاعبه بالألفاظ على أنه حلم رآه في منامه؟ لست أدري. وعندى أنه رأى ذلك في منامه حقاً. لكن ما مصدر هذا التشابه العجيب؟ لقد ألجأني هذا السؤال في غير هذا الموضع إلى استطراد طويل، وأرغمني على أن أخص النكتة بحد ذاتها بدراسة مستفيضة^(٨). وقد انتهيت إلى نتيجة مؤداها أن النكتة تنشأ عن إخضاع سلسلة من الأفكار القبشعورية^(٩) بصورة مؤقتة لعملية صياغة لاشعورية. فهذه الأفكار القبشعورية تخضع، وهي

٦ - معلى الساعة: موظف كانت تعتمد البلدية في المدن الصغيرة للإعلان عن الوقت للناس. وواضح ما بين الإنسان البدائي Urmensch ومعلى الساعة Uhrmensch من جناس شبه تام. «م».

٧ - ثمة علاقة لفظية واضحة بين السيارة (أوتوموبيل) وبين الإيروسية الذاتية (أوتو إيروتيسم)، وهي اشتراكهما بلفظ (أوتو). «م».

٨ - يشير فرويد هنا إلى دراسته عن النكتة وصلاتها باللاشعور التي أصدرها سنة ١٩٠٥. «م».

٩ - نسبة إلى ما قبل اللاشعور: وهو عند فرويد جهاز نفسي يقع بين الشعور واللاشعور، ومواده تكون لواعية، أي غير ماثلة في حقل الوعي الراجح، لكنها قابلة للاستحضار إليه إرادياً، وهذا ما يميّزها عن المادة اللاشعورية بحصر المعنى. «م».

في قبضة اللاشعور، لتأثير الآليات المتحكممة به، وأعني التكثيف والإزاحة والنقل، أي لنفس السيرورات التي رأيناها فاعلة في عمل الحلم: وهذه الواقعة هي وحدها التي تفسر التشابه (إذا ما وجد) بين النكتة والحلم. لكن «الحلم النكتي»، وهو ظاهرة لاقصدية، لا يبهجنا كما تبهجنا النكتة الموفقة. لماذا؟ هذا ما سيتأتى لكم أن تعرفوه لو سنحت لكم الفرصة لدراسة النكتة دراسة معمقة. والحق أن «الحلم النكتي» لا نكتة فيه، فبدلاً من أن يضحكننا يتركنا على فتورنا.

عند هذه النقطة تضيق الشقة بيننا وبين تفسير المنامات على الطريقة القديمة؛ فبصرف النظر عما كانت تزخر به هذه الطريقة من مواد لا فائدة تجتنى منها، تركت لنا أمثلة تأويلية ممتازة لسنا نملك نحن أنفسنا تجاوزاً لها. ولن أسرد عليكم سوى حلم واحد من هذا النوع، لما له من دلالة تاريخية. وقد روى لنا هذا الحلم - الذي حلم به الإسكندر الأكبر - كل من فلوطرخوس وأرتميدورس الأفسسي بشيء من الاختلاف في الرواية^(١٠). ففيما كان الملك يحاصر مدينة صور التي واجهته بمقاومة ضارية (سنة ٣٢٢ ق.م)، رأى في منامه ساتيروساً يرقص. وقام المنجم أرسطاندرس^(١١)، الذي كان يرافق الجيش، بتأويل هذا الحلم بأن فكّ كلمة «ساتيروس» إلى كلمتين هما: صور لك^(١٢)، ومن ثم أباح لنفسه أن يعد الملك بالاستيلاء على المدينة. ونتيجة هذا التفسير، عزم الإسكندر على مواصلة الحصار وتمكن في خاتمة المطاف من فتح صور. ولئن بدا هذا التفسير متكلفاً مصطنعاً، فقد كان هو التأويل الصحيح بلا جدال.

٣ - لا ريب في أنكم ستذهلون لو علمتم أن في جملة الذين اعترضوا على تصورنا للحلم أشخاصاً اشتغلوا طويلاً في تأويل الأحلام بصفتهم محللين نفسيين. والحق أننا ما كنا إلا لنعجب أشدّ العجب لو أن منهجاً كهذا من شأنه

١٠ - انظر المحاضرة الخامسة. «م».

١١ - أرسطاندرس التلمسي: ينسب إليه كتاب عن تفسير الأحلام. وقد رافق الإسكندر الأكبر في حملته الآسيوية. «م».

١٢ - إن كلمة ساتيروس، التي تعني في الأصل كائناً خرافياً نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل ماعز، يمكن فكّها بالفعل إلى كلمتين: «سا» وتعني لك، و«تيروس» وهي صور باليونانية. «م».

أن يغري بارتكاب أخطاء جديدة بقي بلا استعمال؛ وهكذا تولدت عن التخليطات المفهومية والتعميمات غير المبررة أطروحات قريبة، في ابتعادها عن الصحة، من التصور الطبي للأحلام. ولقد سبق لكم الاطلاع على واحدة من هذه الأطروحات، تزعم أن قوام الحلم محاولات للتكيف مع الحاضر وحل مشكلات مقبلة، وأنه ينطوي بالتالي على «ميل إلى استشفاف المستقبل» (أ). مايدر^(١٣). وكنا أوضحنا أن هذه الدعوى تقوم على الخلط بين الحلم وأفكار الحلم الكامنة، وأنها لا تقيم وزناً بالتالي لعمل الحلم. أما من حيث ادعاؤها بأنها تصف الحياة النفسية اللاشعورية التي تنتمي إليها أفكار الحلم الكامنة، فإن هذا الوصف ليس بالجديد ولا بالكامل، لأن النشاط النفسي اللاشعوري يهتم، إلى جانب الإعداد للمستقبل، بأشياء أخرى كثيرة. وثمة دعوى أخرى تركز إلى خلط أسوأ بعد، مؤداها أن «بند الموت» كامن وراء كل حلم^(١٤). ولست أدري على وجه الدقة ما تعنيه هذه الصيغة، لكنني أختن أنها تنجم عن الخلط بين الحلم وبين شخصية الحالم بأسرها.

وكعينة على التعميم اللامسوغ بالاعتماد على بعض الأمثلة الجيدة، سأخص بالذكر الأطروحة القائلة أن كل حلم قابل لتأويلين: التأويل المسمى بالتحليلي النفسي، كما تقدم بياننا له، والتأويل المسمى بالباطني الذي يضرب صفحاً عن الرغبات ويرمي إلى تمثيل الوظائف النفسية العليا (ف. سلبير)^(١٥). والحق أن هذا النوع من الأحلام موجود، لكن عبثاً قد تحاولون تعميم هذا التصور ليشمل ولو غالبية الأحلام. وبعد كل الذي سمعتموه، لن تستقيم عندكم دعوى من يقول إن الأحلام جميعها ثنائية الجنسية ويجب تأويلها من منظور التلاقي بين ميول

١٣ - الإشارة هنا إلى مقالة مايدر: عن وظيفة الحلم (١٩١٢). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٤ - تلك هي فرضية فلهم شتيكل في كتابه لغة الحلم (١٩١١). هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٥ - هربرت سلبير: محلل نفسي عصامي نمساوي (١٨٨٢ - ١٩٢٣). انضم إلى جمعية فيينا للتحليل النفسي واشتهر بدراساته حول الرمزية. ولكنه اختلف مع فرويد وتحول رويداً رويداً نحو التصوف والروحانيات ومات منتحراً. من أشهر كتبه: مشكلات التصوف ورموزه، وإليه يلمع فرويد في المتن أعلاه. «م»

مذكرة وأخرى مؤنثة (أ. أدلر)^(١٦). وهناك بطبيعة الحال بضعة أحلام منفردة من هذا النوع، وربما أتيح لنا فيما بعد أن نرى أنها تشابه في بنيتها بعض الأعراض الهستيرية. وأنا أذكر لكم كل هذه الاكتشافات لخصائص عامة جديدة للأحلام كيما أحذركم منها، أو على الأقل كيلا أترك في نفوسكم أي أثر للشك بصدد رأيي فيها.

٤ - شاء بعضهم أن يغضّ من القيمة الموضوعية لمبحث الأحلام متذرعاً بأن الأشخاص الذين يخضعون للمعالجة التحليلية النفسية يلفقون أحلامهم طبقاً للنظريات الأثرية لدى أطبائهم، فيزعم بعضهم أنه يرى أحلاماً جنسية في المقام الأول، ويدعي بعضهم الآخر أنه يرى أحلام قوة وسيطرة، بينما يعلن بعضهم الثالث أنه يرى أحلاماً حول التناسخ والولادة الثانية (ف. شتيكل)^(١٧). لكن هذه الملاحظة تفقد بدورها قيمتها وتتهافت متى ما استذكرنا أن الناس كانوا يحلمون قبل ابتكار العلاج التحليلي النفسي الذي من شأنه أن يؤثر في أحلامهم وأن يوجهها، وأن الأشخاص الذين يخضعون في الوقت الحاضر للعلاج اعتادوا أن يحلموا قبل أن يخضعوا للعلاج. والوقائع التي يستند إليها هذا الاعتراض مفهومة تماماً وليس من شأنها بحال من الأحوال الانتقاص من قدر نظرية الحلم. فالبقايا النهارية التي تستثير الحلم تتأتى من اهتماماتنا الطاغية

١٦ - ألفرد أدلر: طبيب ومعالج نفسي نمساوي (١٨٧٠ - ١٩٣٧). يهودي الأصل ولكنه اعتنق البروتستانتية عام ١٩٠٤ وبقي عليها إلى مماته. ابتداء من عام ١٩٠٢ شارك في حلقات النقاش التي كان فرويد يعقدها كل مساء أربعاء. بدأ منذ عام ١٩٠٧ يصوغ تصورات الخاصة حول علم النفس الفردي لينتهي إلى القطيعة مع الفرويدية وجمعية فيينا للتحليل النفسي عام ١٩١١. عرض تصوراته النظرية في كتابه: *حول الطبع العصبي* (١٩٠٠). وفي عام ١٩١٤ أصدر المجلة الدولية لعلم النفس الفردي. وقد لاقى مذهبه التفاؤلي المنزع شعبية واسعة في الولايات المتحدة الأمريكية حيث استقرّ به المطاف ابتداء من عام ١٩٣٤. أقام مذهبه النفسي الفردي على أساس عقدة النقص التي من شأنها أن تُطوّر إلى عقدة تفوّق ضارباً على ذلك مثال نابليون. من أشهر مؤلفاته: *معرفة الإنسان*، و *فهم الطبيعة الإنسانية*، و *معنى الحياة*. «م».

١٧ - فلهم شتيكل: طبيب ومحلل نفسي نمساوي (١٨٦٨ - ١٩٤٠). تولى فرويد نفسه تحليله، فصار من أوفى أتباعه. ولكنه شرع بالافتراق عنه ابتداء من عام ١٩١٢. وقد انتقده فرويد بدوره في كتابه: *الأناتما والهذا*. ومن أقواله التي اشتهر بها: «في كل طفل يتناوم فنان مبدع». من أشهر مؤلفاته: *الأونانية والجنسية المثلية*، و *لغة الحلم*، و *المرأة الباردة*، و *رسائل إلى أمي*. «م».

في حياة اليقظة. فإن ارتدت أقوال الطبيب واقتراحاته وإيحاءاته بعض الأهمية في نظر الشخص المحلل، احتلت مكانها في جملة البقايا النهارية وصارت قادرة، مثلها مثل سائر الاهتمامات والانفعالات الوجدانية التي تستثار في النهار السابق للحلم ومن دون أن يتأتى لها بعد أن تُلبى وتُشبع، على إمداد الحلم بتنبهات نفسية وعلى التأثير فيه بمثل ما تؤثر التنبهات البدنية على النائم أثناء النوم. ومن الممكن للأفكار التي يبتعثها الطبيب، شأنها شأن سائر العوامل التي تستثير الأحلام، أن تتجلى في الحلم الظاهر أو أن يجري اكتشافها في أفكار الحلم الكامنة. ونحن نعرف أنه يمكن استحداث الأحلام تجريبياً، أو بالأصح إقحام جزء من مواد الحلم على الحلم بهذه الطريقة. والمحلل، في ما يمارسه على هذا النحو من تأثير على المرضى، يلعب دوراً مماثلاً لدور المحرّب الذي يجعل أعضاء الأشخاص الذين يُجري عليهم تجاربه تتخذ أوضاعاً محددة، نظير ما كان يفعل مورلي - فولد على ما تذكرون^(١٨).

من الممكن أن نوحى للحالم بموضوع حلمه، لكن من المستحيل التأثير على ما سيحلم به. فآلية إخراج الحلم والرغبة اللاشعورية المتحكممة بالحلم لا تقعان تحت تأثير أي عامل خارجي. وقد اتضح لنا من فحص المنبهات البدنية للأحلام أن خصوصية حياة الحلم واستقلالها الذاتي يتجليان في استجابة الحالم للتنبهات البدنية والنفسية التي تصله. وهكذا نجد أن الاعتراض الذي ناقشناه هنا والذي يرمي إلى التشكيك في موضوعية البحث في الأحلام يقوم بدوره على ضرب من الخلط: الخلط بين الحلم ومواد الحلم.

هذا كل ما أردت أن أقوله لكم بصدد المشكلات المتصلة بموضوع الحلم. ولا ريب في أنكم حرزتم أنني أغفلت أشياء كثيرة ولاحظتم أنني اضطررت إلى معالجة الكثير من النقاط معالجة بتراء غير كاملة. لكن هذه العيوب التي تشوب عرضي ترجع إلى ما بين ظاهرات الحلم والأمراض العصبية من وشائج وصلات. فقد درسنا الحلم كمدخل إلى دراسة الأعصاب، وكان ذلك أصح وأسلم بكثير مما

١٨ - راجع المحاضرة الخامسة. ص ٥٢.

لو فعلنا العكس. لكن كما أن الحلم يمهّد الطريق لفهم الأعصاب، كذلك فإنه يغدو بدوره قابلاً لأن يفهم في جميع تفاصيله متى ما أُلْمنا إلماماً كافياً بالظواهر العصابية.

إنني أجهل ما سيكون حكمكم، لكن بوسعي أن أجزم لكم أنني غير نادم البتة على إثارتي اهتمامكم بمشكلات الحلم وعلى ما كرّسته لدراسة هذه المشكلات من شطر كبير من الوقت المتاح لنا. فليس ثمة مسألة أخرى يمكن أن تقنعكم دراساتها بصحة أطروحات التحليل النفسي بمثل السرعة التي تقنعكم بها دراسة الحلم. فقد نحتاج إلى شهور عديدة، بل إلى سنوات مديدة من العمل الدؤوب، إذا اردنا أن نبين أن الأعراض في حالة من حالات المرض العصابي ذات معنى ودلالة، وتخدم غرضاً وقصدًا، ويمكن أن تفسّر بتاريخ الشخص المريض. وبالمقابل لا يلزمنا إلا بضع ساعات من الجهد حتى نظفر بالنتيجة نفسها من تحليل حلم يبدو في بادئ الأمر مبهمًا ملتبسًا غير مفهوم، وحتى نخرج أيضاً بتوكيد لجميع مقدمات التحليل النفسي ومفترضاته فيما يتصل بوجود السيرورات النفسية اللاشعورية، والآليات التي تتحكم بها، والدوافع الغريزية التي تتظاهر في ثنايا هذه السيرورات. وإذا ما أضفنا إلى التشابه الكبير القائم بين تكوين الحلم وتكوين العرض العصابي السرعة التي يتحول بها الحالم إلى شخص يقظ عاقل، تعزز لدينا اليقين بأن العصاب يرجع هو الآخر إلى خلل في العلاقات التي تقوم في الحالات السوية بين مختلف قوى الحياة النفسية.

القسم الثالث
النظرية العامة
للأمراض العصبية

المحاضرة السادسة عشرة

التحليل النفسي والطب النفسي

سيداتي سادتي، يطيب لي أن أستأنف وإياكم سلسلة أحاديثنا. فقد حدثتكم في العام الماضي عن تصور التحليل النفسي للهفوات والأحلام، وأودّ اليوم أن أعرفكم بالظواهر العصائية التي تشترك، كما سترون لاحقاً، بأكثر من سمة مع ظاهرتي الهفوات والأحلام. غير أنني أقول لكم للحال إنني لا أستطيع هذه المرة أن أقبل منكم موقفاً مني مماثلاً لموقفكم في العام الماضي. فقد ألزمت نفسي يومئذ ألا أخطو خطوة قبل أن أتفق وإياكم مسبقاً؛ وقد ناقشتكم كثيراً، وأخذت اعتراضاتكم بعين الاعتبار، بل أسرفت في ذلك حتى رأيت فيكم وفي «حسبك السليم» مرجع القرار الأخير. غير أن ذلك لم يعد ممكناً الآن، وذلك لسبب بسيط جداً. فالهفوات والأحلام ظاهرات مألوفة لكم، بل ربما جاز القول بأن خبرتكم بها لا تقلّ عن خبرتي. لكن مضمار الظاهرات العصائية غريب عنكم؛ فإن لم تكونوا من الأطباء، فلن يكون لكم من منفذ إلى هذا المضمار غير ذاك الذي يمكن أن تفتحه لكم معلوماتي وبياناتي، وأكثر الأحكام سداداً في الظاهر يكون في الواقع عديم القيمة إذا كان من يصدره على غير ألفة بالموضوع المطلوب الحكم عليه.

لكن لا تحسبوا، من جهة أخرى، أنني أزمع أن القي عليكم محاضرات جازمة قاطعة أو أن أطلب منكم أن تأخذوا بما أعطيتكم بلا قيد أو شرط. ولو كان هذا تصوركم فعلاً، فسينشأ عنه سوء تفاهم من شأنه أن يلحق بي أفدح الضرر والإساءة. فليس في نيتي أن أفرض الاقتناع عليكم فرضاً، بل حسبي أن أحفزكم على التفكير وأن أزعر أحكامكم المسبقة. فإن كان الجهل المادي بالموضوع لا يهيئ لكم قدرة للحكم، فليس يجوز لكم أن تؤمنوا أو أن تنكروا. بل ما عليكم

في هذه الحال إلا أن تصغوا وأن تدعوا ما يلقي على مسامعكم يفعل فيكم فعله. فليس الوصول إلى اقتناع أمراً هيناً، والاقتناع الذي نصل إليه بلا جهد ولا عناء لا يلبث في أغلب الأحوال أن يثبت تهافته وعدم صلابته. ولا يحق للمرء أن ينتهي إلى تكوين اقتناع إلا بعد أن يكون أمضى مثلي سنوات طويلة منكباً على مادة بعينها وحضر شخصياً تكرار تلك التجارب الجديدة المدهشة الأخاذة التي سأحدثكم عنها. فما الجدوى، في مضمار الفكر، من ذلك الاقتناع السريع، أو من ذلك الاهتداء الذي يتم بمثل لمع البرق، أو من ذلك الرفض الفوري القاطع؟ ألا ترون أن «الحب من أول نظرة» ينتمي إلى دائرة مغايرة تماماً، وبالتحديد إلى المضمار العاطفي؟ إننا لا نسأل حتى مرضانا أن يقتنعوا بجدوى التحليل النفسي أو أن يجهروا بتأييدهم له. ولو فعلوا، لاشتبهنا في أمرهم. وأقصى ما نتوخاه منهم أن يصدروا في حكمهم على علمنا عن موقف قائم على ربيية سمحة. فحاولوا إذًا، أنتم أيضاً، أن تدعوا التصور التحليلي النفسي يختمر فيكم على مهل، جنباً إلى جنب مع التصور الشعبي أو السيكلوجي، إلى أن تنهأ الفرصة للتصورين كليهما كيما تنعقد بينهما صلات ووشائج متبادلة، ويوضع واحدها على محك الآخر، ليتأتى عن اجتماعهما وتواجههما في خاتمة المطاف تصور فاصل حاسم.

ولن نكونوا إلا مخطئين، من ناحية أخرى، إن اعتقدتم، ولو للحظة واحدة، أن التصور التحليلي النفسي الذي سأعرضه لكم هو مذهب نظري تأملي. فهو بالأحرى ثمرة خبرة وتجربة، تعبير مباشر عن الملاحظة والمشاهدة، أو بالأحرى نتيجة لصياغة الملاحظة والمشاهدة. وتقدم العلم هو وحده الكفيل بتمكيننا من أن نحكم هل كانت هذه الصياغة كافية ومبررة. ومن غير أن أحاول التباهي والتفاخر يسعني أن أقول كم، بما ورائي من حياة مديدة ومن مهنة أمضيت فيها زهاء عقدين ونصف العقد من السنين، إن استخلاص النتائج من التجارب التي بنيت عليها تصوري استأداني مجهوداً شاقاً مكثفاً. وقد تراءى لي في كثير من الأحيان أن أخصامنا لا يريدون أن يقيموا وزناً البتة لمصدر توكيداتنا، فكأنها عندهم أفكار ذاتية خالصة يمكن للمرء، متى ما شاء، أن يعارضها بغيرها. وأنا لم أتمكن من فهم موقف أخصامنا هذا حقّ الفهم. وربما كان مردّه إلى أن الأطباء

ينفرون من الدخول في صلات أوثق مما ينبغي مع مرضاهم المعانين من أمراض عصبية، ولا يعيرون ما يخبرهم به هؤلاء اهتماماً كافياً، فيعجزون بالتالي عن استخلاص أية معلومات ثمينة من الأقوال التي يدلون بها، ولا يتأني لهم أن يجروا على مرضاهم تشخيصات قميئة بأن تقدّم لهم منطلقات لاستنتاجات ذات فائدة عامة. وأعدكم بهذه المناسبة أن أتحاشى قدر الإمكان، في المحاضرات التي ستلي، المناقشات الجدالية، وبخاصة منها ما قد يدور مع باحث أو مؤلف بعينه. فأننا لا أؤمن بصحة الحكمة القائلة إن الصراع هو أبو الأشياء طراً^(١). فهذه الحكمة تبدو لي من نتاج السفسطة الإغريقية، وخطؤها أنها تعزّو، نظير هذه السفسطة، قيمة مسرفة إلى الجدل. ويخيّل إليّ على العكس أن ما يسمى بالجدال العلمي عمل عقيم كل العقم، وبخاصة أنه ينزع على الدوام إلى تلبّس طابع شخصي. ولقد كان يسعني أن أباهي، حتى لسنوات خلت، بأنني لم أخض في جدال علمي إلا مع باحث واحد (لوفنفيلد Lowenfeld^(٢) من ميونيخ). وقد كانت النتيجة أننا تحولنا من خصمين إلى صديقين، وصادقنا لا تزال قائمة إلى اليوم. وبما أنني كنت لا أثق بالوصول إلى نتيجة مماثلة على الدوام، فقد أمسكت لفترة طويلة من الزمن عن معاودة التجربة.

قد يترأى لكم أن مثل هذا النفور من كل نقاش عن طريق الكتابة ينمّ إما عن عجز وتخاذل إزاء الاعتراضات، وإما عن عناد مسرف، أو عن «ترمّت» بحسب التعبير اللطيف للغة العلمية الدارجة. وسيكون ردي عليكم في هذه الحال أنه إذا توصل المرء إلى تكوين يقين ما بعد جهود شاقة مضنية، فمن حقه أيضاً إلى حدّ ما أن يحرص على التمسك به والذود عنه بكل ما أوتيّه من سبل. على أنني أحرص أن أضيف أنني كنت، أثناء عملي هذا، أجري تعديلاً أو تحويراً أو تبديلاً على بعض آرائي، وأنني ما توانيت قط عن التصريح بهذه التعديلات علانية. وماذا كانت نتيجة صراحتي؟ لقد فات بعضهم الاطلاع على التصحيحات التي أخذت

١ - قائل هذا القول هو هراقليطس. «م».

٢ - ليوبولد لوفنفيلد: طبيب نفسي نمساوي (١٨٥٧ - ١٩٢٣). دخل مع فرويد في مناقشات حول الأصول الوراثةية للنورستانيا والهستيريا. من مؤلفاته: آرائي حول دور الجنس في نشوء الأعصاب. «م».

بها، فما وني ينتقديني إلى اليوم على قضايا لم يعد لها عندي ما كان لها بالأمس من معنى. بينما يلومني آخرون على هذه التعديلات بالذات ويعلنون أنني لست ممن يُركن إليهم أو ممن يمكن أن تحمل آراؤهم على محمل الجد. فلكن من يعدل أفكاره بين الحين والآخر لا يستأهل ثقة الناس، إذ يوحي إليهم بأن أطروحته الأخيرة قد لا تقل خطأ عن سابقتها. لكن من يتمسك بأفكاره الأولى ولا يقبل بسهولة أن يحيد عنها يُعدّ، من جهة أخرى، عنيداً مترمناً. وإزاء هذين الحكمين المتضادين اللذين يصدران عن المنتقدين لا يبقى أمام المرء سوى اختيار واحد، وهو أن يبقى على ما هو عليه وألا يصدع إلا لحكمه الشخصي. وهذا ما قرّ عليه بالفعل قراري، ولن أمتع نفسي من إدخال تعديلات وتصحيحات على نظرياتي طرداً مع تقدم خبرتي وتجربتي. أما فيما يتصل باكتشافاتي الأساسية، فلم أر إلى اليوم داعياً لإحداث أي تغيير فيها، وأمل أن يكون كذلك الأمر في المستقبل.

عليّ إذاً أن أعرض لكم التصور التحليلي النفسي للظواهر العصائية. ويسير عليّ أن أربط هذا العرض بعرض الظواهر التي حدّثكم عنها من قبل^(٣)، لما بين هذه وتلك من أوجه تشابه وتباين على حد سواء. وسأسوق لكم كمثال واحداً من الأفعال العَرَضِيَّة^(٤)، مما اعتاد الكثيرون من الناس إثباته أثناء استشارتهم لي. إن المحلل النفسي لا يستطيع أن يفعل شيئاً للناس الذين يأتون إليه في عيادته الطبية ليعرضوا في ربع ساعة كل صنوف البؤس والشقاء التي لاقوها طول حياتهم المديدة. كما أن معرفته العميقة لا تسمح له بأن يتخلص من المريض بأن يهوّن عليه ما به ويصف له، كما قد يفعل ذلك طبيب آخر، فترة وجيزة من المعالجة بالمياه المعدنية. وقد سئل أحد زملائنا عما يفعله مع المرضى الذين يقدمون لاستشارته، فأجاب وهو يهز كتفيه: أوقع عليه غرامة بكذا أو بكذا كوروناً^(٥). لا تعجبوا إذاً إن قلت لكم إن عدد من يطلبون استشارة المحلل النفسي، حتى ولو كانت عيادته مطروقة أكثر من غيرها، ليس بالكبير بوجه عام. ولقد جعلت بين

٣ - أي الهفوات والحلم التي عرض لها في المحاضرات الخمس عشرة التي تقدمت. «م».

٤ - نسبة إلى العرض بالمعنى النفسي للكلمة SYMPTOME. «م».

٥ - الكورون: الوحدة النقدية الرئيسية للعملة في عدد من بلدان أوروبا، بما فيها النمسا سابقاً. «م».



غرفة الانتظار وبين غرفة الاستشارة باباً مزدوجاً ومبطناً باللباد. وهذا احتياط لا يعسر فهم معناه. والحال أنه كثيراً ما ينسى الأشخاص عند انتقالهم من غرفة الانتظار إلى غرفة الاستشارة أن يغلقوا البابين وراءهم. فما إن أتبته إلى ذلك حتى أبادر، أيأ تكن الصفة الاجتماعية للشخص الداخل عليّ، إلى لفت انتباهه إلى ذلك، في نبرة لا تخلو من حق، وإلى الطلب إليه أن يتدارك ما سها عنه. قد تقولون إن في ذلك إسرافاً في التحذلق وشططاً في التكلف. وقد لمت نفسي بنفسي أحياناً على هذا الطلب، إذ إن زواري هم في بعض الأحوال أشخاص يعجزون حتى عن الإمساك بأكرة الباب ويطيب لهم أن يقوم عنهم بهذا المجهود سواهم. لكنني كنت على حق في أغلب الحالات، لأن من يسلك هذا المسلك ويذر الأبواب الفاصلة بين غرفة الانتظار وغرفة الاستشارة في عيادة الطبيب مفتوحة لهو بكل تأكيد إنسان غير مهذب ولا يستأهل أن يلاقى لقاءً ودياً. لكن لا تتسرعوا بالحكم قبل أن تعرفوا تنمة القصة. فهذا الإهمال لا يصدر عن المريض إلا إذا وجد نفسه وحيداً في غرفة الانتظار وغادرها وهو مطمئن إلى أنه ليس فيها أحد. وبالمقابل، يحرص المريض على إغلاق البابين إذا ما ترك في غرفة الانتظار أشخاصاً ينتظرون مثله الإذن بالدخول إلى غرفة الاستشارة. فهو يفهم حق الفهم في هذه الحالة الأخيرة أنه ليس من صالحه أن يتيح للآخرين الاستماع إلى محادثته مع الطبيب.

هكذا لا يكون إهمال المريض، وقد تحدد على هذا النحو، وليد المصادفة والاتفاق، أو غفلاً من المعنى، وحتى من الأهمية، لأنه ينتم، كما سنرى، عن موقفه من الطبيب. فالمريض ينتمي إلى تلك الفئة الواسعة من الناس الذين لا يقصدون سوى مشاهير الأطباء، والذين يلتمسون ما يبهّهم ويهزّهم هزاً. وربما يكون اتصل هاتفياً قبل مجيئه ليعرف ما أنسب الأوقات لمقابلة الطبيب، وقد يتصور أنه سيجد أمام عيادة هذا الأخير صفّاً طويلاً من الزبائن كذاك الذي يشاهد أمام فرع من فروع بقالية يوليوس ماينل^(٦). والحال، ها هوذا يلج

٦ - بقالية ذائعة الصيت في فيينا كانت تقف أمام بابها أرتال الزبائن إبان الحرب العالمية الأولى. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

إلى غرفة الانتظار، فيجدها فارغة، فضلاً عن أنها متواضعة الأثاث. ويخيب ظنه، وتأخذه رغبة في الانتقام من الطبيب لما كان يزمع أن ييديه نحوه من احترام زائد، فيهمل إغلاق البابين الفاصلين بين غرفة الانتظار وغرفة الاستشارة. فكأنه يريد بإهماله هذا أن يقول للطبيب: «ما الداعي إلى إغلاق الباب، ما دام ليس في غرفة الانتظار أحد، وما دام من غير المحتمل أن يدخل أحد وأنا في مكتبك؟». بل لا يندر أن يدلل، أثناء الاستشارة، عن قدر كبير من عدم التحرج وعدم الاحترام، إن لم يوضع فوراً عند حذّه.

إن تحليل هذا الفعل العَرَضِي البسيط لا يضيف شيئاً إلى ما كنا نعلمه من قبل، من حيث أنه ليس فعلاً عارضاً، وأن له على العكس دافعاً ومعنى وقصدًا، وأنه جزء من سياق نفسي محدد، وأنه مؤشر صغير إلى حالة نفسية لها أهميتها. غير أن هذا الفعل العَرَضِي يتيح لنا على الأخص أن ندرك أن السيرة النفسية التي يعبر عنها تجري خارج نطاق معرفة الشخص الذي يقوم بها، إذ ليس بين جميع المرضى الذين يتركون البابين مفتوحين واحد يقرّ ويعترف بأنه أراد بهذا الإهمال أن ييدي لي عن ازدرائه. ومن المحتمل أن يسلم أكثر من واحد بأن شعوراً بالخيبة قد ساوره وهو يدلف إلى غرفة الانتظار، لكن من المحقق أن الرابط بين هذا الشعور وبين الفعل العَرَضِي الذي أعقبه لا يقع تحت تناول وعيه.

والآن سأجري موازنة بين هذا الفعل العَرَضِي البسيط وبين ملاحظة لاحظتها على مريضة من مرضاي. وقد اخترت هذه الملاحظة لأنها لا تزال طرية في ذاكرتي، ولأنها تصلح لعرض مقتضب. على أنني أحذركم مسبقاً من أن بعض الإطالة أمر محتّم لا مهرب منه في أي عرض لحالة كهذه.

سألني ضابط شاب، وهو في إجازة له، أن أتولى علاج حماته: فهي، وإن كانت تعيش في شروط من السعادة القصوى، تنعّص حياتها وحياة ذويها جميعاً بفكرة سخيفة. وقد وجدتني سيدة تناهز الثالثة والخمسين من العمر، ولكنها تبدو أصغر من ذلك، فضلاً عن أنها أنيسة، لطيفة المعشر، بسيطة في التعامل؛ وقد أطلعتني بكل طواعية على ما يلي: إنها تعيش عيشة سعيدة للغاية في الريف مع زوجها الذي يدير مصنعاً كبيراً، وهي لا تملك إلا أن تغبط نفسها على كل ما

يحيطها به من رعاية وعناية. وكانا قد تزوجا عن حب قبل ثلاثين عاماً، ولم يعكر منذ يوم زواجهما صفو حياتهما المشتركة شقاق أو دافع من دوافع الغيرة. وقد أنجبت منه ولدين تزوّجا زوجاً موقفاً. لكن زوجها، الذي يريد أن يؤدي واجباته كرتب أسرة حتى النهاية، لا يزال يصبر على المضي في العمل. وقبل سنة وقع حادث لا يصدّق، ولا تملك هي نفسها له فهماً: فقد تسلمت رسالة غفلاً من الإمضاء تتهم زوجها الممتاز بأنه على علاقة غرامية بإحدى الصبايا، ومنذ أن استلمت تلك الرسالة تحطمت سعادتها تحطيماً. وقد تبين بنتيجة التقصي أن خادمة هذه السيدة - وكانت هذه الأخيرة تطلعها على الحميم من أمور حياتها الخاصة - كانت تضمّر حقداً دفيناً لفتاة أخرى أصابت حظاً أوفر من النجاح في الحياة، مع أنهما من أصل اجتماعي واحد: فبدلاً من أن تتمتهن الخدمة في بيوت الآخرين واصلت الدراسة حتى تمكنت من دخول المصنع كمستخدمة. ولما تقلص جهاز العاملين في المصنع بفعل التعبئة العامة^(٧)، أتيح لتلك الفتاة أن تشغل في نهاية المطاف مركزاً تحسد عليه: فقد صارت تسكن في المصنع نفسه، ولا تعاشر إلا «السادة»، ويدعوها الجميع بـ «الآنسة». وقد دبت الغيرة في نفس الخادمة لما أصابته زميلتها القديمة في المدرسة من توفيق، وصارت على استعداد لأن تقول عليها بكل الشر الممكن. وذات يوم حدثت سيدتنا خادمتها عن رجل عجوز قدم لزيارة المنزل، ويُعرف عنه أنه منفصل عن خليلته ويعيش مع خليلته. ولا تدري مريضتنا ما دفع بها إلى أن تقول لخادمتها على نحو مفاجئ إنها لا تستفزع شيئاً كأن يتناهى إلى علمها أن زوجها الطيب له هو أيضاً علاقة كذلك. وفي الغداة تلقت بالبريد الرسالة الغفل المكتوبة بخط مزور والمتضمّنة الخبر المشؤوم. وقد اشبهت للحال بأن الرسالة من تلفيق خادمتها الشريرة، لأن الفتاة المتهمة فيها بأنها خليله الزوج هي عين الفتاة التي تكّن لها الخادمة حقداً دفيناً. لكن بالرغم من أن المريضة لم تتأخر في تخمين الدسيسة، و بالرغم من أنه كان لها من الخبرة والتجربة ما يؤهلها لأن تدرك أن مثل هذه الوشاية الدنيئة غير جديرة بالتصديق، فإن تلك الرسالة قد هزّتها هزاً عنيفاً. واستحوذت عليها سورة

٧ - لدى اندلاع الحرب العالمية الأولى. «م».

من الهياج الشديد، وبعثت في طلب زوجها، فما كاد يحضر حتى انهالت عليه بمز اللوم ولاذع القول. غير أن الزوج تقبّل التهمة ضاحكاً وبذل كل ما في وسعه لتهدئة زوجته. وفي النهاية استدعى طبيب الأسرة والمصنع ليعاضده بجهوده. وجاء موقف الزوج والزوجة لاحقاً كما يجب أن يجيء: فقد فُصلت الخادمة، وبقيت الخليفة المزعومة في وظيفتها. ومنذ ذلك اليوم صارت المريضة تزعم وتكرر الزعم أنها استردّت هدوءها، وأنها لم تعد تصدق ما جاء في الرسالة الغفل. لكن هدوءها كان ضحلاً ومؤقّتاً. إذ ما كان اسم الفتاة يلفظ أمامها أو ما كانت تلتقيها في الطريق حتى تجتاحها نوبة جديدة من الشك والألم وتبكت الضمير.

هذه هي قصة تلك السيدة الطيبة. ولا يحتاج المرء إلى خبرة كبيرة بالطب النفسي ليفهم أنها تميل، خلافاً لغيرها من المرضى العصبيين، إلى التخفيف من حالتها، أو - كما نقول - إلى التكتّم، وأنها لم تفلح قط في الواقع في التغلب على تصديقها للتهمة التي جاءت في الرسالة الغفل.

ما الموقف الذي يمكن أن يتخذه طبيب الأمراض النفسية حيال حالة كهذه؟ لقد عرفنا من قبل كيف يمكن أن يكون موقفه من الفعل العَرَضِي للمريض الذي لا يعلق بابي غرفة الانتظار. فهو يرى في هذا الفعل الأخير حادثاً عارضاً عادم الأهمية من وجهة النظر النفسية. لكنه لا يستطيع أن يقف الموقف نفسه حيال تلك السيدة الغيور إلى حدّ مرضي. فلئن بدا الفعل العَرَضِي شيئاً لا يعتدّ به، فإن العَرَض النفسي يفرض نفسه علينا بالمقابل كظاهرة ذات دلالة. فمن وجهة النظر الذاتية يتواكب هذه العَرَض بألم ممضّ، ومن وجهة النظر الموضوعية يهدد سعادة أسرة. من هنا فإنه جدير بلا جدال بإثارة اهتمام الطبيب النفسي. وهذا الأخير يسعى أولاً إلى تحديد العرض بخاصة جوهرية من خصائصه. فليس بالإمكان القول إن الفكرة التي تعذّب تلك المرأة وتقصّ مضجعها بعيدة عن المنطق بحدّ ذاتها، إذ قد يحدث بالفعل أن يتخذ المتزوجون من الرجال، بمن فيهم المتقدمون في السن، خليلات لهم من الصبايا. لكن ثمة شيء آخر بعيد عن المنطق ومستغلق على التصور. فباستثناء المزاعم التي تضمّنتها الرسالة الغفل، ليس لدى المريضة من مبرر البتة للاعتقاد بأن زوجها المحب والوفي ينتمي إلى تلك الفئة من

الأزواج غير المخلصين. وهي تعلم أيضاً أن الرسالة ليست جديرة بالتصديق على الإطلاق، كما تعلم بمصدرها. إذاً فالمفروض بها أن تقول لنفسها إن غيرتها ليس لها ما يبررها، وهذا بالفعل ما تقوله لنفسها؛ لكنها بالرغم من ذلك تتألم، كما لو أن بحوزتها أدلة لا تدحض على خيانة زوجها. وقد جرى الاتفاق على توصيف هذا النوع من الأفكار، أي الأفكار التي تستعصي على الحجج المنطقية وتمتنع عن الحجج المستمدة من الواقع، بأنها أفكار هذائية. إذاً فالسيدة الطيبة تعاني من هذاء الغيرة. وتلك هي في أغلب الظن السمة المميزة الرئيسية للحالة المرضية التي نحن بصدها.

إن تقرير هذه الواقعة الأولى من شأنه أن يزيدنا اهتماماً من منظور الطب النفسي. فلئن صمدت فكرة هذائية إزاء امتحان الواقع، فذلك لأن مصدرها هي الأخرى في أرجح الظن لا يكمن في هذا الواقع. فمن أين جاءت إذاً؟ إن الأفكار الهذائية تتنوع من حيث المحتوى إلى ما لا نهاية، فلم كانت الغيرة دون سواها هي محتوى الهذاء في الحالة التي نحن بصدها؟ هنا يطيب لنا أن نستمع إلى طبيب الأمراض النفسية، لكن هذا ليس لديه ما يقوله لنا، ومن بين جميع أسئلتنا تلك، لا يهمه سوى سؤال واحد. فهو سينقّب في السوابق الوراثية لتلك السيدة، وربما أعطانا الجواب التالي: تحدث الأفكار الهذائية لدى الأشخاص الذين تتكشف سوابقهم الوراثية العائلية عن اضطرابات مماثلة أو غيرها من الاضطرابات النفسية. وبعبارة أخرى، لئن تمخضت فكرة هذائية لدى تلك المرأة، فذلك لأنها مهتأة لها وراثياً. ولا ريب في أن هذه المعلومة مفيدة، لكن أهذا كل ما نريد أن نعرفه؟ أليس هناك أسباب أخرى نشأت عنها الحالة المرضية التي نحن بصدها؟ لقد لاحظنا أن الغيرة كانت هي، دون سواها، مضمون الهذاء الذي انبنى لدى تلك السيدة: فهل هذه واقعة عديمة الأهمية، أو اعتباطية، أو عصبية على التفسير؟ والأطروحة القائلة بكلية قدرة التأثير الوراثي: أينبغي أن نفهمها أيضاً بالمعنى السلبي، أي هل يتعين علينا أن نسلّم بأنه متى ما كان لدى إنسان من الناس استعداد مسبق للوقوع ضحية هذاء ما، فإن الأحداث والتجارب التي يمكن أن يمرّ بها تكون مما لا يعتدّ به؟ وأكبر الظن أنكم راغبون في أن تعرفوا لماذا

لا يريد الطب النفسي العلمي أن يزودنا بمزيد من المفاتيح. وجوابي عن هذا أن من يعطي أكثر مما لديه غشاش لا يؤتمن. والطبيب النفسي لا يملك من وسيلة ينفذ بها إلى أبعد من ذلك في تفسير حالة مَرَضِيَّة من هذا النوع. فهو مضطر إلى الاكتفاء بتشخيص الحالة، وبالرغم من خبرته الغنية فإنه لا يملك أن يتنبأ على وجه اليقين بمسار المرض لاحقاً.

هل نستطيع أن ننتظر من التحليل النفسي شيئاً أكثر؟ بكل تأكيد، وآمل أن أتمكن من أن أبرهن لكم أن في مقدوره، حتى في حالة عصيَّة المتناول كذلك التي نحن بصددھا، أن يسلط الضوء على وقائع من شأنها أن تذللھا للفهم. أرجوكم أولاً أن تذكروا تلك النقطة التفصيلية العديدة الأهمية في الظاهر، وهي أن المريضة نفسها هي التي كانت في الحقيقة وراء تلفيق الرسالة الغفل التي كانت منطلق فكرتها الهذائية: أفلم تقل في الليلة السابقة للخادمة الدساسة أنها لا تستفزع شيئاً كأن يتناهى إلى علمها أن لزوجها خلية؟ فقد أوحى بقولها هذا للخادمة بفكرة إرسال الرسالة الغفل. وهكذا تغدو الفكرة الهذائية مستقلة، إلى حد ما، عن الرسالة، وقد كان لها وجودها المسبق لدى المريضة في صورة توجس (أو رغبة؟). أضف إلى ذلك بعض الوقائع البسيطة التي أمكن لي استخلاصها خلال ساعتين من التحليل. فقد أبدت المريضة عن عدم استعداد للاستجابة حين طلبت إليها، بعد أن انتهت من سرد قصتها، مكاشفتي بأفكار وذكريات أخرى يمكن أن تكون ذات صلة بها. فقد زعمت أنه ليس لديها ما تضيفه، ولم يكن مفرّ، بعد مضيّ زهاء ساعتين، من وقف التجربة بعد أن صرّحت المريضة أنها تشعر بأنها على أحسن ما يرام وأنها متيقّنة من أنها تحررت من فكرتها المَرَضِيَّة. وغني عن البيان أن ما أُملى عليها هذا التصريح خوفها من أن أمضي في التحليل قدماً. غير أن لسانها أفلت خلال تينك الساعتين بوضع ملاحظات أتاحت لي، بل فرضت عليّ تأويلاً معيّناً يلقي بahr الضوء على نشأة فكرتها الهذائية. فقد كانت تكّن هي نفسها عاطفة عميقة لشاب بعينه، هو ذلك الصهر الذي بناءً على إلحاحه قصدتها لأعالجها. وهي ما كانت تفتن لهذه العاطفة، أو ما كانت تعيها إلا وعياً باهتاً: فنظراً إلى أواصر القربى التي كانت تشدّها إلى ذلك الشاب،

لم يكن من الصعب على شعورها الحبي أن يلبس قناع ودّ بريء. والحال أنه تتوفر لنا بصدد هذه المواقف خبرة كافية لتنفيذ بلا مشقة إلى الحياة النفسية لتلك المرأة المستقيمة والأم الممتازة ذات الثلاثة والخمسين عاماً. لقد كانت العاطفة التي تعتمل في نفسها أظف وأحرج من أن تكون واعية، غير أنها ظلت، وهي في حالة اللاشعور، تمارس ضغطاً شديداً. وكانت المرأة بحاجة إلى شيء يحزّرها من هذا الضغط، فوجدت الفرج في آلية النقل والإزاحة التي تلعب في غالب الأحيان دوراً في نشوء الغيرة الهذائية. فلو أنها، وهي المرأة المسنّة، ليست وحدها التي تحبّ شاباً فتى، بل لزوجها أيضاً خليلة صغيرة السن، لشعرت بتحرر من وخز الضمير الذي لا بد أن تسببه لها خيانتها تلك. وبذلك تكون الفكرة الثابتة لديها عن خيانة زوجها بمثابة بلسم مهدئ يطفئ لهب جرحها الحارق. ولئن لم تكن واعية لحبها، فقد كانت تعي بالمقابل وعياً حاداً، يصل إلى حدّ الهوس، الانعكاس الوسواسي، الهذائي، الشعوري، لهذا الحب - وهو انعكاس تجني منه أعظم الفائدة. وما كان لجميع الحجج التي يمكن أن يُعترض بها على فكرتها الثابتة أن تجدي فيلاً، لأن مثل تلك الحجج لم تكن موجهة إلا ضد الصورة المنعكسة، لا ضد الصورة الأصلية التي كانت هذه الصورة الأخيرة تدين لها بقوتها، والتي بقيت محتبئة في اللاشعور، في حرز منيع.

لنلخص المعطيات التي أمكن لنا أن نظفر بها من ذلك المجهود التحليلي النفسي المقتضب والعويص. فلعلها تتيح لنا أن نفهم تلك الحالة المرضية، وهذا بطبيعة الحال على فرض أننا نهجنا النهج الصحيح، وهو ما ليس لكم أن تحكموا عليه هنا. المعطى الأول: إن الفكرة الهذائية ليست شيئاً بعيداً عن المنطق ومستغلماً على الفهم، بل إن لها معنى وحافزاً، وتحتل مكانها في سياق تجربة وجدانية مشحونة انفعالياً عاشتها المريضة. المعطى الثاني: هذه الفكرة الهذائية لازمة وضرورية من حيث أنها ردّ فعل على سيرورة نفسية لاشعورية أمكن لنا أن نحسب بها انطلاقاً من دلائل أخرى؛ وإنما بحكم الرابط الذي يربطها بهذه السيرورة النفسية اللاشعورية اكتسبت طابعها الهذائي ومقاومتها ضد جميع الحجج المستمدة من المنطق والواقع. بل إن هذه الفكرة الهذائية هي بحدّ ذاتها

شيء مؤاتٍ وضرب من العزاء. المعطى الثالث: إن التجربة المعاشة الكامنة خلف نشوء المرض هي التي تأدت بلا التباس إلى تحولها إلى فكرة هذائية دافعها الغيرة وليس أي سبب آخر. وأنتم تذكرون في أرجح الظن أنها كانت صارحت الفتاة الدساسة بأن أكثر ما يخيفها هو أن يخونها زوجها. ولن يفوتكم أيضاً أن تنبهوا إلى نقطتي التشابه الهامتين مع الفعل العرضي الذي تقدم بنا تحليله^(٨): فقد أفلحنا في كلتا الحالين في استخلاص معنى الظاهرة النفسية أو قصدها، وفي إمطة اللثام عن صلة هذا المعنى أو القصد بعنصر لاشعوري مرتبط بالموقف.

غني عن القول أننا لم نجب عن جميع الأسئلة ذات الصلة بالحالة التي نحن بصدها والتي هي مثقلة في الحقيقة بمعضلات، بعضها غير قابل للحل بعد، وبعضها الآخر تعذر حلّه بسبب الظروف غير المؤاتية، الخاصة بهذه الحالة. فلماذا مثلاً وقعت هذه السيدة، السعيدة بزواجها، في حب صهرها، ولماذا أخذ الخلاص لديها شكل انعكاس في مرآة، شكل إسقاط لحالتها على زوجها، مع أنه كان من الممكن أن يتلبس أشكالاً مغايرة؟ لا تحسبوا أن هذه أسئلة باطلة ومجانبة. بل هي تحتمل أجوبة نملك من الآن عناصر عدة منها. فمريضتنا بلغت تلك السن الحرجة التي تتأجج فيها الحاجة الجنسية لدى المرأة تأججاً مبالغاً وغير مساغ. وهذه الواقعة كافية بحدّ ذاتها، عند الاقتضاء، لتفسير كل الباقي. لكن من المحتمل أيضاً أن يكون الزوج الطيب والوفى قد افتقد منذ بضع سنوات القدرة الجنسية الكفيلة بمجاراة حاجة زوجته التي حافظت أكثر منه على عنفوانها. ونحن نعلم بالخبرة أن هؤلاء الأزواج، الذين لا يحتاج إخلاصهم إلى تفسير آخر أصلاً، يعاملون زوجاتهم بحنان خالص ويتقبلون بحلم وتسامح كبيرين اضطراباتهن العصبية. أضف إلى ذلك أنه أمر له أهميته أن يكون حب تلك السيدة ذو الطابع المرضي قد انصبّ على زوج ابنتها الشاب تحديداً. فالتعلق الإيروسى بالابنة، وهو تعلق يمكن رده في التحليل الأخير إلى جيلة الأم الجنسية، كثيراً ما يجد سبيله إلى البقاء والاستمرار عن طريق مثل هذا التحويل. وهنا أحتاج إلى أن أذكركم بهذا

٨ - عدم إغلاق المريض للباين الفاصلين بين غرفة الانتظار وغرفة الاستشارة. «م».

الصدد بأن العلاقات الجنسية بين الحماة والصهر عُدت منذ أقدم الأزمنة مستهجنة أشد الاستهجان، وقد أحاطتها الأقوام البدائية بضروب شتى من التحريم (التابو) والتدنيس الصارمين^(٩)؟ وكثيراً ما تتجاوز هذه العلاقات، إن بالمعنى الإيجابي وإن بالمعنى السلبي، الحدّ المستساغ حضارياً. وبما أنه تعذر عليّ أن أتابع تحليل هذه الحالة أكثر من ساعتين من الزمن، فلست مستطيعاً أن أقول لكم أيّاً من تلك العوامل الثلاثة هو المسؤول عن حالة مريضتنا: أهو واحد منها، أم اثنان، أم ثلاثتها مجتمعة؟

إنني أُنْتَبِه الآن إلى أنني حدثتكم، سادتي، فقط عن أشياء لم تتهيأوا بعد لفهمها. وقد فعلت ذلك لأقيم موازنة ومقابلة بين طب الأمراض النفسية والتحليل النفسي. لكنني أبيع لنفسي أن أطرح عليكم الآن هذا السؤال: هل سبق لكم أن انتبهتم إلى وجود تعارض بينهما في مضمار ما؟ إن الطب النفسي لا يستخدم الطرائق التقنية للتحليل النفسي، ولا يأبه لربط أي شيء كان بمضمون الفكرة الهذائية، ويكتفي بأن يدلّنا على الوراثية بصفتها عاملاً إتيولوجياً^(١٠) عاماً وبعيداً، بدل أن يعكف على تقصي أسباب أخصّ وعلليّ أقرب. لكن هل ثمة هنا من تناقض أو تعارض؟ ألا ترون أن الطب النفسي والتحليل النفسي لا يتنافيان، بل يتكاملان؟ وهل يتدخل هنا العامل الوراثي ليناقض ما للتجربة المعاشة من دلالة، أم أنهما يتضافران تضافراً فعالاً للوصول إلى نتيجة أوثق؟ وستوافقونني هنا على أن عمل الطب النفسي لا ينطوي في طبيعته على شيء يمكن اتخاذه حجة ضد البحث التحليلي النفسي. وإنما طبيب الأمراض النفسية، لا الطب النفسي، هو الذي يقف موقف معارضة من التحليل النفسي. وموقع هذا الأخير من الطب النفسي كموقع علم الأنسجة من علم التشريح: فأحدهما يدرس الأشكال الخارجية للأعضاء، وثانيهما يدرس الأنسجة والخلايا التي تتألف منها هذه الأعضاء. فمما لا يُتصور إذاً أن يقوم تناقض بين هذين المستويين من الدراسة اللذين يتّم أحدهما الآخر. إن علم

٩ - انظر الطوطم والتابو، ١٩١٣.

١٠ - الإتيولوجيا: مبحث الأسباب، وتحديد مبحث أسباب نشوء الأمراض. «م».

التشريح ينهض اليوم كما تعلمون أساساً لطبِّ علمي، غير أنه مرّ حين من الزمن كان تشريح الجثث البشرية، الرامي إلى معرفة البنية الباطنة للجسم، من المحرمات، تماماً كما يدين بعضهم اليوم ممارسة التحليل النفسي الرامية إلى معرفة طريقة الاشتغال الداخلي للحياة النفسية. على أن كل ما حولنا يحملنا على الاعتقاد بأنه لم يعد بعيداً اليوم الذي يتضح فيه ويتأكد أن الطب النفسي العلمي حقاً يفترض معرفة جيدة بالسيرورات الدفينة واللاشعورية للحياة النفسية.

قد يكون لهذا التحليل النفسي، الذي حورب حرباً عواناً، بعض أنصار بينكم يطيب لهم أن يروه وقد ثبت موقع قدميه أيضاً كطريقة علاجية. وأنتم تعلمون أن المعالجة الطبية النفسية تقف عاجزة عن التأثير على الأفكار الهذائية. فهل يكون التحليل النفسي، العارف بآلية هذه الأعراض، أوفر حظاً وأكثر توفيقاً في هذا المضمار؟ كلا يا سادتي، فهو ليس أكثر فعالية، في الوقت الحاضر على الأقل، من أية طريقة علاجية أخرى في السيطرة على هذه الأمراض. صحيح أنه بوسعنا، بفضل التحليل النفسي، أن نفهم ما يجري في نفس المريض، لكن لا تتوفر لنا أي وسيلة لنجعل المريض يفهم ذلك هو نفسه. وقد أسلفت لكم القول إنني ما تمكنت، في الحالة التي عرضتها لكم في هذه المحاضرة، أن أنفذ بالتحليل إلى ما وراء الطبقات السطحية الأولى. فهل ينبغي أن نستنتج من ذلك أن تحليل هذا النوع من الحالات لا بدّ أن يهمل ويذر، لأنه عقيم لا يجدي فتيلاً؟ لا أعتقد ذلك. فمن حقناً، بل من واجبنا أن نواصل أبحاثنا، من دون أن نبالي بجدواها المباشرة. ثم إننا لا ندري أين ومتى يمكن للمعرفة الزهيدة التي تحصلت لنا أن تتحول إلى قدرة علاجية. وحتى لو دلل التحليل النفسي إزاء سائر الأمراض العصبية والنفسية عن عجز مماثل لذلك الذي أبداه حيال الأفكار الهذائية، فإنه يبقى مشروعاً ومبرراً تماماً كوسيلة لا بديل عنها للبحث العلمي. صحيح أننا لن نكون قادرين في هذه الحال على مزاولته، إذ إن الناس الذين نريد أن نتعلم عليهم، الناس الذين هم أحياء ومحبوبون بإرادة خاصة ومحتاجون إلى حوافز شخصية كيما يمدّوا إلينا يد العون، سيمسكون عندئذ عن التعاون معنا. وعليه لا

أريد أن أختتم اليوم هذه المحاضرة من دون أن أخبركم أن هناك طائفة واسعة من الاضطرابات العصبية يمكن فيها لتفهم أفضل أن يتحول بسهولة إلى قدرة علاجية، وأن التحليل النفسي يتيح لنا، في بعض الشروط، أن نصل في هذه الضروب من المرض التي يعسر النفاذ إليها إلى نتائج لا تقل أهمية البتة عن تلك التي يتم التوصل إليها في أي فرع آخر من فروع العلاج الطبي الداخلي.

المحاضرة السابعة عشرة

معنى الأعراض

سيداتي سادتي، أوضحت لكم في المحاضرة السابقة أنه على حين أن الطب النفسي السريري لا يولي كبير اهتمام لشكل تظاهر كل عرض من الأعراض ولضمون هذا العرض، فإن تلك كانت بالضبط نقطة انطلاق التحليل النفسي الذي ركّز اهتمامه الرئيسي على هذا الشكل وهذا المضمون تحديداً، والذي أفلح بادئ ذي بدء في أن يثبت أن لكل عرض معنى وصلة وثيقة بالتجربة الحياتية للمريض. وأول من اكتشف معنى الأعراض العصابية هو ج. بروير (BREUER)^(١) في دراسته وإعادة بنائه الناجحة لحالة هستيريا أضحت من الحالات المشهورة التي يشار إليها بالبنان منذئذ (١٨٨٠ - ١٨٨٢)^(٢). صحيح أن ب. جانيه JANET^(٣) اكتشف الاكتشاف نفسه، مستقلاً عن بروير؛ بل إن

١ - جوزيف بروير: طبيب وعالم نفس نمساوي (١٨٤٢ - ١٩٢٥). عمل معه فرويد في بداية حياته العلمية في مختبر الدكتور بيركه واشترك معه في عام ١٨٩٥ في تأليف كتاب بعنوان دراسات في الهستيريا. وكان بروير يكبره بأربعة عشر عاماً، وكان يستخدم التنويم المغناطيسي في علاج المرضى النفسيين، ثم ما لبث أن استعاض عنه بمنهج التطهير (كاتاريسيس) الذي يقوم على انتزاع الأسرار التي ترهق المريض من أفكار وعواطف مكبوتة. ولكن فرويد لم يقف عند الحد الذي كان وصل إليه بروير، فانقصت عرى التعاون بين الاثنين، ومضى فرويد في طريق التحليل النفسي وحيداً. وقد كتب عن بروير في حياتي والتحليل النفسي يقول: «لقد كلّفني نمو التحليل النفسي صداقته. لم يكن من السهل عليّ دفع هذا الثمن، لكن لم يكن في مقدوري أن أتفادى ما كان». «م»

٢ - تُعرف في تاريخ التحليل النفسي باسم أنا أو، واسمها الحقيقي مارتا بابنهايم، وقد نشر بروير تفاصيل حالتها في كتابه المشترك مع فرويد دراسات في الهستيريا (١٨٩٥). «م».

٣ - بيير جانيه: من رواد علم النفس التجريبي في فرنسا (١٨٥٩ - ١٩٤٧). جمع بين الطب والفلسفة، وله نحو من ثلاثين مؤلفاً من جملتها عدة دراسات عن العصاب والذاكرة والذكاء والفكر الانطوائي.

«م»

هذا العالم الفرنسي تعود إليه أسبقية النشر، على اعتبار أن بروير لم ينشر دراسته إلا بعد مضيّ عشر سنوات (١٨٩٣ - ١٨٩٥)، يوم كنا نتعاون معاً. ولا يهمننا أصلاً أن نعلم لمن يعود الفضل في الاكتشاف، فكل اكتشاف يُكتشف أكثر من مرة، ولا وجود لاكتشاف يتم دفعة واحدة، كما أن النجاح لا يعزى دوماً إلى صاحب الاستحقاق. فأمر كما لم تُسمَّ باسم كولومبوس. وقبل بروير وجانيه كان الطبيب النفسي العظيم لوريه LEURET^(٤) قد أعرب عن رأي مفاده أنه لا يتعذر أن نجد معنى حتى لهذين المرضي العقليين إذا عرفنا كيف نترجمه. وأقوّر بأنني كنت لفترة طويلة من الزمن أميل إلى أن أعزو إلى ب. جانيه فضلاً خاصاً في تفسيره للأعراض العصائية التي رأى فيها تعابير عن «أفكار لاشعورية»^(٥) تهيمن على المرضي. لكن جانيه دلل فيما بعد على تحفظ مغالي فيه، وصرح بما من شأنه أن يوحي وكأن اللاشعور لا يعدو أن يكون في نظره «صيغة مجازية»، وأنه محض «طريقة في الكلام»^(٦)، وأن هذا المصطلح لا يقابله في تصوره شيء في الواقع. ومنذئذ لم أعد أفهم استنتاجات جانيه، لكنني أعتقد أنه أساء إلى نفسه إساءة فادحة، مع أن فضله كان يمكن أن يكون كبيراً.

للأعراض العصائية إذاً معناها، مثلها مثل الهفوات والأحلام، كما أنها ترتبط، نظيرها، بحياة الأشخاص الذين تتظاهر لديهم. وأريدكم أن تستوعبوا هذه الفكرة الهامة بمعونة بعض الأمثلة. وأنا أؤكد لكم أن هذا هو واقع الحال دوماً وفي كل الحالات، وإن لم يكن في مقدوري أن أبرهن عليه. ومن يبحث بنفسه عن تجارب، فسينتهي به الأمر لا محالة إلى الاقتناع بما أقوله. لكنني، لأسباب خاصة، سأستعير أمثلي، لا من الهستيريا، بل من عصاب آخر، ملفت للنظر هو

٤ - فرانسوا لوريه: عالم نفس وتفسير فرنسي (١٧٧٢ - ١٨٤٠). اشتهر بدراسته التشريحية المقارنة عن المخ، ووضع خريطة طبوغرافية لتجاويف القشرة الدماغية وثناياها. وفي مضممار علم النفس كان سباقاً إلى التأكيد بأن الأمراض العقلية لا تعود إلى أسباب بدنية حصراً. من مؤلفاته: المعالجة المعنوية للجنون والتشريح المقارن للنظام العصبي. «م».

٥ - بالفرنسية في النص. «م».

٦ - بالفرنسية أيضاً في النص. «م».

الآخر، وقريب الصلة في الواقع بالهستيريا، وسأقدم له بكلمة تمهيدية مقتضبة. إن هذا العصاب يستلزم بالعصاب الوسواسي^(٧)، ولكنه لم يصب من الشهرة ما أصابته الهستيريا التي يعرفها الناس جميعاً. وإن جاز لي القول، فهو أقل صخباً وجلبة، وأدنى إلى أن يكون شأناً خاصاً من شؤون المريض، ويكاد يستغني استغناء شبه تام عن التظاهرات البدنية ويركز كل أعراضه في المضمار النفسي. والعصاب الوسواسي والهستيريا شكلان عصائيان قديماً للتحليل النفسي أول ركيزة للدراسة، وفي علاجهما أحرزت تقنيتنا العلاجية أروع نجاحاتها. لكن العصاب الوسواسي، الذي يفتقر إلى ذلك الامتداد الغامض من النفسي إلى الجسمي، أمكن للتحليل النفسي أن يجلوه وأن ينقذ إلى أسرارهِ بوضوح أكبر مما في الهستيريا، وتهيأ لنا أن نلاحظ أنه يشفّ بقدر أكبر من الجلاء عن بعض السمات والخصائص المتطرفة للأمراض العصائية.

يتظاهر العصاب الوسواسي بكون المرضى تشغل بهم أفكار لا تهتمهم في الواقع، وتعمل في أنفسهم نزوات اندفاعية تبدو لهم غريبة شاذة، ويجدون أنفسهم مدفوعين إلى أعمال لا يعود عليهم الإتيان بها بأي متعة، لكنهم لا يستطيعون منها فكاً البتة. وقد تكون الأفكار (التمثلات الوسواسية) عارية من المعنى بحد ذاتها، أو عديمة الأهمية بالنسبة إلى الشخص المعني، وغالباً ما تكون عبثية غير ذات معنى، وتستثير في كل الأحوال نشاطاً عقلياً مكثفاً ينهك المريض ولا يقوم به إلا على كره ومضض. فهو مضطر، رغماً عنه، إلى التفحص والتقصي وإعمال الفكر، كما لو أن القضية أهم قضاياه وأكثرها حيوية. كذلك إن النزوات الاندفاعية التي تعمل في نفس المريض قد تبدو هي الأخرى صيبانية وعابثة، لكنها تنطوي في أغلب الأحيان على مضمون مرعب، فيشعر المريض وكأنه مدفوع إلى اقتراف جرائم خطيرة؛ فهو بالتالي لا يكتفي بأن يدفع عنه تلك

٧ - اختلف المترجمون الفرنسيون في ترجمة هذا المفهوم الأساسي في التحليل النفسي الفرويدي؛ فمنهم من ترجم المصطلح الألماني Zwangneurose بالعصاب الوسواسي Névrose obsessionnelle ومنهم من ترجمه بالعصاب القهري Névrose de contrainte. وبما أن الترجمة الأولى هي التي ذاعت في العربية فقد أخذنا بها بدون أن يمنعنا هذا من اللجوء إلى نعت «القهري» عندما يطلق على الفعل العصائي لا على العصاب. (م).

النزوات الاندفاعية باعتبارها غريبة دخيلة، بل يهرب منها أيضاً مذعوراً ويذنب عنه إغراءها بشتى ضروب التحضير والتحرز وتقييد حريته. والجدير بالذكر أن هذه الجرائم والفعال الشريرة لا تشق طريقها أبداً ولو إلى بداية تنفيذ: فالهرب والتعقل يظهران عليها دوماً في نهاية المطاف. أما الأفعال التي ينقذها المريض فعلاً، وهي تلك التي تسمى بالأفعال القهرية، فلا تعدو أن تكون أفعالاً بريئة، غير ضارة، غير ذات شأن في الحقيقة، وفي أغلب الأحيان مجرد تكرار وتنميق احتفالي للأفعال العادية في الحياة الجارية، فتكون النتيجة من ثم أن الأفعال اليومية التي لا مفر من القيام بها، كالرقود في الفراش والاعتسال وارتداء الثياب والخروج للتنزه، تغدو مشكلات شاقة، عويصة، شبه مستعصية على الحل. ولا تكون الأفكار والنزوات الاندفاعية والأفعال المرضية ممزوجة بنسبة واحدة في كل شكل من أشكال العصاب الوسواسي وفي كل حالة من حالاته: فغالباً ما ترجح كفة أحد هذه العوامل على ما سواه، فيطبع المرض بطابعه ويعين له اسمه، لكن جميع الأشكال وجميع الحالات تشترك بسمات مشتركة يستحيل أن يخطئها التقدير.

إنه بكل تأكيد مرض غريب عجيب، وأعتقد أن طبيب الأمراض النفسية مهما أوتي من خيال مسرف فلن يفلح أبداً في ابتداء شيء يماثله. ولو كانت الفرصة لا تسنح لنا يوماً لمعاينة أشباه هذه الحالات، لشق علينا أن نؤمن بوجودها. لكن لا تحسبوا أنكم تسدون للمريض خدمة لو نصحتموه بأن يتسلى ويسري عن نفسه، وألا يستسلم لأفكاره العابثة، وأن يستبدلها بأخرى أكثر تعقلاً. فهو يود من تلقاء نفسه لو يفعل ما تصحونه به، لأنه واع بحاله، ومشاطركم رأيكم في أعراضه القهرية، بل مكاشفكم به قبل أن تتلفظ به شفاهكم. ومع ذلك، إنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً: فالفعل الذي يصدر عنه وهو تحت سطوة عصابه الوسواسي مشحون بطاقة ليس لها في أغلب الظن من نظير في الحياة السوية. فكل ما يستطيعه شيء واحد: أن ينقل ويقاير ويستبدل فكرة عابثة بأخرى تماثلها أو قد تكون أخف منها عبثاً، وأن يستعيز عن احتراس بآخر، وعن حظر بآخر، وأن ينجز فعلاً طقسياً محل فعل آخر. في مقدوره إذاً أن يجري تنقلاً في حافزه القهري، لكنه عاجز عن إبطاله. ونقل الأعراض، بحيث تتعد كثيراً عن

شكلها البدائي، هو إحدى السمات الرئيسية لمرضه؛ ومما يسترعي الانتباه، فضلاً عن ذلك، أن التعارضات (الاستقطابات الثنائية) التي تتسم بها الحياة النفسية عادة تتجلى في حالته منفصلة انقساماً جلياً للغاية. وإلى جانب الوسواس ذي المضمون الموجب والسالب، يظهر في المجال العقلي الشك الذي يتأكل شيئاً فشيئاً الأشياء الأكثر ثباتاً بوجه عام. وتكون نتيجة ذلك كله تزايداً مطرداً في التردد والحيرة ونقصاً في النشاط وانحداداً للحرية. وهذا مع أن مريضنا كان فيما سلف رجلاً قوي الشكيمة، جلدأً صبوراً، ذا ذكاء أعلى من المتوسط. كما أنه يكون في غالب من الأحيان ذا مستوى خلقي رفيع وضمير حيّ، وعلى درجة نادرة من الاستقامة. ولعلكم تحذسون بالمجهود الذي لا بدّ من بذله لتتمكن من الاهتداء إلى طريقنا وسط هذه الشبكة المتناقضة من السمات الطبيعية والأعراض المرضية. ولذا لا نطمح في الوقت الحاضر إلا في القليل اليسير: أن نقدر على فهم بعض هذه الأعراض وأن تتمكن من تأويلها.

قد ترغبون في أن تعرفوا سلفاً، وتمهيداً للمناقشة التي ستلي، كيف يتصرف الطب النفسي الراهن حيال مشكلات العصاب الوسواسي. والحق أن المادة التي تتصل بهذا الموضوع هزيلة ضئيلة. فالطب النفسي يخلع أسماء على مختلف ضروب الوسواس، ولكنه لا يقول شيئاً أكثر من ذلك بخصوصها. وبالمقابل، إنه يلجّ على كون حاملي هذه الأعراض من «المنحطّين». وهذا تأكيد لا يقنع ولا يشفي غليلاً: فهو ليس تفسيراً، بل حكم قيمة، إدانة. صحيح أن الأشخاص الذين يشذّون عن المألوف يمكن أن تصدر عنهم أغرب الأفعال، ونحن لا نماري في أن الأفراد الذين تظهر عليهم أعراض من نوع أعراض العصاب الوسواسي لا بدّ أن تكون الطبيعة قد حبتهم بجيلة مغايرة لجيلة سائر الناس. لكننا سنتساءل: هل هم أكثر «انحطاطاً» من غيرهم من العصبيين، كالمهسترين مثلاً والمرضى المصابين بضروب الذهان PSYCHOSES؟ إن هذا التوصيف مسرف بلا مراء في عموميته. بل ربما كان جائزاً لنا أن نتساءل إن كان له ما يبرره، متى ما علمنا أن هذه الأعراض يمكن أن تظهر لدى أشخاص ممتازين، لهم مكانة اجتماعية رفيعة. وبوجه عام، نحن لا نعرف إلا النزر اليسير عن الحياة الحميمة لرجالنا

العظام: ومردّ ذلك إلى تكثّمهم كما إلى حيدان كتاب سيرهم عن جادة الصدق. لكن قد يحدث أحياناً أن يبادر أحد المهوسيين بالحقيقة، نظير إميل زولا^(٨)، إلى تعرية حياته أمام أنظارنا، وعندئذ نعلم ما أكثر العادات القهرية التي كانت تصلية بنارها^(٩).

لقد أوجد الطب النفسي، برسم هؤلاء المميزين المعصومين المتفوقين، صنف «المنحطّين المتميّزين». وما كان بوسعهم أن يفعل خيراً من ذلك. لكن التحليل النفسي أبان لنا أن في قدرته إزالة هذه الأعراض الوسواسية الغريبة بصورة نهائية، مثلما تزال أعراض أخرى كثيرة، وهذا لدى المنحطّين وغير المنحطّين من الناس على حدّ سواء. وقد أفلحت أنا نفسي في ذلك أكثر من مرة.

سأسوق لكم مثالين عن تحليل عرض وسواسي. أحد هذين المثالين أقبسه من معاناة مضى عليها حين من الزمن، لأنني لا أجدر خيراً منه^(١٠). وثانيهما أحدث عهداً. وسأكتفي بهذين المثالين، لأن هذا النوع من الحالات يقتضي إسهاباً في العرض وعدم إغفال لأي تفصيل.

سيدة في الثلاثين في العمر كانت تعاني من ظاهرات وسواسية على جانب كبير من الخطورة، وربما كنت وُفِّقت إلى تفريغ كربها لولا حادث طارئ غادر حكمه بالبطلان على كل ما بذلته من جهد (قد أحدثكم عنه يوماً ما). فمن جملة الأفعال القهرية التي كانت تكرر مراراً في اليوم الواحد فعل يسترعي

٨ - إميل زولا: من أشهر كتاب فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ١٨٤٠ - ١٩٠٢. رائد المدرسة الطبيعية في الرواية. من أشهر مؤلفاته آل روجون ماكار، وهي عبارة عن فسيفساء روائية في عشرين مجلداً تصوّر المجتمع الفرنسي في عهد الإمبراطورية الثانية. وقد خاض في السنوات الأخيرة من حياته معركة الدفاع عن ألفريد دريفوس وكتب في ذلك بيانه الشهير: إني أنهم. «م».

٩ - إ. تولوز^(*): إميل زولا، تحقيق طبي - نفسي، باريس ١٨٩٦.

١٠ - إدوارد تولوز: طبيب نفسي وصحفي فرنسي (١٨٦٥ - ١٩٤٧). والعنوان الكامل لكتابه: إميل زولا، تحقيق طبي - نفسي حول علاقة التفرق العقلي بالمرض العصبي. «م».

١٠ - سرد فرويد هذا المثال الأول عن العصاب الوسواسي لأول مرة سنة ١٩٠٧ في مقال بعنوان الأفعال القهرية والشعائر الدينية نشر في مجلة علم النفس الديني. وانظر ترجمتنا لهذا مقال في إبليس في التحليل النفسي. «م».

الانتباه حقاً. فقد كانت تهرع من غرفتها إلى غرفة أخرى ملاصقة لها، وتقف في موضع محدد أمام المائدة التي تشغل وسط الغرفة، وتنادي خادمتها، وتصدر إليها أمراً ما أو تصرفها من حيث أتت بلا أمر، ثم تكرر عائدة إلى غرفتها على عجل. صحيح أن هذا العرض المرضي لم يكن خطيراً، لكن كان من شأنه أن يثير الفضول. وقد أمكن الوصول إلى تفسيره من طريق موثوق لا يحتمل الشك، وبدون أدنى تدخل من قبل الطبيب. بل لست أرى كيف كان يمكن، لولا ذلك، أن أحُدس بمعنى ذلك الفعل القهري أو أن أستشف أية إمكانية لتأويله. فكلما سألت المريضة: «لماذا تفعلين ذلك؟»، كانت تجيبني: «لا أدري». ولكن بعدما نجحت ذات يوم في التغلب على ونز حادّ للضمير لديها، اهتمت من تلقاء نفسها إلى التفسير على حين غرة وسردت لي تفاصيل الواقعة التي تتصل بهذا الفعل القهري. فقبل أكثر من عشر سنوات كانت تزوجت من رجل يكبرها في السن كثيراً، وفي ليلة الزفاف أصابته عنة. فأمضى الليل وهو يجري من غرفته إلى غرفة زوجته ليجدّد المحاولة، لكن في غير طائل. وفي صبيحة اليوم التالي قال لها مغيظاً: «إنني سأخجل من الخادمة التي ستقوم بترتيب السرير». وعلى الأثر تناول قارورة من الخمر الأحمر، اتفق وجودها في الغرفة، وصبّ محتواها على ملاءة السرير، لكن ليس في المكان المحدد الذي يفترض أن توجد فيه بقع الدم. وفي بادئ الأمر لم أفهم الصلة ما بين هذه الذكري وبين الفعل القهري لدى مريضتي، فقد كان تكرار الانتقال من غرفة إلى أخرى وظهور الخادمة هما الواقعتين اليتيمتين اللتين تمتازان بصلة إلى الموقف الأصلي. لكن المريضة اقتادتني إلى الغرفة الثانية وأوقفتني أمام المائدة، فرأيت على غطاها بقعة حمراء كبيرة. وشرحت لي أنها تقف أمام المائدة في وضع محدد بحيث لا يمكن أن يفوت الخادمة، عندما تناديهما، أن ترى هذه البقعة. وعندئذ زال كل شك لديّ بصدد الوشائج الوثيقة بين مشهد ليلة الزفاف وبين الفعل القهري الراهن. لكن هذه الحالة كانت تتضمن معطيات أخرى كثيرة. فمن الواضح بادئ ذي بدء أن المريضة تنماهى مع زوجها، فتؤدي دوره مقلدة جريه من غرفة إلى أخرى. لكن حتى يكون هذا التماهى تاماً، يتعيّن أن نسلم بأنها تستبدل السرير وملاءته بالمائدة وغطائها. وقد

يبدو لكم ذلك اعتباطياً، لكننا لم ندرس رمزية الأحلام عبثاً. ففي الأحلام أيضاً ينبغي تأويل المائدة التي يكثر ظهورها فيها على أنها بديل عن السرير. وما الزواج إلا اجتماع المائدة والسرير. فليس من العسير أن ينوب واحدهما مناب الآخر.

هكذا يكون قد قام الدليل على أن للفعل القهري معنى؛ فهو يبدو تمثيلاً، تكراراً للمشهد البليغ الدلالة الذي تقدّم وصفه. لكن ليس ثمة ما يرغمنا على أن نقنع بهذا الظاهر؛ فلو أخضعنا الصلات بين ذلك المشهد وبين الفعل القهري لتحليل معقّد فلربما ظفرنا بمعلومات عن وقائع أبعد غوراً، وعن القصد الكامن وراء الفعل القهري بالذات. فثمة هذا القصد تكمن، على ما هو باذ للعيان، في استدعاء الخادمة وتوجيه نظرها إلى البقعة، خلافاً للعبارة التي فاه بها الزوج: «إنني سأخجل من الخادمة». إذًا، فهي إذ تؤدي دور الزوج تصوّره لنا وكأنه لا يخجل من الخادمة، على اعتبار أن البقعة موجودة في مكانها الصحيح. هكذا نرى أن المريضة لم تقنع بمحاكاة المشهد، بل كملته وصحّحته، وجعلته باذي النجاح. لكنها، بعملها هذا، صحّحت الحدث المؤلم الآخر في الليلة المشهودة، أي الحدث الذي أوجب اللجوء إلى الحبر الأحمر: عتة الزوج. إذًا، فمعنى الفعل القهري هو كالآتي: «كلا، ليس ذلك صحيحاً، وما كان له أن يخجل، فهو لم يكن ذا عتة». وكما الحال في الأحلام صوّرت هذه الرغبة وكأنها تحققت في فعل راهن، وامثلت لأمنيته في أن ترى زوجها وقد تغلّب على فشله السابق.

تأييداً لما ذكرته لكم أستطيع أن أسوق لكم كل ما أعلمه بعد عن تلك المرأة. وبعبارة أدق: إن كل ما نعرفه أيضاً بشأنها يؤيد تأويلنا هذا لفعلها القهري الذي هو بحدّ ذاته مستغلق على الفهم. فهذه المرأة تعيش منفصلة منذ أعوام عن زوجها، وتقاوم نيتها في أن تطلب فسخاً شرعياً للزواج. لكن ليس ثمة من مجال بالنسبة إليها للتعتق من زوجها، فهي تشعر أنها مكرهة على أن تقيم على وفائها له، وتحيا معتكفة حتى لا تقع في التجربة، ومن ثم إنها تجد العذر لزوجها وتعظم شأنه في خيالها. بل أكثر من ذلك، فسّر مرضها الدفين والأبعد غوراً يكمن في أنه يتيح لها أن تحمي زوجها من أقاويل الناس، ويرر عدم معيشتها تحت سقف واحد، ويمكّنها من أن تحيا حياة رغبة وهي منفصلة عنه. هكذا يقودنا تحليل فعل

قهري غير ذي بال مباشرة إلى النواة الخبيثة لحالة مَرَضِيَّة ويميط لنا اللثام في الوقت نفسه عن جزء لا يستهان به من سرِّ العصاب الوسواسي. وقد أطلت الوقوف عن عمد عند هذا المثال لأنه تتوفر فيه شروط ليس لنا أن نتوقع اجتماعها في سائر الحالات. وقد اهتمت المريضة هنا دفعة واحدة إلى تأويل أعراضها، بعيداً عن تدخل التحليل وتوجيهه، وبالارتباط بحادث وقع لا في عهد بعيد من عهود الطفولة، بل في طور كانت فيه المريضة قد أدركت أوج النضج، ثم استقرَّ في ذاكرتها لا يبرحها. والحق أن جميع الاعتراضات التي يوجهها النقد عادة إلى تأويلاتنا للأعراض تتحطم على صخرة هذه الحالة وحدها. وغني عن البيان أنه لا تتاح لنا على الدوام فرصة الوقوع على أشباه هذه الحالات.

كلمة أخرى قبل أن أنتقل إلى الحالة التالية. ألم يسترع انتباهكم أن ذلك الفعل القهري البريء في الظاهر قد زج بنا في صميم حياة المريضة؟ وهل من شيء أكثر صميمية في حياة المرأة من قصة ليلة زفافها؟ وهل هو مجرد اتفاق عادم الأهمية أن يكون تحليلنا قد زج بنا في صميم حياة المريضة الجنسية؟ من الممكن، بطبيعة الحال، أن أكون قد وُفِّقت توفيقاً كبيراً في اختياري. لكن لنحاذر المسارعة إلى القطع برأي، ولننتقل إلى مثالنا الثاني، وهو من نوع مغاير تماماً، وعينة من طراز كثير الشبوع: الطقس المصاحب لفعل الرقاد.

فتاة جميلة في التاسعة عشرة من العمر، موهوبة كثيراً، ووحيدة لوالديها ومتفوقة عليهما بتعليمهما وحدة ذكائهما. كانت في طفولتها فظة الطباع ومتكبرة، وأضحت في السنوات الأخيرة، ودونما سبب ظاهر، عصبية إلى حدٍّ مرضي. وصارت تبدي أشد سخطها واغتيابها إزاء أمها؛ ثم إنها دائمة التبرم، مكتئبة، ميالة إلى التردد والشك، وانتهى بها الأمر إلى الإقرار بأنها ما عادت تجرؤ على اجتياز المساحات والشوارع الفسيحة بمفردها. وحالتها هذه حالة مَرَضِيَّة معقدة تحتل تشخيصين اثنين على الأقل: رهاب الأماكن المفتوحة AGORAPHOBIE والعصاب الوسواسي. ولن نتوقف مطولاً عند هذه النقطة: فالشيء الوحيد الذي يعيننا في حالة هذه المريضة الطقس الذي تؤديه ساعة تهمّ بالنوم والذي هو مصدر حزن وكرب لوالديها. من الممكن القول، بمعنى من المعاني، إن كل شخص سويّ

له طقسه الخاص للنوم أو إنه يحرص على أداء بعض الأفعال التي لا يستطيع نوماً إذا لم ينفذها؛ إذاً، فهو يحيط الانتقال من حالة اليقظة إلى حالة النوم ببعض الشكليات التي يكررها حرفياً كل ليلة. غير أن كل الشروط التي يحيط بها الإنسان السوي النوم تبقى قابلة للفهم عقلياً، وإذا ما فرضت عليه الظروف الخارجية تغييراً ما، تكيف معه يسر وسهولة ومن دون تضيق للوقت. لكن الطقس المرضي المنشأ تعوزه المرونة، وهو يفرض نفسه فرضاً ولو لقاء تضحيات باهظة، ويعرف كيف يحتمي خلف أسباب معقولة في الظاهر، ولا يبدو عند الفحص السطحي أنه يتميز عن الطقس السوي إلا بالدقة المسرفة في أدائه. لكن إذا تعمقنا في الفحص لاحظنا أن الطقس المرضي ينطوي على شروط لا يبررها أي سبب، وعلى شروط أخرى مجانية، بمنتهى الجلاء، للعقل. إن مريضتنا تبرر الاحتياطات التي تتخذها ليلاً بأنها تحتاج إلى الهدوء كيما يمكنها النوم، ومن ثم لا بد أن تستبعد كل ما من شأنه أن تصدر عنه ضوضاء. وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ كل ليلة قبيل الرقاد، الاحتياطين التاليين: توقف أولاً ساعة الحائط الكبيرة الموجودة في غرفتها عن العمل وتبعد جميع الساعات الأخرى عن غرفتها حتى من دون أن تستثنى ساعة يدها الصغيرة الموضوعة في حَقٍّ من الجلد، وتجمع ثانياً على مكتبها جميع أصص الزهر والأوعية وترتبها بعناية حتى لا يقع أي منها ليلاً فيوقظها من نومها. وهي تعلم حَقٍّ العلم أن الحاجة إلى الرقاد لا تبرر هذه التدابير إلا ظاهرياً، وتدرك أن ساعة اليد الصغيرة الموجودة في حَقِّها لا يمكن أن تعكر صفو نومها بتكثرتها؛ ونحن نعرف جميعاً بالتجربة أن التكنكة الرتيبة والمنتظمة لساعة الحائط لا تعكر صفو النوم، بل على العكس تيسره. وهي تسلّم، علاوة على ذلك، بأن الخوف من وقوع أصص الزهر والأوعية من تلقاء نفسها ليس له ما يبرره في الواقع. أما شروط الطقس الأخرى فلا تمتّ بصلة إلى الحاجة إلى الرقاد. بل على النقيض من ذلك: فالمریضة تتطلب مثلاً أن يبقى الباب الذي يفصل غرفتها عن غرفة والديها منفرجاً، وتوصلاً إلى ذلك تثبت الباب المفتوح بأغراض شتى، وهو احتياط من شأنه أن يصدر ضوضاء، ولولاه لما كان ثمة من احتمال في حدوث هذه الضوضاء. لكن أهم الاحتياطات هي تلك التي تتعلق بالسرير ذاته. فالوسادة

الموجودة في رأس السرير لا يجوز أن تلتصق بعارضته الخشبية. ومخدة الرأس الصغيرة يجب أن توضع فوق الوسادة الكبيرة على شكل معين، والمريضة تضع رأسها في اتجاه المنصف الطولاني لهذا المعين. أما اللحاف المحشو بالريش فلا بد أن يُنفذ مسبقاً بحيث يغدو طرفه السفلي الذي يلامس قدميها أسمك من طرفه العلوي. غير أنها لا تكاد تنتهي من فعل ذلك حتى تفعل عكسه وتسوي اللحاف بحيث لا يعود فيه طرف أسمك من طرف.

سأعفيكم من التفاصيل الأخرى في هذا الفعل الطقسي، فهي في أغلبها ذات دقة مسرفة ولا تضيف إلى علمنا شيئاً جديداً، هذا إن لم تباعد الشقة بيننا وبين الهدف الذي نضعه نصب أعيننا. لكن أودّكم أن تعلموا أن ذلك كله لا يتم بالسهولة والبساطة التي قد تتصورون. فمريضتنا تتخوف على الدوام من ألا تفعل كل شيء بعناية كافية: فكل فعل ينبغي أن يضبط ضبطاً محكماً وأن يكرر مراراً، وكل تدبير احتياطي يبقى أسير الشك والارتياب، وجميع هذه الأفعال تستغرق ساعة أو ساعتين لا يتأتى فيهما النوم للفتاة ولا لوالديها المرتاعين.

إن تحليل جميع ضروب الإزعاج والتنغيص هذه لم يكن سهلاً سهولة تحليل الفعل القهري لدى مريضتنا السابقة. فقد وجدتني مكراً على أن آخذ بيد الفتاة وأن أقترح عليها مشاريع للتأويل كانت ترفضها كلها بنفي قاطع أو لا تستقبلها إلا بشك وازدراء. غير أن رد الفعل الرفضي الأول هذا أعقبه طور أولت فيه الفتاة نفسها اهتماماً للاحتتمالات التي اقترحتها عليها، فراحت تسعى إلى استحضار ما يمكن استحضاره من خواطر ومتداعيات بصدد هذه الاحتمالات، وتسترجع ذكريات، وتعيد بناء وقائع وأحداث، وفي نهاية الأمر قبلت بجميع تأويلنا، ولكن بعد أن أعادت صياغتها بنفسها. وطرذاً مع تقدم هذا العمل، كان إسرافها في التدقيق في تنفيذ أفعالها القهرية يخفّ رويداً رويداً، وتخلّت عن جملة طقوسها حتى قبيل انتهاء المعالجة. وينبغي أن تعلموا أيضاً أن العمل التحليلي، كما نزاوله اليوم، لا يتوقف عند كل عرض على حدة إلى أن ينجلي تمام الانجلاء. بل نضطر في كل لحظة وأن إلى أن نغض الطرف مؤقتاً عن موضوع أو آخر، لثقتنا بأننا سنلتقيه ثانية عند تطرّفنا لموضوعات أخرى. وعلى هذا، إن تأويل الأعراض الذي

سأقدمه إليكم اليوم هو تركيب الجملة من النتائج التي اقتضانا جمعها أسابيع وشهوراً بالنظر إلى أنه كان يتعين علينا أن نقوم أثناء ذلك بأعمال أخرى.

لقد أخذت مريضتنا تفهم رويداً رويداً أنها إن كانت لا تطيق وجود ساعة الحائط في غرفتها ليلاً، فذلك من حيث هي رمز تناسلي مؤنث. فساعة الحائط، التي نعرف لها تأويلات رمزية أخرى أيضاً، تؤدي دور الرمز التناسلي المؤنث بالنظر إلى انتظامية عملها وتوقيته الدوري على فترات متساوية^(١). وكثيراً ما قد تتباهى المرأة بالقول إن طمئنتها منتظم كالساعة. لكن ما كانت تخشاه مريضتنا في المقام الأول هو أن تعكر عليها تكتكة الساعة نومها. فهذه التكتكة يمكن أن تعدّ تمثيلاً رمزياً لبض البظر أثناء التهييج الجنسي. وبالفعل، كثيراً ما كان أيقظها من نومها هذا الإحساس الممض؛ والخوف من انتعاض البظر هو الذي جعلها تستبعد من جوارها في الليل جميع الساعات التي تعمل، علاوة على إيقاف ساعة الحائط. وأصص الزهر والأوعية، مثلها مثل سائر الآنية، رموز مؤنثة هي الأخرى. وعلى هذا، إن الخوف من احتمال سقوطها ليلاً وتحطمها ليس خلوّاً من كل معنى. وأنتم تعرفون تلك العادة الشائعة: عادة كسر وعاء أو صحن عند عقد الخطوبة، واستحواذ كل رجل من الحضور على شظية منه، وهذا ما يتعين علينا تفسيره، بالرجوع إلى مرحلة الزواج ما قبل الأحادي، على أنه عزوف عن الحقوق التي يمكن أن تكون لكل رجل، أو التي يتصور أنها له، على المخطوبة. وكانت الفتاة تربط هذا الجزء من فعلها الطقسي بذكرى محددة وبعده من الخواطر. فقد وقعت أرضاً في طفولتها، وهي تمسك بيدها وعاء من زجاج أو من خزف، فجرح أصبعها ونزف منه دم كثير. فلما شبت عن الطوق وأحاطت علماً بحقائق العلاقات الجنسية، استبدّ بها خوف وقلق من أن لا تنزف ليلة زفافها، فيتوَلَّد شك في ذهن زوجها في عذريتها وبكارتها. إذاً فلاحتيطات التي تتخذها للحؤول دون انكسار الأوعية هي وسيلة لتدفع عن نفسها كل العقدة المتصلة بالباكارة والتزيف الذي لا بدّ أن يعقب المعاشرة الجنسية الأولى؛ وسيلة للتخلص من خوفها من أن تنزف كما من خوفها - على العكس - من ألا تنزف. أما

١١ - معلوم أن ساعات الجيل الأول كانت ذات نابض يُرَضّ ويعاد رَضّه كل أربع وعشرين ساعة. «م».

احتياجاتها من الضوضاء فليس لها إلا صلة بعيدة بمسعاها إلى انقواء الأصوات، وإن عزتها إليها أصلاً.

لقد كشفت عن المعنى المركزي لطقسها يوم فهمت على حين بغتة ما السبب الذي يحملها على ألا تريد أن تتصل الوسادة بعارضة السرير الخشبية، إذ قالت: إن الوسادة هي على الدوام امرأة، بينما عارضة السرير القائمة رجل. وعلى هذا فهي تريد، بعمل من أعمال السحر - إن جاز لنا إدراج هذه الملاحظة - أن تفصل بين الرجل والمرأة، أي أن تمنع والديها من الاتصال الجنسي. وكانت قد سعت، قبل أن يستحوذ عليها طقسها بزمان طويل، إلى بلوغ الهدف نفسه بطريقة مباشرة أكثر. فقد كانت تتظاهر بالخوف أو تتذرع بخوف فعلي كيما ترغم والديها على أن يتركا الباب الذي يفصل غرفة نومهما عن غرفتها مفتوحاً أثناء الليل. وقد حافظت على هذا الإجراء في طقسها الراهن. وبذا أتاحت لنفسها الفرصة لمراقبة والديها، ومن شدة توقها إلى الاستفادة من هذه الفرصة جلبت على نفسها أرقاً دام عدة أشهر. وما كفاها أن تزعج والديها على هذا النحو، بل توصلت أيضاً إلى الفوز بالحق في أن تدس نفسها بين الحين والآخر في سريرهما، بين الأم والأب. وعندئذ ما كان يمكن فعلاً لـ «الوسادة» و«عارضة السرير» أن تلتقيا. ولما شئت أخيراً عن الطوق، وبات متعذراً عليها أن تنام مع والديها من دون أن تضايقهما وتضايق نفسها، صارت تتفنن في اصطناع الخوف لتجبر أمها على أن تخلي لها مكانها بجوار الأب وتأتي لتنام في سريرها هي. وهذا الموقف كان بكل تأكيد منطلقاً لبعض الأخاييل التي نلمس أثرها اللاحق في طقسها.

فإن تكن الوسادة رمزاً مؤنثاً، فإن فعل نفص اللحاف إلى أن يتكدس كل الريش في قسمه السفلي ويحدث فيه انتفاخاً له بدوره معنى: فهو يشير إلى إحيال المرأة. غير أن مريضتنا كانت لا تلبث، بتسويتها ريش اللحاف، أن تبطل هذا الحبل، لأنها عاشت سنوات عديدة في خوف من أن يتمخض الاتصال بين والديها عن طفل جديد يكون منافساً لها ومزاحماً. وبالمقابل، إن تكن الوسادة الكبيرة كرمز مؤنث تمثل الأم، فإن مخدة الرأس الصغيرة لا يمكن أن تمثل إلا الابنة. فلم كان يتوجب أن توضع المخدة على الوسادة بحيث ترسم عليها شكل

معين، ولم كان يتعين أن تضع مريضتنا رأسها باتجاه القطر المنصف لهذا المعين؟ لأن المعين يمثل شكل الجهاز التناسلي عند المرأة حين يكون منفرجاً. إذا فهي التي تقوم بأداء دور الذكر، مستبدلة الجهاز التناسلي المذكور برأسها (انظر: «قطع الرأس كتمثيل رمزي للخصاء»)^(١٢).

قد تقولون لي: ما أبأسها من أفكار تلك التي بزغت في رأس هذه الفتاة العذراء! أنا أوافقكم على ذلك، لكن لا تنسوا أنني لم اخترع هذه الأفكار من عندي، بل اكتفيت بتأويلها. والطقس الذي وصفته لكم غريب هو الآخر في نوعه، وثمة تطابق لا أظنه خفي عليكم بين هذا الطقس وبين الأخاييل التي كشف لنا التأويل النقاب عنها. لكن الأهم من ذلك كله أن تفهموا أن الطقس المشار إليه قد استوحته الفتاة لا من أخيلة واحدة يتيمة، وإنما من عدد كبير من الأخاييل التي تتلاقى جميعها في نقطة العقدة. وأرجح الظن أنكم انتبهتم أيضاً إلى أن تفاصيل هذا الطقس تترجم الرغبات الجنسية تارة باتجاه إيجابي وطوراً باتجاه سلبي، إذ تفيد من جهة في تمثيلها ومن جهة أخرى في حماية الذات منها.

كان من الممكن لتحليل هذا الطقس أن يمدنا بعد بنتائج أخرى لو أخذنا بعين الاعتبار الكامل سائر الأعراض التي تتظاهر لدى المريضة. لكن ذلك يتجاوز الهدف الذي رسمناه لأنفسنا هنا. حسبكم إذاً أن تعلموا أن تلك الفتاة كانت تشعر نحو أبيها بانجذاب إيروسي ترجع بداياته إلى طفولتها، وربما كان علينا أن نرى في هذه الواقعة علة موقفها، الذي لا يتميز بوّد كثير، من أمها. وهكذا يكون تحليل هذا العرض قد زج بنا أيضاً في حياة المريضة الجنسية، وهو شيء سيضاءل استغرابنا له كلما تسنى لنا أن نزداد معرفة بمعنى الأعراض العصابية وقصدها.

لقد يئس لكم من خلال مثالين مختارين أن الأعراض العصابية، مثلها مثل الهفوات والأحلام، ذات معنى وأنها وثيقة الارتباط بحياة المرضى الحميمة. ومن المحقق أنني لا أستطيع أن أطلب إليكم تبني أطروحتي هذه بناء على ذينك المثالين

١٢ - يحيل فرويد هنا ضمناً إلى مقاله: «علاقة بين رمز وعرض». هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



وحدهما. لكنكم لا تستطيعون، من جانبكم، أن تطلبوا إليّ أن أسوق إليكم عدداً غير محدود من الأمثلة إلى أن يكتمل اقتناعكم. وبالفعل، ونظراً إلى اضطراري إلى عرض كل حالة بكامل تفاصيلها، فسأجدي محتاجاً إلى خمس ساعات أسبوعياً على مدار السنة الدراسية لكي أجلو لكم هذه النقطة وحدها من نظرية الأعصاب. إذاً فحسبي هذان المثالان إثباتاً لأطروحتي، وأحيلكم، إذا طلبتم المزيد، إلى الكتابات التي نشرت حول هذا الموضوع، وأخص بالذكر التأويل الكلاسيكية للأعراض في الحالة الأولى التي عالجهها د. بروير (الهستيريا)^(١٣)، والتفسير الأخاذة للأعراض الشديدة الإبهام لما يُسمى بالخلل المبكر^(١٤)، وهي تفاسير نشرها ك.غ. يونغ يوم كان هذا المؤلف مجرد محلل نفسي، لا يتطلع إلى أداء دور نبي^(١٥). وأحيلكم، علاوة على ذلك، إلى سائر المقالات التي حفلت بها مذاك مجلاتنا ودورياتنا. والحق أن هذا النوع من الأبحاث لا يشكو من القلة. فتحليل الأعراض العصابية وتأويلها وترجمتها استأثر باهتمام المحللين النفسيين، حتى أهملوا سائر المشكلات الأخرى المتصلة بالأعصاب.

ومن شاء منكم أن يجشّم نفسه عناء الرجوع إلى هذه المراجع، فسيذهل ولا بدّ لوفرة المواد التي جمعت عن هذه المسألة ولمتانتها. لكنه سيصطدم أيضاً بإشكال. فنحن نعلم أن معنى العرض يكمن في صلاته ب حياة المرضى الحميمة. فكلما مال العرض إلى أن يكون متفرداً، تعيّن علينا أن نجد أكثر في تحديد تلك الصلات. والمهمة التي تقع على عاتقنا، حين تواجهنا فكرة بلا معنى وفعلة بلا هدف، أن نهتدي إلى الموقف الماضي حيث كان لهذه الفكرة ما يبررها وحيث كانت تلك الفعلة تخدم هدفاً. إن الفعل القهري لمريضتنا، حين تشب إلى المائدة

١٣ - الإحالة هنا إلى دراسات في الهستيريا. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٤ - الإحالة هنا إلى حول علم نفس الخلل المبكر. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

١٥ - المرة التي يهاجم فرويد بها كارل غوستاف يونغ (١٨٧٥ - ١٩٦١) تتناسب طردياً مع عمق الصداقة التي كانت تجمع بينهما في أول الأمر والتي رشت يونغ لأن يكون يكون خليفة فرويد. لكن ابتداء من عام ١٩١٢ تكرست القطيعة بينهما، وأعاد يونغ، في ما أعاد مراجعته، النظر في مفهوم الليبيدو (الطاقة الحيوية عنده بدلاً من الطاقة الجنسية) وقال بمفهوم اللاشعور الجمعي في مقابل اللاشعور الفردي المتحدد بالبحر الحياتية لطفولة. «م».

وتنادي خادمتها، نموذج مباشر لهذا النوع من الأعراض. لكن غالباً ما نلاحظ أيضاً أعراضاً ذات طابع مغاير تماماً. ويتعيّن علينا أن ننعته بأنها أعراض «نمطية» للمرض، لأنها تكاد تكون واحدة في الحالات طراً، إذ تختفي الفروق الفردية أو تمّحي حتى ليغدو من الصعوبة بمكان ربط هذه الأعراض بحياة المرضى الحميمة أو الاهتمام إلى ما بينها وبين التجربة الفردية المعاشة للأفراد من صلات. والطقس الذي تؤدبه مريضتنا الثانية ينطوي على كثير من تلك السمات النمطية، لكنه يشتمل أيضاً على قدر لا يستهان به من السمات الفردية التي تفسح في المجال أمام تأويل تاريخي - إن جاز القول - لهذه الحالة. على أن جميع المرضى بالعصاب الوسواسي يميلون إلى تكرار أفعال بعينها، وإلى توقيتها بحيث يكون لها إيقاع معلوم، وإلى عزلها بعضها عن بعض. فالكثيرون منهم مصابون بهوس الاغتسال. أما المرضى المصابون برهاب الأماكن المكشوفة AGORAPHOBIE (أو الطوبوفوبيا TOPOPHOBIE، أي رهاب الخلاء)، وهو مرض يتجاوز نطاق العصاب الوسواسي ونطلق عليه اسم الهستيريا الحصرية، فإنهم يكررون برتبة متعبة في الغالب سمات بعينها بحسب تصنيف أمراضهم: خوف الأماكن المحصورة، خوف الميادين الفسيحة المكشوفة، خوف الشوارع والطرق المتراصة على مدّ النظر. ويتراءى لهم أن الحماية تكون متوفرة لهم متى ما صاحبهم شخص من معارفهم أو سمعوا عربة تسير خلفهم. لكن كل مريض منهم يتفرد، من خلال هذه اللوحة المشتركة المتماثلة، بسمات خاصة به، أو بنزوات إن صحّ التعبير تتباين من حالة إلى أخرى أشدّ التباين. ففلان يتوجّس من الشوارع الضيقة، وعلان من الشوارع العريضة. وأحدهما لا يستطيع أن يسير في الشارع إلا إذا كان شبه خاوٍ من السابلة، وثانيهما لا يطمئن له بال إلا إذا كان الشارع يعجّ بالمرّة. والأمر بالمثل في الهستيريا: فعلى الرغم مما تحفل به من سمات فردية، فإنها تزخر أيضاً بخصائص عامة ونمطية كثيرة تجعل من الصعوبة بمكان، فيما يبدو، إرجاعها إلى تاريخها. لكن لا يغرب عن بالنا أن هذه الأعراض النمطية هي ما نسترشد به في تشخيصنا. فإن وفقنا فعلاً في حالة بعينها من حالات الهستيريا إلى ردّ عرض نمطي إلى تجربة معاشة شخصية أو إلى سلسلة من تجارب

وخبرات شخصية مماثلة، كأن نردّ مثلاً القيء الهستيري إلى سلسلة من انطباعات باعثة على الغثيان، فإن الأمر يسقط في أيدينا بالمقابل ويرتج علينا حين يكشف لنا التحليل في حالة أخرى من حالات القيء عن دور مفترض لسلسلة أخرى من التجارب والخبرات الشخصية مغايرة تماماً في طبيعتها. وعندئذ نجدنا ميالين إلى التسليم بأن ظاهرات التقيؤ لدى الهستيريين ترجع إلى علل نجهلها، على اعتبار أن المعطيات التاريخية التي يكشف عنها التحليل لا تعدو أن تكون محض ذرائع وتعلّات تستغلها، متى ما سنحت الفرصة، تلك الضرورة النفسية الباطنة.

هكذا ننتهي إلى النتيجة المنيطة التالية وهي أنه إذا أتيح لنا أن نظفر بتفسير مقنع لمعنى الأعراض العصائية الفردية على ضوء صلتها بالتجربة الحياتية للمريض، فإن فئنا لا يسعفنا بالمقابل في الاهتداء إلى معنى الأعراض النمطية، وهي الأكثر تواتراً وشيوعاً بكثير. فضلاً عن ذلك، إني لم أطلعكم على كل الصعوبات التي نصطدم بها إن أردنا مواصلة التأويل التاريخي للأعراض إلى نهايته. وسأمتنع عن تعداد هذه الصعوبات، لا رغبة مني في تجميل الأشياء أو في إخفاء ما هو غير مستحبّ منها عنكم، وإنما لأنني لا أريد تثنيط هممكم أو إيقاعكم في بلبلة وتشويش من بدء دراستنا المشتركة هذه. صحيح أننا لم نخطُ بعد إلا الخطوات الأولى في طريق تفهم ما تعنيه الأعراض، لكن علينا أن نقنع مؤقتاً بما ظفرنا به من نتائج، فلا نتقدم إلا على مهل في اتجاه المجهول. إذاً سأحاول أن أسري عنكم بإنباؤكم أنه من العسير التسليم بوجود فارق أساسي بين هذين النوعين من الأعراض. فإن تكن الأعراض الفردية مرتبهة بلا جدال بالتجارب التي عاشها المريض، فمن المباح لنا الافتراض بأن الأعراض النمطية قابلة لأن تُردّ إلى تجارب حياتية نمطية هي الأخرى، أي مشتركة بين الناس كافة. كما أن السمات الأخرى التي تلحظ باطراد في الأعصبة يمكن أن تكون استجابات عامة تفرضها قهرياً على المرضى طبيعة التشوّهات المرضية بالذات، كالتكرار والشك على سبيل المثال في حالة العصاب الوسواسي. زبدة القول، ليس ثمة من دافع للاستسلام للمنوط قبل أن نعرف النتائج التي يمكن أن نظفر بها لاحقاً.

لقد واجهنا في نظرية الحلم إشكال مماثل، وإن لم يتسنّ لي أن أتكلّم عنه في

أحاديثنا السابقة عن الحلم. فالمضمون الظاهري للأحلام ينطوي على تنوعات وفروق فردية كبيرة، وقد أسهبتنا في بيان ما يمكن أن نستخلصه بواسطة التحليل من هذا المضمون. لكن إلى جانب هذه الأحلام توجد أحلام أخرى بوسعنا أن نصفها بدورها بأنها «مغطية»، وهي تحدث على نحو متماثل لدى الناس قاطبة. إنها أحلام ذات مضمون أحادي الشكل، والصعوبات التي تنصبها في وجه التأويل واحدة: أحلام يرى فيها النائم أنه يسقط أو يطير أو يخلق أو يسبح، وأحلام يشعر فيها بأن ثمة ما يكبله ويعيقه أو يرى فيها نفسه عارياً، وغير ذلك من أحلام حصّرية تحتل تأويلات مختلفة باختلاف الأشخاص، من دون أن نهتدي في الوقت نفسه إلى سرّ رتابتها ومغطية حدوثها. لكننا نلاحظ أن الأساس المشترك لهذه الأحلام يُبعث من جديد كل مرة من خلال إضافات متغيّرة تبعاً للأفراد. ومن المرجّح أننا لو توسّعنا في تصوراتنا لأفلحنا في إدراجها، دون قسر أو غضب، في فهمنا للحياة الحلمية كما تحصّل لنا من خلال دراستنا الأحلام الأخرى.

المحاضرة الثامنة عشرة

التثبيت على فعل رَضِيَ - اللاشعور

سيداتي سادتي، قلت لكم في ما تقدم إنني أريد الانطلاق، كيما نوالي بحثنا، لا من شكوكنا، بل من معطياتنا المكتسبة. والحال أننا لم نتحدث بعد البتة عن أهم نتيجتين يمكن استخلاصهما من التحليلين اللذين سقتهما لكم في المحاضرة السابقة كنموذجين.

أولاً: تترك كتنا المريضتين لدينا انطباعاً بأنهما مَثْبَتان، إن جاز القول، على شطر محدّد من ماضيهما، لا تستطيعان منه فكاكاً، وأنهما غريبتان بالتالي عن الحاضر والمستقبل. إنهما معتصمتان بمرضهما مثلما كان الناس يلوذون بالأديرة هرباً من مصير تعمس. فلدى مريضتنا الأولى كان الزواج الذي لم يستكمل جنسياً علة كل شقائها. وعن طريق أعراضها تواصل علاقتها مع زوجها، وفيها نسمع الأصوات التي تنتصر له وتنافح عنه وتقبله من كبوته وتحتسر على فقده. وبالرغم من أنها لا تزال شابة وقابلة لأن تكون مشتهة من رجال آخرين، فإنها تلجأ إلى كل الاحتياطات الواقعية والخيالية (السحرية) لتحفظ عهده وتبقى على وفائها له. فهي لا تظهر للغرباء، وتهمل مظهرها، وتجذ عناء في النهوض عن المقعد الذي تجلس عليه، وتردد في توقيع شيء باسمها، وتعجز عن تقديم هدية لأحد، بحجة أنه لا يجوز لأحد أن يحوز منها شيئاً.

أما مريضتنا الثانية، الصبية، فإن التعلق الإيروسى بأبيها، الذي أفصح عن نفسه في سنوات ما قبل بلوغها، هو ما كان له حاسم الأثر في حياتها اللاحقة. وقد استخلصت من حالتها نتيجة مؤداها أنها لن تستطيع أن تتزوج ما دامت مريضة. لكن لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاشتباه بأنها لم تمرض إلا لكيلا تتزوج ولكي تبقى بجوار أبيها.

ولا يجوز لنا أن نهمل سؤالاً محدداً، وهو أن نعرف كيف وبأي وسائل ولأي دوافع يمكن للإنسان أن يقف مثل هذا الموقف الغريب والخاسر من الحياة؟ وهذا على فرض أن هذا الموقف صفة عامة للعصاب، وليس صفة خاصة بمرضىتنا. وبالفعل، إن هذه سمة مشتركة بين جميع الأعصاب، ولها دلالتها الكبيرة من وجهة النظر العملية. ولقد كانت مريضة بروير المهسترة الأولى مثبته هي الأخرى على الزمن الذي كانت تعتني فيه بوالدها عقب إصابته بمرض خطير. ومنذئذ، وبالرغم من شفائها، صفت حسابها إن جاز التعبير مع الحياة. وصحيح أنها استردت عافيتها والقدرة على القيام بجميع وظائفها بصورة طبيعية، إلا أنها أعرضت عن المصير الطبيعي لكل امرأة. ونستطيع أن نلاحظ، عندما نحلل كل واحد من مرضانا، أن أعراضه المرضية والعواقب التي تنجم عنها تردّء إلى طور محدّد من ماضيه. وفي غالبية الحالات يختار المريض لهذا الغرض مرحلة مبكرة جداً من حياته، وبالتحديد طفولته الأولى، بل حتى المرحلة التي كان فيها رضيعاً، مهما بدا لكم ذلك باعثاً على الاستغراب.

إن الأعصاب المسماة بالرَضِيَّة TRAUMATIQUES، التي تواتر ظهورها في أثناء الحرب الدائرة في أيامنا هذه، تقدّم لنا أول مماثلة مع الأعصاب التي نتحدث عنها هنا. ومن المؤكد أننا كنا نلتقي قبل الحرب حالات من هذا القبيل إثر كوارث السكك الحديدية وغيرها من الفواجع المريعة. لكن الأعصاب الرَضِيَّة لا يمكن في الواقع أن تماثل تمام المماثلة الأعصاب التلقائية التي نخضعها عادة للفحص وللعلاج التحليلي، والتي لم يتسنّ لنا بعد أن نصنفها وفق معاييرنا، وأمل أن أتمكن من تعليل ذلك لكم ذات يوم. بيد أن بين هذين النوعين من الأعصاب تشابهاً تاماً بصدد نقطة واحدة: فالأعصاب الرَضِيَّة تثبت على اللحظة التي وقع فيها الحادث الراض. فهؤلاء المرضى يسترجعون في أحلامهم باطراد الموقف الراض؛ والحال أننا نلاحظ في الحالات التي تصحبها نوبات ذات شكل هستيري وقابلة للتحليل أن كل نوبة تعادل استعادة كاملة لذلك الموقف. فلكنّ المرضى ما زالوا يواجهون الموقف الراض إياه، ولكأن هذا الموقف يطرح نفسه عليهم كمشكلة راهنة، مليحة. ونحن ننظر بعين الجِدِّ إلى تصورهم هذا: فهو يدلنا إلى

الطريق إلى تصور اقتصادي، إن جاز القول، للسيرورات النفسية. بل إن لفظ الرضة نفسه ليس له من معنى غير المعنى الاقتصادي. فنحن نطلق هذا الاسم على حدث معاش يتسبب، في هنيهة من الزمن، في إحداث تنبيه فائق الشدة في الحياة النفسية بحيث يغدو من المستحيل إلغاؤه أو امتصاصه بالطرق السوية، مما يترتب عليه خلل دائم في الاشتغال الوظيفي للطاقة النفسية.

إن هذا التشابه يحدونا إلى إطلاق الصفة الرضية على الأحداث والخبرات المعاشة التي يبدو مرضانا العصبيون مثبتين عليها. وهكذا نظفر بشرط في منتهى البساطة للإصابة العصابية: فالعصاب يمكن أن يُشَبَّه بإصابة رضية، وقابل لأن يُفسَّر على هذا الأساس بعجز المريض عن الاستجابة بكيفية سوية لتجربة معاشة ذات شحنة انفعالية عالية. وهذا شبيه بما قلناه بالفعل في أول صيغة لخصنا فيها بروير وأنا في ١٨٩٣ - ١٨٩٥ نتائج ملاحظتنا الجديدة^(١). وإن حالة كحالة مريضتنا الأولى، أي المرأة العصبية المنفصلة عن زوجها، تتمشى تماماً مع هذه النظرة. فالجرح المعنوي الذي أصابها من جراء عدم استكمال زواجها لم يلثم قط، فبقيت مغلوطة إلى هذه الرضة. لكن حالتنا الثانية، حالة الفتاة المتعلقة بإروسياً بأبيها، تدل أن صيغتنا ليست على درجة كافية من الاستيعاب. فحب بنت صغيرة لأبيها حدث شائع جداً وشعور سهل جداً الظهور عليه، بحيث أن إطلاق صفة «الرضية» على هذه الحالة قد يبدو عادم المعنى. هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى فإنه يتضح لنا من تاريخ المريضة أن ذلك التثبيت الإيروسي الأول كان في بادئ الأمر ذا طابع بريء لا ضير منه، ولم يفصح عن نفسه في أعراض العصاب الوسواسي إلا في زمن متأخر جداً. إذاً فنحن نتوقع أن تواجهنا هنا تعقيدات، إذ إن شروط الحالة الرضية أكثر تعقيداً وتنوعاً مما كنا نفترض، لكن يقيننا يبقى راسخاً بأن وجهة النظر الرضية لا يجوز أن تُنحَى جانباً كما لو أنها مغلوطة: وكل ما هنالك أنها قد تشغل موقعاً آخر وتحتل مرتبة أخرى.

١ - الإشارة هنا إلى كتاب: دراسات في الهستيريا الذي كتبه بروير بالتعاون مع فرويد والذي كان مداره على تحليل حالة مريضة بروير أنا أو، وهو الاسم المستعار ليرتا باننهايم المناضلة النسوية مؤسسة «رابطة النساء اليهوديات». «م».

إذا سنتكّب من جديد عن الطريق الذي كنا نسلكه. فهو أولاً لا يمضي بنا إلى أبعد مما وصلنا إليه، وعلينا ثانياً أن نلّم بأشياء أخرى كثيرة قبل أن نتمكن من مواصلة سيرنا فيه إلى نهايته الصحيحة. وقبل أن نترك موضوع التثبيت عند مرحلة محددة من الماضي، لنلاحظ أيضاً أن هذه الواقعة تتخطى حدود العصاب. فصحيح أن كل عصاب يشتمل على تثبيت من هذا النوع، لكن لا يفضي كل تثبيت بالضرورة إلى العصاب، ولا يلتبس بالعصاب، ولا يشقّ طريقه خلسة في مجرى العصاب. ويقدم لنا الحِداد مثلاً أحاداً على تثبيت وجداني على جانب ما من الماضي، فضلاً عن الإشاحة عن الحاضر والمستقبل. لكن الحِداد يتميز، حتى في نظر عامة الناس، تميّزاً جلياً عن العصاب. وبالمقابل، هناك أعصبة يمكن اعتبارها شكلاً مَرَضِيّاً من أشكال الحِداد.

قد يتفق أيضاً أن يصيب الناس، من جراء حادث راضٍ يزعزع أسس حياتهم بالذات، هبوط شديد، فيعزفوا عن كل اهتمام بالحاضر والمستقبل وتثبيت كل ملكات كيانهم النفسي على الماضي. لكن هؤلاء المنكودين لا يتحولون بالضرورة إلى عصايين. لذا لن نغلو في قيمة هذه السمة في معرض توصيفنا للعصاب، مهما تكن أهميتها ومهما يطرد تظاهر العصاب بها.

ثانياً: لنتنقل الآن إلى النتيجة الأخرى لتحليلنا، وهي نتيجة لا نجد داعياً لنحيطها، كما فعلنا مع الأولى، بأي تقييد لاحق. لقد قلنا عن مريضتنا الأولى إن فعلها القهري كان مجرداً في الظاهر من المعنى، ثم لما رأينا ما الذكريات الحميمة التي استرجعتها من حياتها بصدده وفحصنا الصلات التي قد تكون قائمة بين هذا الفعل وهذه الذكريات، اكتشفنا من طبيعة هذه الأخيرة غرض الفعل القهري وقصده. غير أننا أغفلنا آنذاك إغفالاً تاماً نقطة تفصيلية تستأهل منا أن نعيها أوفى الانتباه. فلقد كانت المريضة تجهل، وهي تنجز فعلها القهري، أن مرجعها فيه كان إلى ذلك الحادث الذي وقع لها. وما كان الرابط بين هذا الفعل وذلك الحادث يقع في متناول إدراكها، وكانت تنطق بالحق حين تجزم أنها تجهل الدوافع التي تحضها على فعل ما تفعله. لكن ها هو ذا الرابط ينكشف لها على حين غرة تحت تأثير المعالجة، فتقتدر على إطلاعنا عليه. غير أنها ظلت تجهل القصد الذي

من أجله كانت تؤدي فعلها القهري: فقد كانت غايتها أن تصحح حادثة ماضية مؤلمة وأن ترفع زوجها الذي تحبه إلى مستوى أعلى. ولم تتمكن إلا بعد جهد شاق وطويل من أن تفهم وتعترف لي بأن ذلك الدافع قد يكون هو فعلاً السبب الموجب الأوحـد لفعلها القهري.

إن ما أسميناه بـ «معنى» الفعل القهري قد استنبطناه من صلته بالمشهد الذي أعقب ليلة الزفاف البئسة ومن دافع الحب الذي كانت المريضة تكته لزوجها. لكن هذا المعنى كان خافياً على المريضة وهي تؤدي فعلها، فلا تفقه أصل هذا الأخير ولا هدفه. إذاً ثمة سيرورات نفسية كانت تعمل فيها، ولم يكن الفعل القهري إلا من نتاج هذه السيرورات. وكانت تفتن إلى هذا النتاج في مظهره العادي، لكن شروطه النفسية كانت غائبة كلياً عن معرفتها الواعية. وكان مسلكها يشبه كل الشبه مسلك ذلك الرجل الذي نوّمه برنهايم^(٢) مغنطيسياً وأمره بأن يفتح مظلة في قاعة البيان العملي بعد خمس دقائق من استيقاظه، فلما أفاق نقّذ ذلك الأمر من دون أن يتمكن من تعليل فعله. إلى أشباه هذه المواقف يذهب بنا الفكر حين نتكلم عن سيرورات نفسية لاشعورية. ونحن نتحدّى كائناً من كان أن يجد لهذا الموقف تعليلًا علمياً أصحّ من تعليلنا، فإن استطاع غسلنا أيدينا بطيبة خاطر من فرضية السيرورات النفسية اللاشعورية. لكننا بانتظار ذلك ستمسك بها، وسنكتفي بأن نهزّ كتفينا رداً على اعتراض من يعترض علينا بأن اللاشعور ليس له من وجود بالمعنى العلمي للكلمة، وأنه لا يعدو أن يكون باباً للنجاة وصورة مجازية من صور الكلام. والحق أن هذا الاعتراض ينقض نفسه بنفسه في الحالة التي نحن بصدها، وذلك ما دام اللاشعور الذي يريد المنكرون أن ينكروا عليه كل وجود واقعي يتسبب في حدوث ظاهرات لها من الواقعية الملموسة ما للفعل القهري.

إن هذا الموقف عينه يتكرر في جوهره في حالة مريضتنا الثانية. فقد استنّت لنفسها قاعدة لا تخالفها ألا تدع الوسادة تمسّ عارضة السرير، وهي تجد نفسها

٢ - برنهايم (ومعه ليبو): من أطباء مدينة نانسي، كان يعالج مرضاه بالتنويم المغنطيسي، وقد حضر فرويد سنة ١٨٨٩ بعض عروض له كما روى في حياته والتحليل النفسي.

مكرهه على الامثال لهذه القاعدة من دون أن تعرف أصلها أو تعلم ما تعنيه أو تدرك ما الدوافع التي منها تستمد قوتها. وسواء أعدت هذه القاعدة مما لا يؤبه له، أو ازدرتها واثارت عليها، أم عقدت العزم على مخالفتها وعدم الانصياع لها، فذلك كله لا يجدي فتيلاً من منظور تنفيذ الفعل. فهي تشعر بنفسها مدفوعة دفعاً إلى الإذعان والامثال، وعبثاً تسائل نفسها عن السبب. فكيف لنا والحال هذه ألا نتعرف في هذه الأعراض العصائية الوسواسية، في هذه الأحاييل والاندفاعات التي لا يُعلم ما المصدر الذي تنبعث منه والتي تمتنع بشراسة على كل مؤثرات الحياة السوية والتي تظهر للمريض نفسه وكأنها ضيوف قادرون على كل شيء وآتون من عالم غريب، أو كأنها كائنات خالدة جاءت لتزج بنفسها في غمار حياة الكائنات البشرية الفانية، أقول: كيف لا نتعرف فيها دليلاً على وجود منطقة نفسية خاصة، معزولة عن كل ما عداها وعن سائر أوجه نشاط الحياة الداخلية وتظاهراتها؟ إن هذه الأعراض والأحاييل والاندفاعات تقودنا لا محالة إلى الاقتناع بوجود الاشعور النفسي، ولهذا لا يسع الطب النفسي السريري، الذي لا يقرّ إلا بسيكولوجيا الشعور، أن يجد سبيلاً آخر للخروج من هذا المأزق غير أن يعلن أن جميع تلك التظاهرات ليست إلا من نتاج التبله والعتاهة. وغني عن البيان أن الأحاييل والاندفاعات الوسواسية ليست بحد ذاتها لاشعورية، مثلما أن أداء الأفعال القهرية لا يتم خارج نطاق الإدراك الواعي. وما كان لهذه الأحاييل والاندفاعات أن تتحوّل إلى أعراض لو لم تشق طريقها إلى دائرة الشعور. غير أن الشروط النفسية المسبقة التي تصدع بأمرها بحسب ما يدلّنا التحليل، وكذلك الأسيقة التي يتيح لنا تأويلنا أن ندرجها فيها، تكون لاشعورية، أو هي تبقى كذلك إلى أن نجعل المريض يعيها عن طريق عملنا التحليلي.

فإن أضفتم إلى ذلك أن الوضعية التي لاحظناها لدى مريضتنا تتكرر في جميع أعراض الإصابات العصائية، وأن معنى الأعراض يخفى على المريض في الأحوال طراً، وأن التحليل يميّط اللثام دوماً عن أن هذه الأعراض نتاج لسيرورات لاشعورية وقابلة مع ذلك لأن تصبح شعورية في ظروف مؤاتية متنوعة، أدركتم بلا مشقة أن التحليل النفسي لا يسعه أن يستغني عن فرضية الاشعور وفهمتم

لماذا درجنا على التعامل وإياه وكأنه شيء ملموس يقع تحت الإدراك الحسي. وقد تدركون أيضاً أن كل من لا معرفة له باللاشعور إلا باللفظ، ومن لم يمارس التحليل قط، ولم يؤوّل حليماً قط، ولم يبحث عن معنى الأعراض العصابية ومقصدها قط، ليس مؤهلاً للخوض في هذه المسألة. ولنكرر القول مرة أخرى: إن مجرد اقتدارنا على أن نعزو، بالاستناد إلى التأويل التحليلي، معنى إلى الأعراض العصابية لينهض دليلاً لا يدحض على وجود سيرورات نفسية لاشعورية، أو بالأحرى على ضرورة التسليم بوجود هذه السيرورات.

لكن ليس هذا كل شيء بعد. فتمة اكتشاف ثانٍ لبروير، أجده أعظم خطراً وأهمية من الأول - وقد توصل إليه وحده بدون تعاون مع أحد - يزيد من علمنا بالصلات بين اللاشعور والأعراض العصابية. فليس معنى الأعراض هو وحده اللاشعوري بصورة عامة، بل توجد بين هذا الوجود اللاشعوري وبين إمكانية وجود الأعراض علاقة تمثيل متبادل أيضاً. وستفهمون عما قليل ما أرمي إليه. أنا أؤكد إذاً مع بروير: كلما التقينا بعرض من الأعراض تعيّن علينا أن نستنتج وجود سيرورات لاشعورية لدى المريض تنطوي تحديداً على معنى هذا العرض. لكن لا بدّ أن يكون هذا المعنى لاشعورياً بدوره كيما يتظاهر العرض. فالسيرورات الشعورية لا تولّد أعراضاً عصابية، ثم إنه ما إن تنقلب السيرورات اللاشعورية إلى سيرورات شعورية حتى تزول الأعراض وتختفي. وبذلك يفتح أماننا منفذ إلى العلاج، وتتوفر لنا وسيلة لإزالة الأعراض. وعن طريق هذه الوسيلة بالفعل توصل بروير إلى شفاء مريضته المهسترة، أي إلى تحريرها من أعراضها؛ وقد وقع على تقنية أتاحت له أن يستدرج إلى الوعي السيرورات اللاشعورية التي كانت تنطوي على معنى الأعراض، ومن ثم أن يتوصل إلى إزالة هذه الأخيرة.

لم يأت اكتشاف بروير هذا نتيجة لتأمل منطقي، بل لملاحظة سديدة ظفر بها بفضل تعاون المريضة. ولا تسعوا إلى فهم هذا الاكتشاف بإرجاعه إلى واقعة أخرى معروفة من قبل: بل اقبلوه على أنه واقعة أساسية تفسح في المجال أمام تفسير وقائع كثيرة غيرها. لذا أستاذنكم في أن أعرضه لكم في صيغة أخرى. يتكون العرض كبديل عن شيء لم يفلح في التعبير عن نفسه. فبعض

السيرورات النفسية كان يُفترض بها أن تتطور بصورة سوية إلى حدٍّ كافٍ كيما تصل إلى الشعور. ولكن بما أن ذلك لم يحدث، فقد تولّد العرض كنتاج لسيرورات توقف جريانها واختلّت بصورة أو أخرى تطورها فبات مآلها لا محالة إلى اللاشعور. وعلى هذا يكون قد حدث هنا ضرب من التبادل؛ فإن أفلح العلاج في تفكيك عملية التبادل هذه، يكن قد أوفى بما هو مطلوب منه من حيث معالجة الأعراض العصائية.

إن اكتشاف بروير لا يزال إلى اليوم أساس المعالجة التحليلية النفسية. وقد أيدت جميع البحوث اللاحقة الأطروحة القائلة بأن الأعراض تزول حالما تغدو شروطها اللاشعورية المسبقة واعية، وهذا على الرغم من التعقيدات الغريبة اللامرتبقة التي يصطدم بها وضع هذه الأطروحة موضع التطبيق العملي. وتقنيننا العلاجية إنما تقوم على تحويل اللاشعور إلى شعور، وهي لا تصل إلى مبتغاها إلا بقدر ما يتأتى لها فرض هذا التحويل.

اسمحوا لي هنا باستطراد طفيف، الغرض منه أن أحذركم من خطورة تصوّر هذا العمل العلاجي على أنه عملية بالغة السهولة. فالعصاب بحسب ما قلناه حتى الآن هو عقبي لضرب من الجهل، من عدم المعرفة بسيرورات نفسية كان ينبغي أن تكون معروفة. وهذه الأطروحة تذكّرنا كثيراً بالنظرية السقراطية المعروفة التي تقول بأن الرذيلة ذاتها ما هي إلا نتيجة للجهل. والحال أن الطبيب الذي أليف التحليل وتمرس به لن يشقّ عليه بوجه عام على أساس هذا الفرض أن يميّط اللثام عن الخلجات والحوادث النفسية التي بقيت لاشعورية لدى مريض بعينه. ومن ثم سيكون في مستطاعه بسهولة، على أساس الفرض عينه، أن يبرئ مريضه بأن يحزّره من جهله بإطلاعه على ما يعرفه هو. ومن المفروض في هذه الحال أن يكون الطبيب قد تمكن بسهولة من تصفية الشطر الأول من المعنى اللاشعوري للأعراض؛ أما فيما يتعلق بالشطر الثاني المتعلق بالصلات بين الأعراض وخبرات المريض المعاشة فإن الطبيب، الذي لا يعرف هذه الأخيرة، لا يستطيع بطبيعة الحال أن يتحدث بها، ولا مناص له من أن ينتظر أن يتذكرها المريض ويتكلم عنها. لكن من الممكن بصدد هذه النقطة أيضاً الحصول، في بعض الحالات،

على معلومات من مصدر غير مباشر عن طريق استخبار أقارب المريض: فاطلاع هؤلاء على مجرى حياته يتيح لهم في كثير من الأحيان أن يميزوا في الأحداث التي عرّضت له في حياته ما كان منها ذا طابع رضى، بل قد يكون في مكتهم أن يكشفونا بأحداث يجهلها هو نفسه لوقوعها في طور مبكر جداً من طفولته. وبالجمع بين هاتين الطريقتين قد يكون مباحاً للطبيب أن يأمل بالتوصل، في أجل قصير من الزمن وبأدنى قدر من الجهد، إلى النتيجة المنشودة، أي إلى وضع حدّ للجهل الذي عنه نشأ المرض لدى المريض.

لو صحّ ذلك كله لكان في منتهى الروعة! فقد حصّلنا تجارب وخبرات لم نكن على أهبة لها من بادئ الأمر. وكما قال موليير إن هناك خطباً وخطباً^(٣)، كذلك إن هناك علماً وعلماً، وضروباً شتى من المعرفة لا تتعادل جميعها في القيمة السيكلوجية. فمعرفة الطبيب ليست معرفة المريض، ولا يمكن أن تتأتى عنها نتائج واحدة. فحين ينقل الطبيب إلى المريض المعرفة التي حصّلها لا يصيب أي حظ من النجاح. كلا، فليس يصحّ على هذا النحو أن تقال الأشياء. ذلك أن النجاح المحرز لا يتمثل بإزالة الأعراض بل بإطلاق عملية التحليل والتقدم به، وأولى أمارات هذا النجاح هي في غالب من الأحيان الإنكار من جانب المريض. فقد بات المريض يعلم شيئاً كان يجهله من قبل، وهو معنى عرضه، ومع ذلك فهو ما بات يعلمه أكثر مما كان يعلمه قبلاً. وهكذا يتأكد لنا أن هناك ضروباً شتى من عدم المعرفة. ولا بدّ أن يكون المرء طويل الباع في المسائل السيكلوجية حتى يتسنى له تفهم الفروق. غير أن الأطروحة التي تقدمنا بها من أن الأعراض تزول حالما يغدو معناها معلوماً تبقى على كل حال صحيحة. هذا بشرط أن يكون أساس العلم تغييراً داخلياً في نفس المريض، وهو تغير لا يمكن إحداثه إلا بمجهود نفسي متواصل برسم هدف معين. وهنا تواجهنا مشكلات سيتبين لنا عما قليل أن تركيبها يمثل المظهر الدينامي لتكوين الأعراض.

والآن أتوجه إليكم، سادتي، بالسؤال: ألم تجدوا ما ذكرته لكم غامضاً ومعقداً

٣ - كلمة لموليير في مسرحيته طبيب بالرغم عنه ذهبت مذهب القول السائر. ويقصد بها أن التباين ممكن حتى بين أفراد الجماعة الواحدة، أو بين الأشياء المتشابهة. «م».

أكثر مما ينبغي؟ ألم يحيركم إذ رأيتموني أسحب في أكثر الأحيان ما تقدمت به، وأحيط طروحاتي بضروب شتى من التعقيد، ولا أكاد أسلك سبيلاً حتى أنتكّب عنه؟ يؤسفني أن يكون كذلك هو واقع الحال. لكنني لا أحجّذ على الإطلاق التبسيط على حساب الحقيقة، ولست أرى من محذور أن تعلموا أن الموضوع الذي نعالجه متشعب الجوانب وبالغ التعقيد، ولا أرى علاوة على ذلك بأساً في أن أزودكم بصدد كل نقطة بمعلومات تزيد عما يمكنكم الانتفاع به مؤقتاً. وأنا أعرف حق المعرفة أن كل مستمع أو كل قارئ يرتّب الموضوع المعروض عليه في أفكار، ويعمل فيه مبضع الاختصار والتبسيط، ويستخلص منه ما يريد أن يحتفظ به منه. ومن الثابت، إلى حدّ ما، أنه كلما كثرت الأشياء بقي منها قدر كثير أيضاً. فمن المباح لي إذاً أن أمل أن تكونوا قد أفلحتم في تكوين فكرة واضحة عن جوهر ما عرضته لكم، وإن أثقلته بالتفاصيل، أي عن معنى الأعراض، واللاشعور، والصلات ما بين تلك وهذا. وأكبر الظن أنكم حدستم أيضاً بأن جهودنا التالية ستوزع في وجهتين: أن نعرف من جهة أولى كيف يصبح الناس مرضى ويقعون ضحايا عصاب قد يدوم مدى حياتهم، وهذه مشكلة سريرية، وأن نرى من جهة ثانية كيف تتطور الأعراض المرضية بدءاً من شروط العصاب ومقدماته، وهذه مشكلة تتعلق بالدينامية النفسية. ولا بدّ أن تكون هناك على كل حال نقطة تلتقي عندها هاتان المشكلتان.

لا أودّ أن أمضي معكم اليوم إلى أبعد من هذا، لكن بما أنه لا يزال أماناً متسع طفيف من الوقت فسأنتهزه لأوجّه انتباهكم إلى خاصية أخرى في تحليلنا للحالتين المرضيتين الأنفتي الذكر، وهي خاصية لن تدركوا كامل أهميتها إلا لاحقاً: أقصد فجوات الذاكرة أو النسايات AMNESIES. فقد أوضحت لكم أن كل مهمة المعالجة التحليلية النفسية يمكن تلخيصها في الصيغة التالية: تحويل كل المادة اللاشعورية المسبّبة للمرض إلى مادة شعورية. والحال أنه قد يدهشكم أن تعلموا أن هذه الصيغة يمكن الاستعاضة عنها بأخرى: سدّ الفجوات جميعاً في ذاكرة المرضى وتحريرهم من نساياتهم. وهذا مؤداه واحد. إذاً، قد يكون مباحاً لنا أن نفترض أن نسايات العصائين لها دور كبير في تكوين أعراضهم.

لكن لو أمعنتم التفكير في الحالة التي كانت موضوع تحليلنا الأول، لوجدتم أن هذا الدور المعزول إلى النسيان غير مبرر. فالمريضة لم تنسَ المشهد الذي يرتبط به فعلها القهري، بل حافظت على ذكره ناصعة، ولم يكن لأي نسيان آخر من دور في نشوء عرضها. وإن يكن الموقف في حالة مريضتنا الثانية، الفتاة صاحبة الطقس الوسواسي، أقل وضوحاً، فإنه يبقى مع ذلك مشابهاً للموقف الأول إلى أقصى حد. إنها تتذكر هي الأخرى بجلاء، وإن بشيء من التردد ومن التمتع، مسلكها في ماضي الأيام، حين كانت تلجّ كيما يبقى الباب الذي يفصل غرفة نوم والديها عن غرفتها منفرجاً ليلاً وكيما تتنازل لها أمها عن مكانها في فراش الزوجية. والشيء الوحيد الذي قد يثير استغرابنا هو أن المريضة الأولى قامت بفعلها القهري عدداً لا يحصى من المرات من دون أن يتبادر إلى ذهنها قط مع ذلك ما يمكن أن يكون بينه وبين حادثة ليلة زفافها من صلة، وأن ذاكرتها لم تسترجع هذه الحادثة حتى بعد أن وجدت نفسها مكرهة، باستجواب مباشر، على التقيب عن دوافع عملها. وبوسعنا أن نقول الشيء ذاته عن مريضتنا الفتاة الصبية التي تعزو طقسها والظروف التي تستثيره إلى عين الموقف الذي يتكرر ليلاً كما هو. إذاً فالأمر في كلتا الحالتين ليس أمر نسيان بحصر المعنى، أمر غياب الذكريات من الذاكرة، وإنما هنالك فقط انقطاع في الرابطة التي كان يفترض بها أن تتيح للذاكرة أن تسترجع الحادثة وأن تعيد إحياءها. ولكن إن يكن هذا الاضطراب في الذاكرة كافياً لتفسير العصاب الوسواسي، فالأمر ليس بالمثل في الهستيريا. فهذا العصاب الأخير يتميز في أغلب الأحيان بنسيان واسعة النطاق. فعند تحليل كل عرض من الأعراض الهستيرية نكتشف بصفة عامة سلسلة كاملة من خبرات حياتية ماضية يجزم المريض بصريح القول أنه نسيها. وتمتد هذه السلسلة إلى السنوات الأولى من الحياة، بحيث يمكننا اعتبار النسيان الهستيري نتيجة مباشرة للنسيان الطفلية التي تحجب الأطوار الأولى من الحياة النفسية حتى عن الأسوياء من الناس. هذا من جهة، أما من الجهة الثانية فنرى بدهشة واستغراب أن النسيان يمكن أن يطال أيضاً حتى الأحداث القريبة العهد في حياة المرضى، وأن الظروف التي يَـثـرت ظهور المرض أو زادت من حدّته هي بعينها

على وجه التخصيص التي تغيب بصورة كاملة أو جزئية في لجة النسيان. والأغلب وقوعاً أن تختفي التفاصيل الهامة من اللوحة الإجمالية لذكرى قرية العهد من هذا النوع أو أن تحل محلها ذكريات كاذبة. بل قد يحدث أحياناً، إن لم نقل دوماً، أن تبرز قبيل انتهاء التحليل ذكريات معينة مرتبطة بتجربة معاشة قريبة العهد، وهي ذكريات يمكن أن يكون قد مضى زمن طويل على كبتها مع ما يصاحب ذلك بالإجمال من فجوات واسعة في السياق التاريخي.

قلنا إن هذه الاضطرابات الذاكرية سمة مميزة للهستيريا التي من جملة أعراضها أيضاً حالات (نوبات هستيرية) ليس من شأنها أن تترك أي أثر في الذاكرة. وبما أن الأمر غير هذا في العصاب الوسواسي، فلا تثريب عليكم إن استنتجتم من ذلك أن هذه النسيات تؤلف خاصية سيكولوجية للإصابة الهستيرية، وليس سمة مشتركة بين الأعصاب طراً. غير أن أهمية هذا الاختلاف لن نعتم أن تتضاءل على ضوء الاعتبار التالي. فـ «معنى» العرض يمكن أن يفهم بكيفيتين اثنتين: من منظور أصله (من أين؟)، ومن منظور هدفه (إلى أين؟). وبعبارة أخرى، أولاً على ضوء الانطباعات والتجارب المعاشة التي تولد عنها، وثانياً على ضوء القصد الذي يخدمه. إذاً، فأصل العرض يرتد إلى انطباعات جاءت من الخارج، وكانت في وقت من الأوقات شعورية بالضرورة، ثم ما لبثت أن أُمست لاشعورية بفعل النسيان الذي سقطت في لجته. أما هدف العرض (لماذا؟) أو مرماه فهو على العكس، وفي جميع الحالات، سيرورة نفسية باطنة قد يجوز أنها كانت في أول الأمر شعورية، ولكن قد يجوز أيضاً أنها ما كانت قط شعورية وأنها بقيت على الدوام أسيرة اللاشعور. إذاً ليس من المهم غاية الأهمية أن نعرف ما إذا كانت النسيات قد طالت أيضاً الأصل الأول للعرض (من أين؟)، أي التجارب المعاشة التي يتركز إليها هذا العرض، كما الحال في الهستيريا، إذ إن هدف العرض وقصده (إلى أين؟) - وقد يكونان لاشعورين من البداية - هما اللذان يعيّنان تبعية العرض للاشعور، وهذا في العصاب الوسواسي كما في الهستيريا سواء بسواء.

وإنما لأننا عزونا مثل هذه الأهمية إلى اللاشعور في الحياة النفسية ألبنا على

التحليل النفسي أصحاب أخبت العقول النقدية وأسلطهم لساناً. ولا تعجبوا لهذا ولا تحسبوا أن المقاومة التي نقابل بها ترجع إلى صعوبة تصور اللاشعور وإلى استغلاق التجارب ذات الصلة به. فعلى مرّ الأجيال أنزل العلم بكبرياء البشر الساذجة طعنتين نجلاوين. المرة الأولى عندما أثبت أن الأرض ليست مركز الكون، بل لا تؤلف إلا جزيئة زهيدة في المنظومة الكونية التي يكاد يتعذر علينا أن نتصور ضخامتها. وتقترن هذه البرهنة الأولى في أذهاننا باسم كوبرنيكوس^(٤)، بالرغم من أن العلم الإسكندراني كان قد قال بشيء شبيه بهذا^(٥). أما الطعنة الثانية فقد أصيبت بها البشرية على يد المبحث البيولوجي حين حكم بالبطلان على ادعاء الإنسان بأنه يحتل مكاناً متميزاً في تسلسل الخلق، وأثبت تحدّره من السلالة الحيوانية وأماط اللثام عن ثبات طبيعته الحيوانية وعدم قابليتها للفناء. وقد حدثت الثورة الأخيرة هذه في أيامنا، على إثر مباحث ش. داروين^(٦) ووالاس^(٧) ومن سبقهما، وهي مباحث لاقت أضراراً المقاومة من المعاصرين. ويسدّد المبحث السيكلولوجي في أيامنا هذه طعنة ثالثة إلى الصنف البشري، إذ أخذ على عاتقه أن يثبت **للأنا** أنه ليس السيد المطلق في بيته، وأنه لا

٤ - نيقولاوس كوبرنيكوس: راهب وطبيب وعالم رياضي وفيلسوف فلكي (١٤٧٣ - ١٥٤٣). من كبار ممثلي عصر النهضة الأوروبي. أحدث قطعة معرفية كبرى بتوكيده على مركزية الشمس للكون وعلى دوران جرم الأرض في فلكها. «م».

٥ - يشير فرويد هنا إلى المدرسة الفيثاغورية الإسكندرانية، وعلى رأسها أرسطارخوس الساموسي الذي أظهرت له قياساته الهندسية للمسافات بين الأرض والشمس والقمر بطلان نظرية أرسطو القائنة بأن الأرض هي مركز الكون، وأفضت به إلى المناوأة بنظرية تعدّد الشمس مركز الكون. لكن مذهبه لم يلق قبولاً في العصور القديمة واعتبر لاحقاً مخالفاً للمعتقد الديني السائد. «م».

٦ - تشارلز روبرت داروين: عالم وطبيب بريطاني (١٨٠٩ - ١٨٨٢). أحدث ثاني أكبر قطعة معرفية في الثقافة الأوروبية بعد كوبرنيكوس بإرجاعه أصل جميع الكائنات الحية، وفي مقدمتها الإنسان، إلى سلف بدائي مشترك نافعاً بذلك قصة خلق آدم وحواء، مما ألّب عليه عداء الأوساط اللاهوتية. أشهر مؤلفاته بإطلاق **حول أصل الأنواع**. «م».

٧ - ألفريد راسل والاس: جغرافي وأنتروبولوجي وبيولوجي بريطاني (١٨٢٣ - ١٩١٣). كان أول من صاغ نظرية الانتخاب الطبيعي التي سيطّورها تشارلز داروين في كتاب **عن أصل الأنواع**. ولكن نزعة الروحانية تسببت في قطعة بينه وبين أهل العلم في عصره. من أشهر مؤلفاته مساهمات في **نظرية الانتخاب الطبيعي**، وكذلك عن المعجزات والروحانية الحديثة. «م».

خيار له إلا بأن يقنع بمعلومات طفيفة وجزئية عما يجري في حياته النفسية خارج نطاق وعيه^(٨). وليس أصحاب التحليل النفسي هم أول من دعا البشرية إلى التواصل، وإلى التفكير والتأمل، ولا هم وحدهم الذين وجهوا مثل هذه الدعوة، لكن يبدو أنه على عاتقهم وقعت مهمة الترويج لهذه النظرة بأعظم الدأب والاندفاع، وتأييدها بمواد وأدلة مستقاة من التجربة وفي متناول فهم الجميع. ومن هنا كانت تلك الثورة العامة على علمنا، وتخطي المعارضة لكل قواعد الأدب والتهذيب الأكاديمي، وانفلاتها من كل القيود التي يفرضها المنطق اللامتحيز. أضف إلى ذلك كله أن نظرياتنا تهدد بتعكير صفو العالم بكيفية أخرى أيضاً، كما سترون في محاضرة تالية.

٨ - هذه الإذلالات الثلاثة التي ألحقها العلم الحديث بالكبرياء البشري سيستوفي فرويد معالجتها في مقالة منفردة، نشرت في مجلة إيمانغو، المجلد ٥، سنة ١٩١٧، وقد ترجمناها إلى العربية في إبليس في التحليل النفسي بعنوان صعوبة أمام التحليل النفسي. والجدير بالذكر أن نجيب محفوظ اتخذ من هذه الإذلالات الثلاثة موضوعاً لقصته الرائعة: حكاية بلا بداية ولا نهاية. انظر تحليلنا لهذه القصة في كتابنا: الله في رحلة نجيب محفوظ، الأعمال النقدية الكاملة، دار مدارك، ج ١، ص ٢٧٣ - ٣٦٧.

المحاضرة التاسعة عشرة

المقاومة والكبت

سيداتي وسادتي، إذا شئنا أن نكون لأنفسنا عن الأعصاب فكرة أقرب إلى واقع الأشياء، فإننا سنحتاج إلى دراسة وقائع جديدة. والحال أن بين أيدينا واقعيتين لافتتين للنظر، وكانتا مذهشتين للغاية يوم اكتشافهما. ولا أشك في أنكم بتم مهيتين لفهمهما كليهما بعد ما دار بيننا من أحاديث في العام الماضي.

أولاً: إننا حين نتصدى لعلاج مريض بقصد شفائه وتحريره من أعراضه المؤلمة، يواجهنا بمقاومة عنيفة، عنيدة، تدوم طوال فترة المعالجة. وهذه واقعة على درجة من الغرابة تجعلنا نتوقع ألا تحظى من الناس بالقبول والتصديق. ونحن نتحاشى بالفعل أن نذكر شيئاً عنها لأقارب المريض، خشية أن يروا فيها من جانبنا ذريعة لتعلل بها لتبرير طول فترة العلاج أو إخفاقه. والمريض نفسه يبدي جميع مظاهر هذه المقاومة من دون أن يفطن لها، وحين نفلح في حمله على الاعتراف بالمقاومة التي يبديها وعلى أخذها في حسابه نكون قد قطعنا شوطاً غير هين على طريق النجاح. ولكم أنتم أن تتصوروا الأمر: فهذا المريض الذي يعاني أشد المعاناة من أعراضه، والذي يسبب ما يسببه من ألم لأهله، والذي يحتمل نفسه قدراً كبيراً من التضحية، إن بوقته وإن بماله وإن بجهد وعنايته، ليتخلص من أعراضه، كيف لنا أن نهتم بأنه يعاضد مرضه ويؤازره بما يبديه من مقاومة حيال من أخذ على عاتقه أن يشفيه منه؟ ولو جهرنا بهذه الحقيقة فكيف ستبدو له ولذويه مغربة، بعيدة الاحتمال! ومع ذلك، إن الأمر ثابت لا مرية فيه، وحين يعترض علينا أحدهم بعيد الاحتمال هذا، فما علينا إلا أن نجيبه بأن مثل هذا الموقف ليس منعدم النظير: فمثلاً، ما أكثر الأشخاص الذين يأتون إلى طبيب الأسنان

ليخلصهم من ألم لا يطاق في أسنانهم، فإذا ما همّ بآلته ليعالج السنّ المريضة واجهوه بأعنف المقاومة؟

تتظاهر مقاومة المريض في أشكال بالغة التنوع، وعلى جانب كبير من الرهافة والمكر، وغالباً ما يصعب تعرفها. وهي ما يسمّيه الناس الارتياب بالطبيب والحذر منه. ونحن نعتمد في المعالجة التحليلية النفسية إلى تطبيق نفس الخطة التي رأيتموني أطبقتها على تأويل الأحلام. إذ ندعو المريض إلى أن يضع نفسه في حالة يتسنى به فيها أن يلاحظ نفسه بنفسه بدون أفكار مبيّنة، ونحتّه على مكاشفتنا بجميع ما يعتمل في نفسه أو يتوارد إلى ذهنه من مشاعر وأفكار وذكريات، بالترتيب نفسه الذي تتوارد به. وننهاه نهياً صريحاً عن الانسياق وراء أي دافع قد يملّي عليه اختياراً أو استبعاداً لبعض هذه المتداعيات، ونحذّره من الإمساك عن مكاشفتنا بها بحجّة أنها قبيحة أو مقزّزة أو غير مساعة أو عادمة الأهمية أو سخيفة لا معنى لها. ونشدّد عليه ألا يلتفت إلا إلى ما يجري على سطح وعيه، وأن يعرض عن كل نقد، كائناً ما كان، قد يعنّ له أن يوجهه إلى ما يتبادر إلى ذهنه، ونؤكد له ونجزم أن نجاح العلاج، وعلى الأخص مدته، رهن بصدقه في الامتثال لهذه القاعدة التحليلية الأساسية. وقد عرفنا من قبل، بفضل ما ظفرنا به من نتائج من تطبيقنا لهذه الخطة في تأويل الأحلام، أن الخواطر والذكريات التي تستثير أكبر قدر من الشكوك والاعتراضات هي عينها التي تحتوي في العادة على المواد القمينة بأن تعيننا على استكشاف اللاشعور.

النتيجة الأولى التي نتوصل إليها بصياغتنا هذه القاعدة الأساسية من قواعد تقينتنا هي أن المريض يقابلها بالمقاومة. فهذا الأخير يسعى إلى التملص مما تلزمه به تقينتنا بكل الوسائل المتاحة له. فتارة يزعم أنه لا يستشّف أي خاطر أو شعور أو ذكرى، وطوراً يدّعي أن ما يتبادر إلى ذهنه منها كثير حتى ليعجز عن الإمساك بها والاهتداء إلى مبتغاه منها. وعندئذ نلاحظ، بدهشة غير مستحبة، أنه يراجع أمام هذا الاعتراض النقدي أو ذاك: تنمّ عن ذلك وقفاته المطولة التي تتخلل كلامه. وفي نهاية المطاف يقرّ بأنه يعرف أشياء كثيرة لا يسعه التصريح بها، وأنه يخجله الاعتراف بها، وأنه يمتثل لهذا الدافع خلافاً للوعد الذي كان قد قطعه

بألا يمسك شيئاً ويكتمه. أو قد يعترف أيضاً بأنه وجد شيئاً ما، ولكنه شيء يتصل بشخص آخر، فليس يسعه إفشاؤه. أو قد يدعي أيضاً أن ما وجدته تافه وغير ذي بال وسخيف حقاً، فليس من المعقول أن نطالبه بأن يحمل أشباه هذه الخواطر على محمل الجد. ويتابع على هذا المنوال، وينوّع اعتراضاته إلى ما لا نهاية، فلا يبقى لنا إلا أن نفهمه أن البوح بكل شيء، كما كان تعهّد، يقتضي فعلاً البوح بكل شيء.

ويندر أن نلتقي مريضاً لا يحاول أن يخفي شقاً من نفسه حتى يقيه بمنأى عن التحليل والعلاج. وهكذا أخفى عني أحد مرضاي، وهو من أذكى من قُيِّض لي أن ألتقيهم من الناس، علاقة غرامية له، وحبسها عني لبضعة أسابيع، ولما أنحيت عليه باللائمة لانتهاكه القاعدة «المقدسة» انبرى يدافع عن نفسه بقوله إنه كان يعتقد أن هذا أمر خاص من أموره الشخصية. وغني عن البيان أن المعالجة التحليلية النفسية لا تقرّ بحق اللجوء هذا. تصوروا، مثلاً، أن يصدر في مدينة كفيينا قرار بعدم جواز اعتقال أي إنسان في أماكن من أشباه السوق الكبيرة أو كاتدرائية سان إتيين^(١)، ثم تتصدى السلطات بعد ذلك للقبض على مجرم بعينه! بوسعنا أن نجرم سلفاً أنه لن يختار ملجأ له سوى أحد هذين الموضعين. ولقد تهتأ لي مرة أن بوسعي أن أمنح حق الاستثناء هذا لأحد المرضى لما بدا لي منه من قدرة على الوفاء بوعده ولأنه كان موثقاً بسرّ المهنة الذي لا يبيح له البوح بأشياء معيّنة لشخص آخر. وأشير علاوة على ذلك إلى أنه ذهب وهو راضٍ عن نجاح العلاج، لكنني لم أعتبط بقدر اغتباطه، وعاهدت نفسي ألا أعيد الكرة أبداً في مثل هذه الظروف.

إن المعصوبين الوسواسيين بارعون في شلّ تطبيق هذه القاعدة من قواعد تقنيتنا بمغالاتهم في شكوكهم ووخز ضميرهم. وقد يفلح المرضى المصابون بالهستيريا الحصريّة أحياناً في إبطال فعاليتها عندما لا يكاشفوننا إلا بخواطر ومشاعر وذكريات بعيدة غاية البعد عما نسعى وراءه، فيضللّ التحليل عن مرماه. لكنني لا

١ - كنيسة سان إتيين (القديس إسطفانوس): أشهر كنائس فيينا وأقدمها، بنيت في القرن الثاني عشر.

أنوي الإثقال عليكم بجميع تفاصيل هذه الصعوبات التقنية. وحسبي أن اذكر لكم أننا حين نفلح أخيراً، بعد لأي ودأب، في حمل المريض على شيء من الامتثال للقاعدة التقنية الأساسية، فإن مقاومته سرعان ما تتحول - وقد تغلبنا عليها في ناحية - إلى ناحية أخرى. إذ تبرز عندئذ بالفعل مقاومة من طبيعة عقلية، تتخذ من الحجج سلاحاً لها، وتندرع بالصعوبات والإشكالات التي يكتشفها الذهن العادي في النظريات التحليلية إذا لم تتوفر له معرفة ضليعة بها. وعندئذ نسمع من فم هذا المريض وحده كل الانتقادات والاعتراضات التي تحاصرنا بها جوقة المشعّنين علينا في مضمار الأدبيات العلمية. وهكذا ترون أن الأصوات التي تصلنا من الخارج لا تأتينا بشيء لم يسبق لنا سماعه من أفواه مرضانا. زويدة حقيقية، ولكن في فنيجان. على أن المريض، والحق يقال، لا يضيق ذرعاً بما نلقيه على مسامعه؛ فهو يتوق إلى أن نزوده بالمعلومات، وأن نتقّفه، وأن نفنّد حججه، وأن نشير إليه بالمصادر التي يمكنه الرجوع إليها ليستزيد منها علماً. وهو مستعد أتم الاستعداد لأن يغدو نصيراً للتحليل النفسي، لكن بشرط أن يستثنيه التحليل، هو شخصياً. غير أننا نستشف في حب الاطلاع هذا مقاومة، رغبة في صرفنا عن مهمتنا الخاصة، ولذلك نصدها. أما لدى المعصوبين الوسواسيين فنصطنع المقاومة تكتيكاً خاصاً. فالمريض يدعنا بلا معارضة نتابع تحليلنا الذي يتاح له على هذا النحو التباهي بما يسلّطه من ضوء متزايد السطوع على أسرار الحالة المرضية المطلوب علاجها. غير أننا نفاجأ في خاتمة المطاف إذ نلاحظ أن هذا الإيضاح لم يتمخض عن أي تقدم عملي وعن أي تخفيف لحدة الأعراض. وعندئذ يتأتى لنا أن نكتشف أن المقاومة اعتصمت بالشك الذي هو مظهر رئيسي من مظاهر العصاب الوسواسي، وأنها من هذا الموقع المحصن تسدد إلينا رأس حربتها. فكأن المريض قال بينه وبين نفسه: «هذا جميل جداً ومثير للاهتمام، وجلّ مناي المضيّ في ما نحن فيه. ومن المؤكد أن التحليل سيغيّر ما بي من مرض لو كان صحيحاً. لكنني لا أعتقد البتة بأنه صحيح، وما دمت لا أؤمن بصحته فلن يكون له من تأثير على مرضي». وقد يدوم هذا الموقف طويلاً، إلى أن نتصدى للمقاومة في معقلها بالذات، وعندئذ يبدأ الصراع الفاصل.

ليست المقاومات العقلية أخطر أنواع المقاومة، ولا يتعذر علينا التغلب عليها. لكن المريض، من دون أن يتخطى إطار التحليل، يفلح في اصطناع مقاومات يعسر كل العسر التصدي لها. فبدلاً من أن يتذكر مواقف حياته الماضية ونوازهه العاطفية نراه يلجأ، عن طريق ما نسمّيه بـ«التحويل»^(٢)، إلى أن يحييها من جديد وليستخدمها كوسائل لمقاومة الطبيب والعلاج معاً. فإن كان المريض رجلاً استعار بوجه عام هذه المواد من علاقاته بآبيه الذي ينوب منابه في هذه الحال الطبيب: فإذا به يحوّل طموحاته إلى الاستقلال بنفسه وبأحكامه، وعزة نفسه وكبريائه التي حدث به في الماضي إلى محاولة معادلة آبيه أو التفوق عليه، ونفوره من أن يتحمل مرة ثانية في حياته عبء العرفان بالجميل، إذا به يحوّل ذلك كله إلى مقاومة لتأثير الطبيب عليه، فتتّمر لحظات يشعر فيها الطبيب بأن رغبة المريض في إحباط مسعاه وفي إشعاره ببعجزه وفي الظهور عليه تبرّ لديه رغبته الأخرى والفضلى في الخلاص من مرضه. وتبرع النساء أعظم البراعة في توظيف «التحويل» لصالح المقاومة، إذ يصبغنه بصبغة من عاطفة رقيقة، مشحونة بالإيروسية، إزاء الطبيب. وإذا ما بلغها الميل درجة معيّنة من الشدّة، تلاشى كل اهتمام بالموقف الراهن، وأمسكت المريضة عن التفكير بمريضها، ونسيت جميع التعهدات التي كانت التزمت بها ساعة بدء العلاج. ومن جهة أخرى، إن الغيرة التي لا بدّ أن تعلن عن ظهورها هنا، وكذلك الخيبة التي يسببها للمريضة الفتور الذي يقابلها به الطبيب من هذا المنظور، لا يمكن إلا أن يسهما في تعكير التفاهم الشخصي مع الطبيب، وهذا ما يبطل مفعول دافع من أقوى دوافع التحليل.

إن المقاومات التي من هذا النوع لا تجوز إدانتها بلا تحفظ. فهي تشتمل، بما هي كذلك، على مواد شتى بالغة الأهمية وذات صلة بحياة المريض الذي يفصح عنها باقتناع عظيم، مما يوفر للتحليل سنداً ممتازاً إذا ما عرف المحلّل، بتقنيته البارعة، كيف يوجّهها في الوجهة المناسبة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المواد

٢ - التحويل Transfert: مفهوم مركزي في التحليل النفسي، وهو إسقاط الشخص المحلّل لمشاعره الودية أو العدائية على الطبيب المعالج أو المحلّل، تكراراً لموقف طفلي كان فيه الطفل يحوّل فيه مشاعره تجاه والديه نحو أشخاص آخرين أو نحو حيوانات أو دمي، إلخ. «م».

توضع على الدوام في بادئ الأمر في خدمة المقاومة، فلا يتبدى منها للعيان سوى واجهتها المناوئة للعلاج. ومن الممكن أيضاً أن نقول إن هذه المقاومات سمات طبيعية وخلقية، ميولاً لأننا يعيها المريض ليكافح التغييرات التي يسعى الطبيب إلى الوصول إليها عن طريق العلاج. وعندما ندرس هذه السمات الطبيعية يتضح لنا أن ظهورها كان تحت تأثير ظروف العصاب وكرّد فعل على مطالبه. إذاً، بوسعنا أن نصفها بأنها كامنة، بمعنى أنها ما كانت لتتظاهر، أو ما كانت لتتظاهر بنفس الدرجة من الشدة والانتساع، خارج نطاق العصاب. ومع ذلك لا يذهب بكـم الظن أن ظهور هذه المقاومات من شأنه المساس بنجع المعالجة التحليلية. فليس في هذه المقاومات شيء لا يتوقعه المحلل. فنحن نعلم أنها لا بد أن تتظاهر، ونستاء حين لا نفلح في استئثارها بوضوح كافٍ وفي إفهام المريض طبيعتها. كما ندرك أخيراً أن التغلب على هذه المقاومات هو المهمة الرئيسية للتحليل، وأنه الشطر الوحيد من عملنا الذي يمكن أن يجعلنا على يقين من أننا أسدينا خدمة ما إلى المريض، وهذا بطبيعة الحال إذا عرفنا كيف نؤديه على الوجه المرام.

أضف إلى ذلك أن المريض ينتهز كل مناسبة ليخفف ما يبذله من جهد، سواء أكانت حادثة عارضة طرأت أثناء العلاج، أم حدثاً خارجياً من شأنه أن يصرف انتباهه ويشغله، أم ملاحظة عدائية يبدئها حيال التحليل شخص من أقرباء المريض، أم مرضاً عضوياً طارئاً أو ناجماً عن مضاعفات العصاب أو حتى تحسناً يطرأ على حالته، أقول: إن أضفتم ذلك كله تكوّنت لديكم صورة، لا أزعـم أنها كاملة، وإنما هي تقريبية، عن أشكال المقاومة ووسائلها التي نواجهها أثناء التحليل. ولكن عالجت هذه النقطة بتفصيل كبير، فلـكي أقول لكم إن ما اكتسبناه من تجارب وخبرات بالمقاومة التي يعارض بها المريض محاولة إلغاء أعراضه كان هو الأساس الذي شدنا عليه تصورنا الدينامي للأعـصبة. فقد اعتمدنا، بروير وأنا، في المعالجة النفسية على التنويم المغنطيسي في بادئ الأمر، وبروير لم يعالج أصلاً مريضته الأولى إلا وهي في حالة من الإيحاء التنويمي، ولم أعتـمـد بدوري أن حذوت حذوه. وأقرّ بأن العمل كان آتئذ أسهل وأحبّ إلي النفس، وكان يستغرق زمناً أقل. غير أن النتائج التي كنا نصل إليها كانت قلباً وغير مستديـمة.

لذا سرعان ما هجرت التنويم المغنطيسي. وعندئذ فقط فهمت أنه كان يستحيل عليّ، ما دمت أعتد التنويم، أن أفهم دينامية تلك الحالات المرضية. وبالفعل، كان التنويم يحول دون إدراك الطبيب لوجود المقاومة. وكان التنويم، بكبحه المقاومة، يترك بعض المجال حراً للقيام بالتحليل، وخلف هذا المجال كانت تختبئ المقاومة، فيصعب بالتالي النفاذ إلى كنهها، شأنها في ذلك شأن الشك في العصاب الوسواسي. يحقّ لي إذاً أن أقول إن التحليل النفسي بحصر المعنى لم يرَ النور إلا يوم أقلعنا عن اللجوء إلى التنويم المغنطيسي.

لكن إن يكن إثبات وجود المقاومة على هذه الدرجة من الأهمية، فإنه يتعيّن علينا، من قبيل الاحتياط، أن ندع مكاناً للشك وأن نتساءل عمّ إذا لم نكن تسرّعنا في التسليم بوجودها، وعمّ إذا لم نكن نصدر في عملنا هذا عن شيء من الحفّة في بعض الأحيان؟ فمن الممكن أن تواجهنا حالات عصائية لا تحقق فيها التداعيات نجاحاً لأسباب أخرى، ومن الممكن أن تكون الحجج التي يُردّ بها علينا بصدد هذه النقطة جدية بأن تؤخذ بعين الاعتبار ونكون نحن من المخطئين إذ نسقط من حسابنا النقد العقلي لمن نحلّهم بإطلاقنا عليه اسم المقاومة، وهي تسمية تخدم مآربنا. غير أنه يتعيّن عليّ أن أصارحكم، سادتي، بأننا لم نتوصل إلى هذا الحكم بخفة ولا تروّ. وقد تسنى لنا أن نلاحظ كل مريض من أولئك المرضى الناقدين لحظة ظهور المقاومة وبعد زوالها. والواقع أن المقاومة تتفاوت شدة في أثناء العلاج؛ فهذه الشدة تزداد كلما طرقتنا فكرة جديدة، وتدرك أقصى مبلغها أثناء صياغة هذه الفكرة، وتعود فتفتر حين تُستنفد هذه الأخيرة. وفضلاً عن ذلك، وما لم نكن ارتكبنا خطأ تقنياً آخرق، فإننا لا نكون قد استشرنا لدى المريض أقصى ما يقتدر عليه من مقاومة. وقد تهياً لنا على هذا النحو أن نلاحظ أن المريض نفسه يتخلى عن موقفه النقدي ثم يعود إلى التشبث به مراراً وتكراراً أثناء التحليل. فإذا ما أوشكنا أن نستدرج إلى وعيه شطراً جديداً وشديد الإيلام من المواد اللاشعورية، اتخذ منا موقفاً نقدياً مشتطاً؛ وحتى لو سبق له أن فهم وقبل أشياء كثيرة، فإن كل مكتسباته تضع لحظتها أدراج الريح؛ والصورة التي قد يعرضها لأنظارنا، وهو متشبث ذلك التشبث العنيد بالمقاومة والمعارضة بأي

ثمن، هي صورة مكتملة للبلاهة العاطفية. لكن لو أمكننا أن نساعد على التغلب على هذه المقاومة، لارتدت إليه أفكاره ولاستعاد قدرته على الفهم. إذاً، فنقده ليس وظيفة مستقلة وجديرة منا بصفقتها هذه بالاحترام؛ بل هو حيلة يصطنعها في خدمة نوازعه العاطفية، ومقاومته هي التي تتحكم بها. فإن لم يستسغ شيئاً، فبوسعنا أن يدفعه عنه بأرابة كبيرة وروح نقدية مسرفة؛ أما إذا طاب له فيتقبله بسذاجة وسرعة تصديق، ولعلنا جميعاً نفعل ما يفعله؛ ولئن دُلل من نحلله على مثل هذا القدر من الوضوح في تبعية العقل عنده للحياة العاطفية فإتماً ذلك فقط لأننا نخضعه في تحليلنا لضغط متواصل بالغ الشدة.

ولكن كيف لنا الآن أن نفسّر ما نلاحظه من نزوع المريض إلى أن يدفع عن نفسه بمثل تلك القوة كل محاولة لإزالة أعراضه ولإعادة سيروراته النفسية إلى نصابها الصحيح؟ إننا نقول لأنفسنا إنه يتاح لنا هنا أن نستشعر وجود قوى فعالة تعارض أي تعديل للحالة المرضية، ولا بدّ أن تكون هي نفسها التي أدّت في وقت من الأوقات إلى نشوء هذه الحالة. فلا مناص من أن يكون قد حدث، عند تكوين الأعراض، شيء يسعنا الآن أن نعيد بناءه بدءاً مما اكتسبناه من خبرة في مجال تفكيك الأعراض. ونحن نعرف من قبل، من ملاحظات بروير، أن وجود العرض مشروط بسيرورة نفسية تعذر عليها الوصول إلى نهايتها الطبيعية، وما تسنى لها بالتالي أن تغدو شعورية، ومن ثم يأتي العرض لينوب مناب ما لم يكتمل. وهكذا نجد أنه في مستطاعنا الآن أن نحُدّد موضع فاعلية القوى المفترضة. إذ لا بدّ أن تكون معارضة عنيفة قد حالت دون وصول السيرورة النفسية إلى الشعور، وبذلك بقيت هذه السيرورة لاشعورية، ومن حيث أنها لاشعورية كانت لها القدرة على تشكيل العرض. وهذه المعارضة نفسها تتظاهر في أثناء العلاج في محاولة لإحباط الجهود الرامية إلى تحويل اللاشعور إلى شعور. وهذا ما ندركه حسياً في صورة مقاومة. ونحن نطلق على السيرورة المسيّبة للمرض كما تتجلى لنا من خلال المقاومة اسم الكبت.

علينا الآن أن نحاول تصور سيرورة الكبت هذه على نحو أكثر وضوحاً. فهي الشرط التمهيدي لتكوين العرض، لكنها أيضاً شيء لا نعرف له شبيهاً أو نظيراً.

تمثيلاً على ذلك لنأخذ مثال حفزة ما IMPULSION، أي سيرورة نفسية محبوة بميل إلى التحول إلى فعل. فنحن نعلم أن هذه الحفزة يمكن أن تنحى وتلجم وتدان. ومن ثم، إن الطاقة التي كانت في تناولها تُسحب منها فيؤول بها الحال إلى شلل، بيد أنها قد تبقى على قيد الوجود كذكرى. وجميع القرارات التي مدارها على تلك الحفزة تبرم تحت الإشراف الواعي للأنا. غير أن الأمور لا بد أن تجري غير هذا المجرى لو تخيلنا أن هذه الحفزة عينها قد تعرضت للكبت. ففي هذه الحال تحتفظ ولا بد بطاقتها، ولكنها لا تترك وراءها أي ذكرى؛ بل إن سيرورة الكبت بالذات تتم خارج نطاق وعي الأنا. وهكذا يستبين لنا أن هذه المقارنة لا تقربنا البتة من فهم ماهية الكبت.

سأعرض عليكم التصورات النظرية التي ظهر أنها الأعظم فائدة من غيرها من هذا المنظور، أي الأقدر على ربط فكرة الكبت بشكل أو بصورة محدّدة. لكن كيما يأتي عرضي هذا واضحاً، فلا بدّ قبل كل شيء أن نستبدل المعنى الوصفي لكلمة «اللاشعور» بمعناها النسقي؛ وبعبارة أخرى، يتعيّن علينا أن نحزم أمرنا على الاعتراف بأن الوعي أو عدم الوعي بسيرورة نفسية ما لا يعدو أن يكون خاصية من خصائصها، وليس من الضروري أن تكون هذه الخاصية ذات معنى واحد لا يتغير في جميع الأحوال^(٣). فحين تبقى سيرورة من السيرورات النفسية لاشعورية، فإن بقاءها بمنأى عن الوعي قد يكون مؤشراً إلى المصير الذي حاق بها، ولكنه لا يكون هو هذا المصير نفسه. وكيما نكون لأنفسنا فكرة واضحة عن هذا المصير، نفترض أن كل سيرورة نفسية، ربما باستثناء سيرورة واحدة ستكلم عنها عما قليل، توجد أول الأمر في مرحلة أو في طور لاشعوري، ثم

٣ - تيسيراً لفهم القارئ لهذه المحاكمة التي يجريها فرويد لا بدّ أن نأخذ في اعتبارنا أن اللغة الألمانية، وكذلك اللغات اللاتينية، لا تميّز في اللفظ بين الوعي والشعور، أو بين اللاوعي واللاشعور. ولكن مثل هذا الالتباس لا وجود له بالعربية (إلا ضمن حدود)، منذ أن أثر المترجمون والمدرّسون الأوائل لعلم النفس وللتحليل النفسي عندنا أن يفرقوا بين المعنيين الوصفي والنسقي لكلمة الوعي (أو اللاوعي) بصطناعتهم كلمة الشعور (أو اللاشعور). ونحن بدورنا نتقيّد بهذا التقليد. فإذا كان المقصود بكلمة «الوعي» (أو اللاوعي) معناها الوصفي أبقينا على هذا اللفظ، أما إذا كان المقصود بها انتسابها إلى النسق النفسي الذي قامت شهرة مدرسة التحليل النفسي على اكتشافه، فإننا نقول: «الشعور» و«اللاشعور»، أو «الشعوري» و«اللاشعوري»، وكذلك «القبشعور» و«القبشعوري» إلخ. «م».

تنتقل بعد ذلك إلى الطور الشعوري، مثلها في ذلك مثل الصورة الفوتوغرافية التي تكون أول الأمر سالبة ولا تصوير هي الصورة النهائية إلا بعد أن يتمّ تظهيرها إيجابياً. ولكن كما أن كل صورة سالبة لا تصوير حتماً وبالضرورة صورة موجبة، كذلك لا يتحتم أن تتحول كل سيرورة نفسية لاشعورية إلى سيرورة شعورية. ونعتقد أنه من الأصوب لنا أن نقول: إن كل سيرورة تنتمي أول الأمر إلى النسق النفسي للاشعور، ولا يتأتى لها أن تنتقل لاحقاً إلى نسق الشعور إلا في ظروف محدّدة.

والتمثيل الأبسط لهذين النسقين هو الأكثر ملاءمة لنا: أقصد به التمثيل المكاني. فلنشبه إذاً نسق اللاشعور بقاعة انتظار واسعة، تزدحم فيها الحائثات (Motions) النفسية، كما لو أنها مخلوقات بشرية. وتتصل بقاعة الانتظار هذه غرفة أخرى، أصغر منها، أشبه ما تكون بردهة استقبال، فيها يقيم الشعور. لكن عند الرواق الفاصل بينهما يقيم حارس يسهر على تفتيش كل حائثة نفسية، ويخضعها للرقابة، ويمنعها من دخول قاعة الاستقبال إن لم يرضَ عنها. وسواء أردّ الحارس حائثة بعينها من عتبة الباب أم أجبرها على التراجع القهقري بعد أن تكون قد دلفت إلى ردهة الانتظار، فليس في الأمر فارق كبير، وتكاد النتيجة أن تكون واحدة. وكل شيء رهن بدرجة يقظة الحارس وثقوب نظره. ومن مزايا هذه الصورة أنها تتيح لنا أن نطور مدوّنّة مصطلحاتنا. فالحائثات المتواجدة في قاعة الانتظار المخصصة للاشعور لا تقع تحت نظر الشعور المقيم في الغرفة المجاورة. وبذلك تظلّ في أول الأمر لاشعورية. فإذا ما وصلت بعد ذلك إلى العتبة وردّها الحارس على أعقابها، فمعنى ذلك أنها عاجزة عن أن تصير شعورية، فنقول عنها في هذه الحال إنها مكبوتة. غير أن الحائثات التي سمح لها الحارس باجتياز العتبة لا تغدو بالضرورة شعورية، بل بوسعها أن تصبح كذلك إذا ما أفلحت في لفت نظر الشعور إليها، وعليه، سنطلق على هذه الغرفة الثانية اسم النسق القبعشعوري^(٤). وهكذا، إن تحول سيرورة ما إلى سيرورة شعورية يحتفظ بمعناه الوصفي المحض. أما الكبت فمعناه أن يمنع الحارس حائثة بعينها من الولوج

٤ - اختصاراً لـ «ما قبل الشعوري». «م».

من اللاشعور إلى القشعور. وهذا الحارس هو الذي يتبدى لنا في صورة مقاومة، عندما نحاول أن نضع حداً للكبت عن طريق المعالجة التحليلية.

ستقولون لي في أرجح الظن إن هذه التمثيلات، البسيطة والمغربة في آن معاً، لا مجال لها في عرض علمي. وإنكم لعلّى حق، وأنا نفسي أعلم أنها، فضلاً عن ذلك، غير صحيحة. وإذا لم أخطئ التقدير كثيراً فإنه سيتاح لنا عما قليل أن نستبدلها بشيء آخر خيراً منها. ولا أعلم هل سأبدو لكم، في حال تصحيحها وتكميلها، أقل إغراباً. ومهما يكن من أمر فإن هذه التمثيلات المساعدة، التي لها نظيرها في الشخص الذي تصوّره آمبير Ampère سابحاً في مجال التيار الكهربائي^(٥)، لا تستأهل منا أن نرى إليها بعين الازدراء ما دامت تعيننا، في محصلة الحساب، على فهم بعض الحالات. وبوسعي أن أجزم لكم أن هذه الفرضية الفجّة: الغرفتين والحارس الواقف عند العتبة الفاصلة بينهما والشعور الذي لا دور له سوى دور المتفرج الناظر في صدر الغرفة الثانية، تزوّدنا بصورة قريبة جداً من الحقيقة الفعلية للأشياء. ويطيب لي، فضلاً عن ذلك، أن أسمعكم توافقون على أن تسمياتنا: الشعور واللاشعور والقشعور، أبعد ما تكون عن الانحياز في الحكم وأدنى إلى التسويغ والتبرير من كثير غيرها من التسميات الدارجة أو المقترحة: تحت الشعور، شبه الشعور، ضمن الشعور، إلخ.

ثمة ملاحظة أعلّق عليها قدراً أكبر بكثير من الأهمية، وهي تلك التي قد تبدوونها فيما لو قلتم إن تنظيم الجهاز النفسي، كما أصادر عليه هنا حاجتي إليه في المهمة التي أخذتها على عاتقي لتفسير الأعراض العصائية، لا بدّ له، كيما يكون صحيحاً، أن يكون ذا فاعلية عامة وأن يجلو لنا سير الوظيفة السوية أيضاً. وملاحظة كهذه هي الحقّ بعينه، غير أنه لا يسعني في الوقت الحاضر أن أتابعها إلى نهايتها. ومن المؤكد أن اهتمامنا بسلوكيات تكوين الأعراض سيزداد ازدياداً هائلاً لو أمكن لنا أن نأمل حقاً بإمكانية الظفر، عن طريق دراسة الوقائع

٥ - أندريه آمبير: عالم فيزياء ورياضيات فرنسي (١٧٧٥ - ١٨٣٦). واضع نظرية الطاقة الكهربائية، ومخترع التلغراف الكهربائي. و«شخصه» المشار إليه هو مراقب افتراضي متمدّد في مجال التيار الكهربائي، وبالإحالة إليه يتحدّد اتجاه الإبرة المغنطة. «م».

الباتولوجية، بمعلومات عن الصيرورة النفسية السوية التي لا تزال خفية خفاء كبيراً.

هذا العرض الذي قدمته لكم عن النسقين النفسيين، وعن العلاقات فيما بينهما، وعن روابطهما بالشعور، ألا يذكركم إذاً بشيء ما؟ لو أمعنتم في التفكير لبان لكم أن الحفير القائم على الحراسة بين اللاشعور والقبشعور إن هو إلا تشخيص للرقابة التي تتولى، كما كنا رأينا، إعطاء الحلم الظاهر شكله النهائي. فالبقايا النهارية، التي تعرّفنا فيها منبّهات الحلم، كانت في تصورها مواد قبشعورية تعرضت ليلاً لتأثير رغبات لاشعورية ومكبوتة، فافتترنت بها وشكلت بالتعاون معها، وبفضل ما هي مشحونة به من طاقة، الحلم الكامل. وقد قلنا أيضاً إن المواد القبشعورية تتعرض، تحت تأثير النسق اللاشعوري، لعملية إعداد وصياغة - من تكثيف ونقل وإزاحة - على نحو مجهول أو غير معهود، إلا بصفة استثنائية، في الحياة النفسية السوية، أي في النسق القبشعوري. وقد ميّزنا بين كل من هذين النسقين بطريقة أدائه لعمله. فانتماء ظاهرة من الظواهرات إلى هذا وذاك من كلا النسقين إنما تحدده علاقتها بالشعور، الذي هو نفسه امتداد للقبشعور. والحال أن الحلم، بموجب هذه النظرة، ليس بظاهرة مرضية: فقد يحدث لدى أي إنسان سليم معافى بشرط أن يكون في حالة النوم. وهذه الفرضية عن بنية الجهاز النفسي - وهي فرضية تشمل بتفسير واحد تكوين الحلم وتكوين الأعراض العصائية معاً - تتوفر لها كل الفرص لأن تصدق أيضاً على الحياة النفسية السوية.

هكذا ينبغي أن نفهم، حتى إشعار آخر، طبيعة الكبت. فما الكبت إلا شرط مسبق لتكوين الأعراض. ونحن نعلم أن العرض يأتي ليحل محلّ شيء آخر يحول الكبت بينه وبين الإعلان عن نفسه. لكن علمنا بكنه الكبت لا يعني أننا فهمنا هذا التكوين البديل. ففي الجانب المقابل من المعضلة تنهض الأسئلة التالية ذات الصلة بإقرارنا بوجود الكبت: ما الحائث النفسية التي تتعرض للكبت؟ وما القوى التي تفرض الكبت؟ وما الدوافع التي ينصاع لها؟ ولا يتوفر لدينا في الوقت الراهن سوى عنصر واحد للإجابة عن هذه الأسئلة. فعندما درسنا

المقاومة، علمنا أنها نتاج لقوى الأنا، نتاج لخصائص ظاهرة وكامنة في خلقه وطبعه. وعليه، لا بد أن تكون هذه القوى وهذه الخصائص هي التي سببت الكبت أو ساهمت، على الأقل، في استحداثه. أما ما عدا ذلك فلا يزال مجهولاً منا في الوقت الحاضر.

لكن هنا يأتي العون من جانب ثانية الواقعتين اللتين أعلنت عنهما في مطلع محاضرتي هذه. فبدءاً من التحليل نستطيع أن نحدد بصورة عامة للغاية الغرض الذي تخدمه الأعراض العصابية. ولكن ليس هذا بجديد عليكم. فقد سبق أن أوضحت لكم ذلك من خلال حالتين من حالات العصاب. بلى، لكن ماذا تعني، في المحصلة الأخيرة، حالتان فقط؟ من حقكم أن تطلبوا أن أبرهن لكم على مدعائي بمقتضى من الحالات، بما لا عدّ له من الحالات. ويؤسفني أنني عن ذلك عاجز. ولا مناص لي من أن أحيلكم من جديد إلى تجربتكم الخاصة أو أن أتذرع بانعقاد إجماع أصحاب التحليل النفسي على توكيد صحة هذه النقطة.

تذكرون ولا ريب أن التحليل زجّ بنا، في كلتا الحالتين اللتين أخضعنا أعراضهما لفحص مفصّل، في صميم حياة المرضى الجنسية. وعلاوة على ذلك تعرّفنا في الحالة الأولى، ببجلاء لا مزيد عليه، غرض الأعراض المدروسة أو قصدها، ومن الممكن أن يكون هذا الغرض أو القصد قد حجبه في الحالة الثانية شيء سيتسنى لنا أن نتكلم عنه لاحقاً. والحال أن أية حالة أخرى قد تجري عليها التحليل ستكشف لنا عن تفاصيل مطابقة لما لاحظناه في الحالتين الآتيتين. ففي جميع الحالات لا بدّ للتحليل من أن يقتحم مسرح الأحداث الجنسية وأن يزيح لنا النقاب عن رغبات المرضى الجنسية، ولا بدّ من أن يتأكد لنا بالمشاهدة في كل مرة أن أعراضهم تخدم الغرض نفسه. وما هذا الغرض إلا إشباع الرغبات الجنسية. فالأعراض تفيد في إشباع المرضى جنسياً، وهي تنوب مناب هذا الإشباع إن كان المرضى محرومين منه في الحياة السوية.

تذكروا الفعل القهري الذي كانت تؤديه مريضتنا الأولى. فالمرأة محرومة من زوجها الذي تحبّه حباً جماً، وإن كانت لا تستطيع مشاطرته الحياة لقصوره وضعفه. فعليها أن تقيم على وفائها له، وألا تسعى إلى الاستعاضة عنه بأي رجل

آخر. وعرضها الوسواسي يوفر لها ما تصبو إليه: فهو يعلي من شأن زوجها، وينفي ويصّحح ضعفه، وفي المقام الأول عنته. وما هذا العرض في صميمه إلا إشباع لرغبة، تماماً كما في الأحلام، بل ما هو إلا إشباع لرغبة إيروسية، وهذا ليس شأن الحلم دوماً. أما عن مريضتنا الثانية فقد تسنى لكم على الأقل أن تروا أن الهدف الذي ترمي إليه من فعلها الطقسي هو الحؤول دون الاتصال الجنسي بين والديها تفادياً لولادة طفل جديد. وقد رأيت أيضاً أن مريضتنا تنزع في صميمها، بطقسها هذا، إلى الحلول محلّ أمها. إذًا، فالهدف هنا، كما في الحالة الأولى، إزالة العوائق التي تعترض سبيل الإشباع الجنسي وتحقيق الرغبات الإيروسية. أما التعقيدات التي ألمت إليها في حالة هذه المريضة، فلي إليها عودة عما قليل.

سادتي، توضيحاً وتبريراً لما سأفرضه لاحقاً من تقييد على عمومية أطروحاتي، ألقت نظركم من الآن إلى أن كل ما قلته هنا عن الكبت وتكوين الأعراض ومدلولها قد استخلصته من تحليل ثلاثة أشكال من العصاب: الهستيريا الحَصَريّة، والهستيريا الاستبدالية^(٦) والعصاب الوسواسي، ولا ينطبق إلا على هذه الأشكال الثلاثة في المقام الأول. هذه الأمراض الثلاثة، التي درجت بنا العادة على جمعها في فئة واحدة تحت اسم عام هو «الأعصاب التحويلية»^(٧)، تعيّن أيضاً حدود المجال الذي يمكن للتحليل النفسي أن ينشط فيه؛ أما الأعصاب الأخرى فلم تحظَ من جانب التحليل النفسي بمثل هذه الدراسة المعمّقة. واستعصاء طائفة منها على كل تدخل علاجي كان هو السبب في تنحيتها وإهمالها. ولا تنسوا أن التحليل النفسي لا يزال علماً فتياً، وأن التمكن منه يقتضي جهداً كبيراً ووقتاً كثيراً، وأنه منذ فترة غير بعيدة لم تكن قد قامت له قائمة إلا على كتفي شخصين اثنين^(٨).

٦ - الهستيريا الاستبدالية: هي في نظر فرويد الهستيريا التي تحوّل الأعراض النفسية إلى أعراض بدنية. ولذا جاز لنا أن نسمّيها أيضاً بالهستيريا الاستبدائية. «م».

٧ - الأعصاب التحويلية هي في نظر فرويد الأعصاب التي يبحث فيها الليبدو عن موضوعه في الخارج، على عكس الحالات الذهانية التي يبحث فيها الليبدو عن موضوعه في الأنا. وأكثر ما يميّزها - ومن هنا تسميتها - أن المصاب بها يحوّل، أو بالأحرى يسقط على شخص الطيب النفسي الذي يعالجه مشاعره الخفية أو العدائية. «م».

٨ - هما فرويد نفسه وجوزيف بروير الذي اشترك وإياه في كتابة دراسات في الهستيريا. «م».

غير أن المحاولات جارية على قدم وساق في كل مكان للولوج إلى كنه الأمراض الأخرى التي لا تدرج في فئة الأعصاب التحويلية بغية فهم طبيعتها. وأمل أيضاً أن أتمكن من أن أعرض لكم ما طرأ على فرضياتنا ونتائجها من تطور بحكم تطبيقها على هذه المواد الجديدة، إذ أفضت هذه الدراسات الجديدة لا إلى دحض مكتسباتنا الأولى، بل إلى تكوين رؤية أعم وأرقى. وبما أن كل الذي ذكرناه هنا ينطبق على الأعصاب الثلاثة في المقام الأول، فسأسمح لنفسي بأن أرفع من شأن الأعراض ومدلولها بإطلاعكم على تفصيل جديد. فالدراسة المقارنة للعلل المسببة لهذه الأمراض الثلاثة تتمخض عن نتيجة محددة يمكن أن تلخصها الصيغة التالية: إن هؤلاء المرضى يكابدون حرماناً، إذ يضنّ عليهم الواقع بإشباع رغباتهم الجنسية. وكما ترون، فإن التوافق كامل بين هاتين النتيجةين. وأجدى طريقة لفهم الأعراض أن نعدّها إشباعاً بديلاً، الغرض منه أن ينوب منابع الإشباع الذي تضنّ به الحياة الطبيعية.

من الممكن بعد بلا ريب توجيه اعتراضات كثيرة إلى الأطروحة القائلة بأن الأعراض العصابية أعراض بديلة. وسأنكبّ الآن على مناقشة اثنين من هذه الاعتراضات. فلو أنكم أخضعتكم بأنفسكم للفحص التحليلي النفسي عدداً من المرضى، فلربما قلتم لي بشيء من اللوم: ثمة طائفة بكاملها من الحالات لا تصدق عليها أطروحتك، وهي حالات يبدو أن للأعراض فيها غرضاً معاكساً، هو بالتحديد استبعاد الإشباع الجنسي أو إبطاله. ولن أماري في صحة تأويلكم. فالأشياء تتكشف في كثير من الأحيان في التحليل النفسي عن أنها على درجة من التعقيد أكبر مما كنا نودّ. ولو كانت بسيطة، فلربما ما احتجنا أصلاً إلى التحليل النفسي لاكتناه سرّها. وبالفعل، إن بعض أجزاء الفعل الطقسي الذي تؤديه مريضتنا الثانية تتم عن ذلك الطابع الزهدي، المناوئ للإشباع الجنسي، وعلى سبيل المثال عندما تستبعد الساعات بمختلف أنواعها، وهذا فعل سحري تحسب أنه يعفيها من الانتعاض الليلي، أو عندما تريد الحؤول دون سقوط الأوعية وتحطمها، أملة بذلك أن تحفظ بكارتها. وكان هذا الطابع السالب أشدّ بروزاً أيضاً في حالات أخرى من الطقوس التي تسبق الرقاد تسنى لي تحليلها؛ ففي

بعضها كان الطقس برمته يتألف من تدابير وإجراءات وقائية لدفع الذكريات والإغراءات الجنسية. بيد أن التحليل النفسي أبان لنا غير مرة أن التعارض ليس على الدوام تناقضاً. وبوسعنا إذا شئنا أن نوسع من نطاق أطروحتنا بأن نقول إن هدف الأعراض إما تأمين إشباع جنسي وإما تحاشيه وصدّه، علماً بأن الطابع الموجب باتجاه الإشباع هو الغالب في الهستيريا، بينما الغالب في العصاب الوسواسي هو الطابع السالب، الزهدي. ولئن صحّ أن الأعراض يمكن أن تفيد سواء أفي الإشباع الجنسي أم في نقيضه، فإن هذا الغرض المزدوج أو هذه القطبية نجد تفسيرها في آلية لم يتسنّ لنا بعد الكلام عنها من آليات تكوين الأعراض. فالأعراض، كما سنرى، هي نتيجة لتسوية بين ميلين متعارضين، وهي تعبر عما كُبت كما عما كان السبب في الكبت وعما ساهم بالتالي في ظهور الأعراض. ومن الممكن أن يتم الإبدال لصالح أحد هذين الميلين أكثر منه لصالح الآخر، ولكن من النادر أن يتم لصالح أحدهما دون الآخر؛ وفي الهستيريا يفصح القصدان عن نفسيهما في أغلب الأحيان بعرض واحد، بينما يحدث في العصاب الوسواسي انفصال بين كلا القصدين، فيكون ظهور العرض على مرحلتين، ويتألف من فعلين متعاقبين، واحدهما يبطل الآخر.

ولن يكون سهلاً علينا بالمقدار نفسه أن نبذ شكاً آخر. فلو استعرضتم عدداً من تأويل الأعراض، للمتم في أرجح الظن إلى القول إنه من الشطط والغلو التطلع إلى تفسيرها جميعها بالإشباع البديل لل رغبات الجنسية. ولن نتوانوا عن الإشارة إلى أن هذه الأعراض لا تقدّم للإشباع أي عنصر فعلي، وأنها تقتصر في أغلب الأحيان على تنشيط إحساس ما أو تمثيل صورة تتسم بقدر غير قليل من الغرابة وشاقّة في الوقت نفسه عن عقدة جنسية. وسترون فضلاً عن ذلك أن الإشباع الجنسي المزعوم يتّسم في كثير من الأحيان بطابع صياني وشائن، فيشابه مثلاً فعل استمناء، أو يذكر بتلك العادات المستكرهة التي نهى عنها الأولاد ونسعى إلى حملهم على الإقلاع عنها. وعلاوة على ذلك ستبدون عن عجبكم إذ تروننا ندرج في عداد الإشباع الجنسي ما لا يصح وصفه إلا بأنه إشباع لرغبات فظة أو مستفظة، بله رغبات مجافية للطبيعة. وسيكون من المتعذر علينا، سادتي، أن

نتوافق على النقاط الأخيرة ما لم نخضع حياة الإنسان الجنسية لفحص معمق،
وما لم نحدّد ما هو مباح لنا أن نعدّه جنسياً من دون أن نجازف بالوقوع في
الخطأ.

المحاضرة العشرون

الحياة الجنسية للكائن الإنساني

سيداتي سادتي، قد يحسب الواحد منا أن الناس جميعاً متفقون على المعنى الذي ينبغي أن يعطى لكلمة «الجنسي». أفليس الجنسي في المقام الأول ما هو غير محتشم، وما لا يجوز الكلام عنه؟ وقد سمعت، في ما سمعت، أن تلاميذ طبيب مشهور للأمراض النفسية أرادوا مرة أن يقنعوا معلّمهم بأن أعراض المهسترين لها في أغلب الأحيان طابع جنسي، فاقتادوه إلى سرير مريضة بالهستيريا كانت نوباتها تحاكي بلا مراء عملية الولادة. فلما رأى الأستاذ ذلك قال بازدراء: «على كل حال ليس للولادة طابع جنسي». ولا جدال في أن الولادة ليست على الدوام وبالضرورة فعلاً غير محتشم.

ستلوموني في أرجح الظن على ركوبي مركب المزاح والتفكه بصدد أشياء هي من الجِدِّ في منتهاه. لكن ما ذكرته لكم يبعد عن أن يكون مزاحاً وتفكهاً. إذ إن مضمون كلمة «الجنسي» غير قابل بسهولة للتعريف. وقد يقول أحدكم إن كل ما له صلة بالفوارق التي تفصل بين الجنسين هو جنسي، لكن هذا تعريف مبهم بقدر ما هو فضفاض. ولو أخذتم بعين الاعتبار الفعل الجنسي في المقام الأول، فلربما قلتم إن الجنس هو كل ما يتصل بطلب اللذة من جسم الإنسان الآخر، وعلى الأخص من أعضائه التناسلية؛ وبالاختصار، كل ما يتصل بالرغبة في الجامعة وإتمام الفعل الجنسي. وبهذا التعريف تقتربون من أولئك الذين يمثّلون بين ما هو جنسي وبين ما هو غير محتشم، وسيكون من حقكم أن تقولوا إن الولادة لا تنطوي على شيء جنسي. لكن لو جعلتم من الإنجاب نواة الجنسية، لجازفتم بأن تستبعدوا من تعريفكم طائفة من الأفعال لا جدال في طبيعتها الجنسية وإن لم يكن الإنجاب هدفها، ومنها مثلاً الاستمناء أو حتى القبله. لكننا

نعرف من قبل أن كل محاولة للتعريف لا مفر من أن تترتب عليها إشكالات، وليس لنا أن نأمل أن الحال ستختلف في ما نحن بصددده. ولنا أن نشبه بأنه حدث، في مجرى تطور مفهوم «الجنسي»، شيء كان من نتيجته، على حدّ تعبير هـ. سلبير البديع، «خطأ بالإخفاء والكتمان». على أننا لو أخذنا لكل شيء حسابه لما وجدنا أنفسنا في حيرة تامة إزاء ما يعنيه الناس بقولهم «جنسي».

إن تعريفاً يأخذ في اعتباره الفارق بين الجنسين، والمتعة الجنسية، ووظيفة الإنجاب، والطابع اللامحتشم لطائفة من الأفعال والموضوعات الواجبة الإخفاء - نقول: إن تعريفاً كهذا قد يكون كافياً لسدّ الحاجات العملية في الحياة الجارية. لكن العلم لا يسعه أن يقنع به. فقد أمكن لنا، بفضل الأبحاث الدقيقة التي اقتضت من الأفراد الذين أجريت عليهم قدراً عظيماً من التجرد ومن السيطرة على النفس، أن نعاين وجود فئات بأسرها من الأشخاص تختلف «حياتهم الجنسية» اختلافاً لافتاً للنظر عن التصور الدارج المألوف. فبعض هؤلاء «المنحرفين» قد شطبوا من برنامجهم، إن جاز القول، الفارق بين الجنسين: فليس إلا لأفراد من جنسهم أن يثيروا رغباتهم الجنسية، أما أفراد الجنس الآخر - وأحياناً الأعضاء التناسلية للجنس الآخر - فلا يتسمون في نظرهم بأية سمة جنسية، بل قد يكونون، في بعض الحالات المشتطة، مثاراً لتقززهم. وغني عن البيان أن هؤلاء المنحرفين قد عزفوا عزوفاً تاماً عن المشاركة في عملية الإنجاب. ونحن نطلق على هؤلاء الأشخاص اسم الجنسين المثليين HOMOSEXUELS أو المرتكسين INVERTIS. وهم رجال ونساء تلقوا في أكثر الأحيان - لا دائماً - تعليماً وتربية لا غبار عليهما، ومستواهم الأخلاقي والفكري رفيع، وليس بهم سوى هذا الشذوذ المؤسف لا غير. وهم يصوّرون أنفسهم، بلسان ممثليهم العلميين، على أنهم نوع خاص من البشر، «جنس ثالث» له ما للجنسين الآخرين من حقوق. وربما سنحت لنا الفرصة لوضع ادعاءاتهم هذه على محك التمهيص النقدي. وهم لا يؤلفون بطبيعة الحال، كما قد يميلون إلى الإيحاء لنا بذلك، «صفوة» البشرية؛ ففي عدادهم أفراد تافهون وعديمو الفائدة مثلاً في عداد أصحاب الحياة الجنسية السوية.

إن سلوك هؤلاء المنحرفين إزاء موضوعهم الجنسي لا يكاد يختلف عن سلوك الأسوياء من الناس إزاء مواضيعهم الجنسية. غير أنه تلي هؤلاء طائفة من غير الأسوياء ينأى نشاطهم الجنسي بتزايد مطرد عما يعدّه الإنسان العاقل مقبولا ومرغوبا. ولا يسعنا أن نقارن هؤلاء، بتنوعهم وفرداتهم، إلا بالمسوخ الشائثة البشعة التي قديمت لإغواء القديس أنطونيوس^(١) في لوحة ب. بروغل^(٢)، أو بالآلهة والمؤمنين الذين طوتهم يد النسيان من أحقاب بعيدة والذين صوّرهم غ. فلوير^(٣) وهم يمرون في موكب طويل أمام عيني ناسكه الورع. وخليطهم هذا يستدعي تصنيفاً، وإلا لتعدّر علينا أن نهتدي إلى سواء السبيل. وإننا لنقسمهم إلى فئتين: فئة يختلفون عن أسوياء الناس بموضوعهم الجنسي، ومنهم الجنسيون المثليون، وفئة ينشدون هدفاً جنسياً مغايراً للهدف الذي ينشده الأسوياء. وينتمي إلى الفئة الأولى من عزف عن المزاوجة بين الأعضاء التناسلية المتقابلة واستبدال العضو التناسلي لشريكه في الفعل الجنسي بجزء آخر أو منطقة أخرى من جسمه. ولا يهتم أن يكون هذا الجزء أو المنطقة غير مؤات، من حيث بنيته، للفعل المشار إليه: فأفراد هذه الفئة يضربون صفحاً عن هذا الاعتبار، وكذلك عن العائق الذي قد ينشأ عن الإحساس بالتقزز (فهم يستبدلون المهبل بالفم أو بالشرح). وينتمي إلى هذه الفئة أيضاً من يلتمس تلبية من الأعضاء التناسلية، لا لوظائفها الجنسية، وإنما لوظائف أخرى تشارك هذه الأعضاء في أدائها لأسباب تشريحية أو بحكم الجوار. فوظائف التبرز EXCRÉTION، التي تسعى التريبة إلى أن تدخل في روع الطفل أنها غير محتشمة، تحتكر لدى هؤلاء الأفراد الاهتمام الجنسي بأسره.

١ - أنطونيوس الكبير: من عظماء النساك (٢٥١ - ٣٥٦). من مواليد صعيد مصر، تنسك وصار له أتباع كثيرون وقاروم، حسبما جاء في سيرة حياته، عدداً لا يحصى من التجارب. لُقّب بأبي الرهبان. «م».

٢ - بطرس بروغل: الملقب بالجهنمي (نحو ١٥٦٤ - ١٦٣٨) رسام فلمنكي من أسرة من مشاهير الرسامين، صوّر حرائق ومشاهد مأساوية وجحيمية. وتجربة القديس أنطونيوس واحدة من أشهر لوحاته، وتصور ناسك الصحراء المصرية وهو قيد إغراء من قبل الشيطان برؤى اللذات الأرضية. «م».

٣ - غوستاف فلوير: أديب فرنسي (١٨٢١ - ١٨٨٠). مؤلف مدام بوفاري ذات الاتجاه الواقعي، وله قصيدة نثرية مطوّلة بعنوان تجربة القديس أنطونيوس (١٨٧٤) استوحاها من حياة ناسك طابا المصرية وهو يحاور الرؤى الجهنمية المتعاقبة. «م».

ويضاف إلى هؤلاء من عزف عزوفاً تاماً عن الأعضاء التناسلية كمواضيع للإشباع الجنسي ورفع إلى هذه المنزلة أجزاء أخرى من الجسم لا صلة لها بها: كتندي المرأة أو قدمها أو ضفيريها. بل ثمة أفراد آخرون لا يسعون حتى إلى إشباع رغبتهم الجنسية عن طريق أي جزء من أجزاء الجسم، وإنما يكفيهم شيء مما تستعمله المرأة في لباسها وزينتها: حذاؤها، قطعة من ملابسها الداخلية، إلخ. إنهم التميميون FÉTICHISTES^(٤). ولنذكر أخيراً طائفة من يشتهي فعلاً الموضوع الجنسي الكامل والسوي، لكنه يتطلب منه أشياء محددة، غريبة أو مستفظة، حتى ليودّ لو يتحول حامل الموضوع الجنسي المشتهى إلى جثة هامدة، ولا يقدر على الاستمتاع به ما لم يضع دافعه الإجرامي هذا موضع تنفيذ. لكن كفانا هذا القدر من المقابح!

تتألف الفئة الكبيرة الأخرى من المنحرفين من أفراد جعلوا هدف رغباتهم الجنسية ما لا يعدو أن يكون لدى الأسوياء فعل إعداد وتمهيد. فهم يجسّون ويلمسون الشخص من الجنس الآخر، ويحاولون اختلاس النظر إلى الأجزاء الخفية والحميمة من جسمه، أو يكشفون عن الأجزاء الخفية من أجسامهم، على أمل أن يقابلهم الآخرون بالمثل. وتلي هؤلاء زمرة الساديين^(٥) الذين يحترق الناس في أمرهم والذين لا يعرفون من لذة سوى لذة إنزال الألم والعذاب بموضوعهم، بدءاً من الإذلال البسيط وانتهاء بالأضرار الجسمانية الفادحة؛ وينظرهم المازوخيون^(٦)، وهؤلاء لا لذة لهم إلا في أن ينالهم من الموضوع المحبوب شتى

٤ - التيمية (وحرافياً الفيتشية): مصطلح اقتبسه التحليل النفسي عن الإثنولوجيا، وهو مشتق من التيمية (أو الفيتيشو باللغة البرتغالية)، وهي الشيء المسحور المعبود لدى قبائل البدائيين. وقد وظّفها علم النفس الجنسي لتسمية عشق الأشياء أو التمايم أو أجزاء بعينها من الجسم مثل القدمين أو الأذنين وما يستر أحد أعضاء الجسم مثل القفا أو الجورب أو الحذاء. والتيمية كما يرى فرويد بديل لقضيب المرأة المتوهم من قبل الصبي الصغير الذي يحدث عنده تثبيت على هذا التوهم. «م».

٥ - نسبة إلى المركيز دي ساد، الكاتب الفرنسي (١٧٤٠ - ١٨١٤) الذي كتب روايات (جوستين، جوليت) التي تستحوذ على أبطالها رغبة جهنمية في تعذيب الآخرين. «م».

٦ - نسبة إلى الفارس ليوبولد فون ساشر مازوخ، الكاتب النمساوي (١٨٣٦ - ١٨٩٥) الذي كتب قصصاً وروايات (السيدة ذات الفرو) تنضح بالرغبة في تعذيب الذات. «م».

صنوف الإذلال وضروب التعذيب، سواء أفي شكل رمزي أم واقعي. وقد يجمع نفر آخر ويركب بين عدد من هذه الميول اللاسوية. لكن يتعين علينا أن نضيف، على سبيل ختام التعداد، أن كل فئة من هاتين الفئتين الكبيرتين اللتين استعرضناهما تنقسم إلى فرعين كبيرين: فرع يضم الأفراد الذين يلتزمون إشباعهم الجنسي في الواقع، وآخر يضم أولئك الذين تكفيهم من هذا الإشباع صورته، فبدلاً من أن يلتمسوا موضوعاً فعلياً يركزون اهتمامهم كله على بديل من نسج خيالهم.

أما أن هذه الحماقات والغرائب والقبائح تمثل فعلاً النشاط الجنسي للأفراد المشار إليهم، فهذه نقطة لا يمكن أن يرقى إليها الشك. وعلى هذا النحو أصلاً يتصور هؤلاء الأفراد مشاربهم وميولهم. قد يدركون أحياناً أنها بدائل، لكن لا بدّ لنا من أن نضيف، من جهتنا، أن حماقاتهم وغرائبهم وفضائعهم تلعب في حياتهم عين الدور الذي يلعبه في حياتنا الإشباع الجنسي السوي، وأنهم يذلون، في سبيل الوصول إلى إشباعهم، تضحيات مماثلة - وكبيرة جداً في الغالب - لما نبذله نحن. وإننا لو تقصينا جميع تفاصيل حياتهم الجنسية لأمكننا أن نكتشف النواحي التي تقترب فيها هذه الانحرافات من الحالة السوية، وتلك التي تبتعد فيها عنها وتنتأى. ولعلكم لاحظتم أن طابع اللاحشمة، اللصيق بالنشاط الجنسي، يشتمل في هذه الانحرافات إلى أقصى درجة، إلى نقطة تتحول عندها اللاحشمة إلى خسة ودناءة.

والآن، سيداتي سادتي، ما الموقف الذي يتعين علينا أن نقفه من هذه الطرق الحارقة للمألوف في الإشباع الجنسي؟ إن الإعلان عن استنكارنا لها، والإعراب عن تقززنا الشخصي منها، والتوكيد بأننا بمنجاة من هذه الرذائل، كل ذلك لا يغني شيئاً، وهو على كل حال غير مطلوب منا. فما هذه، آخر الأمر، إلا طائفة من ظاهرات تستدعي أن نحيطها بانتباهنا كغيرها من الظاهرات الأخرى. ولو احتمينا خلف التوكيد بأنها وقائع نادرة، غرائب مثيرة للفضول، لعرضنا أنفسنا لتكذيب عاجل. ذلك أن الظاهرات التي هي موضع اهتمامنا هنا هي، على العكس، متواترة جداً، وشائعة جداً. لكن لو قيل لنا إن تصوراتنا عن الحياة

الجنسية لا يجوز أن تلبسها وتعكر صفوها وقائع كتلك لأن جميع أمثال هذه الوقائع لا تعدو أن تمثل حيدانات وانحرافات للدافع الغريزي الجنسي، فلن يكون أماناً من مناص من الرد بمنتهى الرصانة. إذ ما لم نفهم هذه الأشكال المرضية من الجنسية، وما لم نستطع أن نربطها بالحياة الجنسية السوية، فسيكون متعذراً علينا أيضاً أن نفهم هذه الأخيرة. زبدة القول: تواجهنا هنا مهمة نظرية عاجلة، وهي أن نجد تعليلاً للانحرافات التي تكلمنا عنها ولصلاتها بالجنسية التي توصف بالسوية.

سنستعين على مهمتنا هذه بوجهة نظر وبتجربتين جديدتين. فأما وجهة النظر فهي لإيفان بلوخ^(٧) IWAN BLOCH الذي صّحح التصور الذي يرى في هذه الانحرافات «علائم انحطاط» بأن أضاف القول إن مثل هذه الانحرافات عن الهدف الجنسي ومثل هذا التراخي في العلاقة بالموضوع الجنسي كانت شائعة في جميع العصور المعروفة لدينا، ولدى جميع الأقوام والشعوب، سواء أكانت في المراحل الأولى من البدائية أم في أطوار متقدمة من الحضارة، وكانت تحظى أحياناً، ولو بعد صراع طويل، بتسامح واعتراف عامين. أما التجريبتان فقد تسنى لنا أن نتوصل إليهما في أثناء مباحثتنا التحليلية النفسية التي كان مدارها على المعصوين، ومن شأنهما أن تحددا لتصورنا عن الانحرافات الجنسية وجهته النهائية.

قلنا إن الأعراض العصابية إشباكات جنسية بديلة، وقد ألححت إلى أن إثبات صحة هذه الأطروحة عن طريق تحليل الأعراض سيصطدم بصعوبات شتى. وبالفعل، لا مبرر لأطروحتنا أساساً ما لم نشمل بـ«الإشباكات الجنسية» الحاجات الجنسية المسماة بالمنحرفة أيضاً، لأن مثل هذا التأويل للأعراض يفرض نفسه علينا بتواتر مثير للدهشة. أما ادعاء الجنسيين المثليين أو المرتكسين أنهم كائنات خارقة للمألوف فيتهافت ويتداعى من تلقاء نفسه حيال ما نشاهده من أنه لا يوجد

٧ - إيفان بلوخ: طبيب أمراض جلدية ألماني (١٨٧٢ - ١٩٢٢). انضم إلى الجمعية البرلينية للتحليل النفسي عام ١٩٠٨. له مؤلفات عن البغاء والجنسية المثلية وموسوعة بعنوان: حياة عصرنا الجنسية.

معصوب واحد لا نستطيع أن نبرهن على وجود ميول وحائث جنسية مثلية لديه، وأن عدداً لا يستهان به من الأعراض العصابية ليس إلا تعبيراً عن هذا الارتكاس الكامن. وأولئك الذين يسمّون أنفسهم بأنفسهم جنسين مثليين ما هم إلا مرتكسون واعون لارتكاسهم الظاهر للعيان، وعددهم ضئيل بالقياس إلى عدد الجنسين المثليين الكامنين. ونحن لا نجد بداً من أن نرى في الجنسية المثلية استطالة شبه مطردة للحياة الحبية، وأهميتها تتعاضد في نظرنا كلما تعمقنا في دراسة هذه الحياة. وأرجح الظن أن الفوارق بين الجنسية المثلية الظاهرة والحياة الجنسية السوية لا تنتفي بنتيجة ذلك. فلئن نقصت القيمة النظرية للجنسية المثلية الظاهرة نقصاناً كبيراً بحكم ذلك، فإن قيمتها العملية تبقى كما هي. بل لقد ثبت لنا أن البارانونيا، التي لا يسعنا تصنيفها في فئة الأعصبة التحويلية، تنشأ في الأغلب عن محاولة دفاعية للتغلب على حائثات جنسية مثلية بالغة العنف. ولعلكم تذكرون أن إحدى مريضتنا كانت تتقمص، عند أدائها فعلها القهري، شخصية زوجها الذي انفصلت عنه؛ ومثل هذا التمثّل لأعراض يُؤدى فيها دور الرجل حالة كثيرة التواتر لدى النساء العصبيات. ومع أننا لا نستطيع أن نتحدث هنا عن جنسية مثلية بملء معنى الكلمة، إلا أن هذه الحالات تنطوي بكل تأكيد على بعض شروطها.

إن العصاب الهستيرى، كما تعلمون في الأرجح، يستطيع أن يفصح عن أعراضه في جميع أجهزة الجسم، وأن يشوّش بالتالي الوظائف كافة. ويكشف لنا التحليل في هذه الحالات عن تظاهر لجميع الحائثات المسماة بالمنحرفة والساعية إلى استبدال الأعضاء التناسلية بأعضاء أخرى لتقوم بدور أعضاء تناسلية بديلة. ودراسة الأعراض الهستيرية تحديداً هي التي أتاحت لنا الوصول إلى تصورنا القائل إن جميع أعضاء الجسم تؤدي، علاوة على وظيفتها السوية، دوراً جنسياً، دوراً شهوياً EROGENE، قد يغدو في بعض الأحيان غالباً فيحدث خللاً في الاشتغال الوظيفي السوي. والكثرة الكثيرة من الأحاسيس والتعصيبات INNERVATIONS التي تتمركز، بصفاتها أعراضاً هستيرية، في أعضاء لا صلة لها في الظاهر بالجنسية، تميّط لنا اللثام على هذا النحو عن

طبيعتها الحقيقية: فهي بمثابة إشباع لرغبات جنسية منحرفة، إشباع قامت فيه بدور الأعضاء الجنسية أعضاء أخرى. وهنا تسنح لنا الفرصة لنعاين كثرة الحالات التي تصبح فيها أعضاء امتصاص الأغذية وأعضاء التبرز حاملة لإثارات جنسية. وهذه هي عين الملاحظة التي كنا لاحظناها بصدد الانحرافات، مع فارق وحيد وهو أن الظاهرة التي هي موضع اهتمامنا تتجلى في الانحرافات بلا عناء ومن دون أن يخطئها التقدير، بينما يتوجب علينا في الهستيريا أن نبدأ أول الأمر بتأويل الأعراض، ثم أن نردّ الحاجات الجنسية المنحرفة إلى اللاشعور، بدل أن نعزوها إلى شعور الفرد.

إن أهم الأعراض الكثيرة التي يتظاهر بها العصاب الوسواسي هي تلك التي تنجم عن ضغط حائثات جنسية سادية عاتية، وبالتالي منحرفة من حيث الهدف؛ وبالفعل، وبالتوافق مع بنية العصاب الوسواسي، تقوم هذه الأعراض في المقام الأول بدور وسيلة دفاعية لتحاشي هذه الرغبات، أو تعبر عن الصراع بين إرادة الإشباع وإرادة الدفاع. لكن الإشباع نفسه، بدل أن يسلك أقصر طريق، يتمكن من الإفصاح عن نفسه في سلوك المرضى بطرق شديدة الالتواء، بل إنه يؤثر أن يرتدّ على شخص المريض بالذات، فإذا بهذا ينزل بنفسه صنوفاً شتى من التعذيب. ومن الأشكال الأخرى لهذا العصاب تلك التي نستطيع أن نصفها بالتنقيبية، وتتميز بتجنيس SEXUALISATION مسرف لأفعال ما هي في الحالات السوية إلا تمهيد للإشباع الجنسي: فالمرضى يطيب لهم أن ينظروا ويلمسوا ويتفحصوا ويتحزوا. وفي هذا ما يفسر لنا الأهمية البالغة التي يتلبسها أحياناً لدى هؤلاء المرضى الخوف من كل ملامسة أو كذلك هوس الاغتسال. وليس لكم أن تشبهوا في مدى كثرة الأفعال القهرية التي تمثل تكراراً أو تحويراً مقتعاً للاستمناء الذي يصاحب، كما نعلم، بوصفه فعلاً أحادياً وأحادي الشكل، مختلف أشكال التخيل الجنسي.

من السهل عليّ، لو شئت، تعداد الوشائج التي تربط الانحراف بالعصاب، لكن ما ذكرته لكم كافٍ لما نرمي إليه. على أنه يتعيّن علينا أن نحاذر المبالغة في أهمية الأعراض المعبرة عن الميول المنحرفة وفي وجود هذه الميول وشدّتها لدى

الإنسان. لقد سمعتم أن الحرمان من الإشباع الجنسي السوي يمكن أن يفضي إلى تكوين عصاب. فالحاجة تسلك في هذه الحال طريق الإشباع غير السوي. وسوف ترون فيما بعد كيف تجري الأمور في هذه الحالات. لكنكم تفهمون من الآن أن الميول، التي صارت منحرفة من جراء هذا الكبت «الجانبى»، لا بد أن تظهر أشدّ عنفاً مما لو لم تعترض أية عقبة فعلية سبيل الإشباع الجنسي السوي. ونحن نلاحظ على كل حال تأثيراً مماثلاً فيما يتصل بالانحرافات المجهور بها. فهذه الانحرافات تستثار أو تنشّط في الحالات التي يرتطم فيها الإشباع الجنسي السوي بعقبات كأداء غير قابلة للتذليل بحكم ظروف طارئة أو شروط اجتماعية مستديمة. وغني عن البيان أن الميول المنحرفة تكون في حالات أخرى مستقلة عن الظروف أو الشروط القمينة بأن تيسّر ظهورها، وتؤلف بالنسبة إلى الأفراد الذين تظهر عندهم النمط الطبيعي لحياتهم الجنسية.

ربما ساورككم انطباع بأنه، بدلاً من أن نجلو العلاقات بين الجنسية السوية والجنسية المنحرفة، لم نزدها إلا خلطاً وتشويشاً. لكن ليقرّ في أذهانكم ما يلي: لئن صحّ أن الميول المنحرفة تظهر لدى الأشخاص المحرومين من إمكانية الظفر بإشباع جنسي سوي، وأنها لولا هذا الحرمان لما كنت ظهرت قط، فلا مناص لنا من التسليم بأنه يوجد لدى هؤلاء الأشخاص على كل حال شيء كان يهيئهم مقدماً لهذه الانحرافات، أو إن شئتم فلنقل إن هذه الانحرافات كانت موجودة لديهم في حالة كمون. فإن سلّمنا بذلك نصل إلى ثانية الواقعتين الجديتين اللتين كنت حدثتكم عنهما. فقد وجد المبحث التحليلي النفسي نفسه مكرهاً على توجيه اهتمامه إلى حياة الطفل الجنسية أيضاً، وقد قسره على ذلك كون الذكريات والخواطر التي تتوارد إلى أذهان الأفراد أثناء تحليل أعراضهم ترتدّ بالتحليل دوماً وأبداً إلى الأعوام الأولى من طفولة هؤلاء الأفراد. وجميع الاستنتاجات التي صغناها بصدد هذه الواقعة قد أثبتت صحتها بنداً بنداً المشاهدات والمعانيات المباشرة على الأطفال. وقد ثبت لنا أن جميع الميول المنحرفة تؤثّل جذورها في الطفولة، وأن الأطفال يحملون في أنفسهم الاستعدادات المسبقة لهذه الميول التي يفصحون عنها بالقدر الذي يتمشى مع

عدم نضجهم، وبالاختصار، أن الجنسية المنحرفة ليست شيئاً آخر سوى الجنسية الطفلية وقد تضخمت وتفككت إلى حثائتها الجزئية.

هذه المرة سترون إلى الانحرافات من زاوية أخرى، ولن يسعكم بعد الآن أن تتجاهلوا صلاتها بحياة الإنسان الجنسية. لكن كم يستأديكم ذلك من مفاجآت وخيبات مؤلمة! ستتزعون بادئ الأمر إلى إنكار كل شيء: ستتكرون أن يكون لدى الأطفال شيء يستأهل اسم الحياة الجنسية، وستتكرون صحة ملاحظاتي وحقي في أن أرى في سلوك الأطفال صلة قربي بما نصممه لدى الأشخاص الأكبر سنّاً بأنه انحراف. اسمحو لي إذاً أولاً بأن أفشّر لكم أسباب مقاومتكم، قبل أن أنتقل في مرحلة ثانية إلى عرض مجمل ملاحظاتي عليكم. فأما الزعم بأن الأطفال لا حياة جنسية لهم - لا إثارات جنسية ولا حاجات جنسية ولا أي ضرب من الإشباع الجنسي - وبأن هذه الحياة تستيقظ لديهم على نحو مباغت في ما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من العمر، فزعم لا يعده في بعد الاحتمال، بل في التهافت والسخف من وجهة النظر البيولوجية - وهذا بصرف النظر عن كل ملاحظة أخرى - سوى الزعم بأن الأطفال يولدون بلا أعضاء تناسلية، وبأن هذه الأعضاء لا تظهر لديهم إلا في سن البلوغ. والحق أن ما يستيقظ لدى الأولاد في تلك السن هي وظيفة التناسل التي تستخدم، لتحقيق أهدافها، جهازاً جسمانياً ونفسانياً موجوداً من قبل. وإنكم لتقعون في الخطأ إذ تخلطون بين الجنسية والتناسل، وبهذا الخطأ تسدون على أنفسكم المنفذ إلى فهم الجنسية والانحرافات والأعصبة. بيد أن هذا الخطأ ذو دلالة ومغزى. والعجيب أن مصدره يكمن في أنكم كنتم بدوركم أطفالاً، فتعرضتم بهذه الصفة لتأثير التربية. فالتجمع يرى أن من مهامه الرئيسة، من وجهة نظر التربية، أن يلجم الدافع الغريزي^(٨) الجنسي حين يتظاهر كحاجة إلى الإنجاب، وأن يحده، وأن يخضعه

٨ - يؤثر فرويد أن يستخدم في جميع نصوصه مفهوم الدافع الغريزي Pulsion بدل الغريزة Instinct بالنظر إلى أن هذه الأخيرة أجدر بأن تنسب إلى الحيوان من حيث أنها لا تقبل المقاومة وتزعم نزوعاً جبرياً إلى الإشباع، بينما الدافع الغريزي أجدر بأن يُنسب إلى الإنسان من حيث قابليته للمقاومة وللامتنال لروادع أخلاقية وقانونية وحتى جمالية. «م».

لإرادة فردية ممثلة للفسر الاجتماعي. والمجتمع معني أيضاً بتأخير التطور الكامل للحاجة الجنسية إلى حين بلوغ الطفل درجة معينة من النضج الاجتماعي، إذ إن سلطان التربية على الطفل يتلاشى حالما يكتمل هذا التطور. ولو تظاهرت الجنسية في سن مبكرة أكثر مما ينبغي، لحطمت الحواجز كافة ولطوّحت بجميع النتائج التي ما أمكن للحضارة الوصول إليها إلا بعد طول لأي وعناء. ومهمة الجم الحاجة الجنسية ليست بحال من الأحوال سهلة؛ فتارة تكبح كبحاً مجاوز الحد، وطوراً يكون لجمها يسيراً فلا يفي بالمطلوب. والأساس الذي يقوم عليه المجتمع البشري هو، في التحليل الأخير، من طبيعة اقتصادية: فنظراً إلى أن هذا المجتمع لا تتوفر له الوسائل الكافية لإعاشة أعضائه من دون أن يعملوا ويكدحوا، يجد نفسه مضطراً إلى تحديد عدد أعضائه وإلى تحويل اتجاه طاقتهم من النشاط الجنسي إلى العمل. وتلكم هي بالتحديد الضرورة الحيوية الخالدة، هذه الضرورة التي ولدت مع الإنسان ولا تزال إلى اليوم قائمة.

لقد علّمت التجربة المربين، ولا بدّ، أن مهمة تطويع الإرادة الجنسية للجيل الناشئ غير قابلة للتحقيق إلا إذا حملوا الأطفال منذ نعومة أظفارهم، وبدون انتظار هبوب عاصفة البلوغ، على إخضاع حياتهم الجنسية لانضباط يكون بمثابة تمهيد لانضباط سن الرشد. ولهذا حطّروا على الأطفال جميع النشاطات الجنسية الطفلية، وصرفوهم عنها، يراودهم في ذلك أمل مثالي في أن يجعلوا حياتهم لاجنسية. وقد انتهى بهم الأمر رويداً رويداً إلى الاعتقاد بأن حياة الأطفال لاجنسية فعلاً، وهو اعتقاد أيّده العلم الرسمي وثبته. وتحاشياً لمخالفة المعتقدات الراسخة في أذهانهم والمرامي التي ينشدونها، غصّوا النظر عن نشاط الطفل الجنسي وأهمّلوه - وهذه تجلية ليست مما لا يُعتدّ به - أو اكتفوا على صعيد العلم بتصوره تصوراً مغايراً لما هو عليه حقاً. فقد افترضوا الطهر والبراءة بالطفل، ومن وصفه بغير هذا الوصف اتهموه بانتهاك المحرمات وبالتطاول المندس على أرقّ عواطف الإنسانية وأقدسها.

والأطفال هم وحدهم الذين لم ينخدعوا بهذه المواقفات، فهم يجهرون بكل سذاجة بحقوقهم الشهوانية، ويدللون في كل لحظة وآن على أن طريق

الطهر لا يزال بالنسبة إليهم في أوله لم يقطعوا منه شوطاً. والعجيب أن أولئك الذين ينكرون الجنسية الطفلية لا يتخلون، رغم هذا الإنكار، عن سلاح التربية، ولا يتوانون عن إدانة تظاهرات ما ينكرونه أصرم الإدانة دامغين إياها بأنها «عادات طفلية سيئة». والأمر الذي له أهميته البالغة من الناحية النظرية، علاوة على ذلك، أن السنوات الخمس أو الست الأولى من الحياة، وهي المرحلة التي لا يصدق عليها بحال من الأحوال الحكم المسبق عن لاجنسية الطفولة، يلقيها لدى أكثر الناس ضباب من النسيان لا يفلح في قشعه سوى التنقيب التحليلي، وإن كان يشقّ عن نفسه، كما ثبت ذلك من قبل، في بعض تشكيلات الأحلام.

والآن سأعرض عليكم أوضح ما يمكن أن يتجلى لنا حين ندرس حياة الطفل الجنسية. ولمزيد من الإيضاح سأستأذنكم بأن أشرح هنا مفهوم الليبدو. فالليبدو يشير، مثله مثل الجوع بوجه عام، إلى القوة التي يتظاهر بها الدافع الغريزي الجنسي على نحو ما يتظاهر به في حالة الجوع الدافع الغريزي إلى طلب الغذاء. وثمة مفاهيم أخرى، كالإثارة الجنسية والإشباع، لا تحتاج إلى شرح وتفسير. وسوف ترون، وقد تقبلون هذه الحجة عليّ، أن نشاطات الرضيع الجنسية تفتح للتأويل حقلاً لا نهاية له، ويكون الوصول إلى هذه التأويل عن طريق إخضاع الأعراض لتحليل ارتجاعي. فأولى تظاهرات الجنسية التي تتجلى لدى الرضيع ترتبط بوظائف حيوية أخرى. فاهتمامه الرئيسي ينصبّ، كما تعلمون، على امتصاص الغذاء. فحين ينام على صدر أمه وقد أصاب خطأً موفوراً من ثديها، بدت عليه أمارات الرضى والارتياح نظير ما سيبدو منها لاحقاً حين سيفوز بالإشباع الجنسي. غير أن هذا وحده لا يكفي لنخلص منه إلى نتيجة محددة. لكننا نشاهد أن الرضيع ينزع على الدوام إلى معاودة امتصاص الغذاء، لا لأنه لا تزال به حاجة إليه، بل لمجرد تكرار حركات الرضاعة. فنقول عنه حينئذ إنه «يمصص». ويتابع على هذا المنوال إلى أن يأخذ النوم من جديد وقد بدا عليه الاغتباط، مما يدلنا أن فعل المصاصة وفّر له بذاته لذة ومعة. وينتهي به الأمر في العادة إلى ألا يستطيع النوم من دون أن

يخصص. وكان الدكتور د. لندرن LINDNER^(٩)، طبيب الأطفال من بودابست، هو أول من أكد الطبيعة الجنسية لهذا الفعل. ويبدو أن الأشخاص الذين يبدلون العناية للطفل، ولا يتكلمون الأخذ بموقف نظري مسبق، يصدر عنهم على هذا الفعل حكماً مشابهاً. فهم يدركون حق الإدراك أنه لا غرض له سوى تأمين لذة ومتعة، ويعتدونه من قبيل «العادات السيئة»؛ فإذا أبى الطفل أن يقلع بطوع نفسه عن هذه العادة عملوا على تحريره منها بأن يقرنوها بانطباعات مستكرهة. هكذا نرى أن الرضيع يؤدي أفعالاً لا يرمي منها إلى غرض آخر غير الظفر بلذّة. ونحن نعتقد أنه يشعر بهذه اللذة لأول مرة وهو يرضع الحليب، لكنه سرعان ما يتعلم أن يفصلها عن هذا الشرط. ونرجع هذا الإحساس اللذي إلى منطقة الفم والشفيتين، ونسمي هذه المنطقة منطقة شهوية، ونعدّ اللذة المتأتية عن فعل المصّ لذة جنسية. ولنا عودة بكل تأكيد إلى مناقشة مشروعية هاتين التسميتين.

لو كان الرضيع يملك أن يفصح عما يشعر به، لصرّح بلا شك أن مصّ ثدي الأم هو الفعل الأهمّ في الحياة. ولن يكون مخطئاً كل الخطأ في قوله هذا، لأنه يلي عن طريق هذا الفعل حاجتين كبيرتين من حاجات الحياة. وليس لنا إلا أن نفجأ بعض الشيء حين يكشف لنا التحليل النفسي عن عمق الأهمية النفسية لهذا الفعل الذي تبقى آثاره مدى الحياة. ففعل مصّ ثدي الأم يغدو نقطة الانطلاق للحياة الجنسية بأسرها، والمثل الأعلى الذي يعزّز إدراكه في كل إشباع جنسي لاحق والذي يصبو إليه الخيال في ساعات إلحاح الحاجة واشتداد الحرمان. هكذا يؤلف ثدي الأم الموضوع الأول للدافع الغريزي الجنسي. ولست مستطیعاً - ولو حاولت - أن أعطيكم فكرة كافية عن أهمية هذا الموضوع الأول في كل نشدان لاحق للمواضيع الجنسية، وعن عمق ما له من تأثير، بكل تحولاته واستبدالاته، في أقصى مضامير حياتنا النفسية وأنأى مناطقها. لكن الطفل لا

٩ - صمويل لندرن: طبيب أطفال مجري سبق لفرويد أن استشهد به في كتابه ثلاثة مباحث في نظرية الجنسية (١٩٠٥). والإحالة هنا كما من قبل إلى محاضراته عام ١٨٧٩ أمام أعضاء جمعية بودابست الملكية: مصّ الأصابع والشفيتين، إلخ، لدى الأطفال. «م».



يعتم أن يذّر مصّ ثدي الأم ليستعويض عنه بجزء من جسمه بالذات. فيطلق يمحّص إبهامه أو لسانه. وبذلك يتدبر لنفسه لذة، من دون أن تكون به حاجة إلى موافقة العالم الخارجي، فضلاً عن أن التجاءه إلى منطقة ثانية من جسمه يزيد من شدة تهيّجه. والمناطق الشهوية لا تتساوى جميعاً في فعاليتها؛ وعليه، إنها لتجربة بالغة الأهمية في حياة الرضيع، على نحو ما يروي لندرن، حين يكتشف، لدأبه على تحسّس جسمه، تلك المواضع القابلة للتهيّج أكثر من غيرها، أي أعضاء التناسلية؛ وهكذا يهتدي إلى الطريق الذي لا بدّ أن يقوده يوماً إلى الاستمنا.

لقد وقفنا، في معرض تنويعنا بأهمية فعل المصحّ، على خاصيتين رئيسيتين للجنسية الطفالية. فهذه الجنسية ترتبط بإشباع الحاجات العضوية الكبرى، كما أن مسلكها إيروسي ذاتي، أي أن الرضيع يلتقي مواضعها في جسمه بالذات. وما ظهر بأجلّ الوضوح في فعل امتصاص الغذاء يتكرر جزئياً في فعل التبرّز. ونستنتج من ذلك أن اطراح البول ومحتوى الأمعاء هو عند الطفل مصدر لذة ومتعة، وأنه سرعان ما يعمل على تنظيم هذه الأفعال بحيث يتأتى له منها أكبر قدر من اللذة، بفضل ما يصاحبها من تهيّج للمناطق الشهوية في الأغشية المخاطية. فإذا ما وصل إلى هذا الطور بدا له العالم الخارجي، بحسب ملاحظة لو أندرياس Lou Andreas^(١٠) الثاقبة، أشبه بعقبة، بقوة مناوئة لالتماسه اللذة والمتعة، تكون له بمثابة إشارة إلى ما ينتظره في المستقبل من صراعات خارجية وداخلية. فهذا العالم يمنعه من التخلص من فضلاته كيف ومتى شاء، ويرغمه على التقيّد بتعليمات غيره من الأشخاص. ولحملة على العزوف عن مصادر المتعة هذه يلقى في ذهنه أن كل ما له صلة بوظيفتي التبول والتغوط غير محتشم، وينبغي أن يحجب عن الأنظار. وبذا يضطر إلى التخلي عن اللذة باسم الوقار الاجتماعي. والحق أن الطفل لا يشعر في بادئ الأمر بأي قرف من فضلاته، بل يعدّها جزءاً من جسمه، ولا يفرق عنها إلا كارهاً، ويودّ لو يستخدمها كـ«هدية»

١٠ - لو أندرياس - سالومي: كاتبة ألمانية من أصل روسي (١٨٦١ - ١٩٣٧). صديقة لفرويد ولابنته آنا، وبينهما تراسل. والإحالة هنا إلى مقالها «الشرجي والجنسي» المنشور في مجلة «إيماغو» (١٩١٦).

أولى يخصّ بها من يحبّهم من الأشخاص ويقدمهم على غيرهم. وحتى بعد أن تقلح التربية في تحريره من هذه النزاع، يصب على «هدايا» و«نقوده» القيمة التي كان يضيفها على فضلاته. ثم إنه يظل يتباهى بوجه خاص بتجلياته في مضممار فعل التبول.

أشعر أنكم تغضبون أنفسكم حتى لا تقاطعوني وتصيحوا بي: «بحسبنا هذه المقابح! كيف لك أن تزعم أن التغوط مصدر للإشباع الجنسي يرذّهُ حتى الرضيع! وأن البراز مادة ثمينة، والشرح ضرب من الأعضاء التناسلية! هذا ما لا نملك أن نصدّقه أبداً، وإننا لنفهم على كل حال لماذا لا يريد المربون وأطباء الأطفال أن يسمعوهم بالتحليل النفسي أو بنتائج». كلا يا سادتي! فقد نسيتم فقط أنني ما حدثتكم عن حقائق الحياة الجنسية الطفلية إلا من حيث صلتها بوقائع الانحرافات الجنسية. فما الداعي لأن لا تعلموا أن الشرح ينوب مناب المهبل في العلاقات الجنسية لدى كثرة من الراشدين، سواء أكانوا من ذوي الجنسية المثلية أم الغيرية؟ وما الداعي لأن لا تعلموا أن هناك أشخاصاً يبقى فعل التغوط لديهم، على مدى حياتهم، مصدراً للذة لا يستهينون به؟ أما إذا شئتم أن تعلموا ما يثيره فعل التغوط من اهتمام لدى الآخرين وما يمكن أن يبتعثه من متعة لدى الناظرين منهم إليه، فما عليكم إلا أن تتوجهوا بالسؤال إلى الأطفال أنفسهم حين يتقدم بهم العمر قليلاً ويقفرون على الكلام عن هذه الأشياء. وغني عن البيان أنه يتعيّن عليكم أن تحاذروا تخويف هؤلاء الأطفال، لأنكم لو فعلتم فلن تظفروا منهم بشيء. أما فيما يتصل بالأشياء الأخرى التي لا تريدون أن تصدقوها، فأحيلكم إلى نتائج تحليل الأطفال وإخضاعهم للملاحظة المباشرة، وأؤكد لكم أنه لا بدّ أن يصدر المرء عن سوء نية حتى لا يرى هذه الأشياء، أو حتى يراها على غير ما هي عليه. ولست أرى من محذور إن أدهشكم ما أصادر عليه من صلة القربى بين النشاط الجنسي الطفلي والانحرافات الجنسية، مع العلم أن هذه صلة طبيعية تماماً: فإن تكن للطفل حياة جنسية، فلا مناص من أن تكون من طبيعة منحرفة، على اعتبار أنها تفتقر، خلا بعض الإشارات المبهمة، إلى كل ما من شأنه أن يحيل الجنسية إلى وظيفة إنجابية. ومن جهة أخرى، إن السمة

الميزة للانحرافات جميعاً جهلها بالهدف الأول للجنسية، أي التناسل. وبالفعل، إن صفة الانحراف تطلق على كل نشاط جنسي يعزف عن الإنجاب ويطلب اللذة كهدف مستقل عن التناسل. ومن هذا تفهمون أن يكون درج العُرف على اعتبار خط الفصل ونقطة الانعطاف في تطور الحياة الجنسية مرهونين بتبعية هذه الأخيرة لغايات التناسل. فكل ما يحدث قبل هذا الانعطاف، وكل ما لا يقع في إطاره، وكل ما يفيد في طلب اللذة مفصولة عنه، يُسمّى بذلك الاسم غير المحبّد: «الانحراف»، ويحاط بهذه الصفة بالازدراء.

دعوني إذاً أمضي في عرضي السريع للجنسية الطفلية. فكل ما قلته بصدد جهازين من أعضاء الجسم يمكن أن يُكمّل بسحبته على أجهزة أخرى. فحياة الطفل الجنسية تشتمل على مجموعة من الميول الجزئية، كل ميل منها يعمل مستقلاً عن سواه ويستخدم، بغرض الوصول إلى المتعة، إما جسم الطفل ذاته وأما مواضيع خارجية. ولا تلبث الأعضاء الجنسية أن تحتل مكانة الصدارة لا بين جملة الأعضاء التي يدور عليها النشاط الجنسي للطفل: فتمة أشخاص لا يعرفون مصدراً آخر للمتعة الجنسية غير أعضائهم التناسلية الخاصة، وذلك منذ طور الاستمناء اللاواعي في طفولتهم الأولى إلى الاستمناء القسدي في بلوغهم، وقد يمتدّ هذا الموقف عند بعضهم إلى ما بعد البلوغ بزمان طويل. وعلى كل، ليس الاستمناء واحداً من الموضوعات التي يمكن استيعابها بسهولة، بل يفسح في المجال على العكس لتأملات وتأويلات شتى.

بالرغم من حرصي على اختصار عرضي إلى أقصى حدّ مستطاع، أراني مضطراً إلى أن أحدثكم قليلاً عن فضول الأطفال الجنسي أيضاً. فهذا الفضول صفة مميزة بارزة للجنسية الطفلية، وينطوي على أهمية بالغة من منظور علم أعراض الأعصاب. يبدأ الفضول الجنسي لدى الطفل في زمن مبكر، وربما قبل السنة الثالثة أحياناً. ولا تكون نقطة انطلاقه الفروق الفاصلة بين الجنسين، إذ لا وجود لهذه الفروق في نظر الأطفال، وبخاصة الذكور منهم: فهم يعزّون إلى كلا الجنسين أعضاء تناسلية واحدة، هي أعضاء الجنس المذكور. فإذا اكتشف صبي لدى أخته أو لدى زميلة له في اللعب وجود المهبل، بادر أول الأمر إلى

إنكار شهادة حواسه، لأنه لا يستطيع أن يتصور مخلوقاً إنسانياً محروماً من ذلك العضو الذي يعلّق عليه رفيع القيمة. ولا يلبث، في طور لاحق، أن يتراجع مذعوراً أمام الاحتمال الذي يتكشف له، ويبدأ بالإحساس بتأثير بعض التهديدات التي كانت توجّه إليه على إسرافه بالاهتمام بعضوه الصغير. وهنا يقع تحت سلطان ما أسميناه بـ «عقدة الخصاء»، التي يؤثّر تشكّلها على طباعه إذا ظل سليماً سوياً، وعلى عصابه إذا ما ألّم به المرض، وعلى مقاوماته حين يخضع لمعالجة تحليلية. أما فيما يتعلق بالبت الصغيرة، فنعلم أنها تعتبر حرمانها من قضيب طويل منظور علامة من علائم دونيتها، وأنها تحسد الصبي على امتلاكه هذا العضو، وأنه تنبث لديها من جراء ذلك رغبة في أن تكون ذكراً، وأن هذه الرغبة ذات دور في العصاب الذي قد تقع ضحية له لاحقاً بنتيجة إخفاقها في أداء رسالتها كأثني. ويلعب البظر بالأصل لدى البنت الصغيرة دور القضيب، ويكون محطاً لقابلية كبيرة للتهيج، والعضو الذي منه تظفر البنت بالإشباع الإيروسى الذاتي. فإذا ما تحولت البنت الصغيرة إلى امرأة كانت العلامة الفارقة لهذا التحول انتقال تلك الحساسية برمتها وفي الوقت المرام من البظر إلى باب المهبل. وفي حالات الخدار الجنسي لدى المرأة يحافظ البظر على حساسيته كاملة.

ينصب اهتمام الطفل الجنسي في المقام الأول على معضلة معرفة المصدر الذي منه يأتي الأولاد، أي على المعضلة التي تختفي وراء اللغز الذي يطرحه أبو الهول الطبيي^(١١). وغالباً ما يستيقظ هذا الاهتمام من جراء الخوف الأناني الذي يبتعثه مقدم طفل جديد. والجواب الذي درجت العادة على إجابة الصغار به - وهو أن اللقلق هو الذي يأتي بالأطفال^(١٢) - لا يستقبله هؤلاء في أغلب الظن، بمن فيهم صغارهم، إلا بالارتياح والشك. وشعور الطفل بأن الأشخاص الكبار يخدعونهم

١١ - نسبة إلى مدينة طيبة أو ثيبة الإغريقية حيث كان موضع أبي الهول الذي يطرح على أوديب في مسرحية سوفوكلس سؤاله المشهور. «م».

١٢ - جرت التقاليد الشعبية في العديد من البلدان الأوروبية على تفسير واقعة الإنجاب لصغار الأطفال بأن اللقلق هو الذي يأتي بالطفل الجديد. «م».

يسهم بقسط موفور في انعزاله وفي تنمية استقلاله. غير أن الطفل ليس يقدر على أن يجد حلاً لهذه المعضلة بوسائله الخاصة. فتكوينه الجنسي غير المتطور بعد بما فيه الكفاية يرسم حدوداً لقدرته على المعرفة. فهو يسلم أول الأمر بأن الأطفال يأتون إلى الحياة من جراء تناول الطعام ممزوجاً بمواد خاصة، ويكون جاهلاً بعد بأن النساء هنّ وحدهن القادرات على الإنجاب. وعندما يعلم بهذه الحقيقة في زمن لاحق، يطرح جانباً التفسير الذي يعزو ولادة الأطفال إلى تناول أطعمة خاصة ويعدّه ضرباً من الحكايات الخرافية. ثم لا يلبث الطفل أن يدرك، متى ما كبر قليلاً، أن الأب يلعب دوراً ما في ظهور أطفال جدد، لكنه يظل عاجزاً عن تحديد هذا الدور. وإذا اتفق له أن ضبط مشهد فعل جنسي، رأى فيه محاولة غضب وصراعاً وحشياً: وذلك هو التصور السادي الخاطئ عن الجماع. بيد أنه لا يقيم صلة ارتباط مباشر بين هذا الفعل وبين قدوم أطفال جدد. وإن وقع نظره على أثر دم في فراش أمه أو على لباسها الداخلي، اكتفى بأن يرى فيه دليلاً على العنف الذي مارسه الأب معها. وفي طور لاحق يأخذ بالاشتباه بأن عضو الرجل التناسلي يلعب دوراً رئيسياً في ولادة أطفال جدد، لكنه يبقى عاجزاً عن أن يعزو إلى هذا العضو وظيفة أخرى غير إفراغ البول.

يجمع الأطفال في البداية على الاعتقاد بأن ولادة الطفل تكون عن طريق الشرج. ولا يتخلون عن هذه النظرية ويستعيضون عنها بأخرى تتوهم أن الطفل يولد من السرة التي تنفتح لهذا الغرض إلا بعد أن ينصرف اهتمامهم عن ذلك العضو. أو قد يجعلون من منطقة القصّ، أي ما بين الثديين، الموضع الذي يكون منه ظهور الوليد. هكذا يقترب الطفل، في تقصياته، من الحقائق الجنسية، أو يضله جهله فيسها عنها ويغفل إلى أن يأتيه تفسيرها في السنوات السابقة للبلوغ مباشرة، فيصحو من غفلته الأولى. لكن هذا التفسير غالباً ما يكون ناقصاً، إحباطياً، فيكون له فيه أثر كأثر الرضة.

سادتي، لقد تناهى إلى أسمعكم في أرجح الظن قول من يقول إن التحليل النفسي توسّع توسعاً مسرفاً في مفهوم الجنسية كيما تستقيم أطروحاته عن العلية الجنسية للأعصاب وعن الأهمية الجنسية للأعراض. وقد تهيأت لكم الآن القدرة

لتحكموا بأنفسكم إن كان هذا التوسع له ما يبرره أم لا. والحق أننا لم نتوسع في مفهوم الجنسية إلا بالقدر الذي يكفي ليستوعب أيضاً الحياة الجنسية للمنحرفين ولالأطفال. وبعبارة أخرى، إننا لم نزد على أن رددنا إليه سعته الحقيقية. أما ما يُقصد بالجنسية خارج نطاق التحليل النفسي فهو الجنسية التي ضُيِّقَ عليها الخناق، الجنسية التي لا غرض لها سوى خدمة التناسل، وبالاختصار، ما يسمى بالحياة الجنسية السوية.

الحاضرة الحادية والعشرون

تطور الليبدو والتنظيمات الجنسية

يتراءى لي، سادتي، أنني لم أفلح في إقناعكم إلى الحدّ الذي كنت أتمنى بما للانحرافات من أهمية في تصورنا للجنسية. وعليه سأعتمد هنا إلى تشذيب ما ذكرته لكم بصدد هذا الموضوع وتحسينه واستكمال به قدر الإمكان.

لا يذهبن بكم الظن إلى أن الانحرافات وحدها هي التي حدث بنا إلى تعديل مفهوم الجنسية على ذلك النحو الذي عاد علينا بأعنف معارضة. فدراسة الجنسية الطفلية كان لها في هذا التعديل قسط أوفر أيضاً، ولقد كان اتفاق النتائج التي تحصلت لنا من دراسة الانحرافات ودراسة الجنسية الطفلية حاسماً بالنسبة إلينا. غير أن تظاهرات الجنسية الطفلية، مهما تكن صريحة سافرة لدى الأطفال المتقدمين في مدارج الطفولة قليلاً، تبدو في بادئ الأمر محاطة بضباب الإبهام واللاتعین. وأولئك الذين لا يقيمون وزناً لتاريخ التطور وللسياق التحليلي سينكرون على تلك التظاهرات لا محالة كل طابع جنسي، وسيعززون إليها بالأحرى طبيعة غير متميزة. ولا تنسوا أنه ليس بحوزتنا بعد قرينة معترف بها من الجميع تتيح لنا التحقق من الطبيعة الجنسية لسيرورة من السيرورات، ونحن لا نعرف من هذا المنظور إلا وظيفة التناسل التي تقدّم قولنا إن التعريف الذي تسلم إليه أضيف مما ينبغي. أما المعايير البيولوجية كتلك الدورات التي تتكرر بمعدل ٢٣ و ٢٨ يوماً على ما يذهب إليه ث. فليس^(١) FLIESS، فلا تزال موضع خلاف

١ - فلهلم فليس: طبيب وبيولوجي برليني (١٨٥٨ - ١٩٢٨). ارتبط منذ عام ١٨٨٥ بصداقة حميمة مع فرويد، وامتد التراسل بينهما من ١٨٨٧ إلى ١٩٠٤، والرسائل المتبادلة بينهما ذات أهمية بالغة في فهم المذهب الفرويدي وتحليل فرويد لنفسه. وقد وضع فليس نظرية روحانية المنزع في الحياة الجنسية، سماها بنظرية الدورات، وبناها على دورة الطمث لدى المرأة، وتصور أن الدورية هي القانون الأساسي للنشاطات الحيوية لدى الإنسان والحيوان، وحتى للكون قاطبة. «٥».

شديد، كما لا تزال الخصائص الكيميائية للسيرورات الجنسية، وهي خصائص من حقناً أن نتكهن بوجودها، تنتظر من يميّز اللثام عنها. أما انحرافات الراشدين الجنسية فهي، على العكس، شيء ملموس، ولا يكتنفها أي لبس أو إبهام. وكما تدل تسميتها المقبول بها من الجميع، فإنها تنتمي بلا مرأى إلى الجنسية. وسواء أوصفت بأنها علائم انحطاط وانحلال أم لم توصف بهذا، فلم يجرؤ أحد بعد على تصنيفها في غير عداد ظاهرات الحياة الجنسية. ولو لم يكن ثمة وجود إلا للانحرافات وحدها، لكانت كافية إلى حد بعيد لتسوّع لنا التوكيد بأن الجنسية والتناسل لا يتطابقان، إذ من المعلوم أن الانحرافات بجملتها هي بمثابة نفي للهدف التناسلي.

هنا أرى منفذاً إلى موازنة لا تخلو من طرافة وفائدة. ففيما يخلط أغلب الناس بين «الشعوري» و«النفسي»، وجدنا أنفسنا مضطرين إلى التوسع بمفهوم «النفسي» وإلى الاعتراف بوجود نفس لاشعورية. كذلك يطابق بعض الناس بين «الجنسي» و«ما يتصل بالإنجاب»، أو «التناسلي» بمختصر العبارة، بينما لا نملك نحن إلا أن نسلّم بوجود «جنسي» غير «تناسلي» ولا صلة له بالإنجاب. والحال أن المطابقة المشار إليها شكلية صرف ولا تتركز إلى علل أعمق وأبعد غوراً.

لكن إن كان وجود الانحرافات الجنسية ينهض حجة دامغة في هذه المسألة، فكيف غفل الناس عن قوة هذه الحجة، فبقيت المسألة منذ طويل الآماد بلا حل؟ لست أملك جواباً عن هذا السؤال، لكن يترأى لي أن علة ذلك ينبغي أن نبحث عنها في ما أحيطت به الانحرافات الجنسية من استهجان واستبعاد انعكس على النظرية وحال دون دراسة تلك الانحرافات علمياً. فلكان الناس لا يرون في هذه الأخيرة شيئاً يبعث على التفرز فحسب، بل شيئاً فظيلاً وخطراً أيضاً، فكأنهم يخافون أن يقعوا في حبال إغرائها أو كأنهم مضطرون في حقيقة الأمر إلى أن يقيموا في داخل أنفسهم، وإزاء حملة تلك الانحرافات، غيرة دنيئة من النوع الذي يصرح به القاضي الإقطاعي في المحاكاة الساخرة المشهورة الموضوعة على لسان تانهاوزر^(٢):

٢ - تانهاوزر: شاعر ألماني (نحو ١٢٠٥ - ١٢٦٨). منشد جوال، له أغان وأشعار غنائية، صار بطلاً خرافياً للقصص الشعبي، ومنها الأوبرا المعروفة باسم تانهاوزر والتي وضع كلماتها وألحانها فاغتر سنة ١٨٤٥. «م».

«في فينوسبرغ نسي شرفه وواجهه!

- وأسفاه! لم يكتب لي قط أن يقع لي شيء من هذا!!».

والواقع أن المنحرفين أناس مساكين بالأحرى، يكفرون بأبهط الثمن عن الإشباع الذي يلقون من العسر ما يلقونه في الظفر به.

إن ما يجعل من النشاط المنحرف نشاطاً جنسياً لا مرأ فيه، بالرغم من غرابة موضوعه وهدفه، هو أن فعل الإشباع الجنسي ينتهي في أغلب الأحيان برعشة ORGASME كاملة وبقذف للسائل المنوي. وهذا لا يصدق بطبيعة الحال إلا على الراشدين من الأشخاص، أما لدى الأطفال فلا تكون الرعشة وقذف السائل المنوي بممكنين إلا فيما ندر، بل تنوب مناهما ظاهرات يتعذر أن نعزو إليها على الدوام، وعلى وجه اليقين، طابعاً جنسياً.

استكمالاً لما قلته بصدد أهمية الانحرافات الجنسية، أحرص على أن أضيف ما يلي أيضاً. فبالرغم من الاستهجان الذي تحاط به، وبالرغم من عمق الهوة التي يراد فصلها بها عن النشاط الجنسي السوي، فليس لأحد أن يتعاضد عن المشاهدة العيانية التي يندر ألا تظهر لنا أن الحياة الجنسية لدى الأسوياء مشوبة بهذه السمة أو تلك من سمات الانحراف. فالقبلة يمكن أن تنعت بأنها فعل منحرف، لأنها تتلخص في اتصال منطقتين فمويتين شهويتين، بدلاً من عضوين تناسليين من الجنسين المتقابلين. ومع ذلك لا يصد أحد عن القبلة باعتبارها منحرفة، بل هي، على العكس، مباحة على خشبة التمثيل المسرحي كتعبير مقنن عن الفعل الجنسي. والحال أن القبلة تنقلب بسهولة إلى فعل منحرف تام إذا بلغت من الشدة حداً تصحبه رعشة وقذف للسائل المنوي، وهذا شيء غير نادر الحدوث. ومن السهل أيضاً أن نلاحظ أن تملي الموضوع الجنسي بالنظر وتقريه باليد هو عند بعض الأشخاص شرط لازم للإشباع الجنسي، بينما لا يتمالك غيرهم أنفسهم، وهم في ذروة التهييج الجنسي، عن قرص شريكهم وعضه. ثم إن التهييج لدى العشاق بصفة عامة لا يبلغ أقصى مداه عن طريق الأعضاء التناسلية، بل عن طريق منطقة أخرى، أي كانت، من جسم الموضوع. وبوسعنا، لو شئنا، أن نطيل لائحة هذه المشاهدات إلى ما لا نهاية. وليس من المنطق في شيء أن نستبعد من

فئة الأسوياء هؤلاء الأشخاص وأن ندرجهم في عداد المنحرفين لمجرد تظاهر هذه الميول بصفة جزئية لديهم. بل بات من الأمور المسلّم بها بجلاء متعاطف أن الطابع الرئيسي للانحرافات يكمن لا في تجاوزها الهدف الجنسي، أو في الاستعاضة عن الأعضاء التناسلية بأعضاء غيرها، أو في تنويعها للموضوع، بل بالأحرى في ثبات هذه الحيدانات وفي حصريتها، مما يجعلها منافية للفعل الجنسي الذي هو شرط التناسل. أما إذا لم تتدخل الأفعال المنحرفة في إنجاز الفعل الجنسي إلا على سبيل التمهيد أو التعضيد له، فمن الظلم والجور أن نطلق عليها اسم الانحرافات. وغني عن البيان أن هذه الوقائع قميّة بأن تردم إلى حدّ ما الهوية التي تفصل الجنسية السوية عن الجنسية المنحرفة. ومن هذه الوقائع يتأكد لنا على نحو لا مماراة فيه أن الجنسية السوية هي من نتاج شيء وجد قبلها، وأنها لم يتسن لها أن تتكون إلا بعد أن أزاحت بعض هذه المواد السابقة الوجود باعتبارها مواد غير قابلة للاستعمال وحافظت بالمقابل على المواد الباقية واستلحققتها بهدف التناسل.

قبل أن نستخدم المعلومات التي حصلناها بصدد الانحرافات لنشرع على ضوئها بدراسة جديدة معمّقة للجنسية الطفلية، أودّ أن ألقت انتباهكم إلى فارق هام بين تلك وهذه. فالجنسية المنحرفة متمركزة في العادة أشدّ التمركز، وجميع تظاهرات نشاطها تنزع نحو الهدف نفسه - وهو في غالب الأحيان واحد لا يتغيّر - وفي العادة يتغلب أحد الميول الجزئية على ما عداه فيتظاهر إما منفرداً دون سائر الميول، وإما بعد أن يستلحق سائر الميول بمراميه الخاصة. ولا يوجد، من هذا المنظور، من فارق آخر بين الجنسية السوية والجنسية المنحرفة سوى ذاك الذي يتمثل في الاختلاف بين ميولهما الجزئية الغالبة، وبالتالي بين أهدافهما الجنسية. وبوسعنا القول إنه ثمة في كل منهما حكومة مستبدّة محكمة التنظيم، ولا اختلاف بينهما إلا اختلاف الحزب الذي أفلح في الإمساك بزمام السلطة. وبالمقابل، إن الجنسية الطفلية لا وجود فيها، منظوراً إليها في جملتها، لمركزة ولا لتنظيم، إذ إن جميع الميول الجزئية تتمتع بحقوق متماثلة، وكل منها ينشد المتعة لحسابه الخاص. وغياب المركزة من جهة ووجودها من جهة أخرى يتمشيان بطبيعة الحال مع واقع أن الجنسيتين كليهما، المنحرفة والسوية، مشتقتان من

الجنسية الطفلية. وثمة بالأصل حالات من الجنسية المنحرفة تشبه الجنسية الطفلية شَبهاً أكبر بكثير، بمعنى أن العديد من الميول الجزئية فيها تسعى إلى أهدافها بصورة مستقلة عن الميول الأخرى وبلا اكتراث بها. غير أن هذه الحالات أدنى إلى الطفالة INFANTILISME الجنسية منها إلى الانحرافات.

في مقدورنا الآن، وقد تهيأنا التهيؤ الكافي، أن نتصدى لمناقشة اعتراض لا مناص من أن يوجَّه إلينا. فسوف يقال لنا: «لَمْ تعاند في إطلاق اسم الجنسية على تظاهرات الطفولة هذه التي تقرّ أنت نفسك بأنها غير قابلة للتحديد والتي لا تغدو جنسية إلا في زمن لاحق؟ لَمْ لا تكتفي بالوصف الفيزيولوجي وحده، فتقول بكل بساطة إنه تُلاحظ لدى الرضيع نشاطات كالمصّ وإمساك الفضلات تتم فقط عن أن الطفل يلتمس اللذة التي يمكن له أن يستمتع بها عن طريق أعضاء معينة من جسمه؟ فلو قلت ذلك لتحاثيت استفزاز مشاعر سامعيك وقرائك بما تعزوه من حياة جنسية إلى الأطفال الذين لم يتجاوزوا الطور الأول من عمرهم». من المؤكد أنه ليس عندي أي اعتراض على احتمال أن تُلتبس اللذات عن طريق هذا العضو أو ذاك من أعضاء الجسم، وأنا أعلم أن اللذة الكبرى، اللذة التي تتأتى من المجامعة، ما هي إلا لذة مصاحبة لنشاط الأعضاء الجنسية. لكن هل لكم أن تقولوا لي كيف ولماذا تتلبس هذه «اللذة العضوانية»، اللامتمايزة في البداية، ذلك الطابع الجنسي الذي تبدى به بلا مرأى في أطوار النمو اللاحقة؟ وهل معرفتنا بـ «اللذة العضوانية» أوسع وأفضل من معرفتنا بالجنسية؟ ستجيبونني بأن الطابع الجنسي يتبدى تحديداً يوم تطفق الأعضاء التناسلية تؤدي دورها، ويوم يتطابق الجنسي مع التناسلي ويختلط به، وستدحضون الاعتراض الذي قد أستمده من وجود الانحرافات بأن تقولوا لي إن هدف أغلب الانحرافات هو، في خاتمة المطاف، الظفر بالعرشة التناسلية ولو بطريق آخر غير طريق تزواج الأعضاء التناسلية. وبالفعل، إنكم تحسّنون موقفكم تحسناً ملموساً باستبعادكم من خصائص الجنسية صلتها بالتناسل، وهي صلة تنفي الانحرافات وجودها. وبذلك تنزلون بالتناسل إلى مرتبة دنيا لتفسحوا مكانة الصدارة للنشاط الجنسي الصرف. لكن هنا يتضح أن الخلافات التي تباعد بيننا

أضال نطقاً مما تظنون: فنحن نضع فقط الأعضاء التناسلية بجانب غيرها من الأعضاء. فترى ماذا أنتم فاعلون بالتجارب والمشاهدات العديدة التي تدل على أن الأعضاء التناسلية يمكن استبدالها، كمصدر للذة، بأعضاء أخرى، كما في القبلية العادية على سبيل المثال، أو كما في الممارسات المنحرفة عند بعض الداعرين، أو كما في أعراض الهستيريا؟ وفي الهستيريا تحديداً كثيراً ما يحدث أن تتقل ظاهرات التهيج والإحساسات والتعصيبات INNERVATIONS، وحتى سيرورات الانتعاض، من الأعضاء التناسلية إلى مناطق أخرى من الجسم، غالباً ما تكون بعيدة عن الأولى (الرأس والوجه على سبيل المثال). فإذا ما قرّ في أذهانكم على هذا النحو أنه لم يبقَ لديكم شيء مما يمكن أن تشبهوا به في تحديدكم خصائص ما تسمّونه بالجنسي، وجدتم أنفسكم مكرهين على حذو حذوي وعلى توسيع مفهوم «الجنسي» ليشمل أيضاً نشاطات الطفولة الأولى الملتزمة للذة العضوانية.

ولسوف ترون أني محق تماماً في ما أذهب إليه لو أخذتم في حسابكم الاعتبارين التاليين. فنحن نطلق، كما تعلمون، صفة الجنسية على النشاطات المبهمة غير القابلة للتحديد والساعية وراء اللذة في الطفولة الأولى. وقد أرغمنا على الأخذ بهذه النظرة المواد التي زوّدنا بها تحليل الأعراض والتي لا وراء في طبيعتها الجنسية. غير أنكم قد تعترضون بالقول بأنه إذا كانت هذه المواد ذات طبيعة جنسية لا وراء فيها، فليس يترتب على ذلك أن النشاطات الطفولية المتجهة نحو نشدان اللذة هي بدورها جنسية. أوافقكم. لكن لننظر في حالة مشابهة. افرضوا أننا لا نملك أية وسيلة لمراقبة نمو نباتين من ذوات الفلقتين، كالنفاج واللوبياء مثلاً، ابتداء من نواة كل منهما، وأنه في وسعنا بالمقابل في كلتا الحالتين أن نتبع نموهما بالطريق المعاكس، أي ابتداء من الفرد النباتي المكتمل النمو وانتهاء بالجنين النباتي الأول الذي ليس له سوى فلقتين. فهاتان الأخيرتان تبدوان متماثلتين في كلتا الحالتين حتى ليصعب التمييز بينهما. فهل يتعين علينا أن نستنتج من ذلك أن هناك تطابقاً فعلياً، وأن الفارق النوعي القائم بين النفاج واللوبياء لا يظهر إلى حيّز الوجود إلا في وقت لاحق أثناء النمو؟ أليس من

الأصح، من وجهة النظر البيولوجية، التسليم بأن هذا الفارق موجود في الجنين، رغم التطابق الظاهر في الفلقات؟ هذا بالضبط ما نفعله إذ نطلق صفة الجنسية على اللذة التي تتأتى من نشاطات الرضيع. أما معرفة ما إذا كان يتعين وصف كل لذة عضوانية بأنها جنسية أو ما إذا كان هناك، إلى جانب اللذة الجنسية، لذة أخرى من طبيعة مغايرة، فتلك مسألة لا يسعني أن أناقشها هنا. وأنا لا أعلم إلا النزر اليسير عن اللذة العضوانية وعن شروطها، ولا عجب إن قادنا تحليلنا التراجعي في خاتمة المطاف إلى عوامل غير قابلة للتحديد في الوقت الحاضر.

ثمة ملاحظة أخرى! إنكم لن تجتدوا، في خاتمة الحساب، فائدة تذكر لصالح مدّعاكم عن طهر الطفل الجنسي، حتى على فرض أنكم أفلحتم في إقناعي بأن هناك أسباباً وجيهة تحمّلنا على ألا نعتبر نشاطات الرضيع جنسية. ذلك أن حياة الطفل الجنسية لا تعود، منذ السنة الثالثة، موضعاً لأدنى شك. فابتداء من تلك السن تغدو الأعضاء التناسلية قابلة للانتعاض، بل كثيراً ما تلاحظ في ذلك العمر مرحلة استمناء طفلي، أي إشباع جنسي. وتقطع التظاهرات النفسية والاجتماعية للحياة الجنسية دابر كل شك: اختيار الموضوع، إثارة أشخاص معيّنين عاطفياً، بل انحياز لصالح أحد الجنسين واستثناء الآخر، وغير هذه من الوقائع التي لاحظها مراقبون غير متحيّزين من خارج نطاق التحليل النفسي وقبل ظهوره، والتي يمكن أن يتحقق من صحتها كل من به رغبة في رؤية الأشياء على حقيقتها. ستقولون لي إنكم لم تماروا قط في الظهور المبكر للمحبة لدى الطفل، غير أنكم تشكون فقط في طابعها «الجنسي». ومن المؤكد أن الأطفال في ما بين الثالثة والثامنة يكونون قد تعلموا كيف يخفون هذا الطابع ويموهونه، لكنكم لو دققتم النظر لاكتشفتم قرائن كثيرة على المرامي «الحسية» لتلك المحبة، وما قد لا يقع أيضاً تحت ملاحظتكم المباشرة سيتضح بسهولة عقب استقصاء تحليلي. وترتبط أهداف الجنسية في هذه المرحلة من الحياة ارتباطاً وثيقاً بحب الاستطلاع الجنسي الذي يشغل بال الأطفال في ذلك الطور نفسه والذي سقت لكم بضعة أمثلة منه. أما الطابع المنحرف لبعض هذه الأهداف فيجد تفسيره الطبيعي في عدم نضج تكوين الطفل الذي لا يكون قد اكتشف بعد الغاية التي يخدمها فعل التزاوج والمجاعة.

بين السادسة والثامنة من العمر يتوقف النمو الجنسي لفترة من الوقت أو ينتكس، وهذا الطور جدير بأن يُسمَّى طور الكمون في الحالات الموائمة حضارياً. وطور الكمون هذا ليس محتملاً، غير أن ظهوره لا يستتبع بالضرورة توقفاً تاماً للنشاطات ولاهتمامات الجنسية. وعندئذ تطوي يد النسيان الطفلية أغلب الخبرات المعاشة والحالات النفسية السابقة لطور الكمون، فتسقط في لجة ذلك النسيان الذي تكلمنا عنه والذي يخفي عنا حادثتنا الأولى ويجعلنا عنها كالغرباء. ومهمة كل تحليل نفسي أن يحيي من جديد ذكرى ذلك الطور المنسي من الحياة؛ ولا يسعنا أن نمسك عن الاشتباه بأن علة هذا النسيان إنما تكمن في بدايات الحياة الجنسية العائدة إلى ذلك الطور، وبأن النسيان بالتالي ناجم عن الكبت.

بدءاً من السنة الثالثة تغدو حياة الطفل الجنسية مشابهة في كثير من وجوها للحياة الراشد الجنسية، ولا تتميز عن هذه الأخيرة إلا بعدم وجود تنظيم محكم تحت زعامة الأعضاء التناسلية، وإلا بطابعها المنحرف الذي لا مزية فيه، وبضعف شدة الدافع الغريزي إجمالاً بطبيعة الحال. لكن الأطوار الأكثر إثارة للاهتمام، من الناحية النظرية، من النمو الجنسي، أو من تطور الليبيدو كما نؤثر أن نقول، هي الأطوار السابقة لتلك المرحلة. فهذا التطور يتم بسرعة كبيرة، مما لا يتيح للملاحظة المباشرة في الأرجح أن توفَّق إلى تثبيت صورته السريعة الزوال. وإنما الدراسة التحليلية النفسية للأعصبة هي وحدها التي أتاحت لنا القدرة على اكتشاف أطوار أكثر إيغالاً في الزمن بعد في تطور الليبيدو. وصحيح أن هذه محض إنشاءات نظرية، غير أن الممارسة العملية للتحليل النفسي ستظهر لكم أن هذه الإنشاءات ضرورية ونافعة. وسترون عما قليل لماذا يتأتى لعلم الحالات المرضية أن يكتشف هنا وقائع لا مجال لأن تقع تحت إدراكنا في الحالات السوية.

بوسعنا الآن أن نوضح المظهر الذي تتلبسه حياة الطفل الجنسية قبل أن تتوطد زعامة الأعضاء التناسلية، تلك الزعامة التي يتم تمهيد السبيل أمامها في المرحلة الطفلية الأولى السابقة لطور الكمون والتي تعكف على تنظيم نفسها بمبتانة وإحكام ابتداء من سن البلوغ. وعلى امتداد تلك الحقبة الأولى كلها يقوم ضرب من تنظيم رخو نسميه بالتنظيم القبتناسلي. غير أن مكانة الصدارة في هذه الحقبة

تشغلها، لا الدوافع الغريزية التناسلية الجزئية، بل الدوافع الغريزية السادية والشرجية. ولا يلعب التعارض بين المذكر والمؤنث أي دور بعد، بل نجد في مكانه التعارض بين الموجب والسالب، وهو تعارض يمكننا اعتباره باكورة القطبية الجنسية التي لن يلبث أصلاً أن يندمج بها في وقت لاحق. وكل ما يتبدى لنا من نشاطات تلك الفترة مذكراً، ما دمنا ننظر إليه من منظور المرحلة التناسلية، يتكشف عن أنه تعبير عن دافع غريزي إلى السيطرة سرعان ما ينحط إلى قسوة. وترتبط تلك الميول السالبة الهدف بمنطقة الشرج الشهوية التي تلعب في ذلك الدور هاماً. وتؤكد بقوة الرغبة في النظر والاستطلاع، بينما لا يشارك العضو التناسلي في الحياة الجنسية واقعياً إلا بوصفه عضواً مفرزاً للبول. وليست المواضيع هي ما تفتقر إليه الدوافع الغريزية الجزئية في تلك الحقبة، غير أن هذه المواضيع لا يلتزم شملها بالضرورة لتؤلف موضوعاً واحداً. ويشكل التنظيم السادي - الشرجي آخر طور تمهيدي يسبق الطور الذي تتأكد فيه زعامة الأعضاء التناسلية. والتعمق في الدراسة من شأنه أن يظهر لنا كم من عناصر هذا الطور التمهيدي تدخل في تكوين البنيان النهائي اللاحق، وما الوسائل التي تقاد بها الدوافع الغريزية الجزئية إلى احتلال مكانها في التنظيم التناسلي الجديد. ونستشف خلف المرحلة السادية - الشرجية من تطور الليبيدو طوراً تنظيمياً أدنى إلى البداية أيضاً، تلعب فيه المنطقة الفموية الشهوية الدور الرئيسي. وفي مقدوركم أن تلاحظوا أن من جملة السمات المميزة الأخرى لتلك المرحلة النشاط الجنسي كما يتجلى في فعل المص، وليس لنا إلا أن نعجب بحصافة إدراك المصريين القدماء وبقوة ملاحظتهم إذ كان فتهم يصور الطفل، بما فيه الطفل الإلهي حورس، وهو يضع إصبعه في فمه. وقد أوضح لنا أبراهام^(٣) مدى عمق آثار هذا الطور البدائي الفموي في الحياة الجنسية اللاحقة برمتها.

(٣) كارل أبراهام: طبيب ومحلل نفسي ألماني (١٨٧٧ - ١٩٢٥). من تلاميذ فرويد المخلصين. نظم أول جمعية للتحليل النفسي في برلين سنة ١٩١٠. راسل فرويد بين ١٩٠٧ و ١٩٢٥، وتولى تحليل العديد من المحللين النفسيين، وترأس الرابطة الأهمية للتحليل النفسي، واهتم بدراسة الجنسية الطفلية. وله مؤلفات شتى. والإحالة هنا إلى مقاله: حول مرحلة التطور القبتاسلي الأبعد لليبيدو المنشور في المجلة الدولية للتحليل النفسي، العدد ٤، ١٩١٦. ص ٥٠.

سادتي، إنني أخشى أن يكون كل ما ذكرته لكم عن التنظيمات الجنسية قد أتعبكم بدلاً من أن ينوّركم ويزيدكم علماً بالموضوع. ومن الجائز أن أكون قد أغرقت في التفاصيل أكثر مما ينبغي. لكنني أسألكم صبراً، فستسنى لكم الفرصة للتحقق من أهمية ما سمعتموه حين سنضعه موضع تطبيق لاحقاً. وبانتظار ذلك ليقرّ في أذهانكم أن الحياة الجنسية، أو وظيفة الليبيدو كما نقول، لا تبرغ مكتملة التكوين، بل لا تتطور تطوراً تبقى فيه مشابهة لنفسها، وإنما تحتاز سلسلة من أطوار متلاحقة لا يقوم بينها أي شبه، ومن ثم فإنها تتغير في تطورها عدة مرات، على منوال ما يحدث لليرقة في تطورها لتصير فراشة. ونقطة الانعطاف في هذا التطور تكمن في وضع جميع الدوافع الغريزية الجنسية الجزئية تحت زعامة الأعضاء التناسلية، وبالتالي إخضاع الجنسية لوظيفة الإنجاب. ففي بادئ الأمر تكون الحياة الجنسية مفككة، مؤلفة من عدد كبير من دوافع غريزية جزئية ينشط كل دافع منها مستقلاً عن سائر الدوافع ابتغاءاً للذة العضوانية. غير أن هذه الفوضى تخفف من غلوها البدايات الأولى للتنظيمات «القبائلية» التي تفضي إلى الطور السادي - الشرجي عبر الطور الفموي الذي ربما كان هو الطور الأكثر بدائية. يضاف إلى ذلك سيرورات شتى، لا نعرفها معرفة كافية، تتكفل بالانتقال من طور تنظيمي إلى طور تالي وأعلى. وسنرى عما قريب ما لهذا التطور الطويل الأمد والمتفاوت الأطوار لليبيدو من أهمية في فهم الأعصبة.

أما اليوم فسنتناول أيضاً جانباً آخر من هذا التطور، وأعني الصلات بين الدوافع الغريزية الجزئية والموضوع، أو أننا سنلقي بالأحرى نظرة خاطفة على هذا التطور لتتوقف من ثم ملياً عند نتيجة من نتائجه المتأخرة. قلنا إن بعض العناصر المكونة للدافع الغريزي الجنسي تتجه من أول الأمر إلى موضوع تتشبث به بقوة، ومن قبيل ذلك الدافع الغريزي إلى السيطرة (السادية)، والدافع الغريزي إلى النظر والاستطلاع، بينما لا يكون للمقومات الأخرى، المرتبطة ارتباطاً أوضح ببعض مناطق الجسم الشهوية، من موضوع إلا من البداية فحسب، وذلك ما دامت تعتمد بعد على الوظائف غير الجنسية، ثم لا تلبث أن تعزف عن هذا الموضوع متى ما انفصلت عن هذه الوظائف. وهكذا يكون الموضوع الأول للعنصر

القموي في الدافع الغريزي الجنسي هو ثدي الأم الذي يشبع حاجة التغذية لدى الطفل. فالعنصر الإيروسى، الذي يستمد إشباعه من ثدي الأم، في نفس الوقت الذي يشبع فيه الطفل جوعه، يفوز باستقلاله من خلال فعل المص الذي يتيح له أن ينسلخ عن الموضوع الخارجى وأن يستعيز عنه بعضو أو بمنطقة من جسم الطفل نفسه. ويغدو الميل القموى إيروسياً ذاتياً، على نحو ما تكون كذلك في البداية الدوافع الغريزية الشرجية وغيرها من الدوافع الغريزية الشهوية. أما التطور اللاحق فينشء، بمختصر القول، هدفين: ١ - العزوف عن الإيروسية الذاتية، أي استبدال الموضوع الذي هو جزء من جسم الفرد ذاته بموضوع آخر خارجى وغريب. ٢ - توحيد المواضيع المختلفة للدوافع الغريزية المتعددة والاستعاضة عنها بموضوع واحد أوحد. وطبعى أن مثل هذا التطور لا يُقَيِّض له النجاح إلا إذا عاد هذا الموضوع من جديد جسماً كاملاً، مماثلاً لجسم الطفل نفسه. كذلك لا سبيل إلى أن يتم هذا التطور ما لم يُستبعد عدد من الحائث الغريزية باعتبارها غير قابلة للاستعمال.

إن السيرورات التي تفضي إلى اختيار هذا الموضوع أو ذاك لعلى درجة من التعقيد، ولم توصف بعد وصفاً جامعاً يبعث على الرضى. وحسبنا أن نجلو الواقعة التالية: فحين تدرك الدورة الطفلية، التي تسبق طور الكمون، حداً معيناً من الاكتمال، يكون الموضوع المختار شبه مطابق للموضوع الأول، أي موضوع الدافع الغريزي المتمركز على اللذة القموية في الطور السابق. فلئن لم يعد هذا الموضوع هو ثدي الأم، فإنه يكون الأم نفسها على الدوام. وعلى هذا نقول عن الأم إنها الموضوع الحبي الأول. ونحن نتكلم عن الحب تحديداً متى ما احتل الجانب النفسى من الميول الجنسية مكانة الصدارة، ومتى ما كُبتت بالمقابل أو نُسييت مؤقتاً المطالب الغريزية الجسمانية أو «الحسية» التي هي الأساس الذي تنهض عليه تلك الميول الجنسية. ويوم تصير الأم موضوعاً للحب، تكون عملية الكبت قد بدأت لدى الطفل، ويكون من نتيجة هذه العملية حجب جزء من أهدافه الجنسية عن وعيه. ويرتبط بهذا الاختيار، الذي يتخذ من الأم موضوعاً جنسياً، كل ما اكتسب، تحت اسم «عقدة أوديب»، أهمية عظيمة في التفسير

التحليلي النفسي للأعصاب، وما ربما كان من أهم أسباب المقاومة التي قوبل بها التحليل النفسي.

استمعوا إلى هذه الحادثة الصغيرة التي وقعت أثناء الحرب. فقد جُنِّد أحد الأنصار المتحمسين للتحليل النفسي ليؤدي خدمته كطبيب في مكان ما في بولونيا، وقد لفت إليه انتباه زملائه بما ظفر من نتائج لامتوقعة في معالجته أحد المرضى^(٤). فلما سئل عن ذلك أقر بأنه يستخدم طرائق التحليل النفسي، وأبدى عن استعداده لتدريب زملائه عليها. فصار أطباء الفرقة، من رؤسائه وزملائه، يجتمعون كل مساء ليطلعهم على غوامض نظرية التحليل النفسي. وسارت الأمور على أحسن ما يرام حين من الزمن، ولكن لما شرع صاحبنا نصير التحليل النفسي يحدث سامعيه عن عقدة أوديب، نهض أحد رؤسائه وأعلن أنه لا يصدق حرفاً مما قاله، وأنه لا يجوز أن تسرد مثل هذه الأشياء على مسامع رجال شجعان، هم أرباب أسر يقاتلون في سبيل وطنهم. وأردف يعلن أنه يحظر مذ ذاك أية محاضرة عن التحليل النفسي. كانت هذه خاتمة القصة، ولم يجد صاحبنا نصير التحليل النفسي مناصاً من أن يطلب نقله إلى قطاع آخر. وفيما يتعلق بي، فإني أرى أنه لخطب عظيم لو كان الانتصار الألماني مرهوناً بمثل هذا «التنظيم» للعلم^(٥)، وإني لعلّى يقين أن العلم الألماني لن يطبق على مثل هذا التنظيم صبراً.

لا ريب أنكم تتوقون إلى معرفة ما كنه عقدة أوديب الرهيبة تلك. إن اسمها وحده يتيح لكم تخمينها. فأنتم جميعاً تعرفون الخرافة الإغريقية عن الملك أوديب الذي كُتبت عليه الأقدار أن يقتل أباه ويتزوج أمه، والذي فعل كل ما بوسعه فعله ليتفادى نبوءة العراف، فلما لم يفلح عاقب نفسه بأن فقأ عينيه حالماً أدرك أنه ارتكب، من غير علمه، الجريمتين المنتبئاً له بهما. وأرجح الظن أن الكثيرين منكم قد هزّهم انفعال عنيف لدى مطالعتهم المأساة التي عالج فيها سوفوكلس^(٦) هذا

٤ - يرجح انه أوتو رانك. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

٥ - لا يغيب عنا أن فرويد ألقى محاضراته هذه في سياق الحرب العالمية الأولى. «م».

٦ - سوفوكلس: كبير التراجيدين اليونانيين المشهور بالأتيكى نسبة إلى مسقط رأسه في أتيكا، وهي المنطقة المحيطة بأثينا (٤٩٥ - ٤٠٦ ق.م). والإحالة هنا إلى أشهر مسرحياته: أوديب ملكاً. «م».

الموضوع. وتصور لنا تمثيلية الشاعر الأتيكي كيف أميط اللثام رويداً رويداً عن الجريمة التي اقترفها أوديب، بعد تقصُّ تعمُّد المؤلف إطلالته وبث الحياة فيه بيّنات متجددة باستمرار: ومن هذا المنظور جاء العرض يشبه بعض الشبه طرائق التحليل النفسي. ومما ورد في الحوار أن جوكاستا، الأم/ الزوجة التي أعماها الحب، عارضت متابعة التحقيق والتقصي، وعللت معارضتها بأن كثيرين من الرجال يرون في أحلامهم أنهم يعاشرون أمهاتهم، لكن الأحلام لا تستأهل أي اعتبار^(٧). أما نحن فلا نزدري الأحلام، وعلى الأخص النمطية منها، أي تلك التي يراها كثرة من الناس، ولا يخالجنّا شك أن الحلم الذي أشارت إليه جوكاستا يرتبط وثيق الارتباط بمضمون الأسطورة الغريب والمروّع.

إنه لما بيعت على العجب ألا تثير مأساة سوفوكليس لدى القارئ أو المشاهد أي بادرة سخط واستنكار، على حين قبلت نظريات صاحبنا الطبيب العسكري التي لا يترتب عليها من ضرر باستهجان أقل قابلية للتبرير بكثير. فهذه المأساة مسرحية لأخلاقية في حقيقتها، لأنها تلغي مسؤولية الإنسان، وتعزو إلى القوى الإلهية الحظّ على الجريمة، وتظهر للعيان عجز دوافع الإنسان الأخلاقية عن مقاومة النوازع الإجرامية وردّها. ولو أن شاعراً مثل يوريبيدس^(٨)، ليس بينه وبين الآلهة ودّ موصول، هو الذي عالج مأساة أوديب، لتحوّلت بسهولة بين يديه إلى ذريعة للتشنيع على الآلهة وعلى الأقدار. لكن لا مجال لتشنيع كهذا لدى شاعر مؤمن مثل سوفوكليس؛ فهو يتخلص من المأزق ببراعة ورعة، بإعلانه أن الأخلاقية السامية تقتضي الصدوق لمشيئة الآلهة، حتى ولو أمرت بالجريمة. وأنا لا أرى أن مثل هذه الأخلاق هي مصدر من مصادر قوة المسرحية، إذ لا دور لها في ما لها من مفعول. وليست هذه الأخلاق هي ما يستجيب له القارئ أو المشاهد. بل هو

٧ - جوكاستا: والدة أوديب وزوجته لاحقاً. والإحالة هنا إلى قوله لها في مسرحية سوفوكليس مخاطبة أوديب: «ليس لخطر زنا المحارم أن يلقي الرعب في نفسك؛ فكم من بني الإنسان من نام مع أمه في منامه. ولو كان مثل هذه التزهات أن تشغل البال لما وسع أحداً أن يعيش في سلام!». «م».

٨ - يوريبيدس: ثاني أشهر التراجيدين اليونانيين بعد سوفوكليس (٤٨٠ - ٤٠٦ ق.م). كتب أكثر من تسعين مأساة ولم يصلنا منها سوى ١٩، ومن أشهرها ميديا، والطرواديات، والكثير، والفينيقيات. وكان نصيراً للمرأة، واشتهر بالهزجيات التي وضعها على لسان أبطاله. «م».



يستجيب لمغزى الخرافة الخفي ولضمونها الغامض. يستجيب لهما كما لو أنه يهتدي في داخل نفسه، عن طريق التحليل الذاتي، إلى عقدة أوديب: فلكنه يستشف في إرادة الآلهة وفي نبوءة العراف تنكيراً مثالي المظهر للاشعوره الخاص، ولكأنه يتذكر باستفطاع أنه راودته هو نفسه رغبة في إزاحة أبيه والزواج من أمه، ولكأن صوت الشاعر يهيب به: «عَبْثاً تنكر لمسؤوليتك، وعَبْثاً تنذر بـكل ما فعلت وجاهدت لتلجم تلك المآرب الأثيمة. فخطيئتك تبقى خطيئتك، لأنك عجزت عن خنق تلك المآرب: فهي مقيمة في لاشعورك لم يخفت لها صوت». وهذه حقيقة سيكولوجية. فالإنسان، حتى ولو كبت نزعاته الشريرة في لاشعوره وتهاى له أنه مستطيع أن يقول إنه ليس مسؤولاً عنها، يظل يراوده الشعور بهذه المسؤولية في صورة شعور بالخطيئة يجهل دوافعه.

لا جدال في أن عقدة أوديب ينبغي أن تُعدّ مصدراً رئيسياً لهذا اللاشعور بالتبكي الذي يقض مضاجع المعصوبين في غالب من الأحيان. بل أكثر من هذا. ففي دراسة لي عن بدايات الدين والأخلاق البشرية نشرتها سنة ١٩١٣ بعنوان الطولم والتابو، صغت فرضية مؤداها أن عقدة أوديب هي التي بثت في البشرية في جملتها، في مستهل تاريخها، شعورها بالذنب، الذي هو المصدر الرئيسي للدين والأخلاق. وكنت أودّ لو أطلت في الحديث وإياكم حول هذا الموضوع، لكنني أؤثر ألا أفعل. فمن العسير أن نترك هذا الموضوع إلى غيره لو بدأنا به، وأنا أتعجل العودة إلى علم النفس الفردي.

ترى ماذا تكشفه لنا عن عقدة أوديب الملاحظة المباشرة للطفل في طور الاختيار الموضوعاني^(٩) قبل مرحلة الكمون؟ لا يعسر علينا أن ندرك أن الغلام يريد أن يستأثر بأمه وحده، وأن حضور الأب يضايقه، وإنه يحرد حين يبدي الأب نحو الأم تودداً، وأنه لا يخفي سروره حين يكون الأب غائباً أو مسافراً. وكثيراً ما يعرب عن مشاعره باللفظ والتصريح، ويعد أمه بالزواج منها. ورب قائل يقول إن هذه صيغيات بالقياس إلى أفاعيل أوديب، لكنها كافية من حيث

٩ - الموضوعاني: نسبة إلى الموضوع OBJECT بالمعنى الذي يعطيه التحليل النفسي لهذه الكلمة. وقد قلنا موضوعاني OBJECTAL بإضافة نون النسبة تمييزاً عن الموضوعي OBJECTIF. «م».



هي وقائع، وهي لتلك الأفاعيل بمثابة نواتها الأولى. وقد يثير الحيرة في كثير من الأحيان ما يديه الطفل في مناسبات أخرى من مودة كبيرة لأبيه، لكن هذه الاتجاهات العاطفية المتعاكسة أو بالأحرى المزدوجة وجدانياً (AMBIVALENTES)، التي لا مناص من أن تتنازع فيما بينها فيما لو وجدت لدى الراشد، تتعايش بسهولة، ولأمد طويل من الزمن، لدى الطفل، مثلما تتساكن جنباً إلى جنب لاحقاً، وعلى نحو مستديم، في اللاشعور. وقد يعترض بعضهم بأن موقف الصبي الصغير تفسره دوافع أنانية، ولا يبرر البتة فرضية وجود عقدة إيروسية. فالأم هي التي ترعى حاجات الطفل جميعاً، ومن صالحه ألا ينوب شخص آخر منابها في ذلك. وهذا بكل تأكيد صحيح؛ غير أنه سرعان ما يتضح أن الاهتمام الأناني في هذا الموقف، كما في كثير من المواقف المشابهة، لا يعدو أن يكون نقطة ارتكاز للميل الإيروسي. فحين يدي الطفل تجاه أمه فضولاً جنسياً غير مستتر، وحين يلج لينام بجانبها ليلاً، وحين يريد أن يفرض وجوده وهي تغتسل، بل حين يحاول إغراءها بوسائل لا تغيب عن إدراكها، فتحدث عنها للناس ضاحكة، فإن الطبيعة الإيروسية للتعلم بالأُم تبدو هنا سافرة لا مَرِيّة فيها. ولا يجوز أن ننسى أن الأم تحيط بالرعاية نفسها بنتها الصغيرة من دون أن تستشير لديها مفعولاً مماثلاً، وأن الأب ينافسها في كثير من الأحيان بما يبذله من عناية ورعاية للصبي الصغير، من دون أن يفلح مع ذلك في أن يحظى في عينيه بأهمية مماثلة. خلاصة القول: إنه لا وجود لحجة نقدية يمكن التوصل بها لنفي الإيثار الجنسي عن الموقف. وحتى من منظور المصلحة الأنانية، لا يكون الصبي الصغير قد دلل على ذكاء عندما يتعلق بشخص واحد، هو الأم، مع أنه كان يستطيع بسهولة ويسر أن ينعم بتفاني شخصين اثنين في سبيله: الأم والأب.

لعلكم لاحظتم أنني لم أعرض سوى موقف الصبي الصغير من الأب والأم. والحال أن موقف البنت الصغيرة مماثل له تماماً، على أن نأخذ في اعتبارنا التعديلات التي لا مناص منها. فالوَدَّ الرقيق تجاه الأب، والحاجة إلى إبعاد الأم التي يكون وجودها مصدر ضيق، والغنج الذي يصطنع في وقت مبكر ما تصطنعه النساء من وسائل وفنون، كل ذلك يرتسم لدى البنت الصغيرة على

شكل صورة لطيفة، أخاذة، تنسينا ما قد يترتب على هذا الموقف الطفلي من عواقب جدية، بل وخيمة. ولننصف بلا توابن أن الوالدين نفسيهما غالباً ما يكون لهما تأثير حاسم في إذكاء عقدة أوديب في نفوس أطفالهما، باستسلامهما من جانبهما للانجذاب الجنسي، وذلك عندما يجهر الأب، في الأسر التي يكثر فيها عدد الأطفال، بإيثاره البنت الصغيرة، بينما ينصب كل حنو الأم على الصبي الصغير. غير أن هذا العامل، على أهميته، لا ينهض حجة مضادة على الطبيعة العفوية لعقدة أوديب لدى الطفل. وهذه العقدة تتوسع لتغدو «عقدة عائلية» عندما تكبر الأسرة بولادة أطفال آخرين. فالأطفال الأوائل يرون في هذه الولادة تهديداً لمراكزهم المكتسبة، فلا يلاقون إخوتهم وأخواتهم الجدد إلا بازورار ويرغبة جامحة في التخلص منهم. بل إن الأطفال يفصحون عن مشاعر الكره هذه ويجهرون بها لفظاً أكثر بكثير مما يعبرون عن المشاعر التي توحى بها إليهم «العقدة الوالدية». فإن اتفق أن تحققت رغبة الطفل الشريرة، فاختطفت يد المنون بسرعة الوليد الدخيل، أذكراً كان أم أنثى، أمكن لنا أن نعاين، عن طريق التحليل اللاحق، كم كانت عظيمة أهمية هذا الموت في نفس الطفل، حتى وإن لم يحتفظ من هذه الحادثة بأي ذكرى. فالطفل، الذي تنزل به ولادة أخ أو أخت إلى المقام الثاني، والذي يجد نفسه بالتالي شبه مهجور، لا ينسى بسهولة هذا الهجران الذي يولد في نفسه مشاعر لو وجدت لدى الراشد لقييل عنه إنه مرّ النفس، ولا يعسر أن تغدو هذه المشاعر منطلقاً لنفور دائم من الأم. وقد أسلفنا القول إن التحري الجنسي عند الطفل، بكل ما يترتب عليه من نتائج، يرتبط تحديداً بهذه التجربة الحياتية المبكرة. فإذا ما شبّ الإخوة والأخوات عن الطوق، طرأت على موقف الطفل منهم تغيرات بليغة الدلالة. فالصبي قد يحوّل إلى أخته الحب الذي كان قد ساوره تجاه أمه التي ساءه منها، كل السوء، عدم إخلاصها له. ومنذ عهد الحضانة يدبّ بين الأخوة في التفاهم حول الأخت الصغيرة لكسب رضاها تنافس عدائي يكون له دور خطير في حياتهم اللاحقة. كما أن البنت الصغيرة تُجَلّ أكبر إخوتها سناً محل أيها الذي ما عاد يبدي لها من ضروب المحبة والعطف ما كان يبديه آنفاً، أو قد تتخذ من أختها الأصغر منها

بديلاً عن الطفل الذي كانت قد تآقت بلا جدوى إلى أن تنجبه من والدها.

تلك هي بعض الوقائع، وبوسعي أن أسوق منها أمثلة أخرى كثيرة تزودنا بها الملاحظة المباشرة للأطفال أو يكشف لنا عنها التأويل اللامتحيز لذكرياتهم التي تكون على درجة كبيرة من الوضوح والجلاء من دون أن تكون قد تأثرت بالتحليل. ويمكنكم أن تخرجوا من هذه الوقائع بنتائج كثيرة، منها أن المكانة التي يشغلها الطفل في أسرة تضم عدة أطفال يكون لها أثر كبير في مسار حياته اللاحقة، ولا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار في كل سيرة حياة. غير أن الأهم من ذلك بكثير أننا، حيال هذه التفاسير التي نظفر بها بلا مشقة، لا نملك إلا أن نبسم عندما نتذكر كل الجهود التي بذلها العلم لتعليل حظر زنا المحارم. أفما قيل لنا إن الحياة المشتركة منذ عهد الطفولة من شأنها أن تصرف الانجذاب الجنسي للطفل عن أعضاء أسرته من الجنس المقابل؟ أو ما قيل لنا أيضاً إن الميل البيولوجي إلى تجنّب الزواج بين ذوي قرابة العصب الواحد يجد تكملته النفسية في الاستفطاع الفطري لحب المحارم؟ والحال أن من قال هذا الكلام قد غاب عنه فقط أنه لو صبح أن الطبيعة تقيم في وجه إغراء المحارم حواجز منيعة ومأمونة، لانتفت أية حاجة إلى تحظيره بواسطة قوانين صارمة وأعراف. والواقع أن العكس هو الصحيح. فأول موضوع تتركز عليه رغبة الإنسان الجنسية هو موضوع يتصل بالمحارم - الأم أو الأخت - وهذا التنازع الطفلي لا يُقمع ويكبح إلا بضروب بالغة الصرامة من الحظر. والحظر المفروض على حب المحارم لدى البدائيين الذين لا يزالون يعيشون إلى اليوم، ولدى الأقوام المتوحشة، أشد صرامة مما هو عليه لدينا. وقد بينّ ث. رايك TH. REIK^(١٠)، في دراسة بديدة، أن طقوس البلوغ التي تقام لدى المتوحشين والتي تمثل إعادة البعث إلى الحياة، إنما ترمي إلى فصم الصلة المحرمية التي تربط الغلام بالأم وإلى إصلاح ذات البين بينه وبين أبيه.

١٠ - ثيودور رايك: محلل نفسي نمساوي (١٨٨٨ - ١٩٦٩). تلميذ مباشر لفرويد، تولى أمانة سر جمعية فيينا للتحليل النفسي. من أشهر كتبه: المازوخية لدى الإنسان المعاصر، والسماع بالأذن الثالثة. والإحالة هنا إلى مقاله: طقوس البلوغ لدى المتوحشين، المنشور في مجلة إيمانغو، العدد ٤، ١٩١٥ - ١٩١٦. ص ٨٥.

تظهر لنا الميتولوجيا أن بني البشر لا يترددون في عزو زنا المحارم إلى الآلهة على الرغم من استفظاعهم له، وفييدنا التاريخ القديم أن الزواج المحرمي بالأخت كان واجباً مقدساً (لدى الفراعنة القدامى، ولدى الإنكا^(١١) في البيرو). فهو إذاً امتياز محظور على عامة الناس.

إن زنا المحارم مع الأم هو إحدى جريمتي أوديب، وقتل الأب جريمته الثانية. ونشر عرضاً إلى أن هاتين الجريمتين هما أكبر الكبائر التي أذنتها أول مؤسسة دينية واجتماعية عرفها البشر: الطوطمية^(١٢). ولننتقل الآن من الملاحظة المباشرة للطفل إلى الفحص التحليلي للراشد الذي صار معصوباً. فما مدى ما يساهم به هذا الفحص في تعميق معرفتنا بعقدة أوديب؟ من الممكن تحديد ذلك بمنتهى الإيجاز. فالتحليل يكشف لنا عن هذه العقدة كما تعرضها لنا الأسطورة، ويبيّن لنا أن كل واحد من أولئك المعصوين كان هو نفسه قريباً لأوديب بمعنى من المعاني، أو - وهذا سواء - صار قريباً لهملت باستجابته العكسية لهذه العقدة^(١٣). وغني عن البيان أن الصورة التحليلية لعقدة أوديب تكبير وتضخيم للصورة الطفلية الأولية. فكره الأب وتمني موته لا تنمّ عنهما هذه المرة محض إشارات وإلماعات، كما أن محبة الأم تتخذ هدفاً سافراً لها الاستحواذ عليها كزوجة. فهل يحقّ لنا أن نعزو إلى الطفولة الرقيقة هذه العواطف الفجّة والمستطّعة، أم أن التحليل يوردنا موارد الخطأ بفعل تدخل عامل جديد؟ الحق أنه ليس من العسير كشف

١١ - الإنكا: إثنية بانية للحضارة في أميركا الجنوبية ما قبل الكولومبية، تعود بداياتها إلى القرن الثالث عشر وامتد تأثيرها إلى البيرو والأرجنتين وبوليفيا وكولومبيا والتشيلي على طول سواحل المحيط الهادي. «م».

١٢ - الطوطمية: نسبة إلى الطوطم، وهو مصطلح أدخله إلى اللغة الإنكليزية الرحالة ج. لونك في كتابه رحلات مترجم هندي وأسفاره نقلاً عن هندو البحيرات الكبرى في أميركا الشمالية. ثم عثم استعمال كلمة الطوطمية في الدراسات الأنثروبولوجية الباحث الإسكتلندي ج. ماك لينان في بحث له بعنوان الطوطمية (١٨٧٠). وتستخدم كلمة الطوطم للدلالة على الانتماء العشائري الأبوي إذ تتخذ كل قبيلة لقباً لها مستمداً من إحدى فصائل الحيوان كالدب مثلاً. «م».

١٣ - معلوم أن هملت في مسرحية شكسبير، بعكس أوديب في مسرحية سوفوكلس، هو من يقتل قاتل أبيه بعد أن تراءى له هذا الأخير في المنام ليبلغه أن قاتله هو أخوه بالذات، أي عم هملت، وأنه ما قتله إلا ليستولي على عرشه وزوجته (أي أم هملت) معاً. «م».

هذا العامل الجديد. فكلما تحدث إنسان من الناس عن الماضي، حتى ولو كان المتحدث مؤرخاً، يتعيّن علينا أن نحسب حساباً لكل ما يقحمه، عن غير قصد منه، من الحاضر أو من الحقبة الفاصلة بين الماضي والحاضر، على الفترة التي يتحدث عنها والتي يحزف بالتالي صورتها. بل إنه من المباح لنا، في حالة العصايي، أن نتساءل عما إذا كان هذا الخلط بين الماضي والحاضر لإراديّاً فعلاً، وسوف نرى لاحقاً أن لهذا الخلط دوافعه، وسوف يتعيّن علينا بوجه عام أن نجد تعليلاً للعبة الخيال هذه في التعامل مع أحداث الماضي البعيد ووقائعه. كذلك لا يشقّ علينا أن نرى أن كراهية الأب تعززها دوافع شتى تتأتى من آونة وظروف لاحقة، وأن الرغبات الجنسية التي تتخذ الأم موضوعاً لها تتلبس أشكالاً كان الطفل يجهلها ولا بدّ. لكن سيضيع مجهودنا سدى فيما لو شئنا أن نفكّر عقدة أوديب برمّتها بلعبة الخيال الاسترجاعي حينما يقحم على الماضي عناصر مقتبسة من الحاضر. فالمعصوب الراشد يحتفظ بالنواة الطفلية لهذه العقدة مع بعض من لواحقها ومستتبعاتها، على نحو ما تكشفه لنا الملاحظة المباشرة للطفل.

إن الواقعة السريرية، التي تتكشف لنا خلف الشكل الذي يحدّده التحليل لعقدة أوديب، تنطوي على دلالة عملية كبيرة. فنحن نعلم أن المواضيع العائلية والمحرمية القديمة تعاود ظهورها ويعاد توظيفها لبيدياً وقت البلوغ، أي حين يشهر الدافع الغريزي الجنسي لأول مرة مطالبه بكامل قوتها. وما كان اختيار الطفل للموضوع سوى تمهيد وجلي، ولكن حاسم، لاتجاه الاختيار في طور البلوغ. ففي هذا الصّور تتم سيرورات عاطفية ووجدانية بالغة الشدة، متجهة إما نحو عقدة أوديب، وإما نحو ردّ فعل على هذه العقدة. ولكن بما أن مقدمات هذه السيرورات قد أضحت مما لا يطاق، فمن المحتم أن تبقى في غالب الأحيان بعيدة عن تناول الوعي. وابتداء من ذلك الوقت يجد الفرد الإنساني نفسه أمام مهمة كبرى، هي الانفصال عن والديه؛ وإما بعد أن ينجز هذه المهمة يتأتى له أن ينضو عنه ثوب الطفولة ليصير عضواً في الجماعة الاجتماعية. ومهمة الابن في هذه الحال أن يفصل عن أمه رغباته الليبيدية ليتجه بها نحو موضوع واقعي أجنبي، وأن يتصالح مع الأب إن كان يضره له عداً، أو أن يتحرر من طغيانه إن

كان قد صار عبده المطيع كرد فعل على تمرده الطفلي عليه. هذه المهام تفرض نفسها على كل واحد؛ وما تجدر الإشارة إليه أن إنجازها نادراً ما يتم بنجاح أمثل، أي على وجه يبعث على الرضى التام من الناحيتين النفسية والاجتماعية. أما المعصوبون فيحققون إخفاقاً تاماً في هذه المهام، فيبقى الابن طول حياته رازحاً تحت سلطان الأب وعاجزاً عن تحويل طاقته الليبيدية نحو موضوع جنسي أجنبي. وكذلك قد يكون أيضاً، مع التعديلات اللازمة، مصير البنت. وبهذا المعنى يحق لنا اعتبار عقدة أوديب نواة الأمراض العصابية.

لقد لاحظتم، سادتي، في أرجح الظن أنني أمرّ مرّاً سريعاً بكثير من التفاصيل التي تتصل بعقدة أوديب، والتي لها مع ذلك أهميتها العملية والنظرية على حد سواء. كما أنني لن ألح أكثر مما فعلت على تنوعاتها وعلى احتمال انقلابها إلى عكسها. أما فيما يتصل بآثارها البعيدة، فسأقول لكم فقط إنها كانت مصدراً ثراً للإبداع الشعري. وقد بين أوتورانك في كتاب قيم له^(١٤) أن كتاب المسرحيات في جميع العصور قد اقتبسوا مادتهم في المقام الأول من معين عقدة أوديب وعقدة المحارم، ومن تنوعاتهما المقتنعة بقدر أو بآخر. ولنذكر أيضاً أن الرغبتين الأثمتين اللتين تدخلان في تركيب هذه العقدة وجدتا من يتعرف فيهما، قبل زمن طويل من عهد التحليل النفسي، مظهرين صادقين للحياة الغريزية التي لا يردعها رادع. ففي حوارية الموسوعي الشهير ديدرو التي جعل عنوانها ابن أخي رامو^(١٥)، والتي نقلها غوته نفسه إلى الألمانية، تقعون على المقطع التالي اللافت للنظر: «لو ترك المتوحش الصغير وشأنه، فاحتفظ بكل غبائره وجمع إلى قلة عقل الطفل في مهده عنف أهواء الرجل الذي في الثلاثين من العمر، لدق عنق أبيه ولضاجع أمه».

١٤ - الإحالة هنا إلى كتاب أوتورانك الذي سبق لفرويد أن استشهد به في المحاضرة الثالثة عشرة: موضوع زنا المحارم في الإبداع الأدبي والأسطورة. «م».

١٥ - ابن أخي رامو أو الأهمجية الثانية: حوارية كتبها ديدرو سنة ١٧٦٢، على الأرجح، وهي عبارة عن حوار بين أنا، الفيلسوف الراوي، وبين هو، جان فرانسوا رامو، ابن أخي الموسيقار المشهور جان فيليب رامو. وقد نشرت لأول مرة بالألمانية سنة ١٨٠٦ بترجمة غوته، ولم تنشر بالفرنسية إلا سنة ١٨٢١. «م».

يبد أن ثمة تفصيلاً لا يجوز لي أن أتجاوز عن ذكره. فليس من العبث أن تكون الزوجة - الأم لأوديب قد لفتت انتباهنا إلى الأحلام. وأنتم تذكرون أيضاً ولا بدّ النتيجة التي أفضى إليها تحليلنا للأحلام من أن الرغبات المثيرة للحلم تكون من طبيعة منحرفة، محرمة، في كثير من الأحيان، أو تتمّ عن عداء غير متوقع حيال أشخاص من الأقارب المقرّين والمحبوبين جداً. ونحن لم نفسر في حينه أصل هذه النوازع الشريرة. أما الآن فإن هذا التفسير يثب إلى أعيننا من تلقاء نفسه من دون أن نجشّم أنفسنا عناء البحث عنه. فهي لا تعدو أن تكون منتجات للبيدو وتوظيفات موضوعانية يرجع تاريخها إلى السنوات الأولى من الطفولة، وقد اختفت من الشعور منذ زمن بعيد، لكنها لا تزال تتمّ عن وجودها أثناء النوم وتدل على بعض القدرة على ممارسة تأثير ما. لكن بما أن الناس جميعهم يحلمون مثل هذه الأحلام المنحرفة، المحرمة، الآثمة، المشحونة بحق قاتل، وبما أن هذه الأحلام ليست بالتالي وفقاً على المعصوين وحدهم، فمن المباح لنا أن نستنتج أن تطور الأسوياء أيضاً قد تمّ عبر الانحرافات والتوظيفات الموضوعانية لعقدة أوديب، وأن هذا الطريق هو طريق التطور السوي، وأن المعصوين يقدمون صورة مكبّرة ومنمّطة، ليس إلا، عما يكشفه لنا تحليل الأحلام عند أسوياء الناس أيضاً. وهذا واحد من الأسباب التي حملتنا على التمهيد لدراسة الأعراض العصائية بدراسة الأحلام.

المحاضرة الثانية والعشرون

مظهران: التطور والنكوص

وفي أسباب نشوء الأعصبة

سيداتي سادتي، علمنا أن وظيفة الليبدو تمر بتطور طويل الأمد قبل أن تبلغ الطور الذي يعرف بالطور السوي، حيث تغدو عاملة في خدمة التناسل. وأود أن أعرض لكم اليوم الدور الذي تلعبه هذه الواقعة في تسبب الأعصبة.

أعتقد أنني لا أخالف تعاليم علم الأمراض العام إذا قلت إن ذلك التطور عرضة لخطرين: خطر الكف وخطر النكوص. وهذا يعني أنه بالنظر إلى ميل السيوررات البيولوجية بوجه عام إلى التنوع فقد يحدث ألا يتم اجتياز جميع الأطوار التمهيديّة وتخطيها على الوجه الصحيح والكامل، كأن تتوقف بعض مقومات الوظيفة عند طور بعينه من تلك الأطوار الأولى، فتكون النتيجة انضياف قدر من الكفّ للتطور إلى مجمل لوحة التطور.

لنبحث عن أشباه لهذه الواقعة في بعض الميادين الأخرى. فحين يبارح شعب بكامله منطقة سكناء بحثاً عن بقعة جديدة، وهذه واقعة متواترة في الأزمنة البدائية من التاريخ البشري، فمن المؤكد أنه لا يصل برمته إلى الديار الجديدة؛ فكثيراً ما تنفصل عنه جماعات وزمر صغيرة من النازحين لتستقر في مواضع بعينها، بينما يتابع سواد القوم طريقه ومسيرته، وهذا بصرف النظر عن أية أسباب أخرى لتناقص أعداده. ولنأخذ تشبيهاً أقرب من هذا بعد: فأنتم تعلمون أن الغدتين الرُشْميتين لدى الثدييات العليا تقعان أصلاً في أعماق التجويف البطني، لكنهما لا تلبثان، في لحظة محددة من الحياة داخل الرحم، أن تنتقلا لتأخذا مكانهما بصورة مباشرة تقريباً تحت جلد القسم الأخير من الحوض.

ونتيجة لهذه الهجرة نلاحظ أن أحد هذين العضوين المزدوجين يبقى لدى عدد كبير من الأفراد الذكور، حتى بعد ذلك النزوح، في التجويف البطني أو يستقر نهائياً في القناة المعروفة باسم القناة الأربية^(١)، وهي القناة التي يفترض أن تجتازها الغدتان أثناء هجرتهما، أو أن إحدى هاتين القناتين تبقى مفتوحة، بينما المفروض فيها في الأحوال الطبيعية أن تنغلق بعد مرور الغدتين الرشميتين. وأذكر أنني يوم كنت لا أزال طالباً فتياً قمت بأول بحث علمي لي تحت إشراف فون بروكه BRUCKE^(٢)، وكان المطلوب مني تحديد أصول الجذور العصبية الخلفية في النخاع الشوكي لسمكة من طراز بدائي سحق القدم. وقد وجدت أن الألياف العصبية لهذه الجذور تنبت من خلايا ضخمة تقع في البوق الخلفي، وهذا ما لا نعود نشاهده لدى فقرات أخرى. غير أنني لم ألبث أن اكتشفت كذلك أن هذه الخلايا العصبية توجد أيضاً خارج المادة السنجابية، وتشغل كل المسار إلى العقدة المعروفة بالعقدة الشوكية للجذر الخلفي، فاستنتجت من ذلك أن خلايا هذه العقد المتجمعة قد نزحت من النخاع الشوكي لتستقر على طول مسار جذور الأعصاب. وهذا ما يؤكد تاريخ التطور، لكن مسار النزوح لدى السمكة الصغيرة التي أجريت عليها أبحاثي كان موسوماً بخلايا متخلفة في الطريق. ومن المؤكد أنكم لو دققتم النظر لما شق عليكم أن تهتدوا إلى نقاط الضعف في هذه المقارنات. لذا سأقول لكم للحال إنه من الممكن في رأيي، فيما يتعلق بكل ميل جنسي على حدة، أن تتخلف بعض عناصره المكونة عند مراحل سابقة من التطور، بينما تصل عناصر أخرى إلى الهدف النهائي. ونحن، بطبيعة الحال، ننظر إلى كل ميل من هذه الميول على أنه تيار يتدفق بلا انقطاع من ابتداء الحياة؛ وعندما نقسم هذا التيار إلى دفعات متعاقبة، فإن تقسيمنا هذا يكون اصطناعياً إلى حد ما. ولن تكونوا إلا محقين لو ارتأيتم أن هذه التصورات بحاجة إلى مزيد من الإيضاح، لكن مثل هذا العمل قد يشطّ بنا إلى

١ - أي قناة الخالب.

٢ - إرنست فون بروكه: عالم ألماني (١٨١٩ - ١٨٩٢). أحد مؤسسي التشريح المجهرى. كان أول من شجع فرويد على المضي في طريقه العلمي. «م».



أبعد مما نريد. حسبي إذاً أن أقول لكم إنني أطلقت اسم التثبيت (أي تثبيت الدافع الغريزي والحالة هذه) على توقف ميل جزئي عند مرحلة سالفة من التطور.

أما الخطر الثاني الذي يتعرض له هذا التطور على مراحل فيتمثل في احتمال ارتداد العناصر الأكثر تقدماً، من خلال حركة ارتجاعية، إلى واحدة من تلك المراحل السالفة، وهذا ما نسميه بالنكوص. ويحدث النكوص حينما يصطدم الميل، في شكله الأكثر تقدماً، وفي أثناء أدائه لوظيفته، أي في أثناء تحقيقه لإشباعه، بعقبات خارجية كأداء. ويحملنا كل شيء على الاعتقاد بأن التثبيت والنكوص غير مستقلين واحدهما عن الآخر. فكلما كانت التثبيتات قوية أثناء التطور، سهل على الوظيفة أن تخلص من العقبات الخارجية عن طريق النكوص إلى هذه التثبيتات، وتضاءلت قدرة الوظيفة المتطورة على مقاومة العقبات الخارجية التي ستلتقيها في طريقها. فحين تتخلف في الطريق عن القوم النازحين فصائل ذات شأن، فإن الأقسام المتقدمة منهم ستجنح بقوة، فيما لو اصطدمت بعدو لا قبل لها به أو انهزمت أمامه، إلى الانكفاء على أعقابها واللواذ بتلك الفصائل. غير أن احتمال هزيمة هذه الأقسام المتقدمة سيكون أكبر كلما كان تعداد العناصر المتخلفة أكثر.

وحتى تفهموا الأعصبة فهماً جيداً، فمن الأهمية بمكان ألا تغيب عن أنظاركم هذه العلاقة بين التثبيت والنكوص. فهي توفر لنا نقطة ارتكاز متينة تنطرق منها - وهذا ما سنفعله عما قليل - لدراسة منشأ الأعصبة وأسبابها.

وكبداية، لنول مسألة النكوص مزيداً من الاهتمام. فما علمتموه عن تطور وظيفة الليبيدو يأذن لكم أن تتوقعوا أن يكون النكوص على نوعين: ارتداد إلى المواضيع الأولى التي توقف عندها الليبيدو والتي لها، كما نعلم، طابع محرمي، وارتداد التنظيم الجنسي برمته إلى مراحل سابقة. وكلا هذين النوعين من النكوص نلتقيه في الأعصبة التحويلية، وهما يقومان بدور هام في آليتها. والارتداد إلى مواضيع الليبيدو الأولى على وجه التخصيص هو ما نلاقه لدى العصايين باطراد يبعث على الملل. ولو أخذنا في اعتبارنا طائفة أخرى من

الأعصبة، وعلى الأخص تلك المعروفة منها باسم الأعصبة الترجية، لكان علينا أن نفصل في الكلام عنها تفصيلاً مستفيضاً. لكننا لا نزمع أن نشغل أنفسنا بها هنا. ذلك أن هذه الأمراض تضعنا بمواجهة أنماط أخرى من التطور، لم نأت بذكرها بعد، وتكشف لنا أيضاً عن أشكال جديدة من النكوص. غير أنه يخيّل إلي أنه يتعين عليّ الآن أن أحذركم من احتمال الخلط بين النكوص والكبت، وأن أساعدكم على تكوين فكرة واضحة عن الصلات بين هاتين السيورتين. فالكبت، إذا كنتم تذكرون، هو السيورة التي بنتيجتها يغدو لاشعورياً الفعل الذي كان يمكن أن يكون شعورياً، أي منتتماً إلى القبشعور. ويكون هناك كبت أيضاً حينما لا يُسمح للفعل الجنسي اللاشعوري بالولوج إلى النسق القبشعوري المجاور، إذ تعترض الرقابة سبيله وتكرهه على الارتداد على عقبه. وليس ثمة من صلة البتة بين مفهوم الكبت ومفهوم الجنسية. وإني لألفت انتباهكم بوجه خاص إلى هذه الحقيقة. فالكبت سيورة سيكولوجية خالصة، نحسن صنعاً لو وصفناها أيضاً بأنها طبوغرافية. ونقصد بذلك أن مفهوم الكبت مفهوم مكاني، ذو صلة بفرضيتنا عن المقصورات أو الحجرات النفسية، أو إذا شئنا ألا نأخذ بهذا التمثيل المساعد الفجّ قلنا إن هذا المفهوم ينشأ عن تكوين الجهاز النفسي من عدة أنسقة متمايزة.

يتضح من المقارنة التي أجريناها أننا ما استخدمنا حتى الآن كلمة «النكوص» بمعناها الشائع، بل بمعنى خاص جداً. ولو أخذتموها بمعناها العام، معنى الارتداد من مرحلة عليا إلى مرحلة دنيا من التطور، لأمكن أن يُفهم الكبت هو الآخر على أنه نكوص، أي ارتداد إلى مرحلة سابقة ومبكرة من التطور. غير أننا عندما نتحدث، نحن، عن الكبت، لا يذهب بنا الفكر إلى هذا الاتجاه الارتجاعي، لأننا نقول أيضاً بوجود كبت، بالمعنى الدينامي للكلمة، حتى عندما يُعقل الفعل النفسي قبل أن ييارح مرحلة الشعور الدنيا. الكبت إذاً مفهوم طبوغرافي ودينامي، بينما النكوص مفهوم وصفي خالص. أما ما كنا نغنيه بالنكوص، كما وصفناه حتى الآن من خلال ربطه بالتثبيت، فهو فقط ارتداد الليبدو إلى مراحل سابقة من تطوره، أي شيء يختلف كل الاختلاف عن الكبت، مثلما أنه مستقل عنه

كل الاستقلال. بل لا يسعنا أن نجزم بأن نكوص الليبدو سيرورة سيكولوجية خالصة، وليس في مقدورنا أن نحدد لها موضعاً في الجهاز النفسي. وعلى الرغم من عميق تأثيره في الحياة النفسية، فإن العامل العضوي يكون هو الغالب عليه.

لا ريب، سادتي، في أن هذه المناقشات تبدو لكم عويصة. غير أن الطب السريري قمين بأن يقدم لنا عنها تطبيقات من شأنها أن تجعلها أوضح وأسهل متناولاً. تعلمون أن الهستيريا والعصاب الوسواسي هما الممثلان الرئيسيان لزمرة الأعصاب التحويلية. صحيح أنه يحدث في الهستيريا نكوص لليبدو نحو المواضيع الجنسية الأولى، ذات الطبيعة المحرمة، ومن الممكن التأكيد بأنه مطرد الوجود في كل حالة من حالاتها، بينما لا نلاحظ فيها أثراً للنكوص نحو مرحلة سابقة من التنظيم الجنسي. لكن الكبت بالمقابل هو الذي يلعب الدور الرئيسي في آلية الهستيريا. ولو كان مباحاً لي أن أكمل بإنشاء افتراضي جميع المعلومات الأكيدة التي حصلناها حتى الآن بصدد الهستيريا، لوصفت الموقف على النحو التالي: إن الميول الجزئية تجتمع وتلتحم تحت إمرة الأعضاء التناسلية، لكن العواقب التي تنشأ عن ذلك تصطدم بمقاومة النسق القبشعوري المرتبط بالشعور. إذاً فالتنظيم التناسلي يرتبط باللاشعور، لكن القبشعور لا يقبل به، ومن هنا تنشأ لوحة سريرية تنطوي على بعض وجوه الشبه مع الحالة التي كانت قائمة قبل أبولولة الزعامة إلى الأعضاء التناسلية، لكنها في الواقع مغايرة لها تماماً. والحق أن النكوص نحو مرحلة سابقة من التنظيم الجنسي هو الألف للنظر بين كلا نوعي نكوص الليبدو. وبما أن النكوص الأخير هذا لا وجود له في الهستيريا، وبما أن كل تصورنا للأعصاب لا يزال متأثراً بدراستنا - المتقدمة زمنياً - للهستيريا، فإن أهمية نكوص الليبدو لم تظهر لنا إلا بعد زمن طويل من ظهور أهمية الكبت. ولكم أن تتوقعوا أن وجهات نظرنا سيطراً عليها توسيع وتعديل كثير متى ما نظرنا أيضاً في الأعصاب النرجسية، بالإضافة إلى الهستيريا والعصاب الوسواسي.

وبالمقابل، يشكل نكوص الليبدو في العصاب الوسواسي نحو الطور التمهيدي من التنظيم السادي - الشرجي الواقعة الألف للنظر والمتحركة بجميع تظاهرات الأعراض. وعندئذ تنكر النزعة الحبية في إهاب النزعة السادية،

والفكرة المتسلطة التي مؤداها: أود لو أقتلك تعني في حقيقتها، متى ما جرّدها من لواحقها واستطالاتها التي هي مع ذلك ضرورية وغير عارضة، ما يلي: أود لو أتمتع بك في الحب. فإذا افترضتم أنه حدث في الوقت نفسه نكوص بخصوص الموضوع، أي نكوص يتحتم معه أن تنصب الحفريات المشار إليها على أقرب الأشخاص وأحبّهم إلى الشخص المعني، تكوّنت لديكم فكرة عن الاستفطاع الذي يمكن أن تستثيره لدى المريض هذه التصورات المتسلطة التي تظهر لوعيه وكأنها غريبة عنه كل الغربة. غير أن الكبت يلعب أيضاً في هذه الأعصبة دوراً هاماً يعسر علينا تحديده في مدخل سريع كهذا. وإن لم يقرن نكوص الليبيدو بكبت فقد يؤدي إلى انحراف جنسي، لكنه لن يقود أبداً إلى عصاب. ومن هذا ترون أن الكبت هو السيورة الأشد لصوقاً بالعصاب والأكثر اختصاصاً به وتمييزاً له. وربما سنحت لي فرصة لأحدثكم أيضاً عما نعرفه عن آلية الانحرافات، فترون عندئذ أن الأمور تجري على نحو أبعد عن البساطة بما لا يقاس مما يتصور الناس عادة.

سادتي، أمل أن لا تلموني على استرسالي في الكلام عن تثبيت الليبيدو ونكوصه إذا ما قلت لكم إنني لم أحدثكم عنهما إلا تمهيداً لدراسة أسباب نشوء الأعصبة. وهذا الموضوع الأخير لم أذكر لكم عنه سوى شيء واحد، وهو أن الناس يغدون معصوبين متى حيل بينهم وبين إمكانية إشباع الليبيدو عندهم، أي من جراء «الحرمان» كما أسميته من قبل^(٣)، وأن أعراضهم تحلّ لديهم محل الإشباع الممنون به عليهم. ولا يجوز بطبيعة الحال أن نستنتج من ذلك أن كل حرمان من الإشباع الليبيدوي من شأنه أن يجعل ضحيته معصوباً. بل كل ما أريد قوله أن عامل الحرمان قائم في جميع الحالات العصابية التي تسنى لنا فحصها. إذا فأطروحتي غير قابلة لأن تعكس. ولا ريب في أنكم تدركون أيضاً أنها لا تكشف عن كل سر أسباب نشوء الأعصبة، بل فقط عن شرط واحد هام وأساسي من شروط هذا النشوء.

٣ - انظر المحاضرة التاسعة عشرة. «م».

ولا ندري بعد، إن شئنا الماضي في مناقشة هذه الأطروحة، ينبغي أن نلح في المقام الأول على طبيعة الحرمان أم على طبع الشخص المحروم وخلقته. ذلك أن الحرمان نادراً ما يكون تاماً مطلقاً، وهو لا يغدو مسبباً للمرض إلا متى ما انصب على الإشباع الوحيد الذي يتطلبه الشخص، وعلى الإشباع الوحيد الذي يقدر عليه هذا الشخص. وكثيرة هي، بصفة عامة، الوسائل التي تتيح للفرد أن يتحمل الحرمان من الإشباع الليبيدوي من دون أن يسقط مريضاً. ونحن نعرف أشخاصاً يسعهم أن ينزلوا بأنفسهم هذا الحرمان من غير أن يلحقهم ضرر أو أذى. صحيح أنهم ليسوا بسعداء، وأنهم يكابدون دنفاً وسقاماً، لكنهم لا يقعون صرعى المرض. وعلينا أن نأخذ في اعتبارنا، علاوة على ذلك، أن الحائات الغريزية الجنسية ذات قابلية تشكيلية خارقة، إن جاز لي التعبير. فهي قادرة على أن تنوب مناب بعضها بعضاً، وقد تتلبس حائة منها كل قوة الحائات الأخرى؛ وإذا ما ضرّ الواقع إشباع حائة منها، تولت حائة أخرى التعويض عن هذا الحرمان. فهي أشبه ما تكون، في صلاتها ببعضها بعضاً، بشبكة من أفتية مستطرفة مليئة بالماء، وذلك على الرغم من خضوعها لزعامة الأعضاء التناسلية: وهاتان خاصيتان يصعب التوفيق بينهما. أضف إلى ذلك أن الحائات الجنسية الجزئية، وكذلك النزوع الجنسي الذي هو بمثابة تركيب لها، تمتلك مقدرة كبيرة على تغيير مواضعها، وعلى مقايضة كل موضوع من مواضعها بموضوع غيره يكون أسهل منالاً؛ وهذه القدرة على الإزاحة والنقل وهذه السهولة في الأخذ بالبدائل من شأنها أن تجابه التأثير الإراضي للحرمان بمقاومة عنيدة. ومن بين هذه العوامل التي لها مفعول وقائي، إن جاز القول، ضد التأثير الضارّ للحرمان، ثمة عامل اكتسب أهمية اجتماعية خاصة في تقدم الحضارة، ويتمثل في عزوف النزوع الجنسي عن اللذة الجزئية أو عن اللذة المتأتية عن فعل الإنجاب، واستبداله هذه اللذة بهدف آخر بينه وبين الهدف الأول صلات تكوينية، لكنه صار اجتماعياً بدلاً من أن يبقى جنسياً. نحن نطلق على هذه السيرة اسم الإسماء Sublimation، وبذلك نتفق مع الرأي العام الذي يضفي على الأهداف الاجتماعية قيمة أكبر من تلك التي ينيطها بالأهداف الجنسية التي هي، في واقع الأمر، أهداف أنانية. وما

الإسماء أصلاً إلا حالة خاصة من حالات ربط الميول الجنسية بأخرى لاجنسية. ولنا عودة إلى هذا الموضوع في سياق آخر^(٤).

أرجح الظن أنكم تملكون الآن إلى الافتراض بأن جميع هذه الوسائل المتاحة للفرد لتحمل الحرمان من شأنها أن تفقد هذا الأخير خطورته. لكن الواقع غير هذا، إذ إن الحرمان يحافظ على قوته الإمرائية كاملة. والوسائل التي يجابه بها ليست بوجه عام كافية. ودرجة عدم إشباع الليبدو، التي يمكن للإنسان العادي أن يتحملها، محدودة. وهيهات أن تكون حركة الليبدو وقابليته للتشكيل كاملتين لدى الأفراد قاطبة؛ وليس يسع الإسماء أن يلغي سوى جزء من الليبدو، وهذا من دون أن نذكر أن الكثيرين من الناس لا يملكون إلا مقدرة طفيفة للغاية على الإسماء. وفي طبيعة هذه التقييدات كما هو ظاهر للعيان ما يتصل منها بحركية الليبدو، وهذا التقييد من شأنه أن يرهن إشباع الفرد بعدد ضئيل للغاية من المواضيع والأهداف. حسبكم أن تذكروا أن التطور غير المكتمل لليبدو ينطوي على تثبيتات ليبيدية متنوعة شتى على أطوار سألقة من التنظيم وعلى مواضيع سابقة، وهي أطوار ومواضيع ما عادت قادرة في أغلب الأحيان على تأمين إشباع حقيقي. حسبكم أن تذكروا ذلك لتدركوا أن تثبيت الليبدو هو العامل الثاني من حيث القوة، بعد الحرمان، لنشوء الأعصبة. وبوسعنا التعبير عن هذه الواقعة بإيجاز بياني بقولنا إن تثبيت الليبدو يشكل، في مبحث أسباب نشوء الأعصبة، العامل الداخلي المهيئ للمرض، بينما يؤلف الحرمان العامل الخارجي، العارض.

أعنتم هنا الفرصة لأدعوكم إلى الامتناع عن الخوض في غمار مناقشة عديمة الجدوى. فما أشد ما يطيب للأوساط العلمية أن تمسك بجزء من الحقيقة، وأن تعلن أن هذا الجزء من الحقيقة هو الحقيقة كلها، وأن تماري بالتالي، لصالح هذا الجزء، في صحة كل الباقي مع أنه بدوره حق. واعتماداً على نهج كهذا انفصلت تيارات عدة عن الحركة التحليلية النفسية، فما اعترف بعضها إلا بالدوافع الغريزية الأنوية وأنكر الدوافع الغريزية الجنسية^(٥)، ولم يأخذ بعضها

٤ - انظر خاتمة المحاضرة الرابعة والعشرين. «م».

٥ - نقلة للمرسدة يونغ. «م».

الآخر بعين الاعتبار سوى التأثير الذي تمارسه الأعباء التي تفرضها الحياة الواقعية وضرب صفحاً عن التأثير الذي يمارسه ماضي الفرد، إلخ^(٦). وبوسعنا بدورنا أن نقيم مقابلة بين كل من التثبيت والحرمان وأن نصطنع مساجلة بتساؤلنا: هل الأعصبة أمراض خارجية المنشأ أو داخلية المنشأ، وهل هي نتيجة محتومة لجلبة معينة أم هي نتاج بعض أفعال ضارة (رَضِيَّة)؟ وهل تنجم، على الأخص، عن تثبيت الليبيدو (وباقى الجِلَّة الجنسية)، أم عن الضغط الذي يحدثه الحرمان؟ وأنا أرى، في محصلة الحساب، أن هذا الإشكال يعادل في سقمه وعدم جدواه ذلك الإشكال الآخر الذي أستطيع، فيما لو شئت، أن أطرحه عليكم: هل يولد الطفل لأن الأب أنجبه أم لأن الأم حملت به؟ ستقولون لي: إن الشرطين كليهما لازم، ولن تكونوا إلا مصيبين. وإن لم تكن الحال في مبحث أسباب نشوء الأعصبة ماثلة، فهي على الأقل مشابهة. فالأمراض العصابية يمكن أن تصنف، من وجهة نظر مبحث الأسباب، في سلسلة يتحكم بحدِّها عاملان: الجِلَّة الجنسية والمؤثرات الخارجية، أو إذا شئتم تثبيت الليبيدو والحرمان، فمتى زادت حصة أحد العاملين نقصت حصة العامل الآخر. وتقع في أحد طرفي هذه السلسلة الحالات القصوى التي يمكنكم أن تقولوا عنها يقيين: إن هؤلاء الأفراد، بالنظر إلى التطور اللاسوي للبيدو عندهم، ما كان لهم إلا أن يسقطوا مرضي، مهما يكن مجرى الأحداث الخارجية في حياتهم، وحتى لو برئت هذه الحياة إلى أقصى حدٍّ ممكن من الخطوب. وفي الطرف الآخر تقع الحالات التي بوسعكم أن تقولوا عنها، على العكس من ذلك، إن هؤلاء المرضى كانوا سينجون بكل تأكيد من الوقوع في قبضة العصاب لو لم يرزحوا تحت عبء هذا الموقف أو ذاك. أما في الحالات المتوسطة فتقوم تركيبات مختلطة: فإن لم تكن حصة الجِلَّة المهيمنة للمرض كبيرة فيها ضوّلت بالمقابل حصة المؤثرات الضارة التي يتعرض لها الفرد في مجرى حياته، والعكس بالعكس. وفي هذه الحالة الأخيرة، ما كان للجِلَّة الجنسية أن تسلم الفرد إلى العصاب لولا تدخل المؤثرات الضارة، وما كان ليعقب هذه المؤثرات مفعول رَضِي لو اختلفت شروط الليبيدو. وبوسعي، عند

الاقتضاء، أن أسلم ببعض الغلبة في هذه السلسلة للدور الذي تلعبه العوامل المهيمنة، غير أن تسليمي هذا مرتين بالحدود التي ترسمونها للحالة العصبية. سادتي، أقترح عليكم أن نسمي مثل هذه السلاسل بالسلاسل المتتامة، وأخطرهم مسبقاً أنه ستسنى لنا فرصة لبناء سلاسل أخرى ماثلة.

إن إصرار الليبدو على سلوك اتجاهات معينة والتشبث بمواضيع معينة، أو لزوجة الليبدو إن جاز القول، تبدو لنا عاملاً مستقلاً بذاته، يختلف من فرد إلى آخر، ونجهل بأسبابه جهلاً مطبقاً. وإذا كان يتعيّن علينا ألا نستخفّ بدوره في نشوء الأعصبة، فعلياً بالمقابل ألا نبالغ في مدى وثوق صلته بأسباب نشوء هذه الأمراض. فمثل هذه «اللزوجة» الليبدوية، المجهولة العلة بدورها، نلاحظها أيضاً لدى الإنسان السوي في ظروف شتى، كما نلاحظها بصفاتها عاملاً حاسماً لدى الأشخاص الذين يشكلون، بمعنى ما، فصيلة مناقضة لفصيلة العصبيين: أي لدى المنحرفين. وقد كان معروفاً قبل التحليل النفسي (بينه BINET^(٧)) أنه من الممكن في أحوال كثيرة أن تكشف حياة المنحرفين الماضية عن انطباع قديم جداً، خلّفه توجّه شاذّ للدافع الغريزي أو اختيار شاذّ للموضوع، ولبث لبيدو الفرد المنحرف متعلّقاً به بعد ذلك طوال حياته. ومن المتعذر في كثرة من الأحيان أن نحدد المصدر الذي يستمدّ منه هذا الانطباع قدرته على ممارسة مثل هذا الجذب الذي لا يقاوم على الليبدو. وسأسرد عليكم تفاصيل حالة عاينتها بنفسي. إنها حالة رجل فقد اليوم اهتمامه بأعضاء المرأة التناسلية وبسائر محاسنها ومفاتها، لكنه يشعر بالمقابل باهتياج جنسي لا يقاوم إذا ما وقع نظره على قدم تنتعل حذاء على شكل معيّن؛ وهو يذكر حادثة وقعت له حين كان في السادسة من العمر، فلعبت دوراً حاسماً في تثبيت الليبدو عنده. فقد كان يجلس على مقعد قرب مربيته التي كان عليها أن تعطيه درساً في الإنكليزية. وكانت المريية فتاة ضامرة، قبيحة، عيناها زرقاوان بلون الماء وأنفها أقنى، وكانت تشكو في ذلك اليوم من

٧ - ألفريد بينه: عالم فرنسي (١٨٥٧ - ١٩٢١). دُرّس علم النفس الفيزيولوجي وعلم النفس التجريبي، وله دور ريادي في اختراع روائز الذكاء. من أشهر مؤلفاته: علم نفس التفكير و مدخل إلى علم النفس التجريبي. ٤٥.

وجع في قدميها، فانتعلت خفّاً من المخمل، ومدت قدمها على وسادة. بيد أن ساقها كانت مستورة باحتشام تام. فلما بلغ فتانا صار موضوعه الجنسي الوحيد، بعد محاولة وجلة لنشاط جنسي سوي، قدماً هزيلة، بادية الأوتار، كقدم المريية، وكان يشعر بانجذاب لا يقاوم إذا ما انضافت إلى هذه القدم ملامح أخرى تذكّره بشكل المريية الإنكليزية. ولم يجعل تثبيت اللييدو هذا من رجلنا معصوباً، بل تيمياً مولهاً بالقدم. وكما ترون، إذا كان التثبيت المشتط - والمبكر بالإضافة إلى ذلك - للييدو يشكل عاملاً لا غنى عنه في نشوء العصاب، فإن تأثيره يتجاوز نطاق الأعصاب مع ذلك. ومن ثم، إن التثبيت ليس في ذاته شرطاً حاسماً، شأنه في ذلك شأن الحرمان الذي تقدّم الكلام عنه.

هكذا تبدو مشكلة تعيين علل الأعصاب وكأنها تتعقد. وفي الواقع، يكشف لنا البحث التحليلي النفسي عن عامل آخر لم يظهر في السلسلة التي وضعناها لأسباب نشوء الأعصاب، وهو عامل يتجلى بملء الوضوح عند المعافين من الأشخاص الذين يقعون على نحو مفاجئ صرعى المرض العصائي. فنحن نجد عند هؤلاء الأشخاص بصورة مطردة مؤشرات على وجود صراع لديهم بين حاثات رغبة، أو صراع نفسي كما اعتدنا أن نقول. فشطر من الشخصية يمثل رغبات معينة، وشطر آخر منها يعترض على هذه الرغبات ويرفضها. وبدون صراع من هذا النوع، لا يكون ثمة وجود لعصاب. وليس في ذلك أصلاً ما يبعث على الاستغراب. فأنتم تعلمون أن حياتنا النفسية عرضة دائماً لصراعات يقع على عاتقنا أن نجد لها حلاً. وحتى يصبح مثل هذا الصراع إمرضياً، لا بدّ إذاً أن تتوفر في الأرجح شروط خاصة. وبوسعنا أن نتساءل: ما هذه الشروط، وما القوة النفسية التي تدور بينها تلك الصراعات الممرضة، وما العلاقة التي يعقدها الصراع مع العوامل المسببة الأخرى؟

آمل أن أتمكن من أن أجّد لهذه الأسئلة أجوبة مقنعة، وإن تكن مختصرة وخطاطية. فالصراع ينشأ عن الحرمان، إذ يضطر اللييدو المضنون عليه بالإشباع السوي إلى البحث عن مواضيع وسبل أخرى. ومن شروط هذا الصراع أن تقابل هذه السبل والمواضيع الأخرى بالاستهجان والاستنكار من قبل شطر بعينه من

الشخصية: فينتج عن ذلك نوع من الفيتو يجعل في أول الأمر النمط الجديد في الإشباع مستحيلاً. وابتداء من هذه اللحظة يسلك تكوّن الأعراض طريقاً سنأثره فيما بعد. وعندئذ تسعى الميول الليبيدوية المصدودة إلى التظاهر والتعبير عن نفسها بطرق ملتوية، ولكن من دون أن تقلع عن محاولة تبرير مطالبها باعتماد أشكال محوَّرة ومخفَّفة. هذه الطرق الملتوية هي طرق تكوّن الأعراض: فهذه الأخيرة تمثّل الإشباع الجديد أو البديل الذي فرض ضرورته الحرمان.

ونستطيع أيضاً أن نبرز أهمية الصراع النفسي بقولنا: «كيما يتحول الحرمان الخارجي إلى حرمان ممرض، فلا بدّ أن يقترن بحرمان داخلي». وغني عن البيان أن الحرمان الخارجي والحرمان الداخلي يطانان مواضيع متباينة ويسلكان طرقاً مختلفة. فالحرمان الخارجي يستبعد إمكانية بعينها للإشباع، والحرمان الداخلي يجبّد أن يقصّي إمكانية أخرى، وإنما بصدد هذه الإمكانية الأخيرة ينشب عندئذ الصراع. ولقد أثرت هذه الطريقة في العرض لما تنطوي عليه من مضمون مضمّر. وبالفعل، إنها توحى باحتمال أن تكون الموانع الداخلية قد نشأت في الأزمنة البدائية من التطور البشري عن عقبات خارجية فعلية.

لكن ما القوى التي يصدر عنها الاعتراض على النزوع الليبيدوي، وما الطرف الآخر في الصراع الممرض؟ إنها، إذا شئنا تعبيراً بالغ العمومية، القوى الغريزية غير الجنسية. ونحن نعيد تجميعها تحت اسم «الدوافع الغريزية الأنوية»؛ والحال أن التحليل النفسي للأعصبة التحويلية لا يقدم لنا أية وسيلة مفيدة لنخضعها لمزيد من التفكيك، وأقصى ما في استطاعتنا في هذه الحال أن نتعرّفها إلى حدّ ما من خلال المقاومات التي تعترض سبيل التحليل. إن الصراع الممرض هو إذاً صراع بين الدوافع الغريزية الأنوية والدوافع الغريزية الجنسية. وفي سلسلة بكاملها من الحالات يساورنا انطباع بأن هذا الصراع قد يكون أيضاً صراعاً بين نوازع جنسية خالصة شتى؛ غير أن الأمر واحد في واقع الحال، إذ إن أحد الدافعين الجنسيين المتصارعين هو على الدوام موافق، إن جاز القول، للأنثى، بينما يستثير الثاني الدفاع من جانب الأنثى. وهذا ما يرجع بنا إلى الصراع بين الأنثى والجنسية.

سادتي، لقد كان التحليل النفسي كلما نظر إلى حدث نفسي بعينه على أنه

نتاج للدوافع الغريزية الجنسية يقابل باعتراض غاضب مؤداه أن الإنسان لا يتألف من جنسية فقط، وأن الحياة النفسية تنطوي على دوافع غريزية واهتمامات أخرى غير الدوافع والاهتمامات ذات الطبيعة الجنسية، وأنه لا يجوز بحال من الأحوال اشتقاق «كل شيء» من الجنسية، إلخ. والحق أنني لا أعرف شيئاً أدعى إلى الغبطة من أن يجد المرء نفسه على وفاق مع خصومه ولو لمرة واحدة يتيمة. فالتحليل النفسي لم ينسَ قط أنه توجد قوى غريزية غير جنسية، بل شاد صرحه كله على مبدأ الانفصال الواضح والحاسم بين الدوافع الغريزية الجنسية و الدوافع الغريزية الأنوية، ولم ينتظر اعتراضات المعارضين ليؤكد أن الأعصاب نتاج لا للجنسية، بل للصراع بين الأنا والجنسية. وليس لديه أي سبب معقول للمماراة في وجود الدوافع الغريزية الأنوية أو أهميتها في سياق مسعاه إلى تحديد دور الدوافع الغريزية الجنسية في المرض وفي الحياة. ولكن وجد نفسه مدفوعاً إلى أن يخصّ الدوافع الغريزية الجنسية باهتمامه الأول، فذلك لأن الأعصاب التحويلية كشفت عن هذه الدوافع بجلاء لا مستتراد عليه، وأتاحت للتحليل النفسي بالتالي أن يدرس ميداناً غفل عنه الآخرون وأهملوه.

كذلك ليس من الحق أن يقال إن التحليل النفسي لا يهتم بالجانب غير الجنسي من الشخصية. فالفصل بين الأنا والجنسية هو بعينه الذي أمار اللثام بأجل ما يكون عن أن الدوافع الغريزية الأنوية تمرّ هي الأخرى بتطور هام، وأن هذا التطور ليس مستقلاً كل الاستقلال عن الليبدو وليس خلواً من كل ردّ فعل عليه. والحق أنه لا مناص لنا من القول إن معرفتنا بتطور الأنا أوهى بكثير من معرفتنا بتطور الليبدو، وعلة ذلك تكمن في أننا لا نستطيع أن نأمل في النفاذ إلى بنية الأنا إلا بعد دراستنا الأعصاب النرجسية. ومع ذلك، فقد بُذلت في هذا السبيل محاولة مثيرة فعلاً للاهتمام، نقصد بها محاولة فيرنزي FERENCZI^(٨)

٨ - ساندور فيرنزي: محلل نفسي مجري (١٨٧٣ - ١٩٢٣). كان من أوفى تلاميذ فرويد، وقد قال عنه هذا الأخير: «إنه يعدل وحده جمعية بأسرها». لكن فيرنزي أعرب ابتداء من ١٩٢٠ عن بعض الشك في النجع العلاجي للتقنية التحليلية النفسية. من أهم مؤلفاته: الرضة، الطفل الراشد، حول الأعصاب الحرة، طالاسا: التحليل النفسي لأصول الحياة الجنسية. والإحالة هنا إلى مقاله مراحل تطور حبس الواقع المنشور في المجلة الدولية للتحليل النفسي، العدد ١، ١٩١٣ م».

الذي سعى إلى أن يحدد نظرياً مراحل تطور الأنا. وتوفر لدينا اليوم نقطتا ارتكاز مكثتان، على الأقل، للحكم على هذا التطور. فليست الاهتمامات الليبيدوية لدى شخص من الأشخاص متعارضة من البداية، وبالضرورة، مع اهتمامه بحفظ ذاته وصونها، بل نستطيع القول بالأحرى إن الأنا يسعى، في كل مرحلة من مراحل تطوره، إلى أن ينسجم مع تنظيمه الجنسي وأن يتكيف معه. وتعاقب مختلف مراحل تطور الليبيدو يتم في أرجح الظن وفق برنامج مرسوم من قبل؛ غير أنه لا مجال للمماراة في أن هذا التعاقب يمكن أن يخضع لتأثير الأنا، كما لا مجال للشك في وجود نوع من التوازي والتوافق بين مراحل تطور الأنا ومراحل تطور الليبيدو، وفي أن اختلال هذا التوافق يمكن أن ينشأ عنه عامل إمراضي. وثمة نقطة لها أهميتها الكبرى بالنسبة إلينا، وهي أن نعرف كيف يتصرف الأنا في الحالات التي يكون فيها الليبيدو قد تثبت على طور محدد من تطوره. فقد يتكيف الأنا مع هذا التثبيت، وفي هذه الحال يغدو منحرفاً أو - والأمر سيان - طفلياً، وذلك بدرجة تناظر مقدار التثبيت. لكنه قد يثور أيضاً على هذا التثبيت لليبيدو، وعندئذ يعاني الأنا كبتاً حيثما عانى الليبيدو تثبيتاً.

بمضيّنا في هذا السبيل نعلم أن العامل الثالث في مبحث أسباب الأعصبة، وأعني به الجنوح إلى الصراع، يرتتهن بتطور الأنا وتطور الليبيدو على حدّ سواء. وبذلك يكتمل نصاب أفكارنا حول تعليل نشوء الأعصبة. فلدينا أولاً الشرط الأعم، ويتمثل بالحرمان، ثم يليه تثبيت الليبيدو الذي يدفع بهذا الليبيدو في اتجاهات محددة، ويتدخل ثالثاً الجنوح إلى الصراع الناجم عن تطور الأنا الذي يكون قد أشاح عن ميول الليبيدو تلك. إذا فالوقوف ليس على تلك الدرجة من التعقيد ولا على ذلك القدر من صعوبة الفهم على ما قد يكون تبدى لكم وأنا أعرض عليكم استنتاجاتي. غير أننا، في الحق، لم نقل كل شيء عن هذه المسألة. فلا يزال علينا أن نضيف إلى ما ذكرناه شيئاً جديداً، كما لا يزال علينا أن نخضع لتحليل أكثر تعمقاً أشياء تقدمت بنا معرفتها.

كيما أبين لكم أثر تطور الأنا في نشوب الصراع، وبالتالي في تسبب الأعصبة، سأضرب لكم مثلاً غير بعيد الاحتمال على الإطلاق وإن يكن خيالياً.

لقد استوحيت هذا المثال من عنوان تمثيلية نستروي NESTROY^(٩) الهازلة: في الطابق الأرضي وفي الطابق الأول. ففي الطابق الأرضي يسكن البواب، وفي الطابق الأول يقيم مالك البيت، وهو رجل غني وذو اعتبار. ولكل منهما أولاد، وإننا لنفترض أن ابنة المالك الصغيرة تتهيا لها كل الفرص لتلعب، بعيداً عن عين الرقيب، مع طفلة الرجل الفقير. وقد يحدث أن يتخذ لعب الطفلين طابعاً «لامحتشماً»، أي جنسياً، فتلعبان لعبة «البابا والماما»، وقد تحاول كل منهما أن تسترق النظر إلى الأجزاء الحميمة من جسم الأخرى وأن تهيج أعضاءها التناسلية. ولعل ابنة البواب، التي أتاحت لها، رغم أنها لا تتجاوز الخامسة أو السادسة من العمر، فرص لمشاهدة بعض مظاهر الحياة الجنسية لدى الراشدين، هي التي ستلعب دور المغوية. وهذه «الألعاب»، حتى وإن لم تدم طويلاً، تكفي لتنشيط بعض الحائث الجنسية لدى الفتاتين، وهذه الحائث تفصح عن نفسها، بعد الإمساك عن تلك الألعاب، في فعل الاستمناء على مدى بضعة سنوات. هذا ما يكون مشتركاً بين الطفلتين، غير أن النتيجة النهائية تختلف بينهما اختلافاً بيئياً. فابنة البواب ستمارس الاستمناء إلى حين ظهور الطمث تقريباً، ثم ستمتنع عنه بلا جهد، وستتخذ لها بعد بضعة سنوات عشيقاً، وقد تنجب طفلاً وتتمتحن مهنة ماء، وربما غدت فنانة مشهورة واحتلت مكانها في نهاية المطاف في مصاف الأرستقراطيين. ومن المحتمل أن يكون مصيرها أقل سطوعاً، لكنها ستحيا على كل حال بقية حياتها من دون أن تتأذى من ممارستها المبكرة لجنسيتها، وستكون بمنجى من العصاب. وغير هذا المصير سيكون مصير ابنة المالك. ذلك أنها ستشعر من وقت مبكر، وهي بعد طفلة، بشعور من أتى أمراً إداً، وستقلع بلا تأخير، لكن بعد صراع رهيب، عن الإشباع الاستمنائي، وإن كانت ستحتفظ منه بذكرى وانطباع موهنين، قابضين للنفس. فإذا ما شبت عن الطوق وصارت فتاة وتعين عليها أن تطلع على الحقائق المتصلة بالعلاقات الجنسية، أشاحت عنها بنفور لا تفسير له وآثرت أن تبقى على جهلها. ومن المحتمل أن تتعرض عندئذ من

٩ - يوهان نستروي: ممثل وكاتب مسرحي نمساوي (١٨٠١ - ١٨٦١). عرف نجاحاً كبيراً في عصره، وكتب أكثر من ثمانين مسرحية جمع فيها بين الهجاء والنقد الاجتماعي. «م».

جديد لضغط لا يقاوم لممارسة الاستمناء، من دون أن تجرؤ على مكاشفة أحد بالأمر. حتى إذا ما أدركت السنّ التي تبدأ فيها الفتيات بمداعبة أحلام الزواج، وقعت فريسة العصاب، وساورتها إزاء الزواج خيبة مريرة، ورأت إلى الحياة بنظارات سود قاتمة. فإذا ما وُفّقنا عن طريق التحليل إلى تفكيك هذا العصاب إلى عناصره، وجدنا أن تلك الفتاة المهذبة، الذكية، المثالية، قد كبتت نوازعها الجنسية كبتاً تاماً، وأن هذه النوازع، التي لا تعيها على الإطلاق، ترتبط بالألعاب البائسة التي كانت لعبتها مع صديقة طفولتها.

إن الاختلاف بين هذين المصيرين، بالرغم من تماثل الخبرات الأولى، مردّه إلى أن أنا إحدى بطلتينا قُدِّر له أن يمرّ بتطور لم تعرف نظيره الأخرى. فالنشاط الجنسي تبدّى لابنة البواب في زمن لاحق في صورة طبيعية، بريئة من الظنون والأفكار المبطنّة، على مثل ما كان عليه في طفولتها. أما ابنة المالك فقد تعرضت لتأثير التربية ومطالبها. ومع الإيحاءات التي تلقّتها من تربيتها، كوّنت عن طهارة المرأة وعفّتها مثلاً أعلى لا يتفق والنشاط الجنسي؛ وقد أوهنت تربيتها العقلية من اهتمامها بالدور الذي كان مفترضاً بها أن تؤديه كأمراة. وإنما بنتيجة هذا التطور الأخلاقي والعقلي الأعلى من تطور صديقتها دخلت في صراع مع مقتضيات جنسيتها.

أودّ الإلحاح بعد على نقطة أخرى تتصل بتطور الأنثى، وذلك لما تفتحه أمامنا من آفاق فسيحة، وكذلك لأن النتائج التي سنستخلصها في هذا الصدد سيكون من شأنها أن تبرّر التمييز الذي أقمناه بين الدوافع الغريزية الأنثوية والدوافع الغريزية الجنسية، وهو تمييز فاصل وإن كان لا يثب إلى العين وثباً. وحتى نصدر حكماً على هذين التطورين، يتعيّن علينا أن نسلّم بمقدمة لم نوليها حتى الآن ما هي خليقة به من الاهتمام والاعتبار. فكل من التطورين، تطور الليبدو وتطور الأنثى، لا يعدو في الواقع أن يكون ميراثاً، تكراراً مختصراً للتطور الذي مرت به البشرية قاطبة منذ بداية تاريخها وعلى امتداد أحقاب طويلة. وفيما يتصل بتطور الليبدو، نرانا نعترف له بيسر وعن طواعية بهذا الأصل السلالي PHYLOGÉNIQUE. حسبكم أن تذكروا أن الجهاز التناسلي لدى بعض الحيوانات يتصل اتصالاً وثيقاً

بالفم، بينما يتعذر تمييزه عن جهاز الإخراج لدى بعضها الآخر، أو يرتبط لدى بعضها الثالث بأعضاء الحركة، إلى غير ذلك من الوقائع التي تجدون عرضاً مشوقاً لها في كتاب ف. بولشه BOLSCHÉ الثمين^(١٠). وهكذا نلاحظ لدى الحيوانات كل صنوف الانحراف والتنظيم الجنسي في حالة متحجرة إن صح التعبير. والحال أن الجانب السلالي لدى الإنسان يحجبه عن النظر كون الخصائص، الموروثة أصلاً، يعاد اكتسابها من قبل الفرد من جديد في مجرى تطوره، وربما كان السبب في ذلك أن الشروط التي أوجبت فيما غير اكتساب خصيصة بعينها لا تزال قائمة ولا تزال تمارس تأثيرها على جميع الأفراد الذين يعقب بعضهم بعضاً. بل يسعني القول إن هذه الشروط بعد أن كانت خلاقة في الماضي أضحت اليوم ماضوية المتزع. ثم إنه مما لا يمارى فيه أن مسيرة التطور المسبق التعيين يمكن أن تضطرب أو أن تتعدّل لدى كل فرد بفعل مؤثرات خارجية حديثة العهد. أما القوة التي فرضت على البشرية هذا التطور، والتي لا تزال تفعل فعلها في الاتجاه عينه، فهي معروفة لدينا جميعاً: إنها هي الحرمان الذي يفرضه الواقع، أو إذا شئتم أن نسئها باسمها الحقيقي الكبير قلنا إنها الضرورة التي تفرضها الحياة: الأنانكية^(١١). والعصاويون هم أولئك الناس الذين كان لهذه الضرورة عواقب وخيمة عليهم؛ غير أن كل إنسان عرضة لهذا الخطر عينه أياً تكن التربية التي تلقاها. ونحن إذ نقول إن الضرورة الحيوية هي محرك التطور، فإننا لا ننتقص البتة من أهمية «الميل التطورية المباطنة»، حينما يثبت وجود هذه الميل.

والحال أنه يخلق بنا أن نشير إلى أن الدوافع الغريزية الجنسية والدوافع الغريزية التي تهدف إلى صون البقاء لا تسلك مسلكاً واحداً إزاء الضرورة الواقعية. فهذه الدوافع الأخيرة وكل ما يتصل بها أكثر امتثالاً للتربية: فهي تتعلم منذ وقت مبكر

١٠ - فلنهم بولشه: مؤلف وناسر ألماني (١٨٦١ - ١٩٣٩). كان من أتباع المدرسة الطبيعية. تمس للداروينية وللتزعة الحتمية وللمذهب الوضعي. ورغم افتقاره إلى العمق العلمي كان لكتابات تأثير كبير على أهل عصره. أما الكتاب الذي يشيد به فرويد فهو الحياة الحية في الطبيعة. «م».

١١ - الأنانكية: باليونانية في النص، وهي في الميتولوجيا الإغريقية تشخيص القدر. وهنا بمعنى الضرورة ومبدأ الواقع بالمقابلة مع الإيروس، أي مبدأ اللذة. «م».

كيف ترضخ للضرورة وكيف تكثف تطورها مع مقتضيات الواقع. وهذا أمر مفهوم، على اعتبار أنها لا تستطيع بطريقة أخرى أن تظهر بالمواضيع التي تحتاج إليها والتي بدونها يتعرض الفرد للهلاك. أما الدوافع الغريزية الجنسية، التي لا تحتاج إلى موضوع في بادئ الأمر وتجهل هذه الحاجة، فأعصى على التربية. فوجودها وجود طفيلي إن صحَّ التعبير، ومرتبطة بأعضاء الجسم الأخرى، وهي قادرة على تأمين إشباع ذاتي لها من دون أن تتجاوز جسم الفرد المعني، ولذا فإنها تغفل من التأثير التربوي للضرورة الواقعية، وتحفظ لدى أغلب الناس، ومن بعض النواحي، بهذا الطابع العسفي، النزوي، الجامح، «الأخرق» مدى الحياة. أضف إلى ذلك أن الشخص اليافع لا يعود يتأثر بالتربية متى ما بلغت حاجاته الجنسية الدرجة النهائية من قوتها. والمربون يعرفون ذلك ويتصرفون وفق هذه الحقيقة؛ فمساهم يدعون نتائج التحليل النفسي تقنعهم، فيعترفوا بأن التربية التي يتلقاها المرء في طفولته الأولى هي التي تترك فيه أعمق الأثر. ذلك أن الكائن البشري ينتهي تكوينه بتمامه منذ السنة الرابعة أو الخامسة، ثم لا يلبث في زمن لاحق أن يظهر للعيان ما بات متهيئاً له منذ تلك السن.

وتوضيحاً لكامل دلالة الفارق الذي أقمنه بين هاتين المجموعتين من الدوافع الغريزية، نرانا مضطرين إلى أن نطيل الاستطراد وإلى أن ندخل في حسابنا واحداً من الاعتبارات الجديرة بأن توصف بأنها اقتصادية. هنا نطرق ميداناً هو من أهم ميادين التحليل النفسي، ولكنه، ويا للأسف، من أكثرها غموضاً. وعلى هذا الأساس نتساءل عما إذا كان لعمل جهازنا النفسي غرض رئيسي لصيق به، ونجيب عن هذا السؤال بمقاربة أولى فنقول إن نشاطنا النفسي له بأسره، في ما تشير الدلائل، هدف محدد، وهو توفير اللذة لنا وتجنبنا الألم، وإنه محكوم آلياً بمبدأ اللذة. والحال أننا لا نتوق إلى شيء كتوقنا إلى معرفة شروط اللذة والألم، لكن عناصر هذه المعرفة هي بالضبط التي ليست متاحة لنا. والشيء الوحيد الذي نملك أن نؤكد أنه هو أن اللذة ترتبط بتناقص التنبيهات المتراكمة في الجهاز النفسي أو بتخفيفها أو بزوالها أو بانطفائها، بينما يرتبط الألم بتزايد هذه التنبيهات أو اشتدادها. وتمحيص أكثر أنواع اللذة المتاحة للإنسان، أي اللذة التي يظفر بها

أثناء أداء الفعل الجنسي، يقطع دابر كل شك حول هذه النقطة. وبما أن هذه الأفعال المقترنة باللذة تتصرف بكميات هائلة من التنبيه أو الطاقة النفسية، فإننا نصف الاعتبارات التي تتصل بها بأنها اقتصادية. وننوه هنا أن المهمة التي تقع على عاتق الجهاز النفسي والنشاط الذي يؤديه يمكن أن يوصفا بطريقة أخرى وعلى نحو أعم من محض الإلحاح على الظفر باللذة. فمن الممكن القول إن الجهاز النفسي يُستخدم بهدف ضبط الإثارات والتهيّجات التي تأتيه من الخارج أو من الداخل والسيطرة عليها وتصفيتهما. ومن الواضح، فيما يتصل بالدوافع الغريزية الجنسية، أنها من بداية تطورها إلى نهايته وسيلة للظفر باللذة الجنسية، وأنها تؤدي هذه الوظيفة بغير ما وهن. وذلك هو أيضاً، في البداية، هدف الدوافع الغريزية الأنوية. لكن تحت ضغط تلك المربية الكبرى التي هي الضرورة، لا تعتمد الدوافع الغريزية الأنوية أن تستبدل مبدأ اللذة ببديل محوّر عنه، فتفرض مهمة تبادلي الألم نفسها عليها بإلحاح يعادل إلحاح مهمة التماس اللذة، ويتعلم الأنا من ثم أنه لا معدى له عن الاستنكاف عن الإشباع المباشر، وعن إرجاء طلب اللذة، وعن تحمل بعض المشاق، وعن العزوف بوجه عام عن بعض مصادر اللذة. فإذا ما تربي الأنا على هذا النحو صار «عاقلاً»، فلا يعود يأتمر بمبدأ اللذة، بل يصدع بأمر مبدأ الواقع الذي يرمي هو الآخر، في باطن الأمر، إلى اجتناء اللذة، لكنها لذة مرجأة ومخففة، وفي الوقت نفسه مضمونة بحكم الاتصال بالواقع والامتثال لمطالبه.

إن الانتقال من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع يشكّل مظهراً من أهم مظاهر التقدم في تطور الأنا. وقد علمنا من قبل أن الدوافع الغريزية الجنسية لا تجتاز إلا بعد طول تأخير، وكما لو بالإكراه والغضب، هذه المرحلة من تطور الأنا. وسوف نرى فيما بعد العواقب التي تترتب بالنسبة إلى الإنسان على رخاوة الشائخ بين جنسيته وبين الواقع الخارجي. فإن كان أنا الإنسان يمزّ بتطور، وله تاريخ، مثله مثل الليبيدو تماماً، فلن يدهشكم أن تعلموا أنه من الممكن أن يكون هناك أيضاً «نكوص أنوي»، وربما ثار فضولكم لمعرفة الدور الذي يمكن أن يلعبه في الأمراض العصابية ارتداد الأنا هذا إلى مراحل سابقة من تطوره.

المحاضرة الثالثة والعشرون

طُرُق تَكُونُ العَرَض

سيداتي سادتي، الأعراض في نظر غير أهل الاختصاص هي جوهر المرض، ويزوالها يكون الشفاء منه. أما الطبيب فيسعى على العكس إلى التمييز بين الأعراض والمرض، ويزعم أن زوال الأعراض لا يعني البرء من المرض. إذ إن ما يبقى من المرض بعد زوال الأعراض هو الاقتدار على تكوين أعراض جديدة. وعليه، سنأخذ مؤقتاً بوجهة نظر العامة، فنسلم بأن استكشاف الأعراض وسير غورها يعدلان فهم المرض.

إن الأعراض - ونحن لا نتكلم بطبيعة الحال هنا إلا عن الأعراض النفسية (أو النفسية المنشأ) وعن الحالة المرضية النفسية - هي، بالإحالة إلى حياة الفرد في مجملها، أفعال ضارة أو على الأقل غير مجدية، أفعال يؤديها هذا الفرد كارهاً وتقترن بشعور ممضٍ أو موجه. ويكمن ضررها الأول في المجهود النفسي الذي يستلزمه تظاهرها، وفي المجهود النفسي الذي يحتاج إليه الفرد ليقاومها. وقد يؤدي هذان المجهودان، إذا ما كانت الأعراض المتكونة مشتتة، إلى تناقص شديد في الطاقة النفسية المتاحة، حتى ليغدو الشخص المعني عاجزاً عن التصدي لمهام الحياة ذات الشأن والأهمية. وبما أن هذه النتيجة تعبر بوجه خاص عن كمية الطاقة المصروفة، فليس يشق عليكم أن تدركوا أن تصورنا للمرض تصور عملي في المقام الأول. لكنكم لو أخذتم، مع ذلك، بوجهة نظر نظرية، وضربتم صفحاً عن تلك الكميات، لأمكنكم القول، بلا خوف الخطأ، إننا جميعاً مرضى، أي معصوبون، على اعتبار أن الشروط التي تتحكم بتكوين الأعراض تتواجد أيضاً لدى الإنسان السوي.

أما فيما يتصل بالأعراض العصائية، فقد رأينا من قبل أنها نتيجة صراع ينشب

بصدّد نمط جديد للإشباع الليبيدوي. فالقوتان اللتان كانتا قد انفصلتا تجتمعان من جديد في العرض، وتتصلحان إن صحّ التعبير وتتراضيان على حلّ وسط هو بالتحديد تكوّن الأعراض. وذلك ما يفسر قدرة العرض على المقاومة: فهو معضّد من الجانبين كليهما. ونحن نعلم كذلك أن أحد طرفي الصراع يمثل الليبيدو غير المشبع، الذي نخاه الواقع وأرغمه على التماس أنماط جديدة للإشباع. وإذا ما أصرّ الواقع على تشدّده وتصلّبه، أرغم الليبيدو، وحتى لو أظهر هذا استعداداً للأخذ بموضوع آخر بدلاً من الموضوع المضمّن به عليه، على سلوك طريق النكوص والبحث عن إشباع له إما في تنظيم من التنظيمات التي تمّ له تجاوزها سابقاً، وإما في موضوع من المواضيع التي كان قد هجرها من قبل. وما يجتذب الليبيدو إلى طريق النكوص هي التثبيتات التي خلّفها وراءه في تلك الأطوار من تطوره.

والحال أن طريق النكوص يفترق افتراقاً يبتأ عن طريق العصاب. فإن لم تلق أشكال النكوص أية مقاومة من الأنا، جرى كل شيء بلا عصاب، وفاز الليبيدو بإشباع واقعي. ولكن عندما لا يقبل الأنا بأشكال النكوص هذه، هذا الأنا الذي يتحكم لا بالوعي والشعور فحسب، بل كذلك بمنافذ التعصيب الحركي، وبالتالي بإمكانية التحقيق الفعلي للنوازع النفسية، فمن المحتمل أن ينشب عندئذ صراع. فالليبيدو، عندما يعاود تدفّقه، يجد الطريق أمامه مسدوداً إن جاز القول، فيتعيّن عليه أن يحاول إيجاد مخرج يتأتّى له فيه أن ينفق احتياطيه من الطاقة وفق مقتضيات مبدأ اللذة. وهكذا يتوجّب عليه أن ينفصل عن الأنا. ومما يسهّل عليه مهمته تلك التثبيتات التي خلّفها على امتداد طريق تطوره والتي كان الأنا يتحاماها في كل مرة بواسطة الكبت. وإذ يحتل الليبيدو في مسيرته النكوصية هذه المواقع المكبوتة، يعتق من ربة الأنا وقوانينه، وينفض عنه في الوقت نفسه غبار كل التربية التي تلقاها تحت تأثيره. لقد كان الليبيدو سلس القيادة ما دام يطمع في إشباع ما، لكنه يشمس ويجمع تحت الضغط المزدوج للإحباط الخارجي والداخلي، ويستذكر بحسرة نعيم الأيام الغابرة. ذلكم هو طبعه، وهو ثابت لا يتغير في واقع الأمر. أما التمثلات التي يصبّ عليها الليبيدو من الآن فصاعداً طاقته فتنتهي إلى نسق اللاشعور، وتخضع للسيرورات التي تتمّ داخل

هذا النسق، وفي المقام الأول التكثيف والإزاحة والنقل. وهنا يواجهنا موقف مطابق للموقف المميز لتشكيل الأحلام. فنحن نعلم أن الحلم بحصر المعنى، أي الحلم الذي تشكل في اللاشعور كتحقيق لرغبة خيالية لاشعورية، يصطدم بنشاط ما شعوري. وهذا النشاط يفرض على الحلم اللاشعوري رقابته، فتكون النتيجة حلاً وسطاً يتمثل بتكوين حلم ظاهر. والحال أن ذلك هو أيضاً شأن الليبيدو الذي لا بدّ لموضوعه، القابع في اللاشعور، أن يحسب حساب قوة الأنا القبعشعوري. فالمعارضة التي تجابه هذا الموضوع في داخل الأنا تمثل بالنسبة إلى الليبيدو نوعاً من «هجوم مضاد» موجّه ضد موقعه الجديد وترغمه على اختيار نمط تعبير قابل لأن يصبح نمط تعبير الأنا أيضاً. هكذا يتولد العرض الذي هو نتاج محرّف مراراً وتكراراً للإشباع اللاشعوري لرغبة ليبيدوية، نتاج ملتبس جرى اختياره ببراعة وله دالتان متعارضتان كل التعارض. إلا أن بين الحلم والعرض فارقاً بصدد النقطة الأخيرة هذه، إذ إن القصد القبعشعوري في الحلم يرمي فقط إلى صون النوم، وإلى سدّ المنفذ إلى الشعور على كل ما من شأنه تعكير صفوه؛ فهو لا يواجه الرغبة اللاشعورية بفيتو جازم باتر، ولا يصيح بها: كلا! العكس هو المطلوب! بل لا بدّ للقصد القبعشعوري، عندما يكون له دور في الحلم، من أن يكون أكثر تسامحاً، لأن وضع الإنسان النائم أقل عرضة للخطر، على اعتبار أن حالة النوم تؤلف بحدّ ذاتها حاجزاً يحول دون أي اتصال مع الواقع.

هكذا ترون أنه إذا كان في مستطاع الليبيدو أن يتملص من الشروط التي يخلقها الصراع، فإنما يدين بذلك لوجود التثبيتات. فالليبيدو، إذ يرتدّ إلى التثبيتات، يلغي مفعول الكبت ويظفر بنوع من التصريف أو الإشباع، على أن يراعي شروط التسوية والحل الوسط. وعن طريق لفّه ودورانه عبر اللاشعور والتثبيتات القديمة يفلح في خاتمة المطاف في الوصول إلى إشباع فعلي وإن يكن محدوداً غاية المحدودية حتى ليكاد يتعذر تعرفه على أنه إشباع حقاً. ولي بصدد هذه النتيجة النهائية ملاحظتان: أولاً، إنني ألفت انتباهكم إلى الوشائج الوثيقة التي تقوم هنا بين الليبيدو واللاشعور، ثم بين الشعور والواقع، وهذا على الرغم من أن كل زوج من هذين الزوجين لا يكون مرتبطاً أول الأمر ببعضه بعضاً بأي رابط؛ ثانياً، أودّ أن أُنَبِّهكم، مؤكداً على

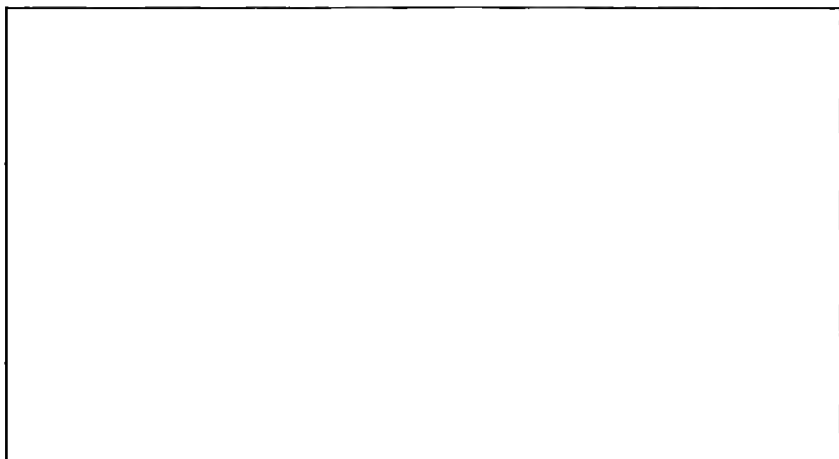
ضرورة عدم تناسي ذلك، إلى أن كل ما ذكرته لكم وكل ما سأقوله لكم لاحقاً يتصل فقط بتكوين الأعراض في العصاب الهستيرى.

أين يجد الليبدو الثبّيات التي يحتاج إليها ليشقّ لنفسه طريقاً عبر ضروب الكبت؟ يجدها في نشاطات الجنسية الطفلية وخبراتها، في ميول الطفولة الجزئية ومواضيعها المهجورة. إذًا، إلى هذا كله يرتدّ الليبدو. وأهمية هذه الحقبة الطفولية مزدوجة: فالطفل يفصح، من جهة أولى، لأول مرة عن توجهات غريزية يحملها معه إلى العالم في شكل استعدادات فطرية، ويتعرض، من الجهة الثانية، لمؤثرات خارجية وخبرات وأحداث عارضة تنشّط لديه دوافع غريزية أخرى. وأعتقد أن من حقنا الذي لا جدال فيه أن نأخذ بهذا التقسيم الثنائي. وأما أن الاستعداد الفطري المسبق يتظاهر فهذا ما لا يحتمل أي تحفّظ نقدي، غير أن التجربة التحليلية ترغمنا صراحة على التسليم بأن بعض الخبرات العارضة المحضة التي تقع في عهد الطفولة قادرة على أن تترك نقاط ارتكاز لثبّيات الليبدو. ولست أرى في ذلك أصلاً أية صعوبة نظرية. فالاستعدادات الجبليّة هي بلا مرأى آثار وبقايا خلفها لنا أسلافنا الأقدمون، وقد كانت بدورها صفات وطبائع جرى اكتسابها في زمن من الأزمان، إذ بدون اكتساب لا تكون هناك وراثّة. فهل من المعقول أنه، مع الجيل الذي نحن بصدد دراسته اليوم حصراً، ينقطع دابر تلك القدرة على اكتساب ما هو قابل لتناقل وراثياً؟ إن الخبرات الحياتية لدى الطفل لا يجوز إسقاطها من الحساب بكليتها، كما يحلو للناس أن يفعلوا ذلك، لصالح الخبرات الحياتية لدى الأسلاف أو لدى الفرد وهو في طور التضج والرشد، بل على العكس من ذلك تماماً: فالوقائع التي تزخر بها حياة الطفولة تستأهل اعتباراً خاصاً، إذ تتمخض عن عواقب يزيد في خطورتها كونها تقع في عهد لا يكون فيه النمو قد اكتمل بعد، وهذا بالتحديد ما يجعل لها أثراً رصياً. وقد بيّنت أبحاث روكس ROUX^(١) وغيره حول آلية النمو أن أبسط جرح، ولو كان

١ - فلهلم روكس: عالم ألماني مختصّ بعلم الحيوان ومؤسس علم الأجنة التجريبي (١٨٥٠ - ١٩٢٤). حاول من خلال تجاربه على بيوض السمك إثبات صحة نظرية داروين عن التطور بتطبيقها على مستوى الخلايا. «م».

وخزة إبرة مثلاً، يصيب الجنين في طور الانقسام الخلوي يمكن أن يتسبب في اضطرابات خطيرة للغاية في النمو. ولكن إذا ما أصاب جرح مائل اليرقانة أو الحيوان المكتمل النضج، لم يترك أي أثر ضار.

إن تثبيت الليبدو هذا لدى الراشد - وقد أدخلناه في معادلة مبحث أسباب نشوء الأعصبة بصفته ممثلاً للعامل الجبلي - يغدو قابلاً الآن للرد إلى عاملين جديدين: الاستعداد الوراثي المسبق والاستعداد المكتسب في الطفولة الأولى. وأنا أعلم أن الرسم البياني يحظى على الدوام بقبول طالبي العلم. وعلى هذا، سنلخص العلاقات بين مختلف العوامل في الرسم البياني التالي:



تشتمل الجيلة الجنسية الوراثية على تشكيلة كبيرة من الاستعدادات المسبقة، تبعاً لارتكاز الاستعداد على هذا الدافع الغريزي الجزئي أو ذاك بوجه الخصوص، منفرداً أو مقترناً بغيره من الدوافع الغريزية الجزئية الأخرى. وتؤلف الجيلة، بالارتباط مع الخبرات الحياتية الطفلية، «سلسلة متتامة» جديدة، مشابهة كل المشابهة للسلسلة التي أكدنا وجودها كنتيجة للارتباط بين الاستعداد وبين الخبرات الحياتية العارضة لدى الراشد. وبوسعنا في هذا الصدد أن نتساءل عما إذا لم يكن ألفت أشكال نكوص الليبدو للنظر، أعني نكوصه إلى طور سابق من أطوار التنظيم الجنسي، لا يتعين في المقام الأول بالشروط الجيلة الوراثية. لكن

حسناً نفعل لو أرجأنا الإجابة عن هذا السؤال إلى أن يغدو في متناولنا طائفة أوفر عدداً من ضروب الإصابات العصائية.

لنتوقف الآن عند هذه النتيجة التي أفضى إليها البحث التحليلي، إذ يبيّن لنا أن لبيبدو المعصوبين مرتبط بخبراتهم الحياتية الجنسية الطفلية. فهو يخلع عليها على هذا النحو ظاهراً من دلالة كبيرة من منظور حياة الفرد المعني ووقوعه في المرض. ولا جدال في أن مثل هذه الدلالة تعود إليها كاملة ما دمنا ننظر إليها من وجهة النظر العلاجية ليس إلا. لكن لو ضربنا صفحاً عن المجهود العلاجي، لأدركنا بسهولة أننا نجازف بالوقوع في شرك سوء الفهم، إذ نكوّن عن الحياة تصوراً أحادي الجانب، لا أساس له يقوم عليه سوى الموقف العصائي وحده. والحق أنه يتعيّن علينا أن نأخذ في اعتبارنا هنا أن دلالة الخبرات الحياتية الطفلية تتناقص بحكم من أن الليبدو ما ارتدّ إليها نكوصياً إلا بعد أن طرد من مواقعه اللاحقة. ومن ثمّ نجد في أنفسنا ميلاً إلى الأخذ بالاستنتاج المعاكس لنقول إن الخبرات الحياتية الطفلية ما كان لها، يوم حدثت، أية دلالة، ولم تصبح ذات شأن وأهمية إلا نكوصياً. وتذكروا أننا وقفنا شبيه هذا الموقف في أثناء مناقشتنا عقدة أوديب^(٢).

وهذه المرة أيضاً لن يشقّ علينا أن نبرم قرارنا. فالرأي القائل إن التوظيف الليبيدوي، وبالتالي الدلالة الباتولوجية للخبرات الحياتية الطفلية، يجدان ما يعززهما إلى حدّ كبير في نكوص الليبيدو، رأي له ما يبرره بكل تأكيد، لكن من شأنه مع ذلك أن يوردنا موارد الخطأ لو أخذنا به بلا تحفظ. فلا بدّ لاعتبارات أخرى أن تدخل في الحسبان. فالمشاهدة، أولاً، تثبت بصورة لا يرقى إليها الشك أن الخبرات الحياتية الطفلية لها دلالتها الخاصة، وهي تدلّ على ذلك منذ نعومة أظفار الفرد. وبالفعل، ثمة أعصبة طفلية أيضاً، والنكوص الزمني لا يلعب في هذه الأعصبة دوراً يذكر أو هو لا يحدث على الإطلاق، إذ يظهر المرض مباشرة في أعقاب حادثة رضية. ومن شأن دراسة هذه الأعصبة الطفلية أن تعصمنا من أشكال عديدة

٢ - انظر خاتمة المحاضرة الحادية والعشرين. «م».

وخطيرة من سوء الفهم لأعصاب الراشدين، تماماً كما أن دراسة الأحلام الطفلية قد هدتنا إلى الطريق الذي يمكن أن يقودنا إلى فهم أحلام الراشدين. والحال أن الأعصاب الطفلية شائعة جداً، بل أكثر شيوعاً بكثير مما تتصور. لكن الناس لا يلتفتون إليها في كثير من الأحيان، ويعتدونها مظاهر للخبث أو لسوء التربية، وكثيراً ما تقمعها السلطات المشرفة على حضانة الأطفال، ولكن من السهل مع ذلك التعرفها من خلال آثارها اللاحقة وعن طريق الفحص الارتجاعي. وهي تتجلى في أغلب الأحيان في شكل هستيريا حصرية. وسوف تعلمون ما المقصود بذلك في مناسبة أخرى. وحين يثور عصاب من الأعصاب في طور لاحق من أطوار الحياة، يكشف لنا التحليل باطراد عن أنه عقبي مباشرة لعصاب طفلي ما تسنى له في حينه أن يتظاهر إلا في شكل مقنّع وعلى نحو بدائي. غير أن هناك، كما ذكرنا، حالات تستمر فيها هذه العصبية الطفلية بلا انقطاع حتى لتؤول إلى مرض يلازم الفرد طوال حياته. وثمة بعض أمثلة نادرة على أعصاب تأتي لنا أن نحللها، لدى الأطفال بالذات، في حينها الراهن^(٣). لكن تعيّن علينا في أغلب الأحوال أن نكتفي بما يتيح لنا المريض الراشد من فرصة للتنفذ بعداً إلى عصابه الطفلي، الأمر الذي ما كان يَجِيز لنا ألا نأخذ في حسابنا تصويبات واحتياجات معيّنة.

ثانياً، إننا مكرهون على الإقرار بأن نكوص الليبيدو على هذا النحو المطرد إلى مرحلة الطفولة ما كان له إلا أن يثير عجبنا واستغرابنا لولا أن هذه المرحلة تنطوي على شيء يمارس على الليبيدو إغراءً وجذباً. والتثبيت، الذي نسلم بوجوده في أطوار بعينها من المسار الذي يسلكه التطور، ما كان ليكون له من مضمون لو كنا لا نتصوره على أنه تجميد لمقدار محدّد من الطاقة الليبيدوية. ويتعيّن عليّ أخيراً أن أذكّركم بأنه تقوم بين الخبرات الحياتية الطفلية وبين خبرات المرحلة التالية من الحياة علاقة تتأمّ ممانلة، من حيث الشدة والدور الإمبراضي، للعلاقة التي تحقّقنا من وجودها في السلاسل التي تقدمت بنا دراستها. وثمة حالات يتألف فيها العامل الأوحّد المسبّب للمرض من الخبرات الجنسية المعاشة في طور الطفولة،

٣ - الإحالة هنا إلى حالة «هانز الصغير» (١٩٠٥) الذي تسنى لفرويد أن يتتبع تمخّض عصابه مباشرة يوماً بعد يوم. «م».

وهي خبرات ذات أصل رَضِّي بكل تأكيد وآثارها لا تتطلب، كيما تفصح عن نفسها، من شروط أخرى غير تلك الشروط التي تقدمها الجيلة الجنسية المتوسطة غير الناضجة بعد. لكن ثمة حالات بالمقابل توجب علينا أن نبحث عن أسباب نشوء العصاب في صراعات لاحقة، يتبدى فيها دور الانطباعات الطفلية، الذي يكشف عنه التحليل، كأنه نتيجة للنكوص. هكذا يكون لدينا قطبان: «كفّ التطور» و«النكوص»، وبين هذين القطبين جميع درجات الفاعلية المتضاربة لهذين العاملين.

لجميع هذه الوقائع قدر من الأهمية بالنسبة إلى علم التربية الذي يتطلع إلى اتقاء شر الأعصبة عن طريق التدخل المبكر في حياة الطفل الجنسية. إذ ما دام الاهتمام كله منصباً على الخبرات الحياتية الجنسية الطفلية، فقد يحسب المربي أنه فعل كل ما هو مطلوب لاتقاء شر الأمراض العصبية متى ما عمل على تأخير هذا التطور الجنسي وعلى وقاية الطفل من التجارب ذات الصفة الجنسية. لكننا نعرف من قبل أن الشروط المسببة للأعصبة أشدّ تعقيداً بكثير، ولا تخضع لتأثير عامل واحد أحد. وفرض رقابة صارمة على الطفل أمر لا يجدي فتيلاً، لأن مثل هذه الرقابة لا حيلة لها إزاء العامل الجبلي، ثم إن تطبيقها أعسر مما يعتقد المربون وينطوي على أمرين لا يجوز الغضّ من شأنهما: فهي تتجاوز من جهة أولى هدفها إذ تشجّع كبتاً جنسياً مشتطاً، وهو كبت قد تترتب عليه عواقب وخيمة، وتلقي بالطفل من جهة ثانية في خضم الحياة دونما وسيلة دفاع يتصدى بها لدفق المطالب الجنسية الذي لا بدّ أن يأتي مع البلوغ. إذا ففوائد الحماية والوقاية الجنسية للطفولة هي في نظرنا موضوع شبهة كبيرة، ومباح لنا أن نتساءل عما إذا لم يكن يجدر بنا أن نبحث في غير هذا الموقف من وقائع الحياة الجارية عن نقطة ارتكاز للحماية والوقاية من الأعصبة.

لكن لنعد الآن أدراجنا إلى الأعراض. فهذه الأعراض تخلق إذاً بديلاً عن الإشباع الذي ضرّ به الواقع، وذلك بحمل الليبدو على التراجع إلى أزمان سابقة، مما يعني الارتداد إلى أطوار سابقة أيضاً من الاختيار الموضوعاني أو من التنظيم. وقد علمنا من قبل أن المعصوب شخص موثق الرباط إلى فترة معينة من

ماضيهِ؛ ونحن نعلم الآن أنها هي الفترة التي لم يكن فيها ليبيدوا محروماً من الإشباع، بل كان فيها هذا الشخص في حال من السعادة. ومن ثمّ نراه ينقّب في ماضي حياته إليّ أن يهتدي إليّ مثل تلك الفترة، ولو اضطره ذلك إلى التراجع القهقري وصولاً إلى طفولته الأولى المبكرة يوم كان رضيعاً على نحو ما ترسمها له ذاكرته أو تصوّرها له قرائن لاحقة. والعرض يكرر بصورة أو بأخرى ذلك النمط من الإشباع المظفور به في الطفولة الأولى، ولكنه إشباع تحرّفه الرقابة التي تتولد من النزاع ويصحبه في العادة إحساس بالكدر، وتختلط به عناصر متحدرة من العامل الذي تسبّب في الوقوع في المرض. والحق أن الإشباع الذي يتأتى عن العرض لهو من طبيعة غريبة. ونحن لا نتكلم هنا عما يشعر به الشخص المعني من أن هذا الإشباع أقرب إلى أن يكون مصدرّاً للكدر وللشكوى: فالتحول الذي نتحدث عنه هو نتيجة الصراع النفسي الذي تحت ضغطه تكوّن العرض أصلاً. فما كان في الماضي إشباعاً للفرد، لا مفرّ من أن يقابل منه اليوم بالمقاومة أو النفور. ولدينا على تحول المشاعر والأحاسيس هذا مثال لا يلفت الأنظار في العادة، ولكنه بليغ الدلالة. فالطفل الذي كان يمحّصّ بنهم في ماضي الأيام اللبن من ثدي أمه لا يلبث بعد بضع سنوات أن ينفر من اللبن نفوراً شديداً تلقى التربية العنت في التغلب عليه. وقد يستفحل هذا النفور أحياناً فينقلب قرفاً وتقزراً، إذا ما كان اللبن أو الشراب الممزوج باللبن مغطى بقشرة رقيقة. ومن المباح لنا أن نتكهّن بأن هذه القشرة توقظ في نفسه ذكرى الثدي الأموي الذي كان يشتهيهِ أحرّ الاشتها في السابق. وعلينا أن نضيف على كل حال أنه في أثناء تلك الفترة تكون قد حدثت تلك التجربة المعاشة ذات المفعول الرضّي كما تتمثّل بالفطام.

غير أن هناك سبباً آخر يجعل الأعراض تبدو لنا غريبة، وغير مفهومة من حيث هي وسيلة للإشباع الليبيدوي. فهي لا تذكرنا من قريب أو بعيد بما نتنظر منه في العادة وفي الأحوال السوية إشباعاً. فهي تضرب صفحاً في أغلب الأحيان عن الموضوع وتعزف بالتالي عن كل صلة بالواقع الخارجي. ونحن نقول إن هذه نتيجة لنبذ مبدأ الواقع وللارتداد إلى مبدأ اللذة. غير أن هذا الارتداد هو في الوقت نفسه ارتداد إلى ضرب من الإيروسية الذاتية الموسعة، إلى تلك الإيروسية

التي أمنت للدافع الغريزي الجنسي إشباعه الأول. فالأعراض تستعيز عن تغيير العالم الخارجي بتغيير في الجسم نفسه، وبالتالي عن نشاط خارجي بنشاط داخلي، وعن الفعل بتكيف، وهذا ما يقابله، من وجهة النظر السلافية، نكوص له دلالة الكبيرة هو الآخر. ولن يتأتى لنا أن نفهم كل ما تقدم حسن الفهم إلا على ضوء معطى جديد ستكشف لنا عنه لاحقاً أبحاثنا التحليلية بصدد تكوّن الأعراض. ولتذكر علامة على ذلك أن تكوّن الأعراض تتصافر عليه السيرورات اللاشعورية عينها التي رأينا دورها في تشكيل الأحلام، أعني التكيف والإزاحة والنقل. فالعرض، نظير الحلم، يمثل الشيء وكأنه تحقق، ويرأى بإشباع على الطريقة الطفولية؛ غير أن هذا الإشباع قد يتركز، بفعل تكثيف شديد إلى أقصى درجاته، في إحساس واحد أو تعصيب واحد، كما أنه قد يقتصر، بفعل إزاحة متطرفة، على جزء يسير من المركب الليبوي بأسره. فلا غرو أن يعسر علينا نحن أيضاً، أن نتعرف في العرض الإشباع الليبوي الذي نشته في وجوده والذي ننتهي دوماً إلى التحقق منه.

لقد ذكرت لكم أنكم ستطلعون بعد على شيء جديد. وبالفعل، ما هذا الشيء بجديد فحسب، بل يبعث أيضاً على الدهش والاستغراب. فأنتم تعلمون أننا إذ نجعل من تحليل الأعراض منطلقاً لنا نصل إلى معرفة الخبرات الحياتية الطفولية التي تثبت عليها الليبدو والتي منها تصاغ الأعراض. والعجيب في الأمر أن هذه المشاهد الطفولية ليست على الدوام بحقيقية. أجل، إنها ليست حقيقية في غالب من الأحيان، بل إنها في بعض الأحوال مجافية بصورة مباشرة للحقيقة التاريخية. أليس من شأن هذا الاكتشاف أن يجعلنا، أكثر من أية حجة أخرى، نفقد الثقة إما بالتحليل الذي يفرض إلى نتيجة كهذه، وإما بالمريض الذي على أقواله ينهض صرح التحليل وفهم الأعصاب؟ ثم إن هذا الاكتشاف يزرع في النفس بلبلة شديدة. فلو كانت الخبرات الحياتية الطفولية التي يميّط التحليل اللثام عنها واقعية دوماً وفي الحالات جميعاً، لساورنا شعور بأننا نتحرك فوق أرض ثابتة؛ أما لو كانت كاذبة على الدوام، ولا تعدو في جميع الأحوال أن تكون من نسج خيال المريض، فلن يبقى أمامنا من خيار غير أن نبرح هذه الأرض المتقلقلة

لنلوذ بأخرى. لكن أياً من هذين الخيارين غير متاح لنا: فالخبرات الحياتية الطفلية، التي يستحضرها التحليل أو يعيد بناءها، تكون تارة كاذبة بلا جدال، وطوراً صادقة بلا جدال أيضاً، وفي غالب الأحوال مزيجاً من الحق والباطل. إذاً فالأعراض تمثل تارة تجارب معاشة وقعت حقاً ولا مندوحة لنا من الاعتراف بتأثيرها في تثبيت اللييدو، وطوراً تخيلات من نسج المرضى، فلا يسعنا أن نعترف لها بأي دور في نشوء المرض. ومن شأن هذا الموقف أن يزج بنا في ارتباك شديد. غير أنني أذكركم بهذا الصدد أن بعض ذكريات الطفولة التي يحتفظ بها الناس ماثلة في واعيتهم دوماً، خارج نطاق أي تحليل وبصورة مستقلة عنه، قد تكون هي الأخرى باطلة أو قد تؤلف مزيجاً من الحق والباطل. والحال أنه نادراً ما يستعصي علينا في مثل هذه الأحوال أن نسوق الدليل على البطلان والزيغ، وقد يكون لنا في هذا، على الأقل، عزاء يطمئنا إلى أن التبعة في هذه البلبلة اللامتوقعة تقع على عاتق المريض، لا على عاتق التحليل.

حسبنا أن نعمل فكرنا قليلاً لتبين ما الذي يحيرنا ويبلبلنا في هذا الموقف: إنه ازدراء المريض للواقع، وعدم اكترائه المطلق بالفارق بين الواقع والخيال. وقد نميل إلى مؤاخذه المريض على ما يبذره من وقتنا بقصصه المختلقة. فنحن نرى الواقع منفصلاً عن الخيال بهوّة لا قرار لها، ونثمنه تنميناً مغايراً تماماً. وتلكم هي أصلاً وجهة نظر المريض أيضاً عندما يفكر تفكيراً سليماً سوياً. فحينما يشرع بأن يستحضر لنا المواد المستترة خلف الأعراض، والكاشفة عن مواقف متقولة بقالب الخبرات الحياتية الطفلية، والمتألّفة نواتها من رغبة تلوب على إشباع لها، نتساءل دوماً في أول الأمر عما إذا كانت هذه الأشياء حقيقية أو خيالية. ثم لا تلبث، في وقت لاحق، أن تتجلى لنا علامات معيّنة تأذن لنا بأن نقطع في المسألة باتجاه أو بآخر، فنبادر إلى إطلاع المريض على النتيجة التي انتهينا إليها. لكن مساررة المريض هذه لا تتم بدون عناء. فلو صارحناه من أول الأمر بأنه يسرد على مسامعنا أحداثاً خيالية يمّوه بها تاريخ طفولته، مثلما تستعيز الشعوب بالأساطير عن تاريخ ماضيها المنسي، للاحظنا أن اهتمامه بمتابعة السرد يخفت فجأة، وهذه نتيجة ما كنا بحال لنتمناها. فهو يريد، هو أيضاً، ألا يتعامل إلا مع الأشياء

الواقعية، وييدي عن عميق ازدرائه لـ«التخيّلات». لكن لو حدانا حرصنا على نجاح عملنا التحليلي إلى الإيحاء للمريض بأن ما يسرده علينا يمثّل الأحداث الواقعية في طفولته فعلاً، لعرضنا أنفسنا للامته لاحقاً ولآخذنا على خطئنا ولسخر من سذاجتنا وسرعة تصديقنا. ويشقّ عليه أن يفهمنا حين نحته على أن يساوي في النظر بين الواقع والخيال، وحين نطلب إليه ألا يشغل نفسه، في أثناء سرده لأحداث طفولته التي نبغي تفصيلها، بمعرفة هل هي صادقة أو كاذبة. لكن من الواضح مع ذلك أن هذا هو الموقف الوحيد الذي يتوجب علينا أن نوصي به حيال هذه المبتدعات النفسية. ذلك أن هذه المبتدعات واقعية، هي الأخرى، بمعنى ما: صحيح أن المريض هو الذي اختلق تلك الأحداث الخيالية، لكن هذه الواقعة لا تقل أهمية، من منظور العصاب، مما لو كان المريض عاش فعلاً الأحداث التي يتكلم عنها. فالتخيّلات لها واقعها النفسي بالتعارض مع الواقع المادي، وبذلك نستوعب تدريجياً الحقيقة التالية وهي أن الواقع النفسي هو الذي يلعب في عالم الأعصاب الدور الفاصل.

من بين الأحداث التي تطالنا في قصص طفولة المعصومين، جميعهم تقريباً، وقائع تستأهل اهتماماً خاصاً لما لها من أهمية خطيرة. ومنها: مشاهدة الطفل لعملية الاتصال الجنسي بين الوالدين، أو تغرير شخص راشد به، أو تهديده بالخضاء. ومن الخطأ أن نعتقد أن هذه محض تخيلات، لا أساس لها من الواقع. بل من الممكن، على العكس، إثبات حقيقة هذه الوقائع على نحو لا يرقى إليه الشك، وذلك باستجواب أقرباء المريض الأكبر منه سناً. ولا يندر أن نعلم، مثلاً، أن صبيّاً صغيراً طفق يلعب بعضوه التناسلي على نحو غير محتشم، ومن دون أن يدري بعد أن هذا عمل يجب أن يتم في الخفاء وأن يُستر عن الأعين، فإذا بوالديه أو القائمين على تربيته يتوعدونه بتر قصيبه أو يده الأثمة. وإذا ما استجوبنا الوالدين لم يترددا في الاعتراف بذلك، لأنهما يرتريان أنهما كانا على حق إذ زجرا الطفل على ذلك النحو؛ والحال أن بعض المرضى يحتفظون بذكرى كاملة وواعية عن هذا التهديد، وعلى الأخص إذا وُجّه إليهم في طور متأخر من طفولتهم. وحينما يصدر هذا الوعيد عن الأم أو أي شخص آخر من الجنس

المؤنث، فإنه يرتفق غالباً بالتنويه بأن الأب أو الطبيب هو الذي سيتولى التنفيذ. وفي الكتاب الشهير Struwwelpeter^(٤) الذي وضعه طبيب الأطفال الفرانكفورتى هوفمان، والذي يشعّ بسحر فهمه العميق للعقد الجنسية وعقد الطفولة الأخرى، نرى الخصاص قد استبدل بالتهديد ببت الإبهام عقاباً للطفل على عناده بمضه. غير أنه يبعد في الواقع أن يتعرض الأطفال للتهديد بالخصاء بمثل ذلك التواتر الذي يوحي به تحليل المعصومين. بل لدينا أسباب وجيهة للافتراض بأن الطفل يعيد في خياله بناء هذا التهديد بالاستناد إلى بعض المؤشرات، انطلاقاً من معرفته بأن الإشباع الإيروسى الذاتى محظور، وتحت وقع اكتشافه للجهاز التناسلي المؤنث. كذلك ليس من المستبعد إطلاقاً، حتى في الأسر غير البروليتارية، أن يكون الطفل، الذي يحسبه الراشدون عاجزاً عن الفهم والتذكر، قد شهد فعل الاتصال الجنسي بين والديه أو غيرهما من الراشدين، فلما فهم فيما بعد ما رآه حدث لديه ردّ فعل على الانطباع الذي تلقاه. لكنه حين يصف العلاقات الجنسية، التي يمكن أن يكون شاهداً، بتفاصيل بالغة الدقة يتعذر أن يكون قد رصدها بنفسه، أو حينما يصفها، كما هي الحال في الكثرة الغالبة من الأحيان، وكأن الجماع يحدث فيها من خلف، لا يعود ثمة من شك في أن هذا التخيّل يرتبط بمرأى فعل النزاء بين الحيوانات (الكلاب)، وفي أن علته هي حالة الحرمان التي يعانيتها الطفل من لذة النظر والرغبة في النظر في زمن البلوغ. لكن أغرب حالات هذا النوع من الحالات وأشدّها تطرفاً أن يزعم الطفل أنه رأى بأم عينه الجماع بين والديه وهو لما يزل جنيناً في بطن أمه. أما استيهام التغيرير فله أهمية خاصة، لأنه لا يكون في أغلب الأحيان واقعة مختلقة، بل ذكرى حادثة فعلية. غير أن هذه الحادثة الفعلية، على اطرادها، ليست بذلك القدر من التواتر الذي يمكن أن توحى به نتائج التحليل. والتغيرير بالأطفال من قبل أطفال

٤ - حرفياً: «بطرس ذو الشعر المكوش»، وهو عنوان كتاب رسوم متحركة يرسم الأطفال وضعه الطبيب والشاعر الحكواتي الألماني هنريخ هوفمان (١٨٠٩ - ١٨٩٤) الذي كان أدار، على مدى ثمانية وثلاثين عاماً، مستشفى للمجانين. وقد نال هذا الكتاب شهرة عالمية وطبع مئات المرات. وهو يتضمن حكايات مسلية وصوراً مضحكة، وقد بات مرجعاً معتمداً لدى أطباء الأطفال النفسيين. وفرويد يحيل هنا إلى واحدة من قصصه التسع تحمل كعنوان «قصة ماضٍ الأصعب». «م».

يكبرونهم أو يعادلونهم سناً أكثر تواتراً من التغيرير بهم من قبل راشدين؛ وحينما يقوم الأب بدور المغوي (كما هي القاعدة شبه المستديمة) في القصص التي ترويها البنات الصغيرات، فإن الطابع الخيالي لهذا الاتهام لا يعود موضع شك، كذلك ينتفي كل شك بصدد الدافع إلى اختلاقه. فعن طريق استيهام التغيرير، مع أنه ما من شيء يشبه التغيرير قد وقع، يرر الطفل في العادة المرحلة الإروسية الذاتية من نشاطه الجنسي. فهو إذ يرجع في خياله موضوع رغبته الجنسية إلى تلك الفترة الباكرة من طفولته، يعفي نفسه من شعور الخجل الذي لا بد أن يساوره على تعاطيه الاستمناء. ومع هذا لا تحسبوا أن التعدي الجنسي على الأطفال من قبل أقرب أقاربهم الذكور فعلة لا وجود لها إلا في عالم الخيال. ولا بد أن يكون معظم المحللين قد عالجوا حالات وقع فيها هذا التعدي فعلاً، وأمكن إثباته على نحو لا يرقى إليه الشك، وكل ما هنالك أن هذا التعدي وقع في عهد متأخر بكثير عن العهد الذي يرجعه الطفل إليه.

إن الانطباع الوحيد الذي نخرج به مما تقدم هو أن أشباه تلك الأحداث من زمن الطفولة هي، بكيفية أو أخرى، مطلوبة بالضرورة ولا غنى عنها كعنصر من المخزون الثابت للعصاب. فإن تكن تلك الأحداث لها ما يناظرها في الواقع فذلك أيسر، وأما إن أنكرها الواقع وطعن فيها فإنها تتشكل طبقاً لقرائن وشواهد محددة، ثم يتولى الخيال تكميلها. والنتيجة واحدة، إذ لم يتح لنا إلى اليوم أن نلاحظ فارقاً في المفعول تبعاً لكون أحداث الحياة الطفلية من نتاج الواقع أو من نسج الخيال. هنا نلتقي مرة أخرى بواحدة من تلك العلاقات المتنامة التي تقدم بنا الكلام عنها تكراراً، غير أن العلاقة الأخيرة هذه هي أغرب ما عرفناه قط. فمن أين تنبع الحاجة إلى هذه الاختلاقات، ومن أي معين يقتبس الطفل مادتها؟ أما فيما يتعلق بمصادرها الغريزية فلا يمكن بكل تأكيد أن يخالفنا شك، لكن يبقى علينا أن نفسر لماذا تتكرر التخييلات عينها في كل مرة، ولماذا يُختلق لها دوماً مضمون واحد لا يتغير. أعلم أن الجواب الذي في مكنتي أن أعطيه عن هذا السؤال سيبدو لكم مسرفاً في الجرأة. فأنا أعتقد أن هذه التخييلات البدائية - فذلك هو الاسم الذي يناسبها هي وبعض تخييلات أخرى - تؤلف

ميراثاً سلالياً. فعن طريق هذه التخيلات يتعدى الفرد تجربته الحياتية الذاتية إذا ما اشتد عليه شظفها ليلوذ من جديد بحمى التجربة الحياتية لحقبة ما قبل التاريخ. ومن المحتمل، في رأيي، أن كل ما يروى لنا في أثناء التحليل من تخيلات، كالتغريب في زمن الطفولة، والتهيج الجنسي لمراى الاتصال الجنسي بين الوالدين، والتهديد بالخصاء - أو الخصاء نفسه بالأحرى - من المحتمل أن كل هذه الاختلافات كانت في ما سلف من الزمن، في الأحقاب البدائية للأسرة البشرية، حقائق ووقائع، وأن الطفل، بإطلاقه العنان لخياله، يسد ثغرات الحقيقة الفردية بالاعتماد على الحقيقة ما قبل التاريخية. وكثيراً ما تراءى لي أن علم نفس الأعصاب أقدر من أي مصدر آخر على تزويدنا بالمعلومات عن الأطوار البدائية من التطور البشري.

سادتي، إن المسائل التي عالجناها هنا ترغماً على أن نتفحص عن كذب مشكلة أصل ذلك النشاط الذهني المسمى بـ «التخيّل» ودلالته. فالتخيّل له اعتبار عظيم مُجمّع عليه، كما تعلمون، وإن لم يُسلط قط الضوء على المكانة التي يشغلها في الحياة النفسية. وهاكم ما أستطيع أن أذكره لكم حول هذا الموضوع. فتحت ضغط الضرورة الخارجية يجد الإنسان نفسه منقاداً رويداً رويداً إلى تقييم الواقع تقييماً صحيحاً مطابقاً، مما يتيح له أن يتعلم كيف يكيّف سلوكه مع ما أسمىناه بـ «مبدأ الواقع»، وأن يعزف، بصورة مؤقتة أو دائمة، عن مواضيع وأهداف شتى لنوازعه إلى اللذة عموماً، وليس إلى اللذة الجنسية وحدها. ولقد كان هذا العزوف عن اللذة أمراً شاقاً على الإنسان على الدوام، وهو لا يصدع بأمره إلا مقابل ضرب من ضروب التعويض. لذا اختص الإنسان نفسه بنشاط نفسي يتيح لجميع مصادر اللذة ولجميع وسائل اجتناء اللذة التي هجرها أن تواصل وجودها في شكل يحميها من مقتضيات الواقع ويعفيها مما نسميه بامتحان الواقع. وهكذا يتلبس كل ميل اللبوس الذي يبدو فيه وكأنه قد أشبع، وليس من شك في أن تعليل النفس بالإشباع الخيالي للرغبات يجلب للفرد شعوراً بالرضى لا يعكّره إدراكه لعدم واقعته. إذا فالإنسان، بإطلاقه العنان لخياله، ينعم من جديد، إزاء الإكراه الخارجي، بتلك الحرية التي اضطر منذ زمن بعيد إلى

التنازل عنها في الحياة الواقعية. وبذلك ينجز مناورة بارعة تتيح له أن يكون بالتناوب حيواناً يسعى وراء المتعة وكائناً عاقلاً. فالإشباع الهزيل الذي قد يتسنى له أن يتزرعه من الواقع لا يروي غليله. وقد قال ث. فونتان FONTANE^(٥) ذات يوم: «من المحال أن يستغني الإنسان عن إنشاءات تخيلية إضافية». وبناءً على مملكة الخيال النفسية له ما يناظره ويمثله في إنشاء «حظائر طبيعية محمية» حيثما تهدد مقتضيات الزراعة والصناعة والمواصلات بتغيير منظر الأرض الأصلي إلى حدّ لا يعود معه الإنسان يتعرفه. ف «الحظيرة الطبيعية» تدم تلك الحالة البدائية التي اضطّر الإنسان إلى التضحية بها، أسفاً في كثير من الأحيان، نزولاً عند أمر الضرورة. وفي هذه «الحظائر الطبيعية» ينبغي أن ينبت كل شيء وينمو ويتفتح بلا إكراه، بما في ذلك ما لا ينفع وما قد يضر. ومملكة الخيال النفسية حظيرة من هذا النوع، لا تخضع لسلطان مبدأ الواقع.

إن أشهر منتجات الخيال هي «أحلام اليقظة» التي سبق لنا الكلام عنها، وهي بمثابة إشباع وهمية لرغبات في الطموح والعظمة أو لرغبات إيروسية، وتكون هذه التلبّيات الوهمية أدنى إلى التمام، أو أكثر اتساقاً بالشهوانية، كلما تشدد الواقع الفعلي في طلب التواضع أو الصبر. وإننا لتتعرف بجلاء باهر في أحلام اليقظة هذه جوهر تلك السعادة الخيالية التي تجعل اجتناء اللذة مستقلاً عن مصادقة الواقع. ونحن نعلم أن أحلام اليقظة هذه تؤلف نواة الأحلام الليلية ونموذجها المحتذى. فما الحلم الليلي، في حقيقته، إلا حلم يقظة اكتسب مزيداً من المرونة بفضل الحرية التي تتاح للحاثات الغريزية في أثناء النوم، وتغيّر شكله نتيجة للمظهر الليلي للنشاط النفسي. وقد تألفنا من قبل مع الفكرة التي مؤداها أن حلم اليقظة لا يكون بالضرورة شعورياً، وأن ثمة أحلام يقظة لاشعورية. إذاً فمن الممكن أن تكون أحلام اليقظة اللاشعورية هذه هي مصدر الأحلام الليلية والأعراض العصائية على حدّ سواء.

٥ - ثيودور فونتان: طبيب وكاتب ألماني (١٨١٩ - ١٨٩٨). يعدّ من أبرز ممثلي الواقعية الشعرية. من

أشهر دواوينه: الغرابان ومأساة أفغانستان. ومن أشهر رواياته: قبل العاصفة، والطرق المتصالبة، وإفي برست. وفرويد يقبّس الشاهد من الرواية الأخيرة التي تحمل اسم بطلتها. «م».

وهاكم ما من شأنه أن يفهمكم دور الخيال في تكوين الأمراض. فقد سبق أن ذكرت لكم أن الليبيدو يعود، في مسيرته النكوصية في حالات الحرمان، إلى توظيف المواقع التي كان قد تجاوزها وتخطاها، وإن ترك عندها بعضاً من نفسه. ولست أريد أن أحذف شيئاً من هذا التوكيد، ولا أن أجري عليه تصحيحاً ما، غير أنني أود أن أدخل عليه حلقة رابطة. إذ كيف يهتدي الليبيدو إلى الطريق التي يفترض فيها أن تقوده إلى نقاط التثبيت تلك؟ واقع الحال أن المواضيع والاتجاهات التي هجرها الليبيدو لا تكون قد هُجرت هجراناً تاماً مطلقاً. فهذه المواضيع والاتجاهات، أو مشتقاتها، تبقى محفوظة بدرجة ما من الشدة في تصورات الخيال. لذا فحسب الليبيدو أن يترد إلى هذه التصورات لكي يهتدي إلى الطريق القمينة بأن تقوده إلى جميع تلك التثبيتات المكبوتة. ولقد نعمت هذه التصورات الخيالية بقدر من التسامح، فلم ينشب صراع بينها وبين الأنا، مهما بلغت قوة تعارضها معه. ولقد كان لها ذلك ما دامت تراعي شرطاً محدداً من طبيعة كمية، وهو شرط لا يخلّ به سوى ارتداد الليبيدو إلى المواضيع الخيالية. فعلى إثر هذه الارتداد تزداد كمية الطاقة المشحونة بها هذه المواضيع، فيشتد إلحاح هذه الأخيرة، وتبدي عن اندفاع نحو التحقق. وبذلك ينشب صراع بينها وبين الأنا. ولئن كانت في السابق شعورية أو قبشعورية، فإنها تتعرض الآن لكبت من جانب الأنا، وتقع في مدار جاذبية اللاشعور. وبدءاً من هذه الأخاييل التي أضحت الآن لاشعورية يسلك الليبيدو الطريق المعاكس ارتداداً إلى أصوله في اللاشعور، ووصولاً إلى نقاط تثبيته الخاصة به.

إن نكوص الليبيدو نحو الأخاييل مرحلة تتوسط الطريق الذي يفضي إلى تكوين الأعراض. وهذه المرحلة تستأهل، على كل حال، تسمية خاصة. وكان ك.غ. يونغ قد اقترح تسمية موفقة لها هي **الانطواء**^(٦)، لكنه أساء استعمالها بأن

٦ - ابتدع يونغ هذا المفهوم سنة ١٩١٠ في مقال له بعنوان «صراعات النفس الطفلية» ليشير به إلى انصراف الطاقة الليبيدوية عن الواقع الخارجي وانصبابها على الواقع الداخلي. ولكنه وشّع هذا المفهوم ليشمل نوعاً من الطباع يتّسم بالانغلاق عن العالم الخارجي وبعتماد الذات مرجعاً أولاً وأخيراً؛ ويقابله الطبع الانبساطي، أي المنفتح على العالم الخارجي. ولكن فرويد يستخدم الانطواء INTROVERSION بمعنى ضيق، هو انكفاء الليبيدو باتجاه التشكيلات الخيالية أو الاستيهامية. «٥».

أطلقها على أشياء أخرى أيضاً. أما نحن فنحتفظ بالمعنى الأصلي للانطواء لنشير به إلى انصراف الليبدو عن إمكانات الإشباع الفعلي وانزياحه نحو أخابيل كانت تعتبر حتى ذلك الحين غير ضارة. فالانطوائي يتخبط في وضع غير مستقر، ولكن من دون أن يصل به الأمر بعد إلى حدود العصاب؛ فإن لم يجد من منفذ آخر لليبدو المكبوت، ظهرت عليه، عند أول تغير في ميزان القوى، الأعراض العصبائية. وبالمقابل، إن الطابع اللاواقعي للإشباع العصائي وأحاء الفارق بين الخيال والواقع الفعلي يتواجدان لديه ابتداء من مرحلة الانطواء.

لقد لاحظتم بلا شك أنني أدخلت، في شروحي الأخيرة، عاملاً جديداً في سلسلة أسباب نشوء الأمراض، هو كمّ أو مقدار الطاقات ذات العلاقة. وهذا عامل يتعيّن علينا أن نحسب حسابه على الدوام وفي جميع الحالات. فالتحليل الكيفي المحض للشروط المسبّبة للأمراض لا يفي بالحاجة ولا يستوعب المسألة كلها. وبعبارة أخرى، إن التصور الدينامي المحض للسيوررات النفسية التي نحن بصدها ليس بكاف، بل نحتاج أيضاً إلى النظر إليها من منظار اقتصادي. فعلى أن نعلم أن الصراع بين ميلين لا ينشب إلا متى ما بلغ التوظيف درجة معينة من الشدّة، حتى وإن تكن الشروط ذات العلاقة بالمحتوى موجودة منذ زمن بعيد. كذلك، إن الأهمية الإراضية للعوامل الجليّة ترتفع بالعلبة الكميّة لأحد الدافعين الغريزيين الجزئيين على الآخر تبعاً للاستعداد المسبق. بل يسعنا القول إن جميع الاستعدادات البشرية متماثلة كيفاً، ولا تختلف فيما بينها إلا بنسبها الكمية. ولا يقلّ هذا العامل الكميّ أهمية من منظور القدرة على مقاومة الوقوع في المرض العصائي. فكل شيء يرتفع بكمية الليبدو غير المستخدمة التي يقتدر الفرد أن يحتفظ بها في حالة معلّقة، وبمقدار ما يستطيع أن يحوّل من هذا الليبدو عن الطريق الجنسي ليوجّهه نحو الهدف الإسمائي. والهدف الأخير للنشاط النفسي، وهو الهدف الذي يمكن وصفه، من وجهة النظر الكيفية، بأنه نزوع إلى اجتناء اللذة وتحاشي الألم، يتبدى لنا، إن نظرنا إليه من وجهة النظر الاقتصادية، كأنه مجهود للتحكم بكتلة (أو كمية) التنبيهات الفاعلة في الجهاز النفسي، وللحوّل دون ركودها وما قد ينتج عنه من كدر.

هذا كل ما كان بودّي أن أقوله لكم بصدد تكوين الأعراض في الأعصبة. غير أنني أحرص على أن أكرر على مسامعكم، على نحو لا يقبل أي لبس، أن كل ما ذكرته لكم لا يصدق إلا على تكوين الأعراض في الهستيريا. فحتى في العصاب الوسواسي يختلف الموقف، وإن لم تتغير الوقائع الأساسية. فالتوظيفات المضادة التي يجابه بها الأنا المطالب الغريزية - وقد كنا تكلمنا عن هذه المقاومات أيضاً في معرض حديثنا عن الهستيريا - تحتل في العصاب الوسواسي مكانة الصدارة وتهيمن على الصورة السريية لهذا العصاب في صورة «تشكيلات ارتجاعية» كما نسميها^(٧). وإننا لنلتقي هذه الفروق، وأخرى أعمق منها أيضاً، في الأعصبة الأخرى التي لا تزال تنتظر أن تكتمل الأبحاث بصدد آلية تكوين أعراضها.

قبل أن أختتم هذه المحاضرة، أودّ أن ألفت انتباهكم بعد إلى جانب في حياة الخيال جدير منا بكل الاهتمام. فثمة بالفعل طريق للإياب من مملكة الخيال إلى عالم الواقع: إنه .. الفن. والفنان هو في نوعه انطوائي أيضاً ويقف عند تخوم العصاب. إنه إنسان تحفزه اندفاعات وحاجات غريزية بالغة القوة، فيصبو إلى الفوز بالتكريم والعظمة والغنى والمجد وحبّ النساء. غير أنه تعوزه الوسائل لبلوغ هذا الإشباع. لذا يشيح، مثله مثل أي إنسان لم تُلبّ رغباته، عن الواقع الفعلي، ويركّز كل اهتمامه، وكل لبيدواه أيضاً، على الرغبات التي تخلفها حياته الخيالية، مما قد يقوده بسهولة إلى العصاب. ولا بدّ أن تتوفر له ظروف مؤاتية كثيرة كيلا يؤول تطوره إلى هذه العاقبة، ومعلوم كم هو كثير عدد الفنانين الذين يعانون تعطلاً جزئياً في نشاطهم من جراء إصابتهم بعصاب. ومن المحتمل أن تكون جبّلتهم منطوية على قابلية عظيمة للإسماء، وعلى بعض التراخي في الكبوتات التي من شأنها أن تقرر مصير الصراع. والحال أن الفنان يعرف كيف يهتدي من

٧ - التشكيل الارتجاعي: سمة طبيعية ثابتة أو نمط تكراري من السلوك بهدف معارضة رغبة لاشعورية. ويمكن تعرّفه سريريا بمظهره المتصلّب والقهري الذي يسم بميئته شخصية المعاني منه. وقد وصف فرويد التشكيل الارتجاعي بالإحالة إلى العصبيين الوسواسيين الذين يدلّلون على صرامة مفرطة في سلوكهم الأخلاقي كستار لما يحتمل في نفوسهم من حاثات سادية ذات أصل شرعي طفلي. «م».

جديد إلى طريق الواقع. وليس بي حاجة إلى أن أقول لكم إنه ليس الوحيد الذي يحيا حياته في الخيال. فمملكة الخيال الوسيطة تحظى بمحابة البشرية قاطبة، وكل من عانى حرماناً من شيء ما طرق بابها طلباً للتعويض والعزاء. غير أن عامة الناس لا ينهلون من ينابيع الخيال سوى لذة محدودة. فالطابع الصارم لكتبهم يرغمهم على الاكتفاء بأحلام يقظة ضئيلة العدد، هذا إذا تأتّى لهم أن يعوها. لكن من كان من الناس فناً حقيقياً فإن إمكانيات أكثر بكثير تتوفّر له. فهو يعرف أولاً كيف يلبس أحلام يقظته شكلاً يحزّرها من طابعها الشخصي الذي قد يثير نفور الغير فتصبح على هذا النحو مصدر متعة للآخرين. كما إنه يعرف كيف يجمّلها، بحيث يخفي عن الأنظار أصلها المشبوه. ثم إنه يملك، فضلاً عن ذلك، مقدرة عجيبة على صياغة مواد معينة ليجعل منها صورة أمينة عن التصور الذي يعتمل في خياله، وعلى ربط هذا التصور الصادر عن خياله اللاشعوري بمقدار كافٍ من المتعة ليموّه أو ليلغي الكبت بصورة مؤقّته على الأقل. فإذا ما أفلح في تحقيق هذا كله، وفّر للآخرين وسيلة لينهلوا بدورهم التفرّيج والعزاء من ينابيع المتعة في لاشعورهم بالذات، بعد أن كانت أضحت منيعة عزيزة المنال، وبذلك يظفر بعرفانهم وإعجابهم، ويكون في نهاية المطاف قد ظفر عن طريق خياله بما لم يوجد من قبل إلا في خياله: التكريم والعظمة وحبّ النساء.

المحاضرة الرابعة والعشرون

العصبية الشائعة

سيداتي سادتي، بعد أن قطعنا في محاضراتنا السابقة شوطاً غير هيئ، أدع الموضوع مؤقتاً وأتوجه بالخطاب إليكم.

أنا أعلم أنكم غير راضين. فقد كانت لديكم فكرة مغايرة عما ينبغي أن يكونه «مدخل إلى التحليل النفسي». كنتم تتوقعون أمثلة مستمدة من معين الحياة، لا عرضاً لنظرية. وقد تقولون لي إنني حين رويت لكم القصة الموازية لمسرحية في الطابق الأرضي وفي الطابق الأول تسنى لكم أن تطلعوا على شيء مما يدخل في باب أسباب الأمراض، ولكن يؤسفكم أن أكون سردت على مسامعكم قصة متخيلة بدل أن أسوق إليكم مشاهدات من صميم الحياة. أو قد تقولون لي أيضاً إنني حين حدثتكم في بادئ الأمر عن عرضين - أمل ألا أكون اختلقتكما اختلاقاً - وعرضت لكم كيف آلا إلى زوال، وأوضحت لكم صلاتهما بحياة المريض، أتحث لكم استشفاف «معنى» الأعراض، فأملت لو أنني أمضي على هذا المنوال. لكنني، بدلاً من ذلك، طفقت أعرض أمامكم نظريات مستفيضة، لا تكتمل أبداً، ولا أنقطع عن إضافة شيء ما إليها، متسلحاً بمفاهيم لم أعرفكم بها مسبقاً، ومنقلاً من العرض الوصفي إلى التصور الدينامي، ومن هذا التصور إلى ذاك الذي أسميته بـ «الاقتصادي». وكان من حقكم أن تتساءلوا إن لم يكن بين المفردات التي استعملتها كلمات لها مدلول واحد، فلا أنيب بعضها مناب بعض إلا طلباً لتفخيم اللفظ. وأنا لم أفعل شيئاً لأفسر لكم هذه النقاط، بل جعلت، بدلاً من ذلك، أعرض عليكم تصورات فسيحة وسريعة نظير مبدأ اللذة ومبدأ الواقع والموروث السلالي؛ وعوضاً عن التقديم والتمهيد لثل هذه المواضيع، رحت أستعرض أمامكم أشياء لا أكاد آتي بذكرها حتى تكون قد غابت عن أنظاركم.

لم لم أبدأ المدخل إلى نظرية الأعصاب بعرض ما تعرفونه أنتم بصدد العصبية وما أثار اهتمامكم منذ عهد بعيد؟ لم لم أبدأ بالحديث عن الطبيعة الخاصة للعصبيين، وعن استجاباتهم غير المفهومة للعلاقات مع الغير وللمؤثرات الخارجية، وعن نزقهم وسرعة غضبهم، وعن معاناتهم من نقص القدرة على التوقع والتكيف؟ لم لم أنتقل بكم رويداً رويداً من فهم الأشكال البسيطة، التي نلاحظها يومياً، إلى فهم المشكلات المتصلة بالتظاهرات الخارجية والمغلزة للعصبية؟

إنني لا أماري، سادتي، في صحة شكاكم. ولست أخدع نفسي بصدد فني في العرض، فأعزو إلى كل عيب من عيوبه سحراً خاصاً. بل أسلم بأنه كان من الأجدي لكم لو سلكت غير السبيل الذي سلكت، وهذا ما كنت عقدت عليه العزم أصلاً. لكن ليس من اليسير على الإنسان دوماً أن يحقق مقاصده، حتى ولو كانت خيرها وأدناها إلى العقل. فالمادة التي نعالجها بالذات تنطوي على شيء يفرض علينا إمرته ويصرفنا عن مقاصدنا الأولى. وحتى ذلك العمل العادي الذي يتمثل بترتيب المواد لا يخضع دوماً وبتمامه لمشيئة الباحث: فهو يتم من تلقاء نفسه، وإنما بعد أن يكون الذي كان يمكن للمرء أن يتساءل لماذا رُتبت المواد على هذا النحو لا على نحو غيره.

لعل أحد أسباب ذلك أن العنوان: مدخل إلى التحليل النفسي لا يعود موائماً لهذا القسم الذي يفترض فيه أن يتناول الأعصاب. فدراسة الهفوات والأحلام كانت تمهيداً للتحليل النفسي، غير أن نظرية الأعصاب هي التحليل النفسي بعينه. ولا أعتقد أنني استطعت أن أزودكم في مثل هذا الوقت الوجيز وفي مثل هذا الشكل المكثف بمعرفة كافية بنظرية الأعصاب. وقد كنت أحرص في المقام الأول على إعطائكم فكرة مجملة عن معنى الأعراض وأهميتها، وعن آلية تكوين الأعراض، وعن شروطها الخارجية والداخلية. هذا على الأقل ما حاولت أن أفعله، وهذا على وجه التقريب جوهر ما يمكن للتحليل النفسي أن ينورنا به اليوم. ولقد كان في المجال متسع لذكر أشياء كثيرة بصدد الليبيدو وتطوره، وكذلك بصدد تطور الأنا. أما المقدمات التي بنينا عليها تقنيتنا، والمعالم العريضة لمفهومي اللاشعور والكبت (المقاومة)، فقد تهيأت لها في المدخل. وسترون في واحدة من

المحاضرات التالية ما النقاط التي يمكن للتحليل النفسي أن يوالي فيها مسيرته الصاعدة. وأنا لم أخفِ عنكم أصلاً أن جميع استنتاجاتنا لم نستخلصها إلا من فئة واحدة من الإصابات العصبية: الأعصاب المسماة بـ «التحويلية». بل لم أكن أتمثل في ذهني، وأنا أحلل آلية تكوين الأعراض، سوى العصاب الهستيرى وحده. وحتى على فرض أنكم لم تظفروا على هذا النحو بأي معرفة متينة ولم تستوعبوا التفاصيل كافة، فإني آمل مع ذلك أن تكونوا قد كوّنتم فكرة عن الوسائل التي يعتمد عليها التحليل النفسي في عمله، وعن المسائل التي يتصدى لها، وعن النتائج التي توصل إليها.

أفترض إذاً أنكم تجذبون لو أنني بدأت عرض الأعصاب بوصف مسلك العصبيين، وكيف يعانون من العصاب، وكيف يحاولون أن يدرووه عن أنفسهم أو أن يتكيفوا معه. وهذا بكل تأكيد موضوع مفيد ومثير للاهتمام، ولا تعسر معالجته، ولكن قد يكون من المجازفة البدء به. فلربما كان سيتعذر علينا في هذه الحال اكتشاف اللاشعور، وإدراك الأهمية الكبيرة للبيدو، ولربما كنا وقعنا في حكمنا على الوقائع وتقييمنا لها تحت تأثير الكيفية التي تبدى بها لأننا الإنسان العصبي. والحال أن هذا الأنا، وهذا غني عن البيان، ليس بالحكم المنزه عن الغرض والذي يمكن أن يُركن إليه. وكيف لنا أن نتوقع من الأنا، الذي يملك القدرة على إنكار اللاشعور وعلى كبتة، حكماً عادلاً منصفاً بصدد هذا اللاشعور؟ إن المتطلبات المستهجنة للجنسية هي أول ما يطاله الكبت، ومن ثم لن يتأتى لنا البتة أن نكون فكرة عن أهميتها ودورها من النظرة التي ينظر بها إليها الأنا. فحالما تأخذ سيرورة الكبت بالانجلاء لنا، يكون قد بات لزاماً علينا أن نحاط، فلا نتخذ حكماً أيّاً من الخصمين المتنازعين، وعلى الأخص الخصم الظاهر منهما. ونحن نعلم من الآن فصاعداً أن كل ما يمكن أن يخبرنا به الأنا من شأنه أن يُضِلُّنا ويوردنا موارد الخطأ. ولقد كنا نستطيع بعد أن نمحض الأنا ثقتنا لو كنا نعلم أنه هو العامل الفعال في جميع تظاهراته، أي أنه هو الذي أراد أعراضه وأنتجها. غير أن الأنا يبقى سلبياً في عدد كبير من تظاهراته، وهذه السلبية بالتحديد هي ما يحاول إخفاءه وإلباسه غير لبوسه. وعلى كل حال، لا يجرؤ

الأنا دواماً على الماضي في هذه المحاولة، بل يجد نفسه مكرهاً على الإقرار بما يساوره من شعور، في سياق أعراض العصاب الوسواسي، بأن ثمة قوى غريبة تتألب عليه وتناهضه، فليس يملك أن يتحاماها إلا بعناء ومشقة.

أما أولئك الذين لا يابهون لهذا التحذير، بل يحملون بيانات الأنا على محمل الصدق ولا يقيمون اعتباراً لما فيها من كذب وتزوير، فلا شك في أنهم سيضربون عرض الحائط بجميع طروحات التحليل النفسي بخصوص دور كل من اللاشعور والجنسية وسلبية الأنا. وسيكون في وسع هؤلاء أن يؤكدوا، بلسان ألفريد أدلر، أن «الطبع العصبي» هو علة العصاب^(١)، بدلاً من أن يكون معلوله، لكن سيعجزهم في الوقت نفسه أن يفسروا أي تفصيل من تفاصيل تكوين الأعراض، أو أي حلم مهما يكن عادياً ليس بذئ بال.

ستسألونني: «أليس في الإمكان إذاً أن نقدر دور الأنا في العصبية وتكوين الأعراض حق قدره، من دون أن نغفل إغفالاً فظاً العوامل التي اكتشفها التحليل النفسي؟». وجوابي عن هذا السؤال: «بلى، الأمر لا بد أن يكون ممكناً، وسيأتي يوم يتم فيه؛ لكن ليس في منظور البرنامج الذي اختطه التحليل النفسي لنفسه أن يبدأ بذلك حصراً». ومن الممكن لنا التنبؤ بالوقت الذي ستفرض فيه هذه المهمة نفسها على التحليل النفسي. فثمة أعصبة يكون فيها دور الأنا أظهر بكثير مما في الأعصبة التي درسناها حتى الآن: وهذه الأعصبة نسميها بـ «الرجسية». ولسوف يتيح لنا الفحص التحليلي لهذه الإصابات أن نحدد تحديداً دقيقاً غير منحاز مدى مساهمة الأنا في الإصابة العصبية.

على أن هناك موقفاً يقفه الأنا من عصابه كان يوجب، لشدة بروزه وظهوره، أن يؤخذ بعين الاعتبار من البداية. وهذا الموقف لا تخلو منه، على ما يبدو، أية حالة، غير أنه يتبدى بجلاء خاص في إصابة لا نزال بعيدين عن معرفتها: هي **العصاب الرضّي**. وينبغي أن تعلموا أننا نلتقي، حين نبحث في تحليل جميع الأشكال الممكنة للأعصبة وفي تحديد آلياتها، بالعوامل الفاعلة نفسها دواماً، لكن

١ - الإحالة الضمنية هنا إلى كتاب ألفريد أدلر: عن الطبع العصبي (١٩١٢). «م».

مع فارق وحيد وهو أن الدور الرئيسي، من منظور تكوين الأعراض، يقوم به، بحسب الإصابة، تارة هذا العامل وطوراً ذاك. فلكأننا أمام فريق مسرحي: فكل ممثل يختار، علاوة على دوره الذي اختص به - بطل، صديق حميم، دساس، إلخ - دوراً آخر، في مسرحية أخرى، تعود فيه البطولة إليه. ففي الهستيريا تظهر بجلاء لا مزيد عليه الأخاييل التي تتحول إلى أعراض؛ وبالمقابل، تهيمن التوظيفات المضادة أو التشكيلات الارتجاعية على الصورة السريرية للعصاب الوسواسي؛ أما في البارانونيا فالصياغة الثانية، كما كنا أسمينها في معرض كلامنا عن الحلم، هي التي تضطلع بالدور الرئيسي في شكل هذا، إلخ.

هكذا نكتشف في الأعصبة الرضية، وعلى الأخص تلك التي تنشأ عن أهوال الحرب، دافعاً أنوياً، أنانياً، نفعياً، دفاعياً؛ ولئن كان هذا الدافع يعجز وحده عن تسبب المرض، فإنه يحضه موافقته، ويعضده ويديمه حالماً يتكون. ويسعى هذا الدافع إلى حماية الأنأ من الأخطار التي كان وعيدها العلة العارضة للمرض، وهو سيحول دون الشفاء ما لم يطمئن المريض إلى أن هذه الأخطار عينها لن تدهمه مرة أخرى، أو ما لم يتلقَ تعويضاً عن الأخطار التي تعرّض لها فعلاً.

غير أن الأنأ يبدي، في جميع الحالات الأخرى، اهتماماً مماثلاً بتكوين العصاب ودوامه. وقد أسلفنا القول بأن الأنأ يسهم بقسط ما في تكوين العرض، لأن للعرض جانباً يوفّر من خلاله تلبية لميل الأنأ إلى إحداث كبت. زد على ذلك أن حلّ الصراع عن طريق تكوين العرض هو الحل الأسر والأكثر تمشياً مع مبدأ اللذة، إذ لا جدال بالفعل في أنه يوفّر على الأنأ مجهوداً داخلياً شاقاً مضنياً. وثمة حالات يضطر فيها الطبيب نفسه إلى التسليم بأن العصاب هو الحل الأقل ضرراً للصراع، والأكثر فائدة ونفعاً من وجهة النظر الاجتماعية. ولا تعجبوا إن قيل لكم إن الطبيب نفسه يأخذ أحياناً بناصر المرض الذي يكافحه. فهو لا يناسبه أن يقتصر دوره في جميع المواقف على التعصب للصحة والانحياز إلى جانبها، إذ إنه يعلم أن في العالم ضرراً أخرى من البؤس غير البؤس العصابي، وأن فيه ألواناً من العذاب أكثر واقعية وأعصى على البرء بعد، وأن الضرورة قد ترغم الإنسان على التضحية بصحته لأن التضحية بشخص واحد قد تدرأ فاجعة كبرى يمكن

أن يتأذى منها أشخاص كثيرون. فلكن أمكن لنا إذاً أن نقول إن المعصوب يلوذ بحمي المرض تلمصاً من الصراع، فلا مناص لنا من التسليم بأن هذا الهرب له ما يبرره في بعض الحالات، وعلى الطبيب، عندما يدرك حقيقة الموقف، أن ينسحب بكل الكياسة الممكنة ومن دون أن ينبس ببنت شفة.

لكن لنضرب صفحاً عن هذه الحالات الاستثنائية. فإذا انتقلنا إلى الحالات المتواترة وجدنا الاعتصام بالعصاب يوقرُّ للأنا نوعاً من الغنم المرضي الداخلي. وإلى هذا الغنم ينضاف في بعض المواقف غنم خارجي يبن، لكن متفاوت القيمة في الواقع بين حالة وأخرى. ولنأخذ أكثر أمثلة هذه الحالة تواتراً. فالمرأة، التي يسيء زوجها معاملتها ويستغلها بفظاظة وبلا تحرز، تجد ملجأ لها وملاذاً في العصاب بصورة شبه مطردة إذا ما ساعدتها على ذلك استعداداتها المسبقة، وإذا كانت أجبن أو أعفّ من أن تقيم علاقة سرية مع رجل آخر، وإذا لم تكن على قدر كافٍ من القوة لتتحدى المواضعات الخارجية كلها ولتتفصل عن زوجها، وإذا كانت حاجتها الجنسية، فوق هذا كله، تدفع بها، بالرغم من كل شيء، نحو ذلك الرجل الفظ. فعندئذ يغدو مرضها سلاحاً لها في صراعها مع هذا الرجل الذي تسحقها قوته، سلاحاً في مقدورها أن تستخدمه للدفاع عن نفسها، كما في مقدورها أن تسيء استعماله بغية الثأر والانتقام. فمن المباح لها أن تشتكي من مرضها، بينما ما كان في استطاعتها في الأرجح أن تشتكي من زواجها. وهي تجد في شخص الطبيب مساعداً لها، فترغم زوجها على مداراتها - وهو الذي كان لا يترقب بها في الظروف العادية - وعلى الإنفاق من أجلها، وعلى السماح لها بالتعيب عن البيت، والإفلات بالتالي لبضع ساعات من ربة الاضطهاد الذي يحاصرها به. وفي الحالات التي يكون فيها الغنم الخارجي أو العارض الذي يوفره المرض للأنا كبيراً ومتعذراً استبداله بغنم آخر أكثر واقعية، يكون حظ معالجة العصاب كبيراً في أن تبقى عديمة الجدوى.

ستعرضون عليّ بأن ما أقوله لكم هنا عن الفوائد التي يجنيها المريض من مرضه أدنى إلى أن يكون حجة تعزز التصور الذي كنت نبذته، والذي يقول إن الأنا هو الذي يريد العصاب وهو الذي يخلقه. رويدكم: فالوقائع التي رويتها

لكم قد لا تعني بكل بساطة سوى أن الأنا يطيب له العصاب ويحلو في عينيه، وأنه ما دام لا يملك أن يتحاشاه فإنه يستغله على خير وجه ممكن، وهذا إذا كان مؤاتياً بطبيعة الحال لمقاصده. فعلي قدر ما يكون للعصاب من فوائد، يقابله الأنا بالترحاب، ولكنه لا يكون في الأحوال جميعها ذا نفع وغنم. وإننا لنلاحظ بوجه عام أن الأنا، إذ ينساق وراء العصاب، يعقد صفقة خاسرة. فقد دفع ثمناً باهظاً لقاء تخفيف حدة الصراع، وكل الدلائل تشير إلى أن مشاعر الألم، المواقبة للأعراض، تعادل في الأرجح عذابات الصراع الذي تحلّ محله، فضلاً عن أنها تسبب في تفاقم الحالة المرضية. وصحيح أن الأنا قد يرنو إلى التخلص مما هو ممضّ في الأعراض، من دون أن يتخلى عن الفوائد التي يجنيها من المرض، لكنه عاجز عن بلوغ هذه النتيجة تحديداً. وهكذا يثبت لنا، وهذه نقطة يجب أن تقرّ في أذهاننا، أن الأنا ليس فعالاً كبير الفعالية إلى الحدّ الذي كان يظنّه.

سادتي، لن يفوتكم أن تلاحظوا، متى ما دعيتم بوصفكم أطباء إلى معالجة المعصوين، أن ليس الذين يشتكون من الشكوى من مرضهم ويتبرمون أشد التبرم بأوصابهم هم الذين يتقبلون العلاج بأكبر الطواعية وبأقل قدر ممكن من المقاومة. بل العكس هو الصحيح. غير أنه لن يشقّ عليكم أن تدركوا أن كل ما من شأنه أن يزيد في حجم الفوائد المحتمنة من الحالة المرضية سيعزز في الوقت نفسه المقاومة وسيعضدها بالكبت وسيزيد من صعوبات العلاج. والحال أنه ينبغي أن نصيف إلى المكسب المرضي الذي تولد - إن جاز القول - في آن واحد مع العرض، فائدة أخرى لا ينجلي أمرها إلا في زمن لاحق. فحين يدوم تنظيم نفسي كالمرض رديحاً من الزمن، ينتهي به الأمر إلى أن يسلك مسلك الكيان المستقل بذاته، فيبدي عن دافع أشبه ما يكون بالدافع الغريزي إلى البقاء، ويعقد تسوية ودية للتعايش مع العناصر الأخرى من الحياة النفسية، بما فيها تلك التي تناصبه العداء منها؛ ويندر ألا يجد فرصة ليدلل على نفعه وجدواه في نواح أخرى، وبذلك تصير للمرض وظيفة ثانوية تطيل في أمد وجوده وتعزّزه. لنأخذ، بدلاً من مثل نستقيه من معين علم أسباب نشوء الأمراض، حالة نستمدّها من معين الحياة اليومية الجارية. تلکم حالة عامل مستقيم، كان يكسب رزقه بعمله، ووقعت له

حادثة مهنية فأورثته عاهة دائمة. ولما صار قعيداً عن العمل، لجعلت له جراحة صغيرة على سبيل التعويض، وتعلم علاوة على ذلك كيف يستغل عاهته في تعاطي التسول. وهكذا صار الأساس الذي يقوم عليه وجوده الراهن، المتردي، هو عين الحادثة التي حطمت وجوده الأول. ولو جرّدتوه من عاهته، لانتزعت منه أولاً وسيلة معاشه، إذ من المشكوك فيه أن يكون لا يزال قادراً على استئناف عمله الأول. وما يناظر، في العصاب، مثل هذا الاستخدام الثانوي للمرض يمكن اعتباره ربحاً ثانوياً من المرض ينضاف إلى الربح الأول.

لكن لزام عليّ أن أصارحكم القول بوجه عام أنه إن كان عليكم ألا تستهينوا بالأهمية العملية للفائدة المجتناة من الحالة المرضية، فليس يجوز لكم بالمقابل أن تتخذوا بها من الناحية النظرية. فبغض النظر عن الاستثناءات التي تقدّم بيانها، فإن تلك الفائدة تذكرنا بأمثلة «ذكاء الحيوانات» التي أوردها أوبرلاندر OBERLANDER^(٢) في الأوراق الطائفة. فقد سلك أعراي على ظهر بعير درباً ضيقاً شقّ عبر جبل وعر، شديد الانحدار. فلما أدرك منعطفاً من الدرب، إذا به أمام أسد قد تهيأ للانقضاض عليه. ولم يكن أمامه من منفذ: فالجبل قائم عن يمينه بزواية شبه عمودية، والهاوية فاعرة فاها عن يساره. وأيقن الأعراي، وقد تعذر عليه الارتداد على عقبيه واللواذ بالفرار، أنه هالك لا محالة. ولكن لم يكن كذلك رأي البعير. بل قفز وراكبه في الهاوية... ولم يصب الأسد مغتماً. والعون الذي يستمدّه المريض من عصابه أشبه ما يكون بتلك القفزة في الهاوية. ولعل مردّ ذلك إلى أن حل الصراع عن طريق تكوين الأعراض لا يعدو أن يكون محض سيرورة آلية غير قيمة بالاستجابة لمتطلبات الحياة وقد لا يدلّل الإنسان، بلجؤه إليها، إلا على عجزه وعزوفه عن استخدام خير ما فيه من قوى وأسمائها. ولو كان ثمة إمكان للاختيار، لكان أحرى بالإنسان أن يفضل الهزيمة البطولية، أي تلك التي يلقي فيها حتفه عقب مجابهة نبيلة مع القدر.

٢ - أدولف أوبرلاندر: رسام كاريكاتوري ألماني (١٨٤٥ - ١٩٢٣). اشتهر برسومه الساخرة عن حيوانات ذات شبه بالإنسان، التي نشرها في مجلة الأوراق الطائفة الأسبوعية التي كانت تصدر في ميونيخ. «٣».

غير أنه يتعين عليّ أن أيقن لكم، سادتي، الأسباب التي حملتني على ألا أبدأ عرضي هذا لنظرية الأعصاب بنظرية العصبية الشائعة. وربما اعتقدتم أنني ما نهجت هذا النهج إلا لأنني لو كنت سلكت الطريق المضاد لارتطمت بمزيد من الصعاب في بيان المنشأ الجنسي للأعصاب. لكنكم تخطئون. ففي الأعصاب التحويلية يتعين علينا، حتى نصل إلى هذا التصور، أن ننجز أولاً على الوجه المرام عملية تأويل الأعراض. أما في الأشكال الشائعة من الأعصاب المسماة بالأعصاب الراهنة^(٣)، فإن دور الحياة الجنسية في تسبب المرض هو بمثابة واقعة خام تثب من تلقاء نفسها لعين الراصد. وقد جابهت هذه الواقعة منذ أكثر من عشرين سنة حينما تساءلت ذات يوم لماذا يصّر الأطباء على ألا يقيموا اعتباراً، في أثناء فحص العصبيين، لنشاطهم الجنسي. وقد ضحيت يومئذ، في سبيل هذه البحوث، بالتعاطف الذي كنت أنعم به لدى مرضاي، لكنني لم أتجشم جهداً كبيراً كيما أصل إلى الملاحظة التالية وهي أنه لا وجود لعصاب - أقصد: عصاب راهن - مع حياة جنسية سوية^(٤). صحيح أن هذا الفرض يستخفّ أكثر مما ينبغي بالفروق الفردية بين الناس، وأنه مشوب بعيب عدم التحديد الدقيق لكلمة «سوية»، لكنه لا يزال يحتفظ إلى اليوم بقيمته كاملة من حيث الاتجاه العام. وقد أمكنني يومئذ أن أكشف عن صلات نوعية بين بعض أشكال العصبية وبعض الاضطرابات الجنسية الخاصة، وإني لعلّى يقين أنني لو أوتيت المادة نفسها والمجموعة نفسها من المرضى لانتهيت اليوم أيضاً إلى إبداء ملاحظات مماثلة. وكثيراً ما أتيح لي أن أعاين أن الإنسان، الذي يقنع بضرب من الإشباع الجنسي الناقص، كالاستمضاء باليد مثلاً، يصاب بنوع محدد من العصاب الراهن، وأن هذا النوع سرعان ما يخلي مكانه لنوع آخر من العصاب متى ما أخذ الشخص بنظام جنسي آخر ليس

٣ - الأعصاب الراهنة هي الأعصاب التي ينبغي البحث عن سرّها وأصلها في حاضر المريض، لا في تاريخه الماضي، والعرض فيها ليس تعبيراً رمزياً كما في الأعصاب التحويلية، بل هو ناجم مباشرة عن عدم الإشباع الجنسي أو عن ممارسة لنشاط جنسي مكفوف مثل الاستمضاء أو الجماع المبثور. وقد أدرج فرويد في عداد الأعصاب الراهنة العصاب الحضري والتورستانيا وهجاس المرض. «م».

٤ - يحيل فرويد هنا ضمناً إلى مقال كان نشره عام ١٩٠٦ تحت عنوان: آرائي حول دور الجنسية في نشوء الأعصاب. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

مقبولاً هو الآخر. وهكذا تسنى لي أن أتكهّن بحدوث تغير في نمط الحياة الجنسية تبعاً لتغير حالة المريض. ومن ثم درجت على عادة لا أحيد عنها، وهي ألا أترجع عن افتراضاتي وظنوني ما لم أفلح في التغلب على مراوغة المريض وانتزاع الاعترافات منه. ولست أماري في أن المرضى كانوا يفضلون في مثل هذه الحال أن يقصدوا أطباء غيري يكونون أقل مني إلحاحاً في الاستعلام عن حياتهم الجنسية.

كذلك لم يرغب عني يومئذ أن أسباب الحالة المرضية لا يمكن ردها على الدوام إلى الحياة الجنسية. فلئن يكن أحدهم قد تعرّض مباشرة للمرض من جراء مضرة جنسية، فإن غيره من الناس لم يسقط مريضاً إلا في أعقاب خسارة مالية فادحة أو إصابة عضوية منهكة. وتفسير هذا التباين لم يتضح لنا إلا في زمن لاحق، حين بدأنا نستشفّ الصلات المتبادلة - وقد كانت إلى ذلك الحين ظنيّة فقط - بين الأنا والليبيدو، وكان تفسيرنا يتدأني إلى الاكتمال طرداً مع توفّر المزيد من الأدلة على هذه الصلات. فالمرء لا يغدو معصوباً إلا حين يفقد أنه القدرة على قمع لبيدواه بطريقة أو بأخرى. وكلما كان الأنا أقوى، كان من الأسهل عليه أن يقوم بهذه المهمة؛ وكل وهن يطرأ على الأنا، مهما يكن سببه، يعقبه مفعول مماثل لذلك الذي ينشأ عن اشتطاط متطلبات الليبيدو، ومن شأنه بالتالي أن يفتح الطريق إلى المرض العصابي. وهناك أيضاً علاقات أكثر حميمية بين الأنا والليبيدو، لكن بما أن هذه العلاقات لا تعيننا هنا، فلن نشغل بها أنفسنا الآن. على أن ما يبقى أساسياً وغنياً بالفائدة بالنسبة إلينا في جميع الحالات هو أن أعراض العصاب تتظاهر دوماً، أيّاً يكن الطريق الذي جاءت منه الإصابة، على حساب الليبيدو، وتتمّ بالتالي عن استخدام غير سويّ له.

والآن يتعيّن عليّ أن ألقت انتباهكم إلى الفارق الجوهرى بين الأعصاب الراهنة والأعصاب النفسية التي شغلت الطائفة الأولى منها، وهي الأعصاب التحويلية، حجراً كبيراً من اهتمامنا. ففي الحالين كلتيهما تتمتع الأعراض من معين الليبيدو، وتقتضي في الحالين كلتيهما إنفاقاً شاذاً في الليبيدو، وهي في الحالين كلتيهما بدائل عن الإشباع. غير أن أعراض الأعصاب الراهنة، من ثقل في الرأس وإحساس

بالألم وتهيج في أحد الأعضاء وضعف أو كَفّ لإحدى الوظائف، ليس لها أي «معنى»، أو أي مدلول نفسي. إن هذه الأعراض جسمانية، لا في تظاهراتها فحسب (فتلكم هي أيضاً حال الأعراض الهستيرية مثلاً)، بل كذلك من حيث السيوررات التي تنتجها: فهي تتكون بدون مساهمة أي آلية من تلك الآليات النفسية المعقدة التي تعلّمتنا كيف نعرفها. إنها، إذاً، فعلاً بدنية، فكيف يمكنها، في هذه الشروط، أن تكون مناظرة لاستهلاك لبيدوي مع أن اللبيدو، كما كنا رأينا، قوة فاعلة في المجال النفسي؟ الجواب عن هذا السؤال ليس أبسط منه شيء. اسمحوا لي، سادتي، بتذكيركم بواحد من أولى الاعتراضات التي وُوجه بها التحليل النفسي. فقد قيل يومئذ إن التحليل النفسي يهدر وقته هباءً بإصراره على وضع نظرية سيكولوجية خالصة للظواهر العصابية مع أن ذلك هو العقم بعينه باعتبار أن النظريات السيكولوجية لا تصلح بتاتاً لأن تعلّل مرضاً من الأمراض. لكن شاهري هذه الحجة حلاً لهم أن يتناسوا أن الوظيفة الجنسية ليست نفسية خالصة، ولا كذلك بدنية خالصة. فهي تؤثر في الحياة النفسية وفي الحياة الجسمية على حدّ سواء. ولكن تعلّمتنا كيف نتعرف في أعراض الأعصاب النفسية على تظاهرات نفسية للاضطرابات الجنسية، فلن يدهشنا أن نلقى في الأعصاب الراهنة العواقب البدنية المباشرة لهذه الاضطرابات.

يزودنا الطب السريري بمؤشر ثمين - يقول به عدد جمّ من الباحثين أصلاً - من شأنه أن يعيننا على فهم الأعصاب الراهنة. فهذه الأعصاب تشبه، إن في تفاصيل أعراضها وإن في قدرتها على التأثير على جميع الأجهزة العضوية وعلى جميع الوظائف، شيئاً لا مراء فيه الحالات المرضية الناشئة عن المفعول المستديم لمواد سميّة خارجية أو عن الإفلاخ المفاجئ عن استعمالها، أي حالات التسمم بالإدمان وحالات الحمية. وصلة القرى بين هاتين الطائفتين من الآفات تتوثق وتتعمق في الحالات المرضية التي نعزوها، كما في داء بزدوف^(٥)، إلى تأثير مواد

٥ - داء بزدوف أو السَلَمَة: مرض يتميز بجحوظ العينين والارتجاف العضلي وسرعة النبض، ويعزى إلى نشاط مفرط في الغدة الدرقية. وهو منسوب إلى اسم مكتشفه كارل فون بزدوف (١٧٩٩ -



سامة تتكون داخل الجسم بفعل عملية الأيض^(٦) بدلاً من أن تلجئه من الخارج. هذه المماثلة تفرض علينا، في تقديري، استنتاجاً مؤداه أن الأعصاب الراهنة تنجم عن اضطرابات في الأيض الجنسي، سواء أتمثلت هذه الاضطرابات في إفراز مفرط للسموم لا يتحملة الفرد، أم في إساءة استعمال هذه المواد بفعل شروط داخلية أو حتى نفسية. وقد انطوت الحكمة الشعبية منذ القدم على أفكار كهذه بصدد طبيعة الحاجة الجنسية بقولها عن الحب إنه «سُكر» يحدثه تناول شراب معين^(٧)، وإن عزت إلى هذا الشراب أصلاً خارجياً. وهذا ما يذكرنا بالمناطق الشهوية ويدعونا إلى إعمال الفكر في الأطروحة القائلة إن التهييج الجنسي يمكن أن يحدث في أعضاء مختلفة من الجسم. لكن مهما يكن من أمر، فإن اصطلاح «الأيض الجنسي» أو «كيمياء الجنسية» هو في نظرنا قالب بلا محتوى؛ فنحن لا نعلم شيئاً عن هذا الموضوع، ولا يسعنا حتى أن نقول إن ثمة مادتين، أحدهما «مذكرة» والأخرى «مؤنثة»، ولا ندري إن كان يتعين علينا أن نكتفي بالتسليم بوجود سُمَيْن^(٨) جنسي واحد يكون هو السبب في كل إثارات الليبدو. والحق أن الصرح النظري الذي شدناه للتحليل النفسي لا يبدو في الواقع أن يكون بنياناً فوقياً لا بدّ من تركيزه يوماً ما على قاعدته العضوية. ولكن ليس لنا علم بعد بطبيعة هذه القاعدة.

إن ما يميز التحليل النفسي، بصفته علماً، ليس المادة التي يعمل فيها، بل التقنية التي يستخدمها. ومن الممكن تطبيق هذه التقنية، من دون أن نجور على طبيعتها، على التاريخ والحضارة، وعلى علم الأديان والميتولوجيا، كما على نظرية الأعصاب. والهدف الأوحد للتحليل النفسي ومساهمته الوحيدة استكشاف اللاشعور في الحياة النفسية. والمشكلات التي تتصل بالأعصاب الراهنة، وهي الأعصاب التي تنشأ أعراضها في أغلب الظن عن إصابات تسمية مباشرة، تكاد لا تصلح للدراسة التحليلية النفسية. وما دامت هذه الدراسة تعجز عن إلقاء أي

٦ - الأيض Metabolisme: عملية التحول الغذائي، أي البناء والهدم داخل جسم الكائن الحي. «م».

٧ - يعرف في القصص الشعبي باسم «شراب الحب». «م».

٨ - السُمَيْن أو الذيفان أو التوكسين: سمّ بروتيني تفرزه العضويات الحية. «م».



ضوء جديد على هذا الموضوع، فلا خيار لها إلا أن تدع هذه المهمة للبحوث الطبية/ البيولوجية. ولعلكم تدركون الآن لماذا رُتبتُ مادة البحث التي عرضتها لكم على النحو الذي رُتبتها عليه. فلو كنت وعدتكم بـ «مدخل إلى نظرية الأعصاب» لكان عليّ أن أبدأ من الأشكال البسيطة للأعصاب الراهنة لآنتهي إلى الإصابات النفسية الأشد تعقيداً والناجمة عن اضطرابات الليبيدو: فذلك هو بلا جدال الترتيب الأدنى إلى طبيعة الأشياء. وكان يتعين عليّ من ثم أن أعرض عليكم كل ما عرفناه، من مناح شتى، عن الأعصاب الراهنة؛ فإذا ما انتهيت بعد ذلك إلى الأعصاب النفسية تعيّن عليّ أن أحدثكم عن التحليل النفسي باعتباره أهم الوسائل التقنية المساعدة التي في متناولنا لاستكناه هذه الحالات. لكنني كنت عزمت على أن أقدم إليكم «مدخلاً إلى التحليل النفسي»، وهذا ما أعلنت عنه لكم. وكان يهمني من ثم أن أعطيكم فكرة عن التحليل النفسي أكثر مما كان يهمني أن أزودكم بمعلومات عن الأعصاب، وهذا ما أعفاني من تقديم الأعصاب الراهنة على غيرها في الدراسة، لأن موضوعها مطلق العقم من وجهة نظر التحليل النفسي. وأعتقد أن ما وقعت عليه من اختيار كان في صالحكم، لأن التحليل النفسي يستأهل العناية والاهتمام من كل شخص مثقف بالنظر إلى عمق مقدماته وتعدد علائقه وصلاته. أما نظرية الأعصاب فباب من الطب، شبيه بآبواب كثيرة غيره.

ومع ذلك، من حقكم أن تتوقعوا أن نولي الأعصاب الراهنة بعض اهتمامنا. ونحن بالأصل ملزمون بذلك لما بين هذه الأعصاب وبين الأعصاب النفسية من صلات سريرية وثيقة. وعليه أقول لكم إننا نتميز ثلاثة أشكال خالصة من الأعصاب الراهنة: النوراستانيا، والعصاب الحصري، وهجاس المرض. ولكن حتى هذا التقسيم لم يسلم من الاعتراضات. فصحيح أن هذه الأسماء شائعة الاستعمال، لكن مسمياتها غير محددة وغير مؤكدة. بل ثمة أطباء يعترضون على كل تصنيف في العالم السديمي للظاهرات العصابية، وعلى كل تمييز بين وحدات سريرية وفرديات مرضية، ولا يقرون حتى قسمة الأعصاب إلى أعصاب راهنة وأعصاب نفسية. وعندي أن هؤلاء الأطباء يغفلون ويشطون، ولا يسلكون الطريق

الذي يفضي إلى التقدم. فتلک الأشكال الثلاثة من العصاب تتبدى أحياناً في صورة نقية خالصة، لكنها تتراکب في أكثر الأحيان فيما بينها أو تندمج مع آفة عصبية نفسية. غير أن هذه الحالة الأخيرة لا تبيح لنا أن نمتنع عن تصنيف تلك الأشكال. وحسبكم أن تذكروا التمييز الذي يقيمه علم العدانة بين المعادن والفلزات. فالمعادن توصف فرادى، وذلك في أرجح الظن لأنها تأخذ شكل بلورات متميزة المعالم عما يحيطها ومنفصلة عنه. أما الفلزات فتألف من كتل مجتمعة من المعادن، واجتماعها يبعد أن يكون عارضاً، بل يتعيّن بلا ريب بشروط ظهورها. أما فيما يتصل بنظرية الأعصبة فنحن لا نعلم بعد بخصوص مجرى تطورها إلا أشياء زهيدة لا تسمح لنا بأن نشيد بصدد هذا الموضوع نظرية مشابهة لنظرية الفلزات. لكن لا مرية في أننا نسلک الطريق الصحيح حين نبدأ، أول ما نبدأ، بفرز كتلة العناصر السريرية التي لنا بها معرفة، والتي يصحّ أن نقارنها، هي، بالمعادن.

تقوم بين أعراض الأعصبة الراهنة وأعراض الأعصبة النفسية علاقة مثيرة وذات شأن غير هيّ في معرفتنا بتكوّن الأعراض في الأعصبة الأخيرة: فعرض العصاب الراهن غالباً ما يكون نواة العرض العصابي النفسي اللاحق وطوره التمهيدي. ونلاحظ هذه العلاقة بوجه خاص بين النوراستانيا والعصاب التحويلي المعروف بالهستيريا الاستبدالية، وكذلك بين العصاب الحصري والهستيريا الحصرية، وأخيراً بين هجاس المرض والأشكال التي سنتكلم عنها لاحقاً والتي نسمّيها بـ«البارافرينيا» (الحبل المبكر والبارانويا). ولتأخذ مثلاً لذلك صداع الرأس أو الأوجاع القطنية الهستيرية. فالتحليل يظهر لنا أن هذه الأوجاع تغدو، عن طريق التكثيف والإزاحة والنقل، إشباعاً بديلاً عن مجموعة بكاملها من الأحاييل أو الذكريات الليبيدية. لكن هذا لا ينفي أن يكون مرّ حين من الزمن كانت فيه هذه الأوجاع حقيقية، إذ كانت عرضاً مباشراً لتسمم جنسي، وتعبيراً جسمانياً عن تنبيه ليبيدي. ونحن لا نزعّم أن جميع الأعراض الهستيرية تشتمل على نواة من هذا النوع، لكن يبقى أن هذه الحالة كثيرة التواتر، وأن الهستيريا يحلو لها أن تستخدم، في تكوين أعراضها، جميع التأثيرات، السوية والمرضية، التي يحدثها

التنبية اللييدوي في الجسم. ويكون دور هذه المؤثرات عندئذ شبيهاً بدور حبات الرمل التي تهيج حيوان المحار فيحتمي منها بتغليفها بالمادة الصدفية. وعلى النحو نفسه نجد أن العلامات العابرة للتهيج الجنسي، التي ترافق الفعل الجنسي، تُستخدم من قبل العصاب النفسي كأنسب مادة وأيسرها لتكوين الأعراض.

ثمة سيرورة أخرى من النوع نفسه تتسم بأهمية خاصة من منظور التشخيص والعلاج. فكثيراً ما يحدث لبعض الأشخاص، المهيئين للإصابة بالعصاب والذين لا يعانون بعد من أي عصاب سافر، أن يتأذى لديهم تغير ما يطرأ على الجسم من جراء المرض - وعلى سبيل المثال جرح أو التهاب - إلى بدء تشغيل آلية تكوين العرض بحيث أن هذا العرض المستمد من الواقع يغدو للحال ممثلاً لجميع تلك الأخاييل اللاشعورية التي كانت تترقب أول فرصة تسنح لتعلن عن نفسها. وفي مثل هذه الحالات يقرر الطبيب تارة علاجاً، وطوراً علاجاً آخر، في مسعى منه إما إلى إلغاء الأساس العضوي، من دون أن يكثرث بالصرح العصابي الصاحب الذي يقوم على هذا الأساس، وإما إلى مكافحة العصاب الطارئ، من غير أن يلقي بالاً إلى العامل العضوي الذي تسبب في نشوئه. والنتائج المتحصلة هي وحدها التي يمكن أن يكون لها القول الفصل في نجح هذه الطريقة أو تلك، لكن من العسير وضع قواعد عامة لهذه الحالات الخليطة.

المحاضرة الخامسة والعشرون

الحصر

سيداتي سادتي، إن ما ذكرته لكم في المحاضرة السابقة عن العصبية العامة من شأنه أن يبدو لكم عَرَضاً ناقصاً وغير كافٍ بالمرّة. وأنا أعلم ذلك وأعتقد أن أكثر ما أدهشكم، ولا بدّ، هو أنني لم أشر بكلمة واحدة إلى الحصر، مع أنه عرض يشكو منه معظم العصبيين ويتحدثون عنه على أنه أروع عذاباتهم. ذلك الحصر الذي قد يبلغ عندهم درجة قصوى من الشدة ويدفع بهم إلى أغرب الأفعال وأبعدها عن العقل. والحق أنني لا أريد التملص من المسألة، بل أنوي على العكس أن أطرح مشكلة الحصر لدى العصبيين بمنتهى الجلاء وأن أعالجها أمامكم تفصيلاً.

لست بحاجة في أغلب الظن إلى وصف الحصر؛ فكل واحد منكم قد ساوره، ولو لمرة واحدة في حياته، هذا الإحساس أو بالأحرى هذه الحالة الانفعالية. غير أنه يخيّل إليّ أن الناس لم يتساءلوا بقدر كافٍ من الجِدّ عن السبب في أن العصبيين هم، تحديداً، الأكثر معاناة من غيرهم من الحصر، ومن أشدّ ضروبه ضراوة. ولعلهم وجدوا أن هذا شيء طبيعي: أفلا تراهم يخلطون في الاستعمال بين كلمتي «العصبي» و«القلق»^(١) ولا يميّزون بينهما، كما لو أنهما تعنيان شيئاً واحداً؟ وهذا مسلك خاطئ، لأن هناك أناساً قلقين من دون أن

١ - درج في العربية قول الناس «قلق» و«قلق» بدلاً من «حصر» و«حصر». ولكن بما أن الأوساط العلمية والاختصاصية درجت على ترجمة كلمة ANGOISSE الفرنسية والفرنسية Angst الألمانية وAnxiety الإنكليزية «بالحصر» فقد أخذنا بدورنا بهذه «الترجمة» بالرغم من أن لفظة «الحصر» مسحوبة من التداول لصالح لفظة «القلق». إلا أنه تجدر الإشارة إلى أن بعض العامة تقول في لبنان: شخص «حاصر» أو عنده «احتصار». - م.م.

يكونوا عصبيين، كما أن هناك عصبيين تتبدى لديهم أعراض كثيرة عدا الميل إلى الحصر.

مهما يكن من أمر، فمن المؤكد أن مشكلة الحصر هي النقطة التي تلتقي عندها مختلف المسائل وأكثرها أهمية، أو هي اللغز الذي يفترض بحله أن يلقي ضوءاً باهراً على حياتنا النفسية. أنا لا أزعم أنني سأقدم حلاً كاملاً له، لكنكم تحذسون ولا ريب بأن التحليل النفسي سيتصدى لهذه المشكلة، كما لمشكلات كثيرة غيرها، بوسائل تختلف عن تلك التي يعتمدها الطب التقليدي. فهذا الأخير يصب اهتمامه الأول على معرفة ما الطرق التشريحية التي سلكها الحصر، فيعلن أن مرد الأمر إلى تهيج في البصلة السياسية، ولا يلبث المريض أن يعلم أنه يشكو من عصاب في العصب المبهم. والحق أن البصلة السياسية موضوع جدي للغاية وجميل. وإني لأذكر كم كلفتني دراستها من وقت وعناء. لكن لزام علي أن أقر أمامكم اليوم بأن معرفة المسار العصبي الذي تسلكه التنبيهات الصادرة عن البصلة السياسية لا تعينني في شيء من منظور الفهم السيكلوجي للحصر.

وبوسعنا، بادئ ذي بدء، أن نتكلم عن الحصر، وأن نطيل الكلام عنه، من دون أن يذهب بنا الفكر إلى العصبية بوجه عام. ولن نتحاجوا إلى أي شرح لتفهموا ما أعنيه حين أشير إلى هذا الحصر باسم الحصر الواقعي المنشأ بالتعارض مع الحصر العصبي. والحال أن الحصر الواقعي المنشأ يبدو لنا شيئاً معقولاً ومفهوماً للغاية. وسنقول إنه استجابة لإدراك خطر خارجي، أي لضرر مرتقب وأذى متوقع، وإنه مرتبط بالهرب كفعل منعكس، ومن ثم يتوجب اعتباره تظاهراً لغريزة البقاء. فإزاء أي المواضيع، وفي أي المواقف، ينشأ الحصر؟ الأمر مرهون بطبيعة الحال إلى حد كبير بمستوى معرفتنا وبمدى شعورنا بالقوة في مواجهة العالم الخارجي. فنحن نرى أنه من الطبيعي أن يستبد الخوف بالإنسان المتوحش لدى مرآه مدفعاً، وأن يعتصره القلق لدى كسوف الشمس، بينما لا يساور الإنسان الأبيض، الذي يعرف كيف يعالج المدفع ويتنبأ بالكسوف، أي قلق في الحالين كليهما. وقد يكون فرط المعرفة أحياناً هو علّة القلق، إذ يتوقع الإنسان الخطر في وقت مبكر. وهكذا يدب الخوف في فرائص الإنسان المتوحش إذا ما

وقع نظره في الغابة على آثار أقدام لأنه يعلم من ذلك أن في الجوار حيواناً كاسراً، بينما لا يكتثر الغريب لمثل تلك الآثار لجهله بما تدلّ عليه. كذلك، إن البحار المحتكّ ينظر بفرع إلى سحابة صغيرة تشكلت في أديم السماء لأنها تندر عنده باقتراب إعصار، بينما لا يأبه المسافر على السفينة للسحابة نفسها.

على أننا لو أمعنا في التفكير لرأينا لزماً علينا أن نقول إنه لا بدّ من إعادة النظر في الرأي القائل إن الحصر الواقعي المنشأ حصر معقول ومتكيّف مع هدف معين. فالموقف المعقول الوحيد الذي يمكن أن يقفه الفرد إزاء خطر داهم هو أن يقيس قواه الخاصة إلى جسامه الخطر، وأن يقرر بعد ذلك ما أنجع وسيلة للإفلات منه: أهي الهرب أم الدفاع أم حتى الهجوم. لكن ليس ثمة مجال في هذا الموقف للقلق، فكل ما سيحدث سيحدث أيضاً من دونه، وربما على نحو أفضل مما إذا تدخل القلق. وهكذا ترون أن القلق متى ما زاد عن حدّه تحول إلى عقبة تشلّ العمل، بل تشلّ حتى الهرب. وفي الأعمّ الغالب يكون رد الفعل على الخطر مزيجاً من الشعور بالقلق والمسلك الدفاعي. فالحيوان المذعور يشعر بالذعر ثم يهرب، ولكن المخرج المناسب في هذه الحال هو «الهرب» وليس «الذعر».

هكذا نرانا ميالين إلى التوكيد بأن الحصر لا يكون البتة مؤاتياً لغاية منشودة بعينها. لكن ربما كوّنا فكرة أصحّ عن الحصر لو حللنا الموقف الذي ينشأ عنه. وأول ما نجده في هذه الحال أن الفرد يتهيأ للخطر ويتأهب له، وهذا ما يتبدى في إرهاف انتباهه الحواسي وتوتره الحركي. وحالة التأهب والترقب هذه حالة مؤاتية بلا أدنى مرأى، ولولاها لتعرّض الفرد المعني لعواقب وخيمة. ويتفرع من هذه الحالة، من جهة أولى، الفعل الحركي: إما في شكل هرب في بادئ الأمر، وإما في شكل دفاع فعال في مرحلة تالية وعليها؛ ويتفرع منها، من الجهة الثانية، ما نسميه بالحالة الحصرية. وكلما كان تظاهر الحصر محدوداً، وكلما تبدى على أنه محض استطالة أو إشارة، تمت بسرعة أكبر وبصورة أكثر عقلانية عملية الانتقال من حالة التأهب للقلق إلى الفعل. هكذا يبدو لي أن حالة التأهب في ما نسميه بالحصر هي العنصر الوحيد النافع برسم غاية ما، بينما يلوح لي أن تمخّض الحصر معاكس لكل غاية.

إني أدع جانباً مسألة معرفة ما إذا كانت اللغة الدارجة تعني بكلمات الحصر والخوف والذعر ما نعنيه نحن، أم تشير بها إلى شيء آخر. ويتراءى لي أن الحصر يتصل بالحالة النفسية ولا يلقي بالاً إلى الموضوع، بينما يتركز الانتباه في حالة الخوف على الموضوع على وجه التحديد. وبالمقابل، يلوح لي أن لفظ الذعر مدلولاً خاصاً، إذ يشير إلى الأثر الذي يستثيره الخطر في نفس الفرد حينما لا يكون متأهباً له بحالة من الحصر المسبق. وأنه يمكن القول إن الإنسان يدرأ الذعر عن نفسه بالحصر.

مهما يكن من أمر، فلن يفوتكم أن تلاحظوا أن كلمة حصر تستخدم بمعانٍ شتى، وهذا ما يضيف عليها طابعاً مبهماً لامتيعناً. ويُقصد بالحصر في أغلب الأحيان تلك الحالة الذاتية التي تنشأ من إدراك الشخص المعني لـ «تمخض الحصر»، ويُطلق على هذه الحالة اسم «الانفعال». والحال، ما الانفعال من وجهة النظر الدينامية؟ إنه، على كل حال، شيء بالغ التعقيد. فالانفعال ينطوي أولاً على بعض تعصبات INNERVATIONS أو تصرفات حركية، ومن ثم على بعض أحاسيس. وهذه الأخيرة على نوعين: أحاسيس تنشأ عن إدراك الأفعال الحركية المؤداة، وأحاسيس مباشرة باللذة والكدر تضيف على الانفعال ما نسميه بنبرته الأساسية. غير أنني لا أعتقد أن تعداداً كهذا يستوعب كل ما يمكن قوله بصدد طبيعة الانفعال. ففي بعض الانفعالات نستطيع، على ما يترأى لنا، أن ننفذ إلى ما وراء هذه العناصر وأن نرى أن النواة التي يتبلور حولها البنيان بمجمله قوامها تكرار خبرة هامة وبعيدة الدلالة عاشها الفرد في ماضيه. وقد لا تعدو هذه الخبرة أن تكون انطباعاً سحيق القدم، من نوع بالغ العمومية، أي انطباعاً ينتمي إلى ما قبل تاريخ النوع، لا الفرد. وتيسيراً للفهم عليكم، سأقول إن الحالة الانفعالية ذات بنية مماثلة لبنية النوبة الهستيرية، إذ إن قوامها، مثلها، رسابَةٌ ذكرى. وعلى هذا تكون النوبة الهستيرية قابلة للتشبيه بحالة انفعالية فردية حديثة التكوين، كما تكون الحالة الانفعالية السوية قابلة للتشبيه بتمخض هستيريا سلالية صارت وراثية.

لا تحسبوا أن ما أقوله لكم هنا بصدد الانفعالات يؤلف مكتسباً معترفاً به من

قبل علم النفس العادي. بل ولدت هذه التصورات، على العكس، على أرض التحليل النفسي، ولا تربة غيره تصلح لأن تعيش فيها. فما يقوله علم النفس عن الانفعالات، كنظرية جيمس - لانج^(٢) مثلاً، هو عندنا، نحن أنصار التحليل النفسي، شيء غير مفهوم ومتعذر نقاشه. لكننا نحن أنفسنا لا نعتبر ما نعرفه عن الانفعالات بحكم الثابت الأكيد. ورجائي ألا تروا في ما سأقوله لكم حول الموضوع سوى محاولة أولية لتلئس طريقنا في هذا الميدان الغامض. وعليه، سأواصل ما انقطع من حديثي بصدد الانفعال الحصري فأقول: إننا نعتقد أننا نعرف ما هو ذلك الانطباع السحيق القدم الذي يبتعثه هذا الانفعال بشكل تكرر. إننا نزعم أنه لا يمكن أن يكون سوى واقعة الميلاد؛ ففي أثناء الميلاد يحدث ذلك التجمع لجميع أحاسيس العناء والكدر، ولجميع الحاثات التصريفية وجميع الأحاسيس الجسمانية التي تؤلف في مجموعها نموذجاً للأثر الذي يحدثه في النفس خطر داهم يتهدد الحياة والذي لا بد أن يكون ساورنا مراراً وتكراراً منذئذ في صورة حالة حصر. وعلة التجربة الحياتية الحصرية ساعة الميلاد هي التزايد الهائل في التهيج بفعل توقف تجديد الدم (أي توقف النفس الداخلي)؛ وعليه، إن أول حصر في حياة الفرد يكون من طبيعة سُمّية. وكلمة حصر (باللاتينية ANGSTIAE وبالألمانية ENGE) تشفّ تحديداً عن ذلك العسر أو الضيق في النفس الذي ينجم في ساعة الميلاد عن موقف واقعي والذي يتكرر بعد ذلك باطراد في الحالة الانفعالية. وإنه لأمر له دلالة أيضاً في نظرنا أن تكون تلك الحالة الحصرية الأولى ناشئة عن انفصال الجنين عن أمه. ونحن نعتقد بطبيعة الحال أن الاستعداد لتكرار هذه الحالة الحصرية الأولى التحم، عبر عدد لا يقع تحت حصر من الأجيال، بالجسم البشري التحاماً لا فكاً فيه بحيث بات متعذراً على أي فرد الإفلات من إفسار هذه الحالة الانفعالية حتى ولو «انتزع انتزاعاً من

٢ - كارل جورج لانج: طبيب نفسي دانمركي (١٨٣٤ - ١٩٠٠). توصل بصورة مستقلة إلى نفس النظرية التي توصل إليها الفيلسوف الأميركي وليام جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) والتي تقول إن الانفعال هو شعور ثانوي ناجم عن إحساس أولي يرتبط باستجابة فيزيولوجية مثل التوتر العضلي أو تسارع نبض القلب أو جفاف الفم. ففرت هذه النظرية باسميهما معاً. «م».

أحشاء أمه» نظير «ماكدوف»^(٣) الخرافي، أي جاء إلى العالم عن طريق آخر غير الولادة الطبيعية. ونحن نجهل ما كانه النموذج الأول للحالة الحصرية لدى غير الثدييات من الحيوانات. ولهذا نجهل أيضاً جملة الأحاسيس التي تناظر لدى هذه الحيوانات حصرنا.

ربما ثار بكم الفضول لمعرفة كيفية التي توصلنا بها إلى فكرة أن واقعة الميلاد هي المصدر والنموذج الأول لانفعال الحصر. الحق أن هذه الفكرة بعيدة أقصى ما يمكن أن يكونه البعد عن التأمل والنظر المجرد؛ وقد اقتبستها بالأولى من معين الحكمة الساذجة لعامة الناس. فذات يوم - قبل سنوات كثيرة خلت - كنا نفرأ من الأطباء الناشئين مجتمعين حول مائدة في المطعم، فروى لي طبيب مساعد في عيادة التوليد واقعة طريفة حدثت خلال الامتحان الأخير للقابلات القانونيات. فقد سئلت إحدى المرشحات عما يعني وجود العقبي^(٤) في ماء الولادة، فأجابت بلا تردد: «يعني أن الطفل مذعور». وقد أضحك هذا الجواب الفاحصين، فما أجازوا المرشحة. أما أنا فقد وجدتني أنحاز بيني وبين نفسي إليها، وراودني ظن بأن هذه المرأة المسكينة من عامة الشعب قد حدثت صادقة بعلاقة لها أهميتها.

لنتقل الآن إلى الحصر العصابي، ولنتساءل عما يتسم به من تظاهرات جديدة وصلات جديدة. والحق أننا نستطيع أن نفيض القول في هذا الموضوع. فأول ما نجده عند هؤلاء العصبيين حالة عامة من الحصر، حصر عائم إن جاز القول، متأهب للتثبيت بمضمون أول خاطر يمكن أن يتخذ منه ذريعة وحجة؛ فهو يؤثّر في أحكام المرضى، ويختار التوقعات والترقيات، ويترصّد الفرص والسوانح كافة ليجد لنفسه تبريراً. ونحن نطلق على هذه الحالة اسم «الحصر الترقّبي» أو «التربق القلق». فالأشخاص الذين يقاسون هذا الحصر يتوقعون على الدوام أسوأ الاحتمالات وأوخمها، بل يرون في كل حادث عارض نذيراً بخطب، ويميلون على الدوام إلى تأويل الوقائع والأحداث على أسوأ وجوهها إذا كان الشك

٣ - ماكدوف: بطل خرافي تدوّلت قصته في إسكتلندا في القرن الرابع عشر. لم يولد ولادة طبيعية بل انتزع من أحشاء أمه انتزاعاً. وألبسه شكسبير ثوب قاتل مكبّث في مسرحيته التي تحمل هذا الاسم. «م».

٤ - العقبي MÊCONIUM: أول براز للطفل ساعة الميلاد. «م».



يحيط بنتائجها. وهذا النزوع إلى توقُّع الشر سمة طبيعية عند كثيرين من الأشخاص ممن لا يبدو عليهم، باستثناء ذلك، أثر للمرضى البتة. وهؤلاء يعابون على مزاجهم الكدر وتشاؤمهم. لكن حصر الترقب يطرد وجوده، وبدرجة ملحوظة من الشدة، في آفة عصبية أطلقت عليها اسم «العصاب الحصري» وصنفتها في عداد الأعصاب الراهنة.

على النقيض من هذا الشكل من الحصر، ثمة شكل آخر روابطه نفسية بالأحرى، وأواصره مشدودة إلى مواضيع أو مواقف بعينها. ذلك هو الحصر الذي يسم بمبسمه ضروب «الرهاب» PHOBIE الكثيرة التنوع والغريبة المظهر في أغلب الأحيان. وقد أخذ عالم النفس الأمريكي الشهير ستانلي هال HALL^(٥) على عاتقه ذات مرة أن يقدم لنا طائفة بكاملها من هذه الأرهبة بأسماء إغريقية ظريفة. وكان عمله هذا شبيهاً بتعداد مصائب مصر العشر^(٦)، لكن مع فارق واحد وهو أن تعداد الأرهبة أكثر بكثير. وهأنذا أعددت لكم كل ما يمكن أن يصبح موضوعاً أو مضموناً لرهاب: الظلام، الهواء الطلق، الأماكن المفتوحة، القطط، العناكب، السرقات، الثعابين، الفئران، العاصفة، الرؤوس المدببة، الدم، الأماكن المقفلة، الجموع البشرية، الوحدة، عبور الجسور، السفر بحراً أو بالسكة الحديدية، إلخ. وإذا ما بذلنا محاولة أولى لنهتدي إلى طريقنا وسط هذه الزحمة، لاحت لنا إمكانية تمييز ثلاث فئات من الأرهبة. فبعض هذه الموضوعات أو المواقف المخوِّفة لها جانب مخيف فعلاً، حتى بالنسبة إلينا نحن الأسوياء لما تستحضره في أذهاننا من خطر، ولهذا لا تبدو لنا هذه الأرهبة مستغربة، غير مفهومة، وإن وجدناها على درجة مسرفة من الشدة. وعلى هذا النحو يساورنا، أكثرنا، شعور بالتقرز لدى رؤية ثعبان. بل يسعنا القول إن رهاب الثعابين رهاب يعم البشرية جمعاء، وقد وصف ش. داروين وصفاً أخذاً الذعر الذي دب في أوصاله لدى مرآه ثعباناً

٥ - غرانفيل ستانلي هال: عالم نفس أمريكي (١٨٤٤ - ١٩٢٤). من أشهر رواد علم النفس التجريبي في الولايات المتحدة، وقد أمدى تجاه التحليل النفسي تعاطفاً. «م».

٦ - هي المصائب التي تقول التوراة إن يهوه أنزلها على أرض مصر وبشعبها ليرغم الفرعون على إطلاق سراح العبريين والإذن لهم بالهجرة. «م».

يزحف باتجاهه، وهذا بالرغم من وجود أسطوانة زجاجية سميكة كانت تقيه شره^(٧). وندرج في الفئة الثانية الحالات التي لا تكون هي الأخرى منقطعة الصلة بالخطر، ولكنه خطر اعتدنا ألا نعتدّ به وألا ندخله في حسابنا. فنحن نعلم أن السفر بالسكة الحديدية ينطوي من المجازفة (خطر التصادم) على قدر أكبر مما لو مكثنا في بيوتنا لا نبرحها، ونعلم كذلك أن المركب قد يتلعه البحر فنلقى مصرعنا غرقاً، ومع ذلك نساfer بالسكة الحديدية أو بالسفينة بلا حصر، ومن دون أن نفكر بتلك الأخطار. ومن المحقق كذلك أننا سنهوي إلى الماء إذا ما انهار الجسر لحظة عبورنا فوقه، ولكن ذلك نادر الحدوث إلى حدّ لا نقيم معه اعتباراً البتة لهذا الخطر المحتمل. ولا تخلو الوحدة بدورها من بعض الأخطار، ونحن نتحاشاها في بعض الظروف، ولكن لا يترتب على ذلك أننا نعيّز عن احتمال الوحدة لهنيئة من الزمن كائنة ما كانت الذريعة أو الظروف. وهذا كله يصدق أيضاً على الجموع، والأماكن المقفلة، والعاصفة، إلخ. والحق أن ما يبدو لنا مستغرباً في أربة المصويين هذه ليس مضمونها، بل شدتها. فالحصر الذي ينشأ عن الأربة هو بكل بساطة عديم الجدوى، ويخالجنا أحياناً الانطباع بأن العصايين لا يساورهم إطلاقاً الحصر إزاء نفس الموضوعات ونفس المواقف القمينة بأن تثير جزعنا نحن في بعض الظروف، والتي يسمونهم بمثل ما نسميها نحن.

تبقى فئة ثالثة من الأربة، وهي فئة يستغلق فهمها علينا. فعندما نرى رجلاً ناضجاً، قوياً، ينتابه خوف وحصر حين يتعيّن عليه أن يعبر شارعاً أو ساحة في المدينة التي رأى فيها النور والتي يعرف زواياها وخباياها طراً، أو حين نبصر بامرأة سليمة معافاة في الظاهر تقع فريسة رعب مجنون لأن هراً مسّ طرف تنورتها أو لأن فأراً ولج إلى الغرفة، فكيف يسعنا أن نقيم صلة بين خوف ذلك الرجل أو هذه المرأة من جهة، وبين الخطر الذي لا وجود له بالبدهة إلا في نظر الرهابي وحده من الجهة الأخرى؟ أما الأربة التي موضوعها الحيوانات، فلا يمكن تفسيرها بالشطط في النفور البشري العام من الحيوانات، إذ لدينا دليل على

٧ - الإشارة هنا إلى كتاب تشارلز داروين: التعبير عن العواطف لدى الإنسان والحيوان، لندن ١٨٧٢.

هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



العكس في كون الكثيرين من الناس لا يملكون كلما مروا بقطّ إلا أن ينادوه ويداعبوه. كما أن الفأرة، التي تدعّر لها النساء أشدّ الذعر، أُستعير اسمها في صياغة تعبير من تعابير الودّ العارم: فالفتاة التي يطيب لها أن يناديها خطيبها بـ«فأرتي الصغيرة» تطلق هي نفسها صيحة فزع حين يقع نظرها على الحيوان الصغير الرشيق المعروف بهذا الاسم. أما فيما يتعلق بالأشخاص الذين يعانون من حصر الشوارع والساحات، فلا نجد تفسيراً أو وسيلة أخرى لتعليل حالتهم سوى أن نقول إنهم يسلكون مسلك الأطفال. فالترية تعلّم الطفل مباشرة أن عليه أن يتفادى مثل هذه المواقف لما تنطوي عليه من خطر. وبالفعل، إن صاحبنا المصاب برهاب الخلاء لا يعود يساوره حصر إذا ما اجتاز الساحة بصحبة أحدهم.

إن شكلي الحصر اللذين تقدّم وصفهما، أي حصر الترقب الطليق من كل قيد، والحصر المرتبط بالأرهاب، مستقلان واحدهما عن الآخر. وليس يسعنا القول إن أحدهما يمثل مرحلة أكثر تقدماً من تلك التي يمثلها الآخر، وهما لا يجتمعان معاً إلا بصورة استثنائية وكما لو من قبيل الاتفاق والمصادفة. وليس من المحتم أن تتظاهر حالة الحصر العامة، مبلغاً ما بلغت شدّتها، من خلال الأرهاب؛ فثمة أشخاص يسم رهاب الخلاء حياتهم بميسمه، ولكنهم لا يعانون مع ذلك بصورة من الصور من حصر الترقب المتشائم. والثابت أن بعض الأرهاب، كرهاب الساحات أو رهاب السكة الحديدية، إلخ، لا يتم اكتسابها إلا في سن النضج، بينما تفرض أرهبة أخرى، كرهاب الظلام ورهاب العاصفة ورهاب الحيوانات، وجودها منذ السنوات الأولى من الحياة. وأما الأولى فدالة على أمراض خطيرة، وأما الأخيرة فتبدو بالأحرى ضرباً من غرابة الأطوار وشدوذها. وعندما يظهر لدى فرد من الأفراد رهاب من هذه الفئة الأخيرة، يكون مباحاً لنا أن نشبه في وجود أرهبة أخرى من النوع نفسه لديه. وعليّ أن أضيف أننا نصنّف جميع هذه الأرهاب في باب الهستيريا الحصرية، أي أننا نعدّها إصابة قريّة الصلة جداً بالهستيريا الاستبدالية.

يضعنا الشكل الثالث من الحصر العصابي في مواجهة لغز، إذ تغيب عن أنظارنا تماماً العلاقات بين الحصر وبين الخطر المتوعد. ففي الهستيريا، مثلاً،

يتظاهر هذا الحصر بصحبة الأعراض الهستيرية الأخرى، أو قد يظهر في أي شرط آخر من شروط التنبيه والإثارة. ولكم يدهشنا في مثل هذه الحال، ونحن نتوقع تظاهر حالة انفعالية ما، أن ينوب منابها الحصر، وهو أبعد ما كنا نتوقعه. وأخيراً، يمكن أن يتظاهر الحصر من دون أن تكون له صلة بأية ظروف، وعلى نحو نعيما كما يعيا المريض عن فهمه، فكأنه نوبة تلقائية وحررة لا مجال معها للكلام عن خطر أو ذريعة يكون من نتيجة الغلو فيهما حدوث هذه النوبة. ونلاحظ، في أثناء هذه الثوبات العفوية، أن تلك الحالة المتشابكة التي نطلق عليها اسم الحالة الحصرية قابلة للتفكيك. فالنوبة في جملتها يمكن أن ينوب منابها عرض واحد، على درجة كبيرة من الشدة، كالارتعاد أو الدوار أو خفقان القلب أو ضيق التنفس، بينما لا يكون ثمة وجود، أو على كل حال وجود ظاهر، لذلك الانفعال العام الذي به نتعرف الحصر. ومع ذلك، إن هذه الحالات التي تصفها باسم «مكافئات الحصر» ينبغي أن نعاذل بينها وبين الحصر من جميع المناحي، السريرية والإتيولوجية.

هنا يبرز لنا سؤالان. هل ثمة رابط ما بين الحصر العصابي، الذي لا يلعب فيه الخطر أي دور أو لا يلعب سوى دور طفيف، وبين الحصر الواقعي المنشأ الذي هو على الدوام ومن الأساس رد فعل على خطر؟ ثم كيف ينبغي لنا أن نفهم هذا الحصر العصابي؟ ذلك أننا نود أن نتمسك، بكل تأكيد، بتوقعنا التالي: كلما وجد حصر، فلا بد أن يكون ثمة شيء ما يستثير هذا الحصر.

تمدنا المشاهدة السريرية بعدد من العناصر التي من شأنها أن تعيننا على فهم الحصر العصابي. وسأناقش دلالتها أمامكم.

أ - لا يعسر علينا أن نبيّن أن حصر الترقب أو القلق العام يرتبط ارتباطاً وثيقاً ببعض سيرورات الحياة الجنسية، أو بتعبير أدق ببعض توظيفات الليبدو. وأبسط أمثلة هذا النوع وأبلغها دلالة نلفاه لدى الأشخاص الذين يتعرضون لتنبيه محبط، أي لتهميج جنسي عنيف لا يجد له تصريفاً كافياً ولا يفضي إلى غايته من الإشباع. ذلكم هو، على سبيل المثال، حال بعض الرجال في أثناء مدة الخطوبة، أو بعض النساء اللاتي لا ينعم أزواجهن بقوة جنسية سوية أو هم

يبتسرون الفعل الجنسي أو لا يمتضون به إلى نهايته بداعي الحذر والاحتياط. ففي مثل هذه الظروف يختفي التنبيه الليبيدوي لينوب منابه الحصر، إما في شكل حصر ترقبي أو في صورة نوبة أو مكافئ لنوبة حصرية. وإذا ما غدا الجماع المبتور COITUS INTERRUPTUS هو النظام الجنسي المعتاد تفادياً للحمل، صار لدى الرجال، وعلى الأخص لدى النساء، علة مطردة للعصاب الحصري بحيث يتوجب على الأطباء المعالجين، كلما واجهوا شبيه هذه الحالة، أن يتحروا بادئ ذي بدء عن هذا السبب الإتيولوجي. فإذا ما فعلوا تسنت لهم أكثر من فرصة واحدة ليشاهدوا زوال العصاب الحصري حالما يقلع الشخص المعني عن هذا التقنين الجنسي.

وعلى حدّ علمي، إن الصلة بين التقنين الجنسي وحالات الحصر لم تعد موضوع جدل حتى في أوساط الأطباء الغرباء عن التحليل النفسي. لكنني أتكهّن بأنهم لن يحجموا عن محاولة قلب المعادلة، فيزعموا أن أولئك الأشخاص يمارسون التقنين الجنسي على وجه التحديد لأن لديهم استعداداً مسبقاً للحصر. غير أن هذا الرأي يدحضه دحضاً باتاً موقف المرأة التي يتسم النشاط الجنسي لديها بطبيعة سلبية في جوهره، وذلك بقدر ما يخضع للكيفية التي يعاملها بها الرجل. فكلما زاد شبق المرأة وتوقها إلى الجماع وقدرتها على اجتناء الإشباع منه، ردت على عنة الرجل والجماع المبتور بظاهرات حصرية، في حين أن هذه الظواهر تكاد لا تعلن عن وجودها لدى امرأة مصابة بالخدار الجنسي أو فائرة الليبيدو.

إن القطاعة الجنسية، التي يدعو بعض الأطباء إليها بحرارة بالغة في أيامنا هذه، لا تيسّر بطبيعة الحال نشوء حالات الحصر إلا إذا كان الليبيدو، المسدودة عليه طرق التصريف الإشباعي، على درجة معينة من الشدة ولم يذهب الإسماء بالجزء الأكبر منه. فنشوء الحالة المرضية موقوف دوماً على عوامل كمية. ولكن حتى لو صرفنا النظر عن المرض وركّزنا اهتمامنا على طبع الشخص، لما شقّ علينا أن نبين أن التقنين الجنسي هو من نصيب الأشخاص الذين من طبعهم التردد والميل إلى الشك والقلق، بينما ذوو الطبع المقدام، الشجاع، لا يطبقون في أغلب الأحيان

التقنين الجنسي. ومهما تكن التعديلات والتعقيدات التي تطرأ على هذه العلاقات بين الطبع والحياة الجنسية تحت تأثير مختلف شروط الحياة الحضرية، يبقَ الحصر مرتبطاً بالنسبة إلى غالبية البشر بالتقنين الجنسي.

هيهات أن أكون قد أحطتكم علماً بجميع المشاهدات التي تؤيد هذه العلاقة التكوينية بين الليبدو والحصر. فثمة مجال لأن نتكلم بعد، في هذا الصدد، عن الدور الذي تلعبه، في نشوء الأمراض ذات الصفة الحضرية، بعض مراحل الحياة التي تيسّر بلا مرأى فورة الليبدو، كما في سنّ البلوغ والإياس^(٨). وفي بعض حالات التهيج نستطيع أن نلاحظ بصورة مباشرة تراكم الحصر والليبدو وحلول ذاك محل هذا حلولاً نهائياً. ومن هذه الوقائع نستخلص نتيجة مزدوجة: فالمسألة على ما يترأى لنا مسألة تراكم في الليبدو المعاق عن مجراه السوي، كما أن السيوررات التي نحن بصدددها هي جميعها من طبيعة جسمانية ليس إلا. ولسنا ندري إلى اليوم كيف يتولد الحصر من الليبدو؛ وكل ما نلاحظه أن الليبدو غائب وأن الحصر قد حلّ محله.

ب - يمدّنا تحليل الأعصاب النفسية، وبخاصة الهستيريا، بمؤشر آخر. فنحن نعرف من قبل أن الحصر في هذا المرض يظهر في كثير من الأحيان مصاحباً لأعراض، لكننا نلاحظ فيه أيضاً حصراً مستقلاً عن الأعراض يتظاهر إما في صورة نوبات أو بلبس لبوس الحالة الدائمة. ويعجز المرضى عن تحديد سبب شعورهم بالحصر، ونراهم يربطون حالتهم، عن طريق صياغة ثانوية سهل تعرّفها، بالأرهاب الدارجة المألوفة: رهاب الموت والجنون والسكّنة^(٩). وعندما نحلّ الموقف الذي تولّد عنه الحصر أو الأعراض المصحوبة بحصر، يتاح لنا في العادة أن نكتشف التيار النفسي السويّ الذي أعيق عن مجراه فحلّت محله ظاهرة الحصر. وبتعبير آخر، نستعيد السيورة اللاشعورية كما لو أنها نجت من الكبت وتابعت طريقها وصولاً إلى الشعور. والمفروض أن يكون قد صاحب هذه السيورة انفعال معيّن، لكن كم يدهشنا أن نلاحظ أن هذا الانفعال الذي

٨ - الإياس: سن انقطاع الطمث لدى المرأة. «م».

٩ - القلبية أو الدماغية. «م».

يصاحب جريان السيورة السويّ قد كُتبت في الأحوال جميعاً، كائناً ما كان نوعه، وحلّ محلّه الحصر. وعلى هذا، ومتى ما كنا بصدد حالة حصر هستيري، كان من حقنا أن نفترض أن تكلمتها اللاشعورية قد تكون إما انفعالاً من النوع نفسه - توجس، خجل، حيرة - وإما تهيجاً لبيدوياً لا يحتمل لبساً، وإما أخيراً انفعالاً عدائياً وعدوانياً كالسخط أو الغضب. إذًا، فالحصر هو العملة المتداولة التي بها تُقايض أو يمكن أن تقايض جميع الحائث الانفعالية حين يُنحَى مضمونها عن التمثيل ويقع فريسة الكبت.

ج - الخبرة الثالثة يزوّدنا بها المرضى ذوو الأفعال القهرية، وهم من المرضى الذين يبدون إلى حدّ لافت للنظر وكأنهم بمنجاة من الحصر. فعندما نحاول أن نحول بين هؤلاء المرضى وبين أداء أفعالهم القهرية، من اغتسال أو طقوس، إلخ، أو عندما يتجرّؤون هم أنفسهم على الإفلاع عن بعض وساوسهم، انتابهم حصر رهيب يرغمهم على الصدوع للأمر الوسواسي. وعندئذ نفهم أن الحصر كان مختفياً، ليس إلا، وراء الفعل القهري، وأنهم ما كانوا يؤدّون هذا الفعل إلا باعتباره وسيلة للتملص من الحصر. وهكذا لا يفصح الحصر عن نفسه في العصاب الوسواسي ولا يتظّهّر، إذ تنوب منابه الأعراض. وإذا اتجهنا نحو الهستيريا وجدنا فيها الموقف نفسه كنتيجة للكبت: إما حصر خالص، وإما حصر مصاحب للأعراض، وإما أخيراً مجموعة أكمل من الأعراض بلا حصر. من المباح لنا إذاً فيما يبدو أن نقول بصورة مجردة إن الأعراض لا تتكون إلا للحيلولة دون تظاهر الحصر، ولولاها لأعلن عن وجوده لا محالة. وهذا التصور يضع الحصر في مركز الصدارة من الاهتمام الذي نوليّه للمشكلات ذات الصلة بالأعصاب.

لقد أسلمتنا ملاحظتنا عن العصاب الحصري إلى نتيجة مؤداها أن حيدان الليبدو عن تشميره السوي - وهو الحيدان الذي يتولد عنه الحصر - هو ثمرة سيرورات جسمانية خالصة. وقد أتاح لنا تحليل الهستيريا والأعصاب الوسواسية استكمال تلك النتيجة، إذ أوضح لنا أن الحيدان والحصر يمكن أن ينجم أيضاً عن تدخل عوامل نفسية. هذا كل ما نعرفه عن كيفية نشوء الحصر العصبي؛ ولئن

بدا أنه لا يزال يكتنفه قدر كبير من الإبهام، فلست أتبين في الوقت الراهن من طريق تحقيق بأن يمضي بنا إلى أبعد من ذلك.

أما المشكلة الثانية التي كنا أخذنا على عاتقنا أن نجد حلاً لها، وهي بيان الصلة بين الحضر العصاي، الناجم عن تثير شاذ لليبيدو، وبين الحضر الواقعي المنشأ، الذي هو استجابة لخطر، فتبدو أصعب حلاً من سابقتها. وقد يتراءى لكم أن هذين النوعين من الحضر مختلفان كل الاختلاف واحدهما عن الآخر، ومع ذلك لا نملك أية وسيلة تتيح لنا أن نميّر، على مستوى الإحساس، بين الحضر العصاي والحضر الواقعي المنشأ.

غير أن الصلة المفقدة سرعان ما تنجلي للعيان لو أخذنا بعين الاعتبار التعارض الذي أكدنا مراراً وتكراراً على وجوده بين الأنا والليبيدو. فالحضر، كما نعلم، يتظاهر بصفته رد فعل من قبل الأنا على خطر ما، ويكون بمثابة الإشارة التي تعلن عن الهرب وتمهّد له، ولا شيء يمنعنا من الافتراض، عن طريق التشابه والمقايسة، بأن الأنا في الحضر العصاي يحاول أن يتملص عن طريق الهرب من متطلبات الليبيدو، وأنه يتصرف إزاء هذا الخطر الداخلي كما لو كان خطراً خارجياً. وهذا التصور يبيح لنا أن نستنتج أنه كلما وجد حضر وجد أيضاً شيء يكون علة لهذا الحضر. لكننا نستطيع أن نمضي في المقايسة إلى أبعد من ذلك بعد. فكما أن محاولة الهرب من خطر خارجي تفضي إلى التوقف وإلى اتخاذ بعض التدابير الدفاعية اللازمة، كذلك فإن تكوين الأعراض يوقف تمخّض الحضر ويحلّ في نهاية المطاف محلّه.

هنا تنتقل صعوبة فهم الصلات المتبادلة بين الحضر والأعراض إلى ناحية أخرى. فالحضر، الذي ينمّ عن فرار الأنا من الليبيدو، متولد أصلاً عن هذا الأخير. وهذه حقيقة واقعة وإن كانت لا تثب إلى العين من تلقاء نفسها؛ لذا لا يجوز أن يغيب عنا أن الليبيدو عند شخص من الأشخاص هو جزء منه ولا يمكن لهذا الشخص أن يقف موقف المعارضة منه كما لو كان شيئاً خارجياً. والشيء الذي يبقى غامضاً بعد في نظرنا هو الدينامية الطبوغرافية لتمعّض الحضر، أي معرفة ما كنه الطاقات النفسية التي يجري إنفاقها في هذه الأحوال، وعن أية

أنسقة نفسية تصدر هذه الطاقات. ولا يسعني أن أعدكم بأجوبة عن هذه الأسئلة، لكننا لن نتوانى عن اقتفاء أثرين آخرين وعن التوجه من جديد نحو الملاحظة المباشرة والبحث التحليلي لسألهما تأييداً لاستنتاجاتنا النظرية. وعلى هذا سنطرق باب تمخض الحصر لدى الأطفال، وباب مصدر الحصر العصايي المقترن بأرهة.

إن حالة الحصر شائعة جداً بين الأطفال، ومن العسير جداً في كثير من الأحيان أن نحدد هل هذا الحصر عصايي أو واقعي المنشأ. وموقف الطفل ذاته هو ما يجعلنا نشك في قيمة أي تمييز قد نقيمه عند الاقتضاء. فمن جهة، لا نستغرب البتة أن يتوجس الطفل خيفة حيال الأشخاص الجدد والمواقف الجديدة والمواضيع الجديدة، ونفسر بلا عناء رد فعله هذا بضعفه وجهله. إذا نحن نعزو إلى الطفل نزوعاً قوياً إلى الحصر الواقعي المنشأ، وقد نرى أنه من الطبيعي أن يقال لنا إن الطفل حمل معه حالة الحصر هذه في شكل استعداد موروث حينما جاء إلى العالم. وبذلك يكرر الطفل موقف الإنسان البدائي السالف أو الإنسان المتوحش في أيامنا هذه عندما يساوره، بسبب جهله وقلة حيلته ونقص وسائله الدفاعية، شعور بالخوف حيال كل ما هو جديد، وحيال الأشياء التي باتت مألوقة لنا ومستأنسة بحيث ما عادت تستثير لدينا أدنى توجس. وإنه لما يتمشى مع توقعنا أن تكون أرهة الطفل هي عينها، في شطر منها على الأقل، الأرهة التي نعزوها إلى تلك المراحل البدائية من التطور البشري.

ولا يجوز أن يفوتنا، من جهة أخرى، أن الأطفال لا يتساوون من حيث درجة تعرضهم للحصر، وأن من ييدي منهم حصراً شديداً حيال شتى المواقف والمواضيع هو المرشح تحديداً لأن يكون معصبواً في المستقبل. إذا، فالاستعداد العصايي يجد تعبيره في نزوع قوي إلى الحصر الواقعي المنشأ؛ ومن ثم، إن حالة القلق، لا العصاب، هي الحالة الأسبق إلى الظهور؛ ومن هنا يمكن لبعضهم استخلاص نتيجة مؤداها أن الطفل، وفيما بعد الراشد، إذا كان يساورهما شعور بالحصر إزاء قوة الليبدو عندهما فهذا على وجه التحديد لأنهما يشعران بالحصر إزاء كل شيء. ومثل هذا التصور ينكر، في النتيجة، أن يكون الحصر متولداً عن

الليبيدو؛ ومن ثم، إننا لو تفحصنا جميع شروط الحصر الواقعي المنشأ لانتبهنا منطقياً إلى أن شعور الفرد بضعفه وعجزه، أو بدونيته حسب اصطلاح أ. أدلر، هو العلة الأولى لعصابه، إذا ما بقي هذا الشعور ملازماً له حتى سنّ النضج، بدلاً من أن تطوى صفحته مع الطفولة.

إن هذه المحاكمة تبدو على جانب كبير من البساطة والجاذبية معاً، فلا مندوحة بالتالي من إيلائها اهتمامنا، وإن كانت كل النتيجة التي يمكن أن تتمخض عنها هي نقل لغز العصبية إلى غير المكان الذي نبحت عنه فيه. إن استمرار الشعور بالدونية، وبالتالي استمرار شرط الحصر والأعراض، يبدو بموجب هذا التصور شيئاً محققاً أكيداً إلى حدّ أن تلك الحالة التي نسمّيها بالصحة هي التي تغدو بحاجة إلى تفسير إذا ما قيّض لها بالمصادفة أن تبقى قائمة. لكن عمّ تكشف لنا الملاحظة الدقيقة لحالة الحصر عند الأطفال؟ إن الطفل الصغير يتوجس في المقام الأول من الأشخاص الغرباء، ولا تلعب المواقف من هذا المنظور دوراً إلا بقدر ما يكون لها صلة بهؤلاء الأشخاص، أما المواضيع فتأتي في الترتيب الأخير من حيث دورها في توليد الحصر. لكن إذا كان الطفل يشعر بالقلق أمام أشخاص غرباء فما ذلك لأنه يعزو إليهم، على سبيل المثال، نيات سيئة، أو لأنه يقارن ضعفه بقوتهم، ويتصوّرهم بالتالي خطرين على وجوده وأمنه وبرئه من الألم والوجع. كلا، إن الصورة التي تمثل الطفل على هذا النحو وكأنه كائن مرتاب، يحيا في ظل الخوف من غريزة العدوان المبتوثة في الكون بأسره، لا تعدو أن تكون فرضاً نظرياً لا أساس له في الواقع. والأصح أن نقول إن الطفل يخاف لدى مرأى وجه جديد لأنه ألف مرأى ذلك الشخص الأنيس والمحبوب الذي هو الأم؛ فيشعر على الأثر بخيبة ومرارة لا تلبث أن تتحوّل إلى حصر. إذاً، فالأمر أمر طاقة غير مستثمرة من الليبيدو، يتعذر عليها أن تبقى معلقة، فتجد منصراً لها في الحصر. وليس من قبيل المصادفة أن ينطوي هذا الموقف، المميّز للحصر الطفلي، على تكرار للظرف الذي صاحب حالة الحصر الأولى في أثناء الميلاد، أي الانفصال عن الأم.

إن أول رهاب من أروهة الموقف لدى الطفل هو رهاب الظلام ورهاب

الوحدة. والأول يدوم في كثير من الحالات مدى الحياة، ويشترك الرهبان في شيء واحد وهو غياب الشخص المحبوب، مانح الرعاية، أي الأم. وجد طفل نفسه ذات مرة في ظلام، فاستبدَّ به الخوف، وصاح بخالته التي كانت في غرفة مجاورة: «يا خالتي، كلميني، أنا خائف»؛ فقالت: «وما فائدة ذلك لك ما دمت لا تراني؟»؛ فأجابها قائلاً: «إذا تكلم أحد خفَّ الظلام». هكذا يتحوَّل الاكتئاب الذي ينتاب الطفل في الظلام إلى حصر حيال الظلام. إذاً، لا يصحَّ أن نقول إن الحصر العصابي ظاهرة ثانوية وحالة خاصة من الحصر الواقعي المنشأ؛ بل نرى، على العكس من ذلك، لدى الطفل الصغير شيئاً إن كان يشبه في مسلكه الحصر الواقعي المنشأ، فإنه تجمععه والحصر العصابي سمة مشتركة رئيسية: صدوره عن طاقة غير مستثمرة من الليبدو. أما الحصر الواقعي المنشأ بحصر المعنى، فيبدو أن الطفل لا يعرفه إلا بقدر طفيف. ففي جميع المواقف التي يمكن أن تغدو فيما بعد شرطاً للرهاب، كالتواجد في أماكن شاهقة الارتفاع، أو اجتياز جسور ضيقة فوق الماء، أو السفر بالسكة الحديدية أو في السفن، لا يظهر الطفل أي حصر، ولا سيما إذا كان جاهلاً بطبيعتها. وحذا لو انطوى ميراثه على عدد أكبر من هذه الغرائز الهادفة إلى صون البقاء؛ فلو كان كذلك هو واقع الحال لهانت كثيراً مهمة المراقبين المولجين بحمايته من تعريض نفسه لأخطار داهمة. غير أن الطفل ينزع في بادئ الأمر إلى الغلوِّ في تقدير قواه ويتصرف بلا خوف لأنه يجهل الخطر. فهو يركض عند حافة الماء، ويصعد فوق متكأ النافذة، ويلعب بأشياء حادة وبالنار، وبالاختصار يفعل كل ما يمكن أن يجلب له الأذى، وللمولجين برعايته الهمَّ والقلق. وليس إلا بالتربية نخلق لديه في نهاية المطاف الحصر الواقعي المنشأ، وذلك ما دمنا لا نستطيع أن نسمح له بأن يتعلم من التجربة الشخصية.

فإن استجاب بعض الأطفال بيسر وسرعة لهذه التربية التي ترمي إلى تلقينهم الحصر الواقعي المنشأ وانتهى بهم الأمر إلى أن يكتشفوا بأنفسهم أخطاراً لم نحدِّثهم عنها ولم نحدِّثهم منها، فمرَّة ذلك إلى أن جيَّلتهم تنطوي على حاجة لبييدوية أشدَّ إلحاحاً، أو إلى كونهم قد اكتسبوا منذ عهد مبكر عادات سيئة في مجال الإشباع الليبيدوي. ولا عجب إن غدا كثير من هؤلاء الأطفال في وقت



لاحق من العصبيين، إذ إن أكثر ما يسهّل نشوء العصاب، كما نعلم، هو العجز عن تحمّل كبت صارم لليبيدو لمدة طويلة من الزمن. وأرجو أن تلاحظوا أننا ندخل في حسابنا هنا عامل الجيلة، وهو عامل لم نمارِ قط في أهميته أصلاً. وكل ما في الأمر أننا نعرض على التصور الذي يغفل سائر العوامل الأخرى لصالح العامل الجيليّ وحده، ويجعل له مركز الصدارة حتى في الحالات التي تدلّ فيها معطيات الملاحظة والتحليل على أنه عديم التأثير أو لا يلعب سوى دور ثانوي.

لنلخص إذاً النتائج التي خرجنا بها من ملاحظة حالات الحصر لدى الأطفال: فالحصر الطفلي، الذي لا تكاد تجمعه والحصر الواقعي المنشأ سمة مشتركة، يقترب على العكس اقتراباً كبيراً من الحصر العصابي لدى الراشدين؛ فهو يتولد، كهذا الحصر الأخير، من طاقة غير مستثمرة من الليبيدو ما وجدت موضوعاً يمكنها أن تصبّ عليه حيثها فاستبدلته بموضوع خارجي أو بموقف.

والآن لن يسوءكم فيما أحسب أن أقول لكم إن التحليل يكاد لا يكون في جعبته شيء جديد يعلمنا إياه بصدد الأربة. فما يحدث فيها هو بالفعل عين ما يحدث في الحصر الطفلي: طاقة غير مستثمرة من الليبيدو تتحول بلا انقطاع إلى حصر واقعي المنشأ ظاهرياً، ومن ثم يصبح أدنى خطر خارجي مكلفاً بتمثيل المتطلبات الليبيدوية. وليس في هذا التوافق بين الأربة والحصر الطفلي ما يوجب أن تثور له دهشتنا، إذ إن الأربة الطفلية ليست فقط النموذج الأول للأربة التي تظهر في زمن لاحق والتي ندرجها في عداد «الهستيريا الحصرية»، بل هي أيضاً الشرط المباشر المسبق الذي يمهد لها. فكل رهاب هستيري يرجع في أصله إلى حصر طفلي ويكون امتداداً له، حتى وإن كان له مضمون مغاير وتعيّن أن يُسمّى باسم مغاير. ولا تختلف الإصابتان فيما بينهما إلا من منظور آلية تكوّنهما. فلدى الراشد لا يكفي، كيما يتحول الليبيدو إلى حصر، أن يبقى هذا الليبيدو، من حيث هو رغبة متأججة، غير مستثمر بصورة مؤقتة. ذلك أن الراشد تعلّم منذ زمن بعيد كيف يضبط الليبيدو عنده أو يستثمره بطريقة مغايرة. لكن متى ما ارتبط الليبيدو بحالة نفسية أصابها الكبت، نشأ موقف مماثل للموقف الذي نلقاه لدى الطفل الذي لا يعرف كيف يميّز بعد بين الشعور واللاشعور. وهذا النكوص

نحو الرهاب الطفلي يمدّ الليبدو بوسيلة موائمة كيما يتحول إلى حصر. وتذكرون أننا كنا أطلنا في الكلام عن الكبت، لكننا كنا نضع نصب أعيننا على الدوام مصير الفكرة المرشحة للكبت، وهذا بطبيعة الحال لأن هذا المصير أسهل على الإدراك والملاحظة وأيسر في العرض. أما مصير الانفعال المرتبط بالفكرة المكبوتة فلم نوله اهتماماً، وها نحن ذا نعلم الآن فقط أن المصير الأول لهذا الانفعال هو تحوله إلى حصر، أي ما كان نوعه، في ظروف عادية سوية. وتحول الانفعال على هذا النحو هو أهم جانب على الإطلاق في سيرورة الكبت. وليس من بالغ اليسر الكلام عنه، على اعتبار أننا لا نستطيع أن نؤكد وجود انفعالات لاشعورية بمثل ما نؤكد وجود أفكار وتمثلات لاشعورية. فالتمثل، سواء أكان شعورياً أم لاشعورياً، يبقى كما هو إلى حدّ كبير؛ وبوسعنا أن نبين بوضوح ما يناظر تمثلاً لاشعورياً. أما الانفعال فعملية تصريفية، ومن ثم إن الحكم عليه لا بد أن يكون مختلفاً عن الحكم على تمثّل من التمثلات. وما لم نحلّل ونوضّح إلى أبعد مدى مقدماتنا وفروضنا بصدد السيرورات النفسية، فلن يكون في مقدورنا أن نبين ما يناظر الانفعال في اللاشعور. على أن هذا عمل لا نستطيع أن نقوم به هنا. لكننا نريد على أي حال أن يقرّ في أذهاننا ذلك الانطباع الذي ظفرنا به، وهو أن تمخّض الحصر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنسق اللاشعور.

قلت إن التحول إلى حصر، أو بتعبير أدقّ التصريف في شكل حصر، هو المصير الأول المقيّض للبيدو الذي يتعرّض للكبت. وعليّ الآن أن أضيف القول إن هذا ليس مصيره الأوحّد ولا النهائي. فالأعصبة تترافق بسيرورات من شأنها أن تعيق تمخّض الحصر، وقد تفلح في إدراك غايتها بطرق شتى. ففي الأربة، مثلاً، تميّز بجلاء طورين اثنين في السيرورة العصائية. الأول هو طور كبت الليبدو وتحويله إلى حصر مرتبط بخطر خارجي. وفي الطور الثاني تُتخذ جميع الاحتياطات والضمانات التي من شأنها الحؤول دون الاتصال بهذا الخطر الذي يُعامل وكأنه واقع خارجي. ويكون الكبت في هذه الحال بمثابة محاولة يقوم بها الأنا للهرب من الليبدو إرهاباً منه بأنه يشكل خطراً عليه. ومن الممكن أن نشبّه الرهاب بالتحصّن في حصن للوقاية من خطر خارجي يكون قد ناب في هذه

الحال مناب الليبدو المخوَّف. وضعف النظام الدفاعي المستخدم في الأربة يكمن بطبيعة الحال في واقع أن هذا الحصن، الذي لا تمكن مهاجمته من خارج، ليس منيعاً من داخل. فإسقاط الخطر الذي يمثله الليبدو على الخارج لا يمكن أبداً أن ينجح نجاحاً كاملاً. ولهذا تصطنع الأعصبة الأخرى أنظمة دفاعية مغايرة ضد احتمال تمخُّص الحصر. وهذا باب بالغ الطرافة في علم نفس الأعصبة. على أننا لا نستطيع، ويا للأسف، أن نطرقه هنا، لأنه قد يشطُّ بنا بعيداً، وبخاصة أن فهمه يقتضي توفر معارف خاصة معقّمة. وليس لي إلا أن أضيف بضع كلمات إلى ما قلت: فقد سبق لي أن حدّثكم عن «التوظيف المضاد» الذي يلجأ إليه الأنا في أثناء الكبت والذي لا خيار له إلا أن يغذّيه باستمرار كيما يدوم الكبت. والحال أن هذا التوظيف المضاد هو ما تقع عليه مهمة تجنيد مختلف الوسائل الدفاعية للوقاية من تمخُّص الحصر عقب الكبت.

لنعد أدراجنا إلى الأربة. أعتقد أنني أوضحت لكم أنه لا يكفي أن نسعى فقط إلى تفسير مضمونها، وأن نهتم فقط بمعرفة لماذا يغدو هذا الشيء أو ذاك، وهذا الموقف أو ذاك، هو موضوع الرهاب. فمضمون الرهاب له بالنسبة إلى الرهاب نفس الدلالة التي للواجهة الظاهرية للحلم بالنسبة إلى الحلم نفسه. ويمكننا أن نسلّم، بعد أخذ التقييدات الضرورية بعين الاعتبار، بأن بعض مضامين الأربة صالحة بوجه خاص لأن تغدو بحكم الوراثة السلالية، كما أوضح ستانلي هال، مواضيع حصرية. وتلقى هذه الفرضية ما يؤيدها في كون الكثير من المواضيع الحصرية لا تستطيع أن تقيم مع الخطر إلا علاقات رمزية خالصة.

هكذا تأتي لنا أن ندرك المكانة المركزية حقاً التي تشغلها مشكلة الحصر في علم نفس الأعصبة. وقد عرفنا أيضاً الوسائج الوثيقة التي تربط تمخُّص الحصر بصروف مصائر الليبدو وبنسق اللاشعور. غير أن تصورنا لا يزال يشكو من ثغرة: فمع أنه من الصعب المماراة في أن الحصر الواقعي المنشأ يجب أن يعتبر تظاهراً لغرائز المحافظة على الأنا، فإننا لا ندري كيف نربط بين هذه الواقعة وبين ما نعرف.

المحاضرة السادسة والعشرون

نظرية الليبيدو والنرجسية

سيداتي سادتي، لقد كان علينا في أكثر من مرة، وإلى عهد قريب أيضاً، أن نميّز بين الدوافع الغريزية الأنوية والدوافع الغريزية الجنسية. فقد أظهر لنا الكبت بادئ ذي بدء أنه من الممكن أن يقوم بين كلا النوعين تعارض ينتهي بهزيمة سافرة للدوافع الغريزية الجنسية، فترغم على التماس الإشباع بطرق ملتوية نكوصية. ذلك أن هذه الدوافع شמוש غير قابلة للترويض في الحقيقة، وهي تجد في شموستها بالذات تعويضاً عن هزيمتها. ورأينا بعد ذلك أن هاتين الفئتين من الدوافع الغريزية تسلكان مسلكاً مختلفاً حيال تلك المربية الكبرى التي هي الضرورة، فيسير تطور كل فئة منها في طريق مغاير، وتعتقد مع مبدأ الواقع علاقات متباينة. ولاح لنا أخيراً أننا استطعنا أن نتحقق من أن الدوافع الغريزية الجنسية أوثق ارتباطاً من الدوافع الغريزية الأنوية بالحالة الانفعالية كما تتمثل بالحصر؛ وهذه نتيجة تبدو وكأنها لا تزال ناقصة، غير مكتملة، في نقطة واحدة هامة. وعليه سنسوق تأييداً لهذه النتيجة واقعة جديدة بالملاحظة، وهي أن عدم إشباع الجوع والعطش، وهما من أكثر غرائز البقاء بدائية، لا يتمخض أبداً عن تحول هاتين الغريزتين إلى حصر، على حين أننا نعلم أن تحول الليبيدو غير المشبع إلى حصر ظاهرة من الظواهر الشائعة التي تلاحظ بكثرة غالبية.

لنا، إذاً، حق مشروع في التمييز بين الدوافع الغريزية الأنوية والدوافع الغريزية الجنسية. ونحن نستمد هذا الحق من وجود الحياة الجنسية بصفتها فاعلية خاصة للفرد. والسؤال الوحيد الذي يمكن أن يُطرح علينا هو مدى ما نعزوه إلى هذا التمييز من أهمية وعمق. لكننا لن نتمكن من الإجابة عن هذا السؤال إلا بعد أن نبين الفوارق في السلوك بين الدوافع الغريزية الجنسية، في تظاهراتها الجسمية

والنفسانية، وبين الدوافع الغريزية الأخرى التي نعارضها بها، وإلا بعد أن تقرّ في أذهاننا أهمية النتائج التي تترتب على هذه الفروق. ولا نملك بطبيعة الحال أي سبب يحملنا على القول بوجود فارق نوعي - يصعب بالأصل تصوّره - بين هاتين المجموعتين من الدوافع الغريزية. فكلتاها لا تبديان لنا إلا من حيث أنهما محض تسمية لمصادر الطاقة لدى الفرد؛ وأما مسألة معرفة ما إذا كانت هاتان المجموعتان تؤلفان في جوهرهما شيئاً واحداً أو ما إذا كان بينهما فارق نوعي، وعلى فرض أنهما تؤلفان شيئاً واحداً فمتى انفصلت واحدهما عن الأخرى، نقول: أما هذه المسألة فيمكن ويجب أن تُناقش على أساس الوقائع التي تمدّنا بها البيولوجيا، وليس على أساس مفاهيم مجردة. ومعارفنا بصدد هذه النقطة لا تزال غير كافية؛ وحتى لو كانت أكثر مما هي عليه فليس لنا أن نشغل أنفسنا بهذه المسألة التي لا صلة لها بأبحاثنا التحليلية النفسية.

ولن نجني كبير فائدة بالطبع إذا ما ألحنا، مع يونغ، على الوحدة الأصلية لجميع الدوافع الغريزية وأطلقنا اسم «الليبدو» على الطاقة التي تتظاهر في كل واحد منها. فيما أنه يتعذر علينا، كيفما تحايّلنا، أن نقصي الوظيفة الجنسية عن الحياة النفسية، فسنرانا ملزمين في هذه الحال بأن نتكلم عن لبيدو جنسي وليبدو لاجنسي. إذاً فمن الحق أن نحفظ باصطلاح الليبدو للدوافع الغريزية الجنسية حصراً، وبهذا المعنى وحده استخدمناه ونستخدمه دائماً.

أعتقد إذاً أن مسألة معرفة إلى أي حدّ يخلق بنا أن نذهب في فصلنا، المبرّر بلا جدال، بين الدوافع الغريزية الجنسية وغرائز البقاء ليست على جانب كبير من الأهمية للتحليل النفسي. وهذا الأخير لا يملك أصلاً من أهلية حلّ هذه المسألة. غير أن علم الأحياء يمدّنا مع ذلك ببعض القرائن التي تبيح لنا الافتراض بأن لهذا التمييز دلالة بليغة. وبالفعل، إن الجنسية هي الوظيفة الوحيدة من بين وظائف الجهاز العضوي الحيّ التي تتجاوز الفرد وتكفل ارتباطه بنوعه. ولا يشقّ علينا أن ندرك أن أداء هذه الوظيفة لا يعود على الفرد دواماً بمثل الفائدة التي يعود بها عليه أداء وظائفه الأخرى، بل يخلق له، على العكس، ولقاء لذة مسرفة الشدة عادة، أخطاراً تهدد حياته، وقد تقضي عليها في بعض الأحيان. ثم إنه من

المرجح، فضلاً عن ذلك، أن ثمة سيرورات أيضية^(١) خاصة، متميزة عن كل ما عداها من السيرورات، تكفل أن يتم نقل شطر من حياة الفرد إلى ذريته في شكل استعداد وراثي. وأخيراً، إن الكائن الفرد، الذي يرى إلى ذاته على أنه هو الأساس والجوهر ولا يرى في جنسيته سوى وسيلة للإشباع بين جملة من الوسائل الأخرى، لا يعدو أن يكون، من وجهة النظر البيولوجية، حادثاً عارضاً في سلسلة من الأجيال، استطالة سريعة البلى لبلازما رُشيمية^(٢) غير قابلة للموات افتراضياً، مالكاً مؤقتاً لوديعة مقيّض لها أن تبقى وتدوم من بعد فثائه.

غير أن التفسير التحليلي النفسي للأعصبة ليس بحاجة إلى مثل الاعتبارات البعيدة المدى للغاية. وقد أمدنا الفحص المنفصل للدوافع الغريزية الجنسية وللدوافع الغريزية الأنوية بوسيلة لفهم الأعصبة التحويلية، فأمكن لنا بالتالي أن نردّها إلى الصراع بين الدوافع الغريزية الجنسية وغرائز البقاء، أو، بتعبير بيولوجي، وإن يكن أبعد عن الدقة، إلى الصراع بين الأنا، بوصفه كائناً فرداً ومستقلاً، وبين الأنا منظوراً إليه على أنه عضو في سلسلة من الأجيال. وثمة أكثر من داع للاعتقاد بأن هذه الازدواجية لا وجود لها إلا عند الإنسان، ومن ثم جاز أن يكون العصاب هو بمثابة امتياز له على جميع الحيوانات. ويبدو أن التطور المفرط لليبدو عنده، وما يستتبعه من غنى وتنوع في حياته النفسية، قد خلقا الشروط الموائمة لظهور مثل ذلك الصراع. ومن الواضح أن هذه الشروط هي عين الشروط التي أتاحت للإنسان أن يحقق تقدماً كبيراً خلف وراءه بأشواط ما كان مشتركاً بينه وبين سائر الحيوانات، بحيث أن استعداده للعصاب لا يعدو أن يكون الوجه الآخر لقدراته وملكاته الإنسانية المحضة. لكن دعونا من هذه التأملات التي ليس من شأنها إلا أن تبعدنا عن مهمتنا المباشرة.

لقد مضينا في بحثنا حتى الآن مصادرنا على إمكانية التمييز بين الدوافع

١ - نسبة إلى الأيض: *Métabolisme* التحول الغذائي، أي قوة التجدد والدثور والبناء والهدم في الكائن الحي. «٤٣».

٢ - البلازما الرُشيمية أو البروتوبلازما: المادة الحية الأساسية أو الهولي الأولية في الخلية البشرية والحيوانية والنباتية. «٤٥».

الغريزية الأنوية والدوافع الغريزية الجنسية تبعاً لتظاهر كل مجموعة منها. وقد أمكننا أن نقيم هذا التمييز بلا صعوبة في ما يتصل بالأعصبة التحويلية. وأطلقنا اسم «الليبيدو» على ما يوظفه الأنا من طاقة يرسم مواضيع نوازعه الجنسية، واسم «المصلحة» على كل توظيفات الطاقة الأخرى التي يكمن مصدرها في دوافع غريزة البقاء. وباقتفائنا أثر جميع توظيفات الليبيدو هذه وتحولاتها ومصيرها النهائي، أمكن لنا أن نكون فكرة أولى عن كيفية عمل القوى النفسية. وقد زوّدتنا الأعصبة التحويلية من هذا المنظور بأنسب المواد. غير أن الأنا نفسه، والتنظيمات المختلفة التي يتألف منها، وبنية هذه التنظيمات وطريقة عملها، كل ذلك بقي خافياً علينا، ولم يكن في مقدورنا إلا أن نفترض أن تحليل اضطرابات عصابية أخرى هو وحده الذي من شأنه أن ينير لنا هذه المسائل.

هكذا بدأنا من وقت مبكر جداً بسحب التصورات التحليلية النفسية على تلك الإصابات الأخرى. فمنذ عام ١٩٠٨ تقدم ك. إبراهيم، بعد تداول في الرأي بيني وبينه، بأطروحة مؤداها أن الخاصية الرئيسية للخليل المبكر (المدرج في عداد الأعصبة) هي أن المواضيع في هذا المرض غير مشحونة بالليبيدو (لا يجوز أن تغفل عن الفروق النفسية الجنسية بين الهستيريا وبين الخليل المبكر). لكن إلام يؤول ليبيدو المخبولين ما دام ينصرف عن مواضيعه؟ إن إبراهيم لم يتردد في أن يجيب عن هذا السؤال بأن الليبيدو يرتدّ عندئذ نحو الأنا، وأن هذا الارتداد المنعكس لليبيدو نحو الأنا هو مصدر هذاء العظمة في الخليل المبكر^(٣). ومن الممكن أصلاً أن تقارن هذاء العظمة هذا بما نلاحظه في الحياة الحبيّة من مغالة في القيمة الجنسية للموضوع. وهكذا تأتّى لنا لأول مرة أن نفهم سمة تتسم بها إصابة ذهانية من خلال مقارنتها بما يحدث في الحياة الحبيّة السوية.

وأقولها لكم بلا تواني: إن تصورات أبراهام الأولى هذه احتفظ بها التحليل النفسي، فصارت أساس موقفنا من الأمراض الذهانية. وهكذا ألفنا رويداً رويداً فكرة أن الليبيدو، الذي نلفاه مثبتاً على مواضيع معينة والذي هو تعبير عن ميل

٣ - الإحالة هنا إلى مقال كارل أبراهام: الفروق الجنسية النفسية بين الهستيريا والخليل المبكر (١٩٠٨).

هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

إلى الوصول إلى إشباع عن طريق هذه المواضيع، يمكن أيضاً أن ينصرف عنها وأن يستبدلها بالأنثى. وقد عكفنا عندئذ على إعطاء هذه الفكرة شكلاً أدنى فأدنى إلى الكمال بما أقمناه من روابط منطقية بين عناصرها المكوّنة. وكلمة **الترجسية** التي نستخدمها للإشارة إلى انتقال الليبيدو هذا مقتبسة عن انحراف كان ب. ناكه Nacke^(٤) قد وصفه، وفيه يصب الفرد الراشد على جسده بالذات الحب الذي يُعقد في العادة على موضوع جنسي خارجي.

وعلى الأثر خطر لنا أنه ما دام الليبيدو قادراً على أن تثبت على هذا النحو على جسد الفرد المعني وعلى شخصه بالذات بدلاً من أن يتعلق بموضوع، فذلك لا يمكن بكل تأكيد أن يكون ظاهرة استثنائية وغير ذات دلالة، وأنه من المرجح بالأحرى أن **الترجسية** هي الحالة العامة والبدائية التي عنها تمخّض في زمن لاحق الحب الموضوعاني، دون أن يستتبع ظهوره زوال **الترجسية**. وبناء على ما كنا نعلم عن تطور الليبيدو الموضوعاني، تذكرنا أن الكثير من الدوافع العريضة الجنسية تتلقى في بادئ الأمر إشباعاً أسميناه **إيروسياً ذاتياً**، أي إشباعاً مصدره جسد الشخص ذاته، وأن النزوع إلى **الإيروسية الذاتية** هو ما يفسّر تأخر الجنسية في التكيف مع مبدأ الواقع كما يتم تلقّنه عن طريق التربية. وهكذا ظهر أن **الإيروسية الذاتية** هي النشاط الجنسي للمرحلة **الترجسية** في تموضع الليبيدو.

خلاصة القول: إننا كوّننا عن العلاقات بين الليبيدو الأنوي والليبيدو الموضوعاني فكرة أستطيع توضيحها لكم بتشبيه مقتبس من علم الحيوان. فأنتم تعرفون، ولا بدّ، تلك الكائنات الحية البدائية المؤلفة من كرة صغيرة من مادة وذقية عديمة التمايز تقريباً. هذه الكائنات تبرز استطلاات تسمى بالشوى الكاذبة Pseudopodes، تفرغ فيها مادتها الجسمية. لكن في مقدورها أيضاً أن تسحب هذه الاستطلاات وأن تعود فتتكور من جديد على نفسها. والحال أننا

٤ - بول ناكه: طبيب نفسي وعالم إجرام ألماني (١٨٥١ - ١٩١٣). كان أول من أدخل إلى علم النفس مفهوم **الترجسية** عام ١٨٨٩. من مؤلفاته: **الجنسية المثلية في البلدان اللاتينية و الجريمة والجنون لدى المرأة**. والإحالة هنا إلى بحث له بعنوان: **فحص نقدي لموضوع الجنسية السوية والمرضية** (١٨٩٩).

نشبه إبراز هذه الاستطالات بأشرباب الليبيدو نحو المواضيع، وإن بقيت كئلته الرئسية أسيرة الأنا، ونسلم بأن الليبيدو الأنوي يتحول بسهولة في الظروف العادية السوية إلى ليبيدو موضوعاني، قابل بدوره للارتداد من جديد إلى الأنا.

إن هذه التصورات تتيح لنا أن نفسير، أو بتعبير أكثر تواضعاً أن نصف بلغة نظرية الليبيدو عدداً كبيراً من الحالات النفسية التي ينبغي أن نعتبرها مظاهر من الحياة السوية: كالسلوك النفسي في الحب، وفي أثناء الأمراض العضوية، وفي حالة النوم. وفيما يتصل بهذه الحالة الأخيرة، كنا قد سلمنا بأنها تقوم على انسحاب من العالم الخارجي وعلى الاستسلام للرغبة في النوم. وقلنا إن جميع الأنشطة النفسية الليلية التي تتظاهر في الحلم تعمل في خدمة هذه الرغبة، وأنها متحددة ومحكومة بدوافع أنوية. فإذا انطلقنا هذه المرة من نظرية الليبيدو، جاز لنا أن نستنتج أن النوم حالة تنسحب فيها الطاقات كافة، الليبيدوية منها والأنوية على حدّ سواء، من المواضيع التي كانت متعلقة بها وتنكفي باتجاه الأنا. أفلا ترون أن هذا التصور يسلط ضوءاً جديداً على الاستجمام الذي يوفره لنا النوم، وكذلك على طبيعة التعب؟ وبذلك تكتمل من وجهة النظر النفسية صورة الانعزال الهائى في أثناء الحياة داخل الرحم، وهي الصورة التي يستحضرها النائم أمام أنظارنا كل ليلة. ففي النوم تتكرر الحالة الأولية لتوزيع الليبيدو، أي حالة الرجسية المطلقة التي يعيش في ظلها الليبيدو ومصحة الأنا متحدنين وغير متمايزين في الأنا المكتفي بذاته.

هنا ينفسح المجال لإبداء ملاحظتين. أولاً: كيف نميّز الرجسية من الأنانية؟ في تقديري أن الرجسية هي التكملة الليبيدوية للأنانية. فعندما نتكلم عن الأنانية لا يذهب بنا الفكر إلا إلى ما ينفع الفرد؛ لكننا إذا ما تكلمنا عن الرجسية أخذنا في اعتبارنا أيضاً إشباعه الليبيدوي. ومن الممكن، من الناحية العملية، المضي بهذا التمييز بين الرجسية والأنانية إلى مسافة غير يسيرة. فقد يكون الفرد ذا أنانية مطلقة من دون أن يكفّ مع هذا عن توظيف كميات كبيرة من الطاقة الليبيدوية في مواضيع أخرى، وذلك بقدر ما يتمشى الإشباع الليبيدوي المتأتي من هذه المواضيع مع حاجات الأنا. وفي هذه الحال تتخذ الأنانية من الاحتياطات ما

يحول دون وقوع ضرر على الأنا من جراء طلب تلك المواضيع. وقد يكون الفرد أنانياً وعلى درجة بارزة جداً من النرجسية في الوقت نفسه، أي يكون في مستطاعه الاستغناء بسهولة عن المواضيع الجنسية سواء أمن ناحية الإشباع الجنسي المباشر، أم من ناحية تلك الميول السامية المشتقة من الحاجة الجنسية والتي درج الناس على تسميتها بـ«الحب» توكيداً على التباين بينها وبين «الشهوانية» الخالصة. وفي جميع هذه الأحوال تبدو الأنانية وكأنها العنصر الثابت المتعالي على أي مناقضة، بينما النرجسية، على العكس، هي العنصر المتغير. أما نقيض الأنانية، أي الغيرية، فلا تتطابق مفهوماً مع التوظيف الموضوعاني الليبيدي، بل إن ما يميّزها هو الامتناع عن التماس إشباع جنسي. وفي الحالة الحبية المطلقة وحدها تتطابق الغيرية مع التوظيف الموضوعاني الليبيدي. فالموضوع الجنسي يجذب إليه في العادة جزءاً من نرجسية الأنا، ومن هنا ينشأ ما يمكننا أن نسميه بـ«المغالاة في القيمة الجنسية للموضوع». فإذا ما اقترن ذلك بالانتقال الغيري للأنانية باتجاه الموضوع الجنسي، صار هذا الموضوع على درجة بالغة من القوة؛ فنستطيع أن نقول عندئذ إنه امتصّ الأنا.

ولعلكم تجدون، بعد هذا العرض الجافّ والعويص لكشوفات العلم، بعض الترفيه فيما لو أسمعتمكم وصفاً شعرياً للتعارض الاقتصادي القائم بين النرجسية والحالة الحبيّة. وأنا أقبسه من الديوان الغربي والشرقي لغوته:

زليخة

الشعوب والعبيد والغالبون اجتمع رأيهم

في كل العصور

على أن السعادة القصوى لأبناء الأرض

لا تكمن إلا في شخص الإنسان.

فكل حياة يمكن أن تعاش

ما دام المرء يعرف نفسه.



وليس ثمة شيء يضيع
ما دام الإنسان على ما هو عليه.

حاتم

هذا ممكن! وذلك هو الرأي الشائع.
لكن غير هذا الرأي أرى.
فكل سعادة الأرض
أراها مجتمعة في زليخة وحدها.
فبقدر ما تجزل لي العطاء من نفسها
يعلو شأنني في نظر نفسي.
وإن أشاحت عني
هويت إلى الدرك الأسفل في نظر نفسي.
وهكذا لا يعود لحاتم من وجود.
لكني أعرف ما أنا صانع في هذه الحال:
سأجسد على عجل في شخص ذلك المحظوظ
الذي ستغدق عليه قبلاتها^(٥)

أما ملاحظتي الثانية فتأتي لتكمّل نظرية الحلم. فنحن لا نستطيع أن نفسّر
تكوين الحلم ما لم نسلّم، علاوة على كل شيء، بأن اللا شعور المكبوت صار
مستقلاً إلى حدّ ما عن الأنا، فبات لا يخضع للرغبة في النوم، بل يبقى محافظاً

٥ - الجدير بالذكر أن لهذه القصيدة مقطعاً سادساً لم يرد في نص فرويد:

لست أريد بكل تأكيد أن أكون حاحاماً

فهذه فكرة لا تخامرني بحال

بل الفردوسي أو المتنبي

أو على أي حال إمبراطور

هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

على توظيفاته، في حين أن جميع الطاقات الأخرى الموضوعة في تصرف الأنا، والموظفة في مواضيع، تكون قد انسحبت لصالح النوم. عندئذ فقط يتسنى لنا أن نفهم كيف يستطيع هذا اللاشعور أن يَغتَنِم فرصة انتفاء الرقابة أو ضعفها أثناء النوم ليستولي على البقايا النهارية وليشكل، من المواد التي تَمَدُّ بها، رغبة حلمية محظورة. ومن جهة أخرى، من المحتمل أن تستمدَّ البقايا النهارية، جزئياً على الأقل، قدرتها على المقاومة من الليبدو الذي استأثر به النوم واحتكره، لما بينها وبين اللاشعور المكبوت من صلة قائمة مسبقاً. وهذه خاصية دينامية هامة لا بدّ أن ندخلها في تصوُّرنا عن تكوين الحلم.

إن مرضاً عضوياً أو تهيجاً مؤلماً أو التهاب عضو من الأعضاء يخلق في نفس الفرد حالة تكون عاقبتها الجليّة انفصام الليبدو عن مواضيعه. وهذا الليبدو المنسحب من المواضيع ينكفي نحو الأنا ليتعلق بقوة بالجزء المريض من الجسم. بل يسعنا أن نجترئ على التوكيد بأن انفصام الليبدو عن مواضيعه ألفت للنظر في هذه الأحوال من انفصام الاهتمامات الأنانية عن العالم الخارجي. ويبدو أن هذا يفتح لنا الطريق إلى فهم هاجس المرض الذي يصبح فيه عضو من أعضاء الجسم مصدر همٍّ للأنا، وهذا من دون أن يكون به من مرض حقاً. لكنني أقاوم الإغراء بالمضنيّ قديماً في هذا السبيل، أو بتحليل مواقف أخرى تتيح لنا فرضية انكفاء الليبدو الموضوعاني نحو الأنا إمكانية فهمها أو تصورها عياناً: ذلك أنني أتلهف إلى الردّ على اعتراضين أعرف أنهما يشغلان فكركم. فأنتم تريدون أن تعرفوا، أولاً، لماذا أصرّ، وأنا أتكلّم عن النوم والمرض وغيرهما من الأوضاع المشابهة، على التمييز بين الليبدو والمصلحة، بين الدوافع الغريزية الجنسية والدوافع الغريزية الأنوية، في حين أنه من الممكن تأويل مشاهداتنا هذه تأويلاً مرضياً فيما لو سلّمنا بوجود طاقة واحدة، وحيدة، حرة في حركتها، تلقي بنفسها تارة على الموضوع وطوراً على الأنا، وتضع نفسها تارة في خدمة دافع من الدوافع الغريزية وطوراً في خدمة آخر. ثم إنه يدهشكم ثانياً، ولا ريب، أن تروني أعالج انفصام الليبدو عن مواضيعه كما لو أنه مصدر لحالة مرضية، مع أن تحولات الليبدو الموضوعاني إلى ليبدو أنوي، أو بصورة أعمّ إلى طاقة أنوية،

هي من السيورورات السوية للدينامية النفسية، وهي تتكرر كل يوم وكل ليلة. وجوابي هو كالآتي. إن اعتراضكم الأول يبدو في محله ظاهرياً. فدراسة حالة النوم والمرض والحالة الحبية ما كان لها بعد ذاتها في أرجح الظن أن تقودنا أبداً إلى التمييز بين لبيدو أنوي وليبيدو موضوعاني، أو بين الليبيدو والمصلحة. لكنكم تنسون الأبحاث التي اعتمدناها منطلقاً لنا، والتي على ضوءها ننظر الآن في المواقف النفسية التي نحن بصدد مناقشتها. فمشاهدتنا للصراع الذي منه تتولد الأعصاب التحولية هي التي علمتنا أن نميز بين الليبيدو والمصلحة، وبالتالي بين الدوافع الغريزية الجنسية والدوافع الغريزية إلى المحافظة على الذات. وليس لنا بعد الآن أن نتخلى عن هذا التمييز. وقد لاح لنا أن إمكانية تحول الليبيدو الموضوعاني إلى لبيدو أنوي، وبالتالي ضرورة أخذ وجود الليبيدو الأنوي بعين الاعتبار، هي التفسير الوحيد المعقول للغز الأعصاب النرجسية، ومنها مثلاً الخجل المبكر، وكذلك وجوه التشابه والاختلاف بين هذه الأعصاب وبين الهستيريا والعصاب الوسواسي. ونحن نطبق الآن على المرض والنوم والحالة الحبية ما ثبتت لنا صحته ثبوتاً لا يرقى إليه الشك في حالات أخرى. والفرص الوحيد الذي لا ينبع من تجربتنا التحليلية تؤكدنا بأن الليبيدو يبقى هو الليبيدو، سواء أعلق بمواضيع أم بأنا الفرد نفسه، وأنه لا يتحول أبداً إلى مصلحة أنوية أو بالعكس؛ غير أن هذا الفرض لا يعدو أن يكون صيغة أخرى من التمييز، الذي سبق أن أخضعناه لتقييم نقدي، بين الدوافع الغريزية الجنسية والدوافع الغريزية الأنوية، وهو التمييز الذي عقدنا العزم، لأسباب تتعلق بمنهج البحث، أن نتمسك به حتى يظهر - احتمالاً - ما يدحضه.

واعترضكم الثاني له بدوره ما يبرره، لكنه موجه في وجهة خاطئة. فلا ريب في أن ارتداد الليبيدو نحو الأنا بعد انفصامه عن المواضيع ليس سبباً مباشراً للمرض؛ أفلا ترون هذه الظاهرة تتكرر في كل مرة قبل النوم، ثم تسلك مساراً عكسياً بعد اليقظة؟ كذلك يسحب الحيوان الرشيبي المجري استطلاته ليعود إلى إبرازها عند أول سانحة. غير أن الأمر يختلف بين الاختلاف حين ترغم سيورورة محددة، على جانب كبير من القوة، الليبيدو على الانفصام عن مواضيعه.

فاللييدو، الذي يصبح في هذه الحال نرجسياً، لا يعود في مقدوره أن يسلك من جديد الطريق الذي يفضي إلى المواضيع، وهذا النقص في حركية اللييدو هو الذي يغدو مسبباً للمرض. فلنأخذ تراكماً اللييدو النرجسي لا يعود يطاق إذا ما تجاوز حداً معلوماً. ومن المباح لنا أن نفترض أن هذا التوظيف الموضوعاني ما كان ليحدث لولا أن الأنا وجد نفسه مكرهاً على أن يبعد عنه اللييدو المتراكم فيه تحاشياً للعواقب المرضية التي لا بد أن تنجم عن هذا التراكم. ولو كان في خطتنا أن ندرس بمزيد من التفصيل الخبل المبكر، لبيّنت لكم أن السيرة التي تقطع اللييدو عن مواضيعه ثم تسدّ عليه طريق العودة إليها إذا ما تراءى له أن يؤوب إليها، تقترب غاية الاقتراب من سيرة الكبت وينبغي أن تُعتبر نظيرتها. ولن يساوركم شعور بأنكم تطؤون أرضاً جديدة لو ذكرت لكم أن شروط هذه السيرة تكاد تكون مماثلة، بحسب ما بات متوفراً لنا من المعرفة اليوم، لشروط سيرة الكبت. فالصراع يبدو واحداً ويدور بين القوى عينها. ولئن اختلف مآله عما نشاهده في الهستيريا مثلاً، فلا يمكن أن يكون مردّ ذلك إلا إلى اختلاف في الاستعداد. فنقطة الضعف في تطور اللييدو - وهي التي تتيح، كما لعلكم تذكرون، إمكانية تكوين الأعراض - تقع لدى المرضى بالخبل المبكر في مرحلة أخرى، هي في أرجح الظن مرحلة النرجسية الأولية التي يرتدّ إليها الخبل المبكر في آخر أطواره. ومما يستلفت النظر أن نكون مضطرين إلى التسليم، فيما يتصل بالأعصاب النرجسية جميعاً، بوجود مراكز لتثبيت اللييدو تقع في مراحل من التطور أبكر بكثير مما في الهستيريا أو العصاب الوسواسي. لكنكم تعلمون من قبل أن الأفكار التي خرجنا بها من دراسة الأعصاب التحويلية تسمح لنا أيضاً بأن نهتدي إلى طريقنا في الأعصاب النرجسية التي هي أشدّ تعقيداً وصعوبة من الناحية العملية. والحق أن السمات المشتركة بين هذين النوعين من الأعصاب عديدة للغاية، والفينومينولوجيا في كلتا الحالتين واحدة في الجوهر. ومن ثم يسهل عليكم أن تدرّكوا مدى الصعوبة، إن لم يكن الاستحالة، التي لا بد أن يصطدم بها من يتصدى لتفسير هذه الأمراض التي تنتمي إلى حقل الطب النفسي، إن لم يكن مزوداً بالمعرفة التحليلية التي تمدّه بها دراسة الأعصاب التحويلية.

إن الصورة الأعراضية، البالغة التنوع أصلاً، للخبل المبكر لا تتألف فقط من الأعراض الناجمة عن انفصام الليبدو القسري عن مواضيعه وتراكمه، كليبدو نرجسي، في الأنا. بل ثمة ظاهرات أخرى تشغل حيزاً كبيراً، ذات صلة بجهود الليبدو للعودة إلى مواضيعه، ويمكن اعتبارها بالتالي محاولة للترميم أو لاسترداد الصحة والشفاء. بل إن هذه الأعراض الأخيرة هي أكثر أعراض هذا المرض ظهوراً وصخباً. وثمة شبه لا يمارى فيه بينها وبين أعراض الهستيريا، وعلى نحو أندر بينها وبين أعراض العصاب الوسواسي؛ ومع ذلك، إنها تختلف عن هذه وتلك من الوجوه كافة. ويبدو أن الليبدو، في ما يبذله من جهد للعودة إلى مواضيعه، أي إلى التمثلات الموضوعانية، يفلح حقاً في التعلق بها في الخبل المبكر، لكنه لا يمسك من هذه المواضيع إلا ظلالها، أعني التمثلات اللفظية المناظرة لها^(٦). ولا يسعني أن أذكر أكثر من ذلك هنا؛ لكنني أقدر أن مسلك الليبدو هذا، في صبوته إلى العودة إلى المواضيع، أتاح لنا أن ندرك الفارق الحقيقي الذي يقوم بين تمثل شعوري وتمثل لاشعوري.

هكذا أكون قد أدخلتكم إلى المجال الذي نرجو أن يحرز فيه البحث التحليلي تقدمه التالي. فمنذ أن ألفنا التعامل مع فكرة «ليبدو أنوي»، باتت الأعصبة النرجسية سهلة المأثى علينا. والمهمة التي تقع على عاتقنا بالتالي هي أن نجد تفسيراً دينامياً لهذه الإصابات المرضية، وأن نستكمل في الوقت نفسه معرفتنا بالحياة النفسية من خلال تعميق ما نعلمه عن الأنا. وعلم نفس الأنا، الذي نسعى إلى تشييده، لا بد أن ترسى أسسه لا على معطيات إدراكاتنا الذاتية، بل، كما في الليبدو، على تحليل اضطرابات الأنا وضروب تفككه. ومن المحتمل، بعد أن ننجز هذا العمل، أن نتضاءل في نظرنا قيمة المعلومات التي زوّدتنا بها دراسة الأعصبة التحويلية عن مصير الليبدو. غير أننا لم ننجز بعد من هذا العمل إلا

٦ - التمثل Representation: مصطلح اقتبسه فرويد من الفلسفة ومن علم النفس الكلاسيكي، ويعني به عادة الصورة، أي صورة الشيء في الذهن. وهو يميّز بين التمثل الشيفي أو الموضوعاني كما يؤثر أن يقول، وهو المتأني عن استحضار شكل الموضوع، وبين التمثل اللفظي، وهو الذي يتأني عن استحضار نغظه أو الاسم الدالّ عليه. «م».

شظراً يسيراً. فالأعصاب النرجسية لا تنصاع إلا على قلة وندرة للتقنية التي اعتمدناها في دراسة الأعصاب التحويلية، وسأوضح لكم السبب في ذلك عما قليل. والحق أننا كلما تقدمنا خطوة إلى الأمام في دراسة الأعصاب النرجسية انتصب أمامنا حاجز يوقف تقدمنا. وكنا قد اصطدنا في الأعصاب التحويلية أيضاً، على ما تذكرون، بحواجز من المقاومة، لكننا استطعنا في مجالها أن نذل العقبات الواحدة تلو الأخرى. أما في الأعصاب النرجسية فالمقاومة عاتية لا تفهر؛ وأقصى ما في مستطاعتنا أن نلقي نظرة فضول واستطلاع من فوق الحاجز لنرى ما يجري في الجانب الآخر. إذاً لا مناص من أن نستبدل طرائقنا التقنية المعهودة بأخرى غيرها، ولسنا ندري بعد إن كان التوفيق سيحالفنا في عملية الاستبدال هذه. وليست المواد هي ما يعوزنا فيما يتصل بهؤلاء المرضى؛ فهم يفصحون عن حالتهم بصور شتى، وإن لم يكن على الدوام في صورة أجوبة عن أسئلتنا. على أنه لا خيار لنا في الوقت الحاضر سوى أن نؤوّل تظاهرات مرضهم بالاعتماد على المفاهيم التي ظفروا بها من دراسة أعراض الأعصاب التحويلية. والتشابه على كل حال كبير بما فيه الكفاية ليعيننا على الوصول، في بادئ الأمر، إلى نتيجة إيجابية، ولكن من دون أن يكون في مقدورنا أن نتكهن بأن هذه التقنية قميئة بأن توصلنا إلى غاية مرادنا.

ثمة صعوبات أخرى تعترض سبيل تقدمنا بعد. فالأمراض النرجسية والأذهنة التي ترتبط بها لن تبوح بسرّها إلا لراصدين استكملوا تأهيلهم في مدرسة الدراسة التحليلية للأعصاب التحويلية. والحال أن أطباءنا النفسيين يجهلون التحليل النفسي، كما أننا لا نشاهد، نحن أنصار التحليل النفسي، إلا القليل من حالات الأمراض النفسية. والحق أننا بحاجة إلى جيل من أطباء الأمراض النفسية ممن يكونون قد مروا بمدرسة التحليل النفسي على سبيل العلم التمهيدي. وتبذل اليوم في أمريكا جهود من هذا القبيل، حيث يقوم أطباء نفسيون نابهون بتعريف تلامذتهم بالنظريات التحليلية النفسية، وحيث يعمل بعض مدراء المصحات العقلية، الخاصة والعامة، على ملاحظة مرضاهم على ضوء هذه النظريات. غير أننا أفلحنا، نحن أيضاً أحياناً، في إلقاء نظرة من فوق

الحاجز الرجسي^(٧)؛ وسأسرد لكم فيما يلي ما تسنى لنا أن نراه، على قلته. إن ذلك الشكل المرضي المسمى بالبارانويا، ذلك الجنون المطرد النسق والمزمن، لا يزال يشغل مركزاً متقللاً في المحاولات التصنيفية للطب النفسي الحالي. ومع ذلك، إن صلة قرباه بالخلل المبكر أكيدة لا جدال فيها. وقد أبحث لنفسي مرة أن أجمع بين البارانويا والخلل المبكر تحت تسمية مشتركة هي البارافرنيا^(٨). وتُصنف أشكال البارانويا بحسب مضمونها؛ ومنها هذاء العظمة، هذاء الاضطهاد، هذاء الشيق، هذاء الغيرة، إلخ. ونحن لا نتوقع محاولات للتفسير من جانب الطب النفسي. وسأذكر لكم بهذا الصدد، وعلى سبيل المثال (أقتر بالمناسبة أنه مثال يعود إلى عهد بعيد وقد فقد اليوم قدراً كبيراً من قيمته)، المحاولة التي بذلت لاستنتاج عرض من عرض آخر غيره، عن طريق عزو قدرة على المحاكمة العقلية إلى المريض: فالمريض الذي يداخله الاعتقاد، بفعل استعداد أولي، بأنه ضحية للاضطهاد، يستخلص من هذا الاضطهاد ما مؤداه أنه شخص ذو أهمية، وهذا ما يؤلّد لديه بالتالي هذاء العظمة. أما في تصورنا التحليلي فإن هذاء العظمة هو النتيجة المباشرة لتضخم الأنا بالكمية الكبيرة من الطاقة الليبدوية المنسحبة من المواضيع؛ فهو نرجسية ثانوية تطراً كما لو من جراء استيقاظ النرجسية الأولية التي هي النرجسية الطفلية المبكرة. غير أن ملاحظة لاحظتها في حالات هذاء الاضطهاد حملتني على سلوك اتجاه خاص. فقد كنت لاحظت أول الأمر أن المضطهد في الكثرة الغالبة من الحالات ينتمي إلى نفس جنس المضطهد. وكانت هذه الواقعة قابلة لتفسير بريء، لكن ظهر لنا من التمعن في دراسة بعض الحالات أن الشخص الذي كان المريض يحبه من نفس جنسه حباً جماً قبل مرضه هو عينه الذي يتحول إلى مضطهد له في نظره بعد مرضه. ومن الممكن أيضاً أن يتطور الموقف بفعل آلية الاستبدال، إذ ينوب مناب الشخص المحبوب، بفعل بعض

٧ - يقصد الحاجز الرجسي الذي ينصبه أنصار كل منهج - وهنا التحليل النفسي - في مواجهة المنهج المنافس - وهنا الطب النفسي التقليدي. «م».

٨ - البارافرنيا (= الجنون الهذائي): كان إميل كراپلن هو أول من نحت مفهوم البارافرنيا، وقد فسه فرويد عنه في بحثين أو ثلاثة له قبل أن يعدل عنه إلى مصطلح السيكرورفينا (الجنون الفضامي) الذي صاغه يوجين بولر والذي فرض نفسه في التداول بصورة نهائية إلى يومنا هذا. «م».

وجوه الشبه المعروفة، شخص آخر، وعلى سبيل المثال المعلم أو الرئيس محل الأب. وقد استخلصت من هذه التجارب، التي ما وnt تردد عدداً، ما مؤداه أن هذاء الاضطهاد Paranoia Persecutoria شكل مَرَضِي يدراً فيه الفرد عن نفسه حائة جنسية مثلية صارت على درجة لا تحتمل من القوة. أما تحول الحب إلى كراهية، وهو التحول الذي يمكن أن يغدو، كما هو معلوم، خطراً عظيماً على حياة الموضوع المحبوب والمكروه في آن معاً، فيناظر في هذه الحالات تحول الحائات اللييدوية إلى حصر، كنتيجة مطردة لسيرورة الكبت. وهاكم، على سبيل المثال أيضاً، آخر مشاهداتي في هذا المجال. فقد اضطر طبيب شاب إلى مغادرة مسقط رأسه لأنه توعد بالقتل ابن أحد الأساتذة في جامعة هذه المدينة، وكان إلى ذلك الحين أخلص أصدقائه. وقد صار يعزو إلى صديقه القديم هذا نيات جهنمية حقاً وقوة شيطانية. وقد اتهمه بكل ما أَلَمَ بأسرته من خطوب في السنوات الأخيرة، وبكل ما واجهه من متاعب عائلية واجتماعية. بل أكثر من ذلك، إذ إن الصديق الشرير المزعوم لم يقنع بكل ما أتاه من أذى، بل عمل أيضاً، مع والده الأستاذ، على إشعال نار الحرب وعلى استدعاء الروس إلى داخل حدود البلاد. وقد تعرض صاحبنا المريض ألف مرة للموت على حدّ زعمه، ورسخ في يقينه ألا سبيل إلى وضع حد للمصائب طراً إلا بموت المجرم الشرير. ومع ذلك، كان حبه القديم لهذا المجرم لا يزال على درجة بالغة من القوة، فلما سنحت له الفرصة ذات يوم لصرع عدوّه بطلقة من مسدس لم تطاوعه يده التي أصابها ما يشبه الشلل. وقد علمت، أثناء الأحاديث المقتضبة التي دارت بيني وبين المريض، أن صلات الصداقة بين الرجلين تعود إلى السنوات الأولى من المدرسة. ولمرة واحدة على الأقل تخطت هذه العلاقات حدود الصداقة: فقد تمخضت ليلة أمضيهاها معاً عن اتصال جنسي كامل بينهما. والحق أن مريضنا لم تساوره قط إزاء النساء مشاعر مشبوبة تتفق مع عمره وسحر شخصيته. وكان قد خطب فتاة جميلة وأنيقة، لكنها لما لاحظت فتور خطيبها نحوها فسخت الخطبة. وبعد ذلك بعدة سنوات تظاهر المرض لديه، على وجه التحديد في اليوم الذي أفلح فيه لأول مرة في إشباع امرأة اتصل بها إشباعاً تاماً. إذ لما عانقته هذه المرأة بعرفان للجميل

وباستسلام، أحس من فوره بألم غريب، فلكن أن ضربة سكين شطرت قحف رأسه. وقد وصف فيما بعد هذا الإحساس بقوله إنه لا يستطيع أن يشبّه إلا بما ينتاب المرء من إحساس حين تُحطّم جمجمته لتعرية مخه، كما هي الحال في تشريح الجثة أو حَجّ العظام وثقبها. وبما أن صديقه كان متخصصاً في التشريح الباثولوجي، فقد راح يكتشف رويداً رويداً أن هذا الصديق هو وحده من يستطيع أن يبعث إليه بتلك المرأة لتغويه. وابتداءً من تلك اللحظة تفتحت عيناه، وفهم أن كل ضروب الاضطهاد الأخرى التي يكابدها إنما هي من صنع صديقه القديم وكيده.

لكن كيف تحدث الأمور في الحالات التي لا يكون فيها المضطهد من نفس جنس المضطهد، والتي تطعن فيما يبدو في صحة تفسيرنا لهذا المرض باعتباره دفاعاً ضد ليبيدو جنسي مثلي؟ لقد تسنت لي الفرصة مؤخراً لفحص حالة من هذا النوع، فاستخلصت من التناقض الظاهري توكيداً لما أذهب إليه من تصور^(٩). إنها حالة فتاة كان يداخلها الاعتقاد بأن الرجل الذي جمعها وإياه لقاءان حميمان هو من يضطهدها، ولكنها كانت في بادئ الأمر قد صبتّ هذائها، في واقع الأمر، على امرأة يمكن اعتبارها بديلاً حلّ في ذهنها محلّ أمها. وهي لم تغلج في كفّ هذائها عن هذه المرأة وتحويله إلى الرجل إلا بعد لقاءها الثاني به. إذا، فشرط الجنس المثلل كان متحققاً من البداية في هذه الحالة، مثلما كان متحققاً في الحالة السابقة التي حدثتكم عنها. ولم تتعرض المريضة، في شكواها لمحاميها ولطبيبيها، بذكر لذلك الطور الأولي من جنونها، وهذا ما جعل الحالة في ظاهرها وكأنها تنقض تصوّرنا عن البارانونيا.

إن الاختيار الموضوعاني الجنسي المثلي يكون في بادئ الأمر أوثق صلة بالفرجسية من الاختيار الموضوعاني الجنسي الغيري. ولذا، إذا اقتضت الحال استبعاد حادثة جنسية مثلية أقوى وأعنف مما ينبغي، سهلت كل السهولة العودة إلى الفرجسية. ولم تتسنّ لي الفرصة حتى الآن لأحدثكم ملياً عن الأسس التي تقوم عليها الحياة الحبية، كما أتصورها، ويتعذر عليّ أن أسدّ هذه الثغرة هنا. وكل ما

٩ - عرض فرويد هذه الحالة في مقاله المنشور عام ١٩١٥ تحت عنوان: بيان بصدد حالة بارانونيا مناقضة للنظرية التحليلية النفسية. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.



بوسعي أن أذكره لكم هو أن الاختيار الموضوعاني، أي الخطوة التالية في تطور الليبدو، يمكن أن يتم وفق طرازين مختلفين: الطراز النرجسي، وفيه يتم استبدال أنا الشخص المعني بأنا شخص آخر يشبهه قدر الإمكان، والطراز الاتكالي، وفيه يقع الاختيار، كمواضيع لليبدو، على الأشخاص الذين صار الفرد لا يستغني عنهم لأنهم يعضدونه ويتكل عليهم أو لأنهم يكفلون إشباع حاجات حيوية أخرى عنده. وفي رأينا أن ميل الليبدو الجامح إلى اختيار موضوعه وفق الطراز النرجسي هو من جملة مكوّنات الاستعداد للجنسية المثلية السافرة.

لقد حدّثكم، كما تذكرون، في أولى محاضراتي لهذا الموسم الدراسي، عن حالة امرأة مصابة بهذاء الغيرة. وأما وقد شارف عرضي الآن على الانتهاء، فأكبر الظن أنه يشور بكم فضول إلى أن تعرفوا كيف أفسّر الهذاء من وجهة نظر التحليل النفسي. ويؤسفني ألا يكون في مقدوري أن أحدّثكم عن هذا الموضوع بقدر ما تنتظرون. وكل ما سأذكره لكم أن استعصاء الهذاء على التأثير بالحجج المنطقية والتجارب الواقعية يمكن أن يعلّل، مثله مثل استعصاء الوسواس على المؤثرات نفسها، بصلاته بالركيزة اللاشعورية التي تمثلها وتقمعها في آن واحد الفكرة الهذائية أو الفكرة الوسواسية. ولا تختلف الإصابتان فيما بينهما إلا من الناحيتين الطبوغرافية والدينامية.

وكما في البارانونيا وجدنا في السويداء (المالخنوليا)، التي وُصفت سريراً في صور شتى، صدعاً من شأنه أن يشقّ لنا عن بنيتها الداخلية. فقد لاحظنا أن ضروب الملامة التي ينهال بها السوداويون بلا شفقة على أنفسهم تنصبّ في الواقع على شخص آخر، على الموضوع الجنسي الذي فقدوه أو الذي فقدوا اعتبارهم وتقديرهم له لخطأ ارتكبه. وقد أمكن لنا أن نستنتج من ذلك أن السوداوي إن كان سحب من الموضوع الليبدو الذي وظّفه فيه، فإن هذا الموضوع قد انتقل إلى داخل الأنا، وكأنه أسقط عليه، بفعل سيرورة نستطيع أن نطلق عليها اسم «التماهي النرجسي»^(١٠). ولا يسعني هنا أن أقدم لكم سوى

١٠ - الإحالة هنا إلى البحث الذي نشره فرويد عام ١٩١١ عن حالة مشهورة في التحليل النفسي باسم حالة الرئيس شريبر (رئيس غرفة في محكمة الاستئناف بدرسدن) تحت عنوان: ملاحظات تحليلية نفسية بصدد حالة بارانونيا موصوفة في شكل سيرة ذاتية. «م».

صورة مجازية عن هذه الحالة، وليس وصفاً طبوغرافياً دينامياً حسب الأصول. فالأنا يعامل عندئذ وكأنه هو الموضوع المهجور، فيكابد جميع ضروب العدوان ومظاهر الانتقام الموجهة أصلاً إلى الموضوع. ومن الممكن أيضاً أن نعلل على ضوء هذا التصور، وبسهولة أكبر، ما نلاحظه لدى السوداوين من ميل إلى الانتحار، إذ يحاول المريض في هذه الحال أن يقضي على نفسه وعلى الموضوع المحبوب والمكروه في آن معاً. وفي السوداء، كما في سائر الأمراض الترجسية، تتظاهر على نحو سافر سمة من سمات الحياة الوجدانية اعتدنا أن نطلق عليها، مع بلولر، اسم **الازدواجية**^(١١). ونقصد بها أن توجد لدى الشخص الواحد عواطف متناقضة، ودية وعدائية، تجاه شخص آخر. ومن دواعي الأسف ألا تكون قد سنحت لي الفرصة، في أثناء هذه المحاضرات، لأحدثكم ملياً عن ازدواجية العواطف هذه.

إلى جانب التماهي الترجسي يوجد تماهٍ هستيري نعرفه منذ عهد أبعد بكثير. وكان بودي لو أئين لكم الفوارق بين هذين النوعين من التماهي ببضعة أمثلة مختارة. على أنه يسعني أن أسرد على مسامعكم على كل حال شيئاً طريفاً بكل تأكيد حول الأشكال الدورية والنوية للسوداء. إذ من الممكن في ظروف مؤقتة (وقد جرّبت ذلك بنفسي مرتين) الحؤول دون رجوع الحالة السوداوية، إما بصورتها الوجدانية المعهودة وإما بصورة معاكسة، عن طريق تطبيق العلاج التحليلي في الفترات التي يصفو فيها ذهن المريض بين النوبات. فعندئذ نلاحظ أن بيت القصيد في السوداء كما في الهوس الوصول إلى حلٍ لصراع من نوع خاص، وإن تكن عناصره هي بالتحديد عين عناصر الأعصاب الأخرى. ولكم أن تتخللوا كم لا يزال على التحليل النفسي أن يتعلم من أشياء كثيرة في هذا المضمار.

ذكرت لكم كذلك أنه بوسعنا، بفضل التحليل النفسي، تحصيل

١١ - Ambivalence: مصطلح منحوت من اللاتينية: Ambo، أي اثنان، و Valer أي يعادل، ويطلق على كل ما له بذاته مظهران متعارضان. وقد درجت المدرسة المصرية على ترجمته بالتعارض الوجداني. «م».



معلومات عن تركيب الأنا وعن العناصر الداخلة في بنيته. بل شرعنا فعلاً نستشفّ هذا التركيب وهذه العناصر. وقد لاح لنا أن تحليل هذاء الترصد (Délire d'observation) يتيح لنا أن نستنتج أنه توجد في الأنا فعلاً سلطة تراقب وترصد وتنقد وتقارن على الدوام، وتقف من ثم موقفاً معارضاً من الشطر الآخر من الأنا. لهذا أرى أن المريض يكشف لنا عن حقيقة لا تولى في العادة ما تستأمله من اهتمام واعتبار. وذلك عندما يتشكى من أن كل خطوة من خطواته مراقبة مرصودة، وكل فكرة من أفكاره مستباحة منقودة. وخطؤه الوحيد أنه يجعل خارج نفسه مركز هذه القوة المزعجة، وكأنها غريبة مستقلة عنه. إنه يشعر في داخل نفسه بسلطان هيئة تقيس أنه الراهن وكل تظاهرة من تظواهره بمقياس أنا مثالي اختلقه لنفسه بنفسه في أثناء تطوره. بل إنني أرى أنه ما اختلق هذا الأنا المثالي إلا بغية استعادة رضاه عن نفسه، ذلك الرضى الذي كان يلزم الترجسية الطفلية الأولية والذي مُني مذكاً بصدمات وإذلالات كثيرة. هذه السلطة التي تراقب وترصد معروفة لدينا: فهي الرقيب على الأنا، أي الضمير؛ وهي عينها التي تمارس ليلاً الرقابة على الأحلام، والتي تفرض الكبت على الرغبات غير المقبولة. ومع تحلل هذه السلطة في سياق هذاء الترصد تتكشف لنا أصولها: تأثير الوالدين والمربين والوسط الاجتماعي، والتماهي مع بعض الأشخاص الذي كان تأثيرهم أبعد مدى من تأثير غيرهم.

تلكم هي بعض النتائج التي يمكن أن نخرج بها من تطبيق التحليل النفسي على الأعصبة الترجسية. وأنا أقرّ أنها ليست بالكثيرة، وأنه كثيراً ما يعوزها ذلك الوضوح الذي لا سبيل إلى الوصول إليه إلا بعد التألف مع المضمار الجديد. ونحن ندين بهذه النتائج لاعتماد مفهوم الليبدو الأنوي أو الليبدو الترجسي، مما أتاح لنا أن نسحب على الأعصبة الترجسية المعطيات التي أمدتنا بها دراسة الأعصبة التحويلية. وإنكم لتتساءلون الآن بلا ريب عما إذا لم يكن في الإمكان أن نعمّم نظرية الليبدو على جميع اضطرابات الأمراض الترجسية والأذهنة، وعما إذا لم يكن العامل الليبدوي في الحياة النفسية هو المسؤول في

نهاية المطاف عن المرض، من دون أن نقيم اعتباراً لأي خلل في وظائف الدوافع الغريزية إلى المحافظة على الذات. والحال أن الإجابة عن هذا السؤال، سيداتي سادتي، لا تبدو لي عاجلة ملحة، وهي على الأخص لم تنضج بما فيه الكفاية لنجازف بصوغها. فلندع البحث العلمي يواصل تقدمه ولنتنظر بصبر. ولن يدهشني أن أعلم ذات يوم أن القدرة على إتيان المفعول الإمبراضي هي بالفعل سمة موقوفة على الدوافع الغريزية الليبيدوية وحدها، وأن نظرية الليبيدو يعقد لها إزار النصر على طول الخط، بدءاً من أبسط أشكال الأعصاب الراهنة وانتهاء بأخطر أشكال الجنون الذهاني لدى الفرد. أفلا نعرف أن ما يميز الليبيدو هو رفضه الخضوع لواقع العالم ولبدأ الضرورة؟ لكن يترأى لي أنه من المرجح أن تتعرض الدوافع الغريزية الأنوية هي الأخرى لاضطرابات وظيفية، استبعاداً لاندفاعات الليبيدو الإمبراضية. ولكن علمت ذات يوم أن الدوافع الغريزية الأنوية تكون هي السبابة إلى الاختلال في الأشكال الخطرة من الذهان، فلن أرى في ذلك حيداناً عن الاتجاه العام لأبحاثنا. ولكن هذه مسألة لا تزال رهن المستقبل، بالنسبة إليكم على الأقل. لكن اسمحوا لي بالرجوع لهنيئة من الزمن إلى موضوع الحصر لكي أجلو نقطة غامضة أخيرة لا تزال تحفّ به. فقد قلنا إن الصلات المعروفة القائمة بين الحصر والليبيدو لا تبيح لنا أن نفترض، رغم أن هذه قضية مسلّم بها ولا تكاد تحتل جداولاً، أن يكون الحصر الواقعي المنشأ حيال خطر من الأخطار تظاهراً للدوافع الغريزية إلى المحافظة على الذات. لكن كيف الحال فيما لو أن ليبيدو الأنأ، وليست الدوافع الغريزية الأنوية، هو من يتحمل تكاليف الانفعال الحصري؟ ذلك أن حالة الحصر هي في صميمها غير موائمة لأي غاية، وعدم موائمتها هذه تغدو ظاهرة للعيان متى ما أدركت درجة معيّنة من الشدة، إذ تعطل عندئذ العمل، سواء أكان هرباً أم دفاعاً، مع أن هذا العمل هو وحده الموائم وهو وحده القمين بأن يصون البقاء. وهكذا لو عزونا الشطر الانفعالي من الحصر الواقعي المنشأ إلى ليبيدو الأنأ، والعمل الذي يحدث بهذه المناسبة إلى دافع الأنأ الغريزي إلى المحافظة على الذات، لذلّلنا كل صعوبة نظرية. ولست أخالكم

تصدقون فعلاً أن الإنسان يهرب لأنه يشعر بالحصر. كلا، إن الإنسان يشعر بالحصر ويلوذ بالفرار تحت ضغط الدافع المشترك الذي يوقظه إدراك الخطر. ويروي رجال واجهوا أخطاراً جسيمة أنه لم يساورهم أي خوف أو حصر، بل تصرفوا وعملوا ليس إلا، بأن سدّدوا مثلاً بنادقهم إلى الوحش الكاسر. وهذا أعقل ردّ فعليّ يمكن أن يصدر عنهم.

المحاضرة السابعة والعشرون

التحويل

سيداتي سادتي، مع اقترابنا من نهاية أحاديثنا هذه يستيقظ فيكم - أنا على يقين من ذلك - توقع معين أمل ألا يكون لكم مصدر خيبة. فأنتم تقولون بينكم وبين أنفسكم إنني لم أمرض بكم عبر متاهات التفاصيل الكبرى والصغرى للمادة التحليلية النفسية لكي أستاذنكم في آخر المطاف بالانصراف من دون أن أنبس لكم ببنت شفة عن العلاج الذي إليه تركز مع ذلك إمكانية ممارسة التحليل النفسي. وبالفعل، إنه ليتعذر عليّ أن أتفادى هذا الموضوع، لأنني لو تملّصت منه لتركتكم في جهل بواقعة جديدة سيبقى بدونها فهمكم للأمراض التي تفحصناها ناقصاً غير كامل.

أنا أعلم أنكم لا تنتظرون مني إرشادكم إلى التقنية، إلى خطة ممارسة التحليل لهدف علاجي. إنما تريدون فقط أن تعرفوا بصفة عامة ما هي طريقة عمل المعالجة التحليلية النفسية وما هي نتائجها ومفاعيلها على وجه التقريب. وحقكم في معرفة ذلك لا مرية فيه، ومع هذا لن أذكر لكم عنه شيئاً، بل سألتج على العكس كيما تخمّنوه بأنفسكم.

هيا، أعملوا فكركم! أنتم تعرفون الآن الشروط الأساسية للوقوع في حالة المرض، وكذلك جميع العوامل التي تفعل فعلها لدى الشخص الذي يقع في حالة المرض. فهل يبقى ثمة من مجال للكلام عن التأثير العلاجي؟ هاكم أولاً الاستعداد الوراثي: فنحن لا نكثر من الكلام عنه، لأن غيرنا يلجّ عليه إلحاحاً شديداً، ولأنه ليس لدينا من جديد نصيفه. لكن لا تحسبوا أنني أتجاهل أهميته: فليس لنا أن ندرك مدى قوته وأثره إلا بقدر ما نمارس العلاج. ثم إننا لا نملك أن نغيّر فيه شيئاً؛ فهو يبقى بالنسبة إلينا مجرد معطى، أشبه بقوة ترسم حدوداً

لجهودنا. ويأتي بعد ذلك تأثير الخبرات الحياتية الطفلية المبكرة التي اعتدنا أن نجعل لها مكانة الصدارة في التحليل. هذه الخبرات تنتمي إلى الماضي، ولا نملك أن نتصرف كما لو أنها لم توجد قط. ولدنا أخيراً كل ما جمعناه في باب «الحرمان الواقعي»، أي مختلف فواجع الحياة التي تفرض القطاعة عن الحب وتتسبب في الشقاء والبؤس، والشقاق العائلي، والزواج غير الموفق، وهذا ناهيك عن الظروف الاجتماعية غير المؤاتية وصرامة المطالب الأخلاقية التي نزرع تحت ضغطها. ولا ريب في أن هذه كلها مداخل إلى العلاج الناجع، ولكنها من النوع الذي طبقه الإمبراطور جوزيف^(١) على حدّ ما تروي الأسطورة الفييناوية: التدخل العميم النفع لرجل قادر قاهر، ينحني أمام إرادته الرجال قاطبة وتزول الصعوبات طراً. لكن من نحن حتى نبیح لأنفسنا مثل هذا التدخل النافع في مضمار العلاج؟ ألسنا نحن أنفسنا فقراء، غير نافذين اجتماعياً، ومكرهين على اتخاذ مهنتنا وسيلة للرزق والمعاش، فلا نملك أن نبذل عنايتنا مجاناً للمرضى الذين ما أوتوا حظاً من اليسار، على حين أن غيرنا من الأطباء، ممن يستخدمون طرقات أخرى في العلاج، لا يعزّ عليهم إتيان مثل هذا المعروف؟ ذلك أن طريقتنا العلاجية طويلة النفس، ولا تعطي ثمارها إلا بتؤدة مسرفة وبعد طول عناء. ولعل واحداً من العوامل التي استعرضتها أمامكم قد استرعى انتباهكم أكثر من غيره، فارتأيت أنه أصلحها لأن يكون منطلقاً لما ننشده من تأثير علاجي. فلتن يكن التقييد الأخلاقي المفروض من قبل المجتمع هو المسؤول عن الحرمان الذي يقاسيه المريض، ففي وسع العلاج، على ما قد تتصورون، أن يشجع هذا المريض أو يحثه حثاً مباشراً على التعالي على هذا التقييد وعلى التماس الإشباع والصحة عن طريق رفض الانصياع لمثل أعلى يعلّق عليه المجتمع قيمة كبرى، ولكن نادراً ما يستلهمه الناس فعلاً. وهذا يعدل القول بأن سبيل الفرد إلى الشفاء أن يحيا حياته الجنسية إلى أقصى مداها. ولكن لو كان العلاج التحليلي ينطوي فعلاً على تحريض وتشجيع من هذا القبيل، لاستأهل بلا جدال الملامة

١ - هو جوزيف الثاني (١٧٤١ - ١٧٩٠)، ولد في فيينا وقاد الإمبراطورية الجرمانية، وكان مثلاً للمستبد المستنير، واشتهر بإلغائه الرق والقنانة. «م».

ولاستحقاق أن تعاب عليه مخالفته للأخلاق العامة، لأن ما يعطيه للفرد في هذه الحالة إنما ينتزعه من المجموع.

لكن من أين جاءكم، سيداتي سادتي، هذا الخير الباطل؟ إن نصح الفرد بأن يعيش حياته الجنسية إلى أقصى مداها لا صلة له من قريب أو بعيد بالمعالجة التحليلية النفسية، وحسبي أنني كنت ذكرت لكم أنه تدور في نفس المريض رحي صراع دائم بين الحائثة الليبيدوية والكبت الجنسي، بين الجانب الشهواني فيه والجانب الزهدي. وليس السبيل إلى حلّ هذا الصراع أن نساعد أحد الخصمين على التغلب على الآخر. فنحن ندرك جيداً أن الزهد هو الذي ترجح كفته لدى العصبي، فتكون عاقبة ذلك أن يعوّض الميل الجنسي المقموع عن خسارته بالأعراض. أما لو عملنا، على العكس، على أن تكون الغلبة للجانب الشهواني في الفرد، فإن الجانب الزهدي فيه هو الذي سيبحث في هذه الحالة عن متنفس له، بعد أن كُبت، بالأعراض. وليس يملك أي من هذين الحلّين أن يضع حداً للصراع الداخلي، إذ سيبقى هناك على الدوام جانب غير مشبع. ونادرة هي الحالات التي يكون فيها الصراع واهناً إلى درجة يكفي معها تدخل الطبيب لحسمه؛ والحق أن هذه الحالات لا تقتضي معالجة تحليلية. فالأشخاص الذين يمكن للطبيب أن يؤثر عليهم مثل هذا التأثير يسهل عليهم أن يظفروا بالنتيجة نفسها من دون تدخل الطبيب. وأنتم تعلمون حق العلم أنه متى ما قرّر قرار الشاب المتعفف على أن يقيم علاقة جنسية غير مشروعة أو متى ما عزمت زوجة محرومة من الإشباع على التماس ما هي محرومة منه لدى رجل آخر، فإنهما لا ينتظران في العادة الإذن من الطبيب ولا حتى من المحلل النفسي ليقدما على ما عقدا النية عليه.

ثمة نقطة أساسية في هذه المسألة لا تحظى بالانتباه المطلوب، وهي أن الصراع الأمراضى لدى العصبيين لا يشبه في شيء الصراع العادي الذي ينشب بين الحائثات النفسية المتعارضة فوق أرض سيكولوجية واحدة. فالصراع عند العصبيين صراع بين قوى وصل بعضها إلى مستوى الشعور والقبشعور، بينما لم يتخطَ بعضها الآخر حدود اللاشعور. ولهذا لا يمكن للصراع أن يفضي إلى حلّ.

فالخصمان لا يجابه واحدهما الآخر وجهاً لوجه، كما يتجابه الدب الأبيض والحيوت في المثل المعروف^(٢). ولا سبيل إلى حل حقيقي إلا إذا واجه واحدهما الآخر على مستوى واحد. وأعتقد أن المهمة الوحيدة للعلاج أن يجعل هذه المواجهة ممكنة.

بوسعي أن أؤكد لكم، علاوة على ذلك، خطأ ما اجتمع لكم من علم إن كنتم تعتقدون أن النصيح والإرشاد وتسديد الخطى في صروف الحياة هي من مقومات التقنية التحليلية النفسية. فنحن نبتعد قدر المستطاع عن دور الناصح المرشد هذا، ولا نعمل فينا سوى رغبة واحدة وهي أن نرى المريض يرم قراراته بنفسه. ولهذا نطلب إليه أن يرجئ إلى نهاية العلاج كل قرار هام يتصل بمستقبل حياته: كاختيار مهنة، أو القيام بمشروع تجاري، أو عقد زواج، أو الإقدام على طلاق، إلخ. وأعتقد أنكم توافقونني على أن هذا يختلف كل الاختلاف عما كنتم تظنون! ونحن لا نشدّ عن هذه القاعدة ونقرن إلى دور الطبيب دور المربي إلا إذا كنا بصدد معالجة أفراد يافعين، أو أفراد لا حيلة لهم ولا قوة بالمرّة. لكننا نعي في مثل هذه الحال مسؤوليتنا، ونتصرف بكل الفطنة والحيلة المطلوبتين.

غير أنكم تخطئون أيضاً لو استنتجتم، من جدّتي في الردّ على اتهام من يتهم المعالجة التحليلية النفسية بأنها تحضّ العصبي على أن يحيا حياته الجنسية إلى أقصى مداها، أن التأثير الذي تمارسه يأخذ بناصر الأخلاق الاجتماعية. فهذا القصد بعيد عنا بعد القصد الأول. صحيح أننا ملاحظون ومراقبون، ولسنا مصلحين، لكن لا يسعنا مع ذلك أن نمسك عن أن نلاحظ ونراقب بعين ناقدة: لذا وجدنا أنه يستحيل علينا أن نتولى الدفاع عن الأخلاق الجنسية المتواضع عليها، وأن نمحض تأييدنا للطريقة التي يحاول المجتمع أن يحلّ بها عملياً مشكلات الحياة الجنسية. وبوسعنا أن نقول بكل بساطة للمجتمع إن ما يسمّيه بعرفه الأخلاقي يكلف من التضحيات أكثر مما يستحقّ، وإن أساليبه وطرائقه تفتقد إلى الصدق افتقادها إلى الحكمة. ونحن لا نخطئ حينما نفصح عن

٢ - قول سائر معروف في زمن فرويد، ويُنسب خطأ إلى بسمارك للإشارة إلى الصراع السياسي بين روسيا وانكلترا اللتين كان تحالفهما يبدو بحكم المستحيل يومئذ. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

انتقاداتنا أمام المرضى؛ بل نعوّدهم على التفكير، بلا تحيّر وبلا أحكام مسبقة، في الوقائع الجنسية كما في غيرها من الوقائع؛ فإذا ما صار العلاج إلى نهايته واستقلوا بأنفسهم وقرروا بمحض إرادتهم الأخذ بحلّ وسط بين الحياة الجنسية اللامقيدة والزهد المطلق، لم يرزح ضميرنا تحت عبء أي تبكيت. والرأي عندنا أن من استطاع، بعد أن جاهد نفسه، أن يرقى بها نحو الحقيقة كان بمنجاة من خطر التحلل الخلقي، وكان في حلّ من أن يكون سلّم قيمه الأخلاقية مختلفاً بعض الاختلاف عن سلّم القيم التي تواضع عليها مجتمعه. ولنحذر على كل حال من المبالغة في تقدير دور التعفف الجنسي في نشوء الأعصبة. ففي عدد محدود للغاية من الحالات فقط يمكن للفرد أن يعتقد من الموقف الإيماني الناجم عن الحرمان وعن تراكم الليبدو بإقدامه على إقامة علاقات جنسية سهلة لا عناء فيها.

إذاً لن يكون في وسعكم أن تفسروا التأثير العلاجي للتحليل النفسي بالقول إنه يبيح للمريض أن يحيا حياته الجنسية حتى أقصى مداها. بل عليكم أن تبحثوا عن تفسير آخر. ولعل ملاحظة أديتها، وأنا أفند خطأكم بضدد هذه النقطة، قد وجّهتكم في الوجهة الصحيحة. ولعلكم بالتالي أدركتم في أذهانكم الفكرة التالية: إن نفع التحليل النفسي يكمن في أرجح الظن في استبدال اللاشعوري بالشعوري وترجمة اللاشعور إلى الشعور. وهذا صحيح. فنحن إذ نستدرج اللاشعور إلى الشعور نلغي الكبت، وننحّي الشروط التي تتحكم بتكوين الأعراض، ونحوّل الصراع الممرض إلى صراع سويّ لا بدّ أن يجد سبيله، بطريقة أو بأخرى، إلى الحلّ في خاتمة المطاف. ونحن لا نصنع للمريض شيئاً غير أن نستثير لديه هذا التغيّر النفسي وحده، ومدى نجح تقينتنا مرتتهن بمدى اتساع نطاق هذا التغيّر. أما في الحالات التي لا سبيل فيها إلى إلغاء الكبت أو أية سيورة نفسية من النوع نفسه، فإن تقينتنا العلاجية يسقط في يدها.

في مقدورنا أن نعبّر عن هدف جهودنا بصيغ شتى: فبوسعنا أن نقول مثلاً إننا نسعى إلى جعل اللاشعوري شعورياً، أو إلى إلغاء الكبت، أو إلى سدّ الثغرات الذاكرة؛ وهذا كله سيان. غير أن هذا الإقرار قد لا يقع منكم موقعاً حسناً. فلعلكم كوّنتم عن شفاء المريض العصبي فكرة مغايرة، فتصوّرتم أن هذا المريض

يغدو بعد خضوعه لعملية التحليل النفسي الشاقة شخصاً آخر؛ وهأنذا أقول لكم إن شفائه لا يعدو أن يكون تزايداً في الشعور لديه وتناقصاً في اللاشعور بمقدار ضئيل عما ذي قبل! والحال أنكم لا تقدرون في أكبر الظن أهمية مثل هذا التغير الداخلي حقّ قدره. فالعصبي الذي يشفى يغدو بالفعل شخصاً آخر، لكنه يبقى في صميم الأمر هو نفسه بطبيعة الحال، أي أنه يصير ما كان يمكنه أن يكونه، بدون مساعدة العلاج، فيما لو كانت الظروف أكثر مؤاتاة له. وهذا ليس بقليل. فلو عرفتم هذا واطلعت على كل ما ينبغي فعله وعلى جميع الجهود التي لا بدّ من استنفارها للوصول إلى هذا التغير الطفيف في الظاهر في حياة المريض النفسية، لما عاد يخامركم شكّ في أهمية ذلك الانتقال الذي نفلح في استثارته من مستوى نفسي إلى آخر.

هنا أستطرد قليلاً لأسألكم هل تعرفون ما المقصود بالمعالجة العلية؟^(٣) إن هذه التسمية تطلق على طريقة في العلاج تجعل همّها لا أن تتصدى لتظاهرات المرض بل أن تلغي أسبابه وعمله. فهل التحليل النفسي على هذا الأساس علاج عليّ أم لا؟ الإجابة عن هذا السؤال ليست بالسهلة، لكنها قد تتيح لنا الفرصة لنذكر بطلان السؤال نفسه. فبقدر ما لا يكون إلغاء الأعراض هو الهدف المباشر للمعالجة التحليلية، تكون هذه سلك قد مسلك المعالجة العلية. لكننا لو نظرنا إليها من غير هذا المنظور لبدت لنا غير عليّة. فلقد وضعنا نصب أعيننا من البداية أن تقتصّ أثر تسلسل العلل والأسباب، من خلال ضروب الكبت، وصولاً إلى الاستعدادات الغريزية المسبقة بما تكون عليه من شدة نسبية في جيلة الفرد، وبما يطرأ عليها من حيدان وانحراف عن مسار تطورها السويّ. ولنفرض الآن أنه تأتّى لنا أن نؤثّر بطرائق كيميائية في هذه البنية النفسية، فزيد أو نقص كمية الليبيدو المتواجدة في لحظة معينة، ونعزز دافعاً غريزياً بعينه على حساب غيره؛ فلو فعلنا لكان هذا علاجاً عليّاً بحصر معنى الكلمة، علاجاً لا يكون من شأن التحليل النفسي غير أن يروود له الطريق ويمهّدها. والحال أنه لا مجال في الوقت الحاضر للتفكير بإخضاع سيرورات الليبيدو لمثل ذلك التأثير؛ فمعالجتنا النفسية

٣ - أي السببية. «م».



تتصدى حلقة أخرى في السلسلة، حلقة قد لا تكون موصولة بجذور الظواهر المنظورة من قبلنا، ولكنها بعيدة كافي البعد مع ذلك عن الأعراض، وقد هدتنا إليها ظروف فريدة بحق.

ماذا ينبغي إذاً أن نفعل لنستبدل اللاشعوري بالشعوري لدى مرضانا؟ لقد خيّل إلينا لحين من الزمن أن الأمر في غاية من السهولة، وأنه حسبنا أن نغيث اللثام عن اللاشعور لنضعه من ثم تحت بصر المريض. لكننا نعلم اليوم أننا كنا على خطأ من أمرنا. فما نعرفه عن اللاشعور لا يتطابق بتاتاً مع ما يعرفه المريض عنه؛ فحين نكاشفه بما نعلمه، لا يستعيز عن لاشعوره بما تحصل له من معرفة، بل يرصف هذه بجانب ذلك، فيبقى اللاشعور عنده بالتالي بلا تغيير تقريباً. وأولى بنا أن نكون عن هذا اللاشعور تصوراً طبوغرافياً، وأن نلتمسه في ذكريات المريض حيثما أمكن له أن يتكون ويتشكل عقب عملية كبت. وهذا الكبت هو ما ينبغي أن يُزال كيما يتم حلول الشعوري محل اللاشعوري من تلقاء نفسه. لكن ما السبيل إلى إزالة الكبت؟ هنا تبدأ المرحلة الثانية من عملنا: فتتقصى أولاً أثر الكبت، ونلغي ثانياً المقاومة التي تبقي عليه قائماً.

كيف السبيل إلى إزالة هذه المقاومة؟ بالطريقة عينها: بأن نغيث عنها اللثام ونضعها تحت بصر المريض. ذلك أن المصدر الذي تنشأ عنه المقاومة هو الكبت أيضاً، وقد يكون هذا الكبت هو عينه الذي نسعى إلى حله، وقد يكون كبتاً آخر طراً قبله. والواقع أن المقاومة هي حصيلة التوظيف المضاد الذي يرمي إلى كبت الحائثة المستهجنة. ثم نفعل الآن ما كنا أردنا أن نفعله في أول الأمر: نؤوّل ونكشف ونكاشف المريض بما نصل إليه، لكننا نفعل ذلك هذه المرة في الموضع المناسب. والتوظيف المضاد أو المقاومة جزء، لا من اللاشعور، بل من الأنا الذي يتعاون وإيانا، وذلك حتى ولو لم تكن هذه المقاومة شعورية. وكلمة «اللاشعور» لها هنا، كما نعلم، معنيان: اللاشعور كظاهرة، واللاشعور كنسق^(٤). وقد يبدو الأمر غامضاً وبالغ التعقيد، ولكنه أليس في صميمه واحداً؟ وهذه مسألة كانت

٤ - رأينا من قبل أنه من الممكن حلّ هذا الإشكال باللغة العربية، إذا ترجمنا اللاشعور من حيث أنه ظاهرة وصفة بـ«اللاوعي»، ومن حيث أنه نسق نفسي بـ«اللاشعور». «م».

قد عرضت لنا على كل حال من قبل. إذاً فنحن ننتظر أن تختفي المقاومة، وأن يتراجع التوظيف المضاد، حالما يضع تأويلنا كلا منهما تحت بصر الأنا. فما القوى التي نعمل وإياها في هذا الضرب من الحالات؟ إن أول اعتمادنا هنا على رغبة المريض في استعادة صحته وعافيته، وهي الرغبة التي حملته على التعاون معنا؛ ونعتمد ثانياً على ذكائه الذي نسانده بتدخلنا. ومن المؤكد أنه سيكون من الأسر على الذكاء أن يتعرف المقاومة وأن يهتدي إلى ترجمة ما تمّ كبتة فيما لو أعطيناها من البداية فكرة عما ينبغي عليه أن يتعرفه ويهتدي إليه. فلو قلت لكم: «انظروا إلى السماء، تروا فيها منطاداً» لوقع عليه نظرهم بأسرع مما لو اكتفيت بأن أطلب إليكم بأن تشخصوا بأبصاركم إلى السماء من دون أن أعين لكم ما يفترض بكم أن تروه فيها.

ثم لدينا بعد ذلك الوقائع. ففي عدد كبير من الإصابات العصبية، في ضروب الهستيريا والأعصابية الحصرية والأعصابية الوسواسية، تثبت صحة فروضنا ومقدماتنا. فبيحثنا عن الكبت وبكشفنا المقاومة وإمادتنا اللثام عما جرى كبتة، نفلح فعلاً في حلّ المشكلة، وفي التغلب على المقاومات، وفي إزالة الكبت، وفي تحويل اللا شعوري إلى شعوري. وفي أثناء قيامنا بذلك نحس إحساساً واضحاً بأن ثمة صراعاً عنيفاً ينشب في نفس المريض حيال كل مقاومة يراد التغلب عليها، صراعاً نفسياً سوياً، على مستوى سيكولوجي واحد، بين دوافع متعاكسة، بين قوى تنزع إلى الإبقاء على التوظيف المضاد وأخرى تدفع باتجاه التخلي عنه. والدوافع الأولى دوافع قديمة، وهي التي تسببت في حينه بالكبت؛ وبالمقابل، إن بين الدوافع الثانية بعض دوافع نشأت حديثاً وعليها نعقد الرجاء في حسم الصراع بالاتجاه الذي نريد. وهكذا نكون قد أفلحنا في بعث الصراع القديم ونفخ الحياة فيه من جديد، بعد أن آل به الأمر إلى الكبت، وفي إعادة النظر في السيرة التي كان يبدو وكأنه ختم عليها من عهد بعيد. والوقائع الجديدة التي نسوقها مساندة لهذه المراجعة تتمثل في ما يلي: تذكرنا المريض بأن الحلّ السابق للصراع هو الذي أفضى إلى المرض، ووعدنا إياه بأن حلاً آخر من شأنه أن يفتح الطريق إلى شفاء، وبياننا له أن الشروط تغيرت جميعها تغييراً كبيراً منذ عهد ذلك

الحلّ الأول. فيوم تشكل المرض، كان الأنا ضعيفاً، ضامراً، طفلياً، وربما كان له عذره في استبعاد متطلبات الليبدو بوصفها مصدراً تأتي منه الأخطار. أما اليوم فهو أقوى وأشدّ مراساً، وله علاوة على ذلك في الطبيب معاون أمين مخلص. ومن ثم، إن لنا الحقّ في أن نتوقع أن يتمخض الصراع الموجبة ناره من جديد عن حلّ أنسب من ذلك الذي تمخض عنه يوم آل به الأمر إلى الكبت؛ وكما تقدم بيان ذلك، إن النجاح الذي أحرزناه في حالات الهستيريا والأعصاب الحصرية والأعصاب الوسواسية يبرر من حيث المبدأ توقُّعنا.

غير أن هناك أشكالاً أخرى من المرض لا تكفل فيها طرائقنا العلاجية بالنجاح أبداً، مع أن الظروف والشروط متشابهة. فلقد كان الأمر في هذه الأمراض أيضاً أمر صراع بدئي بين الأنا والليبدو، وهذا الصراع تمخض بدوره عن كبت، حتى وإن اختلفت مواصفاته طبوغرافياً؛ ثم إننا نستطيع أن ننقضى حياة المريض لنكتشف في هذه الأمراض، كما في غيرها، المواقع المحددة التي حدث فيها الكبت؛ ثم نطبّق على هذه الأمراض الطرائق عينها، ونجزل للمرضى الوعود ذاتها، ونساعدهم بالطريقة نفسها، أي بأن نعطيهم بعض أفكار أولية أو «تصورات توقعية» عما ينبغي أن يبحثوا عنه؛ وعلاوة على هذا كله، إن الفترة الفاصلة بين العهد الذي حدث فيه الكبت وبين الوقت الحاضر قميئة بأن تعين على إيجاد مخرج مرض للصراع. ولكن بالرغم من ذلك كله لا نفلح في التغلب على مقاومة أو في إزالة كبت. فهؤلاء المرضى، من المصايين بالبارانونيا أو السويداء أو الخبل المبكر، يستعصون إجمالاً على المعالجة التحليلية النفسية. فما السبب في ذلك؟ لا يمكن أن يكون مرجع ذلك إلى قصور في الذكاء؛ ونحن نفترض بطبيعة الحال أن مرضانا يتمتعون بمستوى عقلي معيّن، وهذا المستوى موجود بكل تأكيد لدى المرضى البارانونيين الذين يظهرون أرابة كبيرة في اختلاق أبرع القصص. كذلك لا يمكننا أن نرجع السبب في إخفاقنا إلى غياب أية قوة غريزية مفترضة أخرى؛ فالسوداويون مثلاً، وبخلاف البارانونيين، يعون أنهم مرضى وأنهم يكابدون آلاماً مبرحة، لكن هذا لا يجعلهم أكثر امتثالاً للمعالجة التحليلية النفسية. والحق أننا نصطدم هنا بواقعة لا نفهمها، الأمر الذي يحدونا

إلى التساؤل عما إذا كنا فهمنا واستوعبنا فعلاً جميع شروط النجاح الذي أحرزناه في الأعصاب الأخرى.

إذا حصرنا اهتمامنا بمرضانا المصابين بالهستيريا والعصاب الوسواسي، فلن نلبث أن نقع على ظاهرة أخرى لم نتهياً لملاقاتها إطلاقاً. إذ لا نكاد نمضي في العلاج رداً سيراً من الزمن حتى نلاحظ أن هؤلاء المرضى يتصرفون حيالنا بطريقة غريبة للغاية. فقد كنا نحسب أننا أحطنا بجميع القوى الغريزية التي يجدر بنا أن نأخذها في اعتبارنا في أثناء المعالجة، كما كنا نظن أننا حدّدنا موقفنا من المريض بجلاء لا مزيد عليه كما لو في معادلة حساسية؛ لكن ها نحننا ننبئ أنه تسرّب إلى الموقف عنصر لم يكن في حسابنا. ونظراً إلى أن هذا العنصر اللامتوقع يمكن أن يتجلى في أشكال شتى، فسأبدأ بأن أصف لكم مظاهره الأكثر تواتراً والأقرب إلى الفهم.

أول ما نلاحظه أن المريض، الذي لا نتظر منه أن يبحث عن شيء آخر إلا عن مخرج من صراعاته المؤلمة، يظهر تجاه شخص طبيبه اهتماماً خاصاً. فكل ما يتصل بهذا الأخير يبدو له أهمّ من شؤونه الخاصة ويصرف انتباهه عن مرضه. ولذا، إن العلاقات التي تقوم بين الطبيب والمريض تكون ودية للغاية لفترة من الزمن؛ فالمرضى يبدي عن حسن استعداد ومودة، ويبدل قصاره ليظهر عرفانه بالجميل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ويكشف عن جانب مرهف في شخصيته وعن خصال حميدة أخرى قد لا يدور لنا في بال أن نبحث عنها عنده. ولا يملك الطبيب في نهاية المطاف إلا أن يكون فكرة طيبة عنه، ويحمد الظروف التي أتاحت له الفرصة ليقدم معونته إلى مثل هذا الشخص الرائع. وإذا سنحت الفرصة للطبيب ليتحدث إلى أقارب المريض، سرّه أن يعلم أن مشاعر ودّه تجاه هذا الأخير متبادلة. فالمرضى لا يني يكيل الشاء أمام ذويه للطبيب ويكشف لديه في كل يوم مزايا جديدة. ويشنّف أقاربه أذنيك بقولهم: «إنه لا يفكر إلا بك، وثقته بك عمياء، وكل ما تقوله هو عنده كلام منزل». وقد يزيد أحد أفراد هذه الجوقة بين الحين والآخر فيقول: «لقد أصبح مملاً، فهو لا يتحدث إلا عنك، ولا يتردد غير اسمك على شفتيه».

ولنأمل أن يكون الطبيب على درجة كافية من التواضع كيلا يرى في كل ضروب الإطراء والمديح هذه سوى محض تعبير عن الرضى الذي يخالج المريض لما يتيحه له الطبيب من أمل في الشفاء، ونتيجة للتوسع في أفقه العقلي من جراء منظورات التحرر المدهشة التي تفتحها أمامه المعالجة. وفي مثل هذه الشروط لا بد أن يكون التحليل قد أحرز تقدماً مرموقاً؛ فالمرضى يفهم التوجيهات التي تُقترح عليه، ويستوعب المهام التي تقتضيها منه المعالجة، وتتوارد إلى ذهنه الخواطر والذكريات باستفاضة، وتدهش تأويلاته بصحتها ووثوقها الطبيب، فلا يملك إلا أن يلحظ بعين الرضى سرعة تقبُّل المريض للبدع السيكلوجية التي تقابل في العادة من أصحاب الناس بأعنف المعارضة. وهذا التفاهم الطَّيِّب الذي يسود أثناء العمل التحليلي لا بد أن يناظره تحسُّن موضوعي في الحالة المرضية لا تعسر ملاحظته على أحد.

على أن الجو الجميل لا يمكن له أن يدوم أبداً. إذ يأتي يوم يتعكر فيه ويريد، وتبرز في وجه المعالجة عقبات، ويزعم المريض أن سبل خواطره قد نضب معينه. ويراود الطبيب شعور واضح بأن المريض ما عاد يحفل بالتحليل، وأنه يتهرب باستخفاف من الوفاء بالعهد الذي قطعه للطبيب بأن يوح له بكل ما يرد إلى خاطره، من دون أن يلقي بالأل إلى أي اعتبار نقدي. ومن ثمَّ نراه يتصرف وكأنه ليس قيد المعالجة، وكأنه لم يعقد مع الطبيب اتفاقاً. ومن الواضح هنا أن باله انشغل بشيء يحرص على عدم الإفصاح عنه. وهذا موقف فيه على المعالجة خطر. ولا جدال في أن مقاومة عنيفة تعترض سبيلنا هنا. فما عسى أن يكون حدث؟

حين تتأتى لنا القدرة على جلاء الموقف من جديد، نلاحظ أن علة الاضطراب تكمن في كون المريض قد أسقط على الطبيب مشاعر حيَّة قوية لا يأذن بها سلوك هذا الأخير ولا العلاقات التي قامت بينهما في أثناء المعالجة. والشكل الذي يتظاهر به هذا الشعور الودّي أو الحُبّي والأهداف التي ينشدها تتوقف بطبيعة الحال على ظروف العلاقات الشخصية بين الطرفين. فإن كانت المريضة فتاة، وكان الطبيب في مقتبل العمر كذلك، خالجتنا انطباع بأننا إزاء حالة حيَّة

سوية، ولن نستغرب هنا أن تتدله فتاة بحب رجل تنفرد به لفترات طويلة وتستطيع مكاشفته بأشياء حميمة كثيرة ويكون له عليها وقع وإيهام لما له من تفوق يستمد من موقعه كمنقذ. ولكننا نكون قد نسينا في هذه الحال أن ما يمكن لنا أن نتوقعه من جانب فتاة معصوبة هو بالأحرى اضطراب في المقدرة على الحب. والأبعث على العجب أن نلتقي هذا الموقف الحبيبي عنه حتى عندما تكون العلاقات الشخصية بين المريض والطبيب بعيدة عما هي عليه في الحالة الافتراضية السالفة. والأمر ممكن التصور مع ذلك فيما لو كانت المريضة زوجة في مقتبل العمر، ما ذقت طعماً في زواجها إلا للشقاء، فساورها هوى مشبوب حيال طبيها إن كان لا يزال أعزب، وأبدت عن استعدادها لطلب الطلاق كيما تتزوج؛ وإن كان ثمة عقبة تعترض سبيل زواجها منه ما ترددت في إبداء استعدادها لتصير عشيقتة. ومن المؤكد أنه لا يندر أن تحدث أشياء كهذه حتى خارج نطاق التحليل النفسي. ولكننا، في مثل هذه الظروف، لا نملك إلا أن نُدْهِش عندما نسمع من أفواه النساء والفتيات تصريحات تتم عن موقف محدد من مشكلة العلاج: فهن يزعمن أنهن كنَّ يعرفن من البداية أنه لا سبيل أمامهن للشفاء غير الحب، وأن يقينهن كان راسخاً، من أول العلاج، بأن صلتهن بالطبيب ستمنحهن في نهاية المطاف ما ضنَّت به الحياة عليهن. واستناداً إلى هذا الأمل وحده بذلن ما بذلن من جهود في أثناء المعالجة وتغلبن على كل صعاب الاعتراف والبوح بالأسرار. وسنضيف من جهتنا: «إنما استناداً إلى هذا الأمل وحده فهمن بسهولة أشياء لا يتقبلها الناس في العادة إلا بلأى وعسر». على أن اعترافاً كهذا يذهلنا ويقلب حساباتنا كافة. أفمن الممكن أن نكون قد تركنا أهم بند في محاسبتنا يسقط منا؟

بالفعل، كلما تعمقت تجربتنا، تضاءلت قدرتنا على الممارسة في هذا التصحيح الذي فيه ما فيه من المهانة لادعاءاتنا العلمية. فلعلنا كنا نحسب في بادئ الأمر أن التحليل قد اصطدم بعقبة نشأت عن حادث عارض لا يمت بصلة إلى النية الأصلية للمعالجة ولم تكن هي السبب فيه. لكن عندما نرى أن تعلق المريض الحبيبي بالطبيب يتكرر قياسياً في كل حالة جديدة، وعندما نراه يتظاهر حتى في

الظروف غير المؤاتية على الإطلاق، بل حتى في الحالات التي يصل فيها عدم التناسب بين المريض والطبيب إلى حدٍّ يبعث - لغرابته - على الضحك، كأن تتعلق امرأة طعنت في السن بطبيب ابيضَّت لحيته، أي في الحالات التي لا يمكن أن يكون فيها، في تقديرنا، مجال للجاذبية أو للإغراء، إذًا نَجِدُنَا مكرهين على أن نطرح جانباً فكرة أن الأمر كان محض مصادفة عكّرت صفو التحليل، ولا يكون أمامنا مناص من التسليم بأننا أمام ظاهرة وثيقة الصلة بطبيعة الحالة المرضية بالذات.

هذه الواقعة الجديدة، التي لا نسلّم بها إلا على كره منا، ما هي إلا ما نسمّيه **بالتحويل**، ونعني به تحويل العواطف نحو شخص الطبيب، لأننا لا نرى أن الموقف العلاجي يمكن أن يبرّر تفكّح مثل هذه العواطف^(٣). إنّما نشته بالأحرى في أن كل هذه اللهفة الوجدانية آتية عن مصدر آخر، وأنها كانت موجودة لدى المريض في حالة من الكمون، ثم خلعت على شخص الطبيب في أثناء المعالجة التحليلية. ومن الممكن أن يتظاهر التحويل إما في شكل مطلب حبّي صاخب، وإما في أشكال أدنى إلى الاعتدال؛ فإزاء طبيب متقدم في السن يمكن أن تراود المريضة الشابة رغبة، لا في أن تصير عشيقته، بل في أن يعاملها وكأنها ابنته الأثيرة، كما يمكن أن يجنح ميلها الليبيدوي إلى الاعتدال فيصير صوة إلى صداقة مثالية، غير قابلة لأن ينفرط عقدها، وبعيدة عن الشهوانية. وفي مقدور بعض النساء إسماء التحويل وتكييفه بحيث يغدو قابلاً للحياة بمعنى ما؛ لكنه يتظاهر لدى غيرهن في شكل فجّ، بدائي، لا يطاق في أغلب الأحيان. على أن الظاهرة واحدة في كلا الحالين، ولا يمكن أن يخالفنا شك في أن أصلها واحد.

قبل أن نتساءل عن موقع هذه الواقعة الجديدة في الحياة النفسية، اسمحوا لي بأن أستكمل وصفها. كيف تجري الأمور في الحالات التي ينتمي فيها المرضى إلى الجنس المذكور؟ قد يتراءى لنا لأول وهلة أن هؤلاء بمنجى من التدخل المؤسف للفارق بين الجنسين وللجاذبية الجنسية. كلا، فشأنهم في هذا شأن النساء من

٥ - من هنا أطلق فرويد على الأعصبة التي تحدث فيها هذه الظاهرة اسم الأعصبة التحويلية، وفي مقدمتها الهستيريا الحضرية والهستيريا الاستبدالية (أو الاستبدانية) والعصاب الوسواسي. «م».

المرضى. فهم يفصحون عن التعلق نفسه بالطبيب، ويكثرون لأنفسهم الفكرة المشتطة نفسها عن مزاياه وصفاته، ويبدون اهتماماً بالغاً بكل ما يتصل به ويغارون، كالنساء، من كل من له به صلة في الحياة العامة. والأشكال التي طالها الإسماء من التحويل تكون بين رجل ورجل أكثر تواتراً، كما تكون المتطلبات الجنسية المباشرة أكثر ندوراً طرداً مع تضاؤل الدور الذي تلعبه الجنسية المثلية السافرة لدى الفرد المعني لصالح بروز المقومات الأخرى. ويلحظ الطبيب أيضاً لدى مرضاه الذكور، أكثر بكثير مما لدى النساء، شكلاً من التحويل يبدو للوهلة الأولى متناقضاً مع كل ما تقدم من وصفنا له حتى الآن: التحويل العدائي أو السلبي.

لنحدد قبل كل شيء بأن التحويل يتظاهر لدى المريض من بداية العلاج، ويبقى لحين من الزمن أقوى حافز للاستمرار فيه. على أننا لا نلاحظه وليس لنا أن نشغل أنفسنا به ما دام تأثيره يؤاتي التحليل الذي نتابعه بالتعاون مع المريض. لكنه حالما يتحول إلى مقاومة، يستدعي منا الاهتمام كله، وعندئذ نلاحظ أن صلاته بالعلاج يمكن أن تبدل في اتجاهين مختلفين ومتعارضين: أولاً أن يغدو الموقف الودي بالغ القوة، فتتجلي للعيان علامات أصله الجنسي بوضوح يمسي من المحتم مع أنه تنتصب في وجهه من جانب المريض مقاومة داخلية؛ وثانياً أن تنقلب عواطف الودّ والمحبة إلى عواطف بغض وعداء. وبصورة عامة، يكون ترتيب عواطف العداء في الظهور متأخراً عن عواطف الودّ وتحت ستارها؛ والتواجد المتزامن لهذين الضريين من العواطف يعكس الازدواجية الوجدانية التي تتسم بها أغلب علاقاتنا بغيرنا من الناس. فالعواطف العدائية، مثلها في ذلك مثل العواطف الودية، علامة على تعلق وجداني، تماماً كما أن التحدي يعبر، مثله مثل الطاعة، عن شعور بالتبعية، وإن تعاكست علامتهما. ولا مراء في أن العواطف العدائية تجاه الطبيب تستأهل هي أيضاً اسم «التحويل»، لأن الموقف الذي تخلقه المعالجة لا يمثل أي سبب كافٍ لتعليل تظاهرها؛ وهكذا يثبت لنا تصوّرنا الضروري عن وجود تحويل سلبي أننا لم نكن على خطأ من أمرنا في ما أصدرناه من أحكام بصدد التحويل الإيجابي أو الحيي.

من أين يأتي التحويل؟ ما الصعاب التي يقيمها في وجوهنا؟ كيف نستطيع أن نتغلب على هذه الصعاب؟ وما الريح الذي يمكننا اجتناؤه منه آخر المطاف؟ كل هذه أسئلة لا سبيل إلى معالجتها بالتفصيل إلا في إطار شرح تقني ومختص لمسألة التحليل، ولذا سأكتفي بمسأ رقيقاً هنا. من البدهي أننا لا نلبي مطالب المريض الناجمة عن التحويل؛ لكن ليس من الحكمة أن نردّها بخشونة أو غضب. بل نحن نظهر على التحويل ونتغلب عليه إذا ما أوضحنا للمريض أن عواطفه غير ناشئة عن الموقف الراهن وليس لها بالتالي أن تنصبّ على شخص الطبيب، بل هي تكرار لموقف سبق له أن مرّ به من عهد بعيد. وبذلك نرغمه على التراجع القهقري من هذا التكرار إلى الذكرى. ومتى ما وصلنا إلى هذه النتيجة وضع التحويل، الحبيّ أو العدائي - وهو عينه الذي كان يبدو وكأنه يشكل أكبر خطر على نجاح العلاج - بين أيدينا المفتاح الذي به نستطيع أن نفتح أشدّ المقصورات استغلاقاً في الحياة النفسية. لكن بوّدي أن أفضي إليكم بوضع كلمات أبّد بها ما يمكن أن يكون اعتراكم من دهش لهذه الظاهرة اللامتوقعة. وبالفعل، لا يغرب عن أذهانكم أن مرض المريض الذي نشرع بتحليله لا يمثّل ظاهرة مكتملة، ناجزة، متحجرة، بل هو على العكس قيد النمو والتطور، نظير الكائن الحيّ تماماً. وبداية العلاج لا تضع حداً لهذا التطور. لكن عندما يفلح العلاج في الإمساك بتلابيب المريض، نلاحظ أن كل تشكيلات المرض الجديدة تغدو متركزة عند نقطة واحدة، وبالتحديد العلاقة بين المريض والطبيب. وبذلك يمكن تشبيه التحويل بالقلب Cambium الذي يتوسّط بين خشب الشجرة واللحاء، أي تلك الطبقة التي تتشكل بدءاً منها الأنسجة الجديدة وتتعاظم سماكة الجذع. فمتى ما صار للتحويل مثل هذه الأهمية والدلالة، طرأ فتور ملحوظ على العمل الذي يرمي إلى استحضار ذكريات المريض. ويمكننا القول عندئذ إنه ما عاد لنا شأن مع مرض المريض السابق، بل صرنا نواجه عصباً حديث التكوّن والتحوّل حرّ محلّ الأول. هذه الطبقة الجديدة التي تراكبت فوق المرض القديم كنا قد تتبعناها من بدايتها، فرأيناها تولد وتتطور، ولن يكون شاقاً علينا أن نراها على حقيقتها ما دمنا نشغل نحن أنفسنا نقطة المركز فيها. فجميع أعراض المريض فقدت دلالتها

الأولى واكتسبت معنى جديداً ذا صلة بالتحويل. أو بالأحرى لم يبقَ من الأعراض في الواقع سوى تلك التي أمكن لها أن تتحول وتتلاءم مع الوضع المستجد. ولكن تغلبنا على هذا العصاب المصطنع الجديد معناه القضاء على المرض الذي كان موجوداً قبل بدء العلاج. وهاتان التيجتان متضامتان، ومتى ما وصلنا إليهما تكون مهمتنا العلاجية قد انتهت. فالشخص الذي صار سوياً وانعق، في علاقاته مع الطبيب، من تأثير الحاثات الغريزية المكبوتة، سيبقى كذلك في حياته العادية بعد أن يختفي منها الطبيب.

إن هذه الأهمية الخارقة، بل المركزية من المنظور العلاجي، التي يتسم بها التحويل تتجلى في المقام الأول في حالات الهستيريا والهستيريا الحصرية والأعصاب الوسواسية. ولهذا تمت إعادة تجميع هذه الأعصاب، بحق، تحت اسم «الأعصاب التحويلية». ومن تسنت له الفرصة لتكوين فكرة صحيحة عن طبيعة التحويل من خلال ممارسة العمل التحليلي، لا يعود يخامره شك بصدد نوع الحاثات المكبوتة التي تفصح عن نفسها في أعراض هذه الأعصاب، ولا يعود يتطلب برهاناً آخر، أكثر إقناعاً، على طبيعتها الليبيدية. وبوسعنا القول إن اقتناعنا بأن أهمية الأعراض تكمن تحديداً في كونها إشباعاً لبيدياً بدلاً لم يتثبت لنا بصورة نهائية إلا بعد أن تحقّقنا من واقعة التحويل.

والآن نملك أكثر من سبب لتصحيح تصورنا الدينامي السابق عن سيرورة الشفاء، وأكثر من سبب أيضاً للتوفيق بينه وبين هذه الرؤية الجديدة. فحين يتأهب المريض لشن الكفاح العادي السوي على المقاومات التي كشف له تحليلنا عن وجودها، يكون بحاجة إلى حافز قوي ليحسم الصراع في الاتجاه الذي نريده، أي في اتجاه الشفاء. ومن دون هذا قد يقرّ قراره على تكرار المخرج السابق، فيدع الكبت يخيم من جديد على ما جرى استدراجه إلى الوعي. وما يبت في مأل هذا الصراع ليس اقتناع المريض العقلي - فهو لا يكون على درجة كافية من القوة والتحرر للتصدي لذلك - بل فقط موقفه من الطبيب. فإن كان تحويله من النوع الايجابي، خلع على الطبيب سلطاناً عظيماً، وحول كلامه وآراءه إلى عقيدة إيمانية. وبدون هذا التحويل، أو إذا كان التحويل سلبياً، لم يعر المريض أقوال

طبيبه أي اهتمام. فالإيمان يكرر هنا تاريخ نشأته بالذات: فهو ثمرة الحب ولا يكون بحاجة إلى حجج في أول الأمر. وإنما في زمن لاحق فحسب يعلق الحب على هذه الحجج قدرأ كافياً من الأهمية ليخضعها للمحيص نقدي عندما تكون صادرة عن أشخاص محبوبين. أما الحجج التي لا يعززها صدورها عن أشخاص محبوبين فلا يكون لها، وما كان ليكون لها قط، أي أثر في حياة غالبية البشر. وعلى هذا، إن الإنسان لا يكون مأتاه، حتى من الجانب العقلي فيه، إلا بقدر ما يكون قادراً على توظيف موضوعاني لليبيديوي؛ ولدنيا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد - وهذا شيء يخشى حقاً - بأن درجة تأثيره بالتقنية التحليلية، بما فيها خيرها وأفضلها، مرتبهة بدرجة نرجسيته.

وعلى كل، إن القدرة على توجيه التوظيفات الموضوعانية للطاقة الليبيديوية نحو الأشخاص الآخرين خاصة ينبغي أن نقرّ بها لكل إنسان سوي. وما الميل إلى التحويل الذي لاحظناه في الأعصاب المشار إليها أعلاه إلا مظهر مشتط لهذه القدرة العامة. وعلى هذا، إنه لمن المستغرب حقاً ألا تكون مثل هذه السمة الخلقية من سمات البشر، على ما هي عليه من ذبوع وأهمية، قد لفتت إليها الانتباه وحظيت بما هي أهل له من التقدير. غير أنها لم تغب، في الحقيقة، عن بصيرة بعض المراقبين الثاقبي الفكر. ولقد دلل برنهايم على سداد فكر كبير بتأسيسه نظرية الظواهرات التنويمية على أطروحة تقول إن جميع بني الإنسان «قابلون للإحياء» بدرجات متفاوتة. وما أسماه بـ«قابلية الإحياء» ليس شيئاً آخر غير الميل إلى التحويل منظوراً إليه نظرة ضيقة بعض الشيء، أي محذوقاً منه التحويل السلبي. غير أن برنهايم ما أمكن له قط أن يقول لنا ما كنه الإحياء حقاً وكيف يحدث. فقد كان الإحياء عنده واقعة أساسية لا تحتاج إلى تفسير أصولها. وهو لم يربط التبعية الذي يربط «قابلية الإحياء» بالجنسية وبنشاط الليبيدو. ولزام علينا أن نعترف بأننا إن كنا تخلصنا في تقنيتنا عن التنويم، فقد التقينا الإحياء من جديد في صورة التحويل.

لكن هنا أتوقف وأدع الكلام لكم. وإني لأستشف أن ثمة اعتراضاً ينهض في أذهانكم بقوة سيعجزكم معها تتبع تنمة عرضي ما لم تطلقوا له حرية الإفصاح

عن نفسه. فكأن لسان حالكم يقول: «لقد انتهى بك الأمر إلى الإقرار بأنك تعمل بالاستعانة بالإيحاء، تماماً كما يفعل أنصار التنويم المغنطيسي. وهذا ما كنا نشبه فيه من البداية. فما يغنيك، والحالة هذه، استحضار ذكريات الماضي، وكشف اللاشعور، وتأويل التحريفات وإعادة ترجمتها، وكل ذلك الإنفاق الكبير في الجهد والوقت والمال، ما دام الإيحاء هو العامل الناجع الوحيد؟ ولم لا تلجأ إلى الإيحاء مباشرة في مقاومة الأعراض نظير ما يفعل الآخرون من شرفاء المؤمنين؟ وإذا أردت أن تعتذر عن ركوبك هذا المركب الوعر، فتعلت بالكشوف السيكلوجية الكثيرة والهامة التي تقول إنك توصلت إليها والتي لا يفلح الإيحاء المباشر في إمطة اللثام عنها، فما يضمن لنا صحة هذه الكشف؟ أفليس ممكناً أن تكون هذه الكشف بدورها من ثمرة الإيحاء، وعلى الأخص الإيحاء غير القصدي؟ أفلا يسعك، في هذا المجال أيضاً، أن تفرض على المريض ما تشاء وما يبدو لك صحيحاً وحقاً؟».

إن ما تقولونه لي لعلّ جانب كبير من الوجاهة، ويتطلب جواباً. لكني لا أستطيع أن أعطيككم الجواب اليوم، بالنظر إلى انقضاء الوقت. سأكتفي إذاً بأن أختتم بما بدأت. فقد كنت وعدتكم بأن أشرح لكم، بواسطة واقعة التحويل، السبب في ما تُمنى به جهودنا العلاجية من إخفاق في الأعصبة الرجسية.

سأفعل ذلك بقليل من الكلام، وسترون أن حلّ اللغز لفي منتهى البساطة، ويتمشى مع كل الباقي. فالمشاهدة تدلّ أن المرضى المصابين بالعصاب الرجسي لا يملكون قدرة على التحويل أو لم يبقَ لديهم منها سوى آثار لا تذكر. إنهم يصدفون عن الطبيب، لا بدافع العداء، وإنما عن لامبالاة. ولهذا لا منفذ لتأثيره إليهم؛ ومن ثم، إن آلية الشفاء، التي أثبتت نجعها البالغ لدى الآخرين والتي تقوم على أساس تجديد الصراع المُمرض والتغلب على المقاومة التي يبديها الكبت، لا تجدي فيهم. فهم ييقنون على ما هم عليه. وقد سبق لهم أن بذلوا من تلقاء أنفسهم محاولات لتصحيح الموقف، غير أن هذه المحاولات لم تتمخض إلا عن عواقب مرضية. ولسنا نملك أن نغيّر في الأمر شيئاً.

لقد أكدنا، استناداً إلى المعطيات السريرية التي أمدّنا بها هؤلاء المرضى، أن

الليبدو انفصل لديهم، ولا بدّ، عن المواضيع ليتحول إلى لبيدو أنوي. وقد خيّل إلينا أننا نستطيع، بالاستناد إلى هذه الخاصية، أن نتميّز العصاب الترجسي عن الفئة الأولى من الأعصاب (الهستيريا والعصاب الحصري والوسواسي). والحال أن مسلكهم أثناء المحاولة العلاجية يؤكد وجهة نظرنا هذه. فهؤلاء المرضى، عاجزون عن التحويل، يستعصون على جهودنا ولا سبيل إلى شفائهم بالوسائل التي في متناولنا.

المحاضرة الثامنة والعشرون

العلاج التحليلي

سيداتي سادتي، تعرفون ما هو موضوع حديثنا اليوم. فقد سألتُموني لماذا لا نستخدم في المعالجة النفسية التحليلية الإيحاء المباشر، ما دمنا نعرف بأن تأثيرنا يركز أساساً إلى التحويل، أي إلى الإيحاء. ثم أعربتم، إزاء هذا الدور الغالب الذي نخصّ به الإيحاء، عن شكوككم في موضوعية كشفنا السيكلوجية. وقد وعدتكم بإجابة مفصلة.

الإيحاء المباشر هو الإيحاء الموجّه ضد تظاهر الأعراض، هو الصراع بين سلطاتكم ونفوذكم وبين أسباب الحالة المرضية. فإن لجأتم إلى الإيحاء لم تشغلوا أنفسكم بهذه الأسباب، بل طلبتم فقط إلى المريض أن يكفّ عن التعبير عنها في صورة أعراض. والأمر سيان في هذه الحال إن نؤتمم المريض أو لم تنؤموه. ولقد كان برنهايم، بما أوتيّه من نفاذ بصيرة، أشار إلى أن الإيحاء هو الواقعة الأساسية في التنويم المغنطيسي، على اعتبار أن النوم نفسه هو نتيجة للإيحاء وحالة موحى بها؛ وقد أثر أن يمارس الإيحاء في حالة اليقظة لأنه قمين بأن يفضي إلى نتائج مماثلة لتلك التي يفضي إليها الإيحاء أثناء النوم.

ترى أي الشيئين أحظى الآن باهتمامكم: أمعطيات التجربة أم الاعتبارات النظرية؟ لنبدأ بالأولى. فقد كنت تلميذاً لبرنهايم وحضرت دروسه في نانسي سنة ١٨٨٩، وترجمت إلى الألمانية كتابه عن الإيحاء^(١). وقد طبقت على امتداد سنوات المعالجة التنويمية، مقرونة أولاً بالإيحاء الرادع، ومقرونة ثانياً

١ - في الواقع ترجم فرويد إلى الألمانية كتابين لبرنهايم: عن الإيحاء وتطبيقاته في العلاج، و التنويم والإيحاء والعلاج النفسي. هامش الترجمة الفرنسية الجديدة.

بالطريقة البرويرية في استكشاف حياة المريض. لديّ إذاً ما فيه الكفاية من الخبرة لأتكلم عن نتائج المعالجة التنويمية أو الإيحائية. فإن يكن العلاج المثالي هو العلاج الذي يعطي نتائج سريعة، وموثوقة، ولا يستكرهه المريض، بحسب قول طيّبٍ مأثور، فلا جدال في أن طريقة برونهايم كانت تحقق شرطين من هذه الشروط الثلاثة. فقد كانت قابلة للتطبيق بسرعة، بأسرع بكثير من الطريقة التحليلية، ثم إنها ما كانت تجسّم المريض تبعاً ولا تسبّب له اضطراباً. غير أنها كانت تغدو بالنسبة إلى الطبيب مع مرّ الزمن .. رتيبة، إذ كان عليه أن يلجأ، في جميع الحالات، إلى طريقة واحدة لا تبدل طقوسها في استئصال الأعراض الشديدة التنوع، من دون أن يتأتى له أن يفهم مدلولها أو يدرك أهميتها وخطورها. لقد كان ذلك ضرباً من العمل الآلي، لا يتّصف بأي صفة علمية، وأدنى إلى السحر والتعزيم والشعوذة. ولم يكن للطبيب مندوحة مع ذلك عن أداء هذا العمل من أجل صالح المريض. غير أن الشرط الثالث لم يكن متوفراً لهذه الطريقة، إذ لم تكن موثوقة بحال من الأحوال. فهي قابلة للتطبيق في بعض الحالات، وممتنعة عليه في حالات غيرها؛ وهي عظيمة النجع مع بعض المرضى، ومعدومته مع بعضهم الآخر، من دون أن ندري لذلك سبباً. والأسوأ من هذا التقلب المزاجي عدم ثبات نتائجها وقصر مدة نجاحها. فكثيراً ما كان يتناهى إلى علمنا بعد مرور بعض الوقت أن المريض قد انتكس أو أن مرضاً آخر عاده محلّ المرض الأول. وكان في مقدور الطبيب في مثل هذه الحال أن يلجأ ثانية إلى التنويم؛ غير أن سلطات كفوءة وعندها خبرة ومراس كانت حدّرت من الإسراف في استخدام التنويم: فقد تكون عاقبته إلغاء الاستقلال الذاتي للمريض من جراء تعويده عليه كما يعتاد على مخدّر من المخدرات. لكن حتى في الحالات - النادرة بلا ريب - التي كنا نؤفّق فيها، من دون أن نبذل جهوداً زائدة عن الحدّ، إلى نجاح تام ودائم، كنا نبقي على جهل بشروط هذه النتيجة الموفقة. وقد عرضت لي مرة حالة خطيرة للغاية، فأفلحت في إزالتها تماماً بعد معالجة تنويمية وجيزة، غير أنها ما لبثت أن انتكست، وتصادف انتكاسها فيما كانت المريضة قد شرعت تبدي إزائي عداً وكرهاً، فعملت على تصحيح مشاعرها هذه ووُفّقت إلى شفاء أكمل

مما في المرة الأولى، لكنها عادت إلى الانتكاس من جديد وعاد إليها موقفها العدائي مني. كما أن واحدة أخرى من مرضاي، كنت قد أفلحت في تخليصها بالتنويم من نوبات عصبية لمرات عدة، ألقت بنفسها على حين غرة على عنقي فيما كنت أعنتني بها أثناء نوبة جامحة. وأشابه هذه الوقائع ترغمنا، شئنا أو أئينا، على التساؤل عن طبيعة سلطتنا الإيحائية وأصلها.

تلك هي التجارب. وإنها لتدلنا على أننا، بتخلينا عن الإيحاء المباشر، لم نحرم أنفسنا من شيء لا غنى عنه. واسمحوا لي الآن بإبداء رأيي في هذا الموضوع. فاعتماد العلاج التنويمي لا يكلف الطبيب أو المريض جهداً يذكر. فهذه الطريقة العلاجية تتمشى كل التمشي مع الرأي الذي لا يزال سائداً عن الأعصاب في أغلب الأوساط الطبية. فالطبيب يقول للعصبي: «ما بك من شيء وما تشعر به هو من طبيعة عصبية ليس إلا، وبوسعي بوضع كلمات وفي بضع دقائق أن أخلصك من متاعبك». غير أن الطبيعة العقلية لمعرفتنا بالطاقة تأتي موقفاً كهذا: إذ كيف يمكن تحريك حمل ثقيل بالتصدي له مباشرة بمجهود طفيف وبدون معونة آلة خاصة؟ ويقدر ما يمكن للشروط أن تتشابه، تدلنا التجربة أن هذه الحيلة لا تنجح في الأعصاب أكثر مما في الميكانيكا. غير أنني أعلم أن هذه الحجة ليست منيعة لا مطعن عليها، وأعلم أن هناك أيضاً «انفلاتات».

إن المعرفة التي حصلناها بفضل التحليل النفسي تبيح لنا أن نصف الفوارق بين الإيحاء التنويمي والإيحاء التحليلي النفسي على الوجه التقريبي الآتي: فالمعالجة التنويمية تسعى إلى تغطية شيء ما في الحياة النفسية وإلى تمويهه، بينما تسعى المعالجة التحليلية، على العكس، إلى تعريته وتصفيته. الأولى تفعل وكأنها طريقة تجميلية، والثانية وكأنها طريقة جراحية. المعالجة التنويمية تستخدم الإيحاء لتحجر على الأعراض، وتعزز ضروب الكبت، ولا تَمَسُّ في شيء السيرورات التي تمخضت عن تكوين الأعراض. أما المعالجة التحليلية فحين تواجه صراعاً تمخضت عنه أعراض تسعى إلى النفاذ إلى الجذور وتستخدم الإيحاء لتعُدّل مآل الصراع في الاتجاه الذي تريد. المعالجة التنويمية تترك المريض سالباً، بلا تغيير، وبالتالي بلا مزيد من المقاومة إزاء أي مسبب جديد للاضطرابات المرضية. وبالمقابل تتطلب

المعالجة التحليلية من الطبيب والمريض جهوداً شاقة بقصد التغلب على المقاومات الداخلية. ومتى ما دُلَّت هذه المقاومات، تكن حياة المريض النفسية قد تغيّرت بصورة دائمة، وارتقت إلى درجة أعلى من النمو والتطور، وصارت بمأمن من كل احتمال مَرَض جديد. وهذا المجهود الكفاحي ضد المقاومات هو المهمة الرئيسية للمعالجة التحليلية، وهي مهمة تقع على عاتق المريض بمعونة الطبيب الذي يلجأ إلى الإيحاء الفاعل باتجاه تربوي. وعلى هذا قيل بحق إن العلاج التحليلي النفسي ضرب من تربية لاحقة.

أعتقد أنني أوضحت لكم ما وجه الاختلاف بين طريقتنا في استخدام الإيحاء لهدف علاجي وبين الطريقة الوحيدة الممكنة لاستخدامه في المعالجة التنويمية. وبفضل إرجاع الإيحاء إلى التحويل، بات في ميسوركم أن تفهموا أسباب ذلك التقلب الملفت للنظر في المعالجة التنويمية، بينما يمكن حساب نتائج المعالجة التحليلية والركون إليها حتى آخر مراحلها. فعند اللجوء إلى التنويم يكون كل اعتمادنا على قدرة المريض على التحويل، من دون أن يكون في مستطاعنا التأثير بأدنى قدر على هذه القدرة. والتحويل عند الفرد الذي نريد تنويمه يمكن أن يكون سلبياً، أو متسماً بالازدواجية كما في الكثرة الغالبة من الأحوال؛ وليس من المستبعد أن يحتمي الفرد من طاقة التحويل عنده بتدابير ومواقف يصطنعها لنفسه سلفاً، وهذا كله لا نعرف عنه شيئاً. أما في التحليل النفسي فإننا نشغل على التحويل نفسه، فننحي كل ما يتعارض وإياه، ونجهّز الأداة التي نريد بواسطتها أن نمارس تأثيرنا. وهكذا يتسنى لنا أن نجتني فائدة مغايرة من قوة الإيحاء، إذ يصبح طيّعاً بين أيدينا؛ فليس المريض وحده من يتصرف بقابليته للإيحاء كما يحلو له، بل نتولى نحن توجيه هذه القابلية بقدر ما يمكن له، بصفة عامة، أن يفيد من تأثيرها.

ستقولون لي الآن إنه ليس من المهم أن نسمي القوة المحركة لتحليلنا «تحويلاً» أو «إيحاء»، ففي الحالين كليهما يلقي التأثير الذي نمارسه على المريض ظلالاً من الشبهة والشك على القيمة الموضوعية لملاحظاتنا وكشوفنا. فما يفيد العلاج قد يضرّ بالبحث. وهذا هو الاعتراض الذي غالباً ما يوجّه إلى التحليل النفسي، ولا

مفروضاً لي من التسليم بأنه وإن يكن خاطئاً فليس لنا أن نردّه كما لو أنه غير معقول. وأما لو كان مسوّغاً وله ما يبرّره فلن يكون التحليل النفسي في هذه الحال إلا ضرباً من العلاج بالإيحاء، من نوع بالغ النجع والفعالية، ومن ثم ليس لنا أن ننظر بعين الجِدِّ إلى أية أطروحة من أطروحاته بصدد المؤثرات الحياتية، والدينامية النفسية، واللاشعور. وهذا ما يراه بالفعل خصومنا، فيزعمون على الأخص أن أطروحاتنا عن أهمية التجارب المعاشة الجنسية، بله هذه الحياة نفسها، لا تعدو أن تكون من نسج خيالنا الفاسد، وأن كل ما يقوله المرضى في هذا الخصوص إنما هو من وحيّنا ومما نغرسه في أذهانهم. ودحض هذه الاعتراضات بأدلة من معين التجربة أسهل من دحضها بالاعتبارات النظرية. وكل من مارس بنفسه التحليل النفسي تسنى له أن يتحقق أكثر من مرة من أنه من المتعذر الإيحاء إلى المريض إلى هذا الحدّ. وليس من العسير بطبيعة الحال حمل المريض على مناصرة نظرية بعينها وعلى مشاطرة الطبيب في معتقد خاطئ له. ويتصرف المريض عندئذ كما يتصرف أي إنسان آخر، أي كتلميذ؛ وكل ما في الأمر أن التأثير يكون قد طال في هذه الحال ذكائه، لا مرضه. ولا يُقَيِّضُ النجاح لحلّ الصراعات التي يقاسي منها المريض ولإزالة مقاوماته إلا حين تكون «التصورات التوقعية» التي تقدّمها له مطابقة لديه للواقع الفعلي. وأما ما لا يتفق من مفترضات الطبيب مع هذا الواقع فإنه يتلاشى ويزول من تلقاء نفسه في أثناء التحليل، ويتوجب استبعاده ليفسح في المجال أمام مفترضات أخرى أقرب إلى الصحة تحلّ محلّه. وينبغي لنا أن نعتد خطة مناسبة وبقطة للحؤول دون تخلف نجاحات عابرة عارضة عن الإيحاء؛ ولكن حتى لو قامت مثل هذه النتائج، لا يكون في ذلك ضرر كبير، لأننا لا نقنع أبداً بأول نجاح لنا. فالتحليل لا ينتهي ما لم تجلّ جميع النقاط الغامضة في الحالة، وما لم تُسدّد جميع الثغرات الذاكرية، وما لم يطمّ اللثام عن جميع ظروف الكبت. ومن الواجب أن نرى في النجاح الذي نحزّه بسرعة أكبر مما ينبغي عقبة أمام العمل التحليلي أكثر منه ظرفاً مؤقتاً له، وأن نبادر إلى هدم هذا النجاح بالغائنا دوماً وباستمرار التحويل الذي يقوم عليه. والواقع أن هذه السمة الأخيرة هي التي تميّز المعالجة التحليلية عن المعالجة الإيحائية الخالصة، وتحرر

نتائج التحليل من شبهة كونها نتيجة لنجاح الإيحاء. ففي كل معالجة إيحاءية، أياً كان شأنها، يصاب التحويل بعناية ولا يمس؛ أما في المعالجة التحليلية فيكون هو نفسه موضوعها، إذ تسعى إلى إمالة اللثام عنه وتفكيكه إلى كل شكل من أشكال تظاهره. وفي نهاية المعالجة التحليلية يتعين هدم التحويل نفسه. وإذا تأتى لنا أن نظفر بنجاح دائم، كان ارتكاز هذا النجاح لا إلى الإيحاء المحض، بل إلى النتائج المتحصلة بواسطة الإيحاء: التغلب على المقاومات الداخلية وما استتبع ذلك من تغيير داخلي في نفس المريض.

طرداً مع تعاقب الإيحاءات أثناء المعالجة التحليلية، يتعين علينا أن نتصدى باستمرار للمقاومات التي تعرف كيف تتحول إلى ضروب سلبية (عدائية) من التحويل. ولن يفوتنا أن نعود إلى التأكيد هنا بأن الكثير من نتائج التحليل، التي قد نميل إلى اعتبارها من ثمرة الإيحاء، إنما تتبع من مصدر آخر لا يمكن أن يكون موضع ممارسة. وشاهدنا على ذلك المصابون بالخلل والبارانويا الذين ليس لأحد بطبيعة الحال أن يشتبه في أنهم تلقوا أو يمكن أن يتلقوا تأثيراً إيحاءياً. فما يرويه لنا هؤلاء المرضى من خلال أخايلهم وترجمتهم للرموز يتفق مع النتائج التي تحصلت لنا من أبحاثنا عن اللا شعور في الأعصاب التحويلية، ويؤيد بالتالي الصحة الموضوعية لتأويلاتنا التي غالباً ما جرى التشكيك بها. وأعتقد أنكم لا تجازفون بالتورط في الخطأ فيما لو محضتم التحليل ثقتكم كاملة بصدد هذه النقاط.

لنستكمل الآن عرض آلية الشفاء بالتعبير عنها بمفردات نظرية الليبيدو. فالمعصوب عاجز عن الاستمتاع وعن الفعل والإنجاز: عاجز عن الاستمتاع لأن الليبيدو عنده غير موجه نحو أي موضوع واقعي، وعاجز عن الفعل لأنه مرغم على إنفاق قدر كبير من الطاقة للإبقاء على لبيدواه في حالة كبت ولتحمي هجماته. ولا سبيل أمامه إلى الشفاء إلا بعد أن ينتهي الصراع بين أنه وليبيدواه ويظهر الأنا من جديد على الليبيدو. إذاً فالمهمة العلاجية تتلخص في تحرير الليبيدو من متعلقاته الراهنة التي لا ممسك للأنا عليها، وفي وضعه من جديد في خدمة هذا الأنا. أين يوجد لبيدو العصائي إذ؟ من السهل الإجابة عن هذا

السؤال: إنه يكون عالماً بالأعراض التي تكفل له الإشباع البديل الوحيد الممكن في الوقت الحاضر. وعليه، ينبغي أن نسيطر على الأعراض التي تولدت عنه، وأن نوجه هذا الصراع نحو حلٍّ آخر، مستعينين بعوامل ما كانت في متناول المريض يوم نشأت الأعراض. هذه المراجعة للسيرورة التي أفضت إلى الكبت لا يمكن القيام بها إلا بصورة جزئية عن طريق تقصينا الآثار التي خلفتها. والشرط الحاسم من مهمتنا هو أن نستحدث، انطلاقاً من موقف المريض من الطبيب، أي انطلاقاً من «التحويل»، طبقات جديدة من الصراعات القديمة، بحيث يتصرف المريض فيها كما كان تصرف في صراعاته القديمة، مع فارق وحيد وهو أنه يستنفر هذه المرة كل قواه النفسية المتاحة ليصل إلى حلٍّ مغاير. هكذا يغدو التحويل ساحة حرب تتواجه وتتصادم فيها جميع القوى المتصارعة.

إن كل الليبدو وكل المقاومة التي يواجهها يتركزان بأسرها في موقف المريض من الطبيب؛ وعليه يكون من المحتم أن يقع انفصال بين الأعراض والليبدو، فتبتدى تلك متجردة عن هذا. وعوضاً عن المرض الفعلي، نواجه الآن التحويل المستحدث اصطناعياً، أو إذا شئتم، مرض التحويل؛ وعوضاً عن مواضيع الليبدو، المتنوعة بقدر ما هي لواقعية، يمسى لدينا الآن موضوع واحد، وإن يكن بدوره وهمياً: شخص الطبيب. غير أن الإيحاء الذي يلجأ إليه الطبيب يرقى بالصراع الذي يدور حول هذا الموضوع إلى أسنى مستوى نفسي، بحيث يغدو هذا الصراع محض صراع نفسي سوي. وبحؤولنا دون حدوث كبت جديد نضع حداً للانفصال بين الأنا والليبدو، ونردّ إلى الشخصية وحدتها النفسية. وحين ينفصل الليبدو أخيراً عن هذا الموضوع العابر الذي هو شخص الطبيب، لا يعود في مقدوره أن يرتدّ إلى مواضيعه السابقة، بل يمسى الآن تحت تصرف الأنا. أما القوى التي نكون قد تصدينا لها بالمكافحة في أثناء هذا العمل العلاجي فهي، من جهة أولى، نفور الأنا من بعض توجهات الليبدو، وهو النفور الذي يتظاهر في النزوع إلى الكبت، ومن الجهة الثانية، قوة لصوق الليبدو أو لزوجه - إن جاز القول - التي تجعله لا ينفصل طوعاً وعن طيبة خاطر عن المواضيع التي تعلّق بها.

من الممكن إذا تقسيم العمل العلاجي إلى طورين: في أولهما ينفصل الليبدو برمته عن الأعراض ليتثبت ويتركز في التحويل؛ وفي ثانيهما يدور الصراع حول هذا الموضوع الجديد الذي تتمكن في آخر الأمر من تحرير الليبدو منه. ولا نظفر بهذه النتيجة المؤاتية إلا إذا أفلحنا، في أثناء هذا الصراع الجديد، في الحؤول دون حدوث كبت جديد يتيح لليبدو أن يفلت مرة ثانية من قبضة الأنا ليلوذ بحمي اللاشعور. ونحن نتوصل إلى ذلك بفضل ما يطرأ من تغيير على الأنا تحت تأثير الإيحاء الطبي. فبنتيجة العمل التأويلي الذي يحوّل اللاشعوري إلى شعوري، يكبر الأنا على حساب هذا اللاشعور؛ وتحت تأثير النصائح التي تسدى إليه يغدو أكثر تسامحاً إزاء الليبدو وأكثر استعداداً لمنحه شيئاً من الإشباع؛ وتخفّ وطأة المخاوف التي كانت تنتاب المريض إزاء متطلبات الليبدو بفضل ما متاح له من إمكانية للانعقاد والتحرر عن طريق إسماء جزء من الطاقة الليبدوية. وكلما اقترب تقدم السيوررات وتعاقبها في أثناء المعالجة من هذا الوصف المثالي، تعاظمت فرص العلاج التحليلي النفسي في النجاح. أما ما قد يحدّ من هذا النجاح فهو، من جهة أولى، النقص في حركية الليبدو الذي لا يرضى بالانفصال بسهولة عن المواضيع التي تثبت عليها، ومن الجهة الثانية تصلب الترجسية الذي لا يسمح بالتحويل الموضوعاني إلا بقدر محدود. ولعل ما سيزيد في فهمكم لدينامية السيوررة الشفائية أن تعلموا أننا نعتقل ونحتجز كل الليبدو الذي أفلت من قبضة الأنا، باجتماعنا إلينا شطراً كبيراً منه عن طريق التحويل.

ويحسن أن تعلموا أننا لا نستطيع أن نستخلص من مواضع توزّع الليبدو في أثناء العلاج وعن طريقه أي استنتاج مباشر عن مكان تموضعه Localisation في الحالة المرضية. لنفرض أننا لاحظنا، في أثناء العلاج، تحويلاً لليبدو باتجاه الأب، وأنا أفلحنا في فصله عن هذا الموضوع وفي اجتذابه إلى شخص الطبيب: والحال أننا سنخطئ لو استنتجنا من هذه الواقعة أن المريض كان يعاني فعلاً من تثبيت لاشعوري لليبدواه على شخص الأب. فما التحويل باتجاه شخص الأب إلا ساحة الحرب التي فيها نأسر الليبدو ونسيطر عليه في آخر العراك؛ ولكن هذا لا

يعني أن هذه الساحة كانت واحدة من قلاع العدو المهمة. فالدفاع عن العاصمة العدو ليس بحاجة إلى أن يدور أمام أبوابها بالذات. وإنما فقط يعد أن نهدم التحويل الأخير يتأتى لنا أن نعيد ذهنياً تحديد مكان تموضع الليبدو في أثناء المرض.

ومن منطلق نظرية الليبدو نستطيع أيضاً أن نضيف بضع كلمات أخيرة بصدد الحلم. إن أحلام المعصوين، كهفواتهم وتداعياتهم الحرة العفوية، تفيدنا في النفاذ إلى مغزى أعراضهم وتعيننا على اكتشاف مكان تموضع الليبدو. فهي، إذ تتخذ شكل رغبات متحققة، تكشف عن الرغبات التي تعرضت للكبت وعن المواضيع التي تعلق بها الليبدو الفالت من قبضة الأنا. لذا يلعب تأويل الأحلام دوراً هاماً في التحليل النفسي، بل كان في العديد من الحالات ولفترة طويلة من الزمن وسيلة عمله الرئيسية. وقد رأينا من قبل أن حالة النوم بما هي كذلك تؤدي إلى بعض التراخي في ضروب الكبت. ومن جراء هذا التخفيف للعبء الذي ترزح تحته الرغبة المكبوتة، يتأتى لها أن تتخذ في الحلم تعبيراً أوضح وأجلى بكثير من ذاك الذي يتيح لها العرض في حياة اليقظة. هكذا تفتح لنا دراسة الحلم أيسر مدخل إلى معرفة اللاشعور المكبوت الذي ينتمي إليه الليبدو الفالت من قبضة الأنا.

على أن أحلام المعصوين لا تختلف في أي وجه رئيسي عن أحلام الأشخاص الأسوياء؛ ولا يكفي أن نقول إنها لا تختلف عنها، بل يصعب تمييز بعضها عن بعض. ومن اللامنطقي أن نحاول إعطاء أحلام الأشخاص المعصوين تفسيراً لا يصدق على أحلام الأشخاص الأسوياء. ومن ثم يتعين علينا أن نقول إن الفارق بين العصاب والصحة لا يتجلى إلا في حياة اليقظة في كلتا هاتين الحالتين، ويتلاشى في الأحلام الليلية. ولزام علينا بالتالي أن نطّبق وأن نسحب على الإنسان السوي طائفة من المعطيات التي نستخلصها من العلاقات بين أحلام المعصوين وأعراضهم. ويتعين علينا أن نعترف بأن الإنسان الصحيح المعافى يملك، هو الآخر، في حياته النفسية ما يتيح الإمكانية لتكوين أحلام ولتكوين أعراض، ويتحتم علينا بالتالي أن نستنتج من ذلك أنه يفرض على نفسه، هو

الآخر، ضرورياً من الكبت، وأنه ينفق قسماً من الطاقة للحفاظ عليها، وأن نسقه اللاشعوري ينطوي على رغبات مكموعة، لا تزال مشحونة بالطاقة، وأن شطراً من لبيدواه يفلت زمامه من قبضة أناه. إذا فالإنسان الصحيح المعافى معصوب هو أيضاً بالقوة، لكن الحلم هو العرض الوحيد الذي يبدو أن في مقدوره تشكيكه. غير أن هذا محض ظاهر، إذ لو أخضعنا حياة اليقظة لدى إنسان سوي لتحليل نافذ لاكتشفنا أن حياته الموصوفة بأنها سوية تزخر بطائفة كبيرة من الأعراض، وإن تكن - والحق يقال - غير ذات بال ولا أهمية لها تذكر من الناحية العملية.

إن الفارق بين الصحة العصبية وبين العصاب لا يعدو إذاً أن يكون فارقاً على مستوى الحياة العملية، ويتوقف على درجة الاستمتاع والفعل والإنجاز التي لا يزال الفرد قادراً عليها. وربما جاز أن نردّه إلى النسب ما بين كميات الطاقة التي بقيت حرة وكميات الطاقة التي تجمدت من جراء الكبت. إذاً، هو فارق كمي لا كيفي. ولست بحاجة إلى تذكيركم بأن هذه الرؤية تقدم أساساً نظرياً لما أعربنا عنه من اقتناع بأن الأعصاب قابلة للشفاء من حيث المبدأ، وإن يكن مرتكزها إلى استعداد جيلي مسبق.

هذا كل ما يمكن لنا أن نستنتجه بصدد مؤشرات الصحة وعلاماتها من التماثل بين أحلام الأشخاص المعافين وأحلام الأشخاص المعصوبين. أما فيما يتصل بالحلم نفسه فتنتجم عن هذا التماثل نتيجة أخرى، وهي أنه لا يجوز لنا أن نفصل الحلم عن صلاته بالأعراض العصابية، وأنه لا يجوز لنا أن نتصور أننا أبناء عن طبيعة الحلم بما فيه الكفاية حينما قلنا إنه محض شكل أثري قديم للتعبير عن بعض الأفكار والخواطر، وأنه يتعين علينا أخيراً أن نقرّ بأنه يهديننا إلى مواقع تموضع الليبدو وتوظيفاته الموضوعانية الفعلية.

* * *

شارفت الآن على ختام عرضي. ولعلي خييت ظنكم إذ لم أحدثكم في هذا الفصل الذي مداره على العلاج التحليلي إلا عن اعتبارات نظرية، ولم أذكر لكم شيئاً عن الشروط التي تنصدي فيها للعلاج، ولا عن النجاحات التي يحققها هذا

العلاج. وسأستكشف عن هاتين النقطتين. عن الأولى لأنه ليس في نيتي أن أقدم لكم دليلاً عملياً لممارسة التحليل النفسي، وعن الثانية لأن أسباباً عديدة تحدوني إلى ألا أخوض في ذلك. لقد قلت لكم، من أول أحاديثنا، إننا نتوصل، في الظروف المؤاتية، إلى نجاحات علاجية لا تقل روعة عن أروع النتائج التي يتم التوصل إليها في مضمار الطب الداخلي، وبوسعي أن أضيف بعد أن النجاحات في التحليل النفسي لا يمكن أن تظفر بها أية طريقة أخرى من طرائق العلاج. ولو قلت لكم أكثر من هذا، فلربما اشتبهتم بأني أريد أن أطمس بهذا الإعلان الصاحب على أصوات المشتعين علينا التي قاربت أن تكون زعيقاً. فقد هدّد بعض الزملاء أنصار التحليل النفسي، حتى في أثناء مؤتمرات مهنية عامة، بفتح أعين الجمهور على عقم طريقتنا في المعالجة عن طريق نشر قائمة بالحالات التي منيت بها بالإخفاق، وحتى بالنتائج المفجعة التي يقال إنها تمخّضت عنها. لكن بصرف النظر عن الطابع المقيت لهذا الأسلوب الذي يقارب أن يكون ضرباً من وشاية حاقدة، فإن نشر مثل تلك القائمة التي يتوعدوننا بها لا يمكن اتخاذه بيّنة لإصدار حكم مطابق على الفعالية العلاجية للتحليل. فالعلاج التحليلي، كما تعملون، حديث النشأة، وقد اقتضانا سنين كثيرة كي نضع قواعد تقنيته، وما أمكننا أن نفعل ذلك أصلاً إلا في أثناء العمل نفسه واستجابة للتجربة المباشرة المتنامية. وبالنظر إلى ما يكتنف تعليم هذا الفرع من فروع الطب من صعوبات، فإن الطبيب المبتدئ في التحليل النفسي مكره، أكثر من أي اختصاص آخر، على الاعتماد على قواه وجهوده الخاصة ليبرع في فنه؛ ومن ثم، إن النتائج التي يمكن أن يحرزها في السنوات الأولى من الممارسة لا يمكن أن تقوم دليلاً موجباً أو سالباً على نجع المعالجة التحليلية.

لقد مُني كثير من المحاولات العلاجية بالفشل في بداية التحليل النفسي، لأنها أجريت على حالات لا تدخل ضمن نطاق طريقته، ونحن نستبعد هذا اليوم من عداد صلاحياته. لكن بفضل هذه الحالات تحديداً أمكن لنا أن نحدد نطاق عمله. فما كان لنا أن نعرف سلفاً أن الجنون الهذائي والحبل المبكر، في طورهما المتقدم، يستعصيان على التحليل النفسي، وكان لا يزال من حقنا أن نجرب هذه

الطريقة على طائفة واسعة من أشباه هذه الأمراض. إلا أنه من الإنصاف أن نقول إن معظم الإخفاقات في تلك السنوات الأولى ينبغي أن يعزى لا إلى قلة خبرة الطبيب أو إلى سوء اختياره للموضوع، بل بالأحرى إلى ظروف خارجية غير مؤاتية. فنحن لم نعالج سوى المقاومات الداخلية، أي مقاومات المريض التي هي محتمة وممكن التغلب عليها. لكن هناك أيضاً مقاومات خارجية، وهي تلك التي تأتي من الوسط الذي يعيش فيه المريض ويخلقها أهله ومحيطه؛ ولئن تكن معدومة الأهمية نظرياً، فإنها جسيمة الخطر عملياً. وآية ذلك أن العلاج التحليلي النفسي أشبه ما يكون بعملية جراحية، فلا سبيل إلى إجرائه، نظيرها تماماً، إلا إذا قُلِّصت احتمالات الفشل إلى أدنى حدٍّ ممكن، وأنتم تعلمون كم من الاحتياطات يتخذ الجراح: غرفة مناسبة، إضاءة جيدة، مساعدون ذوو خبرة، استبعاد أهل المرض، إلخ. ترى كم من العمليات الجراحية يمكن أن يكتب لها النجاح لو كان من المحتمل أن تجرى بحضور جميع أفراد الأسرة، فيحيطون بالطبيب والمريض ويصيحون ويصرخون كلما أعمل مبضعه؟ إن حضور الأهل في المعالجة التحليلية النفسية خطر محقق، وخطر لا تملك درعاً له. إن لدينا من السلاح ما نستطيع أن نواجه به المقاومات الداخلية الصادرة عن المريض والتي نعلم أنها محتمة لا مناص منها؛ لكن كيف ندود عن أنفسنا شرَّ تلك المقاومات الخارجية؟ فأما فيما يتصل بذوي المريض فليس لنا من مدخل إليهم عن طريق الشرح، ومن المحال أن نجعلهم ينقادون للصواب وأن نقنعهم بحزم أمرهم على التنحي عن المسألة كلها. ثم إنه لا يجوز لنا، من جهة أخرى، أن نتحالف وإياهم أو أن ننحاز إلى جانبهم، إذ نجازف عندئذ بأن نخسر ثقة المريض الذي يتطلب، بحق أصلاً، أن يقف الشخص الذي يركن إليه ويكاشفه بما في نفسه إلى جانبه دوماً وفي كل الظروف. ومن يعلم منكم ألوان الشقاق التي تمزق الأسرة في كثير من الأحيان، فلن يدهشه أن يلاحظ، وهو يمارس التحليل النفسي، أن أقارب المريض يؤثرون في أحوال كثيرة أن يبقى على ما هو عليه على أن يروه ييراً ويشفى. وفي الحالات التي يكون فيها للعصاب صلة بالمنازعات بين أفراد الأسرة الواحدة - وما أكثر هذه الحالات - لا يبدى الصحيح المعافى تردداً البتة فيما لو تعيّن عليه أن

يختار بين مصلحته الخاصة وبين شفاء المريض. فلا غرو إذاً ألا يرحب الزوج بعلاج من شأنه، كما يشتبه بحق، أن يؤدي إلى كشف النقاب عن أخطائه وذنوبه. ونحن المحللين النفسيين لا ندهش لهذا، ولكننا نصدّ عن أنفسنا كل ملامة إذا لم يكتب لعلاجنا النجاح أو إذا اضطررنا إلى إيقافه لأن مقاومة الزوج جاءت تعزز مقاومة الزوجة المريضة. إذ نكون في هذه الحال قد شرعنا بشيء كان يستحيل أصلاً، في الظروف القائمة، تحقيقه.

لن أسوق لكم، بين جملة من الحالات، سوى مثال واحد فرضت عليّ فيه اعتبارات طبية خالصة الاضطلاع بدور ضحية صامتة. قبل بضع سنوات شرعت بتطبيق العلاج التحليلي على فتاة استبدّ بها منذ عهد بعيد حصر شديد صارت معه لا تستطيع أن تخرج إلى الشارع ولا أن تبقى وحدها في البيت. وبعد طول تردد اعترفت لي الفتاة بأن مخيلتها أسيرة ما لاحظته مصادفة واتفاقاً من وجود علاقة غرامية بين أمها وبين رجل ثري من أصدقاء الأسرة. غير أنها لخرقها - أو لحدقها - أطلعت أمها على ما كان يدور بيننا في أثناء جلسات التحليل النفسي؛ وعلى الأثر تغيّر موقف الفتاة من أمها، وصارت لا تريد أن تذود عن نفسها خوف الوحدة إلا بصحبته، فتعترض عليها كلما أرادت الخروج من المنزل. وكانت الأم نفسها قد عانت في الماضي من آفة عصبية وتلقّت علاجاً ناجعاً في إحدى مؤسسات الاستشفاء المائي. ولنضف أنها تعرفت في المؤسسة المذكورة إلى الرجل الذي قامت بينه وبينها في وقت لاحق صلات وجدت فيها كل منية نفسها. وإزاء المطالب المشتطة التي صارت ابنتها تواجهها بها، فطنت على حين غرة إلى ما يعنيه خوفها وحصرها. فقد فهمت أن ابنتها استسلمت للمرض حتى ترهن حريتها هي وتخرمها من إمكانية ملاقة عشيقها. وبقرار مباغت وضعت الأم حداً للعلاج الخاسر بالنسبة إليها. وأوكلت أمر الفتاة إلى مؤسسة للأمراض العصبية حيث صار يشار إليها، على مدى سنوات، على أنها «ضحية مسكينة للتحليل النفسي». ولكم عاد عليّ هذا المأل الفاشل للعلاج من لوم وتبكيّت! لكنني لزمّت الصمت، إذ كنت أشعر بأني مقبّد بواجب الكتمان المهني! ولم أعلم إلا بعد مضيّ فترة طويلة، وعن طريق زميل لي زار تلك المؤسسة وسنحت

له الفرصة لرؤية تلك الفتاة التي كانت تقاسي من رهاب الخلاء Agoraphobie، أن العلاقات بين الأم وصديق الأسرة الغني معلومة للقاصي والداني، وأن الزوج والأب كان في أرجح الظن يحبّها ويشجّعها. إذاً من أجل الحفاظ على هذا «السّر» كانت التضحية بالعلاج.

في السنوات التي سبقت الحرب، ويوم تدفقت من شتى أرجاء المعمورة أعداد كبيرة من الأجانب الذين أتاحوا لي أن استقل بنفسي عما ألاقه في مدينة آبائي^(٢) من استحسان أو استهجان، أخذت على نفسي عهداً ألا أعالج مريضاً لا يكون مسؤولاً عن نفسه ومستقلاً عن كل كائن سواه في صلات حياته الأساسية. وهذه قاعدة لا يملك كل محلل نفسي أن يفرضها على نفسه وأن يتقيّد بها. لكن بما أنني أحذركم من ذوي المريض، فقد تميلون إلى الاستنتاج أن المرضى الذين يتصدى التحليل النفسي لمعالجتهم يجب أن يفصلوا عن أسرهم، وأن علاجنا لا يسري إلا على نزلاء مؤسسات الأمراض العصبية. وهذا رأي لا أراه إطلاقاً: فمن الأجدى بكثير للمرضى، إذا لم يكونوا في حالة خطيرة من الإعياء، أن يتابعوا حياتهم أثناء فترة المعالجة في ظل نفس الشروط التي يتعرّن عليهم فيها أن يجدوا حلولاً للمشكلات التي تواجههم. ويكفي في هذه الحال ألا يتدخل الأهل فيبطلوا هذه الميزة بموقفهم، وألا يظهروا بالإجمال أي عداة ومعارضة لجهود الطبيب. لكن ما أشقّ الحصول على هذه الأشياء! ولن يطول بكم الأمر بطبيعة الحال لتدركوا ما للبيئة الاجتماعية ولوضع الأسرة الثقافي من أثر في نجاح العلاج أو إخفاقه.

ألا ترون أن هذا كله ليس من شأنه أن يعطيكم فكرة سامية عن نجح التحليل النفسي كطريقة علاجية، حتى وإن كانت أغلب إخفاقاتنا غير مرهونة إلا بعوامل تشويش خارجية؟ لقد حثّني أصدقاء للتحليل النفسي على أن أضع إحصائية بالحالات التي أصبنا فيها نجاحاً في مقابل لائحة الإخفاقات التي نلام عليها. غير أنني لم أقبل بنصيحتهم. وقد احتججت لرفضني هذا بأن الإحصاء

يكون عديم القيمة إذا لم تكن الوحدات الجدولية المقارن بينها متشابهة بما فيه الكفاية؛ والواقع أن حالات الإصابات العصبية التي أخضعت للعلاج التحليلي النفسي كانت تختلف فيما بينها اختلافاً يَبْيناً من وجوه شتى. أضف إلى ذلك أن الفترات التالية للشفاء كانت أقصر من أن تأذن لنا بأن نجزم بأن الشفاء دائم فعلاً، ناهيك عن أننا في حالات كثيرة أخرى لا نستطيع حتى أن ندلي بمعلومات في هذا الخصوص. والحالات الأخيرة هذه هي حالات الأشخاص الذين يفرضون السرية على مرضهم وعلاجهم على حدّ سواء، والذين لم يكن مفرّاً بالتالي من إبقاء شفائهم طيّ الكتمان. بيد أن أقوى اعتبار حملني على عدم الأخذ بتلك النصيحة هو خبرتي بمسلك الناس اللاعقلاني إزاء مسائل العلاج، وبضعف احتمال إقناعهم بالحجج المنطقية، حتى ولو كانت مستمدة من المشاهدة والتجربة. فالبدعة العلاجية تُستقبل إما بحماسة صاخبة كما حدث مع اكتشاف كوخ Koch^(٣) الأول للسّلين، وإما بريبة وتشكيك مثبّطين للعزائم كما حدث مع لقاح جَنَر Jenner^(٤) الذي كان عميم النفع حقاً والذي لا يزال له إلى اليوم خصوم ألداء. وقد اصطدم التحليل النفسي بموقف متحيّز سافر. فحين كنا نتكلم عن شفاء حالة صعبة كان يقال رداً علينا: هذا لا يثبت شيئاً، فبمثل هذا الوقت الطويل كان من المحتّم أن يشفى مريضك حتى ولو لم يخضع لمعالجتك. وقد جاءني يوماً مريضة مرّت بأربعة أدوار من الكآبة والهوس، فأخضعتها للعلاج التحليلي النفسي في الوقفة التي أعقبت نوبة سويداء، لكنها ما لبثت، بعد ثلاثة أسابيع من بدء العلاج، أن عرضت لها بداية مرحلة هوس جديدة، فإذا بجميع أفراد أسرتها، يؤيدهم في ذلك طبيب من الثقات أُستدعي لأخذ مشورته، يعربون عن اقتناعهم بأن هذه النوبة الجديدة لا يمكن إلا أن تكون نتيجة للعلاج الذي حاولته المريضة. وليس في اليد من حيلة إزاء الأحكام والآراء المسبقة. ولا

٣ - روبرت كوخ: طبيب وعالم جراثيم ألماني (١٨٤٣ - ١٩١٠). مكتشف عُصَيّة السّل، وكذلك السّلين، أي لقاح السّل المعروف أيضاً باسم مصل كوخ. «م».

٤ - إدوارد جَنَر: طبيب إنكليزي (١٧٤٩ - ١٨٢٣)، مكتشف لقاح جذري البقر. «م».

مندوحة لنا من الانتظار، تاركين للزمن أن يعفّي عليها. ولا بدّ أن يأتي يوم يرى فيه الناس أنفسهم إلى الأشياء نفسها بغير ما كانوا يرون إليها بالأمس. لكن لماذا لم يروا إليها بالأمس كما يرون إليها اليوم؟ هذا لغز مبهم وعويص فهمه علينا وعليهم على حدّ سواء.

على أنه من المحتمل أن يكون الحكم المسبق المناوئ للعلاج التحليلي قد بدأ يتراجع ويتداعى، وأني لأرى في ذلك، فيما لو صحّ، دليلاً على تواصل انتشار النظريات التحليلية وعلى ترايد عدد الأطباء الذين يمارسون التحليل النفسي في بعض البلدان. فيوم كنت طبيباً ناشئاً رأيت الدوائر الطبية تستقبل العلاج عن طريق الإيحاء التنويمية بعاصفة من السخط والاستنكار ماثلة لتلك التي يستقبل بها «العقلاء» اليوم التحليل النفسي. غير أن التنويم المغنطسي، كوسيلة علاجية، لم ينجز ما وعد به في البداية؛ وعلينا نحن أنصار التحليل النفسي أن نعتبر أنفسنا ورثته الشرعيين، فلا ننسى كل ما ندين له به من تشجيع وتفسير نظرية. والعواقب الضارة التي تعاب على التحليل النفسي ترتدّ في الواقع إلى تلك الظواهر العابرة التي تنشأ عن احتداد شدة الصراع في الحالات التي لا يدار فيها التحليل بحذق أو يوقف على نحو مباغت. أما وقد تأتّى لكم الآن أن تطلّعوا على الكيفية التي تنصرف بها إزاء المرضى، فبوسعكم أن تحكموا ما إذا كان من شأن جهودنا أن تسبّب لهم أذى دائماً. صحيح أن في التحليل متسعاً لضروب شتى من سوء الاستعمال، كما أن التحويل بوجه خاص يشكّل أداة خطيرة بين يدي طبيب عادم الذمة، لكن هل تعرفون وسيلة أو طريقة علاجية بمنجى من سوء الاستعمال؟ إن الموضع لا يكون أداة للشفاء إلا إذا كان يقطع.

سيداتي وسادتي، سأختم الآن. ومن دون أن أصطنع حيلة خطائية سأعترف لكم أسفاً بجميع العيوب وبجميع الثغرات التي تخللت محاضراتي التي استمعت إليها. ويؤسفني بوجه خاص أنني كثيراً ما وعدتكم عندما كنت أمسّ موضوعاً بعينه مساً رقيقاً بأن أعود إلى تناوله بالتفصيل، ثم لم أفِ بوعدي بحكم السياق الذي مضى فيه العرض. لقد أخذت على عاتقي أن أعزّفكم بمادة لا تزال قيد

التطور، لما تكتمل بعد؛ ومن شدة ما رغبت في تلخيصها جاء عرضي نفسه منقوصاً. وكثيراً ما حشدت المواد كلها بغية الخروج باستنتاج، ثم كنت أحجم عن استخلاصه بنفسي. على أنني لم أطمع في أن أجعل منكم اختصاصيين؛ وكل ما صبوت إليه أن أنير الطريق أمامكم وأن أحفز اهتمامكم.

12-07-2017

محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي

في الموسمين الجامعيين 1915 - 1917 ألقى فرويد سلسلة من ثمانية وعشرين محاضرة أرادها أن تكون مدخلاً إلى التحليل النفسي وعرضاً شاملاً لأطروحاته ولكشوفه كعلم نظري وتطبيقي معاً.

هذه المحاضرات، علاوة على شمولها، تتسم ببساطتها وسهولتها: فقد ألقى فرويد أكثرها ارتجالاً ابتغاء تعريف الجمهور الواسع بمبادئ التحليل النفسي وتقنيته.

وقد وزع فرويد محاضراته هذه إلى ثلاثة أقسام، بادئاً بعلم نفس الهضوات، ثم بعرض لنظرية الأحلام، قبل أن ينتهي إلى بيان مفصل للنظرية العامة للأمراض العصابية.

ودار مدارك ، إذ تقدم للقارئ العربي مؤلفات فرويد شبه الكاملة هذه في عدة أجزاء تصدر تباعاً، تحرص على التنويه بعملية المراجعة والتنقيح الشاملة التي اعتمدها المترجم قبل أن يعيد تقديم نصوص هذه المؤلفات التي أريت على الثلاثين عنواناً إلى القارئ العربي.



9 789948 223245



Madarek
Madarek Publishing House



مدارك
دار مدارك للنشر